

مقدمات في طقوس الكنيسة

٢/٢

الكنائس الشرقية وأوطانها

الجزء الثاني

كنيسة مصر

www.christianlib.com

الكتـــاب: الكنائس الشَّرقيَّة وأوطانها
الجزء الثَّاني: كنيسة مصر
The Eastern Churches and their Countries
Part II, *The Church of Egypt*
الكـــاتب: الرَّاهب القس أثناسيوس المقاري
(راهب من الكنيسة القبطيَّة)
المطبـــعة: دار نوبار ٦أ شارع مدرسة المعلّمين، شُبرا، القاهرة
الطَّبـــعة: الأولى، يناير ٢٠٠٧م
رقــم الإيــداع : ٢٠٤٧٩ / ٢٠٠٦
الترقيم الدولى : 977-17-3931-X

كافة حقوق الطّبع والنّشر محفوظة للمؤلّف

ثمن النُّسخة ٢٢ جنيهاً



قداسة البابا شنودة الثالث
بابا الإسكندرية و بطريرك الكرازة المرقسية

المحتويات

البَاب الثَّاني: ركائز كنسيَّة في كنيسة مصر

ملاحق الكتاب

مقدِّمة عامة

إن كثيراً من جلائل الأعمال والمؤلَّفات قد تعرَّضت لتلخيص أو لتبسيط، وراجت بفضل ذلك، ولكن يظل الأصل أصلاً لا غنى عنه. وكانت الصعوبة التي واجهتُها في الكتاب الذي أقدِّمه لمصر وكنيستها، هي أن أُجمِل تاريخ عشرات من القرون في بضع عشرات من الصَّفحات، فجاء كثيرٌ من فقراته تحكي كل منها حقبة زمنيَّة كاملة، ربما يحتاج بعضها إلى كتاب بأكمله. والرأي عندي أني قد أوجزتُ طول الزَّمن في غير خلل، وأمحتُ إلى مجمل التَّاريخِ في إيضاح.

إنني عندما أكتبُ للقارئ القبطي المبارَك عن كنيسته القبطيَّة، وعن موطنها الذي نشأت فيه، أي مصرنا الحبيبة، فلستُ أودُّ من وراء ذلك عرضاً مفصَّلاً للتَّاريخ، ولا شرحاً مسهباً لطقوس كنسيَّة، إذ احتلَّت الطُّقوس القبطيَّة الجانب الأوفر من السِّلسلتين الثَّالثة والرَّابعة من هذه الدِّراسات. ولكنني أبغي من هذا الكتاب، أن يتعرَّف القارئ القبطي على الوطن الذي يعيش فيه بالقدر الذي يجعله واعياً لما يدور حوله اليوم من أحداث، والتي هي نتاج محصِّلة حتميَّة لثوابت ترسَّخت عبر قرون طويلة. ويتعرَّف أيضاً على كنيسته القبطيَّة التي نشأت في هذا الوطن، وعبرت مسيرة حياتها بين كثير من الأجناس والشُّعوب التي تألَّبت على مصر واحداً بعد الآخر. ولكن ظلَّت مصريَّة مصر أقوي من أن يمسسها أذى، وبقيت كنيسة مصر الوطنيَّة منارة بين كنائس المسكونة.

الإنسان فكرةٌ، وما لا تستطيع الجبال أن تزحزحه في الإنسان، تقدر الفكرة أن تفعله فيه. وإن تطابقت هذه الفكرة مع الفكر الذي من الله تتحوَّل سيرة الإنسان إلى القداسة. فالشُّهداء الذين لم ترهبهم أهوال العذابات، والنَّار، والوحوش، والسَّيف، وسطوة الأباطرة، وهياج الرِّعاع وبطشهم، كانت تحركهم في ذلك فكرة ترسَّخت في قلوبهم، هي محبَّة المسيح التي انسكبت في قلوبهم، فهان إزاءها كل شئ حتى حياتهم نفسها. لذلك كان القدِّيس بولس الرَّسول محقاً كل الحق عندما قال بالرُّوح: «تغيَّروا عن شكلكم بتجديد أذهانكم» (رومية ١٢:٢)، إذ لا يمكن أن يتغيَّر الإنسان عن شكله وسلوكه وتصرفاته إلاَّ إذا تغيَّر ذهنه أولاً. والذِّهن لا يتغير إلاَّ بالشُّخوص متواتراً في كلمة الله.

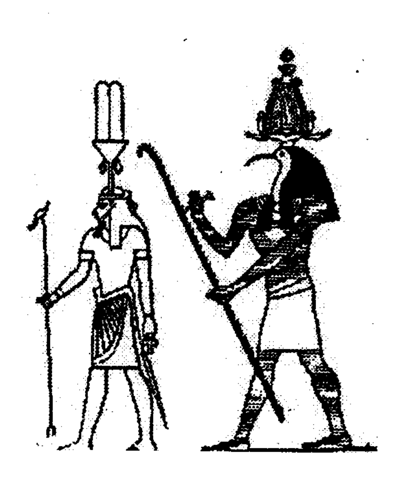
وهذا الكتاب الذي بين يديك، أردتُ به أن أجمع تاريخ مصر وكنيستها في صفحات قليلة، ربما لا تغني عن دراسات مستفيضة متخصِّصة، ولكنها صفحات تركِّز الضَّوء على حياة أمَّة منذ نشأتها حتى يومنا الحاضر في رؤية خاطفة تعرض الصُّورة في لقطة واحدة أو لقطتين، ليتبيَّن لنا ما آل إليه حاضرنا الذي هو أحدث صورة لماضينا، والذي هو بالتَّأكيد أساس لمستقبلنا. وعندما تتبلور الفكرة الإجماليَّة عن كنيستنا التي تسعى لأن تكمِّل جهادها في غربة هذا العالم، يكون الحُكم على الأحداث الحاضرة حكماً قد استوعب إلى حد مرضي دروس الماضي وعِبَر التَّاريخ.

وجدير بالذِّكر هنا أن هذا الكتاب الذي جاز في عُجالة على تاريخ مصر وكنيستها يكمِّله كتاب آخر بعنوان "الكنيسة - مبناها ومعناها". فهذان الكتابان معاً عن كنيسة مصر (٩٤٤ صفحة من القطع المتوسِّط) يضاهيان ثلاثة كتب أخرى من نفس هذه السِّلسِّلة الثَّانية عن باقي الكنائس الشَّرقيَّة الأخرى وأوطانها (٨٩٦ صفحة من القطع

المتوسِّط) وهي حوالي عشرون كنيسة.

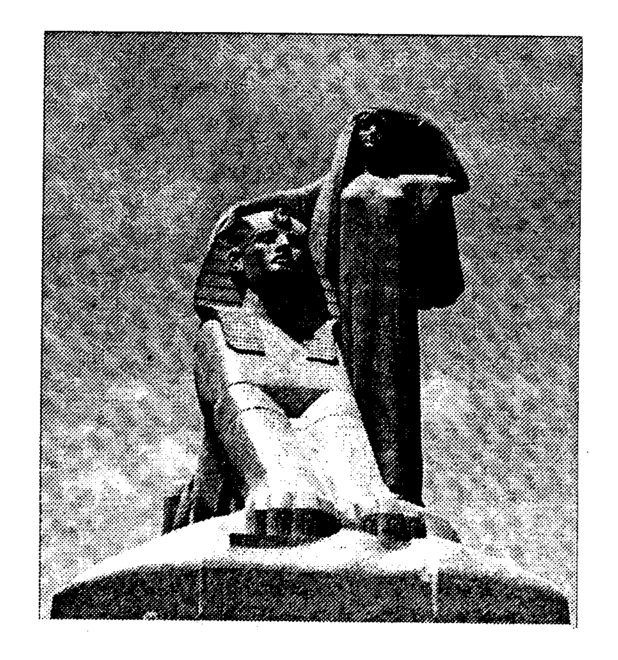
آملاً أن أسدي بذلك جانباً بسيطاً من دَين حب لمصر وكنيستها. ببركة شفاعة العذراء كل حين والدة الإله القدِّيسة الطّاهرة مريم، وكافة صفوف السَّمائيين والشُّهداء والقدِّيسين، وبركة صلوات أبينا الطوباوي المكرَّم قداسة البابا شنوده الثّالث، وسائر آبائي المطارنة والأساقفة والقمامصة والقسوس، وإخوتي الشَّمامسة، والرُّهبان. وكل طغمة العلمانيين المباركين.

ولله المجد والكرامة والتَّسبيح والسُّجود الآن وكل أوان وإلى آباد الدُّهور كلها. آمين.





لوح من الشست للملك نارمر "مينا"



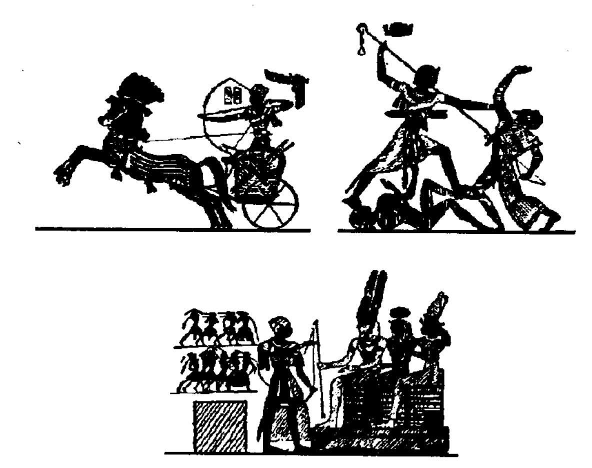
البَاب الأوَّل

قراءات في التَّاريخ



الفَصل الأوَّل

مصــــــر الفرعونيَّة



"إذا كنت وسط النَّاس فاصنع لنفسك حُباً، لأن الحُب هو بدء القلب ونهايته"
(إحدى البرديَّات المصريَّة).

تمهيد

على ضفاف نهر النِّيل أحدث أنهار العالم الكبرى تكويناً[١]، وأطولها على الإطلاق، نشأت حضارة من أعرق الحضارات المستقرَّة، هي الحضارة المصريَّة.

وللنيل مكانة عظمى عند قدماء المصريِّين، ومن أوصافه عندهم: "رب الرزق الوفير"، "والد الأرباب، وخالق الكائنات"، "المحيي". ولقد ساواه الفراعنة بأكبر أرباب الخلق والخصب من أمثال رع وبتاح وأوزوريس وآمون.

وفي برديَّة إغريقيَّة نقرأ: "أيها البحَّارة الذين تنزلقون على سطح المياه العميقة، وأنتم يا راكبو نهر النِّيل الذي يجري سعيداً فوق المياه المبتسمة، أخبرونا أيها الأصدقاء هل هناك وجه للمقارنة بين المحيط ونهر النِّيل المثمر؟". فحيثما النِّيل يجري، فهناك مصر.

---

١ - نخبة من العلماء، تاريخ الحضارة المصريَّة، العصر الفرعوني، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، القاهرة، بدون تاريخ، ص ٧

ويُرجَّح أن اسم مصر جاء من الكلمة العبريَّة ''مصرايم'' وهـــي في صيغة المثنى، أي ''المصْرَيْن'' إشارة إلى مصر العُليا ومصر السُّفلى[٢]. وفي رأي آخر للأستاذ الدكتور وسيم السِّيسي يرى أن اسم مصر هو اختصار للعبارة المصريَّة القديمة: ''ما (موضع) – سي (أبناء) – رع''. أي موضع أبناء رع (أعظم آلهة المصريين قاطبة).

أما عن أصل كلمة ''قبط''، فمصر عند الفراعنة هي أيضاً ''حوت كا بتاح – Hwt - Ka - Ptah'' أي ''بيت روح بتاح''. والإله ''بتاح[٣]'' هو معبود ''منف'' عاصمة مصر القديمة، ومن ثَمَّ أُطلق اسم ''حوت كا بتاح'' على كل القطر. ومن هذه التَّسمية أخذ اليونان الاسم الذي عُرفت به البلاد في اللغات الأوربيَّة حتى اليوم.

فكلمة ''جبط – γύπτ'' هي الشَّكل المختصر للكلمة اليونانيَّـــة Aι γύπτιος أي مصري Egyptian، بعد حذف البادئة Aι واللاحقـــة ιος تاركة الكلمة γύπτ . والتي أصبحت في اللُّغة العربيَّة ''قبط''، ومنها اسم الدَّولة Egypt في اللُّغة الإنجليزيَّة عند إبـــدال البادئـــة اليونانيَّـــة Aι بالحرف E في الإنجليزيَّة[٤]. فكلمة ''قبطي'' تعني ''مصري''. ولقد كان

٢- نجد في سفر التكوين (٦:١٠، ١٣؛ ٥٠:١١) أن مصرايم كان الابن الثاني لحـــام بن نوح. وكان المصريون القدماء حاميين أصلاً. ونجد في كل مـــن ســـفر حزقيـــال (١٤:٢٩، ١٤:٣٠) وسفر إرميا (١:٤٤، ١٥) ذكراً لمصر وفتروس، مما يـــرى معـــه البعض أن مصر هنا تُستخدم في الإشارة إلى مصر السُّفلى، وفتروس إلى مصر العُليا.

٣_ كان للمصريين القدماء آلهة كثيرة، من أهمها "بتاح" إله الشَّمس، "حابي" إلـــه النِّيل، "أوزوريس" إله العالم الآخر وقاضي الأموات، والإله "آمون". أما الإلـــه "را" الذي يكتبونه في العربيَّة "رع" فهو أعظم الآلهة وسيِّدها.

4_ O.H.E. Burmester, *The Egyptian or Coptic Church, A Detailed Description of her Liturgical Services and the Rites and Ceremonies*

العرب يلقبون مصر بـ "دار القبط". ولما كان سكان مصر من المسيحيين قبل قدوم الإسلام، فقد ارتبطت كلمة "قبط" بالمسيحيين، مع أنها لا تعني في الأصل إلاَّ "المصريين".

وفي اللُّغة القبطيَّة تُدعى مصر "كيمي - Kimy" أي "الأرض السَّوداء" نسبة إلى سواد تربتها الزراعيَّة التي تكوَّنت عبر آلاف السِّنين من طمي النِّيل.

وينتمي جميع المصريين إلى أصول جنسيَّة واحدة كوَّنت هذا الشَّعب الواحد على مر التَّاريخ. فإن أياً من الدِّينين الرَّئيسييَن في مصر "المسيحيَّة والإسلام" لا يرتبط بعرق محدَّد. وهو وضع تتميَّز به مصر وتنفرد به على غيرها من كثير من البلاد العربيَّة، لاسيَّما الهلال الخصيب، حيث تتعدَّد الأعراق هناك بتعدُّد الطوائف والمذاهب، بل وتعدُّد المواقع الجغرافيَّة، وذلك لأسباب تاريخيَّة وسلاليَّة أيضاً. فهناك السُّنَّة الذين يرون أنفسهم عرباً أقحاحاً، وهناك الأكراد والأرمن ومن هم من أصول كرديَّة أو أرمينيَّة. وهناك التُّركمان والسِّريان والكلدان والآشوريون والدُّروز والموارنة والشِّيعة ... الخ. وكل هذه الأوضاع لا تعرفها مصر.

فمصر التي قامت منذ أكثر من خمسة آلاف سنة - كما يذكر الأستاذ الدكتور حسين مؤنس - ما زالت هي بعينها اليوم، لم يتغيَّر فيها الدِّين طوال هذه الأحقاب إلاَّ مرَّتين، ولم تتغيَّر فيها اللُّغة إلاَّ مرَّتين أيضاً، في حين أن بريطانيا مثلاً والتي لا يرجع تاريخها إلى أبعد من ألفي سنة، تغيَّر الدِّين خلالها مرَّتين واللُّغة إلى أربع مرَّات على الأقل. وأسبانيا التي يرجع تاريخها إلى ألفين وخمسمائة سنة تغير الدِّين خلالها ثماني مرَّات،

Observed in the Administration of Her sarcaments, Publications de la société d'archéologie Copte. Textes et documents, X, Le Caire, 1967, p. 1.

واللُّغة ست مرَّات. وإيطاليا تعاقبت عليها أجناس كثيرة غيَّرت عنصر السُّكان تغييراً تاماً أكثر من مرَّة. أما الجنس المصري فلم يتغيَّر خلال هذه العصور الطَّويلة إلاَّ تغيُّرات طفيفة.

إن التغيُّرات التي لحقت النَّمط الجنسي في أي جزء من أوروبا خلال السَّنوات الخمسمائة الأخيرة كانت أكبر منها في مصر خلال خمسة آلاف سنة(٥). كما أن القوانين الصَّارمة في منح الجنسيَّة المصريَّة قد حفظت للدم المصري نقاوته حتى اليوم، وقد عبرنا إلى القرن الحادي والعشرين.

فالغالبيَّة السَّاحقة من المسلمين في مصر لم يكونوا غزاة، وإنما هم في الأصل أقباط تحوَّلوا إلى الإسلام تدريجياً. ولم يؤثِّر دخولهم في الإسلام في تكوينهم الجنسي. فالطَّابع الجنسي العام للمصريين قد وُجد، واتخذ صورته المميَّزة قبل أن يكون هناك أقباط ومسلمون.

ويقول الأستاذ فييت في مقالة عن القبط في دائرة المعارف الإسلامية: "قصارى القول، نقدِّر مع الأستاذ ماسينيون وجميع المستشرقين أن ٩٢% من سكان مصر هم من أصل قبطي(٦)".

ويقول الأستاذ العقَّاد: "من الحقائق الواضحة أن المسلمين والمسيحيِّين هم سواءٌ في تكوين السُّلالة القوميَّة. فلا فرق بين هؤلاء وهؤلاء في الأصالة والقدم عند الانتساب لهذه البلاد. فإذا كان بين المسلمين المصريِّين أناس وفدوا من بلاد العرب أو التُّرك، فبين المسيحيِّين المصريِّين كذلك أناس وفدوا من سورية واليونان والحبشة، ودانوا بمذهب

---

٥ ـ د. نعمات أحمد فؤاد، شخصية مصر، الهيئة المصريَّة العامة للكتاب، الطبعة الخامسة، القاهرة، ١٩٨٩م، ص ٢٥٠، ٢٥١

٦ ـ الأب الدكتور جورج شحاته قنواتي، المسيحية والحضارة العربيَّة، بيروت، بدون تاريخ، ص ٣٧

الكنيسة المصريَّة، أو بغيره من المذاهب المسيحيَّة. ويبقى العدد الأعظم بعد ذلك سلالة مصريَّة عريقة ترجع بآبائها وأجدادها إلى أقدم العهود قبل الميلاد المسيحي، وقبل بعثة موسى عليه السَّلام".

وعلى كلٍ فقد استطاعت مصر دائماً أن تدمج الوافدين فيها، وأن تسمهم بسماتها. وهي وإن كانت قد غيَّرت مظهرها الثَّقافي في اللُّغة والدِّين من عصر إلى عصر، فإنها قد استطاعت أن تحتفظ بطابعها الخاص في العادات والتَّقاليد ومعالم الحضارة الأخرى[٧].

يسكن البلاد ٩٩% من شعبها من المصريين، ١% من جنسيات أخرى. واللُّغة العربيَّة هي اللُّغة التي يتكلَّمها كل الشَّعب، وتمثل ٩٩% من نسبة المتكلِّمين بها. وهناك ١% لغات أخرى أهمها الإنجليزيَّة والفرنسيَّة. أما اللُّغة القبطيَّة فلم تعد بعد لغة تخاطب، وانحصر استخدامها في صلوات وطقوس العبادة الكنسيَّة.

ويدين حوالي ٨٨% من المصريِّين بالإسلام، ١٢% بالمسيحيَّة. وتخطَّى مجموع السُّكان ٧٢ مليون نسمة مع حلول سنة ٢٠٠٦م[٨]. ويتضاعف عدد السُّكان كل ٣٢ سنة تقريباً إذا استمر معدل النُّمو السُّكاني كما هو عليه اليوم، أي بنسبة ٢,١%. ويشغل السُّكان ٥% فقط من مساحة البلاد[٩] التي تزيد قليلاً عن مليون كيلومتر مربع. ويسكن المدن ٤٣%

٧- نخبة من العلماء، تاريخ الحضارة المصريَّة، العصر الفرعوني، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، القاهرة، بدون تاريخ، ص ١٨

٨- كان عدد سكان مصر في أيام الملك فاروق (١٩٣٦-١٩٥٢م) عشرين مليون نسمة. زادوا حوالي ٥٠ مليون آخرين في نصف قرن. في حين أن دوله مثل النرويج زاد شعبها مليون نسمة في خلال قرن من الزَّمان (١٩٠٥-٢٠٠٥م) فبلغ ٦ مليون نسمة.

٩- سترتفع نسبة المساحة المسكونة بعد اكتمال المشروعات العملاقة في جنوب مصر وشرقها، إلى ٢٥% وهي المشروعات التي بدأت منذ التسعينيات من القرن العشرين

من مجموع السُّكان، أما الباقي وهو نسبة ٥٧% فيعيشون في الريف.

ومع السَّنوات الأخيرة من القَرن العشرين، ظلّ قرابة نصف سكان مصر أميِّين لا يعرفون القراءة والكتابة!، وقد بدأت هذه النسبة في الانخفاض، حتى بلغت الأميَّة مع السَّنوات الأولى من القرن الحادي والعشرين إلى الثُّلث تقريباً، وهي مأساة بكل المقاييس، برغم أن البلاد تصرف حوالي ٥,٥% من دخلها القومي على التَّعليم، الذي هو عصب حياة أي أمَّة وأساس رُقيِّها. وإن جهوداً مضنية تُبذل اليوم في مصر لمحو الأميَّة في بلد عرفت الكتابة قبل سنة ٣٢٠٠ق م – والتي هي واحدة من أهم مظاهر الرُّقي الاجتماعي – قبل أن تعرفها اليونان بألفين وخمسمائة سنة، وقبل أن تعرفها روما وغرب أوروبا بأكثر من ذلك من السِّنين!.

مقوِّمات دراسة التَّاريخ القديم

لمصر أقدم تاريخ في العالم بلا نزاع. ويمتد تاريخ مصر الفرعونيَّة إلى قرابة أربعين قرنا قبل ميلاد السيِّد المسيح، إذ يرجع إلى سنة ٤٢٤١ قبل الميلاد. ولقد ظلّت دراسة الآثار مهملة يطويها النِّسيان حتى أوائل القرن التاسع عشر. وكانت الخطوة الأولى في ركاب حملة نابليون على مصر في أواخر القرن الثامن عشر، حين أحضر معه طائفة من العُلماء أنشأوا المجمع العلمي المصري Institut d'Egypte ، وكانت نتيجة أبحاث العُلماء الكتاب العلمي الضَّخم "وصف مصر – *Description de L'Egypte* " الذي نُشر في باريس أوائل القرن التَّاسع عشر. ويُعد ما جاء في هذا المؤلّف الكبير عن آثار مصر من وصف وشرح وتحليل، ومن رسوم وصور وخرائط، بداية الأعمال العلميَّة التي اشترك فيها أكبر حشد من نوعه من العُلماء

يهدف إلى دراسة مصر القديمة[١٠]. وهو أحد الدعامات التي قامت عليها الدِّراسات المصريَّة Egyptology .

وكانت الخطوة الثّانية هي العثور على حجر رشيد[١١]، وحل رموز اللُّغة المصريَّة القديمة التي اختفت بالقضاء على الوثنيَّة في القرن الرَّابع الميلادي. ويرجع الفضل الأكبر في الكشف عن أسرار وأصول الكتابة المصريَّة القديمة، وكذلك وضع البحث في اللُّغة الهيروغليفيَّة على أسس صحيحة إلى العالم الفرنسي جون فرنسوا شمبليون - Jean François Champollion (1790ـ 1832م).

ومهَّدت معرفة اللُّغة المصريَّة القديمة للخطوة الثّالثة وهي اهتمام الجامعات والمؤسَّسات العلميَّة بالآثار المصريَّة، مما أدى إلى ظهور عدد كبير من العُلماء خلال القرنين التاسع عشر والعشرين، أنفقوا جهوداً جبارة في التَّنقيب عن الآثار وقراءة النُّصوص ودراسة ما رأوه وسجَّلوه وكشفوه دراسة علميَّة استهدفت الكشف عن أصول التَّاريخ المصري القديم، ومقوِّمات الحضارة المصريَّة القديمة[١٢].

١٠ـ نخبة من العلماء، تاريخ الحضارة المصريَّة، العصر الفرعوني، مرجع سابق، ص ٨٤

١١ـ حجر رشيد هو كتلة من البازلت يبلغ طولها حوالي ١١٣ سم، وعرضها ٧٥,٥ سم، وسمكها ٢٧,٥ سم. وقد دُون على وجه الحجر الأملس نقش كُتب باللغتين المصريَّة القديمة واليونانية. أما اللُّغة المصريَّة القديمة فمكتوبة بخطين، الخط الهيروغليفي وهو الخط المقدس، والخط الديموطيقي وهو الخط الشعبي. وقد عثر عليه ضابط بسلاح المهندسين في حملة نابليون على مصر، يُدعى "بوشارد" في صيف سنة ١٧٩٩م، بالقرب من مصب فرع رشيد. وأُرسل إلى المجمع العلمي بالقاهرة، كما أمر نابليون بطبع عدة صور من النقش المسجل على الأثر ليُرسل إلى العلماء في مختلف بقاع أوروبا. ووصل الحجر إلى بريطانيا سنة ١٨٠٢م، ثم نُقل إلى المتحف البريطاني حيث يستقر الآن.

١٢ـ نخبة من العلماء، تاريخ الحضارة المصريَّة، مرجع سابق، ص ٨٦

ولعل أهم ما يستوقف النَّظر في دراسة تاريخ العالم القديم، أننا لا نكاد نجد أمَّة تأصَّلت فيها الدِّيانة وامتزجت بحياة أهلها امتزاجاً قوياً كالأمَّة المصريَّة، حتى لنرى الدِّين وكأنه الحافز الأكبر فيما نشأ بمصر القديمة من علوم وفنون اصطبغت به آدابها وفلسفتها[١٣]. وإذا أردنا أن نوجز مفهوم الاعتقاد الدِّيني في مصر القديمة فهو أن الموت بدء الحياة.

بداية التَّاريخ المصري القديم

لقد كنَّا إلى عهد قريب نبدأ التَّاريخ المصري بالملك مينا الذي حكم مصر سنة ٣٢٠٠ قبل الميلاد، بعد أن وحَّد قطريها. إلاَّ أن الدِّراسات الحديثة أثبتت أن مصر كانت مأهولة بالسُّكان منذ أوَّل عصور ما قبل التَّاريخ. وأن العصر الحجري القديم[١٤] ممثل فيها بأدواته الحجرية البدائيَّة. كما استقر النَّاس على شاطئ النِّيل في العصر الحجري الحديث. واستطاع العلماء إثبات قيام حضارة في هذا العصر في الدِّلتا أطلقوا عليها اسم "حضارة مرمدة بني سلامة[١٥]". كما أثبتوا قيام أكثر من حضارة في مصر العليا (الصَّعيد) تبدأ بالفيوم، ثم دير تاسا، ووادي الشَّيخ، والبداري،

---

١٣ ـ نخبة من العلماء (د. عبد الحميد سماحة)، تاريخ الحضارة المصريَّة، مرجع سابق، ص ٥٧٤

١٤ ـ تُقسّم حضارات عصر ما قبل التَّاريخ في مصر إلى أربعة أقسام:

- حضارات العصر الحجري القديم، وينتهي حوالي سنة ١٠,٠٠٠ سنة قبل الميلاد.
- حضارات العصر الحجري المتوسط، ١٠,٠٠٠ ـ ٨,٠٠٠ سنة قبل الميلاد.
- حضارات العصر الحجري الحديث، ٦,٠٠٠ ـ ٥٥٠٠ سنة قبل الميلاد.
- حضارات عصر ما قبل الأسرات، ٤٥٠٠ سنة قبل الميلاد.

١٥ ـ "مرمدة بني سلامة" تقع عند حافة الصحراء شمال غربي القاهرة. ومن العجيب أن سكان مرمدة بني سلامة كانوا يدفنون موتاهم ووجوههم متجهة نحو الشرق. على عكس طريقة دفن إنسان العصر الحجري الحديث الذي كان يُدفن وهو في وضع القرفصاء على جانبه الأيسر ورأسه نحو الجنوب، ووجهه نحو الغرب.

ثم نقادة الأولى، ونقادة الثّانية. والمعتقَد أن حضارة الدِّلتا كانت أكثر تقدُّماً ورقياً من حضارة الصَّعيد في عصر ما قبل الأسرات[١٦]. فأوَّل تقويم عرفه التَّاريخ نشأ في الدِّلتا في القرن الثّالث والأربعين قبل الميلاد. أي قبل قيام الأسرة الأولى بنحو ألف سنة. واستطاع المصري إبَّان هذه الفترات أن يتقدَّم بحضارته، وأتقن الكثير من صناعاته. أما النحاس فقد بُدء في استخدامه منذ حضارة البداري.

كما أثبتت هذه الدِّراسات أنه قد تم توحيد مصر قبل عصر مينا، وأن قيام الوحدة حدث على أيدي فئة من النَّاس أطلقوا على أنفسهم اسم "أتباع حورس". وأثبتت هذه الدِّراسات أيضاً أن التَّوحيد في مصر يرجع إلى سنة ٤٢٤٠ ق.م. وأن العاصمة كانت آنئذ "أون" (هليوبوليس القديمة مكان عين شمس الحاليَّة). فكان توحيد مصر في ذلك العصر البعيد من عمل أهل الدِّلتا الذين وصلوا في ذلك الوقت إلى درجة لا بأس بها من الرُّقي والتقدُّم. ثم انهارت هذه الوحدة بعد فترة. وانقسمت البلاد مرَّة ثانية وخضعت أقاليمها لحكومتين إحداها في الوجه القبلي بالقرب من إسنا الآن، والثانيَّة في الوجه البحري عند تل الفراعين الحاليَّة في غرب الدِّلتا.

ولم يُذكر اسم "مينا" على الآثار المصريَّة إلاّ منذ عهد الدَّولة الحديثة. إلاّ أن هناك ملكاً آخر هو "نعرمر" قد خلّف لنا آثاراً من عصره تتحدَّث عن توحيد القطرين. ومن أجل ذلك نطلق اسم "نعرمر مينا" على ذلك الملك الذي قام بتنفيذ الوحدة بين القطرين. ومنذ ذلك الوقت سارت مصر بخطى واسعة نحو التقدُّم.

ولقد ارتبط التَّاريخ لمصر الفرعونيَّة بتأريخ لفراعنتها، فكان المصريون

١٦ـ نخبة من العلماء، تاريخ الحضارة المصريَّة، مرجع سابق، ص ٧٠

يرون في ملكهم إلهاً يحكم البشر. لذلك لم يكن مستغرباً أن يدّعي الفرعون أنه الابن الشّرعي لإله الشّمس "رع" أعظم الآلهة طرا وسيدهم[١٧]، فتناءى بنفسه عن أن يكون واحداً من البشر[١٨]. فالملك إلهٌ بين النَّاس، وإنسان بين الآلهة[١٩]، وبصفته إلهاً فهو الدَّولة، وهو النقطة المركزيَّة التي تتجمع فيها كل الخيوط التي تهيمن على شؤون الحكم في البلاد. وكلمته هي القانون[٢٠]. وهو ممثل لكل الشّعب ورئيس الكهنة الأوحد أمام الآلهة، فهو الكاهن الأكبر لكل الآلهة، أما رئيس الكهنة في أي معبد فهو نائب عنه في خدمة الآلهة. وكل القرابين تُقدَّم في جميع المعابد باسم الملك. وكل الحكومة هي مجموعة كبرى من الموظفين يقومون على تنفيذ أوامر الملك، ويعملون بوحي من الملك الإله. وكل الأرض والمناجم هي مِلْك للملك، والقضاة يحكمون طبقاً لإرادة الملك. فالعدل الإلهي والحق الإلهي لا يستطيع تفسيره إلاّ الملك. أما الشّعب فيجيد هتاف "مات الملك - يحيا الملك"، فالملك هو الصَّانع لحياة شعبه، والذي لا غنى عنه لبقائها.

١٧ـ ظل إله الشمس "رع" أهم الآلهة المصريَّة طوال التَّاريخ المصري القديم حتى جاءت المسيحية لتبشر بالإله الحقيقي وابنه يسوع المسيح "شمس البر"، الذي به خلق السماء والأرض وكل ما فيها.

١٨ـ تحكي بردية تُسمى "بردية وستكار - Westkar Papyrus" كيف أن الملوك يولدون أبناء للإله "رع" وأن الآلهات هن اللائي ساعدن في ولادتهم وهيأن لهم التيجان. وصورت الملكة حتشبسوت على جدران معبدها البحري بالأقصر كيف أن أمها حملت من الإله آمون نفسه. فكان الدِّين وسيلة من وسائل إقناع الشّعب بقبول حكم شخص معيّن.

١٩ـ دائرة المعارف الكتابية، الجزء السادس، دار الثقافة، ١٩٩٧م، ص ٣٦. وهو أيضاً إله بين الآلهة. انظر: جون يويوت Jean Yoyotte، مصر الفرعونيَّة، ترجمة سعد زهران، مجموعة الألف كتاب، القاهرة، سنة ١٩٦٦، ص ٣٦

٢٠ـ نخبة من العلماء، تاريخ الحضارة، مرجع سابق، ص ١١٠، ١١١

هذه هي العلاقة التي قامت بين الملك وشعبه بطول الأزمان، وهي ميراث تأصَّل في حياة الشُّعوب، حتى ظلَّت الصُّورة على ما هي عليه وإن تباينت تفصيلاتها بين الحين والحين طبقاً لاختلاف الحضارات وحتميَّة التطوُّر التَّاريخي للشُّعوب.

ومنذ بداية التَّاريخ الفرعوني، ومن قبل بناة الأهرامات، أدرك المصريون أن الإنسان جسد وروح (كا)، وأن الإنسان حين يموت تنفصل الرُّوح (الكا) عن الجسد، فإذا استطاعوا حفظ الجسد بطريق التَّحنيط، ووضعه في مقبرة قويَّة محصَّنة، مع بعض التعاويذ لتحمي الميت في رحلته الثَّانية، فمن الممكن في مرحلة تالية أن يعود (الكا) إلى الجسد فيعود الإنسان إلى الحياة مرَّة أخرى. ومن هذه العقيدة التي ترسَّخت في وجدان المصريين القدماء نبتت كل مظاهر حضارتهم الدِّينيَّة العظيمة.

تقسيم العصر الفرعوني إلى ثلاثين أسرة

ظهر "مانيتون السَّمنودي[٢١]" المؤرِّخ المصري العظيم الذي عاش في بلاط الملك بطليموس الثاني (فيلادلفيوس)، وكان على جانب كبير من العلم والثقافة، ملماً إلماماً كبيراً باللُّغة المصريَّة القديمة، متمكناً من اللُّغة اليونانيَّة، متعمِّقاً في دراسة تاريخ بلاده القديم وعقائد الدِّيانة المصريَّة. وقد كتب هذا المؤرِّخ تاريخ مصر باليونانيَّة حوالي سنة ٢٨٠ق م، ولكنه فُقد ولم يصل إلى أيدينا منه سوى قائمة الأسرات وبعض الملاحظات السَّريعة. وينفرد تاريخ "مانيتون" بتوزيع فراعنة مصر على ثلاثين أسرة، وهو تقسيم لازال معمولاً به حتى اليوم، وهي الأسرات التي حكمت مصر

٢١ـ نسبة إلى مدينة سمنود الحالية، وكان اسمها في العصر الفرعوني "سبينيتوس"

بالتَّوالي منذ مينا وحتى فتح الإسكندر الأكبر للبلاد. وقد أيَّدت الدِّراسات الحديثة للآثار الكثير مما أورده في كتاباته.

الأسرتان الأولى والثَّانية

استقر ملوك الأسرتين الأولى والثَّانية في عاصمتهم الجنوبيَّة "ثينة[٢٢]" (وهي تقع عند البلدة المسماة عند اليونان "أبيدوس" وهي "العرَّابة المدفونة" الحالية بالقرب من بلدة البلينا، محافظة سوهاج)[٢٣]، واستمر حكمهم من سنة ٣٢٠٠ إلى سنة ٢٧٧٨ق م. إلاَّ أن الكفاح المرير الذي استمر بينهم وبين أهل الدِّلتا في الشَّمال تطلَّب إنشاء عاصمة جديدة لهم بالقرب من الدِّلتا، سمُّوها "القَلعة البيضاء" أو "الجدار الأبيض" عند رأس الدِّلتا مكان قرية "ميت رهينة" بمركز البَدرشين بمحافظة الجيزة. وعُرفت منذ الأسرة السَّادسة باسم "ممفيس" وحرَّفها العرب إلى "منف". وهي باكورة أعمال "مينا" أوَّل ملوك ثينة، وأوَّل الفراعنة في تاريخ مصر القديم.

ولما كان لكل عاصمة إله هو الإله الرَّئيسي للبلاد، فقد صار "بتاح" رب العاصمة هو الإله الخالق للعالم. والواقع أن كهنة منف الذين كانوا يؤمنون بالإله "رع" لم يغيروا في مذهب "بتاح" تغييراً شاملاً، بل غيَّروا ما اقتضته فقط ضروريَّات العبادة الجديدة. وقد احتل هذا الإله "بتاح" في كل عصور التَّاريخ مكانة مرموقة بين جماعة الآلهة تقرب من المكانة التي احتلها كل من الإلهين "رع"، "آمون".

٢٢ـ نشأ أمراء الأسرتين الأولى والثانية في "ثينة". لذلك يُطلق علي عصر الأسرتين الأولتين "العصر الثيني". أما "طيبة" فكانت عاصمة البلاد الجنوبية بدءا من الأسرتين الحادية عشرة والثانية عشرة.

٢٣ـ دكتور عبد المنعم عبد الحليم، حضارة مصر الفرعونيَّة، الجزء الأول، دار المعارف، ١٩٧٨م، ص ٤

وفي أواخر القرن التَّاسع عشر عثر الباحثون على مجموعة من الجبَّانات، بعضها كبيراً في أبيدوس ونقادة، وبعضها الآخر أكثر تواضعاً في سقارة ونزلة بدران وأبو روَّاش وحلوان، ترجع إلى عصر هاتين الأسرتين، أمدتنا بعدد وافر من القطع الأثريَّة. وتبين منها أن الملك غالباً ما يتَّخذ اسم تتويج يقترن باسم الإله "حورس". ومن هذه الآثار عرفنا أسماء خمسة عشر ملكاً من ملوك هاتين الأسرتين[٢٤]. وكان انتسابهم الطَّوطمي للإله حورس واتخاذ التَّاج والصولجان، وطقوس التَّتويج، وحفلات اليوبيل الدَّوريَّة، يزودهم بقوة سحريَّة لازمة لفرض نفوذهم على رعاياهم، وملكيَّة الأرض، والإبقاء على الكيان الاجتماعي للدَّولة كما أرادوا له أن يكون.

ويمكننا أن نقرر أن التَّقويم الزَّمني كان قد استقر تماماً في الأسرة الأولى. فقد تمكن المصريون من إحلال التَّقويم الشَّمسي محل التَّقويم القمري الذي اقتصرت قيمته فيما بعد على الجانب الدِّيني. وسوف نعود إلى هذه النقطة مرَّة أخرى فيما بعد عند الأسرة الخامسة.

عصر الدَّولة القديمة

تمتَّعت مصر بعد ذلك بعصر ذهبي، وهو "عصر الدَّولة القديمة" من الأسرة الثَّالثة إلى آخر الأسرة السَّادسة (٢٧٧٨ـ ٢٢٧٠م)[٢٥]. وبدءاً من هذا العصر تكشف مصر عن كامل شخصيتها. ويتميَّز هذا العصر عن العصور التالية له بأنه العصر الذي اتحدت فيه مصر ونهضت أمة واحدة مستكملة مقوِّمات مدنيتها بعناصر محليَّة بحتة. والتقدُّم الكبير في عمارة البناء والعلوم الهندسيَّة. ولم يكن للطقوس الدِّينيَّة والفنون التشكيليَّة

٢٤ـ جون يويوت، مصر الفرعونيَّة، مرجع سابق، ص ٢٨ـ ٣٠

٢٥- تتجه بعض الدِّراسات الحديثة إلى القول بأن الدَّولة القديمة تمتد من الأسرة الثَّالثة إلى آخر الأسرة الثامنة.

والعمارة المقدَّسة في الحياة الواقعية للمصري القديم مكان أقل مما للطب أو للزراعة أو للصناعة. ويُعرف هذا العصر باسم "عصر بناة الأهرام".

وأوَّل ملوك هذه الدَّولة هو "زوسر" مؤسِّس الأسرة الثَّالثة. والذي نقل عرش البلاد إلى "منف" (وهي ميت رهينة الحاليَّة في الطَّريق إلى سقارة)، وقد خلَّد اسمه بأوَّل بناء حجري ضخم شيَّده على هيئة هرم مدرَّج بسقارة، وألحق به معبداً جنائزياً هو أقدم معبد معروف لدينا[٢٦]، وآخر للاحتفال بالعيد الثلاثيني، وعدة أبنية أخرى، خلَّدت آثاره لمدة تزيد على أربعة قرون.

وكانت عبقريَّة المهندس العظيم "إيمحوتب" أو "بتاح حتب" وزير زوسر وكبير كهنة هليوبوليس وكاتم سر الملك لشؤون مصر السفلى وراء تلك الأعمال العظيمة. وقد عُبد فيما بعد كإله منحدر من صلب بتاح. فإلى جانب اختراعه لفن العمارة – أكثر اكتشافاته خطورة وأبعدها أثراً – كان يُعتبر خالق الحكمة المصريَّة بتعاليمه الأخلاقيَّة ومصنفاته في الطب والفلك، وأعماله التي جدَّدت المعرفة العلميَّة[٢٧].

وكانت كتب الحِكَم والنَّصائح من أحب الأشياء إلى قلوب المصريين في جميع أدوار تاريخهم، يكتبها الحُكماء في أغلب الحالات على لسان أب ينصح ابنه، ويرشده إلى حسن السُّلوك لكي يصل إلى أعلى المراتب. ولدينا من هذا النوع عدة برديَّات أشهرها جميعاً البرديَّة المسماه "نصائح بتاح حتب" والذي عاش سنة ٢٣٨٠ ق م. وله قبر معروف في جبانة سقارة. فهو يقول مثلاً:

٢٦ـ نخبة من العلماء (د. سليم حسن)، تاريخ الحضارة المصريَّة، مرجع سابق، ص ٢٤٦

٢٧ـ جون يويوت، مصر الفرعونيَّة، مرجع سابق، ص ٣٤، ٣٥

"لا يداخلك الغرور بسبب علمك، ولا تتعال لأنك رجل عالم. استشر الجاهل كما تستشير العالم لأنه ما من أحد يستطيع الوصول إلى حدود الفن، ولا يوجد الفنان الذي بلغ الكمال في إجادته. إن الحديث الممتع أشد ندرة من الحجر الأخضر اللون، ومع ذلك فربما تجده لدى الإماء اللائي يجلسن إلى الرَّحى".

"احن ظهرك لمن هو أعلى منك، لرئيسك في العمل وسيعمِّر بيتك بخيراته، وتنال مكافأتك في موعدها المقدَّر لها. ما أتعس الذي يناصب رئيسه العداء، فإن المرء يحيا فقط طالما كان (الرَّئيس) راضياً".

"إذا أردت أن يحسن خلقك وتصون نفسك من كل سوء فاحذر من الطَّمع، فهو مرض عضال لا دواء له، ولا يمكن لإنسان أن يطمئن إلى وجوده معه، فهو يحيل الصَّديق حلو المودَّة إلى عدو مرير، ويبعد الخادم الموثوق به عن سيِّده، ويفصل ما بين الآباء والأمهات، وبين الإخوة الذين ولدتهم أم واحدة، ويفرق بين الزَّوجة وزوجها. إنه حزمة جمعت كل أنواع الشُّرور، وجعبة مُلئت بكل شئ مقيت. ما أطول حياة الإنسان إذا كان خُلُقه متحلياً بالاستقامة، فإن من يلتزم جادتها يكون لنفسه ثروة، أما الشَّخص الجشع فلن يكون له قبر[٢٨]"... الخ.

ويقول إريك بيت T. Eric Peet أستاذ المصريَّات بجامعة ليفربول: "إن الرسوم البارزة في الألواح الخشبيَّة المأخوذة من قبر "هيس" في الأسرة الثَّالثة تُعد من أكمل الأعمال الفنيَّة في العالم. فهي تفسح لمن يراها

٢٨ـ د. أحمد فخري، تاريخ الحضارة المصريَّة، مرجع سابق، ص ٤٣٣ـ ٤٣٦

آفاقاً من الإيحاء لا حد لها. وليس ذلك راجعاً إلى كمال الشَّكل، بل إن هذه الآفاق تجنح إلى الاختفاء إذا بلغت هذا الحد من كمال الشَّكل(٢٩)".

كان حكم الملك سنفرو الذي امتد طويلاً ومن بعده ملوك الأسرة الرابعة هو فاتحة عصر الأهرامات الضَّخمة الشَّامخة، والتي يُعتبر أحدها وهو هرم الجيزة الأكبر (هرم خوفو)، العجيبة الوحيدة الباقية من عجائب الدُّنيا السبع(٣٠)، ضمن الآثار الكثيرة التي توجد في مصر، والتي بلغت

٢٩ـ د. نعمات أحمد فؤاد، شخصية مصر، ص ١١٧. وهذا الكلام يهمنا في دراسة فن الأيقونات القبطيَّة، وهو الفن الذي لم ينفصل قط عن أصوله الفرعونيَّة.

٣٠ـ هناك جوانب علمية حديثة اكتُشفت عن فن بناء الهرم الأكبر، ويقول الدكتور زكي حواس أستاذ العمارة بهندسة عين شمس: إن الهرم الأكبر لم يُبن كمدفن للملك، والدليل عدم وجود نقوش الموت كما في جميع غرف الدفن الأخرى، ومقابر الملوك، بل كان تلسكوباً فضائياً خُصص للبحث العلمي، فليس من المعقول أن تخصص دولة ٢٠ سنة من عمرها وتضع كل ميزانيتها لبناء مدفن. فقد بُني الهرم الأكبر عند تلاقي خط عرض ٣٠ مع خط طول ٣٠، وضُبطت زواياه بدقة بالغة مع الاتجاهات المغناطيسية لتسهيل دراسة الفضاء. وقد قام علماء أحد معاهد البحوث في السويد بعمل نموذج مصغَّر ومجوف للهرم تتفق أبعاده ومقاساته مع مثيلتها في الهرم الأكبر، مع توجيه محاور أضلاعه إلى الاتجاه المغناطيسي الذي يخضع له توقيع الهرم الأكبر، ثم قاموا بعمل مجموعة من التجارب للتعرف على مدى تأثير الشكل الهرمي على ما يوضع بداخله من مواد أو كائنات، فأعطت التجارب نتائج مدهشة ومذهلة، فقد جفت بعض الحشرات الحية التي وُضعت بداخله، وتصبَّرت وخضعت لعملية مماثلة للتحنيط. ولم تتعرض الفاكهة التي وُضعت بداخله للتعفن، بل تم تجفيفها تماماً. ووضعوا أكواب اللبن فوجدوا أنه قد تماسك بعد وقت قصير ولم يتحلل، فاكتشفوا في جميع الحالات انعدام وجود البكتريا. ومن أغرب المحاولات التجريبية التي قام بها واحد من العلماء الألمان أن وضع أمواس الحلاقة المستعملة داخل نموذج مماثل للهرم مع مراعاة وضع الشفرات في اتجاه المجال المغناطيسي، فاكتشف أن الشفرات قد عادت إلى حدتها الأصلية بعد يوم واحد. وما زالت أبحاث الشكل الهرمي تكشف كل يوم عن أسرار تكنولوجية في مختلف علوم المعرفة يخفيها كهنة علماء الفراعنة تحت اسم السحر في حين أنها تعبِّر عن العلم والتكنولوجيا. (الأهرام في ٩ يوليو ١٩٩٩م، ص ٢٩).

ثلث آثار العالم. ومن العجيب حقاً أن خوفو الذي خلّد اسمه بهرمه الكبير، كان عهده قصيراً غامضاً، لا نعرف عنه الكثير.

ومنذ عهد قريب جداً كشفت أعمال الحفر معبداً جديداً فريداً في بابه، وهو معبد أبو الهول الذي يمثّل إله الشَّمس "رع". وقد أقامه الملك "خفرع" بجوار معبد الوادي الذي أقامه هذا الملك لنفسه. ولا نزاع في أن معبد أبو الهول هو أقدم معبد لإله عُرف لنا حتى الآن[٣١]، وموقع هذا المعبد في مواجهة أبو الهول مباشرة[٣٢]. وتدل واجهته على أنه بني على غرار معبد "خفرع"، **والمعبدان يواجهان الشَّرق**. وحجم بعض أحجار معبد أبي الهول ضخم جداً قد يربو أحياناً على ثلاثة أضعاف حجم القطع التي بُني بها الهرم الأكبر. وهي مهارة في البناء أبهرت العالم كله.

وبلغت مصر خلال الفترة التي امتدت من حكم سنفرو مؤسِّس الأسرة الرَّابعة إلى منتصف الأسرة السَّادسة، أولى قممها الحضاريَّة.

وقامت الأسرة الخامسة على أساس ديني جديد كان سبباً في تغيير واضح لديانة مصر القديمة، إذ جعل من "رع" معبوداً للدَّولة[٣٣]. وحتى بعد أن سقطت الدَّولة القديمة وتفكّكت البلاد إلى مقاطعات تعبد كل

٣١- د. سليم حسن، وآخرون، تاريخ الحضارة المصريَّة، ص ٢٤٦

٣٢_ تمثال أبو الهول، رمز صمود مصر، ودلالة قوة الصمت، وفن انجماع العقل والقوَّة. كتب عنه المقريزي في خططه أن شيخاً يُدعى صائم الدَّهر قام بتحطيم أنفه باعتباره صنماً! وقد تم تكسير تمثال سرِّية أبو الهول (أي زوجته)، لبناء مسجد بحجارتها كما يذكر المقريزي. وليس صحيحاً أن مدافع نابليون هي التي كسرت أنف أبو الهول، فهي الحملة التي كشفت كنوز مصر الثقافية والأثرية. (وطني في ١١ مارس ٢٠٠١م، ص ٨).

٣٣_ كان مؤسس هذه الأسرة هو "أوسر كاف" من كهنة عين شمس، و لم يكن من فرع ملكي. وقد استولى على العرش بواسطة زوجته خنتكاوس ابنة "منقرع".

منها إلهها المحلي ظل "رع" يحتل مكاناً رفيعاً في قلوب المصريين حتى اضطر كهنة الآلهة الأخرى حفاظاً على مكانتهم أن يزعموا أن آلهتهم جميعاً ما هي إلاَّ صور متعدِّدة للإله رع، فلقب كهنة الإله حورس باسم حورس رع، وكذلك فعل كهنة آمون حيث لقبوا إلههم باسم "آمون رع"، وهكذا.

بيد أن ثمة إلهاً آخر ظل يضارع الإله رع في مكانته لدي المصريين وهو "أوزوريس". ولئن كان ارتفاع شأن رع قد نجم عن نفوذ كهنة عين شمس، فقد كان ارتفاع شأن أوزوريس ناجماً عن حب المصريين له وتعلقهم بشخصيَّته التي استهوت نفوسهم بما اتصفت به من فضيلة ووداعة وإخلاص كما صورتها الأسطورة التي كانوا يتداولونها عنه، وقد اتخذ فيها صورة إله الخير الذي انتصر على أخيه "ست" إله الشَّر. ومن ثم اعتبروه مثلهم الأعلى. وكان للإله أوزوريس معبد في العرَّابة المدفونة.

ومنذ عصر الأسرة الخامسة اتجه المصريون إلى تسجيل أخبار الملوك في قوائم مترابطة تُقام في المعابد والمقابر. وتضم أسماءهم وسنوات حكمهم وأهم أعمالهم. كما دوَّن المصري القديم التَّقاليد والشَّعائر الدِّينيَّة التي ورثها عن أجداده في عصر ما قبل التَّاريخ، كبديهيَّات لا تحتاج منه إلى شرح أو تعقيب. وأقدم مصدر يُعتمد عليه في هذا الصَّدد هو النقوش المدوَّنة على جدران حجر الدَّفن لملوك الأسرة الخامسة من فراعنة مصر، وهي النقوش المعروفة الآن باسم "متون الأهرام"، وهي أقدم نصوص دينيَّة وصلت إلينا كاملة في تاريخ العالم أجمع(٣٤).

وأخذت مصر تفقد قوَّتها منذ الأسرة الخامسة، ولم يعد للملك الإله

٣٤ـ نخبة من العلماء (د. سليم حسن)، تاريخ الحضارة المصريَّة، مرجع سابق، ص ٢٠٦

ما كان له من سلطة مطلقة، كما كان تطور العقيدة الدِّينيَّة وزيادة شأن عبادة "أوزوريس[٣٥]" من الأمور التي ساعدت على ذلك.

وعاصرت الأسرة السَّادسة أحداثاً جساماً كادت تهدم كيان الأمـة، ويُرجع المؤرخون أسباب انهيار هذه الأسرة إلى ضعف السُّلطة المركزيَّـة. وكان "بيبي الثَّاني" قد ارتقى العرش في سن مبكِّرة وظل يحكم البلاد ٩٤ سنة، وهي أطول فترة حكمها ملك في تاريخ العالم، فكانت شـيخوخته حافزاً لحكام الأقاليم إلى التَّمادي في الاستقلال بشؤون أقاليمهم. فساءت الأحوال في البلاد، وتعرضت الدِّلتا لعبث قبائل البدو.

وتدل البيانات التي نُقشت علـى أهرامـات الأسـرتين الخامسـة والسَّادسة على أن تقويم الـ ٣٦٥ يوماً كان متبعاً في ذلك الحين. فقـد استخدم المصريون القدماء في تقدير طول السَّنة النَّجميَّة، الظَّاهرة الفلكيَّة التي تُعرف الآن بالشُّروق الاحتراقي لنجم الشّعرى اليمانيَّة وهي رؤية هذا النَّجم قبيل شروق الشَّمس، وكانت هذه الظَّاهرة تقع وقت فيضان النِّيل. وهي الظَّاهرة التي تحدث قبيل شروق شمس اليوم الأوَّل من السَّنة القبطيَّة.

وكانوا يعلمون أن هذه الفترة تمتد إلى ٣٦٥,٢٥ يومـاً، ولـذلك اعتمدوا في ضبط التَّقويم على رصد هذه الظَّاهرة. ولما كان الفرق بـين طول السَّنة النَّجميَّة وسنتهم المدنيَّة يتكامل حتى يصير سنة كاملـة كـل ١٤٦٠ سنة، وأن هذه الظَّاهرة قد رُصدت سنة ١٣٩بعد الميلاد، نستنتج أنهم رصدوها قبل ذلك في سـني ١٣٢١، ٢٧٨١، ٤٢٤١، ٥٧٠١ قبـل الميلاد. وبما أن أهرامات الأسرتين الخامسة والسادسة كانت موجودة في

٣٥ـ كان الثالوث الفرعوني "أوزوريس (الأب)، إيزيس (الأم)، حورس (الابـن)" أهم ثالوث عبده المصريون القدماء.

سنة ٢٧٨١ق م، نتأكَّد أن هذا التَّقويم كان مستعملاً منذ ذلك الحين أو قبل ذلك بدورة، أي سنة ٤٢٤١ق م، أو بدورتين أي في سنة ٥٧٠١ق م. وقد أطلقوا على الشُّهور أسماء آلهتهم، ويقيمون الاحتفالات كل شهر باسم المعبود الذي يُسمى الشَّهر باسمه[٣٦]. وهكذا عنى المصريون القدماء بدراسة حركة الشَّمس الظاهريَّة وسط النجوم الثابتة منذ أقدم عصور التَّاريخ. وليس في ذلك من الغرابة إذ أن الشَّمس كانت من أهم معبوداتهم.

وهكذا نجد أن قدماء المصريين قد استخدموا تقويماً فلكياً محكماً منذ أقدم العصور وابتكروا السَّنة المدنية، مما جنَّب تقويمهم أهواء الملوك والحكَّام. بينما نجد أن معاصريهم من الرُّومانيين واليونانيين والآشوريين كانوا لازالوا يتخبَّطون في محاولات فاشلة لربط أوائل الشُّهور القمريَّة بأوائل الشُّهور المدنيَّة.

وقسَّم المصريون القدماء السَّنة إلى **ثلاثة فصول فقط وليس أربعة**، وهي الفيضان والزَّرع والحصاد، وهو التَّقسيم الذي يتَّفق مع أحوال النِّيل السَّنويَّة من فيضان فزراعة فجني إلمحصول. بل إن الموسيقى الفرعونيَّة القديمة تتَّفق مع هذا التَّقليد الثُّلاثي، فالقيثارة الفرعونيَّة لها ثلاثة أوتار لتعطي ثلاث نغمات تحاكي ثلاثة فصول السَّنة كما يذكر ديودور الصَّقلي.

٣٦ـ توت، إله الحكمة ـ بابة، إله الزراعة ـ هاتور، إله الجمال ـ كيهك، إله الخير أو الثور المقدس ـ طوبة، إله المطر ـ أمشير، لم توضّح الكتابات القديمة سبب تسميته ـ برمهات، إله الحرارة ـ برمودة، إله الموتى ـ بشنس، إله الظلام (لاعتقادهم أنه يساعد على إزالة الظلام، ولهذا نجد أن النهار في شهره أطول من الليل) ـ بؤونة، إله المعادن ـ أبيب، أي فرح السماء ـ مسرى، أي ابن الشمس. أما الخمسة أيام الباقية من السنة فقد سميت (كوجي أتافوت) أي الشهر الصغير.

العصر الوسيط الأوّل (عصر الاضمحلال الأوّل)

وهو يشمل الأسرات من السّابعة إلى العاشرة ويمتد خلال الفترة (٢٢٧٠- ٢١٦٠ق م)، وهي أسرات ضعيفة باستثناء بعض فترات من القوّة. وكان عصر الاضمحلال الأوّل قد بدأ بالأسرة الثامنة. وامتد إلى آخر الأسرة العاشرة.

في هذا العصر انفلت زمام الحكم من يد فرعون، وساد الانحلال السّياسي والتّفكّك الاجتماعي، فانتشرت الفوضى واختل الأمن، وشبّت نيران الحروب الأهليّة. ومعلوماتنا عن هذا العصر المضطرب قليلة محدودة. وكان مقر ملوك الأسرتين السّابعة والثّامنة مدينة "منف" عاصمة الدّولة القديمة. وبلغ عدد ملوك هاتين الأسرتين ٨٥ ملكاً[٣٧]. وخلال تلك الفوضى ظهرت بـ "أهناسيا المدينة/ محافظة بني سويف" أسرة قويّة بزعامة أمير يُدعى "خيتي" اغتصبت العرش من الأسرة الثّامنة الضعيفة. وظلت "أهناسيا" مقراً لعرش الأسرتين التاسعة والعاشرة. ونشأت الحرب بين أهناسيا وطيبة، وانتهت بانتصار الطيبيين حين تمكن "منتوحتب الثّاني" أحد ملوك الأسرة الحادية عشر من إسقاط عرش أهناسيا.

عصر الدّولة الوسطى

وهو يبدأ بالأسرة الحادية عشر[٣٨]، وينتهي بالأسرة الثّالثة عشر (٢١٦٠- ١٧١٠ق.م). وهو العصر الذّهبي الثّاني. إذ ساعدت المحنة التي خاضها المصري إبان فترة الاضمحلال الأولى على نضج عقله. ولم تصل مصر إلى وحدها الكاملة في عصر الأسرة الحادية عشر إلاّ في عهد

٣٧ـ دكتور عبد المنعم عبد الحليم، مرجع سابق، ص ٦.

٣٨ـ حمل ملوك الأسرة الحادية عشر وعددهم ثمانية أحد اسمين هما: "أنيوتف"، أو "منتوحتب".

"منتوحتب الثَّاني" سادس أمرائها.

في هذا الزَّمن عاش إبراهيم أبو الآباء[٣٩]، حيث عاش في أوائل الألف الثَّانية قبل الميلاد (٢٠٠٠- ١٨٠٠ق م)، فعاصر ملوك الدَّولة الوسطى، وعلى الأرجح ملوك الأسرة الثَّانية عشر (١٩٩١- ١٧٨٦ق م). أي كان معاصراً لأحد الملوك الذين كانوا يُدعون باسم "أمنمحات" (من الأوَّل إلى الرَّابع)[٤٠]، أو باسم "سنوسرت" وقد أطلق الإغريق والرُّومان اسم "سيزوستريس" على أحد الملوك الذين يحملون اسم "سنوسرت" ويغلب أنه سنوسرت الثَّالث[٤١].

وفي عهد الدَّولة الوسطى احتل "آمون" المكانة الأولى في الدِّيانة الرَّسميَّة للبلاد. ولسنا نعرف الأحوال التيّ من أجلها نُقلت عبادته إلى طيبة، ولكن الأمر الذي لا شك فيه أنه كان له معبد في إقليم طيبة في أوائل عصر الدَّولة الوسطى.

وكان الكهنة يرتِّلون في معابدهم أناشيد كثيرة لآمون، ونورد هنا جانباً بسيطاً من النَّشيد الكبير له:

"الحمد لك يا آمون رع، يارب الكرنك ... أعظم من في السَّماء، وأكبر من في الأرض، رب كل ما هو كائن، الذي يستقر في كل شئ. لا شبيه له في طبيعته بين الآلهة ... رب الحق، أب الآلهة، الذي برأ الإنسان وخلق الحيوان ... صاحب الأمر الذي خلق الأرض كلها ... ذو الإرادة القويَّة، وصاحب الطَّلعة العظيمة، من كثرت لديه الأقوات، ويخلق ما يعيش عليه

٣٩_ انظر: تكوين ١٢:١٥_ ٢٠

٤٠ _ دائرة المعارف الكتابية، الجزء السادس، مرجع سابق، ص ٣٨

٤١ _ دكتور عبد المنعم عبد الحليم، مرجع سابق، ص ٨

النَّاس. الابتهال لك يا من خلقت الآلهة، ورفعت السَّماء وبسطت الأرض[٤٢]".

وفي عصر الأسرة الثَّانية عشر انتقلت العاصمة من "طيبة" إلى موقع بالقرب من منطقة الفيوم يُسمى "الليشت". ويُعد الملك "أمنمحات الأوَّل" أهم ملوك هذه الأسرة، أما حفيده "سنوسرت الثَّالث" فقد أصبح المثل الأعلى للفاتح المصري[٤٣]. وبلغت الدَّولة الوسطى أوجها في أثناء حكم الملكين أمنمحات الأوَّل وسنوسرت الثَّالث.

أما خليفته "أمنمحات الثَّالث" فقد طالت به أيام الحكم إلى أكثر من خمسين عاماً مما أضعف سلطة العرش، كما خلفه ملوك ضعاف تلاشى على أيديهم نفوذ فرعون تماماً. وبانتهاء الأسرة الثَّانية عشر دبَّت عوامل الاضمحلال والضَّعف في مصر مرَّة أخرى.

وبينما توجد أغلبيَّة آثار الأسرة الحادية عشر في إقليم طيبة، نجد أن آثار الأسرة الثَّانية عشر منتشرة في جميع مراكز الوادي، ولا نفتقدها حتى في الدِّلتا. أما الوثائق الأثريَّة للأسرة الثَّالثة عشر فهي نادرة[٤٤].

إن الكتابات التذكاريَّة في تلك الفترة هي كتابات جيدة دُوِّنت بلغة الدَّولة الوسطى ذات الأسلوب الرَّائع. أما التَّجديد الحقيقي للأدب فكان مرتبطاً بجعل لغة الحديث هي لغة الكتابة الرَّسميَّة. والتي صارت ذات قواعد لغويَّة أكثر تنوعاً وسلاسة. ومن ثمَّ كانت أكثر قدرة على التعبير عن ضرورات الحياة وتنوعها.

---

٤٢ ـ نخبة من العلماء (د. أحمد فخري)، تاريخ الحضارة المصريَّة، مرجع سابق، ص ٤١٦

٤٣ ـ جون يويوت، مصر الفرعونيَّة، مرجع سابق، ص ٧٩

٤٤ ـ نفس المرجع، ص ٧٧

العصر الوسيط الثَّاني (عصر الاضمحلال الثَّاني)

بانتهاء عهد الدَّولة الوُسطي حوالي سنة ١٧٨٥ق م، دخلت مصر الفترة الانتقاليَّة الثَّانية التي تمتد من الأسرة الثَّالثة عشر حتى الأسرة السَّابعة عشر، خلال ما يقرب من قرنين (١٧٨٥- ١٥٨٠ق م). ومعلوماتنا عن هذه الفترة التَّاريخيَّة أقل من معلوماتنا عن أية فترة تاريخيَّة أخرى. وهو عصر من عصور الفوضى حيث تعدَّدت المؤامرات واندلعت الثورات، وتتابعت الحروب الأهليَّة، فتسرب الفساد إلى كل مرافق الحياة.

وكانت النتيجة أن هاجمت البلاد جحافل الهكسوس الذين استقروا في مصر (١٧١٠- ١٥٦٠ق.م)، وكوَّنوا في التَّاريخ المصري الأسرتين الخامسة عشر والسَّادسة عشر، وجانباً من الأسرة السَّابعة عشر، فيما يتجاوز قرناً ونصف القرن من الزَّمان. وقد عاصر يوسف[٤٥] الأسرة الثَّالثة عشر أو أوائل عصر الهكسوس في الأسرة الخامسة عشر، ويذكر المؤرِّخ اليوناني سنكلوس Syncillous أنه يُرجح أن يكون "أبوفيس" هو أحد ملوك الهكسوس الذي عيَّن يوسف وزيراً للبلاد[٤٦].

والهكسوس قوم جاءوا من الشَّرق واستقروا بأغلب الدِّلتا تاركين الجزء الغربي منها لأسرة مصريَّة تحكمه، كما أنهم لم يستطيعوا أن يحتلوا الصَّعيد كله. ولم تعرف مصر قبل احتلال الهكسوس مرارة الخضوع لحكم أجنبي.

وهكذا استقر هؤلاء الغزاة بمصر يحكمونها من عاصمتهم في شرق الدِّلتا. ويبدو أن الهكسوس قد حفظوا للإله "آمون" مكانته بوصفه إله الدَّولة التي فقدها بغزوهم لها، ولكنهم أحلوا محله الإله الذي وجدوه في

٤٥ـ انظر: تكوين ص ٣٧ـ ٥٠

٤٦ـ دائرة المعارف الكتابية، الجزء السادس، مرجع سابق، ص ٣٨

المكان الذي حطّوا فيه رحالهم وهو الإله "ست" الذي كان يُعبد في الشَّمال الشَّرقي للدِّلتا. ويورد مانيتون وصفاً أصيلاً لا يُنازع لما ارتكبه هؤلاء الرُّحَّل القساة من جرائم بشعة أثناء الفتح، وما خلّفه من آثار لا تُمحى في نفوس المصريين(٤٧). فكان عصرهم عصراً مُظلماً، كله ظلم وقسوة وتعسف وإذلال. وكان الدَّرس الذي تعلمته مصر من احتلال الهكسوس درساً قاسياً مراً، أنهض فيها من جديد روح الوطنيَّة التي خبت.

عصر الدَّولة الحديثة

ويشمل الأسرات من الثّامنة عشرة إلى العشرين (١٥٦٠-١١٠٠ق.م)، ويتوافر لدينا من المصادر عن هذه الفترة من التَّاريخ الفرعوني ما لم يتوافر عن غيرها. فقد نجح "أحمس" أوَّل ملوك هذا العصر في إجلاء الهكسوس عن مصر ومطاردهم إلى فلسطين، ولم يرجع حتى شتَّت شملهم، فلم تقم لهم قائمة من بعد. وكان لطرد الهكسوس رنّة فرح عظيمة في كل البلاد. وبدأت بعصر أحمس نهضة جديدة استمرت طوال عهد الدَّولة الحديثة. وأعاد "أحمس" حدود مصر إلى ما كانت عليه في الدَّولة الوسطى. وكوَّن جيشاً وطنياً قوياً، وتكوَّنت منذ ذلك الوقت ما عُرف باسم "الإمبراطوريَّة المصريَّة". والتي كانت تشكّل في الحقيقة وحدة أفريقيَّة آسيوية تتزعمها مصر وتضم شمال السودان وفلسطين وسوريا.

وأصبح "آمون" إلهاً عالمياً، وازداد سلطانه وشهرته بدرجة هائلة، إذ قد نُسب إليه انتصار المصريين وتحرير بلادهم من الغاصب المعتدي(٤٨). ولم يمض وقت طويل حتى أصبح الكاهن الأكبر لآمون أعظم شخصيَّة في

٤٧ـ جون يويوت، مصر الفرعونيَّة، ص ١٠١

٤٨ـ نخبة من العلماء (د. سليم حسن)، تاريخ الحضارة المصريَّة، ص ٢٤٢

الدَّولة بعد الملك، إذ لم يكن نفوذه مقصوراً على أمور الدِّين فحسب، بل امتد إلى أمور البلاد السياسيَّة، إلى أن استطاع كبيرهم "حريحور" أن يستولي على الحكم ويؤسِّس الأسرة الحادية والعشرين، وانتهى حكمه بالخيبة والفشل.

ويُعتبر عصر الأسرة الثامنة عشر[٤٩] من أزهى عصور الدَّولة الحديثة بفضل الجهود الحربيَّة التي قام بها ملوك النصف الأوَّل من هذه الأسرة حيث سار على نهج أحمس الأوَّل الملوك الذين أتوا من بعده وهم: "تحتمس الأوَّل"، "تحتمس الثَّالث"، "أمنحوتب الثَّاني"، و "تحتمس الرَّابع". باستثناء "حتشبسوت" التي فضَّلت السَّلام وانهمكت في تشييد المباني، وإيفاد بعثاتها السلميَّة إلى بلاد بونت[٥٠]. وقد خلَّدت الملكة حتشبسوت أخبار هذه البعثة الكبيرة على معبدها بالدِّير البَّحري بالأقصر.

أما ابنة فرعون التي تبَّنت موسى[٥١]، فهي أميرة تنتمي إلى النَّصف الثاني من الأسرة الثَّامنة عشر (من أمينوفيس إلى حور محب) وربما كانت ابنة سيتي الأوَّل (من الأسرة التَّاسعة عشر) والأخت الكبرى لرمسيس الثَّاني. ويظن البعض أنها "حتشبسوت" أشهر أميرات الفراعنة[٥٢].

وعندما تخلَّص تحتمس الثَّالث من وصاية حتشبسوت بموتها، كان ملك قادش قد نجح في توسيع مملكته على حساب دولتي ميتاني ومصر،

٤٩ـ ملوك هذه الأسرة هم: أحمس الأول، أمنحتب الأول، تحتمس الأول، تحتمس الثاني، حتشبسوت، تحتمس الثالث، أمنحتب الرابع، تحتمس الرابع، أمنحتب الثالث (أمينوفيس)، أمنحتب الرابع (أخناتون)، سمنخ كارع، توت عنخ آمون، أي، حور محب.

٥٠ـ بونت: تقع جنوبي البحر الأحمر عند مضيق باب المندب، وموقعها الحالي هو بلاد الصومال وعدن. وهي الأرض التي كانوا يجلبون منها الأعشاب والنباتات العطرية.

٥١ـ خروج ٢:٥ـ١٠؛ أع ٧:٢١؛ عبرانيين ١١:٢٤

٥٢ـ دائرة المعارف الكتابية، الجزء السادس، مرجع سابق، ص ٤١

فخرج إليه تحتمس الثَّالث بجيشه وتفادياً لمعركة مهولة، حاصره في "مجدّو" سبعة أشهر حتى استسلم وخُلدت معركة "مجدّو" في نصب تذكاري بأرمنت. ودُوِّنت حروبه فيما بين سنة ١٤٨٣، ١٤٦٤ق م. في معبد الكَّرنك الهائل الذي هو أعظم آثار الدَّولة الحديثة أثراً في تذكير الإنسان بقدرة ملوك طيبة وجبروتهم وسيادة الإله آمون وهيمنته.

ويُعتبر "تحتمس الرَّابع" أوَّل فرعون يقيم سياسة المعاهدات والتَّحالف مع العالم القديم، إذ عقد معاهدة صداقة مع بلاد الميتاني ضد دولة الحيثيين التي كانت تزداد قوَّة، وأخذت تقترب مطامعها السياسيَّة من حدود مصر. وفي عصر تحتمس الرَّابع ظهر ميل للعودة إلى عبادة الإله "رع" لكي يحد الملك من سلطة كهنة آمون الذين أصبحوا يسيطرون على الجزء الأكبر من مرافق الإمبراطوريَّة.

ويُعتبر عصر "أمنحوتب الثَّالث" من أزهى عصور الفن والأدب والعمارة. وتعتبر معابد طيبة أروع مثال لضخامة وفخامة المعابد في ذلك العصر، ولاسيَّما المعبد الذي أقامة أمنحوتب الثَّالث للإله آمون في الأقصر، وكذلك معبد الكَّرنك الذي يعد بهو الأعمدة فيه من عجائب فن العمارة في العالم[٥٣]. وفي عصره كانت مصر تترنَّم بهذا الدُّعاء المأثور:

"أيها الموجد الذي لا موجد له، أيها الواحد الأحد الذي يطوي الأبد. أنت الأم البارة للآلهة والبشر. والصَّانع الدءوب الخالد في آثاره التي لا يحيط بها حصر. والرَّاعي ذو القوَّة والبأس، الذي يرعى رعيَّته. ولولا أنك ملاذهم ما تهيأت لهم حياة".

٥٣ـ د. سمير يحيي الجمال، تاريخ الطب والصيدلة المصريَّة في العصر الفرعوني، مرجع سابق، ص ٤٥

إلاَّ أنه أهمل الشُّؤون الخارجيَّة في أواخر حياته، وخلفه ابنه "أمنحوتب الرَّابع" (إخناتون فيما بعد، وزوج نفرتيتي) الذي ركَّز هدفه في توحيد آلهة المصريِّين في معبود واحد هو "آتون"، ونجح في ذلك، وجدد حملة قويَّة ضد "آمون" وكهنته. وقضى على عبادة آمون وغيره من الآلهة، فمُحيت عبادة آمون وكشط اسمه من كل الآثار المصريَّة في أنحاء الإمبراطوريَّة كلها. وأقام لنفسه حاضرة جديدة في المكان المعروف الآن بتل العمارنة (بالقرب من ملوي/ محافظة المنيا) وسماها "آخت آتون" أي (أفق آتون)، وشيَّد معابداً لآتون في طول البلاد وعرضها.

وانصرف إخناتون (رضى آتون) إلى دينه الجديد، وكتب له بعض الأناشيد الجميلة، وأهمها النَّشيد الكبير، إذ كانت ديانة آتون أوَّل دعوة إلى شئ قريب من التَّوحيد كما علَّمت به المسيحيَّة في مصر فيما بعد. ويُظن أن هذا النَّشيد الكبير هو الأصل الذي نُقل عنه جزء من المزمور ١٠٤ من مزامير داود النبي. ونورد هنا جانباً منه:

> "أنت تطلع ببهاء في أفق السَّماء، يا آتون الحي، يا بداية الحياة. عندما تبزغ في الأفق الشَّرقي تملأ البلاد بجمالك ... تحيط أشعتك بكل الأراضي التي خلقتها، ولأنك أنت رع فإنك تصل إلى نهايتها، وتُخضعها لابنك المحبوب ... وعندما تغرب في الأفق الغربي، تسود الأرض كما لو كان قد حلّ بها الموت ... ويلف الظَّلام كل شئ ويعم الأرض السُّكون، لأن الذي خلقهم يرتاح في أفقه ... وعندما يصبح الصَّباح وتطلع من الأفق ... يستيقظ النَّاس ... ويرفعون أذرعهم ابتهالاً عند ظهورك. والنَّاس جميعاً يؤدون أعمالهم، وتقنع كل الحيوانات بمراعيها، وتزدهر الأشجار والنباتات، والطيور التي تطير من أعشاشها تنشر أجنحتها لتمدح قوَّتك ... إنهم

يعيشون لأنك أشرقت من أجلهم ... أيها الخالق لبذرة الحياة في النِّساء، أنت الذي يجعل من البذرة السَّائلة إنساناً. أنت الذي يعنى بالطِّفل في بطن أمه ... ما أعظم أعمالك التي عملتها ... أيها الإله الأوحد الذي لا شبيه له، لقد خلقت الدُّنيا كما شئت، عندما كنت وحدك ... أنت الذي خلقتهم لأجل نفسك ... ما أجمل أعمالك يارب الأبديَّة ... جعلت ملايين الصُّور من نفسك وحدها ... فكل عين ترك فوقها مشرقاً ... أنت في قلبي، وليس هناك من يعرفك غير ابنك ... لأنك أنت الذي خلقته عالماً بمقاصدك، ومدركاً لقوتك. أنت الذي صنعت الدُّنيا بيديك، وخلقت النَّاس كما شئت أن تصوِّرهم، فهم يحيون عندما تشرق، ويموتون عندما تغرب، أنت الحياة بعينها ... أنت الذي خلقت الأرض، وأنت الذي خلقت النَّاس لأجل ابنك، الذي وُلد من صلبك ...[٥٤]"

كان إخناتون من أعظم المتصوِّفين في التَّاريخ، غير أنه كان ينقصه الإحساس بالواقع. وعلى الرَّغم من سمو مذهب إخناتون، فإن القائمين بنشره لم يمكنهم غرسه في نفوس شعب تعوَّد أهله عبادة المحسوسات التي خلا منها مذهب إخناتون، إذ لم يكن أتون يصوَّر في صورة إنسان، بل كان مجرَّد صورة قرص الشَّمس تتدلى منه أيد تحمل الخير العميم للبلاد. أراد الإنسان المصري القديم، المتدين بفطرته، إلهاً قريباً منه، يحسه ويتلامس معه.

ويبدو أن إخناتون عالج شؤون بلاده الدَّاخليَّة بنفسٍ لامبالاة المتديِّن التي عالج بها الشُّؤون الخارجيَّة. والحقيقة أنه لا يُعرف إلاَّ القليل عن

٥٤_ نخبة من العلماء (د. أحمد فخري)، تاريخ الحضارة المصريَّة، مرجع سابق، ص ٤١٧_ ٤٢٠

حكومته. إلاَّ أنه من الواضح أن الجماهير الشَّعبيَّة وكبار القوم لم تستفد شيئاً من عناية آتون الإلهيَّة، وظلَّت مصر ترقب بنظرة سلبيَّة نزوات ملكها المتفقّه في اللاَّهوت.

ولكن بعد موته خلفه ملوك ضعاف رأوا أن يعيدوا مجد "آمون" إلى سابق عهده، وكان من ورائهم الشَّعب الذي كان لم يزل متعلقاً بعبادة "آمون". وكان من جرَّاء ذلك أن خليفة إخناتون اضطر بعد حين للعودة إلى المذهب القديم، فغيَّر اسمه إلى "توت عنخ آمون" أما "نفرتيتي" زوجة إخناتون، فقد اختفت في ظروف غامضة، ولسنا نعلم أين ولا كيف انتهت. وصدر مرسوم يعيد للآلهة ممتلكاتها، كما أُعيدت طقوس الخدمة والقرابين. وعاد اسم "آمون" إلى كل مكان أزاله منه إخناتون. وكان "توت عنخ آمون" قد تولى الملك وهو حدث السن فترك مقاليد الأمور لاثنين من عظماء بلاطه هما "آي" ، "حور محب".

كان "آي" هو قائد الجيش، ولم يكن الجيش موالياً للدِّين الجديد. وأدرك "آي" أن نظام العمارنة ميئوس منه. وبموت توت عنخ آمون صار هو ملك البلاد. فطوى الدِّين الجديد مطواي النسيان. واستولى المرتد العجوز على المعبد الجنائزي الذي كان توت عنخ آمون قد بدأه في مدينة هابو، وكذلك على المقبرة التي كان قد أعدها لنفسه، وأبعده إلى قبر صغير، قُدِّر له أن يكون القبر الوحيد في وادي الملوك الذي ظل سليماً على حاله حتى تم اكتشافه في أيامنا هذه. وكان لاكتشافه دويٌّ غطّى قارات الأرض. وبموت الملك "آي" انتهت الأسرة الثَّامنة عشر.

إن النقش كان أقل الفنون أصالة في آثار الأسرة الثامنة عشر المتدينة، وبخاصة إذا قارناه بنظيره في الدَّولة الطيبيَّة الأولى. كانت نقوش

حتشبسوت وتحتمس الثَّالث وأمنحوتب الثَّاني وأمنحوتب الثَّالث[٥٥]، وأمنحوتب الرَّابع[٥٦]... الخ تستلهم التَّقاليد الحسنة الموروثة عن مدرسة منف للأسرة الثَّانية عشر. إلاَّ أن مثَّالي التحامسة (الملوك الذي سموا بـ تحتمس) أكسبوا تماثيلهم قدراً أكبر من الرَّشاقة حيث عمدوا إلى تطوير القالب دون تغيير الهيئة العامة. أما عن الوجوه، فلم يسعوا عن طريق المبالغة في الشَّكل العام إلى إبراز عظمة شخصياتهم بقدر ما سعوا إلى تصوير المشاعر الدَّاخلية بعلاج فني رقيق الملامح، فتبدو الشِّفاه وكأنها تهم بالابتسام، بينما نظرة العينين تحتفظ بجديتها. أما التَّعبير الحزين فكان هادئاً هدوءاً عرف شادة العمارنة كيف يوفونه حقه. وحين يقع البصر على تماثيل الكَّرنك الضَّخمة يعاني من دوار الرَّهبة التي جرَّت الشَّريعة الآتونيَّة الرُّوح المصريَّة إليها[٥٧].

ولاشك أن فترة الاختلافات الدِّينيَّة التي لازمت عصر "إخناتون" كادت تقضي على النِّظام في البلاد، لولا ظهور "حور محب" الذي تبدأ به الأسرة التَّاسعة عشر، بعد أن نصَّب نفسه ملكاً على مصر (١٣٤٣-١٣١٤ق م)، وقد نجح في إعادة النِّظام. وبدأ عصره بإصلاح شامل للشُّؤون الماليَّة، وشرَّع قانوناً للحدِّ من الجشع، وانتشار الرَّشوة، وهما المؤشِّر الحقيقي على حتميَّة انهيار أي أمَّة مهما صمدت إلى حين. ولكنه شطب اسم سلفيه من السِّجلات الملكيَّة، ونسب إلى نفسه ملكيَّة معظم ما خلَّفاه من آثار[٥٨].

٥٥- زوجته هي "تي" أم أخناتون.
٥٦- زوجته هي الملكة نفرتيتي
٥٧- جون يويوت، مصر الفرعونيَّة، مرجع سابق، ص ١٥٤
٥٨- نفس المرجع، ص ١٣٣

ويُظن أن فرعون الذي اضطهد شعب بني إسرائيل[٥٩] وسخَّرهم في تشييد وبناء المدن، هو إما تحتمس الثَّالث أو حور محب (الأسرة الثَّامنة عشرة) أو سيتي الأوَّل (الأسرة التَّاسعة عشرة)[٦٠]، ذلك لأن تاريخ خروج بني إسرائيل من مصر غير محدَّد بدقَّة، حيث اختلفت فيه الآراء، ولكل رأي أسانيده الوجيهة.

وكان آخر ملوك الأسرة الثَّامنة عشر هو حور محب، أما خلفاء حور محب فلا يمتّون له بصلة نسب، فقد خلفه صديقه وزميله في قيادة الجيش "رمسيس الأوَّل"، الذي أسَّس الأسرة التَّاسعة عشرة[٦١]. ولم يبق هذا الأخير على العرش إلاَّ فترة قصيرة، إذ خلفه ابنه "سيتي الأوَّل" وانهمك في حرب مع الحيثيِّين، وكان سيتي الأوَّل (١٣١٢- ١٢٩٨ق م) مشيِّداً عظيماً للمباني، شيَّد معبداً عظيماً في أبيدوس، كما كان محارباً قوي الشَّكيمة. وبموته خلفه أصغر أولاده "رمسيس الثَّاني" أشهر ملوك مصر القدماء، فأتمّ رسالة أبيه، واشتبك مع الحيثيِّين في أكثر من موقعة انتهت بمعاهدة دفاعيَّة هجوميَّة بينه وبينهم، ساد بعدها السَّلام لفترة طويلة. وأحيا رمسيس الثَّاني أيام تحتمس المجيدة في جو من الأبهة الباهرة، إلى حد أن غطّى على تحتمس العظيم. وقام رمسيس الثَّاني بنقل عاصمته إلى "صان الحجر" بشرق الدِّلتا، وهي تُدعى أيضاً "تانيس"، وسجل لنفسه اسماً لامعاً في التَّاريخ، وشيَّد المعابد المنقورة في الصَّخر في بلاد النوبة، وفي الدِّلتا في منف وتانيس. وتكاد تُنسب نصف المعابد المصريَّة القائمة اليوم في بنائها إلى هذا الفرعون العظيم.

٥٩ـ انظر: خروج ١، ٢

٦٠ ـ انظر: دائرة المعارف الكتابية، الجزء السادس، مرجع سابق، ص ٣٨

٦١ ـ أهم ملوك هذه الأسرة: رمسيس الأول، سيتي الأول، رمسيس الثاني، مرنبتاح (منفتاح).

وكان أمنحوتب الثّالث (الأسرة الثّامنة عشرة) ورمسيس الثّاني (الأسرة التّاسعة عشرة) ولوعين بمظاهر العظمة، فكثرت في آثارهما الأبنية والتّماثيل الهائلة الحجم التي كان الشّعب يقف أمامها مشدوهاً، ويعبدها كما يعبد الآلهة. ولقد غطّت آثار رمسيس الثّاني النوبة والصّعيد في أبو سمبل والكّرنك والأقصر والرّمسيوم وأبيدوس ومنف وبوباسطيس، وامتدت إلى الدّلتا.

وخلفه ابنه "مرنبتاح" الذي زاد عن البلاد من هجوم كاسح جاءها من الدّلتا، فأنزل بالمتآمرين هزيمة ساحقة، ويُظن أن خروج بني إسرائيل من مصر كان في زمن رمسيس الثّاني أو ابنه مرنبتاح.

وبموت مرنبتاح، وبعد نزاع على العرش دام عدة سنوات، جلس "رمسيس الثّالث" على العرش. وبه بدأت الأسرة العشرون. واستطاع إنقاذ البلاد من خطر داهم لو تحقق له النّجاح لكان قد قضى على كل معالم الحضارة في مصر.

وحمل ملوك الأسرة العشرين وعددهم عشرة ملوك لقب "رمسيس" فيما عدا مؤسّس الأسرة "ست نخت"، ولتمييز رعامسة هذه الأسرة عن رعامسة الأسرة التاسعة عشرة، أعطى علماء الآثار المصريَّة تسلسلاً عددياً لرعامسة الأسرة العشرين يتبع التسلسل العددي لرعامسة الأسرة التاسعة عشرة، وبذلك سُمي أوَّل ملك يحمل اسم "رمسيس" في الأسرة العشرين باسم "رمسيس الثّالث"، نظراً لوجود ملكين يحملان الاسم "رمسيس" في الأسرة التاسعة عشرة. وكان آخر ملوك الأسرة العشرين هو رمسيس الحادي عشر.

وأراد الملوك الذين حكموا مصر بعد عصر "حور محب" أن يباعدوا

بينهم وبين كهنة آمون الذين كانوا يسعون دائماً للتسلُّط على كل أمور الدَّولة، ومن أجل ذلك لم يجعلوا مقر حكمهم في طيبة، بل نقلوه إلى الدِّلتا. وعمدوا أن يقللوا من سلطان آمون بمحاباة عبادة كل من الإله "بتاح"، و "رع" وكذلك "ست". وسبب وجود الإله ست بين هذه الآلهة هو أن رمسيس الأوَّل مؤسِّس هذه الأسرة ومن بعده سيتي الأوَّل كانا من أهل المنطقة التي تسود فيها عبادة هذا الإله. فأصبحت الآلهة الأربعة آمون، ورع، وبتاح، وست هي الآلهة الرَّسميَّة للدَّولة.

العصر المتأخِّر

بلغت ثروة الإمبراطوريَّة المصريَّة أرفع درجاها في عهد رمسيس الثَّالث من الأسرة العشرين، ومن ثمَّ ارتفع دخل المعابد المصريَّة بما كان يغدقه الملوك عليها من غنائم وعطايا وهبات.

وجاء بعده ثمانية ملوك سموا باسم "رمسيس" وكانوا ضعافاً، وحكموا ما يقرب من ٧٥ سنة، وأعطوا الفرصة لازدياد نفوذ الكهنة. فأسَّسوا أسرة كهنوتيَّة هي الأسرة الحادية والعشرين. فبدأ بهم عصر يُطلق عليه اسم "العصر المتأخِّر" وينتهي بالأسرة الثلاثين (١١٠٠- ٣٣٢ق.م).

وقد عاصر الملك داود وابنه سليمان ملوك الأسرة الحادية والعشرين في مصر، (فقد ملك داود من سنة ١٠١٠- ٩٧٠ ق. م)، وملك سليمان من نحو (٩٧٠- ٩٣٠ق م) وكان آخر ملوك هذه الأسرة هو "بسوسنيس الثَّاني" (٩٥٩- ٩٤٥ق م). ولم تصلنا بيانات مفصَّلة عن ملوك هذه الأسرة سوى أسمائهم: "أمينوموب - أوسوكر - سيامون". وقد آوى أحد ملوك هذه الأسرة هدد الأدومي عندما هرب من وجه يوآب الذي

ضرب آدوم[٦٢]. والأرجح أن الملك سيامون هو الذي صاهر سليمان، حيث كان ملكاً على مصر في أوائل حكم سليمان[٦٣]. وصعد الملك سيامون إلى "جازر" وأحرقها بالنار وقتل الكنعانيين الساكنين فيها، وأعطاها مهراً لابنته امرأة سليمان[٦٤].

وأتت بعد الأسرة ٢١ الأسرات ٢٢، ٢٣، ٢٤ وكانت أسرات ليبيَّة، استطاعت أن تستقل بمدينة "أهناسيا" وأن تفرض سلطانها على مصر. وكان مؤسِّس الأسرة الثَّانية والعشرين هو "شوشنق" الأوَّل، والمذكور في الكتاب المقدَّس باسم "شيشق" [٦٥]. واتخذ من "بوبسطة" وهي "تل بسطة" الحالية بالقرب من الزَّقازيق، عاصمة له. ووصلت البلاد إلى هوَّة سحيقة من الضَّعف والتفكُّك. وهي فترة بائسة انعدم فيها الأمن، وافتقر فيها الاقتصاد، وأعوز الفن فيها الإلهام ودقة التَّنفيذ. وكما قال أحد المؤرِّخين أخيراً: "لم يكن حكم الملوك الكهنة سوى دكتاتوريَّة مجرَّدة من المُثُل تلبس قناعاً دينياً".

وتولى الأسرة الخامسة والعشرين أحد أمراء النوبة العليا، واستولى على مصر كلها حوالي سنة ٧٢٠ ق م، وأعاد للبلاد وحدتها، وأصبح "آمون" إله الدَّولة العظيم وصاحب السُّلطان المطلق بدرجة لم يسبق لها مثيل. أما فرعون الذي يذكره إشعياء النَّبي[٦٦] فهو "شبتكو" أو

٦٢ـ ١ ملوك ١١:١٤ـ٢٢

٦٣ـ دائرة المعارف الكتابية، الجزء السادس، مرجع سابق، ص ٣٨

٦٤ـ ١ ملوك ٩:١٦

٦٥ـ ١ملوك ١١:٤٠، ١٤:٢٥؛ ١أخبار ١٢:٢، ٥، ٧، ٩. وبدءاً من هذا الفرعون بدأ المصريون في إضافة الاسم الشخصي لفرعون إلى لقبه "فرعون"، ونجد هذا واضحاً في ذكر العهد القديم لأسماء ملوك مصر في الألف الأخيرة قبل الميلاد، مثل: "فرعون نخو" (٢ مل ٢٣:٢٩)، "فرعون حفر" (إرميا ٤٤:٣٠).

٦٦ـ إشعياء ٣٠:١ـ ٤، ٣٦:٦، ٣٧:٩

"شباكو" والذي تولى عرش مصر سنة ٧٠١ق م. أما "ترهاقة" ملك كوش فهو من أهم فراعنة هذه الأسرة الخامسة والعشرين، وكان معاصراً لحزقيا ملك يهوذا، وسنحاريب ملك آشور[٦٧]. إلاَّ أن الآشوريين قضوا على حكم هذه الأسرة في مصر.

واستطاع "أبسماتيك" بعد عقد معاهدة مع ملك الليبيين أن يخلِّص مصر من حكم الآشوريين الذين انهمكوا في صراع مع بابل. وبدأت الأسرة ٢٦ التي يُعرف عهدها بالعصر الصَّاوي نسبة إلي "صا الحجر" الملاصقة لمدينة كفر الزَّيات، وكانت عاصمة هذه الأسرة. ومنذ ذلك الحين انتقل مركز الثِّقل في المملكة نهائياً إلى الشَّمال، ودخلت مصر العليا في فترة ركود غير واضحة المعالم، بينما أخذت الدِّلتا في الازدهار المتزايد.

أما فرعون نخو فهو ثاني ملوك هذه الأسرة (٦١٠ـ ٥٩٤ق م)، وهو الذي صعد بجيشه لمحاربة ملك آشور عند نهر الفرات، فاعترض طريقه يوشيا ملك يهوذا، ولكن "نخو" استطاع أن يهزم يوشيا ويقتله[٦٨] في موقعة "مجدّو" وواصل نخو زحفه شمالاً واستولى على قادش حتى وصل نهر الفرات. ولما سمع "نخو" أن شعب يهوذا أقاموا يهوآحاز، وكان من حزب المعارضين لمصر، استدعاه وخلعه عن العرش، وأخذه معه أسيراً إلى مصر حتى مماته، وأقام على عرش يهوذا أخاه "ألياقيم" وغيَّر اسمه إلى "يهوياقيم" لإثبات خضوعه لمصر، وفرض على يهوذا جزية ثقيلة. إلاَّ أن "نخو" لم يستطع أن يستولي على فلسطين وسورية حيث هزمه نبوخذنصَّر ملك بابل في موقعة "كركميش" على الفرات شمالي

٦٧ـ ٢ ملوك ١٩:٩

٦٨ـ ٢ ملوك ٢٣:٢٩؛ ٢ أخبار ٣٥:٢٠ـ ٢٤

سورية(٦٩). وهزمه مرة أخرى في "حماة" وطرد جيش مصر من سورية(٧٠)، فاضطر "يهوياقيم" أن ينقل ولاءه من ملك مصر إلى ملك بابل، ويدفع الجزية لملك بابل(٧١). وهكذا أصبح البابليون سادة غربي آسيا بلا منازع.

ولقد حذَّر إرميا النبي من الدَّينونة القادمة على مصر، وعلى فرعون نخو(٧٢). وفي سنة ٦٠١ق م، زحف "نبوخذنصَّر" على مصر، ولكن "نخو" استطاع أن يوقف البابليين عند حدود مصر بعد معركة دموية رهيبة(٧٣).

أما أعمال نخو السلميَّة فكانت عظيمة، إذ أعاد حفر القناة التي سبق أن حفرها سيتي الأوَّل من النِّيل إلى البحر الأحمر. وأرسل أسطولاً من البحارة من الفينيقيين للدَّوران حول أفريقية من الشَّرق إلى الغرب - قبل قيام "فاسكو دي جاما" البرتغالي برحلته من الغرب إلى الشَّرق بنحو ألفي عام - واستغرقت الرِّحلة أكثر من سنتين، وعندما زار هيرودت مصر رأى حطام الأرصفة التي بناها "نخو" لأسطوله(٧٤).

وكان رابع ملوك هذه الأسرة هو "فرعون حفر" ابن "أبسماتيك الثَّاني" وحفيد "نخو" وملك ١٩ سنة (٥٨٩- ٥٧٠ق م). وفي عهده أُخذ إرميا قهراً إلى مصر إلى "تحفنحيس" في الدِّلتا، وهناك تنبأ بأن نبوخذنصَّر سيغزو مصر(٧٥)، وكذلك حزقيال النَّبي وهو في السَّبي(٧٦)،

٦٩- إرميا ٤٦:٢
٧٠- إرميا ٤٦:٣- ١٢
٧١- ٢ ملوك ٢٤:١
٧٢- ٢ ملوك ٢٣:٢٩؛ إرميا ٤٦:٢، ١٧
٧٣- دائرة المعارف الكتابية، الجزء السادس، مرجع سابق، ص ٤٠، ٤١
٧٤- نفس المرجع، ص ٤١
٧٥- إرميا ٤٣:٩-١٣، ٤٦:١٣-٢٦

وهو ما حدث عندما هُزم "حفرع" في ليبيا، وقيام ثورة ضده في مصر، وبعدها هاجم نبوخذنصَّر البلاد في سنة ٥٦٧ق م، واستولى عليها.

ولقد شجعت هذه الأسرة هجرة الإغريق إلى مصر. فقد كان ركب الحضارة يتحوَّل من المشرق إلى المغرب قاصداً بلاد الإغريق[٧٧]. مما أدى إلى ثراء الإغريق وازدياد نفوذهم في مصر، وسيطرتهم اقتصادياً على البلاد. ولكن هذه الانتعاشة لم تدم طويلاً بعد ظهور كورش الفارسي.

وفي سنة ١٩٠٩م كشفت بعثة المعهد البريطاني للتنقيب عن الآثار في مصر عن قصر الملك "خفرع" في موقع مدينة "منف" عاصمة مصر القديمة، وتحت تلال الطَّمي الملاصقة لقرية "ميت رهينة" وهو قصر ضخم ذي بوابة ضخمة، وساحة واسعة، وقاعات تحيط بها الأعمدة الحجرية، وتحف أثريَّة قيِّمة، كما وُجدت بالقصر آثار النيران التي قال عنها إرميا النبي: «وأُوقد ناراً في بيوت آلهة مصر فيحرقها» (إرميا ٤٣: ١٢).

الغزو الفارسي لمصر

لم تلبث مصر أن وقعت فريسة أمام جحافل الفُرس عندما غزاها "قمبيز" سنة ٥٢٥ق.م، الذي أمر بهدم المعابد التي بناها الشَّعب على شرف آلهته عقاباً لهم عندما رآهم يحتفلون بعيد الحصاد بعد عودة حملته الفاشلة من الجنوب، فظنهم مبتهجين بهزيمته. وحطَّم العجل أبيس[٧٨]، وشتَّت الكهان، وألغى الأنظمة والمؤسَّسات الدِّينيَّة والسياسيَّة القديمة التي

٧٦ـ حزقيال ٢٩: ١-٢٦، ٣٠: ٢٠-٢٦، ٣١، ٣٢

٧٧ـ نخبة من العلماء (د. محمد جمال الدِّين مختار)، تاريخ الحضارة المصريَّة، مرجع سابق، ص ١٠٨

٧٨ـ اعتقد المصريون القدماء بتجسد "أبيس" من عجلة بكر بعد حلول روح الإله "بتاح" فيها.

كانت قائمة في البلاد. فتغير وجه كل شئ، حتى الموسيقى لم تعد تجد هاديها في الدِّين والقوانين، فلم تبق على حالتها الأولى لوقت طويل، ففقدت وقارها النبيل وبساطتها السَّامية[٧٩]. ولكن ابنه دارا قد أعاد بناء بعض المعابد، هادفاً من ذلك تسهيل استغلال تلك المستعمرة ببعض إجراءات الترضية، فلم تكن مصر مزرعة غنيَّة فحسب، بل كانت أيضاً مفتاحاً لثروات القارة الأفريقيَّة بأسرها. وأصبحت مصر ولاية فارسيَّة، وأسَّس الفُرس الأسرتين ٢٧، ٢٨.

ويحدِّثنا التَّاريخ عن مدى شهرة علماء وأطباء مصر القديمة في عهد الملك الفارسي داريوس الأول الذي بعد أن أخضع البلاد لحكمه عاد إلى بلاده آخذاً معه كثيراً من الأسرى من علماء وفلاسفة وأطباء مصر، وألحقهم بالمركز الثقافي الكبير الذي أنشأه بمدينة إديسا Edessa (الرَّها)، فقام هؤلاء المصريون بالتَّدريس في المدارس المنتشرة بهذه المدينة، وبمرور الوقت أصبحت هذه المدينة أكبر مركز للثقافة والعلوم في هذه المنطقة من العالم[٨٠].

ونجح بعض ملوك الأسرتين ٢٩، ٣٠ أن يخلصوا مصر من الحكم الفارسي الذي دام في مصر قرابة قرنين. إلاَّ أن هذا النَّجاح كان وقتياً لم يلبث أن تضاءل أمام بطش ملوك الفُرس، الذين عادوا ثانية إلى مصر سنة ٣٤١ق م، ليحكموها بضع سنوات أخرى، قبل أن يدخلها الإسكندر الأكبر سنة ٣٣٢ق م.

وظلَّت الحضارة الفرعونيَّة تصارع البقاء حتى القرن الثالث الميلادي، وتضعضعت أساساتها في القرن الخامس على يد البابا ثاؤفيلس

---

٧٩ ـ فيوتو، وصف مصر، الجزء السابع، ترجمة زهير الشايب، القاهرة، ١٩٨١م، ص ١٠٣

٨٠ ـ د. سمير يحيي الجمال، تاريخ الطب والصيدلة المصريَّة في العصر اليوناني ـ الروماني، مرجع سابق، ص ٥٠٥

البطريرك الثَّالث والعشرين و لم تلبث أن انهارت تماماً مع غروب القرن السَّادس الميلادي.

إطلالة على حضارة مصر الفرعونيَّة

إن زيادة اهتمام المصريين بالمسكن الأبدي عن المسكن الدنيوي لهو أمر يُضرب به المثل، فلا عجب أن كانت مقابر طيبة تضاهي المعابد المعاصرة جمالاً وفخامة. وفي وادي الملوك حفرت مقابر الفراعنة تحت الأرض في ممرَّات طويلة ، وصحون وأبهاء وآبار، ونُقشت بمناظر غريبة هي رسوم لمجموعات جنائزيَّة تخص الملوك؛ فثمة فصول عديدة من آداهم تصور وتشرح الأساليب المختلفة للرَّحلات التي سيقوم بها الملك على مركب الشَّمس عبر العالم الآخر الذي يموج بكائنات عجيبة(٨١).

ولقد كانت قناعة المصري القديم بالعالم الآخر، والحياة الأخرى دافعاً قوياً لتقدم الطب لديه، فكانت عمليَّة التَّحنيط لحفظ جثة المتوفى من الفساد مجالاً واسعاً لدراسة كل مكوِّنات الجسم الدَّاخلية، وكثير من وظائف الأعضاء فيه. وكان للجراحة شأن كبير وصار أسلوبها في غاية الدِّقة والنِّظام. ولما كان المصري القديم يعتقد أن القلب هو أهم أعضاء الجسم وأنه مركز الانفعال، لذلك لم يعمد المحنطون إلى فصل القلب أثناء عملية التَّحنيط فتركوه محله متصلاً بأوعيته الكبرى(٨٢). وكان ختان الذكور من أقدم العمليات الجراحيَّة في مصر الفرعونيَّة. ويقول هيرودت (٤٥٠ق م) إن الذين زاولوا الختان من أقدم العصور هم المصريون

٨١ـ جون يويوت، مصر الفرعونيَّة، مرجع سابق، ص ١٥١

٨٢ـ د. سمير يحيي الجمال، تاريخ الطب والصيدلة المصريَّة في العصر الفرعوني، مرجع سابق، ص ١١١

والآشوريون والأحباش ... أما غيرهم من الشُّعوب فقد عرفوه عن المصريين. وبرغم ذلك لم تكن عملية ختان الذكور فرضاً على الشَّعب كما صارت كذلك فيما بعد عند اليهود، أو سُنَّة عند المسلمين[٨٣].

ويقول وارن داوسن: "إن المصريين يتمتعون بأعلى سمعة في كفاءهم الطبيَّة، وإن حكمة المصريين تتمثَّل في "الأمثال" ولكنهم أيضاً ذو مقدرة في الفلسفة الحقة والعلوم النَّظريَّة، والتَّجريدات، ويقيناً أنهم أناس موهوبون، لهم مقدرة فذة في الانجازات العلميَّة ... إن أُسُس علوم الطِّب وُضعت في مصر منذ أكثر من خمسين قرناً بما لا يدع مجالاً للشَّك ".

ويقول ر. و. سلولي: "لم يعد خافياً أن علوم الإغريق التي عرفتها الدُّنيا ليست من ابتداعهم، ولكن أولئك الذين كان بهم ظمأ إلى المعرفة والرحلة في سبيلها أتوا إلى مصر. وعلى هذه الأرض رأوا المصريين في مواقع العمل وراعهم ما رأوا. هنا على هذه الأرض وجدوا القواعد الأولى في الرِّياضيَّات والعلوم التي قاموا بنشرها أخذاً عنهم. فمن خلال الإغريق وصل تراث مصر إلى باقي العالم[٨٤]".

لقد أثر الطِّب المصري القديم بدرجة كبيرة على الطب الإغريقي، ويظهر ذلك واضحاً من مؤلَّفات ديسقوريدس سنة ٥٠م، وجالينوس (١٣٠ـ ٢٠٠م)، وبليني Pliny (23ـ 79م)، وغيرهم من أطباء الإغريق والرُّومان، حيث نقلوا من البرديَّات المصريَّة مباشرة ـ عندما وفدوا إليها ـ كل العلوم المصريَّة إلى بلادهم، وقد لُقنت هذه العلوم بواسطة الإغريق إلى أطباء القرون الوسطى بأوروبا حيث كانت من أهم علوم الطِّب حتى

٨٣ـ نفس المرجع، ص ١٣٢
٨٤ـ د. نعمات أحمد فؤاد، مرجع سابق، ص ٤١

القرن السَّابع عشر والثَّامن عشر الميلاديين(٨٥).

ودليل اقتباس الإغريق القدماء للعلوم الطبية المصريَّة نجده واضحاً في البرديَّات القبطيَّة والجراحيَّة المصريَّة التي تعد من أهم الدَّساتير الطبية العالميَّة وأولها ظهوراً، حيث يرجع زمن كتابتها إلى ما قبل سنة ٣٢٠٠ق م بقرون عديدة. وفي هذه البرديَّات نجد الاصطلاحات الطبيَّة التي سمع بها العالم لأوَّل مرَّة مثل لفظ "المُخ" الذي سُمي "جيري" في الطِّب المصري القديم، حيث ورد اسمه في بردية إدوين سميث Edwin Smith الجراحيَّة بمسافة زمنية تقرب من ٢٠٠٠ سنة قبل ورودها في مؤلفات الإغريق الطبيَّة.

وتقدَّم علم التَّشريح لدي المصريين القدماء فعرفوا عظام الجمجمة والفقرات العظميَّة وعظام الظَّهر والصَّدر والضُّلوع والحنجرة والقصبة الهوائيَّة والقلب والنبض والكليتين والحالبين والمثانة والغُدَّة النُّخاميَّة والحبل الشَّوكي وتلافيف المخ والسَّائل الشَّوكي وتشريح العين ... الخ(٨٦).

وبعد العثور على بردية إدوين(٨٧) التي عُثر عليها سنة ١٨٦٢م وتُرجمت محتوياها سنة ١٩٢٢م بواسطة العالم الأمريكي برستد عرفنا أسماء بعض الأمراض عند الفَّراعنه وعلاجها، كما ذكرت البرديَّة عدداً كبيراً من الوصفات الطبيَّة لعلاج أمراض الجهاز التَّنفسي، والمجاري البوليَّة، وعلاج الأسنان وحشوها بخليط معدني كان يدخل في تكوينه الذَّهب ... الخ

٨٥- د. سمير يحيي الجمال، تاريخ الطب والصيدلة المصريَّة في العصر الفرعوني، مرجع سابق، ص ١١٤

٨٦- د. سمير يحيي الجمال، تاريخ الطب والصيدلة المصريَّة في العصر اليوناني - الروماني، مرجع سابق، ص ١١٤، ١١٥

٨٧- يرجع تاريخ تدوينها إلى سنة ١٥٥٠ق.م. وهي معروضة الآن في الجمعية التاريخية في نيويورك.

وانتقلت الحضارة الطِّبية والصَّيدليَّة المصريَّة القديمة إلى كريت، ومنها إلى كل جزر اليونان حيث زادوا عليها وأضافوا إليها. وتكوَّن خليط من الحضارتين الفرعونيَّة والإغريقيَّة تبلور إلى نتاج وتراث حضاري حمل مشعله الأقباط طوال العصر الرُّوماني وإلى ما بعد دخول الإسلام في مصر لقرون طويلة(٨٨).

وفي أوائل سنة ٢٠٠٢م اكتُشفت مقبرة في منطقة سقَّارة لكبير جراحي مصر القديمة من الأسرة السَّادسة، وقد عُثر بداخلها على مجموعة مشارط ومباضع.

لقد قَدُم كثير من سكان اليونان إلى مصر في أفواج كثيرة خلال القرن السَّابع قبل الميلاد وكوَّنوا مستعمرة كبيرة لهم في شمال الدِّلتا أسموها "نقراطيس"، وتبع ذلك تعلم الكثير منهم كافة العلوم المصريَّة التي كانت تدرس في مختلف المعاهد التعليميَّة العُليا والملحقة بالمعابد الكبيرة وأشهرها مدن أون (هليوبوليس)، ومنف وسايس وأبيدوس وطيبة وغيرها. وبعد حصول هؤلاء الطُّلاب الإغريق على تعليمهم العالي عادوا إلى مدنهم الأصليَّة ومعهم نسخ من كافة المؤلَّفات العلميَّة والطبيَّة المصريَّة حيث نشروها هناك بدون الإشارة إلى أصحابها الأصليِّين(٨٩).

ويقول ديورانت: "حسبنا أن نذكر من معالم حضارتها (مصر) نهوضها بالزِّراعة، والتَّعدين، والصِّناعة، والهندسة العمليَّة. وأنها في أغلب الظَّن هي التي اخترعت الزُّجاج، ونسيج الكتَّان، وأنها هي التي أحسنت صنع الملابس، والحُليّ، والأثاث، والمساكن، وأصلحت أحوال المجتمع وشؤون الحياة. وإن المصريِّين أوَّل من أقاموا حكومة منظمة نشرت لواء

٨٨- نفس المرجع، ص ١١٥
٨٩- نفس المرجع، ص ١٢٥

السَّلام والأمن في البلاد، وأنهم أوَّل من أوجدوا نظام البَّريد والتِّعداد، والتَّعليم الابتدائي والثَّانوي، بل إنهم أوَّل من أدخلوا نظام التَّعليم الفني لإعداد الموظفين ورجال الإدارة".

"وهم الذين ارتقوا بالكتابة، ونهضوا بالآداب والعلوم والطِّب. والمصريون على ما نعرف أوَّل من وضع دستوراً واضحاً للضَّمير الفردي، والضَّمير العام. وهم أوَّل من نادى بالعدالة الاجتماعيَّة، وبالاقتصار على زوجة واحدة، وأوَّل من دعا إلى التَّوحيد في الدِّين، وأوَّل من كتب في الفلسفة، وأوَّل من نهض بفن العمارة والنَّحت، وارتقى بالفنون الصُّغرى إلى درجة الإتقان والقوَّة لم يصل إليها فيما نعرف أحد من قبلهم، وقلَّما باراهم فيها من جاء بعدهم[٩٠]".

ويقول عميد الأدب العربي د. طه حسين: "الكنيسة القبطيَّة مجدٌ قديمٌ، فهي في تراثها العريق قد ورثت الحضارة المصريَّة في كافة مناحيها في اللُّغة والأدب والفن، حتى أن من أراد أن يعرف عن مصر القديمة، لا مندوحة له أن يتوقَّف أوَّل ما يتوقَّف عند الكنيسة القبطيَّة، ويتأمَّل تراثها وما حملته في أحضانها عبر التَّاريخ، وما وعته وحافظت عليه من ذخائر الماضي التَّليد".

الأدب في مصر الفرعونيَّة

أحس المصريون القدماء بأهميَّة الأدب والكتابة، حتى جعلوا للكتابة إلهة سموها "سيشات"، وزوجوها من إله الحكمة لإحساسهم لما بين

٩٠ـ د. سمير يحيي الجمال، تاريخ الطب والصيدلة المصريَّة في العصر الفرعوني، مرجع سابق، ص ٦٠

الكتابة والحكمة من علاقة.

وكتبت الدَّولة القديمة على أوراق البردي، وكتبت الدَّولة الوسطى على ألواح من الخشب أو الفخَّار أو الحجر الجيري بالإضافة إلى البَردي. وحين أعطت مصر للدُّنيا الورق والقلم، حين ابتدعت الكلمة ورسمت الصُّورة، كانت الصُّورة في مصر كلمة، والكلمة صورة في تركيز حكيم.

ولقد ضاع من الأدب المصري القديم الشَّئ الكثير، ولكن مع ذلك يقول الأثري المصري الدكتور أنور شُكري: " لدينا من الأدب المصري ما يمكن أن يعطي صورة حيَّة متعدِّدة الجوانب تفوق في قيمتها وعددها ما خلّفته الأمم التي عاصرت المصريين من آثار أدبيَّة".

وتشعَّب الأدب المصري القديم إلى المواعظ وآداب السُّلوك والأمثال والحكم الخالدة والمقالات والرَّسائل والقصَّة القصيرة. ويعتقد علماء الآثار أن مصر هي موطن القصَّة القصيرة. وآداب الأناشيد والتَّسابيح والأغاني والتَّمثيليَّات والمسرحيَّات، كما أن مصر هي صاحبة أوَّل بحث فلسفي. وأوَّل مسرحيَّة في آداب الدُّنيا هي مسرحيَّة منف التي كُتبت سنة ٣٤٠٠ق م، والمحفوظة في متحف لندن حتى اليوم. فسبقت بذلك الدِّراما اليونانيَّة بنحو ثلاثة آلاف سنة.

وكان ملوك مصر يحبون الأدب ويقتنون كتبه. والأدب المصري القديم هو حصاد ثلاثة عصور: الدَّولة القديمة، الدَّولة الوسطى، والدولة الحديثة. أما أبرز آداب الدَّولة القديمة فهي متون الأهرام، وهي منقوشة على جدران خمسة من أهرام الأسرتين الخامسة والسادسة، وقد وفروا لها من ألوان الجمال التعبيري ما جعلها صوراً نابضة حية كان لها في نفوس المصريين جميعاً وعلى مر العصور مقام كبير.

ومن آداب الدَّولة القديمة قصة خلق العالم، ومواعظ بتاح حتب، وكاجمني، وحديث الشَّاعر إيبور إلى الملك الشَّيخ بيي الثّاني آخر ملوك الأسرة السَّادسة. وبرديتان طبيتان (برديَّة إدون سميث، وبرديَّة إيبرز)، ودراما انتصار حور على أعدائه في الأسرة الثَّالثة. وهي منقوشة على جدران معبد ادفو، وتحتوي على مقدِّمة وثلاثة فصول مقسَّمة إلى مناظر وخاتمة. وهي عند الأثري المصري سليم حسن تضارع الدِّراما الحديثة من حيث تمثيل حوادثها، وحوارها اللَّطيف، وتضحية فرق المغنين في سبيل إظهار شخصيَّات الممثلين. هذا يشير إلى أن كل التمثيليَّات المصريَّة كانت على ما يظهر تحتوي على تعليمات مسرحيَّة وقوائم بمعدات المسرح.

وآداب الأسرة القديمة هي من النُّضج والقيمة بحيث يذهب بعض الباحثين إلى القول بأنه لابد أن يكون لمصر أدب قبل الأسرات أنضجه أصحابه وطوروه، وأن أدب الدَّولة القديمة لابد أن تكون سبقته محاولات ومجاهدات فنية كان هو حصادها.

ولقد اتسمت آداب الدَّولة القديمة بالوضوح والواقعية والصورة وروح الخلق والإبداع، والتشويق والفكاهة، تلك العناصر التي تؤكد مصريتها في الفكر والأسلوب.

أما أبرز آداب الدَّولة الوسطى فهي دراما التتويج، وهي تقع في ست وأربعين منظراً. ووصية أمنمحات الأول لابنه سنوسرت الأوَّل، وقصَّة سنوهي أو سنوحي، والتي يعتبرها الكُتَّاب العالميون ذروة من الأدب العالمي، وقصة الملاح الغريق الذي هبت عليه العاصفة والذي حطَّمت الأمواج شراعه وحملته إليه، وقذفت به هو نفسه إلى الشَّاطئ فيقول: "لا رفيق لي إلاّ قلبي، راقداً في غابة لا أحتضن إلاّ الفراغ".

أما الدَّولة الحديثة فقد ذهبت بمفخرةٍ تسابيح إخناتون وتغنّيه بجمال الطبيعة، ومناجاته للشَّمس، وقد رقرقها باللُّغة الشَّعبيَّة لتكون أقرب إلى النَّاس. ولقد أوردنا جانباً منها من قبل.

وعرفت مصر في الدَّولة الحديثة أدب الرَّحلات، وأغاني العُمال والفلاحين والرُّعاة. والأدب التَّعليمي التَّهذيبي ومنه: "إذا كنت في جماعة جلست في بيت رجل أكبر منك، فتناول ما يعطيك، وضعه بين يديك، وانظر إلى أمامك[٩١]".

ومن تعاليم أمنوبي: "لا تتعب طلباً للمزيد، ولئن جاءك المال مسروقاً، فلا يبيت معك سواد اللَّيل، فإذا أتى الصَّباح لم يعد في بيتك لأنه إنما يصنع لنفسه أجنحة كالأوز يطير نحو السَّماء[٩٢]"

ومن أدب مصر:

• لا ترفع ابن عظيم على من كان ذا مولد وضيع، ولكن خذ لنفسك الرجل لفضائله.

• لا تكن فظاً، فمن الخير أن تكون شفيقاً.

وكان الحكيم "بتاح حتب" يسمي مواعظه: المقولات الجميلة، وكانت بحق جميلة ونفيسة. وفي الأدب المصري قصص على لسان الطير والحيوان تشير إلى الضَّعف الإنساني وعيوب البشر، وتأتي في السِّياق الحكمة والمعاني السَّامية. كتبت مصر هذا قبل "كليلة ودمنة" وقبل "لافونتين".

يقول الملك سنفرو والد الملك خوفو: "ائتوني بمن يحدثني بكلام

٩١ـ قارن مع سفر الأمثال ٢٣:١

٩٢ـ قارن أيضاً مع سفر الأمثال: «لا تتعب لكي تصير غنياً، كف عن فطنتك. هل تطير عينك نحوه وليس هو، لأنه إنما يصنع لنفسه أجنحة كالنسر يطير نحو السماء».

جميل، وأحاديث مختارة ليبتهج قلبي بسماعها". فبهجة قلبه في الأدب.

ويوصي الملك خيتي ابنه الملك مريكارع: "كن فناناً في الكلام لتكون قوياً، فإن قوة الرجل في لسانه. وإن الكلام لأقوى من أي قتال". فالملك صاحب الجيوش والخزائن يرى القوة في الكلمة.

ومن أمثال المصريين: "فم الإنسان ينجيه، وكلامه يدعو النَّاس إلى احترامه". ولقد كان الملك الفنان يحب الكلمات التي تقطر شهداً فأرجأ إنصاف الفلاح (الفصيح) وهو مقتنع بحقه، حتى يسترسل في النغم أي في البلاغة.

كان المصريون أوَّل من كتب الأدب لذاته، لقد رفعوا "أمنحوتب" إلى مصاف الآلهة، لا بوصفه مهندساً طبيباً ولكن بوصفه أديباً. وكان على الكاتب المصري القديم، كل كاتب عندما يشرع في الكتابة أن يترل من قلمه نقطتين من المداد قرباناً لأمنحوتب.

وكان المصريون أيضاً يعتبرون الكتاب أخلد للذكرى من البنين ومن المعابد ومن الأهرامات ومن المال. وتقول إحدى برديَّات الأسرة التاسعة عشر عن أصحاب القلم: "خلقوا لأنفسهم القبور والأهرامات في قلوب من يذكر أسماءهم. وإن اسماً تتداوله النَّاس لنافع في الآخرة. إن الإنسان فان، وجثته هباء، وجميع معاصريه يغدون ترابا، ولكن الكتاب هو ذكراه الذي يبقى من فم لفم، إنه لأنفع من بيت مشيَّد، ومن قبر في الغرب، ومن قصر مدعَّم، ومن نصب في معبد".

كان لقب "**الكاتب**" أعظم الألقاب بلا استثناء عند المصريين من عمق إجلالهم للكتابة. ولقد كان "حور محب" قائداً لجيش مصر، ولكنه في تمثاله اتخذ هيئة الكاتب المصري وجلسته، هذا هو الشَّرف

الحقيقي والباقي في عين مصر المتحضرة.

ومن الأدب المصري استمر الأدب الإغريقي والرُّوماني، بل استمد أدب العالم كله من حكمة "بتاح حتب". ويقول ألن جاردنر Alen H. Gardener : "إن الأدب اليوناني لم يقفز إلى الوجود مكتملاً، كما خرجت فينوس من الأمواج، ولا كذلك الفن اليوناني ... إننا لن نعرفهما إلاّ إذا عرفنا الطّريق الذي سلكه النفوذ المصري على التّوراة وعلى الأدب اليوناني. فمما لاشك فيه أن هذا أو ذاك لم يكن ليوجد بالصُّورة التي كان عليها لولا أثر مصر فيه".

يمتاز أدب مصر بالدِّقة والوضوح والصِّدق والبساطة والعذوبة. إن الطباق في الأدب العربي لفظ ولفظ ضده، ولكن المقابلة في الأدب المصري نظير ونظير يتناغمان[٩٣].

الموسيقى والغناء في مصر الفرعونيَّة

كانت أوَّل دراسة علميَّة عن جوانب الحياة المختلفة لمصر، بدءًا من مصر الفرعونيَّة، هي كتاب "وصف مصر" وهي التي قام بها نخبة من العُلماء الفرنسيين الذين رافقوا الحملة الفرنسيَّة إلى مصر بقيادة نابليون بونابرت في السَّنة الأخيرة من القرن الثّامن عشر. وقد ضُمنت هذه الدِّراسة في تسعة مجلدات كما سبق أن أشرنا في موضع سابق، من بينها ثلاثة مجلدات (من السَّابع إلى التَّاسع) عن الموسيقي والغناء والآلات الموسيقية في مصر. ضم الجزء السَّابع منها موضوع "الموسيقى والغناء عند قدماء المصريين". وهذه الأجزاء الثلاثة المُشار إليها هي للعالم الموسيقي

٩٣_ د. نعمات أحمد فؤاد، شخصية مصر، مرجع سابق، ص ١٦٠ وما بعده.

جيوم أندريه فيوتو Guillame André Villoteau (١٧٥٩- ١٨٣٩م).

يذكر العلاَّمة كليمندس الإسكندري (١٥٠- ٢١٥م) في كتابه الخامس "الطبقات": "كانت الموسيقى في مصر، شأنها في هذا شأن الفلك، تدخل في عداد العلوم المقدَّسة والتي كانت تقتصر دراستها ومعرفة كل فروعها، على طبقة الكهان بصفة خاصة[٩٤]".

ويقول "فيوتو" عن الموسيقى والغناء عند قدماء المصريين[٩٥]:

لماذا نشك في روعة موسيقى القدماء، بينما كل شئ يبرهن لنا أن هؤلاء القدماء قد تجاوزونا كثيراً، ليس فقط في كل الفنون الأخرى كما في الشِّعر والعمارة والنَّحت ... الخ والتي لا نزال نرى لها تحت أبصارنا نماذج لها تدعو للإعجاب. بل إن ما بقى من هذه كذلك حتى اليوم لا يزال يستعصي علينا تقليده؛ ولقد كان الأمر هو نفسه بالنسبة لكل من جاءوا مباشرة بعدهم؟ لنعترف إذن بضمير مستريح أن هؤلاء الذين أقاموا مثل هذه الصروح وروائع الأعمال، قد كان لديهم ولابد ذوق أكثر رقَّة ومبادئ أكثر وثوقاً عما هو لدينا؟ فإذا ما كان مثل هذا التَّقريظ الذي يكيله أمثال هؤلاء القضاة (المؤلفين القدماء) للموسيقى القديمة قد تجاوز في كثير المديح الذي دبجوه لمنتجات الفنون الأخرى فليس ذلك إلاّ لأن الموسيقى كانت تفوق كل هذه الفنون (في أزمانهم) بقدر كبير.

إن الآلات الموسيقيَّة التي نُقشت على المباني لم تكن هي بالمثل أوَّل آلات موسيقيَّة عرفتها مصر، بل ليس من المستبعد أنها كانت مجهولة كلية

٩٤ـ انظر: فيوتو، وصف مصر، الكتاب ٧، مرجع سابق، ص ٨٧.

٩٥ـ الترجمة هي للمصري النابغة زهير الشايب (١٩٣٥- ١٩٨٢م) والحاصل على جائزة الدَّولة التشجيعية سنة ١٩٧٩م، بعد أن أتم ترجمة الكتاب الرابع من موسوعة "وصف مصر".

من قبل المصريِّين الأوائل طبقاً لما سوف تواتينا الفرصة لملاحظته فيما بعد، عندما نتصدى لتفسير طبيعة هذه الموسيقى في حالتها البدائية ... فنحن نلمس وجود عصرين وحالتين مختلفتين لفن الموسيقى في مصر القديمة: أما الحالة الأولى فهي تلك التي يتحدَّث عنها أفلاطون في قوانينه وديودور الصَّقلي في مكتبته التَّاريخيَّة - الكتاب الأوَّل، وهي تلك التي ظلّت فيها الموسيقى في حالتها الأوليَّة، بعيدة عن التَّحريف. أما المرحلة الثّانية ويتحدَّث عنها كذلك ديودور الصَّقلي فهي التي قامت فيها ممارسة الموسيقى ضاربة عرض الحائط بالمبادئ القديمة، وقد أدت هذه إلى انحدار هذا الفن حتى أدنى درجات التفسُّخ والفساد. ويحدِّد هذا التَّمييز بطبيعة الحال التَّقسيم الذي قمنا به في عملنا. ولهذا السَّبب فإننا قد ضمَّنا المرحلة الأولى لموسيقى مصر القديمة كل العصر الذي انقضى منذ نشأة الحضارة المصريَّة ومنذ ظهور أولى ترانيمها حتى العصر الذي أحدث فيه أجانب، دخلوا هذا البلد، بعض تحوُّرات أو انحرافات في أخلاق المصريين، فبدَّل هؤلاء أو غيَّروا من عاداهم وتعودوا نتيجة لذلك على أغاني أخرى وآلات موسيقية أخرى، كانت كلها أغنيات هؤلاء الأجانب وآلاهم، وحصرنا المرحلة الثانية في كل الزَّمن الذي انقضى منذ التغيرات التي حدثت في موسيقاهم حتى الوقت الذي تقلّصت فيه مصر نفسها لتصبح مجرَّد إقليم من أقاليم الإمبراطوريَّة الرُّومانيَّة.

ليست لدينا موسيقى منذ نحو ألفين إلى ثلاثة آلاف عام، ومع ذلك فحتى لو كان لدينا اليوم شئ منها فمما لا جدال فيه أننا كنا سنلمس - لحد يدفعنا إلى الاعتراف بالحقيقة - أن الموسيقى الأقدم كانت هي الأكثر جمالاً ونضجاً. ويقول أفلاطون: "إن هذا الفن في مصر قد ظل لوقت طويل يحتفظ هناك بطابعه الأصيل".

لم يكن يُعترف في مصر القديمة بأغنيات جميلة، إلاَّ تلك التي كانت

تتَّفق مع الفضيلة، أما الأغنيات الأخرى فكانت تُلفظ وتُنحى وكان مؤلفوها ينالون العقوبة التي يستحقونها ... وكان لكل ضرب من ضروب الغناء قانونه الخاص به، فكان هناك قانون لطريقة نظم وأداء التراتيل، وهناك بالمثل قانون لأغنيات الصلوات ولأغنيات الضَّراعة والمديح التي كان النَّاس يتوجهون بها إما إلى الآلهة وإما إلى الموتى الذين تميزوا أثناء حياتهم بالفضائل والأعمال الخيِّرة، ولم يكن يُباح بمديح على هذا النَّحو لأولئك الذين لا يزالون على قيد الحياة(٩٦).

يقول ديودور الصَّقلي: عند موت أحد الملوك تصبح مصر كلها في حالة حداد، ويمزق كل إنسان ملابسه، وتُغلق المعابد، ويتوقَّف تقديم الأضحيات، وتُلغى الأعياد مدة اثنين وسبعين يوماً، ويقوم رجال ونساء، يبلغ عددهم مائتين أو ثلاثمائة، يغطي الطين رؤوسهم، ويلتفون حول صدورهم بقماش أبيض، بأداء أغان جنائزيَّة جيدة الإيقاع والتنغيم، لمرتين في اليوم الواحد، وتتحدَّث هذه الأغنيات عن فضائل الميت ومناقبه. وحين يذكر ذلك فإنه لا يذكر لنا قط أن هذا الغناء كانت تصحبه آلة موسيقيَّة من أي نوع(٩٧).

وقد ترك لنا هيرودت وصفاً للاحتفالات الجنائزيَّة التي أقيمت لرجل من عامة الشَّعب، أما الاختلاف الوحيد الذي نجده بين روايته هنا، وبين ما يخبرنا به ديودور الصَّقلي خاصاً بجنازة أحد الملوك، فهو أن الحداد لم يكن عاماً وأن عدد الموجودين بالحفل كانوا أقل، وأن أهل الميت كانوا يسكبون الدُّموع وهم يغنون، لكنه لا يورد أي ذكر لموسيقى آلية. كما لم يرد ذكر لذلك في حفلة جنائزية أخرى تحدث عنها ديودور تمَّت في

---

٩٦ ـ فيوتو، وصف مصر، مرجع سابق، ص ٨١ وغيرها.

٩٧ ـ نفس المرجع، ص ٩٠

جزيرة فيلة إلى ما وراء الشَّلال الأوَّل.

ولم يكن الإغريق - وهم الذين أخذوا عن المصريين كل حفلاتهم الجنائزيَّة - يستخدمون الآلات الموسيقيَّة قط في حالات مشابهة، بل كانوا يقتصرون في الأزمنة المتأخرة على أن يصحبوا الميت إلى المقبرة وهم ينشدون تراتيل تُسمى "مرثيات".

إذاً، نخلص إلى القول أن الحالة الأولى لفن الموسيقى في مصر كان محاكاة للتَّقاليد الحميدة وتعبيراً عنها، يجسدها عن طريق الصوت، إذ لم تكن الموسيقى الآلية تنتج إلاَّ بفعل أنغام غير حيّة تصدر عن أجسام لا حياة فيها، فلم يكن بمقدورها أن تتفق مع الموسيقى المصريَّة القديمة، التي كان غرضها يتعارض بشكل تام مع الغرض الذي من الموسيقى الآلية.

كانت الموسيقى المصريَّة القديمة لصيقة بالشِّعر وملتحمة به، وعناصرها المتكاملة كانت الكلمات المنطوقة بلحن ذي إيقاع، وموضوعها كان هدهدة العواطف وتثقيف العقل والتَّسامي بالرُّوح، وأنها كانت تهدف بالنهاية إلى الإيحاء بالخلق الطيب، والسُّلوك المستقيم، أما وسائلها لبلوغ هذا الهدف فكانت الحكمة والفضيلة والدِّين والقوانين، أما كل ما كان غريباً على هذه الأمور فلم يكن ليأتلف معها قط[٩٨].

فكانت القوانين تحظر الزِّيادة البالغة والتنوُّع الشَّديد في الأنغام، لكي تستطيع أن تصور حالة نفس الإنسان العاقل المعتدل المتسامح القوي الشُّجاع[٩٩]. من البديهي أن الصَّوت - بين كل الآلات الموسيقيَّة - هو أوَّلها وأكثرها طبيعيَّة، وأن الآلات الموسيقيَّة الأخرى لم يتم ابتكارها إلاَّ

٩٨ـ نفس المرجع، ص ٩٨

٩٩ـ نفس المرجع، ص ١٠٤

بعد وقت طويل للغاية من اكتشاف الغناء.

وحتى زمن سيزوستريس (سنوسرت الثّالث) من الأسرة الثّانية عشر لم يكن المصريون بعد يعرفون سوى أربعة أنواع من الآلات:

١ ـ **القيثارة ذات الأوتار الثّلاثة:** ولم تكن هذه النَّغمات الثّلاث لتضر باللّحن، أما عندما فكر النَّاس في عدد أكبر من الأوتار، وأمكن الفنان أن ينوِّع النَّغمات على هواه، فقد تخلّق نوع آخر من الموسيقي لم يعد يرتبط بشيء بمبادئ اللّغة المنطوقة. وحيث كان بمقدور كل امرئ أن يعدِّل فيها طبقاً لذوقه الخاص، فإنه لم يعد يسترشد إلاّ بلذّة الأذن، بل بالخيلاء والميل إلى التبذُّل ... وسرعان ما نسى النَّاس حتى تذكُّر المبادئ الرَّئيسيَّة لفن الموسيقى ذاته، بفعل العادة التي اكتسبوها من هذا الفن الوليد، وهو فن صناعة محض.

٢ ـ **الدُّف:** وهو يستخدم في ضبط إيقاع النَّغم أو الرَّقصات. ويذكر العلاّمة كليمندس الإسكندري (١٥٠ـ٢١٥م) في كتابه "المربي" أن الآلة الوحيدة التي يُتَّفق على نسب اختراعها للمصريِّين هي الدُّف[١٠٠].

٣ ـ **البوقسان أو البوق:** للإعلان عن موعد الصَّلوات والأضحيات والأهلة أو الأقمار الوليدة، ولدعوة الشَّعب للاجتماع في المناسبات الاعتياديَّة عن الحياة المدنيَّة أو لإعطاء إشارة ما للجيوش.

٤ ـ **النَّفير:** عندما يتصل الأمر ببعض الأمور الهامة التي تتطلب إسهام الشَّعب كله.

وهذه على الأقل هي الآلات الموسيقيَّة التي حملها العبرانيون معهم في هذه الفترة عند هروبهم من مصر بعد أن أقاموا بها أكثر من أربعمائة سنة.

---

١٠٠ ـ نفس المرجع، ص ١٢٠

وتؤكّد كل الشّواهد أن هذه الأنواع الأربعة كانت هي أوّل الآلات المعروفة، ولم يكن قدماء المصريّين يعرفون غيرها في زمن موسى(١٠١).

وفي غيبة البراهين المباشرة التي تؤكّد أن الموسيقى الآليَّة كانت مجهولة من المصريين، فإننا قد أقمنا أحكامنا على صمت كل المؤلّفين القدامى عن ذكر الآلات الموسيقيَّة عندما كانت تواتيهم الفرصة للحديث عن موسيقى هذا الشّعب، وعن الحالة التي كان عليها هذا الفن لدي العبرانيين عند خروجهم من مصر(١٠٢).

وبعد أن دخل الفُرس البلاد واحتلوها قرابة قرنين من الزّمان، فقد تغيَّر كل شئ وتبدَّل الحال من حال إلى حال. وبعد أن كانت الموسيقى تلقى في الماضي احترام المصريين باعتبارها نعمة من الآلهة، بدأت منذ ذلك الوقت - وقد تغيرت صورها وتغير الغرض منها - تلقى منهم الصَّد والازدراء، إذ لم يعد من شأنها إلاّ أن تؤدي إلى رخاوة النَّفس وتلف الأخلاق. فالنقائص النقيضة لموسيقى المصريين القدماء كانت هي طابع الموسيقى الآسيويَّة، تلك التي كانت شديدة التنوُّع، كثيرة الأنات، رخوة متراخية، وهي موسيقى زاخرة بالأنغام التي نشأت وترعرعت في آسيا. هذه هي الموسيقى التي دخلت مصر مع مجئ الفرس عندما أصبحوا سادة البلاد، وهي تلك التي رفضها المصريون(١٠٣). وإن رسوم بعض الآلات الموسيقيَّة التي يراها المرء على الجدران الدَّاخليَّة للجبَّانات التي تجاور أهرام الجيزة، إما أنها قد رُسمت فيما بعد على يد الفُرس، أو على يد الإغريق الذين أدخلوا إلى مصر عادة استخدام النَّاي الطويل.

١٠١ـ نفس المرجع، ص ١٠٩
١٠٢ـ نفس المرجع، ص ١٣٤
١٠٣ـ نفس المرجع، ص ١٠٤

كان هذا النَّوع الأخير من الموسيقى، على الدَّوام، نذيراً بانحلال الإمبراطوريَّة، أو كان هو مقدِّمة لهذا الانحلال. ولقد نشأت هذه الموسيقى في آسيا الصغرى، وكانت ممالك هذه البلاد في أدنى درجات الاستقرار أو كانت بالأحرى مهترئة؛ وبعد مرور وقت قصير من انتقال هذه الموسيقى إلى اليونان تغيرت الحكومة القديمة للبلاد، واهتزت البلاد بفعل الحروب الدَّاخليَّة. وكان أفلاطون على حق حين يقول بأنه لا يمكن المساس بمبادئ الموسيقى دون أن يُصاب نظام الحكم القائم في دولة ما بخطر جسيم.

ونخلص من ذلك إلى أن موسيقى قدماء المصريِّين في حالتها الأولى، والتي كانت تهدف إلى اعتدال وضبط العواطف والانفعالات، كانت بالضَّرورة مناسبة للغاية ونافعة، تحقق سعادة لهذه الشُّعوب، وأنها على العكس من ذلك في حالتها الثَّانية قد جاءت بالضَّرورة كارثة مدمرة(١٠٤).

تربية النشء في مصر القديمة

اعتنى المصريون القدماء غاية الاعتناء بتعليم أطفالهم، ولم يكن الأطفال يحصلون على أي تعليم حتى بلوغهم السِّنة العاشرة من أعمارهم، بخلاف ذلك الذي كان ينتقل إليهم عن طريق المحاكاة أو الإقتداء، إذ كان يكتفي قبل بلوغهم هذه السِّن، بأن ينشأوا على أن يُغنّوا المبادئ العامة والأمثلة السائرة التي تلخِّص الحكمة أو تحض على الفضائل التي كان يُغنّيها الرِّجال الناضجون، والتي كان يعلّمها الشُّيوخ(١٠٥). أما عند بلوغهم سن العاشرة فكانوا يتعلّمون القراءة لمدة سنوات ثلاث، وعند بلوغهم الثالثة عشرة كانوا يتعودون على ممارسة الألعاب الرياضيَّة

---

١٠٤ ـ نفس المرجع، ص ١٣٧

١٠٥ ـ أفلاطون، القوانين، الكتاب الثاني.

والتَّوقيع على أوتار القيثارة، وكان المصريون يحتِّمون أن يمضي الأطفال في ذلك ثلاث سنوات، دون أن يكون مسموحاً لوالد الطفل، أو حتى للطفل ذاته، سواء عن طيب خاطر من جانبه أو نفور، بأن ينفق في ذلك أكبر أو أقل من الوقت الذي نص عليه القانون.

وكان علمِ الفلك يشكّل - إلى جانب تعلم الموسيقى والرياضة البدنيَّة - واحداً من علومهم الأساسيَّة، حيث كان هذا العلم ضرورياً للغاية بالنسبة لهم لتنظيم أعمال الزراعة، والتي ترتبط في مصر بفيضان النِّيل الذي كانت مدته، وحركة تزايده، وارتفاع منسوبه، ومدة بقائه، يمكن الاستدلال عليها - جميعاً - عن طريق ملاحظة النُّجوم.

ولقد تربى موسى على هذا النَّحو في بلاط فرعون مصر[١٠٦]، ثم تعلم القراءة في سن العاشرة؛ وبعد ذلك تعلم الحساب والهندسة والموسيقى بكافة أشكالها، وتشمل على الموسيقى الهارمونيَّة والإيقاعيَّة والصوتيَّة وموسيقى الشِّعر (البحور والأوزان)، ثم درس الطب. وبعد أن تلقى كل العلوم المدنيَّة والعسكريَّة[١٠٧]، تلقى على يد أكثر أساتذة مصر شهرة دراسة العلوم الفلسفيَّة واللاّهوت. ولم تكن هذه لتدون إلاّ بحروف هيروغليفيَّة، إلاّ أن العلْمَين الأخيرين لم يكونا يدرَّسان للعامة، فلم يُلقنا إلاّ لأطفال الملوك ولأولئك الذين لهم الحق في تولي العرش مثل طبقة الكهنة التي كان الحاكم أو الأمير يُختار من أبنائها على الدَّوام، ولعل هذا هو السَّبب في أن سترابون وكثيرين آخرين قد وصفوا موسى بأنه كاهن

١٠٦ـ انظر: أعمال الرسل ص ٧

١٠٧ـ تبحر موسى في كل العلوم السياسيَّة والدينيَّة، وكان نبياً ومشرعاً ماهراً. وعالماً بفن إصدار الأوامر وقيادة الجيش وإعداد وخوض المعارك. وكان في الوقت نفسه رسولاً وسياسياً وفيلسوفاً.

أو نبي مصر[١٠٨]. إذ تهذب موسى بكل حكمة المصريين.

* * *

عند هذا الحد ينتهي نظرياً عصر مصر الفرعونيَّة بما خلّفه من حضارة ورقي وفنون وآداب وعلوم، لازال العالم يشهد لها حتى اليوم. ويجب ألاّ ننسى أنه إن كان عصر مصر الفرعونيَّة قد انتهي من الوجهة التَّاريخيَّة إلاّ أنه امتد متغلغلاً في مناحي حياتها حتى اليوم، يحتوي فيه كل العصور والحضارات التالية له. والتي لم تكن إلاّ صوراً متنوعة له. إذ استطاعت حضارة مصر الفرعونيَّة أن تضفي على كل ما تلاها من عصور سمة متفرِّدة من تراث الملكيَّة الفرعونيَّة القديمة.

محلق عن المتحف المصري

يعد المتحف المصري من أكبر متاحف العالم، ورغم أن بناءه لم يبدأ في عهد والي مصر محمد علي باشا، إلاّ أن قصَّته تبدأ من هناك، حيث أصدر الديوان الملكي مرسوماً مهماً في سنة ١٨٢٠م لمنع الأجانب من العبث بالآثار المصريَّة ونهبها وتهريبها إلى الخارج. وكان هذا المرسوم الملكي هو الإشارة الأولى بالاهتمام بالآثار المصريَّة القديمة التي كانت متاحة لمن يعثر عليها، وملك من يسافر بها إلى خارج البلاد!!.

وفي سنة ١٨٢٨م منح محمد علي لعالم الآثار الفرنسي الشَّهير شامبليون حق التَّنقيب عن الآثار في مصر، فاكتشف خمسين موقعاً وكتب ستة مجلدات عن صروح مصر والنوبة، وفسر الحروف الفرعونيَّة القديمة

---

١٠٨ ـ فيوتو، وصف مصر، الكتاب السَّابع، مرجع سابق. ص ٧٩، ٨٠، ٨٢

على حجر رشيد. كما لفت نظر الوالي محمد علي إلى ضرورة الحفاظ على آثار مصر من النَّهب والسَّرقة وعمليات الحفر العشوائيَّة، فاختار رفاعة رافع الطهطاوي سنة ١٨٣١م مسئولا عن حفظ الآثار والحفائر في مصر. وكانت هذه هي المرَّة الأولى التي تهتم فيها مصر بما فيها من الكنوز والآثار، تبعه مرسوم بإنشاء دار للآثار المصريَّة في منزل الدفتردار بالقرب من بركة الأزبكيَّة في ١٥ أغسطس سنة ١٨٣٥م، وُضعت فيها الآثار المكتشفة كأوَّل متحف مصري. ولكن المتحف لم يحتفظ بما فيه كثيراً من الوقت، فقد ذهب أغلب ما فيه كهدايا خاصة للملوك والسلاطين. وكان آخرهم ولي عهد النمسا مكسمليان الذي أبدى إعجابه بالآثار المصريَّة لوالي مصر عباس الأول وكان في زيارة له، فأهداه كل ما تبقى من المتحف وكانت ٧٢١ قطعة أثرية، أخذها معه إلى النِّمسا، ومازالت موجودة في متحفها هناك.

ولا يوجد حصر دقيق بعدد الآثار المصريَّة التي ذهبت إلى مدن وعواصم العالم في ثلاثة آلاف سنة وحتى الآن! سواء عن طريق السَّرقة أو التهريب أو الهبة أو الهدية.

لقد دأب حكام مصر من ألف سنة قبل الميلاد على اعتبار كنوز مصر ملكية خاصة، يستخدمون بعضها ويهدون بعضها، ويبيعون بعضها، ولم يمنع قرار الوالي محمد على باشا السابق ذكره من إغلاق ملف نزيف الآثار المصريَّة.

فقد أرسل الإنجليز وفداً إلى مصر حصل على مخطوطات قبطيَّة نادرة، وسافر بها إلى لندن، فأوفدت فرنسا بالمثل شاباً مولعاً بالآثار المصريَّة اسمه "أوجست ماريت" لم يعد إلى فرنسا بعد ذلك، بل ظل في مصر ودُفن بها بجوار الآثار التي يحبها، ومازال جثمانه موجوداً في حديقة المتحف

المصري بميدان التَّحرير.

بدأ "ماريت" مشواره مع الآثار المصريَّة بعمل حفـائر في منطقـة سقارة بالأموال التي جاء بها من فرنسا، وقام بتهريب كل اكتشـافاته إلى باريس عن طريق الإسكندريَّة، وظل سنوات طويلة يسرق لبلاده كل ما يجده من آثار حتى حصل على موافقة الوالي سعيد باشا بواسطة صـديق مشترك هو "ديليسبس" على منصب "مأمور لإعمـال العاديـات في مصر"، وكان ذلك في ١ يونيو سـنة ١٨٥٨م. وفي ١٨ أكتـوبر سـنة ١٨٦٣م في عهد إسماعيل باشا استطاع "ماريت" لدهائه وصبره ودأبـه على إنشاء متحف مصري جديد اختار له مخـازن بـولاق، وتكفَّلـت الحكومة الفرنسيَّة بتجهيزه وتأثيثه.

ومنذ ذلك اليَوم تحوَّل "ماريت" في نظر المصريِّين من لص آثار إلى عاشق متيَّم بها، يبذل كل ما يملك من وقت وجهد وخبرة للحفاظ علـى الآثار المصريَّة. ومات "ماريت" سنة ١٨٧٨م.

في سنة ١٨٨١م حضر إلى مصر خلفاً "لماريت" فرنسي آخر هـو "مسيو ماسبيرو" والذي منحنا اسمه فيما بعد لمساحة مهمة من شـوارع مصر على نهر النِّيل، وسعى لنقل آثار متحف بولاق إلى مكان جديد كان هو سراي إسماعيل باشا بالجيزة. بدأت عملية النقل سنة ١٨٨٩م في عهد إسماعيل باشا، وانتهت في سنة ١٨٩١م في عهد الخديوي محمد توفيـق، ولكن السراي الملكي لم تستوعب عظمة التَّاريخ المصري، وكانـت ٩١ حجرة ملكيَّة بالقصر ليست كافية لاستيعاب حجم القطع الأثريَّـة، ولا ممهدة لحماياها من السَّرقات والحرائق. فأعلن مجلس النظَّار في مارس سنة ١٨٩٣م عن تخصيص مكافأة مالية قدرها ألف جنيه مصري لمـن يقـدم أحسن تصميم لبناء متحف مصري جديد يتكلف ١٢٠ ألف جنيه.

وأُعلن عن المسابقة العالميَّة لتصميم المتحف، فتقدم ٨٧ متسابقاً، فاز فيها بالجائزة الثانية سبعة مصممين فرنسيين، استخدموا الأسمنت المسلَّح في البناء لأوَّل مرَّة في مصر، وحُجبت الجائزة الأولى لعدم توافر تصميم يستحقها، ووضع مجلس النظارة ميزانية ١٢٠ ألف جنيه مصر لتأثيث المتحف وصلت فيما بعد إلى ٢٤٠ ألف جنيه عند الانتهاء من إنشائه سنة ١٩٠٢م، وكان قد بُدء في بنائه في ٧ يناير سنة ١٨٩٧م.

وضع عباس حلمي الثَّاني حجر الأساس، ورفض سعيد باشا خديوي مصر زيارة الآثار والمومياوات باعتبارهما "حرمة أموات" لا يجب اختراقها، وفعلها من قبله الخديوي إسماعيل الذي رفض أن يخطو عتبة متحف بولاق عند افتتاحه في سنة ١٨٦٣م، واكتفى بانتظار ضيوفه خارجه حتى لا يزعج الأموات الذين حُنطت أجسادهم داخله.

إننا لا نملك في الحقيقة ميراثاً من الغيرة على آثارنا، و لم نقع يوماً في حبِّها، و لم نضعها في التَّقدير المناسب لها. هي بالنسبة لنا ليست أكثر من تاريخ قديم نستدعيه وقت الحاجة للتَّفاخر بماضي أجدادنا، ونحن بعيدون كل البعد عن أمجادهم ومآثرهم. ليست آثارنا أكثر من نسخ مقلَّدة طبق الأصل نبيعها للسُّيَّاح على الأرصفة، لذلك لا يذهب المصريون ليشاهدوا آثارهم أو يشموها أو يلمسوها أو يحلموا بحضارة تشبهها من صنع أيديهم[١٠٩].

١٠٩ـ مقال ليسرى فخراني، بجريدة صوت الأمة، الاثنين ٢٠٠٢/١٢/١٦م، ص ٢٠

الفَصل الثَّاني

مصر من عصر الإسكندر الأكبر
حتى دخول المسيحيَّة

تمهيد

اتجه الإسكندر الأكبر (٣٣٢- ٣٢٣ق م) إلى مصر بعدما عرف عن تذمُّرها المستمر ضد الفُرس، ودخلها سنة ٣٣٢ق.م، فأظهر احترامه الكامل لديانة المصريين، وقدَّم القرابين لآلهتهم. وسافر إلى واحة سيوة، حيث أعلنه كهنة معبد آمون ابناً للإله. فدخلت مصر عصر الحضارة الهيلينيَّة.

ومنذ زمن الإسكندر الأكبر كان يوجد في مصر قسمان من الشَّعب متمايزان عن بعضهما غاية التَّمايز:

الأوَّل: هم المصريُّون الوطنيُّون الذين يسكنون صعيد مصر على امتداد نهر النِّيل ويتكلَّمون القبطيَّة.

الثَّاني: هم الأجانب الذين يقطنون الدِّلتا والمدن السَّاحليَّة إلى جوار المصريِّين من ساكني البلاد، باستثناء الإسكندريَّة التي ظلَّت مدينة للأجانب منذ أن بناها الإسكندر حتى إلى عصر البيزنطيِّين في زمن مجمع خلقيدونية (حوالي ثمانية قرون). وهم يمثِّلون الطَّبقة الحاكمة للبلاد، ويتكلَّمون اليونانيَّة.

أولاً: عصر البطالمة

لما مات الإسكندر تولى ابنه بطليمــوس الأوَّل (٣٢٣- ٢٨٥ق م)، والذي عُرف باسم (سوتر)، حُكم مصر، وقام بإنشاء جامعــة علميَّـة ضخمة بمدينة الإسكندريَّة، وضم إليها الكثير من الفلاســفة والمفكّـرين اليونانيين. وقامت الجامعة بتدريس الفلك والرِّياضيَّات والطب والطبيعـة والكيمياء والصَّيدلة والحساب والهندسة والتَّاريخ والجغرافيـا والبلاغـة والفلسفة والموسيقى وغيرها. وخلفته أسرته، وهو ما عُرف باسم "عصر البطالمة" (٣٢٣- ٣٠ق م).

وبعد الإسكندر الأكبر جاء فيليب أريداوس (٣٢٣- ٣١٦ق م)، ثم الإسكندر الرَّابع (٣١٦- ٣٠٤ق م)، ثم بطليموس الأوَّل (٣٠٤- ٢٨٣م).

وفي عهد بطليموس الثَّاني (فيلادلفوس) (٢٨٢- ٢٤٦ق م) بلغـت مصر ذروة توسعها الخارجي. وفي عهده ألَّف الكاهن المصري مـانيتون السَّمنودي تاريخ الأسرات الفرعونيَّة. وفي عهده أيضاً كان ارتقاء العلوم والمعارف، وإنشاء مكتبة الإسكندريَّة.

وفي عصر بطليموس الثَّالث (يورجيتس) (٢٤٦- ٢٢٢ق م) استولت مصر على سوريا وبرقة وبلاد النوبة، فأصبح للبطالمة إمبراطوريَّة واسـعة كانت على حساب الفلاح الذي أُثقل ظهره بالضَّرائب الفادحة.

ومنذ أيام بطليموس الرَّابع (فيلوبـاتور) (٢٢١- ٢٠٣ق م)، بـدأ انحلال الدَّولة، وتزعم أمراء طيبة عدة ثورات جعلتهم في حكم المستقلين

في الجنوب[١]. فانفصلت طيبة عن باقي مصر لمدة عشرين عاماً.

وفي عهد بطليموس الخامس (إبيفانيس يوخاريستوس) (٢٠٢-١٨٠ق م) بزغ نجم الإمبراطوريَّة الرُّومانيَّة التي استولت على كثير من مستعمرات مصر بالخارج، وفرضت سيطرتها على الملك. وعمَّت الثورات الشَّعبيَّة، واضطربت شؤون الحُكم. وتوفي سنة ١٨٠ق م.

وحكم بطليموس السَّابع (نيوس فيلوباتور) سنة ١٤٥ق م لعدة أشهر قليلة، إذ قتله عمه بطليموس الثامن (يورجيتس الثاني) وتولى الملك من بعده، وإذ انقلب الشَّعب عليه هرب إلى قبرص تاركاً زوجته كليوباترا الثَّالثة تحكم مصر باسمه. وبعد سنتين عاد وتوفي سنة ١١٦ق م.

ولما جاء بطليموس التَّاسع (سوتر الثَّاني) هرب إلى قبرص إثر ثورة شعبيَّة طاردته بعد أن ألّبت أمه كليوباترا الثَّالثة الشَّعب ضده، وحكمت البلاد مع ابنها بطليموس العاشر (الإسكندر الأوَّل)، ولما قُتلت سنة ١٠١ق م انفرد بطليموس العاشر بالحكم حتى وفاته سنة ٨٨ق م. فعاد بطليموس التَّاسع وتمادى في اضطهاد المصريين، فقادت مدينة طيبة الثَّورة ضده، وقتلوه سنة ٨٠ق م[٢].

بعد وفاة بطليموس التَّاسع سنة ٨٠ق م انفردت زوجته برنيكي الثَّالثة بالحكم وكانت محبوبة من الإسكندريين، ولكن إمبراطور روما أمرها بالزَّواج من أحد أبناء بطليموس العاشر ونودي به ملكاً على مصر تحت

١ـ حسين فوزي، سندباد مصري، جولات في رحاب التاريخ، دار المعارف، القاهرة، ١٩٥٩م، ص ٣٦٠

٢ـ وبذلك يكون بطليموس التاسع قد حكم من سنة ١١٦ ـ ١٠٧ق م، ومن سنة ٨٨ ـ ٨٠ق م. أما بطليموس العاشر فقد حكم مع أمه كليوباترا الثالثة سنة ١٠٧ق م، حتى قتلها سنة ١٠١ق م، وحكم بمفرده حتى مقتله سنة ٨٨ق م.

اسم بطليموس الحادي عشر (الإسكندر الثّاني)، ولم يلبث أن قتلها سنة ٨٠ق م، فثار عليه الإسكندريُّون وقتلوه في نفس السَّنة، وأقاموا أحد أبناء بطليموس التَّاسع ملكاً على مصر تحت اسم بطليموس الثّاني عشر.

حكم بطليموس الثاني عشر (الزَّمار) مع زوجته كليوباترا السَّادسة سنة ٨٠ق م، وفي سنة ٥٩ق م، أصبح يوليوس قيصراً على روما فأجبر بطليموس الثاني عشر على دفع مبلغ كبير من المال ليعترف به ففعل. ثار عليه الإسكندريُّون فهرب إلى روما سنة ٥٨ق م، وأقيمت ابنته برنيكي الرَّابعة ملكة على مصر.

ولما عاد بطليموس الثّاني عشر إلى مصر قتل ابنته برنيكي وأنصارها وأشرك معه في الحكم ابنته الأخرى كليوباترا السَّابعة وابنه بطليموس الثّالث عشر، وتوفي سنة ٥١ق م.

تولى بطليموس الثّالث عشر حكم مصر سنة ٥١ق م وهو في العاشرة من عمره، وتزوَّج أخته كليوباترا السَّابعة وكانت في الثّامنة عشر من عمرها، وفي عهده اقتطعت روما قبرص من مصر، وفي عهده تم إنشاء معبد ادفو. ولقوَّة شخصيَّة كليوباترا أخته صارت هي الملكة الفعليَّة لمصر.

وهكذا يلحظ القارئ مدي التَّدهور الذي وصلت إليه مصر بعد أن صارت نهباً للغُرباء، فجلس على عرشها في هذه الفترة بعض ملوك من الأطفال! مما أفسح المجال لكثيرات من النِّساء أن يحكمن البلاد.

قدم يوليوس قيصر إلى الإسكندريَّة وراء بومبي الذي هرب منه إلى مصر، وفيها قُتل بومبي، فأقام يوليوس في مصر معتبراً إياها ولاية رومانيَّة.

وفي سنة ٤٨ق م نزل يوليوس قيصر بالإسكندريَّة، وناصر كليوباترا

على أخيها بطليموس الثّالث عشر، الذي قهرته جنود قيصر وغرق في النِّيل. وعندما عُين قيصر دكتاتوراً في روما، عين في سنة ٤٧ق م أخاً ثانياً لكليوباترا شريكاً لها في الحكم هو بطليموس الرَّابع عشر، وكان ابن أحد عشر عاماً، فقُتل بتدبير أخته، التي أقامت طفلها قيصاريون الذي أنجبته من قيصر، شريكاً لها وهو بطليموس الخامس عشر في سنة ٤٥ق م.

بانتقال السُّلطة في روما ليد أنطونيوس وأوكتافيوس اقتسما الإمبراطوريَّة بينهما، فاختص أنطونيوس بالشَّرق وأوكتافيوس بالغرب. وساءت العلاقة بين أنطونيوس وأوكتافيوس لتطليق الأوَّل أخت أوكتافيوس وزواجه من كليوباترا، فأعلن الحرب عليه، وهزمه في موقعة أكتيوم البحريَّة سنة ٣١ق م. وحاولت كليوباترا إيقاع أوكتافيوس في حبائلها فلم تفلح، فقتلت نفسها، وقتل أوكتافيوس قيصرون، وبذلك سقطت مصر في حوزة الرُّومان كولاية تابعة لروما في أوَّل أغسطس سنة ٣٠ق م[٣].

حالة البلاد في عصر البطالمة

ظل الشَّعب محتفظاً بلغته القديمة التي أصبحت القبطيَّة هي آخر صورة لها. كما ظل المسجِّلون يستخدمون الديموطيقيَّة حتى منتصف العصر الرُّوماني. وحافظ الكهنة محافظة أمينة على تقاليد الهندسة المعماريَّة والفنون التشكيليَّة الموروثة من آلاف السِّنين، وعلى المعتقدات والطقوس الموروثة من الأسلاف. ومن ثم بُنيت المعابد الكبيرة في دندرة وفيلة وادفو من القرن الثالث إلى الثاني قبل الميلاد. واستمر بناء المعابد الفرعونيَّة كمعبد إسنا حتى سنة ٢٥٠ بعد الميلاد.

ولقد وضع البطالمة سياسة صارمة لاستغلال كل موارد البلاد في

٣ـ د. سمير يحيي الجمال، تاريخ الطب والصيدلة المصرية في العصر اليوناني ـ الروماني، مرجع سابق، ص ٢٢٠ـ ٢٢٥

تكوين جيش وأسطول قويين لتكوين دولة وإمبراطوريَّة كبيرة في حين كان الشَّعب المصري أضعف الشُّعوب وأتعسها نتيجة لتعسف الحُكَّام. ومنذ عهد البطالمة من السَّابع إلى الثَّاني عشر ظلت الثَّورة المصريَّة مشتعلة وانهمك الحُكَّام في القضاء عليها، فازدادت مصر ضعفاً وبالتالي ازداد نفوذ الرُّومان فيها.

وفي عصر البطالمة حدثت تغيرات طفيفة في التَّقسيم الإداري للبلاد، فقد كانت مصر مقسَّمة إلى مقاطعات عددها ست وثلاثون، ولكل منها عاصمة وعدد من المراكز والمدن والقرى. فأبقى البطالمة على هذا الوضع القائم ولكنهم جعلوا على كل مقاطعة مديراً إغريقياً، وقائداً عسكريا إغريقياً على رأس حامية إغريقيَّة بها، ولم يلبث أن أصبح هذا القائد هو الحاكم الفعلي لها وأصبح له مساعدان أحدهما للشُّرطة والآخر للقضاء.

ولقد تفرَّق الإغريق وانتشروا وعاشوا في كل أنحاء مصر، وكونوا مدناً جديدة وخاصة في الفيوم، وكوَّنوا جاليات لهم على غرار المدن الإغريقيَّة، لها قوانينها وحكامها وكهنتها ومنتدياتها ومعاهدها الخاصة.

واستمر العمل بنظام الوظائف القديمة في عهدهم، ولكنهم اكتفوا بأن أطلقوا عليها أسماء إغريقيَّة. إلاَّ أن غالبية الموظفين في الدَّولة كانوا من الأجانب الموسرين، فنعموا بحياة أفضل بكثير من المصريين.

وفي بداية عصر البطالمة مُنع التَّزاوج بين الإغريق والمصريين لإبقاء العنصر الإغريقي نقياً خالصاً، لذلك كانت الحياة الاجتماعيَّة والثقافيَّة والأدبيَّة والعلميَّة والفنيَّة في مدن مصر الإغريقيَّة وشبه المستقلة ذاتياً، إغريقيَّة قلباً وروحاً. ولكن في أواخر القرن الثَّالث قبل الميلاد اضطروا إلى تغيير سياستهم فسمحوا بل وشجَّعوا الزَّواج بين الإغريق والمصريين،

ونشروا الآداب والعلوم الإغريقيَّة بين المصريين[٤].

وازدهرت الصِّناعة، وكانت الإسكندريَّة أهم مدينة صناعيَّة في مصر، إلى جانب مراكز صناعيَّة في مدن طيبة وتانيس وبوتو ودندرة ... الخ. وكانت أهم الصِّناعات هي صناعة الورق والنَّسيج والخزف والزُّجاج والخشب والأبنوس والعاج والذَّهب والفضة والبُخور والعُطور. وكان للمعابد المصريَّة فضل كبير في ازدهار الصِّناعة لأنها كانت تملك الضياع الواسعة[٥]. ولكن الإغريق احتكروا أغلب منتجات البلاد وكأن مصر ضيعة خاصة لهم يذهب كل دخلها لخزائنهم التي تُسمى خزانة الملك.

ولقد سمح الإغريق للمصريين بحريَّة عبادة آلهتهم القديمة ولكنهم فرضوا سيطرتهم على كهنة المعابد ورجال الدِّين خشية انتشار روح الوطنيَّة. كما أنشأوا ديانة جديدة مشتركة بين الإغريق والمصريين محورها ثالوث مقدَّس يتألَّف من سيرابيس وإيزيس وهابوقراطس، وهي في الأصل آلهة مصريَّة ألبسوها ثوباً إغريقياً، لكن المصريين ظلوا على عبادتهم القديمة، فبينما جعل الإغريق من سيرابيس مزيجاً من الإله أوزوريس والإله ديونيسيوس، لم ير المصريون في سيرابيس سوى صورة إلههم القديم أوزوريس. ولم يكن الإله هابوكراتيس الذي شبهه الإغريق بإلههم أبولو سوى الإله المصري القديم حورس ابن أوزوريس وإيزيس.

وأقام البطالمة الكثير من المعابد الإغريقيَّة لآلهة الإغريق، إلى جانب بناء معابد مصريَّة كاملة في ادفو ودندرة وكوم أمبو وإسنا وفيله وغيرها. وكلما ازداد البطالمة ضعفاً زاد نفوذ الكهنة قوَّة وأصبحوا زعماء للثَّورة ضدهم، فاضطر البطالمة إلى استرضائهم وعهدوا إليهم بإدارة أملاك

٤ـ نفس المرجع، ص ١٤، ١٥

٥ـ نفس المرجع، ص ١٨٣

المعابد، ولكن ظل البطالمة يحتكرون بيع الوظائف الكهنوتيَّة لقاء أكبر مبلغ مدفوع من المال(٦).

وكانت للمرأة المصريَّة حريَّة الزَّواج بمحض إرادها وتطليق زوجها متى شاءت وأن تطالبه بالصَّداق إذا طلَّقها، وأن تتصرَّف في ممتلكاها كيفما شاءت. في حين لم تكن للمرأة الإغريقيَّة أية حريَّة في زواجها أو طلاقها أو في ممتلكاها إلاّ بأمر الوصي عليها. وبينما كانت المرأة المصريَّة تأخذ مهراً من زوجها كانت الإغريقيَّة تدفع دوطة يرجعها الزَّوج إلى أهلها إذا توفيت.

وكانت عقود زواج المصريين تشتمل على التزامات للزَّوج فقط بعكس عقود الزَّواج الإغريقيَّة التي كانت تقضي بالتزام الزَّوجين. وكذلك كانت مراسم الزَّواج تتم بواسطة الكهنة في المعبد أي كان الزَّواج دينياً، في حين كانت الإغريقيَّة تتزوَّج زواجاً مدنياً فقط.
بهذا كفل نظام الزَّواج المصري للمرأة المصريَّة حقوقاً وامتيازات لم تكن تتوفَّر للمرأة الإغريقيَّة، ولكن البطالمة لم يقبلوا بهذا التَّفريق، فحرموا المرأة المصريَّة من حقوقها وامتيازاها لكي تتساوى مع المرأة الإغريقيَّة(٧).

ولقد زاد عدد اليهود في عصر البطالمة، وكانوا يؤلفون حوالي ١٤% من عدد السُّكان في مصر.

تاريخ مدينة الإسكندريَّة

هي المدينة التي لا تزال كنيسة مصر تُدعى باسمها، فمنها دخلت المسيحيَّة إلى كل أرجاء البلاد. وفيها بُنيت أوَّل كنيسة مسيحيَّة في مصر،

٦ـ نفس المرجع، ص ١٥، ١٨٦

٧ـ نفس المرجع، ص ١٩٨، ١٩٠

وكانت هي أوَّل مقر بطريركي لبابا الكنيسة القبطيَّة. ولازال لقب بابا الكنيسة القبطيَّة يُسمى باسمها "**بابا المدينة العظمى الإسكندريَّة**".

أمر الإسكندر الأكبر بإنشائها سنة ٣٢٢ق م، وأوكل أمر تشييدها إلى أشهر مهندس معماري في عصره وهو "دينوكراتيس[٨]"، وجعلها عاصمة البلاد، وتميَّزت بشوارعها الواسعة المستقيمة والمتوازية. وقد شيَّدها مكان قرية "راكوتي" أو "راقوده" أو "راكوتيس" على ساحل البحر المتوسط غربي فرع رشيد بعد أن وصل السَّاحل بجزيرة "فاروس" التي تقع تجاهه. وظلَّت أكبر مدينة في العالم إلى قرن ونصف من تأسيسها حيث بلغ عدد سكانها آنئذ ١٥٠ ألف نسمة[٩]. فيها تمت ترجمة العهد القديم لأوَّل مرَّة من العبريَّة إلى اليونانيَّة، وهي التَّرجمة المعروفة بـ "التَّرجمة السَّبعينيَّة".

احتلها الرُّومان سنة ٣٠ق م، وكانت أعظم عاصمة إقليميَّة في الإمبراطوريَّة الرُّومانيَّة، والمدينة الثَّانية بعد روما من الوجهة السياسيَّة، والأولى من الوجهة الثقافيَّة. بلغ سكانها في القرن السَّادس حوالي ٦٠٠,٠٠٠ نسمة منهم جالية يونانية كبيرة كوَّنوا الارستقراطيَّة المحليَّة، بعكس اليهود الذين تقلَّص عددهم، إذ كانوا حتى سنة ٤١٥م جالية كبيرة، ولكن البابا كيرلس الكبير (٤١٢ـ ٤٤٤م) أمر بطردهم من المدينة وإغلاق معابدهم، فأصبح المصريون أساس سكان الإسكندريَّة[١٠].

وصفها المؤرِّخون قبل دخول العرب إليها، وتغنوا بجمالها، وفي

٨ـ هذا المهندس هو الذي بنى هيكل ديانا الشَّهير.

٩ـ الآن يزيد عدد سكانها قليلاً على أربعة ملايين نسمة.

١٠ـ د. سمير يحيي الجمال، تاريخ الطب والصيدلة المصرية في العصر اليوناني ـ الروماني، مرجع سابق، ص ٥٣٥

أسلوب رفيع متفرِّد لمحمد فريد أبو حديد في تعريبه لكتاب "فتح العرب لمصر" لمؤلفه المؤرِّخ المدقِّق الإنجليزي الشَّهير ألفريد جوا بتلر A. Butler يقول:

"ولابد أن كثيرين ممن كان في جيش العرب عند ذلك رأوا جميل المدائن في فلسطين والشَّام مثل أوديسا ودمشق وبيت المقدس، وقد يكون منهم من وقعت عينه على أنطاكيا الشَّهيرة، أو رأى عجائب تدمر. ولكن ذلك كله لم يكن شيئاً إذا قيس بعظمة المدينة التي تبدَّت لهم عند ذلك، وهي عظمة بارعة نادرة، تتجلى لهم، إذ يسيرون بين الحدائق وحوائط الكروم والأديرة الكثيرة بأرباضها.

فقد كانت الإسكندريَّة حتى القرن السَّابع أجمل مدائن العالم وأبهاها، فلم تبدع يد البناء قبلها ولا بعدها شيئاً يعدلها، اللَّهم إلاَّ روما وقرطاجنة القديمتين. فما سرحت العين لا تقع إلاَّ على أسوار وحصون لا نظير لها، بقيت بعد ذلك قروناً وهو مثار إعجاب من رآها من أهل الأسفار. وكانت تشرف وراء هذه الأسوار والحصون بدائع من قباب ومن عُمُد، بعضها اسطواني وبعضها مربَّع (وهي التي تسمى المسلاَّت) تقوم فوق قواعدها. ومن تماثيل ومعابد وقصور تتلألأ وتتألَّق.

فإذا ما تياسرت[11] رأيتَ دون ذلك معبد السرابيوم، وقد أناف بسقفه المذهَّب والقلعة التي كان يشرف فوقها عمود دقلديانوس. فإذا ما تيامنت بدت لك الكنيسة العظمى، كنيسة القدِّيس مرقس، تليها الأعمدة المربَّعة التي سُميت (مسلاَّت كليوباترا)[12]، وكانت عند ذلك قد عمِّرت

١١ ـ أي اتجهت يساراً. وقد جاء العرب إلى المدينة من ناحية الجنوب الشَّرقي لها.

١٢ ـ سلب البريطانيون والأمريكان هذه المسلاَّت من مصر، إحداها اليوم على شاطئ نهر التيمز، والأخرى في نيويورك. كان علو الواحدة أكثر قليلاً من عشرين مترا (٦٨ قدما).

نيفاً وألفي عام، وذلك ضعفا عمر المدينة نفسها. وفيما بين يسارك ويمينك كان البناء الجليل يبدو ظاهراً مشرقاً، ويلوح من ورائه ذلك الأثر العظيم المعروف باسم (فاروس) وكان النَّاس يعدونه إحدى العجائب السَّبع في العالم، وحق لهم أن يفعلوا. وما كان هذا الجلال الفائق والجمال البارع وما يبدو من عظمته وقوَّته إلاَّ ليقع في قلوب غزاة الصَّحراء موقعاً عجيباً، وقد رأوا ما رأوا من المدنية التي جاءوا يفتحونها[١٣]".

كانت المدينة تحفة معماريَّة بشوارعها المبلَّطة وميادينها المخطَّطة، ومبانيها الحجريَّة الجميلة، مثَّلت القصور فيها حوالي ثلثها. وحوت إستاداً ضخماً ومسرحاً مدرَّجاً، وحدائق عامة، ومعابد مهيبة، ومتحفاً عظيماً، ومكتبة مزوَّدة بحوالي ٧٠٠ ألف كتاب ومخطوطة، وهو أكبر عدد من الكتب عرفه العالم القديم. وظلَّت تحتفظ بمكانتها الثقافيَّة على مدى ألف عام.

وكان يسكن بها كثير من الأجانب المشتغلين بالتِّجارة والَّذين ينتمون إلى جاليات أجنبية مختلفة، وكان لكل جالية فندق خاص بها[١٤].

وفي الإسكندريَّة تم جمع المعلومات التي كانت أساساً لواحدة من أقدم الخرائط في العالم. وفيها تم وضع الهندسة على شكل نظريَّات. ومنها خرجت أوَّل فرضية بأن الأرض تدور حول الشَّمس، وفيها تم التوصُّل إلى معرفة دقيقة لتشريح الدِّماغ والقلب والعين.

وظلت الإسكندريَّة عاصمة البلاد السياسيَّة حتى أكتوبر سنة ٦٤١م، عندما فتحها عمرو بن العاص، ونقل العاصمة إلى الفسطاط، فقلَّ شأن

١٣_ د. ألفريد ج بتلر، فتح العرب لمصر، الجزء الأول، تعريب محمد فريد أبو حديد، القاهرة، ١٩٨٩م، ص ٢٥٥

١٤_ د. سلام شافعي محمود، أهل الذمة في مصر في العصر الفاطمي الأول، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٦٥، ص ١٦٥

المدينة تدريجياً بعد أن دُمر سور المدينة وأُشعلت السنيران في معظم كنائسها، ومن بينها كنيسة مار مرقس القديمة. أما الكتب الثَّمينة بالمدينة والتي عُرفت باسم "كتب الحكمة" فقد وُزعت على حمَّامات الإسكندريَّة لاستخدامها وقوداً في تسخين مياهها، فاستُنفذت في مدة ستة أشهر!.

الإسكندريَّة عاصمة البلاد الدِّينية حتى القرن الحادي عشر

كانت الإسكندريَّة عند الفتح العربي أهم مركز في الشَّرق تشع منه الثقافة اليونانيَّة والرُّومانيَّة. ولكنها فقدت بعد الفتح مكانتها السياسيَّة. فلقد رفض الخليفة عمر بن الخطاب أن يتَّخذ عمرو بن العاص الإسكندريَّة عاصمة له، لأنه لما طلب إليه الأخير ذلك سأله الخليفة: هل يحول بيني وبين المسلمين ماء؟ وإذ أجاب عمرو: نعم يا أمير المؤمنين إذا جرى النِّيل. فكتب عمر إلى عمرو: إني لا أحب أن تترل المسلمين مترلاً يحول الماء بيني وبينهم في شتاء ولا صيف. إذ لم يكن للعرب - وهم سكان البادية - أي دراية آنئذ بركوب البحار. فبنى عمرو مدينة "**الفسطاط**" في موضع خلاء بين النِّيل والمقطَّم.

وبعد أن فقدت الإسكندريَّة مكانتها السياسيَّة، كان طبيعياً أن تفقد مكانتها العلميَّة تبعاً لذلك. إلاَّ أنها ظلَّت عاصمة البلاد الدِّينية لأقباط مصر حتى منتصف القرن الحادي عشر للميلاد. وبرغم ذلك ظلَّت الإسكندريَّة محافظة على مكانتها الخاصة التي كانت لها في عهد البطالسة حتى أوائل القرن العاشر الميلادي حيث نجد في إحصاء مال الدَّولة إفراد باب خاص عنوانه "مصر والإسكندريَّة" فقد حافظت الإسكندريَّة على مكانتها باعتبارها قسماً مستقلاً بجبايته كما كان الحال على عهد البطالسة[١٥].

١٥ ـ د. سيدة إسماعيل كاشف، مصر في فجر الإسلام، مرجع سابق، ص ٣٤٤

وكان البابا البطريرك ومعه الأساقفة يذهبون من الإسكندريَّة مقر البطاركة إلى العاصمة لمقابلة والي مصر بعد الانتخاب للبطريركيَّة، وكانت هذه مسائل شكليَّة إذ لم يُعرف عن الولاة أنهم عارضوا في انتخاب أحد البطاركة مادام الأساقفة يتبعون القوانين الكنسيَّة(١٦).

أماكن انتقال الكرسي البابوي

ظل الكرسي البابوي موجوداً بالإسكندريَّة حتى زمن البابا خائيل الثّاني (٨٤٩- ٨٥١م). أما البابا قسيما الثّاني (٨٥١- ٨٥٨م) الـ ٥٤ فسكن في البلدة المعروفة بدميرة(١٧). وسكن البابا خائيل الثّالث (٨٨٠- ٩٠٧م) الـ ٥٦ في كنيسة السيِّدة العذراء بقصر الشَّمع (المعلقة)(١٨). لأنه لم يكن أحد من البطاركة مقيماً بالإسكندريَّة بعده(١٩).

أما البابا غبريال الأوَّل (٩١٠- ٩٢١م) الـ ٥٧ فأقام مدة بطريركيَّته كلها في وادي هبيب، لم يفارقه، ولم يسكن في الرِّيف ولا مصر، ولا الإسكندريَّة(٢٠). وسكن البابا مينا الثّاني (٩٥٦- ٩٧٥م) الـ ٦١ الرِّيف في بلدة محلة دانيال(٢١)، وسكنها أيضاً البابا فيلوثاؤس (٩٧٩-

---

١٦ـ يذكر الأنبا ساويرس أن عبد العزيز بن مروان أبطل انتخاب أحد البطاركة بعدما علم أن البطرك المتوفى كان قد أوصى بشخص غير الذي انتخب، وتم للوالي ما أراد، فعين اسحق بطركاً بدلاً من حرجة الذي كان قد انتُخب.

انظر: دكتورة سيدة إسماعيل كاشف، المرجع السابق، ص ١٩١

١٧ـ تاريخ بطاركة الكنيسة المصرية المعروف بسير البيعة المقدسة لساويرس ابن المقفع أسقف الأشمونين، المجلد الثاني، الجزء الأول، مطبوعات جمعية الآثار القبطية، قسم النصوص والوثائق، قام على نشره يسى عبد المسيح، وأسولد برمستر، القاهرة ١٩٤٣، ص ١١

١٨ـ نفس المرجع السابق، المجلد الثاني، الجزء الثاني، مطبوعات جمعية الآثار القبطية، قام على نشره يسى عبد المسيح، وعزيز سوريال عطية، وأسولد برمستر، القاهرة ١٩٤٨م ص ٧٦

١٩ـ سير البيعة المقدسة، المجلد الثاني، الجزء الثاني، مرجع سابق، ص ٨٢

٢٠ـ نفس المرجع، ص ٧٩

٢١ـ نفس المرجع، ص ٩٠

١٠٠٤م) البطريرك الـ ٦٣[٢٢].

وكان مقر البطريركيَّة في زمن البابا خريستوذولوس (١٠٤٦- ١٠٧٧م) الـ ٦٦ هو بلدة دمرو، والتي يبدو أنها كانت مركزاً دينياً هاماً، به ما لا يقل عن سبع عشرة كنيسة، إلاّ أن تخريب الدِّلتا على يد اللواتيين، وهم الذين قبضوا على البابا خريستوذولوس وعذَّبوه، كان في أغلب الظّن أحد الأسباب التي دعت إلى نقل مقر البطريركيَّة إلى القاهرة. فانتقل البابا خريستوذولوس إليها وجعل مقرَّه في كنيسة العذراء المعلَّقة بحصن بابليون. وكان البابا خائيل الرَّابع (١٠٩٢- ١١٠٢م) الـ ٦٨ قد أمر بإنشاء بيت في أعلى كنيسة السيِّدة العذراء المعلَّقة بقصر الشَّمع[٢٣]. وظلَّت كنيسة العذراء (المعلَّقة) مقراً للبطريركيَّة وحتى زمن البابا ثيؤدوسيوس (١٢٩٤- ١٣٠٠) الـ ٧٩ باستثناء البابا غبريال الثَّاني (بن تريك) (١١٣١- ١١٤٥) الـ ٧٠ والبابا يؤانس الخامس (١١٤٦- ١١٦٦) الـ ٧٢ اللَّذان أقاما في كنيسة القدِّيس مرقوريوس بمصر القديمة، وكذلك البابا كيرلس الثَّاني (١٠٧٨- ١٠٩٢م) الـ ٦٧ الذي جعل مقر البطريركيَّة في كنيسة الملاك ميخائيل بجزيرة الروضة، في الموضع المعروف بالمختارة، وأقام في جوسق كان فيها، وكان يشتهي أن يكون مقامه في الرِّيف فلم يقدر لكثرة الرُّسُل الوافدين إليه من بلاد الحبشة والنوبة والعائدين إليها، وحاجة السُّلطان إلى حضوره عنده في كل وقت[٢٤].

ثم انتقل المقر إلى كنيسة السيِّدة العذراء بحارة زويلة في أيام البابا يؤانس الثَّامن (١٣٠٠- ١٣٢٠م) وهو البطريرك الـ ٨٠ وظلَّ مقراً للبطريركيَّة حتى إلى زمن البابا متاؤس الرَّابع (١٦٦٠- ١٧٧٥م) الـ ١٠٢

٢٢- نفس المرجع، ص ١٠٠

٢٣- نفس المرجع، ص ٢٤٨

٢٤- سير البيعة المقدسة، المجلد الثاني، الجزء الثالث، مرجع سابق، ص ٢١٠

الذي نقل المقر إلى كنيسة السيِّدة العذراء بحارة الرُّوم[٢٥] .

أما البابا مرقس الثَّامن (١٧٩٦- ١٨٠٩م) وهو البطريرك الـ ١٠٨ فقد نقل المقر البابوي من كنيسة العذراء بحارة الـرُّوم إلى الكاتدرائيَّة المرقسيَّة الكُبرى بالأزبكيَّة في سنة ١٧٩٩م حيث بنى القلاَّية البطريركيَّة القائمة حتى اليوم إلى جوار الكاتدرائيَّة[٢٦]. وكان البابا بطرس السَّابع (١٨١٠- ١٨٥٢م) البطريرك الـ ١٠٩ هو أوَّل من رُسم بطريركاً بها، وشهدت الكاتدرائيَّة تنصيب ثمانية بطاركة من بعده وحتى البابا كيرلس السَّادس (١٩٥٩- ١٩٧١م) البطريرك الـ ١١٦.

ثم انتقل مقر البطريركيَّة إلى الكاتدرائيَّة المرقسيَّة الجديدة بالعباسيَّة بالقاهرة في عهد البابا الحالي شنوده الثَّالث البطريرك الـ ١١٧، وكان البابا كيرلس السَّادس قد بدأ بتشييدها، لكنه تنيَّح قبل أن ينقل كرسيه إليها.

* * *

ويقول د. حسين مؤنس في كتابه "مصر ورسالتها":
"استمرت مصر تحمل مسؤوليتها عن حضارة البحر الأبيض المتوسط حتى الفتح العربي ولفترة طويلة خلاله، ولكن ذلك الاهتمام بالبحر لم

٢٥- أوقف المعلم إبراهيم الجوهري منزلاً بحارة الرُّوم ليكون مقراً دائماً للبابا. كما بنى المعلم جرجس بن منصور المباشر مقراً صيفياً للبابا في مصر القديمة بجوار كنيسة العذراء المعلَّقة.

٢٦- بُنيت الكاتدارئيَّة بفرمان سلطاني، وأكمل بناءها المعلم جرجس الجوهري، وتم تكريسها في ١٥ سبتمبر سنة ١٨٠٠م بيد البابا يؤأنس الثامن، في عهد محمد علي باشا. وكان قداسة البابا شنوده الثالث الـ (١١٧) قد احتفل مع لفيف من الآباء الأساقفة بمرور ٢٠٠ سنة على تكريسها، وذلك يوم ١٤ سبتمبر سنة ٢٠٠٠م. وتضم الكاتدارئيَّة أجساد ثمانية من الآباء البطاركة، من البابا مرقس الثامن (١٧٩٦- ١٨٠٩م) الـ (١٠٨) إلى البابا يوساب الثاني (١٩٤٦- ١٩٥٦م) الـ (١١٥).

يلبث أن تضاءل، لأن العرب حرصوا على أن يقطعوا صلات مصر بالبحر وما يليه، قطعاً لكل أمل للرُّوم في العودة إلى مصر، وتأميناً لها من أخطار الغزو من وراء البحر".

وشيئاً فشيئاً أُقفل هذا الباب، وانقطعت علاقات مصر بالبحر، وفقدت الإسكندريَّة أهميَّتها، وما أتى القرن الحادي عشر حتى كانت المدينة كلها أطلالاً خربة، وكانت الزَّلازل الكثيرة سبباً من أسباب انهيار المدينة، ولكن ظلَّت الأعمدة الكثيرة التي كانت في منطقة السرابيوم قائمة حتى ذلك الوَقت. غير أنه حدث في سنة ١١٦٧م أن حاكماً جاهلاً للإسكندريَّة اسمه "قراجا" وكان من وزراء صلاح الدِّين أمر بهدم هذه الأعمدة وحمل أكثرها إلى البحر فألقاها فيه ليحول بين العدو وبين النزول إلى البَر. ومنذ ذلك الحين بقى عامود دقلديانوس وحده، بقية مما كان في قلعة الإسكندريَّة من الأبنية التي لم يكن لها مثيل، فتحوَّلت المدينة إلى قرية على البحر[٢٧].

أجل، هذا البلد الذي كان دُرَّة البحر الأبيض، والذي وجده العرب لدى دخولهم عجيبة من عجائب الزَّمان، هذا البلد الذي هو رئة مصر التي تتنفَّس بها، لم يعد له في تاريخ البحر الأبيض مكانة تُذكر[٢٨].

ويرجع إلى محمد علي في القرن التَّاسع عشر الفضل الأكبر في وضع بذور ازدهارها الثَّاني الذي بلغ قمته في النصف الأوَّل من القرن العشرين. فقد عادت إليها الحيويَّة بعد حفر ترعة المحموديَّة سنة ١٨٢٠م، فتزايد عدد سكانها، وارتبطت بالقاهرة بخط حديدي اعتباراً من سنة ١٨٥٦م، كما ترتبط بها برياً ومائياً أيضاً. وأصبحت الإسكندريَّة مركزاً تجارياً عالمياً.

٢٧ـ ألفريد بتلر، فتح العرب لمصر، الجزء الثاني، مرجع سابق، ص ٣٣٦
٢٨ـ د. نعمات أحمد فؤاد، شخصية مصر، مرجع سابق، ص ١١٧

وأُعيد تخطيطها على نمط حديث. وفي سنة ١٩٤٢م أُنشئت بها جامعة سُميت جامعة فؤاد الأوَّل، "جامعة الإسكندرية اليوم". وظلَّت الإسكندريَّة حتى نهاية السِّتينيَّات مدينة مرموقة. ولا يصدر عن المدينة حتى اليوم صحيفة يومية واحدة، أو مجلة ثقافية ذات قيمة، أما بقية الفنون والآداب الأخرى فترد إليها من القاهرة.

إن تاريخ آثار الإسكندرية لم يكتبه أحد بعد، ومن أراد أن يكتبه لابد له من بحث كثير، ربما لا يتيسَّر اليوم في كثير من المواضع.

مكتبة الإسكندريَّة

أنشأها بطليموس الأوَّل حوالي سنة ٣٠٠ق م لنقل الآداب والعلوم اليونانيَّة إلى مصر. وازدهرت المكتبة في أيام بطليموس الثَّاني (٢٨٥- ٢٤٦ق م)، وبطليموس الثَّالث (٢٤٦- ٢٢١ق م). وكانت كُتبها مدوَّنة على ورق البردي، وعلى الرُّقوق، على شكل لفائف تحوي كل لفافة موضوعات متنوِّعة، بالإضافة إلى نحو ٩٠ ألف لفافة مفردة، أي لمصنف واحد ولمؤلف واحد. وكان في الإسكندريَّة في العهدين اليوناني والرُّوماني مكتبتان: الأولى المكتبة الكُبرى، وكانت بالبروكيوم بالحي الملكي القريب من موقع المكتبة الحاليَّة (مكتبة الإسكندريَّة الجديدة)، والثَّانية المكتبة الصُّغرى، وكانت بمعبد السرابيوم بالحي الشَّعبي. كما كان هناك أيضاً الميزيون Museion وهو "المجمَّع العلمي" الذي أقام فيه العُلماء والفلاسفة، وكان يقع بقرب المكتبة الكُبرى أو المكتبة الأم.

أما المكتبة الكُبرى فقد أنشأها بطليموس الثَّاني، وبلغت مجموعاتها حوالى ٤٣ ألف من لفائف البَردي. واقتفي بطليموس الثَّالث خطوات أبيه وجده في تغذية المكتبة بالكتب النَّفيسة النَّادرة، فأصدر أمراً يحتِّم على القادمين من الخارج إلى مدينة الإسكندريَّة بأن يسلِّموا كل ما معهم من

كتب عند وصولهم لإيداعها في مكتبة الإسكندريَّة إذا لم يوجد بالمكتبة نسخ مثلها، على أن تُنسخ صورة من هذه الكتب تعطى لأربابها بدلاً من النُّسخ الأصليَّة.

كما استعار من أثينا النُّسخ الأصليَّة لمؤلَّفات كبار العُلماء، وقدَّم إزاء ذلك ضماناً مالياً يُقدَّر بحوالي ٦٠,٠٠٠ جنيه إنجليزي، لكنه آثر استبقاء النُّسخ الأصليَّة بالمكتبة الكُبرى، وردَّ لأثينا الصُّور التي نُسخت بدلاً منها. وهكذا بلغت مكتبة الإسكندريَّة شأواً رفيع المستوى.

وفي سنة ٤٨ق.م وصل يوليوس قيصر إلى مصر مطارداً بومبيوس غريمه في الحرب الأهليَّة الرُّومانيَّة، ليجد نفسه متورِّطاً في حرب أهليَّة بمصر، وهي الحرب التي دارت بين كليوباترا وأخيها بطليموس الثَّالث عشر، وانحاز قيصر لكليوباترا. ولما تعزَّز أسطول خصمه بخمسين سفينة حربيَّة قبالة الشَّاطئ، أضرم قيصر النيران في سفن ذلك الأسطول، فامتد الحريق الذي التهم السُّفن نحو الشَّاطئ والتهم أيضاً وجه الإسكندريَّة ودار صناعة السُّفن، وما جاوره من المباني. ويُظن أن من بينها مكتبة الإسكندريَّة العُظمى[٢٩]. وباحتراق مكتبة الإسكندريَّة احترقت حضارة أمَّة. وذهب المؤرِّخ اليوناني بلوتارك المتوفى سنة ١٢٥م إلى القول بأن مقدار ما التهمته النِّيران في تلك الحادثة بلغ ٤٠٠ ألف مجلَّد. وبذلك فقدت الحضارة تراثاً لا يمكن أن يُعوَّض. ورأى يوليوس قيصر أن يعوِّض مصر عن هذه الخسارة العلميَّة، فأهدى إلى كليوباترا ما يقرب من ٢٠٠ ألف مجلَّد غنمها من مكتبات ملوك برجامون. وقد أودعت هذه المجموعة في أحد المعابد. والمعروف أن هذا المعبد ومكتبته قد دُمرا أثناء الثورات

٢٩- لم يذكر المؤرخون المعاصرون لهذه المعركة البحرية أمثال سترابون ولوكياس شيشرون شيئاً عن حريق طال هذه المكتبة الشهيرة. ولازال موضوع حريق مكتبة الإسكندريَّة يكتنفه الغموض.

التي وقعت سنة ٣٦٦م.

أما مكتبة السرابيوم[٣٠] (المكتبة الصُّغرى)، فيختلف العلماء في أمرها، ولا يمكن القطع بالقول هل نُقلت المكتبة من السرابيوم إلى القسطنطينيَّة قبل سنة ٣٩١م، وهي السَّنة التي اشتد فيها النزاع بين الوثنيَّة المتضعضعة والمسيحيَّة التي صارت الدِّيانة الرسميَّة للدَّولة الرُّومانيَّة، أم امتدت إليها يد التَّخريب هي الأخرى في تلك السَّنة عينها؟ ولقد كتب المؤرِّخ أوراسيوس سنة ٤١٦م يقول: إنه رأى الرُّفوف أو الصَّناديق في السرابيوم فارغة ليس فيها شئ من الكتب، و لم يشر إلى وجود أي مكتبة تستحق الذِّكر في الإسكندريَّة.

أما "المجمَّع العلمي" Museion فقد ظل متمتِّعاً بحماية أباطرة الرُّومان بعد أن أصبحت مصر إحدى ولايات الإمبراطوريَّة الرُّومانيَّة. وكان بمثابة العمود الفقري للجامعة، وقد احتل واحداً من أكبر القصور في المدينة، وكان به قاعة كبيرة بها العديد من المناضد والمقاعد ليستعملها الطلبة أثناء المحاضرات. وكذلك احتوي على كثير من الغرف والمعامل للتَّحليل

٣٠ـ السرابيوم هو مجموعة من الأبنية ذات جمال رائع، كان لها أثر في نفوس العرب، فقد روى المقريزي عن المسعودي وصفاً للسرابيوم فيقول: "وكان بالإسكندريَّة قصر عظيم لا يماثله قصر في بلاد العالم قائم على تل عظيم تجاه باب المدينة". وكان بالقصر مائة عمود، لم يبق منها اليوم سوى "عمود دقلديانوس"، والذي سماه العرب "عمود السَّواري"، ولسنا نعلم في أي وقت أُقيم، وهذه الأعمدة قد زالت أو كانت على الأقل قد هُدمت في أيام الإمبراطور ثيؤدوسيوس، وكان الحي معروفاً بالحي المصري، وكان اسمه "راكوتي"، وهو الاسم القديم للقرية التي بنى عليها الإسكندر الأكبر مدينة الإسكندريَّة. ويقع الحي على مقربة من الباب الجنوبي للمدينة. وفي هذا المكان كان يقع معبد سيرابيس. وفي العصر المسيحي أُقيم في موضع السرابيوم كنيسة باسم القدِّيس يوحنا المعمدان، عدا كنائس أخرى كانت لا تزال قائمة عند دخول العرب مصر، منها كنائس القدِّيسين قزمان ودميان، والإنجيليين.

والتَّجارب، وأخرى للتَّشريح مستخدمين الجثث الآدميَّة ونماذج أخرى للأبحاث. وكان ملحقاً به حديقة نباتيَّة كبيرة لزراعة العديد من الأعشاب الطبيَّة المستخدمة في دراسة العلوم الصيدليَّة بالإضافة إلى حديقة حيوان بها الكثير من الحيوانات الحيَّة والمحَنَّطة، وقسم آخر لمختلف أنواع الأحجار والمعادن، وكذلك مرصد فلكي كبير.

وفي القرن الثَّالث الميلادي ومع انحدار الإمبراطوريَّة الرُّومانيَّة بدأ الميزيون Museion في تلقى الضَّربات، فتشتَّت العُلماء والفلاسفة بتهمة ممارسة السِّحر والشَّعوذة، وفي أيام حكم القيصر فالنس سنة ٣٣٦م، حُوِّل "المجمَّع العَلمي" إلى كنيسة ونُهبت مكتبته. ولم يكن من ملاذ سوى السرابيوم. وحتى هذا الأخير لم ينج من التَّدمير إذ في سنة ٣٨١م خُربت مكتبة السرابيوم بعد هدم المعبد بأمر من القيصر ثيؤدوسيوس الكبير (٣٧٩ـ ٣٩٥م) وأُشعلت النيران في المكتبة. وبعد مقتل عالمة الرياضيَّات "هيباتيا" ابنة "ثيون" سنة ٤١٥م وهي آخر علماء المكتبة تنتهي تماماً أسطورة مكتبة الإسكندريَّة القديمة[٣١].

وبعد ستة عشر قرناً من الزَّمان، ومن موقع قصر البطالسة القديم وأمام شاطئ الشَّاطبي أُنشئت مكتبة الإسكندريَّة الجديدة في احتفالية عالميَّة رائعة نُقلت على شاشات التليفزيون، وشاهدها الملايين من البشر وسط فرحة عالمية بعودة الحياة لأشهر مكتبة في التَّاريخ.

وقد نبتت هذه الفكرة العملاقة في سنة ١٩٧٤م، حين دعا الدكتور مصطفي العبادي لإحياء مكتبة الإسكندريَّة القديمة، وتبنى الدكتور لطفي

٣١ـ د. سمير يحيي الجمال، تاريخ الطب والصيدلة المصرية في العصر اليوناني ـ الروماني، مرجع سابق، ص ٥٣٩ ؛ ومقال للدكتور إسماعيل سراج الدين بجريدة وطني في ٢٩ سبتمبر ٢٠٠٢م، ص ١٢

دويدار رئيس جامعة الإسكندريَّة هذا المشروع، فقدَّمت الجامعة الأرض لبناء المشروع المنشود، كما قامت ببناء مركز المؤتمرات في الموقع التَّاريخي المطل على الميناء الشَّرقي بالإسكندريَّة في نفس موقع مكتبة الإسكندريَّة القديمة.

وبعد أن أصبح مشروع مكتبة الإسكندريَّة مشروعاً قومياً، صدر القرار الجمهوري الذي يقضي بإنشاء الهيئة العامة لمكتبة الإسكندريَّة في سنة ١٩٨٨م، وكان للدكتور أحمد فتحي سرور وزير التعليم في ذلك الوقت الفضل في إعداد هذا القرار وفي مد أواصر الصداقة مع منظمة اليونسكو التي لعبت دوراً عظيماً في دعم المشروع، حيث قامت مع الاتحاد الدولي للمعماريين بتنظيم مسابقة دوليَّة في سنة ١٩٨٩م شارك فيها مئات المكاتب الهندسيَّة من كافة أنحاء العالم، وفاز مكتب سنوهتا بالجائزة الأولى لأفضل تصميم، واستكمل اتحاد شركات سنوهتا تصميم المشروع والإشراف على تنفيذه.

وبإعلان الرَّئيس مبارك في أسوان سنة ١٩٩٠م الدَّعوة لإحياء مكتبة الإسكندريَّة نشأت صداقات متعدِّدة بين المكتبة والعالم الخارجي. ولم يحدث في التَّاريخ القديم أو المعاصر أن تكاتف العالم لإحياء مؤسَّسة ثقافيَّة مثلما تكاتف لإحياء مكتبة الإسكندريَّة. فلقد شاركت حوالي ٢٧ دولة ومؤسَّسة من كافة أنحاء العالم في دعم المشروع حتى وصل إجمالي الدَّعم إلى ١٠٠ مليون دولار أمريكي[٣٢].

وبرئاسة السيِّدة سوزان مبارك حرم رئيس الجمهورية للَّجنة الاستشاريَّة الدوليَّة لمشروع مكتبة الإسكندريَّة حظى المشروع بدفع عجلة التَّنفيذ بإصرار لا يكل ولا يمل، حتى صار واقعاً ملموساً في تحفة معماريَّة

٣٢ـ وصلت التكلفة الإجمالية للمشروع إلى ٢٢٠ مليون دولار أمريكي.

قابعة الآن على شاطئ الإسكندريَّة الجميل.

وقد بدأ البناء الفعلي لمكتبة الإسكندريَّة في سنة ١٩٩٥م، وتم استكماله وإعداده للافتتاح في ١٣ أكتوبر سنة ٢٠٠٢م في احتفاليَّة رائعة شارك فيها بعض رؤساء وملوك الدول وكثير من رؤساء الحكومات والهيئات العالميَّة. واستمر مهرجان الافتتاح طوال شهر أكتوبر وشاركت فيه عدَّة دول بعروض مسرحيَّة وموسيقيَّة عالمية. وصار الدكتور إسماعيل سراج الدِّين أوَّل مدير للمكتبة في عصرها الحديث.

ومع افتتاح المكتبة كانت هناك ١٩ جمعيَّة في أنحاء العالم باسم جمعيَّة أصدقاء مكتبة الإسكندريَّة[٣٣]، إلى جانب الجمعيَّة المصريَّة لأصدقاء مكتبة الإسكندريَّة والتي أسَّسها ورأسها الدكتور عادل أبو زهرة.

وعند مدخل المكتبة الجديدة يقف تمثال بطليموس الثَّاني مؤسِّس مكتبة الإسكندريَّة القديمة، وكان قد تم انتشاله من أمام شاطئ المكتبة سنة ١٩٩٦م، ويتكوَّن من أربعة أجزاء مكسورة من الرأس والذراع والتَّاج والجذع، وقد تم تجميعها في فرنسا[٣٤].

وتتكوَّن المكتبة الجديدة - والتي حازت على جائزة الأمم المتحدة كأذكى مبنى في العالم - من ثلاث كتل أكبرها مبنى المكتبة، وهي اسطوانة مائلة في مواجهة البحر، وعلى شكل قرص الشَّمس مشرقاً لتوه خارجاً من الماء، حيث يحيط بالمبنى حوض مائي، فتنعكس صورتها عليه. وقاعات القراءة على سبعة مستويات متدرِّجة كالشَّلال، أربعة منها تحت

٣٣- نشأت هذه الجمعيات في الدول الآتية: استراليا، بلغاريا، كندا، فنلندا، فرنسا، ألمانيا، اليونان، إيطاليا، المكسيك، النرويج، البرتغال، روسيا، جنوب أفريقيا، أسبانيا، السويد، سويسرا، المملكة المتحدة، اليونسكو، والولايات المتحدة الأمريكية.

٣٤- جريدة وطني في ٢٧ أكتوبر سنة ٢٠٠٢م، ص ١٢

الأرض، واثنان فوقها، بالإضافة إلى دور المدخل. وتتَّسع المكتبة لحوالي أربعة ملايين كتاب، وموجود بها يوم افتتاحها ٢٥٠ ألف كتاب، وتعمل المكتبة بنظام OPAC الذي يساعد القارئ على الوصول إلى مكان الكتاب الذي يريده بسهولة. والكتلة الثّانية في أقصى شرق المكتبة وهي مبنى مركز المؤتمرات. أما الكتلة الثّالثة فهي مبنى القبة السماويَّة، وهي كُرة ضخمة تومض بأحزمة زرقاء مضيئة تغوص في بئر[٣٥]. وهي لعرض أفلام عن الأجرام السَّماويَّة.

كما أن للمكتبة قاعة للإنترنت تتَّسع لأكثر من ثلاثة آلاف مقعد مزودة بأرشيف يتسع لألفي مليون صفحة، بالإضافة لوجود بعض المتاحف مثل متحف العلوم[٣٦]، الآثار[٣٧]، المخطوطات[٣٨]. وبعض المعاهد والمراكز البحثيَّة مثل مركز المخطوطات، مركز الوثائق، والمعهد الدولي للدِّراسات المعلوماتيَّة. وبها معمل التَّرميم، وهو لترميم المخطوطات والكتب النَّادرة والخرائط، كما يقوم بعمل الإصلاحات السَّريعة للكُتُب المستخدمة، ومتابعة تعقيمها.

٣٥- ثلثاها فوق سطح الأرض، بينما يختفي الجزء الثالث المتبقي تحت مستوي الأرض.

٣٦- أهدي بالكامل من فرنسا للمكتبة، واستخدمت فيه تقنيات متطوِّرة للعرض المتحفي تقوم على تقسم المتاحف إلى مراحل تاريخيَّة، وهو يهدف إلى تقديم معلومات متكاملة عن تطور العلوم في العالم. ويتكون من: القسم الفرعوني، والقسم اليوناني، وقسم العلوم العربيَّة.

٣٧- به نحو ١٠٨٠ قطعة أثرية تنتمي لمجموعة الحضارات الفرعونية واليونانيَّة والرُّومانيَّة والقبطيَّة والإسلاميَّة.

٣٨- متحف المخطوطات يضم ٢٤ وحدة عرض تستوعب ما يقرب من مائة مخطوطة مقرونة بشرح باللغات العربيَّة والإنجليزية والفرنسية والألمانية والإيطالية والأسبانية. وبه أجهزة كومبيوتر بشاشات لمسية مما يتيح الاطلاع التفصيلي على أي مخطوطة، مع تقليب الصفحات، وتكبير الجزء المراد بحثه، والاستماع إلى التعليق والشرح المناسب.

ويقول دكتور إسماعيل سراج الدِّين مدير المكتبة: إن مكتبة الإسكندريَّة ترتكز في رسالتها على أربعة محاور؛

(١) أن تكون نافذة العالم على مصر.

(٢) أن تكون بوابة المصريين للتعرُّف على حضارات العالم، خاصة ثقافات البحر المتوسط وأفريقيا.

(٣) أن تكون مكتبة للعصر الرَّقمي الجديد[٣٩]، تستثمر إنجازات ثورة المعلومات والاتصالات، لتتيح تبادل المعلومات في صورة إلكترونيَّة.

(٤) أن تصبح مركزاً للتَّعليم والحوار بين الثَّقافات، متفرِّدة بمجالات تجعلها مرجع العالم فيها[٤٠].

مدرسة الإسكندريَّة الوثنيَّة

كان الإسكندر الأكبر تلميذاً للعالم الكبير والفيلسوف العظيم أرسطو، وكان مثل كل الملوك الذين أعقبوه شغوفين بالعلم ومن أكبر أنصار العلوم. فأسَّسوا بالإسكندريَّة متحفاً عظيماً يحوي مكتبة كبيرة ومرصداً لرصد الأجرام السَّماويَّة[٤١]، فلم تلبث الإسكندريَّة أن أصبحت قبلة العلماء والفلكيين. ولقد أنشأ هذه المدرسة بطليموس الأوَّل ملك مصر، وهي لم تكن مدرسة بالمعنى المتعارف عليه، بل كانت أشبه بحلقات متسلسلة من العلماء الذين خدموا العلم والآداب على مدي تسعة قرون،

٣٩ـ وتنقسم المكتبة الرَّقمية إلى سبع مستويات: جذور المعرفة (الدِّيانات - الفلسفة - الجغرافيا - التَّاريخ - التَّراجم)، اللُّغات والآداب، الفنون والعمارة والرِّياضة، العموميَّات (التِّجارة والسِّياحة والفنون)، العلوم الاجتماعيَّة، العلوم البحثيَّة والتَّطبيقيَّة، التِّكنولوجيا الحديثة.

٤٠ـ مقالان بجريدة وطني في ٢٩ سبتمبر، ص ١٢، و٢٧ أكتوبر، ص ١٢ لسنة ٢٠٠٢م

٤١ـ كانت جامعة الإسكندريَّة القديمة هي أوَّل من استخدم العدسات في تصنيع الميكروسكوبات الكونيَّة.

وكانت المكتبة الكُبري والمكتبة الصُّغرى، ومجمع العلوم (Museion) الذي هو جزءٌ من القصور الملكيَّة، هي الأماكن التي يعقد فيها هؤلاء العلماء حلقاتهم الدِّراسيَّة.

وفي خلال الخمسة قرون التالية كان جميع الفلكيين ذوي الشهرة الواسعة من علماء مدرسة الإسكندرية وحدها باستثناء العالم اليوناني الشَّهير "هباركس".

وكان أرستاركس Aristarchus أحد علماء المدرسة الأقدمين يعتقد بدوران الأرض وهي الحقيقة العلميَّة التي تم إثباتها بالبُرهان الصَّحيح في القرن السَّادس عشر. وآخرون من العُلماء من هذه المدرسة(٤٢) كان لهم الفضل في أنهم أوَّل من قاسوا مواقع النُّجوم، وقياس قطر الأرض. ومن علماء هذه المدرسة سوسجنز Sosignes (٤٥ ق.م) الذي ابتكر فكرة السَّنة الكبيسة لجعل متوسِّط طول السَّنة المدنيَّة مساوياً لطول السَّنة النَّجميَّة التي كان المصريون القدماء قد اتخذوها وحدة أساسيَّة لقياس الزَّمن.

ومن أشهر علماء مدرسة الإسكندريَّة أيضاً بطليموس كلانديوس Clanduis Ptolimous الذي عاش في الإسكندريَّة في منتصف القرن الثَّاني

٤٢ـ مثل أرستيلاس Aristyllus، وتيماخاريس Timacharis. ومنهم أيضاً أراتوستيس وأبولونيدس روديوس Apollonids Rhodius والعالم النحوي أريتوستنيس مدير المكتبة الكبرى وأبولونيوس العالم الفلكي وصاحب نظريات حركات الكواكب الذي خلفه في إدارتها. وأرسطوفانيس أشهر عالم في النحو عند الأغريق. وأرشميدس العالم الشهير مبتكر علم الإستاتيكا وأحد تلاميذ العالم الرياضي والفلكي النابغة كونون من ساموس، وهذا الأخير وضع سبعة كتب في علم الفلك وأهداها لبطليموس الثالث. وهو الذي أطلق على مجموعة من النجوم اسم "جدائل شعر برفيقي"، وبرفيقي هي زوجة بطليموس الثالث، وقد نذرت هذه الملكة أن تضحي بجدائل شعرها إذا عاد زوجها بطليموس الثالث سالماً من حربه مع سوريا. ولما عاد جزَّت الملكة جدائل شعرها وقدمتها قرباناً في معبد أرسنوي أفروديتي.

قبل الميلاد، واشتهر بمؤلفه العظيم المسمى "المجسطي" والذي ظل المرجع الأساسي للعلوم طيلة ١٥ قرناً(٤٣).

ويذكر "مافي" في كتابه "إمبراطوريَّة البطالمة" أن مدرسة الإسكندريَّة أو جامعة الإسكندريَّة - وهي أقدم جامعة عرفها العالم - اتُخذت نموذجاً لكل الجامعات التي تلتها، وعلى غرارها نشأت جامعات أوروبا في العصور الوسطى.

ومن أشهر مآثر هذه المدرسة ترجمة التوراة من العبريَّة إلى اليونانيَّة في عصر بطليموس الثَّاني، وهي التَّرجمة المعروفة بالتَّرجمة السَّبعينيَّة.

وظهر الفيلسوف اليهودي فيلو كأوَّل فيلسوف يهودي في مدرسة الإسكندريَّة في القرن الأوَّل الميلادي، وانشغل بإثبات قضايا الدِّين عن طريق الفلسفة، وهو الاتجاه الذي كان له تأثير كبير خلال العصور الوسطى المسيحيَّة والإسلاميَّة(٤٤).

ولقد تهدَّم جزء كبير من الجامعة أثناء زلزال خطير أصاب مدينة الإسكندريَّة قبل سنوات من الفتح العربي، ولكن ما تبقى منها ظل يمارس نشاطه العلمي إلى حوالي سنة ٧١٩م.

ولقد أُنشئت جامعة أخرى في سنة ١٩٣م بواسطة الفيلسوف الإغريقي أمونيوس وسماها الجامعة الفيلسوفيَّة، وذلك لنشر الفلسفة الأفلاطونيَّة الجديدة، ولكنها انحرفت عن خطها المرسوم منذ سنة ٣٦١م وانصرفت إلى تدريس السِّحر مما دعا الحاكم الرُّوماني إلى

---

٤٣ ـ د. عبد الحميد سماحة، تاريخ الحضارة المصرية، مرجع سابق، ص ٥٨٢

٤٤ ـ د. سمير يحيي الجمال، تاريخ الطب والصيدلة المصرية في العصر اليوناني ـ الروماني، مرجع سابق، ص ٥٠٧

غلقها نهائياً سنة ٥٢٩م.

وجدير بالذِّكر أنه قد استمرَّت كثير من جامعات المعابد المصريَّة والمدارس الجديدة التي أُنشئت في الأماكن النَّائية - خوفاً من بطش الأسرة البطلميَّة الحاكمة، ثم الرُّومان- في تعليم المصريين كافة كسابق عهدهم، وحافظت على التَّقاليد المصريَّة العريقة للحضارة المصريَّة بدون انقطاع حتى إلى ما بعد الفتح العربي. ولقد حافظت هذه المدارس الفرعونيَّة على وجودها حتى بعد انتشار المسيحيَّة في مصر، ولكن في الأماكن البعيدة عن العمران هرباً من بطش الحكام[٤٥].

اليهود في الإسكندريَّة

في أيام البطالسة كان الأجانب في مدن عديدة يتمتَّعون بامتيازات تفوق امتيازات أهل البلاد. وتمشياً مع هذه السياسة أمكن لليهود في الإسكندريَّة أن يحصلوا على امتيازات خاصة. وإن كانوا لم يتمتعوا بكافة الحقوق المدنية، إلاَّ أنه كان لهم من النفوذ في الإسكندريَّة أكثر مما كان لهم في أي مكان آخر في العالم القديم. وأُعطي لليهود قسم خاص بهم في المدينة كما كان لليونانيين قسمهم الخاص، وكذا للمصريين. وكان لكل قسم حكومة مستقلة. وكان لليهود مجامع كثيرة في القسم اليهودي من المدينة. وكان يحكم هذا القسم في البداية حاكم عبراني، لكن في أيام أوغسطس قيصر أصبح يحكم القسم اليهودي ٧١ أرخناً. وفي أيام فيلو كان لليهود حريَّة الانتقال بين هذه الأقسام جميعاً.

ولقد وصل اليهود إلى قمة ثرائهم وتعليمهم ووضعهم الاجتماعي.

٤٥- د. سمير يحيي الجمال، تاريخ الطب والصيدلة المصرية في العصر الفرعوني، مرجع سابق، ص ١٧٢، ١٧٣

وفي أيام بطليموس السَّادس وكليوباترا كان قائد الجيش من اليهود، كما كان في جيش بطليموس الأوَّل ٣٠,٠٠٠ جندي من اليهود، وقد اكتُشفت ثكناتهم منذ عهد قريب. وفي أثناء حكم الرُّومان احتفظ اليهود بحقوقهم فيما عدا فترات قصيرة من الاضطهاد على يدي الحاكم المجنون "كاليجولا". كما كان اليهود يحتكرون معظم الصِّناعات الهامة، وكذا تجارة القمح. ولقد عانت المسيحيَّة الناشئة في مصر من وشايات هؤلاء اليهود الذين كثيراً ما انضموا إلى الوثنيين لاضطهاد الكنيسة. وعندما أصبحت المسيحيَّة هي الدِّيانة الرَّسميَّة للدَّولة بدأ اضطهاد اليهود، ولاسيَّما عندما انتصر هرقل على الفرس سنة ٦٢٩م. وإن كُتب الحكمة اليهودية قد كُتبت أصلاً في الإسكندريَّة، ولكن الأهميَّة الحقيقيَّة للإسكندريَّة بالنسبة لليهود كانت في التَّعاليم التي هيأتهم لقبول الإنجيل الذي صار للعالم كله، والذي كان على وشك أن يكرز به عبرانيون من الجليل قد تثقَّفوا بالثَّقافة الهيلينيَّة[٤٦].

ثانياً: مصر ولاية رومانيَّة

دخلت مصر تحت حكم روما باعتبارها ملكاً خاصاً للإمبراطور أغسطس قيصر (أكتافيوس)، وقد عيَّن كورنيليوس جاللوس نائباً عنه في مصر وهو من طبقة الفرسان، واحتفظ لنفسه بالسُّلطة العليا بها، معتبراً نفسه ملك مصر ووارث عرش الفراعنة. وكان أوكتافيوس جباراً طاغية، قبض على زمام إمبراطوريَّته المترامية الأطراف بيد من حديد، وظل إلى نصف قرن هو الحاكم بأمره في العالم كله[٤٧]. وتابع الإمبراطور سياسة

---

٤٦ ـ دائرة المعارف الكتابية، الجزء الأول، دار الثقافة، القاهرة ١٩٨٦م، ص ٢٧١.

٤٧ ـ د. سمير يحيى الجمال، تاريخ الطب والصيدلة المصرية في العصر اليوناني ـ الروماني، مرجع سابق، ص ٤٧٣

البطالسة في ممالأة الكهنة المصريين، وما كان أسرع هؤلاء في اعتباره فرعوناً من نسل الآلهة. وأتى الرُّومان بآلهتهم الرُّومانيَّة إلى مصر وشيَّدوا لها معابد فيها، ولكنهم لم يفرضوا على أهل مصر عبادة تلك الآلهة. فالرُّومان قوم لا يتمسَّكون بدينهم كثيراً ولا يتعصَّبون له، إذ انصرف اهتمامهم إلى إخضاع البلاد التي فتحوها بالقوَّة والقهر.

فخضعت مصر للرُّومان سنة ٣١ق م، واستمرت مصر ولاية رومانيَّة حتى سنة ٣٩٥م. أما الفترة من (٣٩٥- ٦٤١م) فهي المعروفة بالعصر البيزنطي. وفي عهد أغسطس قيصر بدأ العمل بالتَّقويم المصري المعدَّل (التَّقويم اليولياني).

كان المجتمع المصري يتألَّف من عدة طوائف يأتي في مقدِّمتها الرُّومان ثم الإغريق ثم اليهود الذين كونوا في مصر جالية كبيرة تمتَّعت بكثير من الامتيازات، وفي آخر درجة وأقل مرتبة كان يأتي المصريون، فاعتُبر المصريون دون الطوائف جميعاً في بلادهم، وعاملهم الحاكم الرُّوماني معاملة العبيد الأذلاء وفرض عليهم ضريبة الرأس كما كان يفعل البطالمة من قبل بينما أعفى منها الإغريق واليهود. ولم يكن التَّعليم منتشراً إلاّ بين الإغريق واليهود، في حين كان غالبية المصريِّين يعانون من الفقر والحرمان والجهل ما عدا قلة ضئيلة.

وثار المصريون ثورة شاملة في سنة ٢٩ق م، على الحاكم الرُّوماني، وظلَّت الثورات تشتعل بين الحين والآخر، وكان الكهنة المصريُّون هم الذين يتزعمون تلك الثَّورات. فعمل الرُّومان على كسر شوكتهم والاستيلاء على أملاكهم، وأخضعوا المعابد للرِّقابة الحكوميَّة، فعينوا مسئولا عن الشُّؤون الدِّينية، وكان موظفاً وليس كاهناً، وسُمي الكاهن الأعظم للإسكندرية وسائر مصر، ووضعوا في مصر قوَّة عسكريَّة قوامها

٢٥ ألف جندي رابطت في الإسكندريَّة وطيبة مهد الثّورات(٤٨).

أما الفلاحون المصريون فقد ظلت الأعباء المفروضة عليهم كما هي طوال العصرين الإغريقي والرُّوماني، وزادت أثقالها، فكانوا لا يملكون من أرضهم شيئاً. وأصبحت مصر في العهد الرُّوماني مزرعة كبيرة لروما، ومصدراً رئيسياً لتوريد القمح إليها. وفي سبيل الاستفادة بكل موارد مصر قام الرُّومان بتمهيد طرق المواصلات وأكثروا من حفر قنوات الرَّي والصَّرف وشجعوا الزِّراعة والصِّناعة والتِّجارة، وعملوا على استتباب السَّكينة والأمن لصالحهم. واستولوا على خيرات مصر وأرسلوها إلى روما فحرموا مصر منها، على عكس البطالمة الذين احتفظوا بهذه الخيرات داخل مصر.

وكان الزَّواج عند الرُّومان يتم عن طريق تحرير عقد بالزَّواج، ويسجل في سجلات خاصة تُسمى سجلات الزَّواج، ولم يكن مسموحاً بالزَّواج إلاّ من زوجة واحدة، في حين أن الإغريقي كان يحق له أن يتزوَّج حتى من أخته. وظل الزَّواج مباحاً بين الإغريق والمصريين في مصر بينما كان الزَّواج بين الرُّومان وغير الرُّومان ممنوعاً تماماً، وإذا تم فإنه يكون غير مشروع(٤٩).

وبخضوع مصر لسلطان الرُّوم لم يمنعها ذلك من أن تظل ملجأ للثّقافة اليونانيَّة طوال العصر الرُّوماني، كما أن خضوع بلاد اليونان نفسه لسلطان الرُّومان لم يجردها من يونانيتها، وإنما فرض هذه اليونانيَّة على الرُّومانيين أنفسهم(٥٠). وظلّت الإسكندريَّة عاصمة لمصر وأعظم مدن الإمبراطوريَّة الرُّومانيَّة بعد روما، وأضخم موانئ البحر المتوسط،

---

٤٨ ـ نفس المرجع، ص ٤٨٠ وما قبله.

٤٩ ـ نفس المرجع، ص ٤٨٧

٥٠ ـ دكتور طه حسين، مستقبل الثقافة في مصر، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٦م، ص ٢٥

واستمرت مركزاً للثقافة الرَّاقية والفن الرَّفيع، وظلَّت جامعتها العريقة تجتذب إليها الطُّلاب من كل أنحاء العالم.

ولقد احتفظ المصريون بتقاليدهم الفنيَّة العريقة وقاموا بنحت تماثيلهم ونصب الموتى والنَّقش على جدران المعابد بذات الطَّريقة القديمة. ولكن حدث نوع من الخلط بين الفنين المصري والإغريقي، وظهر طراز جديد يجمع بينهما[٥١].

وفي الفترة ما بين سنة ٢٤ـ ٢٣ق م، غزت كنداكة ملكة الحبشة مصر، وطاردها الوالي الرُّوماني بترونيوس.

وفي عهد الإمبراطور طيباريوس قيصر (١٤ـ ٣٧م) جاء المسيح له المجد يكرز بالتوبة لاقتراب ملكوت السَّموات، وبرغم أن التَّاريخ ظلَّ يسير في مجراه الطَّبيعي حيث تتواكب مجريات أحداثه، إلاَّ أنه صار، للذين قبلوا دعوة المسيح، في ملئه واكتماله. ففي المسيح اكتمل الزَّمان وبلغ غايته.

من سنة ٣٧ـ ٤١م، ملك الإمبراطور المجنون كاليجولا. وفي عهد كلوديوس قيصر (٤١ـ ٥٤م) بُدئ في بناء معبد إسنا ومعبد فيلة في مصر. وخلال الفترة من سنة ٥٤ـ ٦٨م، حكم نيرون الطَّاغية وامتد طغيانه إلى كل أرجاء مملكته. وفي عهده جاء القدِّيس مرقس البشير إلى مصر يكرز بالمسيح مخلِّصاً. وبه تأسَّست كنيسة الإسكندريَّة.

٥١ـ د. سمير يحيى الجمال، تاريخ الطب والصيدلة المصرية في العصر اليوناني ـ الروماني، مرجع سابق، ص ٤٩٨ وما قبله.

مجئ المسيح له المجد إلى مصر

حينما كانت مصر ولاية رومانية، جاء المسيح له المجد إلى مصر هرباً من بطش هيرودس الملك، صحبة مريم أمه ويوسف خطيبها وسالومي ويوسيا بن يوسف[٥٢].

وفي مايو ١٩٩٨م نشرت جامعة كولون بألمانيا، ولأوَّل مرَّة، برديَّة أثريَّة ترجع إلى القرن الرَّابع الميلادي، تتحدَّث عن فترة وجود المسيح والعائلة المقدَّسة في مصر، مؤكدة أن طفولة المسيح في مصر استمرَّت ثلاث سنوات وأحد عشر شهراً، وهي الفترة التي كانت محل خلاف، وقدَّرها بعض العلماء بسنة واحدة، بينما قدَّرها آخرون بأكثر من ذلك.

وهذه البرديَّة التَّاريخيَّة مكتوبة باللَّهجة القبطيَّة الفيوميَّة، نسبة إلى منطقة الفيوم، وطولها ٥، ٣١سم، وعرضها ٤، ٨سم.

ويقول عالم القبطيَّات الدكتور جودت جبره والمقيم في ألمانيا:

إن هذه البرديَّة تشكِّل أهميَّة علميَّة وتاريخيَّة كبيرة، لأنها لا تشير إلى فترة وجود المسيح فقط في مصر، وإنما تتحدَّث عن مصر، وتصفها بأنها أعظم أرض في العالم، وأن نيل مصر، لم ينضب طوال الدَّهر، وأن ثمارها أطيب ثمار.

وأضاف أيضاً بقوله:

إن عالمة الآثار جيزا شنكل ابنة عالم القبطيَّات الألماني الكبير شنكل نشرت هذه البرديَّة الموجودة في إحدى مكتبات جامعة كولون، وقالت: إن البرديَّة تؤكّد أن البركة حلّت بمصر، وأن شهر بشنس هو أكثر شهور

٥٢- مخطوط رقم (١٠٠عربي) بالمكتبة الأهليَّة بباريس.

السَّنة بركة، ولذلك نجد الكنيسة القبطيَّة تحتفل في اليَوم الرَّابع والعشرين منه بذكرى وجود العائلة المقدَّسة في مصر، وهو المرافق، الأوَّل من يونيو من كل عام(٥٣).



٥٣- الأهرام في ٦/٦/ ١٩٩٨م

الفَصل الثَّالث

مصـــر المسيحيَّة

«في ذلك اليوم يكون مذبح للرَّب في
وسط أرض مصر (إشعياء ١٩:١٩)»،
وتحقَّق وعد الرَّب بفم نبيه الإنجيلي.

دخول القدِّيس مرقس إلى الإسكندريَّة للكرازة بالمسيح[١]

تأسَّست كنيسة الإسكندريَّة في مصر على يد القدِّيس مرقس الرَّسول الذي عبر إلى الإسكندريَّة - عاصمة البلاد آنئذ - من جهتها الغربيَّة. و لم تكن جغرافية مصر آنئذ كما نعرفها اليوم بالضَّبط. فقد قامت أدلَّة كثيرة على أن إقليم مريوط الواقع الآن غرب الإسكندريَّة لم يكن صحراء مجدبة لا يكاد الماء يوجد فيه، بل كان به كثير من المدن العامرة، وبساتين من النَّخيل، وأراضي واسعة ذات خصوبة. وكانت مدينة مريوط من أكبر مدائن هذا الإقليم. ومن اسمها أُطلق الاسم على الإقليم كله.

ويرد في كتب بطليموس وسترابو كثير من أسماء المدن التي كانت زاهرة في هذا الإقليم. ويذكر المقريزي أن إقليم مريوط كان يزدحم بالبيوت والحدائق المنثورة إلى حدود برقة غرباً. أما الأرض التي تحت الرِّمال

١- سأشرح بتفصيل في كتاب آخر موضوع دخول المسيحيَّة إلى مصر قبل قدوم مار مرقس الرَّسول إليها. وكيف كان شكل هذه المسيحيَّة المبكِّرة في مصر قبل تأسيس كنيستها على يد القدِّيس مرقس. وذلك لكي يظل حجم الكتاب الذي بين يديك معقولاً.

فهي من الغرين (الطِّمي)، وهذا يُعزِّز ما كان يُعرف عنها من الخصب.

ومن المحقَّق أن إقليم مصر في القرن الأوَّل الميلادي كان ينتهي حيث يبدأ إقليم "قيرين" (الذي يقع في ليبيا الآن). ولم يكن يفصل بين الإقليمين مساحة من الأرض لا يمكن عبورها، بل ظل الطَّريق بين بنتابوليس (الخمس مدن الغربيَّة) والإسكندريَّة طريقاً متَّصلاً ليس من عائق يعوق السَّير فيه.

نبذة عن الخمس مدن الغربيَّة (بنتابوليس)

تقع الخمس مدن الغربيَّة كلها في الشَّمال الشَّرقي من ليبيا، على البحر المتوسِّط، وسُميت كذلك تمييزاً لها عن الخمس مدن الشَّرقيَّة في الجزء الشَّرقي من ساحل البحر المتوسِّط وهي: سدوم - عمورة - أدمة - سيجور - وصبوئيم. أما المدن الخمس الغربيَّة فهي:

١ - **القيروان:** أو قورينة، أو قرنية، أو قريين، أو سيرين Cyrene وتبعد ٢٢٤ كيلومتراً شرق بنغازي، واسمها الآن "شحَّات". أنشأها الإغريق والليبيون سنة ٦٣١ق م، ومنها سمعان القيرواني. وبها آثار مسيحيَّة هامة. وقد هُجرت المدينة في العصور الوسطى.

٢ - **برنيق:** وهي بنغازي الآن، وقد شُيِّدت سنة ٤٦٠ق م، وكان اسمها "سيبريدس"، أو "هيبريس - Heaperis"، أو "هسبريدس - Hesperides". وفي عهد البطالمة غيَّروا اسمها إلى "برنيق"، وهو اسم زوجة بطليموس (٢٤٦ق م). وتقع على البحر المتوسِّط مباشرة. ومنذ سنة ١٤٧٩م أصبح اسمها "بنغازي"، وقد اكتُشفت بها كنيسة تعود إلى القرن السَّادس.

٣ - **برقة:** أو "باركة". وتُسمى حالياً "المرج"، وهي تبعد ١٠٠كم غرب بنغازي. وسُميت المرج لمروجها الخضراء الخصيبة، ولها

ميناء قديمة تُدعى "بطولمايس - Ptolemais"، وتُعرف الآن باسم "طلميته". وتقع شمال المرج على بعد ٢٤ كيلومتراً منها على البحر المتوسط مباشرة. ولقد تأسَّست مدينة برقة سنة ٥٥١ق م، وتغيَّر اسمها إلى المرج في القرن الثّاني عشر.

٤ـ **طوشيرا:** وهي الآن "العقوريَّة"، وتقع على بعد ٧٥ كيلومتراً شرق بنغازي، وسُمِّيت أيضاً "أرسينوي - Arsenoe". كما تُدعى أيضاً "طوكرة"، وقد بُنيت في القرن الثّالث قبل الميلاد، وبها آثار كنائس، وتبعد عن العقوريَّة بحوالي ثلاثة كيلومترات.

٥ـ **أبولينا:** وهي "سوسة"، وتقع على ساحل البحر، حوالي ٣,٥ كيلومتر من "شحّات" لتكون ميناء لها. وسُمِّيت كذلك نسبة للإله "أبوللو" كبير الآلهة، وحامي الإغريق. وسُمِّيت أيضاً "سوزوسا"، ثم "سوسة". وجدير بالذّكر أن هناك مدينة أخرى في تونس تُدعى "سوسة"، ويجب عدم الخلط بينهما(٢).

وعندما فتح عمرو بن العاص الإسكندريَّة، اتجه إلى إقليم بنتابوليس وسار نحوه فاتحاً برقة، وقيرين، وليس في وصف تلك الفتوح ما يشير إلى أن العرب في مسيرهم إلى قيرين تغلّبوا على صعاب طبيعيَّة قابلتهم.

ولدينا من الأدلّة ما يشير صراحة إلى أن كل أرض السَّاحل الواقعة إلى الغرب من مصر بقيت آهلة بسكانها حتى إلى ما بعد ثلاثة قرون من الفتح العربي، أي إلى القرن العاشر تقريباً.

ويذكر المقريزي أن إقليم بنتابوليس كان يبدأ بعد مدينتي "لوبية"،

٢ـ عن مقال بعنوان: "الخمس مدن الغربية" لنيافة الأنبا باخوميوس أسقف البحيرة والخمس مدن الغربية، مجلة الكرازة، ٢٥ مارس ١٩٩٤م، ص ٤، ٥

"مراقية". ويؤكِّد المسعودي أن إقليم "لوبية" كان به أربع وعشـــرون مدينة ما عدا القرى الصَّغيرة. ويصف المقريزي مدينة مراقية علـــى أنها كورة من كور مصر، وهي آخر حدود أراضي مصر. وفي آخر أراضـــي مراقية تلقى أرض بنتابوليس وهي برقة وما بعدها من مـــدن. وكانـــت "مراقية" قطراً كبيراً به نخيل كثير ومزارع، وبه عيون جاريـــة، وكـــان يُزرع فيها القمح والأرز لكثرة مياهها. وبها بساتين كـثيرة. وفي ســـنة ٩١٦م، نزح أهل لوبية ومراقية إلى الإسكندريَّة خوفاً من صاحب برقـــة. ولم تزل في اختلال إلى أن تلاشت في القرن الخامس عشر(٣).

إذاً فعندما جاء القدِّيس مرقس ليكرز بالمسيح في مصر، عَبَر علـــى بلاد مصريَّة عامرة بالسُّكان، تموج بالحيـــاة، لكنـــه قصـــد العاصـــمة الإسكندريَّة ليبدأ منها بشارته. وكانت صرخة أنيانوس Anianus – أوَّل من بشَّره القدِّيس مرقس بالمسيحيَّة – "يا الله الواحد" واسطة لكرازة مار مرقس لكل المدينة بهذا الإله الواحد ذي الثَّلاثة أقانيم، الإله الذي خلـــق السَّماء والأرض والبحر وكل ما فيها، والذي نزل إلينـــا علـــى الأرض، آخذاً صورتنا بعينها، ليعيش بيننا ويحمل آلامنا، ويمنحنـــا حيـــاة الأبـــد بمعرفته. وقبل أن يستشهد مار مرقس في الإسكندريَّة في ٢٥ أبريل ســـنة ٦٣م(٤)، رأي كنيستها نامية راسخة بعد أن ألقت عنها عبادتهـــا الوثنيَّـــة الرَّاقية التي كانت تؤمن بالتَّوحيد والحياة الأخرى، لتقبل ســـر الإيمـــان المسيحي الجديد.

وطبقاً لتعريف كلمة "قبط" كما سبق أن ذكرنا، يكون معنى اسم "الكنيسة القبطيَّة" هو "الكنيسة المصريَّة" ولا فرق بين الاسمين.

٣ـ د. ألفريد ج بتلر، فتح العرب لمصر، الجزء الأول، مرجع سابق، ص ٨ـ ١٤

4_ O. H. E. Burmester, *op. cit.*, p. 1.

مدرسة الإسكندريَّة المسيحيَّة

تأسَّست مدرسة الإسكندريَّة اللاهوتيَّة في منتصف القرن الأوَّل الميلادي على يد القدِّيس مرقس الرَّسول، في مواجهة مدرسة الإسكندريَّة الوثنيَّة الشَّهيرة. فقد أدرك القدِّيس مرقس بحسب ثقافته العبريَّة واللاتينيَّة واليونانيَّة أنه لابد من مواجهة الأفكار الوثنيَّة المتأصِّلة بين الفلاسفة والعُلماء بفكر مسيحي راق مستنير. فأنشأ مدرسة لاهوتيَّة مسيحيَّة وعيَّن لرئاستها العلامة يُسطس (الذي أصبح فيما بعد الأسقف السَّادس لكنيسة الإسكندريَّة) والذي تولى رئاستها في أواخر سني حياة القدِّيس مرقس الرَّسول، وعاصر أربعة بطاركة من بعد مار مرقس الكاروز. وكان التَّعليم في المدرسة يقوم على طريقة "الكاتشيزم" بمعنى التَّعليم بطريقة السؤال والجواب. فكانت المدرسة حيث يكون المعلّم، لأنه لم يكن للمدرسة آنئذ مبنى خاص بها، بل حلقات دراسيَّة يجتمع فيها التَّلاميذ حول المعلّم. ويدرَّس فيها إلى جوار العلوم الدِّينيَّة، الفلسفة والمنطق، والطِّب، والهندسة، والموسيقى. وكان العلاَّمة أوريجانوس (١٨٥-٢٥٤م) يستأجر قاعات ليعظ فيها في أيام الاضطهاد والاستشهاد.

لقد أصبحت كنيسة الإسكندريَّة في أواخر القرن الثَّاني وأوائل الثَّالث للميلاد مركزاً للفكر المسيحي بمدرستها الشَّهيرة. وكان منصب رئيسها يلي في الأهميَّة منصب بطريرك الكنيسة، بل غالباً ما كان رئيس المدرسة يُختار لمنصب البطريرك.

وتولّي مدرسة الإسكندريَّة ستة عشر رئيساً كان آخرهم هو "زودون" في زمن البابا كيرلس الكبير (٤١٢- ٤٤٤م). واشتهرت المدرسة جداً في زمن البابا ديمتريوس الأوَّل (١٨٩- ٢٣٢م) إذ تولى رئاستها بنتينوس (+ ١٩٠م) الذي كان له الفضل الكبير على اللُّغة

القبطيَّة، ومن بعده العلاَّمة كليمندس الإسكندري (١٥٠- ٢١٥م) الذي آمن بالمسيحية على يد القدِّيس بنتينوس، وصار من أشهر علماء المسيحيَّة، ووضع كتباً عديدة أشهرها "المرشد أو المربي[٥]"، "المتفرِّقات[٦]"، ثم العلاَّمة أوريجانوس (١٨٥- ٢٥٢م) أشهر فلاسفة المسيحيَّة وعلمائها بلا منازع، ومن أشهر مؤلَفاته "الهكسبلا" وهي سداسيته المشهورة في نصوص وترجمات الكتاب المقدَّس المختلفة، كما فسَّر غالبية أسفار الكتاب المقدَّس، ومن كتبه أيضاً: "الرَّد على كلسوس"، "الصَّلاة" وعنه ظهرت مدرسة التَّفسير الرَّمزي للكتاب المقدَّس والذي اشتهرت به مدرسة الإسكندريَّة. وهو النَّهج الذي سار عليه أغسطينوس فيما بعد. ومعظم المصطلحات اللاهوتيَّة التي ظهرت في القرن الرَّابع الميلادي لدحض هرطقة أريوس مأخوذة من كتابات هذا المصري النابغة.

فبعد القدِّيس يسطس تولى رئاستها أومانيوس في عهد يسطس أسقف الإسكندريَّة، ثم أعقبه مركيانوس في عهد أومانيوس أسقف الإسكندريَّة.

وفي زمن ثاؤنا أسقف الإسكندريَّة تولى رئاسة المدرسة: ياروكلاس، ثمَّ يونيسيوس الذي صار البابا ديونيسيوس الكبير (٢٤٧- ٢٦٥م)، ثمَّ ثاؤغنستس، ثمَّ بيروس الذي لُقب بـ "أوريجانوس الصغير" لغزارة علمه، ثم أرخيلاوس الذي صار البابا أرخيلاوس.

وفي زمن البابا أرخيلاوس تولى رئاستها: بطرس الذي صار البابا بطرس خاتم الشُّهداء.

وفي زمن البابا أثناسيوس الرَّسولي (٢٥٦- ٣٧٣م) تولي رئاستها:

٥- وهو في ثلاثة أجزاء لتثقيف عقول حديثي الإيمان بمعرفة الإنجيل.

٦- في ثمانية مجلدات، وهو مقالات في مواضيع فلسفية، وحقائق إنجيلية، وقد فُقد منها المجلد الثامن.

سرابيون، ثم مقار السياسي.

وفي زمن البابا كيرلس الكبير (٤١٢ - ٤٤٤م) تولى الرِّئاسة: ديديموس الضَّرير العالم اللاهوتي القدير، وصاحب كتاب "الرُّوح القُدُس"، إلى جانب كتب كثيرة في اللاهوت والعقيدة والتَّفسير. وأخيراً زودون.

ومن مدرسة الإسكندريَّة المسيحيَّة تخرَّج كثير من الفلاسفة والعُلماء مثل الفيلسوف أثيناغوراس، وهو من المدافعين المشهورين عن المسيحيَّة وعقائدها. والبابا أثناسيوس الرَّسولي أب علماء اللاهوت في العالم، وواضع قانون الإيمان المسيحي. وبسبب هذه المدرسة أيضاً انضم كثير من الوثنيين إلى الدِّيانة المسيحيَّة، وكانت المدرسة تكرز بالمسيح خارج حدود مصر أيضاً. وتطوَّرت هذه الجامعة المسيحيَّة حتى أصبحت من أقوى جامعات العالم القديم حينذاك، وكان باب العلم فيها مفتوحاً للشَّعب من السَّادة والعبيد، ومن الذكور والإناث، ويعد هذا أوَّل نظام للتَّعليم المختلط عرفه التَّاريخ، بغض النَّظر عن الدِّين أو الجنس أو الثَّقافة. وبذلك حطَّمت هذه الجامعة كل الفوارق الاجتماعيَّة، وفتحت أبوابها أيضاً للفلاسفة الوثنيين والهراطقة لكي ينهلوا من العُلوم التي تدرس فيها. وبذلك قامت نهضة علميَّة وفكريَّة واسعة النِّطاق لا نظير لها في أي بلد من بلدان العالم المثقَّف، وكانت مصر مقصداً لكل راغب في الدِّراسات العليا في شتى المعارف. ويقول العلامة إبيانوس ماركلينوس في القرن الرَّابع الميلادي، إنه يكفي للطبيب الصَّيدلي للتَّدليل على مهارته قوله إنه تعلَّم في الإسكندريَّة بجامعتها المسيحيَّة. وهذه الشُّهرة الواسعة التي نالتها مصر المسيحيَّة في علوم الطِّب والكيمياء والصَّيدلة كامتداد وتطوير لما كان يُدرَّس في العصور الفرعونيَّة، جذبت إليها العُلماء من جميع أقطار الأرض للدِّراسة على يد أساتذتها، ومنهم الطَّبيب الإغريقي جالينوس في القرن

الثّاني الميلادي[٧].

ومع حدوث الانشقاق أفل نجم المدرسة، وبعد حين اندثرت معالمها، فيغيب القرن الخامس وتغيب معه مدرسة الإسكندريَّة. وتدخل بالتَّالي كنيسة الإسكندريَّة في عهود مظلمة، حتى يخيِّم عليها الجهل في العصور الوسطى باستثناء فترة بسيطة منها. فقد كان ازدهار الكنيسة اللاهوتي والدِّيني مقترناً بازدهار مدرستها اللاهوتيَّة.

وبعد قرابة خمسة عشر قرناً من الزَّمان، وفي نوفمبر سنة ١٨٩٣م أعاد البابا كيرلس الخامس افتتاح مدرسة الإسكندريَّة باسم الكليَّة الإكليريكيَّة، وذلك في مبنى لها بحي مهمشة بالقاهرة[٨]. وفي سنة ١٩١٨م أسند رئاستها إلى الأرشيدياكون حبيب جرجس (١٨٦٦- ١٩٥١م) الذي كان أوَّل من قام بالتَّدريس فيها. فكانت البداية الجديدة لنهضة في التَّعليم الدِّيني والكنسي. وإعادة بعث اللُّغة القبطيَّة، ومحاولة إعادة مدرسة الإسكندريَّة إلى سابق عهدها بعد أن زال نورها وطواها النسيان. وكان افتتاح الدِّراسة بقسمها المسائي في أكتوبر سنة ١٩٤٦م[٩].

٧- د. سمير يحيي الجمال، تاريخ الطب والصيدلة المصرية في العصر اليوناني - الرُّوماني، مرجع سابق، ص ٥٢٦، ٥٢٧

٨- استمرت الكليَّة الإكليريكيَّة بهذا المكان طيلة ٦٠ سنة، أي حتى سنة ١٩٥٣م، حيث انتقلت إلى مقرها الحالي بدير الأنبا رويس بالقاهرة، وكان الفضل الأول في ذلك للقمص صليب سوريال، أستاذ القانون الكنسي بالكليَّة الإكليريكيَّة.

وعلى مدي قرن من الزمان (١٨٩٣- ١٩٩٣م) بلغ إجمالي عدد الخريجين ٩٧٠ من القسم الصباحي، ٧٢٢ من القسم المسائي، ١٠٩٤ من الفروع التسعة. الذكور ٢٤١٠، الإناث ٢٨٥

٩- الجدير بالذِّكر أن أول من تخرج في القسم المسائي للكلية الإكليريكية هو قداسة البابا شنوده الثالث سنة ١٩٤٩م.

وفي عصر قداسة البابا شنوده الثَّالث تم افتتاح فروع للكليَّة الإكليريكيَّة في الإسكندريَّة في فبراير سنة ١٩٧٢م، والدَّير المحرق في سبتمبر سنة ١٩٧٣م، وطنطا في أكتوبر سنة ١٩٧٦م[١٠]، والمنيا في نوفمبر سنة ١٩٧٦م، والبلينا في ديسمبر سنة ١٩٧٦م. وشبين الكوم في نوفمبر سنة ١٩٧٧م. بخلاف ما تم افتتاحه من فروع لها في قارات العالم المختلفة.

وفي سنة ١٩٩٦م تم إحلال وتجديد كلي لمكتبة الإكليريكيَّة بالقاهرة، حتى تليق بالصَّرح العلمي الذي يحتويها. كما تم إدخال مادة الكومبيوتر في منهج الكليَّة بشكل رسمي لمواكبة مستجدات العصر. وكذلك تدريس النوتة الموسيقيَّة لضبط الألحان القبطيَّة، وتحقَّق حلم المتنيِّح دكتور راغب مفتاح[١١] بعد رحلة كفاح طويلة قضاها في خدمة ألحان الكنيسة القبطيَّة ليرى في النهاية ثمرة جهده، وقد تخطى المائة من عمره.

إلاَّ أن المواد التي تدرس في الإكليريكيَّة حتى اليوم لازالت في معظمها دينيَّة بحتة، إلى جانب بعضٍ من المواد الاجتماعيَّة والإنسانيَّة. ولقد نهض القسم المسائي بالكليَّة نهوضاً ملحوظاً، وهو الذي يوفِّر لكلا الجنسين التَّعليم وفقاً لنظام التَّعليم المفتوح الذي ابتدعته الجامعات المدنيَّة في السَّنوات الأخيرة.

إرساليَّات تبشيريَّة من الكنيسة القبطيَّة في الأربعة قرون الأولى

تُجمع الرِّوايات التَّاريخيَّة على أن المسيحيَّة قد دخلت بلاد النوبة عن

١٠ـ أصدر البابا شنوده الثالث قراراً ببدء الدِّراسات العليا بالكليَّة الإكليريكيَّة فرع طنطا ابتداءً من العام الدراسي ١٩٩٥ـ ١٩٩٦م.

١١ـ أوردتُ ترجمة شاملة له عند الحديث عن الموسيقى القبطيَّة، وذلك في كتاب "الكنيسة، مبناها ومعناها".

طريق المبشرين المصريِّين من التُّجار في القرنين الأوَّل والثَّاني كما يــذكر سومرز كلارك[١٢] Somers Clark ومرقس سميكة باشا[١٣]. وذلك قبــل بعثات التَّبشير الرَّسميَّة التي أرسلها كل من الإمبراطور جستنيان وزوجتــه ثيؤدورة إلى ممالك النوبة في منتصف القرن السَّــادس المــيلادي. ومــن الحفريَّات الأثريَّة التي عثرت عليها البعثة البولنديَّة في "فُرُس" وهي بقايا كنيسة بُنيت بالطوب اللَّبن، وكذلك الفخَّار المكتشف بين الحطام، والذي يشير إلى احتمال بنائها في نهاية القرن الرَّابع، يعني أن جماعــة مســيحيَّة أقامت في "فُرُس" في ذلك الوقت المبكِّر.

ويخلص الباحث الأثري الدكتور محمــد غيطــاس[١٤] إلى أن هــذا الوجود المبكِّر للمسيحيَّة في بلاد النوبة ربما يدعو إلى الاعتقاد بأن البعثات التَّبشيريَّة التي أتت بعد ذلك من الكنيستين الملكانيَّة والمونوفيزيَّة لم تكــن سوى محاولة للاطمئنان على ولاء النوبيين لأتباع هاتين الكنيســتين[١٥]. ولنا عودة للحديث عن مملكة النوبة بأكثر تفصيل.

ومن جهة أخرى ذهب العلاَّمة الفيلسوف القدِّيس بنتينوس رئيس المدرسة اللاهوتيَّة بالإسكندريَّة إلى بلاد الهند واليمن وســاحل بحــر مالابار في القرن الثَّاني الميلادي، وبشَّر هناك بالإنجيل. وذهب العلاَّمة أوريجانوس (١٨٥ـ٢٥٤م) إلى سوريا وبلاد العرب للغرض نفسه، ولما نُفي القدِّيس أثناسيوس الرَّسولي (٣٢٨ـ٣٧٣م) إلى بلجيكا، بشَّر هناك

12_ Somers Clark, *Christian Antiquities in the Nile Valley*, Oxford, 1912, p. 8

١٣ ـ مرقس سميكة، دليل المتحف القبطي وأهم الكنائس والأديرة الأثرية، الجزء الثاني، ص ١٤٠.

١٤ ـ دكتور محمد غيطاس، حملة اليونسكو، وأضواء جديدة على تاريخ النوبة، دار المعرفة الجامعية، الإسكندريَّة، ١٩٨٧

١٥ ـ انظر: جان كومبي Jean Comby، دليل إلى قراءة تاريخ الكنيســة، دار المشــرق، بيروت، ١٩٩٤م، ص ١٠٦، ١٠٧

بالإنجيل، وأسَّس الحياة الرهبانيَّة الدَّيريَّة هناك. والأقباط هم الذين أسَّسوا كنيسة إثيوبيا الأرثوذكسيَّة منذ أيام البابا أثناسيوس الرَّسولي الذي رسم لها أوَّل أسقف.

ومن الأقباط من ذهب وبشَّر بالإنجيل في سواحل فرنسا الجنوبيَّة ومنها جزيرة "ليرنز[١٦] – Lerins". ومنهم من ذهب وبشَّر بالإنجيل في أيرلندا. وفي أيرلندا مقبرة تُعرف هناك باسم "مقبرة الرُّهبان المصريين السَّبعة"، في منطقة "ديزرت أوليدا – Desert Oleda". ولقد ذهبت كتيبة قبطيَّة بقيادة القائد القبطي "موريس" وبشَّروا بالإنجيل في سويسرا في أواخر القرن الثَّالث الميلادي، وماتوا شهداء عندما رفضوا أن يقدِّموا ذبائح للآلهة الوثنية. ودُعي اسم المكان من بعدهم "سان موريس"، ولازال الختم الرَّسمي لإقليم زيورخ يحمل صورة لثلاثة أقباط بشروا بالمسيحيَّة فيه.

عصر الاستشهاد

وعبرت الكنيسة حقبة الاضطهاد المشرقة التي دفعت فيها ثمن حبِّها لمسيحها. راضية بالألم وقبول الصَّليب. وعلى قدر عنف الاضطهاد كان رسوخ الكنيسة. لقد خاضت المسيحيَّة الناشئة في مصر اختبار الإيمان في أتون محمَّى سبعة أضعاف، وخرجت منه طاهرة كالشَّمس. وكان لسان حال الكنيسة بعد عبورها عصر الاستشهاد «جزنا في النَّار والماء وأخرجتنا إلى الرَّاحة[١٧]». أي ماء المعموديَّة، ونار الآلام، وراحة السَّماء.

ويحسب المؤرِّخون أن الاضطهادات التي جازتها الكنيسة على يد

16_ A. J. Butler, *The Ancient Coptic Churches of Egypt, Oxford*, 1884, vol. I, p. 14

١٧_ مزمور ٦٦:١٢ بحسب الترجمة السبعينية

الأباطرة الرُّومان تنقسم إلى عشرة اضطهادات كبيرة هي:

• **اضطهاد نيرون** (٥٤ـ ٦٨م): حيث بدأ الاضطهاد سنة ٦٤م في السَّنة العاشرة لحكم ذلك الطَّاغية، بعد أن أحرق روما في نفس هذه السَّنة وجعل من المسيحيين كبش الفداء لفعلته الشَّنعاء. وكان مضرب الأمثال في الشَّر. وانتحر وهو في سن الثانية والثلاثين، ولم يُعثر له على جثة أو قبر(١٨).

• **اضطهاد دومتيان** (٨١ـ ٩٦م): دعا نفسه "رباً وإلهاً(١٩)"، وشيد سروحاً ضخمة وأعاد بناء الكابيتول(٢٠)، وأقام عبادة إيزيس وسيرابيس في روما نقلاً عن مصر(٢١). قُتل في قصره بعد أن وقع في قبضة أعدائه، وقرر مجلس الشيوخ الرُّوماني محو اسمه، حتى لا يبقى له ذكر لتكريمه(٢٢).

• **اضطهاد تراجان** (٩٨ـ ١١٧م): ويُدعى أيضاً ترايانوس، وهو أوَّل إمبراطور يعلن أن المسيحيَّة ديانة محرَّمة، وأصدر تشريعات صارمة سارت عليها الدَّولة في معاملة رعاياها من المسيحيين لأكثر من قرن من الزَّمان(٢٣). وقد أعاد فتح قناة نخاو ـ داريوس، بين النِّيل والبحر الأحمر، باسم "آمنيس ترايانوس(٢٤)".

وفي خلال الفترة (١١٧ـ ١٣٨م) كان الإمبراطور أدريانوس

١٨ـ القمص شنوده السرياني (الأنبا يؤانس أسقف الغربية السابق)، الاستشهاد في المسيحيَّة، القاهرة، ١٩٦٩م، ص ٢٥٢

١٩ـ نفس المرجع، ص ٥٣

٢٠ـ نفس المرجع، ص ٢٥٣

٢١ـ حسين فوزي، سندباد مصري، مرجع سابق، ص ٣٦٣

٢٢ـ القمص شنوده السرياني، الاستشهاد في المسيحيَّة، مرجع سابق، ص٢٥٣

٢٣ـ نفس المرجع، ص ٥٣

٢٤ـ حسين فوزي، سندباد مصري، مرجع سابق، ص ٣٦٣

(هدريان) وقد زار مصر في سنة ١٣٠م وقام بالعمل على ترميم الكثير من المباني الأكاديميَّة المتهدِّمة، وزار دار الحكمة بها واجتمع بعلمائها[٢٥]. وأنشأ مدينة أنطنوي أو أنطنوبوليس[٢٦]، وزارها مرَّة أخرى بصحبة زوجته الإمبراطورة.

وجاء بعده أنطونيوس بيوس (١٣٨- ١٦١م): وفي عهده كان بطليموس العالم الفلكي والجغرافي يتابع دراساته في الإسكندريَّة حوالي سنة ١٥٠م[٢٧].

• **اضطهاد مرقس أوريليوس** (١٦١- ١٨٠م): كان فيلسوفاً رواقياً ذا ثقافة عالية، وبرغم ذلك فقد اعتبر المسيحيَّة خرافة سخيفة متعصِّبة[٢٨]، زار الإسكندريَّة في سنة ١٧٦م.

وفي الفترة (١٨٠- ١٩٢م) كان الإمبراطور قومودس، وفي عهده وصلت مدرسة الإسكندريَّة المسيحيَّة إلى قمَّة مجدها بفضل أساتذتها الأوائل بنتينوس وكلميندس وأوريجانوس.

• **اضطهاد سبتيموس ساويرس** (١٩٣- ٢١١م): أصدر مرسوماً في سنة ٢٠٢م يقضي بمنع المسيحيين من تبشير غيرهم، كان سبباً في اضطهادهم[٢٩].

٢٥_ د. سمير يحيي الجمال، تاريخ الطب والصيدلة المصرية في العصر اليوناني _ الروماني، مرجع سابق، ص ٥٠٦

٢٦_ مكانها الآن قرية الشيخ عبادة، على الشاطئ الشرقي للنيل، إلى الشمال من ملوي.

٢٧_ حسين فوزي، سندباد مصري، مرجع سابق، ص ٣٦٤

٢٨_ القمص شنوده السرياني، الاستشهاد في المسيحيَّة، مرجع سابق، ص ٥٤

٢٩_ نفس المرجع، ص ٥٦

وفي عهد الإمبراطور كاراكلا (٢١١- ٢١٧م) دارت كثير من المذابح في الإسكندريين، وقد زار مصر، ومنح كل سكان مصر حقوق المواطنة الرُّومانيَّة. أما الإمبراطور اسكندر ساويرس (٢٢٢- ٢٣٥) فقد كان متسامحاً مع المسيحيين، بل وضع صورة السيِّد المسيح في قصره إلى جانب صور الآلهة الوثنيَّة[٣٠].

• **اضطهاد مكسيمنوس التراقي** (٢٣٥- ٢٣٨م): عامل المسيحيين ببربرية وقسوة، ومكّن الدَّهماء من التَّنكيل بهم، كما اتخذ إجراءات عنيفة ضد رجال الدِّين منهم.

• **اضطهاد ديسيوس** (٢٤٩- ٢٥١م): ويُدعى أيضاً ديقيوس Decius ، أصدر مرسوماً ترتَّب عليه أوَّل اضطهاد شامل للمسيحيَّة، سقط في أيدي البرابرة في إحدى حملاته ضدَّهم، فذبحوه هو وابنه وعدد كبير من جيشه، ونهشت جسده الوحوش والطيور الجارحة[٣١].

• **اضطهاد فالريان** (٢٥٣- ٢٦٠م): استحدث أسلوب نفي رجال الإكليروس، وتجريد المسيحيين من ألقابهم وممتلكاتهم، وتسخيرهم في العمل في ضياع الإمبراطور، إلى جانب قطع رؤوسهم بالسَّيف. وفي حربه مع الفرس وقع أسيراً في أيديهم، وعاش بقية أيامه كعبد، ومات في أسره.

وتولى ابنه جاللينوس (٢٧٠- ٢٦٨م): فاعتبر المسيحيَّة ديانة مصرَّحاً بها[٣٢]، في عهده أُصيبت مصر بوباء، وثار الجنود الرُّومان في الإسكندريَّة مرَّتين في عهده، وأعلنوا في كليهما إمبراطوراً جديداً، فقُتلا. وفي آخر

٣٠- نفس المرجع، ص ٥٦
٣١- نفس المرجع، ص ٥٧، ٢٥٣
٣٢- نفس المرجع، ص ٥٩

عهده احتلت الملكة زنوبيا أميرة تدمر الوجه البحري في مصر، واحتل البليمون بعض الصَّعيد، ولكن القائد بروبوس أعاد مصر في سنة ٢٧٠م إلى الحظيرة الرُّومانيَّة[٣٣].

• **اضطهاد أوريليان** (٢٧٠- ٢٧٥م): أصدر مرسوماً بقتل المسيحيين، كان من أثره مذابح مروِّعة في أماكن شتى، ذبحه أصدقاؤه المقرَّبون في إقليم تراقيا[٣٤].

وخلفه على العرش الإمبراطوري ستة أباطرة في خلال ثماني سنوات انتهت باعتلاء ديوكلتيانوس العرش. وخلال الفترة من سنة ٢٧٦- ٣٠٣م وهي حوالي ٢٧ سنة هدأت حدَّة الاضطهاد على الكنيسة فكانت فرصة مواتية لتنظيم حياتها الدَّاخليَّة، ومع الهدوء ظهرت مشاكل كنسية كثيرة، وبدأ روح العالم يدخل إلى الكنيسة[٣٥].

• **اضطهاد ديوكلتيانوس** (٢٨٤- ٣٠٥م): دعا نفسه "رب وسيِّد العالم"، ولم يسمح لأحد الاقتراب إليه إلاَّ وهو راكع[٣٦]، ثار أهل الصَّعيد في عهده، وهاج شعب الإسكندريَّة فجاء الإمبراطور بنفسه، وقاد أقسى اضطهاد روماني للمسيحيين في مصر[٣٧].

وفي سنة ٢٨٥م عيَّن مكسيميانوس هركوليوس مساعداً له في الغرب، وفي سنة ٢٨٦م صار إمبراطوراً للغرب، وبقي ديوكلتيانوس إمبراطوراً للشَّرق. وفي سنة ٢٩٢م عين مساعداً لكل منهما برتبة قيصر،

٣٣_ حسين فوزي، سندباد مصري، مرجع سابق، ص ٣٦٥

٣٤_ القمص شنوده السرياني، الاستشهاد في المسيحيَّة، مرجع سابق، ص ٥٩، ٢٥٣

٣٥_ انظر: نفس المرجع، ص ٦٠

٣٦_ نفس المرجع، ص ٦٠

٣٧_ حسين فوزي، سندباد مصري، مرجع سابق، ص ٣٦٥

فعيَّن جاليريوس (زوج ابنته فالريا) معه في الشَّرق، وقسطنطيوس كلوروس[٣٨] للغرب.

وفي فبراير سنة ٣٠٣م صدر منشور يقضي بهدم الكنائس وحرق الكتب المقدَّسة، وطرد جميع المسيحيين من ذوي المناصب الرَّفيعة وحرمانهم من الحقوق المدنيَّة. وصدر منشوران متلاحقان في مارس من نفس السَّنة يقضي أولهما بسجن جميع رؤساء الكنائس، ويقضي ثانيهما بتعذيبهم بقصد دفعهم لجحد الإيمان.

وفي إبريل من ذات السَّنة أصدر مكسيميانوس هركوليوس المنشور الرَّابع، وهو أسوأها، ويقضي بإرغام جميع المسيحيين على أن يضحُّوا للآلهة، وكان القصد من هذه المنشورات محو المسيحيَّة من الوجود[٣٩]. لكنه هو الذي فارق الوجود، إذ شنق نفسه ومات منتحراً سنة ٣١٠م.

أما جالريوس معاون ديوكلتيانوس في الشَّرق، فقد مرض مرضاً خطيراً كريهاً أواخر سنة ٣١٠م حيث ضُرب بالقروح البشعة التي انتشرت في كل أجزاء جسمه، وكانت تفوح منها رائحة نتنة جداً، ما كان أحد يستطيع الاقتراب منه بسببها. فالتجأ إلى إله المسيحيين، وأصدر مرسوم تسامح للمسيحيين، يطلب فيه منهم أن "يتضرَّعوا لإلههم من أجل سلامتنا"، ومات في مايو سنة ٣١١م[٤٠].

لقد أُصيب ديوكلتيانوس بلوثة عقليَّة، واعتزل الحكم تحت وطأة المرض الذي لم يدعه يقدر أن يأكل أو يرتاح، بل كان يتأوَّه وينوح

٣٨ـ هو والد الإمبراطور قسطنطين الكبير.

٣٩ـ القمص شنوده السرياني، الاستشهاد في المسيحيَّة، مرجع سابق، ص ٦٤

٤٠ـ يوسابيوس القيصري، تاريخ الكنيسة، ٨:١٣، مقتبس عن: القمص شنوده السرياني، الاستشهاد في المسيحيَّة، مرجع سابق، ص ٢٥٤

ويبكي دائماً، وفقد بصره، وقد حُطِّمت تماثيله، وأُزيلت صوره. أنهى حياته في سنة ٣١٣م في نفس السَّنة التي أصدر فيها قسطنطين مرسوم التَّسامح الدِّيني للمسيحيين.

وفي سنة ٣٠٨م أصدر مكسيمينوس دازا (ابن أخ جالريوس) منشوراً خامساً يقضي بسرعة إعادة بناء مذابح الأوثان، وأن يقدِّم جميع الرِّجال والنِّساء والأولاد وحتى الأطفال الرُّضَّع الذبائح والسَّكائب، مع إكراههم على تذوق التَّقدمات. وفي سنة ٣١١م أمر مكسيمينوس دازا بإقامة الهياكل في كل مدينة، وعيَّن كهنة للأصنام، وأقام عليهم في كل مقاطعة موظفاً سياسياً كرئيس كهنة، ومنح جميع المشعوذين وظائف إداريَّة. وكأنها صحوة الموت الأخيرة للوثنيَّة، كعبادة آن لها أن تزول.

لقد أذاق مكسيمينوس دازا المسيحيين أشر وأفظع أنواع العذاب في الشَّرق، وخاصة في مصر وسوريا. ولكنه اندحر بجيوشه أما ليكينيوس سنة ٣١٣م. ويذكر يوسابيوس المعاصر، أن جيشه أبيد وتنحى عنه كل حرسه، وتركوه وحيداً وهربوا لحياتهم، أما هو فنزع ملابسه الملكية، وتخفَّى بين النَّاس في جبن، واختبأ في الحقول والقرى، وعاد إلى بلاده يغطيه الخزي، وفي ثورة جنونيَّة قتل كثيراً من كهنة الأوثان الذين أوحوا إليه بدخول الحرب.

وفي ذلك الوقت أصدر قسطنطين وليكينيوس مرسوم التَّسامح من ميلان، فأصدر هو من نيقوميدية مرسوم تسامح للمسيحيِّين على غرار مرسوم ميلان، وإن كان أقل منه من جهة الحريَّة التي منحها للمسيحيِّين، لكنه سرعان ما تعاطى سماً للانتحار، ونظراً لقوة جسده، فلم يقض عليه السُّم مباشرة فظهرت عليه أعراض تشبه الطَّاعون، وامتدت به الأيام حتى تزداد آلامه، ومن شدَّة الآلام التي حلَّت به كانت تنتابه نوبات يفقد فيها

عقله، فكان يلتهم تراب الأرض بشراهة. وفي أحد النَّوبات صدم بعنف حائطاً بجبهته، فجحظت عيناه، وفقد بصره ... وأخذ يصيح أنه بريئ. وأخيراً اعترف بجريمته وناح، وتضرَّع إلى المسيح أن يرحمه، وهكذا خلال هذا النَّحيب الصادر عن إنسان وكأنه يحترق حياً، لفظ أنفاسه المذنبة، في أبشع صورة للموت سنة ٣١٤م(٤١).

ولم يكن نصيب ديوكلتيانوس من الاضطهاد سوى سنتين وشهرين (٣٠٣- ٣٠٥م)، ولكن الاضطهاد استمر حتى سنة ٣١٣م، في الشَّرق على يد جالريوس ومكسيمينوس دازا. وكانت أشد فترات هذا الاضطهاد وطأة هي الفترة من (٣٠٨- ٣١١م)، وكان المحرِّك الأكبر للاضطهاد فيها هو مكسيمينوس دازا. وبقدر ما أساء إلى الكنيسة، بقدر ما دفع حياته ثمناً لإثمه في مذلَّة مهينة، على مشهد ومسمع لكل من يعتبر دروس التَّاريخ.

ووصل ليكينيوس إلى الشَّرق، وصار إمبراطور الشَّرق. وفي محاولة ضعيفة خرج على قسطنطين، وجدَّد اضطهاد المسيحيِّين لفترة قصيرة، لكنه هُزم أمام قسطنطين سنة ٣٢٣م، فأصبح هذا الأخير هو الحاكم الوحيد للإمبراطوريَّة شرقاً وغرباً.

ولم يكن عند مصر المسيحيَّة في غمرة موقعة الاستشهاد وقتاً للأدب أو الفن كما كان أدب مصر وفنها في عصور الفراعين بشموخها، فاقتصر الأدب القبطي على أقوال الآباء وسير القدِّيسين والإصلاح الاجتماعي والآداب الكنسيَّة، وشئ من قصص(٤٢).

وبرغم أن المسيحيَّة في مصر بدأت في الإسكندريَّة اليونانيَّة، إلاَّ أنه

٤١ـ القمص شنوده السرياني، الاستشهاد في المسيحيَّة، مرجع سابق، ص٢٥٣، ٢٥٤
٤٢ـ د. نعمات أحمد فؤاد، شخصية مصر، مرجع سابق، ص ١٦٠

في القرن الثّالث الميلادي كان قد تحوّل عدد كبير من الأقباط إلى المسيحيّة، فتُرجم الكتاب المقدّس والليتورجيّة إلى القبطيّة، لغة البلاد الوطنيّة. ولقد تصدّت الكنيسة القبطيّة لمواجهة الأفكار اللاّهوتيّة السوفسطائيّة الهيلينيّة في الإسكندريّة بما تحمله من تأمل عقلي نظرّي وقف على النقيض من التّقوى التقليديّة الشّعبيّة في الجنوب. فلقد انتقلت الثقافة القبطيّة انتقالاً شفهياً من خلال الأقوال والأمثال والطقوس أكثر من انتقالها خلال المباحث اللاّهوتيّة. وهذه الثقافة الشعبيّة الرّهبانيّة النّاسكة هي التي أنشأت اللّيتورجيّة والخدمات الكنسيّة في الكنيسة القبطيّة.

ومات قسطنطين الملك سنة ٣٣٧م بعد أن قبل المعموديّة قبل موته مباشرة. وجاء من بعده أباطرة اضطهدوا أتباع مجمع نيقية، ليفرضوا العقيدة الأريوسيّة بالقهر والإرهاب. ففي الشّرق تملك الإمبراطور قنسطنطيوس. أما في الغرب فقد تملك الإمبراطور قسطنطين الثّاني الذي مات سنة ٣٤٠م، ومن بعده تملك الإمبراطور قنسطانس الذي مات سنة ٣٥٠م، فتملك الإمبراطور قسطنطيوس على الشّرق والغرب، وقد تعمّد بيد الأريوسيين هو الآخر، وبموته سنة ٣٦١م تملّك الإمبراطور يوليانوس الجاحد (٣٦١- ٣٦٣م) عرش الإمبراطوريّة شرقاً وغرباً، وارتد عن المسيحيّة - وفي الغالب لم يعتنقها أصلاً - فما أن ارتقي العرش حتى أعلن وثنيته، واضطهاده ليسوع النّاصري وأتباعه، ولكنه سرعان ما فقد عرشه وحياته كلاهما معاً، إذ أصابه سهم في حربه مع الفُرس إنغرس في جنبه فأخذ يترف حتى الموت، وقال قولته المشهورة بينما يفارق الحياة "لقد غَلبتَ أيها الجليلي".

وتولى من بعده الإمبراطور جوفيان ولم يدم على عرشه سوى ثمانية أشهر، وبموته أعلن الضُّباط فالانتيان إمبراطوراً سنة ٣٦٤م، وكان

أرثوذكسياً، وبعد شهر من تنصيبه عيَّن أخاه فالنس زميلاً في الحُكم وكان أريوسياً. وذهب فالنتيان نحو الغرب(٤٣)، واستقر فالنس في الشَّرق ليكمل الحلقة الأخيرة من سلسلة اضطهادات الأريوسيين للبابا أثناسيوس الرَّسولي.

وكم عانى القدِّيس أثناسيوس الرَّسولي من عسف الأباطرة وتصلُّفهم، حتى جاء وقت وقف فيه وحده ضد العالم الذي كاد أن يصير كله أريوسياً، وضد أربعة أباطرة هم قسطنطين، وقسطنطيوس ويوليانوس وفالنس، ليدفع عن الكنيسة الجامعة شر هذه الهرطقة البغيضة، التي كادت أن تقوِّض سر التَّجسُّد الإلهي من أصوله، وبالتالي كل أسرار الكنيسة المقدَّسة وإيمانها.

وجاء الإمبراطور ثيؤدوسيوس الكبير (٣٧٩- ٣٩٥م) فأعلن المسيحيَّة ديناً رسمياً للإمبراطوريَّة الرُّومانيَّة، وشنَّ حرباً على الوثنيين والأريوسيين. وفي زمانه هجم الأقباط على كثير من المعابد المصريَّة ليهدموها، وبدأوا بالصَّنم الضَّخم سيرابيس(٤٤) بمعبده بالإسكندريَّة.

---

٤٣ ـ تولى من بعده الإمبراطور جراتيان (+ ٣٨٣م) ، ثم الإمبراطور فالنتيان الثاني (+ ٣٩٢م).

٤٤ ـ كان معبد سيرابيس من أروع الأبنية وأعظمها، كانت جدرانه من الرخام من داخلها وخارجها، وفي وسطه تمثال عظيم للمعبود ''سيرابيس'' وهو تمثال ضخم في وضع الجالس، وهو مصنوع من الخشب المطعم بالذهب والعاج، له ذراعان ممدودان تكاد كل منهما تلمس الحائط الذي يليها. ويحمل صولجاناً في يده اليسرى ولكنه اختلف عن جوبيتر بالسلة الموضوعة فوق رأسه، وبالوحش الرمزي الذي أمسك به في يده اليمنى وهو ثعبان ينتهي جسده بثلاثة ذيول، وله ثلاثة رؤوس أحدها رأس كلب والثاني رأس أسد، والثالث رأس ذئب، وقد التفت حولها جميعاً أفعى عظيمة. وكانت تزين المعبد زينة باهرة من النقوش التي لا تقدر بثمن، وكانت من المرمر والشبه. وكانت الأبواب العظمية التي تحيط بالمعبد لا مثيل لها في الفخامة والجلال. وكانت رؤوس الأعمدة في المعبد من معدن الشبه تغطيه طبقة من الذهب، أما السقوف فكان

وجاء من بعده ابناه أركاديوس وأنوريوس ليملك الأوَّل حُكم الشَّرق، والآخر حُكم الغرب فانقسمت الإمبراطوريَّة الرُّومانيَّة مرَّة أخرى. وبتملُّك أركاديوس إمبراطوراً للشَّرق سنة ٣٩٥م يبدأ العهد البيزنطي الذي يستمر حتى سنة ٦٤٠م عندما فتح العرب مصر.

الرَّهبنة المصريَّة أم الرَّهبانيَّات في العالم

ظهرت الرَّهبنة كحركة نسكيَّة بالغة القيمة أولاً في مصر، حيث تأسَّست أوَّل جماعة رهبانيَّة سنة ٣٠٥م على يد القدِّيس الأنبا أنطونيوس (٢٥١- ٣٥٦م) أبي رهبان العالم. وفي سنة ٣١٨م أنشأ القدِّيس الأنبا باخوميوس (٢٩٢- ٣٤٨م) أوَّل دير في طبانسين في صعيد مصر. وفي سنة ٣٤٠م انطلق القدِّيس أنبا مقار الكبير (٣٠٠- ٣٩٠م) إلى بريَّة شيهيت بقيادة الشَّاروبيم بعد توحُّده لمدة عشر سنوات على أطراف قرية. وقام القدِّيس أنبا مقار بزيارتين للقدِّيس أنبا أنطونيوس، الأولى في سنة ٣٤٣م وفيها تسلَّم منه أسرار الحياة الرهبانيَّة وأنواع قتالات العدو، والثَّانية كانت سنة ٣٥٣م لأخذ نصائح وإرشادات للرعاية وقيادة النفوس، حيث سلَّمه عصاته تعبيراً عن تسلُّمه أمانة التَّدبير الرَّهباني من بعده. وانتظمت الحياة الرهبانيَّة في شيهيت وبلغت ذروتها سنة ٣٥٦م. ولم تأت نهاية القرن الرَّابع الميلادي إلاَّ وكان هناك أكثر من خمسة آلاف راهب في نتريا والقلالي في صحراء مصر.

ومع أوائل الرُّبع الأخير من القرن الرَّابع الميلادي وفد إلى بريَّة

يغطيها الذهب والألوان الزاهية في حين كانت الأرض والجدران من أثمن أنواع المرمر، وكان هذا المعبد ينافس الكابيتول في روما عظمة وروعة. (انظر: ألفريد بتلر، فتح العرب لمصر، الجزء الثاني، ص ٣٣٢).

شيهيت كثيرون من الأجانب للتعرُّف على الحياة الرهبانيَّة. فبدءاً من سنة ٣٧٣م زار نتريا والقلالي وشيهيت المـؤرِّخ روفينـوس (٣٤٥- ٤١٠م) كاهن مدينة أكويلا بشمال إيطاليا، ومعه القدِّيسة ميلانيَّـة الأسـبانيَّة. وأيضاً إيفاجريوس البُنطي (٣٤٥- ٣٩٩م) الذي زار مصر سـنة ٣٨٣م. والقدِّيس جيروم (٣٤٢- ٤٢٠م) بصحبة القدِّيسة الإيطاليَّة باولا، حيث زارا نتريا سنة ٣٨٥م. وبالليديوس (٣٦٣- إلى ما بعد ٤٢٠م) راهب جبل الزَّيتون بأورشليم، وصاحب "التَّاريخ اللوزياكي" والذي زار القلالي سنة ٣٩١م وبقى بها تسع سنوات. والقدِّيس يوحنـا كاسـيان (٣٥٠/٣٦٠- ٤٤٠/٤٥٠م) الذي زار بريَّة شيهيت سنة ٣٩٩م، وغادرها مـع صـديقه جرمانوس سنة ٤٠٠م. فانتشرت الرَّهبنة المصريَّة بسرعة مذهلة في كـل ربوع العالم عبوراً بفلسطين في أسيا، وفرنسا في أوروبا.

وفي القرن السَّادس كان هناك ثلاثة آلاف وخمسـمائة راهـب في الإسقيط وحده[٤٥]. ومن هذه المراكز الثلاثة (نتريا - القلالي - الإسقيط) جاءت إلينا أكبر الآثار الأدبيَّة الرَّهبانيَّة متمثِّلـة في: "أقـوال الآبـاء - Apophthegmata Patrum"، و "التَّاريخ اللوزيـاكي" الـذي كتبـه بلاديوس كشاهد عيان سنة ٤١٩، ٤٢٠م، و"تاريخ الحياة الرَّهبانيَّـة في مصر - Historia Monachorum in Aegypto" وهو لمؤلِّف مجهول كتبـه في مصر سنة ٣٩٤ أو ٣٩٥م. ونضيف إليه ما كتب كاسيان في مؤلَّفـه "المعاهد - Institutes" وأيضاً "المحاورات - Conferences"، والـتي كتبها حوالي سنة ٤٢٠م أي بعد عشرين سنة من مغادرته للإسقيط.

وهذه الأعمال الأدبيَّة - إلى جوار عظات القدِّيسَين أنطونيوس الكـبير ومقاريوس الكبير - كانت ولازالت هي المنبع الرَّئيسي للحياة الرُّوحيَّـة في

45_ cf. Evelyn White, *The Monasteries*, part ii, p.333

الشَّرق، وحتى اليوم. فليس من المدهش إذاً أن نجد تأثير هـذه الأعمـال الأدبيَّة الرَّهبانيَّة، التي ظهرت في صحراء مصر، على الصَّلوات الرَّهبانيَّة في بلدان العالم المسيحي آنئذ، بل وأيضاً تأثيرها على التَّقليد اللِّيتورجي الذي امتد إلى كنائس الإيبارشيَّات والكاتدرائيَّات في تلك البلدان(٤٦).

ويقول الأستاذ محمد شفيق غربال "إذا كان الفن القبطي تعبيراً عن الخصائص الدِّينيَّة لمصر المسيحيَّة، فإن نشأة الرَّهبنة ونموها لهي وجه آخر من أوجه التَّعبير، يعتبره العُلماء أكثر ما ساهم به الشَّعب المصري بـروزاً وجلاءً في تراث المسيحيَّة ".

عصر المجامع المسكونيَّة

وجاء عصر المجامع المسكونيَّة وأصبح بطريرك الإسـكندريَّة عقـب مجمع نيقية المسكوني الأوَّل سنة ٣٢٥م يحمل لقب "قاضي المسـيحيَّة في المسكونة كلها".

ولكن المجمع المسكوني الثَّاني في القسطنطينيَّة سـنة ٣٨١م قـدَّم القسطنطينيَّة على الإسكندريَّة لأسباب سياسيَّة وليست دينيَّة. لأنه في سنة ٣٣٠م أصبحت بيزنطة عاصمة الإمبراطوريَّة الرُّومانيَّة باسم روما الجديدة، أو القسطنطينيَّة، نسبة إلى قسطنطين الكـبير الـذي صـار إمبراطوراً للشَّرق والغرب.

ثم كان مجمع أفسس سنة ٤٣١م حين خـرج نسـطور بطريـرك القسطنطينيَّة عن الإيمان، فحُرم في هـذا المجمـع الـذي رأسـه البابـا

46_ Robert Taft, S. J., *The Liturgy of the Hours in East and West*, U. S. A., 1986, p. 75.

الإسكندري كيرلس الكبير، ونُفي إلى أخميم بصعيد مصر حتى مات في منفاه. ولكن أتباعه نزحوا إلى خارج الحدود الشَّرقيَّة للإمبراطوريَّة الرُّومانيَّة حيث بلاد فارس وانضووا في كنيسة المشرق الآشوريَّة، التي اتَّخذت فيما بعد من النَّسطوريَّة عقيدتها الإيمانيَّة.

وكان مجمع خلقيدونية سنة ٤٥١م الذي شطر الكنيسة، حيث حُرم فيه البابا ديسقوروس، لتمسكه بعقيدة الطَّبيعة الواحدة في شخص السيِّد المسيح، فانفصلت كنيسة مصر عن كنائس الشَّرق والغرب، وتبعها بضع كنائس عُرفت بالكنائس الشَّرقيَّة القديمة. وكان من المؤلم حقاً أن تقرر الكنيسة الخلقيدونيَّة في العصر الحديث أن إيمان البابا ديسقوروس كان صحيحاً، ولم يكن الاختلاف إلاَّ في الصِّيغ اللاَّهوتيَّة فقط، لأنه كان اعترافاً متأخراً جداً، حتى أنه برغم انتفاء سبب الانفصال لازالت النتائج التي تراكمت بسبب هذه القطيعة الطَّويلة عائقاً لعودة الوحدة الكاملة بين الكنائس الخلقيدونيَّة والكنائس اللاَّخلقيدونيَّة.

لقد أعقب مجمع خلقيدونية اضطهاداً لكنيسة مصر كان أشد مرارة عليها مما عانته من الوثنيَّة وأباطرتها. وكان اضطهاد الكنيسة القبطيَّة في هذه الحقبة على يد مركيان الإمبراطور البيزنطي الذي توفي سنة ٤٥٧م، ومن بعده لاون الأوَّل (٤٥٧- ٤٧٤م) ومن أتى بعدهما.

وفي عهد الإمبراطور جستنيان (٥٢٧- ٥٦٥م) وكان خلقيدونياً - ولكن زوجته ثيؤدورة كانت تعتنق الأرثوذكسيَّة في الخفاء - استحدث أمراً خطيراً كان له أسوأ الأثر على نفسية الأقباط، حينما نصَّب أبوليناريوس بطريركاً ملكانياً أي خلقيدونياً على كرسي الإسكندريَّة سنة ٥٤١م، وقلَّده بالإضافة إلى وظيفته الدِّينيَّة سلطات عسكريَّة لتنفيذ سياسته الدِّينيَّة، ومنحه حق جمع الضَّرائب. وكانت سابقة خطيرة لمن أتى

بعده من الأباطرة، فقد كانت النّتائج دائماً مذابح شعبيّة مروِّعة.

وأجرى الإمبراطور جستنيان تقسيمات إداريّة جديدة بمصر، لم تعد فيها قيادة جيش الاحتلال قيادة موحّدة، بل كان حاكم كل إقليم مستقلاً بجيشه، مما ساعد على انهيار الجحافل الرُّومانيّة المشتّتة أمام الجيوش العربيّة(٤٧).

وأغلق جستنيان في مصر معابد إيزيس الوثنيّة في جزيرة فيله، ومعابد آمون في واحة سيوه، وأحلّ محلها كنائس مسيحيّة خلقيدونيّة. و لم تصبح المسيحيّة في مصر عقيدة غالبة حتى القرن السّادس الميلادي، فحتى ذلك التّاريخ استمر وجود عقيدة أوزوريس خاصة في المناطق الرِّيفيّة البعيدة حيث لم يسمع أحد عن بشارة الإنجيل فيما عدا أصداء خافتة(٤٨).

الاحتلال الفارسي لمصر

ظلّت الكنيسة القبطيّة تحت حكم بيزنطي جائر حتى دخول الفُرس إلى مصر. وكانت العداوة بين الفُرس والرُّوم قديمة تقليديّة. ففي أيام الإمبراطور البيزنطي هرقل (٦١٠- ٦٤١م) توغل الفُرس في أملاك الدَّولة الرُّومانيّة، وأغاروا على سوريا سنة ٦١٥م، ثم جاءوا إلى مصر واستولوا على الإسكندريّة سنة ٦١٧م في أيام كسرى الثّاني، فقتلوا كثيراً من أهلها، وسبوا منهم إلى بلادهم سبياً لا يُحصى. وخرّبوا كثيراً من الكنائس والأديرة. ويشير المقريزي في كتابه "الخطط والآثار" (ص ٣٩٢) إلى أن اليهود قد ساعدوا الفُرس في محاربة النّصارى وتخريب كنائسهم. فقد كان لهم حيٌّ في الإسكندريّة وانتهزوا في مصر فرصة جديدة ليساعدوا أعداء الصّليب.

---

٤٧ ـ حسين فوزي، سندباد مصري، مرجع سابق، ص ٣٦٧

٤٨ ـ د. ألفريد بتلر، الكنائس القبطية القديمة في مصر، الجزء الثاني، ترجمة إبراهيم سلامة، القاهرة، ١٩٩٣، ص ١٩٥

وعندما استقر أمر الفُرس في البلاد بعد الفتح استخدموا كبار رجال الدَّولة من الأقباط في إدارة شؤون البلاد. وهو نفس ما نهج عليه العرب بعد فتح مصر. فلم يكن في الاستطاعة من سبيل إلى غير ذلك كلما غزا جيش أجنبي بلاداً لها مدنية تسبق مدنيته، ويرى واجباً عليه أن يدبِّر أمورها، وهي منظمة تنظيماً حسناً. ولا نزاع في أن القبط قد اشتركوا في هذا الأمر، وما كان لهم أن يرفضوا ذلك الاشتراك، إذ أن الرَّفض حمق لا مبرِّر له. ولكن ذلك الاشتراك شئ، وما يعزوه إليهم الكُتَّاب المحدثون شئ آخر، فإنهم يعزون إليهم أنهم رحَّبوا بالفُرس ورأوا فيهم رُسُل الخلاص، فإن هذه التُّهمة لا مبرِّر لها، وهي فوق ذلك قلب للحقيقة ومسخ لها[٤٩].

ويستطرد ألفريد بتلر A. Butler في تأكيد ذلك بأدلَّة قاطعة، من حيث أن دفاع الإسكندريَّة ومقاومتها لهم دامت زمناً طويلاً، وأن كثيراً من الذين هلكوا من الرُّهبان على أيدي الفُرس كانوا من القبط. وبعد فتح الإسكندريَّة سار قائد جيوش كسرى إلى الصَّعيد، وكانت معاملته للقبط في كل مكان واحدة، فيحل الموت والخراب حيثما حلَّ[٥٠].

وبقى الفُرس سادة البلاد عشر سنين، كادت أن تُمحى في أثنائها بعض الأديرة التي تخرَّبت. فكان حول الإسكندريَّة ستمائة دير عامرة بالرُّهبان، دهمها الفُرس ونهبوها وهدموها وقتلوا من فيها. وفي مرورهم على الصَّعيد عبروا على مدينة نقيوس، وسمع قائد العسكر أن بالمغائر التي حولها سبعمائة راهب، فأرسل من قتلهم.

أما عن فنون وآداب الإسكندريَّة، فقد ظلت متَّصلة لم يقطعها فتح الفُرس للبلاد، فجيوش كسرى لم تسبِّب أذى كبيراً للتُّحف الكُبرى في

---

٤٩ ـ د. ألفريد بتلر، فتح العرب لمصر، الجزء الأول، مرجع سابق، ص ٧٣

٥٠ ـ نفس المرجع، ص ٧٥ ـ ٧٩

داخل العاصمة، سواء كان ذلك أبنية أو آثاراً. فالغزاة الفُرس لم يدِّمروا مكتبة الإسكندريَّة، إذ كانت باقية إلى ذلك الوقت. وكانت المنارة الكُبرى (منارة فاروس) إحدى عجائب الدُّنيا السَّبع لا تزال ماثلة إلى ذلك الوقت تشرف فيما بين المدينة والبحر، تكلِّل هامتها سُحُب من الدُّخَّان في النَّهار، ولهب من النِّيران في اللَّيل. ولم يُهدم من أبنية الإسكندريَّة ما اشتُهرت به المدينة من المعابد القديمة وساحات العُمُد الفسيحة، والقصور التي لا تقع تحت حصر. بل إن الكنائس ذاتها التي كانت في داخل أسوار المدينة لم يمسسها أذى يستحق الذِّكر. وكان المصلُّون يزدحمون في الكنيسة الكُبرى (كنيسة القيصريون)، أو في كنيسة القدِّيس مرقس حيث كانت رفاته لازالت بمصر يعلوها المذبح المنيف[٥١].

إنني أوافق ألفريد بتلر A. Butler على جانب كبير من رأيه ولكن ليس كله، لاسيَّما فيما يختص بالكنائس والأديرة. ذلك لأن اللَّهجة التي خاطب بها "خوريام" قائد جيوش كسرى رسول الإمبراطور هرقل الذي بعثه إليه يفاوضه في أمر الصُّلح كانت: "قل لمولاك، إن دولة الرُّوم من أرضي، وما هو إلاَّ عاص ثائر، وعبد آبق، ولن أمنحه سلاماً حتى يترك عبادة الصَّليب ويعبد الشَّمس". وهي لهجة تفيد أن الحرب كانت دينيَّة أيضاً، فكيف تكون فيها مهادنة مع أصحاب الصَّليب؟! ولكننا في ذات الوقت لا ننكر أن البابا بنيامين الـ ٣٨ أُقيم بطريركاً للإسكندريَّة في عهد الفُرس بعد نياحة البابا أندرونيكوس، وقضى أربع أو خمس سنوات[٥٢] تحت ظل الحُكُم الفارسي في الإسكندريَّة، حتى رآهم بعينيه

٥١ـ في الفتح العربي الثاني للإسكندرية تهدمت كنيسة القيصريون، وبقيت كنيسة القدِّيس مرقس سالمة. انظر: د. ألفريد بتلر، فتح العرب لمصر، الجزء الأول، مرجع سابق، ص ١٠٣

٥٢ـ يذكر القدِّيس ساويرس بن المقفع في كتابه "تاريخ البطاركة" أن الفرس أقاموا في مصر ست سنوات بعد اختيار بنيامين. وذلك يجعل تاريخ خروجهم من

وهم يخرجون من بابها الشَّرقي في أوَّل سنة ٦٢٧م، وأن البعض القليل منهم بقى في أماكن متفرِّقة إلى سنة ٦٢٨م، وخرجوا بعد ذلك عندما تم الصُّلح مع هرقل.

عودة ثانية إلى حكم الرُّوم

بعد موت كسرى الثَّاني تغلب الإمبراطور هرقل على الفُرس وطردهم من الإمبراطوريَّة الرُّومانيَّة سنة ٦٢٦م، وما أن خرج الفُرس من مصر حتى عاد الرُّوم لحكمها مرَّة ثانية. واستأنف هرقل (٦١٠- ٦٤١م) سياسة جوستنيان، وعيَّن "قيرس – Cyrus " أسقف فاسس Phasis في القوقاز قرب البحر الأسود، وهو المعروف في المراجع العربية باسم "المقوقس"، عينه بطريركاً ملكانياً لمصر وحاكماً لمصر كلها في نفس الوقت، ومنحه سلطات دينيَّة وماليَّة وتنظيميَّة وقضائيَّة واسعة. وصل المقوقس إلى الإسكندريَّة سنة ٦٣١م وأذاق الأقباط أهوالاً طيلة عشر سنين. وتحمَّل المصريون في عهد البيزنطيِّين أعباء ماليَّة كثيرة أثقلت كاهلهم، وأحنت ظهورهم، وكان الفلاَّحون الأقباط يهجرون قراهم في ذلك العصر البيزنطي فراراً من دفع الضَّرائب[٥٣]. ولم ينج الأقباط آنئذ من ضريبة تُحصَّل على كل شخص من الرابعة عشرة إلى الستين[٥٤]. ومن فرط

مصر في سنة ٦٢٨م، ولكن بتلر يرى استحالة قبول ذلك لأن كل الدلائل التاريخية تدل على أن خروجهم الأكبر كان في أوائل سنة ٦٢٧م. المرجع السابق، ص ١٥٤.

٥٣ـ د. سيدة إسماعيل كاشف، مصر في فجر الإسلام، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٤، ص ٢٢٧

٥٤ـ لم يُعف من هذه الضريبة سوى مواطني الإسكندريَّة والروم المقيمين في مصر، وأبناء الجند الإغريق، وعدد من البطالمة في كل معبد، فتحمل الأقباط عبء دفعها إلى جانب اليهود. (انظر: د. ناريمان عبد الكريم، معاملة غير المسلمين في الدولة الإسلامية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٥، ص ٤٧).

الضيق هرب البطريرك القبطي البابا بنيامين الأوَّل الـ ٣٨ (٦٣٣-٦٦٢م) إلى دير بصعيد مصر، واختفي في مكان غير معلوم لأحد، يدير شؤون كنيسته من وراء المجهول، وكان سنده الوحيد في قيادته للكنيسة هو ثقة الأقباط في باباهم كما كان عهدهم دائماً.

كان المقوقس ظالماً مستبداً، أجيراً خائناً، لطالما أساء في حكمه حتى كره الأقباط دولته كلها، دولة الرُّوم. وكان سيف قيرس قد قطع ما كان يربطهم إلى الدَّولة الرُّومانيَّة من أسباب الولاء. وإذا ما اشتد الكرب، وجدَّ الجد أسلم هذا الخائن البلاد إلى أعدائها، وهو ما مهَّد السَّبيل إلى فتح العرب لمصر.

أضواء لابد منها على العصر القبطي

تُعرف الفترة ما بين دخول المسيحيَّة مصر، ودخول العرب إليها بـ "العصر القبطي"، وهي فترة جديرة بالدِّراسة والبحث. وثبت أخيراً بعد بحوث متأنية من علماء محايدين أنه يتعذَّر الإلمام بأي حقبة أو عصر من العصور في مصر إلماماً متكاملاً ما لم تتم دراسة العصور السَّابقة له دراسة واعية، واستيعاب خصائصها. لذلك كان العزوف عن الغوص في دراسة العصر الفرعوني ومن بعده اليوناني فالرُّوماني فالقبطي في مصر، عزوفاً عن فهم العصر الإسلامي في مصر. فالتَّاريخ سلسلة لا يمكن فض عراها، وإلا انفرطت حبَّاتها.

والآن نلقي بعض الضَّوء على العصر القبطي الذي كانت فيه الإسكندريَّة المدينة الثَّانية في العالم من الوجهة السياسيَّة، والأولى من الوجهة الثقافيَّة، ولا يخفى أن السِّر وراء ذلك كان يكمن فيما ورثه الأقباط عن أسلافهم المصريين القدماء من براعة ودراية في كافة المجالات.

فمصر المسيحيَّة هي التي وضعت غالبيَّة المصطلحات الطبيَّة، وعليها تتلمذ جالينوس، ولها شهد نيتولتسكي في كتابه "الطِّب الشعبي المقارن".

ولقد سبقت مصر العالم طراً في دراسة الإمعاء الدَّقيقة بفضل هيروفيلوس، كما سبقت إلى اصطناع البحث العملي بفضل أقليدس صاحب كتاب "المبادئ". ومصر المسيحيَّة هي التي وضعت حساب الإبقطي. وموسيقى مصر الكنسية هي أقدم مدرسة موسيقيَّة معروفة في العالم، بل تكاد أن تكون أغناها.

كانت الإسكندريَّة في العصر المسيحي تحدِّد أسعار الحرير في العالم المتمدين. وشكَّلت المرمر وبرعت في فن التَّصوير، وصناعة الزُّجاج والفسيفساء والورق وهو مادة الكتب التي عرفت مصر منذ القدم تأليفها وزخرفتها وتصويرها ورسمها.

واحتشدت البحوث الأوروبيَّة في النصف الأخير من القرن التَّاسع عشر لدراسة الفن القبطي، مسجِّلة ما يلي كما جاء في كتاب "تراث العصور الوسطى": "إن مصر المسيحيَّة أحد المنابع الكبيرة التي سقت الفنون الرُّومانيَّة بعد جفافها وجمودها[٥٥]".

لقد أعطت مصر فيما أعطت طرقاً جديدة في التَّعشيق والتَّجميع والخراطة لم تكن معروفة من قبل، وذاعت بفضلها في شرق العالم وغربه، وهو ما كسبه العرب من مصر فيما كسبوا. وإذ عرفتها أوروبا عن طريقهم في الأندلس سمته "الأرابيسك" وما هو إلاَّ فن مصري قديم تشهد به آثار توت عنخ آمون، والمتحف القبطي، والآثار القبطيَّة التي تعد نماذجها فيه امتدادات لروائع مصر القديمة.

٥٥ـ د. نعمات أحمد فؤاد، شخصية مصر، مرجع سابق، ص ١١١، ١١٢، ١٥٥

فعنَّا أخذ الغرب "الأرابيسك" وطوَّروه، ولكنهم مع هذا عجزوا عن تجميع الوحدات الزُّخرفيَّة في كلٍ شامل، شأنهم في هذا شأنهم في كل شئ. فهم يطوِّرون الجزئيَّات، ولكنهم عاجزون عن التَّجميع في وحدة، تلك الوحدة التي امتاز بها الفن الفرعوني. إن معبد ادفو على ضخامته يُسمع التَّرتيل من قدس الأقداس فيه في جميع أرجاء المعبد. لقد صُمِّم البناء على هذا الأساس، إنها الوحدة في الفن، وحدة تربط حتى بين الصَّوت والمكان[٥٦].

إن ما تبقى من آثار هذه الحقبة من تاريخ وفلسفة وفقه الدِّين والطِّب، قليل العدد لا يكفي للدَّلالة على ما كان بالإسكندريَّة من نشاط أهل العلم في مختلف الفنون، فقد ضاعت أكثر مؤلَّفات ذلك العصر في أثناء عواصف الفتوح التي اجتاحت مصر في النصف الأوَّل من القرن السَّابع، على أنه قد بقى منها ما يشهد للإسكندريَّة بأنها كانت لا تزال جديرة بأن تكون مقرّ الآداب في العالم أجمع، ومقصد طلاَّب العلم[٥٧].

وإذا حقَّ لنا أن نقول إن الآثار الأدبيَّة كانت لم تزل باقية يُعتز بها في الإسكندريَّة، فإنه يحق لنا أكثر من ذلك أن نقول إن الفنون كانت زاهية مزدهرة. فقد كان بنيان المدينة يأخذ بالألباب بعظمته ورونقه، من أسوار منيفة وحصون منيعة، وقصور برَّاقة، وكنائس فخمة، وطرق ذات عُمُد مرصوصة. وكانت مهارة البنَّائين على عهدها لم تضمحل ولم تضعف عما كانت عليه في أيام جستنيان، وهو الذي اتخذ من أهل الإسكندريَّة ذلك البنَّاء الذي أقام السَّاحة الكُبرى في القسطنطينيَّة، وبها ألف عامود وعامود، ولا تزال باقية إلى الآن. ورؤوس الأعمدة في هذه السَّاحة يرجع

٥٦- نفس المرجع، من أماكن متفرقة من الكتاب.
٥٧_ د. ألفريد بتلر، فتح العرب لمصر، الجزء الأول، مرجع سابق، ص ٨٦

إليها الفضل في الانفصال عن قيود الماضي انفصالاً تاماً، وتمهيد الطَّريق للبناء الجليل الذي أقامه "أنتيميوس" وهو بنَّاء كنيسة القدِّيسة صوفيَّا. وكان حجر السِّماق الأحمر والأخضر الذي استُعمل في تحلية هذا البناء يؤتى به من مصر محمولاً في النِّيل، وكانت مصر منذ أيام الفراعنة شهيرة بما فيها من المرمر البديع، وكانت حلية الكنائس والقصور في جميع بلاد العالم من هذا الحجر الثمين. وكانت سوقه في الإسكندريَّة، وبقيت هناك حتى قُضي عليها في أيام الفتح العربي.

الفن القبطي

الفن القبطي - حاوياً فيه الصِّناعات القبطيَّة - هو فن نبت في مصر واستمد عناصره من الفنون الفرعونيَّة والإغريقيَّة (اليونانيَّة)، والرُّومانيَّة، ثم البيزنطيَّة. وكذلك من الفن السَّاساني أيضاً (الفارسي). ووضحت خصائص الفن القبطي في القرن الخامس الميلادي، وتم نضوجه إبَّان القرنين السَّادس والسَّابع، واستمر بعد الفتح الإسلامي بمصر في القرن السَّابع.

ويرى ألفريد بتلر A. Butler أنه لا يمكن تحديد تاريخ ظهور واضمحلال الفن القبطي، لأن الظُّهور والاضمحلال لا يشكِّلان سوى فترتين قصيرتين لا يُعرف عنهما شئ. والفن القبطي في أفضل الحالات هو كما نراه مبلوراً في الأشكال المحدَّدة التي انتقلت عبر قرون عديدة مع فقدان القليل من رونقه، ويبدو أن الابتكار قد توقَّف مبكراً بينما بقى الذَّوق والمهارة في التَّنفيذ متوارثَين[٥٨].

ويُعد الفن القبطي أحد أصول الفن الإسلامي المصري، كما هو

٥٨ـ د. ألفريد ج. بتلر، الكنائس القبطية القديمة، الجزء الأول، مرجع سابق، ص ٧٣

الحال في كثير من آثار مصر الإسلاميَّة الباقية إلى اليوم مثل جامع السُّلطان حسن الذي أجمع أساتذة الفنون الذين رأوه على أنه فن فرعوني. وما المئذنة إلاّ الصُّورة الإسلاميَّة للمسلة الفرعونيَّة.

فالحضارة الإسلاميَّة والفن الإسلامي هو خلاصة ما جاء به المسلمون من الحضارات التي سبقتهم، حيث مزجوا منها حضارة اختصت بهم وبعصرهم. ويقول الدكتور طه حسين: "لم يتحرَّج العرب المسلمون من أن يأخذوا بأسباب الحضارة الفارسيَّة واليونانيَّة كما أخذ بها الفُرس والرُّوم الذين لم يكونوا مسلمين في ذلك الوَقت ... فهم قد صاغوا من هاتين الحضارتين ومن تراثهم القديم هذه الحضارة الإسلاميَّة الرَّائعة التي ازدهرت أيام بني أميَّة، وبني العبَّاس ... وهذه الحضارة الإسلاميَّة الرَّائعة لم يأت بها المسلمون من بلاد العرب، وإنما أتوا ببعضها من هذا البلاد، وببعضها الآخر من مجوس الفُرس، وببعضها الآخر من نصارى الرُّوم ...[٥٩]"

ويتمثَّل الفن القبطي في الصِّناعات الرَّئيسيَّة التالية:

١ ـ صناعة الورق والتَّجليد

اشتهرت مصر بصناعة الورق من البردي، وكان معظم المشتغلين بهذه الصِّناعة من القبط. وامتلأت كنائس وأديرة الأقباط بنفائس الكتب والمصنفات الدِّينيَّة والمؤلَّفات والكُتُب المترجمة إلى العربيَّة، هذا بجانب اقتناء البعض من القبط الكثير من الكُتُب. وعلى الرَّغم من أن الكثير من الكتب والمخطوطات التي كانت بحوزة الكنائس والأديرة والأفراد قد أُهملت

---

٥٩ ـ د. طه حسين، مستقبل الثقافة في مصر، دار المعارف، القاهرة، ١٩٩٦م، ص ٤٥

أو تبدَّد الكثير منها، إلاَّ أنه قد بقيت بعض الكُتُب والمجلدات كاملة[٦٠].

فقد كان في مصر السُفلى عدد عظيم من غياض فسيحة تُنبت البردي، ذلك النَّبات الطَّويل حيث كان الورق يُتخذ من لبابه، فيُشق إلى شرائح وتُجعل منه صحائف بالضَّغط، ثم تُصقل بآلة من العاج. وكانت الصَّحائف بعد ذلك يوصَّل بعضها ببعض، فتكوِّن لفائف يسهل استعمالها. وكانت مقادير عظيمة من البردي تصدر من مصر في مراسي الإسكندريَّة المزدحمة، ولسنا نعرف متى ضعف أمر هذه التِّجارة، ولا الأسباب التي أدت إلى القضاء على هذا النَّبات في مصر. ولكن صناعة إعداد ورق البردي للكتابة في مصر انتهت بالإجمال حوالي القرن العاشر الميلادي. وظلَّت مصر طوال عهد الولاة المسلمين تحتكر صناعة الورق، وظلَّ صناع الورق كلهم من الأقباط حتى بعد دخول الإسلام مصر، وإلى أوائل القرن الثامن الميلادي كان الطَّابع الذي يُطبع على الورق يشمل هذه الكلمات: "الآب والابن وروح القدس"، ومع أن ذلك الطَّابع استبدل بعد ذلك بما يتَّفق والدِّين الإسلامي إلاَّ أن الكتبة ظلُّوا يرسمون علامة الصَّليب على ظهر أوراق الحكومة[٦١].

ولا ننسى فن تفسير الكُتُب وإيضاحها بالرَّسم. والحقيقة أن فن الكتابة المزخرفة، ورسم الصُّوَر الصَّغيرة في الكتب كان شائعاً بالغاً حدَّه من الإتقان في هذا العصر في كل بلاد الشَّرق. وكان خير المخطوطات إذ ذاك يُتخذ من الرِّق، حيث يُدهن بلون أرجواني، ويُكتب عليه بحروف من الذَّهب، وكانت أمثال هذه الكُتُب تُتَّخذ لمكتبة الإمبراطور. وإن بين أيدينا خطاباً قيِّماً أرسله بطريرك الإسكندريَّة "البابا ثيؤناس" إلى رجل

---

٦٠ ـ د. سلام شافعي محمود، أهل الذمة في مصر في العصر الفاطمي الأول، مرجع سابق، ص ١٢٨ ـ ١٣٠

٦١ ـ د. سيدة إسماعيل كاشف، مصر في فجر الإسلام، مرجع سابق، ص ٢٩٣

اسمه "لوقيانوس" وهو الوصيف الأكبر للإمبراطور وأمين خزانة كتبه، وقد كانت كتابته سنة ٢٩٠م. وقد جاء في أوَّل ذلك الخطاب وصف لما ينبغي أن يسير عليه الكُتَّاب في دواوين حسابهم، وما في عهدهم من الخلع والحُلِي، ووصف لطريق إثبات ما في الخزائن من آنية الذَّهب والفضَّة، والبلُّور وقماقم المُر، وغير ذلك من تُحف القصر. وجاء فيه بعد ذلك أن المكتبة هي أثمن ما في القصر، وأنه يجب على المسيحي ألاَّ يترفَّع عن مطالعة كتب الأدب الدُّنيوي، وأنه يجب على أمين خزانة الكُتُب أن يكون ملماً بكل ما فيها، وأن يرتِّبها على نظام ثابت، ويجعل لها ثبتاً تدوَّن فيه أسماؤها، وعليه أن يستوثق من أمر الكُتُب، وأن النُّسَخ التي عنده منها صحيحة غير محرَّفة، وعليه أن يعيد كتابة النُّسَخ وتصويرها إن هي بليت.

وجاء في آخر خطاب البابا ثيؤناس، أنه ليس من الضَّروري أن تكون كل الكُتُب منسوخة بحروف من ذهب على رق أرجواني، إلاَّ إذا أمر الإمبراطور بذلك أمراً.

وهذا الخطاب يدلنا على أن البطريرك كان له علم بأمور مكتبة عظيمة جليلة. ولقد ازدادت صناعة إيضاح الكُتُب أي تفسيرها بالرَّسم، وانتشرت في أثناء القرون الثلاثة التي تلت كتابة هذا الخطاب، ولم تنقص شيئاً، ولم تتغيَّر كثيراً في وقت فتح العرب لمصر عما كانت عليه في وقت كتابة الخطاب. وكان رهبان الأديرة هم أكثر من قام بتفسير الكُتُب في مصر وقتئذ مثلما حدث في أوروبا فيما بعد.

وربما لا يعرف الكثيرون أن صناعة الكتاب ظهرت لأوَّل مرَّة في العالم في العصر القبطي[٦٢].

---

٦٢ ـ مجلة إبداع، العدد الثاني، فبراير ١٩٩٤م، ص ٦٠

لقد استعمل الأقباط البردي في الكتابة حتى القرن التَّاسع الميلادي، ثم استبدل الأقباط البردي بالرُّقوق التي استمر استعمالها حتى القرن الثَّاني عشر الميلادي. ومع مجئ الفاطميين إلى مصر اهتمَّت الدَّولة بالحركة العلميَّة، وجمعت نوادر الكُتُب والمخطوطات لتضم إلى خزانة الكُتُب الفاطميَّة، لتصبح منافساً عملاقاً لمكتبات بغداد وقرطبة. كما شجَّع الخلفاء الباحثين والدَّارسين وطلاب العلم.

٢ـ البناء

عُرف المصريون منذ القديم بتقدُّمهم في صناعة البناء، وفي فن العمارة، وتشهد بذلك آثارهم في مختلف العصور. ولاشك أن العمارة القبطيَّة كانت متقدِّمة حين فتح العرب مصر. ومهما يكن من شئ فإن العمارة الإسلاميَّة أخذت عن القبط بعض العناصر المعماريَّة، فكثيرون من العُلماء يظنون أن المحراب مأخوذ عن الحنية التي توجد في صدر الكنيسة إلى جهة الشَّرق، وأن مآذن الجوامع الإسلاميَّة مأخوذة عن أبراج الكنائس. ولم يقتصر الأمر على استخدام العرب للصُّنَّاع المصريين في بناء أبنيتهم في هذه البلاد فحسب، بل كثيراً ما استخدموهم في الأبنية التي أُنشئت في غير مصر[٦٣].

٣ـ التَّصوير

وهو الرَّسم التَّصويري، وليس التَّصوير باستخدام الكاميرا كما نعرفه اليوم. وهو فن يتبع فن البناء، حيث احتفظ القبط زمناً طويلاً وهم تحت حكم العرب بهذه الفنون، فنون البناء وصناعة الفسيفساء الزُّجاجيَّة، وصناعة أفاريز المرمر فوق الجدران، والتي كان يُطلق عليها اسم "الفن

٦٣ـ د. سيدة إسماعيل كاشف، مصر في فجر الإسلام، مرجع سابق، ص ٢٧٨ وما قبله.

الإسكندري'' تمييزاً لها، وتغطية الأرض بالرُّخام. ففن التَّصوير عموماً كان من أجل تجميل الجدران في داخل البناء.

وفي فن التَّصوير أيضاً رسم الفنان القبطي على الخشب والقماش والجص وعلى هوامش الكتب لتذهيبها(٦٤). وكان رسم الأشخاص في القرنين الثَّالث والرَّابع واضحاً وبدقة كبيرة. وكان متأثراً من الوجهة الفنية بالفن اليوناني - الرُّوماني، ثم اتجه الرَّسم إلى وجهة مسيحيَّة خالصة خلال القرنين الخامس والسَّادس. أما القرون من السَّابع إلى العاشر فقد قلَّت فيها صور الأشخاص، وشاع رسم الخطوط الهندسيَّة، وفروع وأوراق وثمار الرُّمان والعنب والأكانثاس. أما القرون من الحادي عشر إلى الرَّابع عشر فيزداد فيها الجمود في رسم الأشخاص. وينتمي إلى هذه الفترة الرَّسم علي القماش المغطى بطبقة خاصة من الألوان. وانتشر التَّصوير في القرنين الثَّامن عشر، التَّاسع عشر متمثلاً في الأيقونات فحسب.

٤ـ تشكيل المعادن المختلفة

مثل النُّحاس والبرونز والرَّصاص والفضَّة والحديد والرَّسم عليها بالصُّوَر البارزة والغائرة، والأشكال المعدنيَّة التي تتَّخذ أشكال آنية العطور والمباخر والصُّلبان وأواني الطَّعام المختلفة، والكؤوس والموازين والشَّمعدانات والمصابيح وبعض أدوات القتال.

لقد برع المصريون في صناعة المعادن وسبكها وزخرفتها، وعرف الأقباط وحدهم منذ عهد الفراعنة دقائق هذه الصِّناعة وأسرارها، وعنهم أخذ المسلمون في وادي النِّيل سرّ هذه الصِّناعة في القرنين العاشر والحادي

٦٤ـ سنعرض بتفصيل مطوّل لهذا الفن في حديثنا عن ''الأيقونات'' في كتابنا ''الكنيسة، مبناها ومعناها'' إن شاء الرب وعشنا.

عشر الميلاديين. وعُرف عن الأقباط مهارتهم الفائقة في استخدام الذّهب والفضَّة في صنع أدوات التَّرف والحُلي والسُّروج والسُّيوف والمصاحف المذهَّبة والملابس الموشاة، وكثير من التُّحف التي رصِّعت بالأحجار الكريمة، ونُقشت عليها زخارف جميلة. وكلها تنم عن دقة الصَّنعة وجمال الفن، ورواج صناعة الذّهب وتقدِّمها ورقيِّها في ذلك العصر[٦٥].

ولقد برعت صناعة الذّهب وتطعيم المعدن في الإسكندريَّة، وإن كانت هذه الصِّناعات تمت بأصلها إلى صُنَّاع مصر القديمة، فقد بقيت إلى ما بعد فتح الإسكندريَّة بزمن طويل، ولقد عادت إليها الحياة مرَّة أخرى في العصور الوسطى.

٥ـ صناعة الفخَّار والزُّجاج

لا نعرف على وجه البت في أي وقت بدأ أمر صناعة الفخَّار (الخزف) في الظُّهور، ولابد أن ذلك كان في عصر قديم. وإن كانت صناعة الفخَّار قد اضمحلت في العصر القبطي إلى حد ما، إلاّ أنه توجد قطع فخاريَّة نادرة عليها نقوش بارزة، وتماثيل فخاريَّة صغيرة كانت غالباً تمثل لعب الأطفال ومسارج وآنية العطور والأطباق. وفي القرنين الخامس والسَّادس شاع استعمال الآنية الفخاريَّة الصَّغيرة التي تحمل صور القدِّيسين. وهناك أيضاً صوان ملوَّنة أحياناً بالمينا، مثل صينية كنيسة المعلَّقة. ويذكر ألفريد بتلر A. Butler أن صنَّاع الخزف في مصر ظلُّوا محتفظين بمهارتهم وبسر هذه الصِّناعة منذ عهد الفراعنة، كما تأثَّروا بالفن البيزنطي من حيث النَّماذج والزَّخرفة.

---

٦٥ ـ د. سلام شافعي محمود، أهل الذمة في مصر في العصر الفاطمي الأول، مرجع سابق، ص ١٢٤، ١٢٥.

ويمكن تحديد الفترات الزَّمنيَّة لهذه الصِّناعة في العصر القبطي. فالأواني الفخاريَّة الكبيرة تعود إلى القرنين الثالث والرَّابع، والأواني الفخاريَّة الرَّقيقة الحمراء تعود إلى القرنين الخامس والسَّادس، أما الآنية الفخاريَّة المصقولة فتعود إلى الفترة من القرن السَّابع إلى القرن العاشر. أما الفترة من القرن الحادي عشر إلى الرَّابع عشر فتمثلها آنية فخارية بيضاء صغيرة الفوهة. وعلى كل هذه الأواني رسمت الصُّوَر والصُّلبان والخطوط المتقاطعة والمزججة.

أما صناعة الزُّجاج فظلّت مزدهرة في مصر منذ العصور القديمة، وكان مركزها الإسكندريَّة، وبقيت معروفة زائعة الصَّيت زمناً طويلاً في الإسكندريَّة وصحراء النطرون. وقد قال استرابو: إن صُنَّاع الزُّجاج في مصر كانت لهم أسرارٌ يحفظونها، وأنهم كانوا يقلّدون الجواهر في صناعاتهم، ويعملون قماقم المُر. ولا خلاف في أن هذه الصِّناعة قد سلَّمها القبط بعضهم لبعض جيلاً بعد جيل حتى العصور الوسطى. وكانت آخر ما أخرجته تلك الصِّناعة، المصابيح المطعَّمة الفاخرة التي كانت تزيِّن الكنائس والمساجد، وهي اليوم مفخرة المتاحف التي تجمع آثار العصور الوسطى.

بلغت هذه الصِّناعات أرقى درجات الفن في العصر الفاطمي، واشتهرت بعض البلاد بهذه الصِّناعة مثل الفسطاط، والفيوم، والأشمونين، والشيخ عبادة (المنيا الآن) والإسكندريَّة. وكانت أرقى المصنوعات الزُّجاجيَّة هي الزُّجاج المذهَّب المزيَّن بزخارف لها بريق معدني، التي حاول فيه الصُّناع تقليد البللور الصَّخري.

وتركت الرُّسوم والزَّخارف القبطيَّة أثرها على الخزف ذي البريق المعدني الذي كان فخر صناعة الفخَّار في مصر الفاطميَّة. وكانت صناعته واسعة الانتشار في الصَّعيد الأعلى حيث يوجد أجود أنواع الطّمي. على

أن الكثير من أواني الخل والنَّبيذ وجرار العسل وغيرها تعرَّضت للكسر والإبادة إبَّان خلافة الحاكم بأمر الله(٦٦).

وقد تحدَّث سائح فارسي جاء إلى الفُسطاط سنة ١٠٤٧م عن أمر صناعة الزُّجاج الرَّقيق، بالإضافة إلى الزُّجاج المزخرف الذي رآه يُصنع هناك، وقال عنه: "وكان رقيقاً شفافاً حتى أن الإنسان ليرى من وراء الآنية يد من يمسكها". وقد ذكر أيضاً الأواني اللاّمعة المختلفة الألوان التي تشبه نسيج الحرير المعروف باسم "بوقليمون" وهو الذي يتغيَّر لونه كلما تغير موقع الضَّوء من سطحه. وهذه الشَّهادات ذات قيمة عظمى، إذ تدل دلالة قاطعة على ما بلغته صناعة الخزف والزُّجاج من التقدُّم في القاهرة في القرن الحادي عشر. ولاشك في أن الصِّناعة الأسبانيَّة المغربيَّة التي جاءت بعد ذلك وذاع ذكرها وشاع، ترجع بأصلها إلى صناعة القاهرة.

وكانت صناعة المعادن مزدهرة في العصر الفرعوني، واحتفظ القبط بالتفوُّق فيها، والرَّاجح أنهم نقلوها إلى تلاميذهم من الصنَّاع العرب في فجر الإسلام، ولكنا لا نعرف تماماً أي آثار معدنيَّة مصريَّة من هذا العصر.

٦ـ النَّحت والنَّقش

أي نحت الحجارة والرُّخام، والنَّقش على الخشب.

ولقد بلغ فن النحت ذروته في العصر القبطي بعد أن كان قد تدهور في أواخر العصر الفرعوني، إلاّ أنه نهض إلى حد ما في العصر اليوناني-الرُّوماني. واستخدم الفنانون الأقباط الأحجار الجيريَّة البيضاء والسَّمراء والرُّخام أو المرمر أو الجرانيت أو الحجر الرَّملي أحياناً والبازلت تارة.

٦٦ـ نفس المرجع، ص ١١٣ـ ١٣٣

وبلغت الدِّقة في الحفر على الخشب مرحلة ممتازة على يد الصُّناع الأقباط إذ كانت الرِّيادة في هذا الميدان لأهل البلاد من القبط، وبلغ هذا الفن أقصى درجات الرُّقي في عصر الفاطميين. ولهذا الغرض فقد استوردت مصر خشب الأرز والصنوبر من الشام وآسيا الصُّغرى، وخشب الأبنوس من السودان، وخشب التك من الهند وشبه جزيرة الملايو. وأجاد الأقباط أيضاً نقش ونجارة الخشب، وورث الفنان القبطي مهارة قدماء المصريين في صناعة الخشب ونقش الزَّخارف عليه، ولقد تطوَّرت هذه الصِّناعة على يد النَّجارين القبط الذين تأثَّروا بالفن البيزنطي، فازدادت صناعتهم جمالاً، وزاد إنتاجهم كثيراً. والقرنان الثَّالث والرَّابع تمتاز فيهما الخطوط الفنيَّة بجمالها ودقتها، وبما رُسم عليها من مناظر الصَّيد وأوراق وعناقيد العنب، وزهرة اللُّوتس. وظلَّت هذه الصِّناعة محافظة على رقيِّها حيث حافظ الفنان القبطي على مهارته خلال القرنين الخامس والسَّادس.

وكان للصُّناع الأقباط أربع طرق لزخرفة الأخشاب منها: النقوش البارزة، والنقوش بطريقة التَّفريغ، والتَّعشيق والتَّطعيم بالعاج والصَّدف، وأخيراً الخرط.

ولقد تمركزت صناعة النَّقش على العاج، أو التَّطعيم به، في الأقاليم التي يكثر فيها السُّكان الأقباط(٦٧).

ومن أمثلة النَّقش على الخشب في هذه الفترة باب كنيسة القدِّيسة بربارة بمصر القديمة، وهو يعود إلى القرن الخامس. أما الفترة من القرن السَّابع إلى القرن العاشر فبدأ يظهر فيها ضعف المهارة الفنيَّة واختلاط

---

٦٧ ـ نفس المرجع، ص ١٢٨

الرُّسوم وتحويرها وازدياد تعلق الفنان بالرُّسوم الهندسيَّة. ثم تأتي الفترة من (القرن ١١ ـ القرن ١٤) فيزداد فيها تعلُّق الفنَّان بالرُّسوم الهندسيَّة، ومن أمثلتها باب خشبي بكنيسة السِّت برباره، ويرجع إلى القرن الحادي عشر، وباب آخر لكنيسة المعلَّقة عليه رسوم هندسيَّة مطعَّمة بالعاج والأبنوس.

وإننا نرى الزَّخارف على خشب الجوامع والأثاث الإسلامي هي نفسها كما نقشها الصُّناع الأقباط في الكنائس القبطيَّة.

فليس من المستبعد أن يكون العرب في مصر قد اتخذوا لأنفسهم شكل الكثير من قطع الأثاث القبطيَّة، كالدَّواليب والموائد، ولعلهم أخذوا عنهم (عن الأقباط) أيضاً الكُرسي الذي يحمل عليه المصحف، والذي يعرفه القبط باسم المنجليَّة، أي محل الإنجيل. ولقد ظلت لمصر السِّيادة في الحفر على الخشب وصناعته حتى القرن السَّادس عشر الميلادي[٦٨].

٧ ـ صناعة النَّسيج

برع الفنان القبطي في فن النَّسيج، واستعمل عدة طرق غاية في الدِّقة الفنيَّة. ولقد حمل الأقباط لواء هذه الصِّناعة لمدة طويلة لم يشاركهم فيها أحد. وظلَّت صناعة النَّسيج على ما هي عليه في مصر حتى العصر الفاطمي في أواخر القرن العاشر، حين طُبعت صناعة النَّسيج بطابع إسلامي ظاهر، ومع ذلك لم تخل في زخارفها مما يدل على بعض العلاقة بماضيها في وادي النِّيل. ويدلُّنا على ذلك أن العرب كانوا يطلقون على المنسوجات القبطيَّة اسم "قباطي"[٦٩]، نسبة إلى قبط مصر الذين أظهروا مهارتهم

---

٦٨ ـ د. سيدة إسماعيل كاشف، مصر في فجر الإسلام، مرجع سابق، ص ٢٩٣، ٢٩٤

٦٩ ـ يذكر الأزرقي أن عمر بن الخطاب كسا الكعبة القباطي من بيت المال، وكان يكتب إلى مصر لتُصنع له فيها.

الفنيَّة في ميدان النَّسيج[٧٠]. وقد كان لصناعة المنسوجات تجارة رائجة.

وقد اكتسبت مصر شهرة عالميَّة بفضل مهارة عمال النَّسيج الأقباط الذين عُرفوا بحسن زيِّهم ولطافة صناعتهم[٧١]. أما أهم أنواع تلك المنسوجات التي أنتجتها آلاف المصانع التي عمل بها الأقباط وانتشرت في كثير من مدن الوجهين البحري والقبلي فهي:

- **الدبيقي**: وهو نسيج حريري يُنسب إلى قرية دبيق، وكانت الثياب الدبيقيَّة من أهم منسوجات مدينة أسيوط التي غلب على سكانها الأقباط.

- **القصب**: وهو نسيج من الكتان يمتاز بالنعومة الفائقة، و يصنع منه العمامات وما يلبسه النِّساء واشتهرت به تنيس. أما القصب الأبيض فقد اشتهرت به دمياط.

- **الشَّرب**: ويُسمى أيضاً الشَّرابي، وهو نوع من الحرير أو الكتان النَّقي الفاخر، واشتهرت به مدينتا دمياط وتنيس.

- **البدنة**: وهو اسم ذلك الثَّوب الثَّمين الذي كان يُصنع للخلفاء، ويقوم بصناعته نسَّاجون مهرة، وكان لا يدخل في هذا الثَّوب من الغزل سداء ولحمة، غير أوقيتين، وفيه كثير من الذَّهب، والثَّوب لا يحتاج إلى تفصيل أو خياطة غير الجيب والنبائق. و لم يكن مصرحاً ببيعه.

- **القباطي**: وهو نسيج من الكتان أو التيل، وكان العرب يطلقون على المنسوجات اسم "القباطي"، نسبة إلى قبط مصر.

- **البوقلمون**: وكان يُنسج في مدينة تنيس وحدها، وهو قماش يمتاز

٧٠ـ د. سيدة إسماعيل كاشف، مصر في فجر الإسلام، مرجع سابق، ص ٢٨٠

٧١ـ د. سلام شافعي محمود، أهل الذمة في مصر في العصر الفاطمي الأول، مرجع سابق، ص ١١٣

بألوانه البرَّاقة، ويظهر في ألوان مختلفة حسب تعرضه لضوء الشَّمس والوضع الذي يكون فيه واختلاف ساعات النَّهار، وكان يُصدَّر إلى جميع بلدان الشَّرق والغرب لشدَّة الطَّلب عليه.

- **العتابي**: وهو أحد أنواع المنسوجات الحريريَّة، وكان يُنسج أولاً بمدينة بغداد، ثم استحدث هذا النَّسيج في مصر، وصُنع في عصر الفاطميين(٧٢).

وقد اشتهرت تنيس بعمل قماش الخيام، كما اشتهرت الفيوم بصناعة الخيش، وسمالوط بعمل المنسوجات من شعر الماعز، والإسكندريَّة بالحرير الإسكندري.

واستمر التَّأثير القبطي على الفن الإسلامي في الزَّخرفة على المنسوجات قائماً، وظلَّ أثره واضحاً حتى القرنين الحادي عشر والثَّاني عشر الميلادي، وفقدت رسوم الحيوانات والطيور خواصها، وصارت أشكالاً تقليديَّة لا تمت إلى الطبيعة بصلة كبيرة(٧٣).

واشتهرت عدَّة مراكز بإنتاج المنسوجات، منها في الوجه البحري الإسكندريَّة ودمياط وتنيس، ويذكر المقريزي أن الثِّياب المنسوجة بالإسكندريَّة لا نظير لها، وتُحمل إلى أقطار الأرض. ومما يدل على عظمة تنيس في النَّسج أن ثوب الخليفة كان ينسج بها. وظلَّت تنيس تصدِّر إنتاجها النَّفيس من المنسوجات إلى الخارج حتى سنة ٩٧١م، حين توقَّف في أيام الدَّولة الفاطميَّة. وكانت دمياط تقارب تنيس في شهرتها في النَّسيج. وقد اشتهر في النَّسج أيضاً من بلدان مصر السُّفلى شطاً ودميرة

٧٢- نفس المرجع، ص ١١٤- ١١٧

٧٣- نفس المرجع، ص ١٢٠

وتونة، وكلها قريبة من تنيس ودمياط(٧٤).

أما أهم مراكز إنتاج المنسوجات في الوجه القبلي، فهي الفيوم وأهناسة والبهنسا وأسيوط وأخميم والأشمونين وغيرها. وكان عدد كبير من سكّان هذه المدن قد ظلّوا على دينهم المسيحي حتى بعد دخول الإسلام مصر. وكانت صناعة المنسوجات زاهرة منذ عهد الفراعنة إلاّ أنها تقدَّمت تقدُّماً كبيراً في العصر القبطي، وكانت متعدِّدة الأنواع والأصناف(٧٥). وكان الكتان الدَّقيق لازال يُنسج، ولعله كان أدق خيطاً وصنعة مما كانت تخرجه مناسج مصر القديمة. وفوق ذلك، قد صار الحرير منذ حكم جستنيان أكثر شيوعاً بين النَّاس، وكان يخرج على أيدي النَّساجين بدائع من الحرير والكتان، تحليها زركشة تأخذ الألباب، وقد كُشف حديثاً عن بقايا من منسوجات ذلك العصر، أو عصر قريب منه، وُجدت في أخميم بالصَّعيد واسمها القديم "بانوبوليس" وهي محفوظة اليوم

٧٤ـ نفس المرجع، ص ٢٨٤

٧٥ـ كانت طرق النسيج في العصر القبطي أربعة:

(أ) طريقة القباطي (التابستري): وفيها يحاول الفنان الحصول على زخرفة نسجية مكونة من لونين أو أكثر. ويمكن تقسيم خيوط السدى إلى فريقين متساويين في العدد يتحركان بواسطة ورأتين، وتحدث الزخرفة عند استعمال لحمات ملونة تنسج جميعها غير ممتدة في عرض القماش.

(ب) طريقة اللحمة الزائدة: وتنشأ زخارفها عن طريق ظهور واختفاء خيوط اللحمة الممتدة في عرض النسيج وتقاطعها مع السدى، أو باستخدام لحمتين من لون خيوط السدى.

(ج) طريقة النسيج المبطن من اللحمة: وتنشأ زخارفها من خيوط اللحمة التي تكون الأرضية أيضاً مع اختفاء السدى. ويمكن استعمال هذا النسيج من جهة واحدة أو من جهتين.

(د) طريقة النسيج الوبري: وكانت تجري غالباً بسحب أجزاء متجاورة من خيط اللحمة الخاص بها بعد تمريره داخل النقش وإبرازها على سطح القماش من بين خيوط السدى على شكل حلقات متجاورة.

في إنجلترا[٧٦]، وفي مجموعات أخرى. وكل هذه المنسوجات من الكتان، وهي أبسطة منسوجة، أما أنماطها ورسومها فمختلفة، بعضها يشبه في رسمه المنسوجات القديمة، وبعضها عليه أثر واضح من المسيحيَّة، وقسم منها عليه أثر ظاهر من أنماط الفُرس، فإن مدة إقامة الفُرس بمصر وهي تلك السَّنوات العشر أو الاثنتا عشرة لابد قد أثَّرت فيها الرُّسوم الفارسيَّة على الصنَّاع، فجعلتهم يخرجون منسوجاتهم على مثالها.

والشَّبَه عظيم بين مجموعة من ورق البردي في فيينا تُنسب إلى "تيودورجراف" وبين مجموعة هذه المنسوجات؛ فمجموعة الأوراق التي تختلف تواريخها بين سنة ٤٨٧م، وسنة ٩٠٩م فيها لغات شتى، اليونانيَّة والقبطيَّة والفارسيَّة والسَّاسانيَّة والعبريَّة والعربيَّة، ومجموعة المنسوجات التي ترجع إلى نحو هذه العصور تنطبع فيها صور ما مرَّ على مصر من صروف الدَّهر المختلفة، وبعض الأحداث السياسيَّة، كما تنطبع صورة في مرآة.

ومن أهم الأمور أن نتذكَّر، أن مادة مختلف صنوف المنسوجات ورسومها وألوانها كلها تكاد تكون واحدة سواء في ذلك ما وُجد في سقارة أو الفيوم أو الصَّعيد. وهذه حقيقة تدلنا على اشتراك النسَّاجين في الأنماط وتشابههم في الأذواق أكثر مما تدلنا على شدَّة محافظتهم على القديم وتمسكهم به. فكان ما جدَّ من طرق الصِّناعة ورسومها ينتقل سريعاً في نهر النِّيل، ذاهباً من طائفة إلى طائفة من الصُّناع في البلاد المنتشرة في ريف مصر. وكان ما تخرجه المناسج يُحمل إلى الأسواق الكُبرى في منف والإسكندريَّة، أو كان يُحمل في الصَّحراء مرحلة قصيرة حتى يبلغ ميناء "بيزينيقة" على البحر الأحمر، ومن ثم يُنقل في السُّفن إلى البلاد الأخرى.

٧٦ـ محفوظة في مجموعة تُسمى: "سوت كنز نجتون".

وكانت المنسوجات الكتانيَّة والسّتائر ذات الصُّوَر الـتي تتخلّـل نسيجها خيوط الذّهب، وتوشيها النقوش البديعة من التَّطريز في ألوان جميلة، كانت كلها من صناعة الصّانع القبطي. وإنَّا كلما أمعنا في درس تاريخ مصر سواء منه ما كان في العصر البيزنطي، أو العصر العربي، زاد يقيننا بأن القبط كانوا أصحاب الفضل في بقاء آثار الصّناعة حية ماثلة في البلاد، وذلك في كل شعبة من شعبها، سواء في صياغة الذّهب، أو تطعيم المعادن، أو الزّخرفة بالميناء، أو صناعة الزُّجاج، وغير ذلك من صناعات الإنشاء والتَّجميل.

٨- صناعة بناء السُّفُن

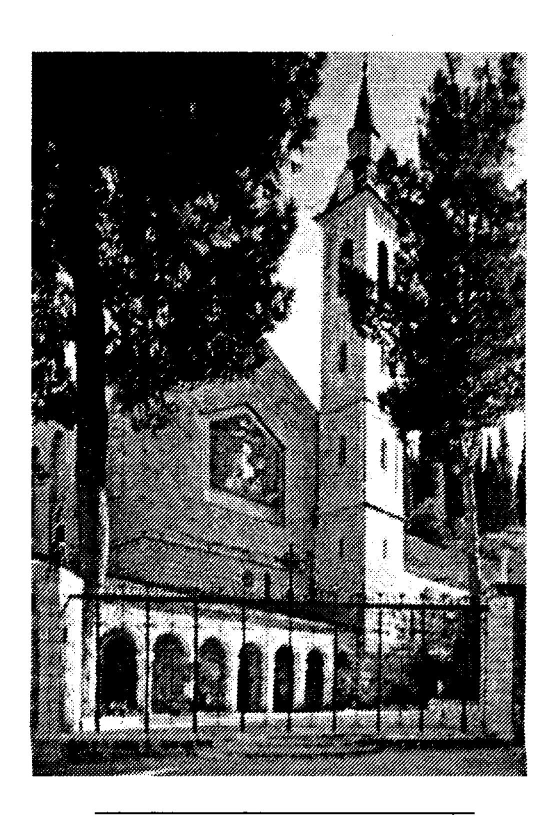
ولعلها أكبر صناعات الإسكندريَّة قاطبة، فالإسكندريَّة كانت أكبر أسواق العالم وأكثر ثغوره ازدحاماً وحركة. وكانت بها تجارة عظيمة في القمح والكتَّان والورق والزُّجاج وغير ذلك من صنوف ما تنتجه البلاد. وكانت تُحمل إليها مقادير عظيمة من الذّهب والعاج من بلاد النوبة وإثيوبيا، وفوق ذلك أنواع البُهار والحرير والفضَّة والجواهر وغيرها كانت تأتي من بحار الهند والصين إلى البحر الأحمر، ومن القلزم (السويس) فتُحمل في الترعة إلى ممفيس، ومنها تنحدر في نهر النّيل إلى الإسكندريَّة حيث كانت تُبعث إلى أطراف البحر الأبيض المتوسّط. ومثل هذه التّجارة العظيمة لابد لها من عدد كبير من السُّفُن. وكانت مصر منذ الأزمنة القديمة فقيرة في موارد الخشب الذي تُصنع منه السُّفُن، فكانت الأخشاب تُشترى من بلاد الشَّام وغيرها لبناء السُّفُن في الإسكندريَّة، مقر التّجارة العالميَّة آنئذ. وكانت مصر - فوق كل ذلك - تنبت نوعاً من التّيل يليق كل اللّياقة لعمل الحبال وأدوات السُّفُن. ويقول ابن الفقيه (القرن العاشر) "ومن عجائب مصر نوع من الكتَّان اسمه الدّقس كانت تُصنع منه حبال السُّفُن وكانت تُسمى القرقس".

وحدث بعد سنين عدة من هذا الوقت عندما أصبحت مصر في مُلك العرب، أن أمر معاوية، الزَّعيم العربي في الشَّام، ببناء عدد من السُّفُن الحربيَّة في الإسكندريَّة وغيرها من الموانى التي في حُكم الدَّولة العربيَّة، وذلك في وقت لم يكن فيه بمراسي الإسكندريَّة أحد من بنَّائي السّفُن الذين هم من أصل بيزنطي محض، إذ كانوا لابد قد خرجوا منها جميعاً. إذاً لم يكن غير الأقباط في مصر من هم أقدر وأدرى بهذه الصِّناعة. وفي ذلك تقول الدكتورة سيدة كاشف: "وبنت مصر القبطيَّة السُّفُن للعرب، فمصر اشتهرت منذ البداية بصناعة السُّفُن، أما العرب فلم يكونوا شعباً بحرياً عند ظهور الإسلام[٧٧]".

وأكثر ما يسترعي النَّظر فيما جاء في كتاب "سبيوس" أنه يقول: إن السُّفُن التي بُنيت في مصر بعد الفتح العربي بأمر العرب كانت مجهَّزة بالمجانيق لقذف المواد الملتهبة، وهي المواد التي قيل أن تجهيزها كان إلى القرن السَّابع على الأقل سراً مكنوناً اختص به أهل بيزنطة. وقد جرت العادة أن يقولوا أن أوَّل من اخترع النَّار الإغريقيَّة هو رجل اسمه "قلينيكوس"، وهو مهندس في مدينة "هليوبوليس"، ويقولون في تسرُّع أن هليوبوليس المقصودة هي التي بالشَّام وليست هي المدينة القديمة الشَّهيرة بمصر. أما المؤرخ "جيبون" فإنه يعتمد على ما جاء في كتاب "قدرينوس" ويقول: إن "قلينيكوس" كان مصرياً ولكنه يزعم خطأ أن هليوبوليس كانت عند ذلك أطلالاً بالية، وإننا لا يمكن أن نتصوَّر ـ بحسب رأيه ـ أنه كان من الممكن أن تُبنى سُفُن في الإسكندريَّة بعد الفتح العربي لمصر بما لا يزيد إلاَّ قليلاً عن عشرين سنة، ثم أن تجهيز تلك النَّار وعمل آلاتها أصله من مصر ذاتها.

٧٧ـ د. سيدة إسماعيل كاشف، مصر في فجر الإسلام، مرجع سابق، ص ٨٨

ومهما كان من أمر تلك النَّار، فلاشك أن صناعة السُّفُن كانت عظيمة في الإسكندريَّة في النِّصف الأوَّل من القرن السَّابع، وأنها لم تضمحل عندما انتهى أمر الدَّولة البيزنطيَّة في مصر. وفي هذا ما يدل على أن الصَّانع القبطي في هذه الصِّناعة، وفي غيرها من الصِّناعات الكُبرى في وادي النِّيل كان مستقلاً بنفسه بغير إرشاد ولا تسيير من الرُّوم إذا لم نقل إنه كان في الحقيقة الصَّانع المعلِّم(٧٨).



٧٨ـ محمد شفيق غربال، الموسوعة العربية الميسرة، القاهرة، ١٩٦٦م، تحت عنوان الفن القبطي. وانظر أيضاً: د. ألفريد بتلر، فتح العرب لمصر، الجزء الأول، مرجع سابق، ص ٩٢ـ ١٠٢

الفَصل الرَّابع

فتح العـــــرب لمصر

دور الأقباط في دخول العرب لمصر

ليس في التَّاريخ من دليل واحد واضح يشير إلى أن الأقباط كان لهم دورٌ في دخول العرب إلى بلادهم مصر أو خروج الرُّوم منها. كانوا في موقع المتفرِّج الذي أنهكه الظُّلم والعسف والاضطهاد، فاكتفى بالمشاهدة والتأسُّف على بلاده التي تألَّب عليها أسياد جاءوها من كل حدب وصوب، ولله الأمر في اجتياح الفُرس لبلادهم وخروجهم منها، وفي عودة الرُّومان إليها ونزوحهم عنها، وفي دخول العرب إليها وبقائهم فيها.

ولقد أثبت المؤرِّخ المدقق ألفريد بتلر A. Butler في كتابه "فتح العرب لمصر" بما لا يدع مجالاً لأي شك، أن الأقباط لم يكن لهم أي دورٌ في دخول العرب للبلاد، وأثبت بالبرهان القاطع في غير موضع أن المصريِّين كانوا يقاومون الفاتحين كلما انتقلوا من موقع إلى آخر ومن مدينة إلى أخرى، سواء في الوجه البحري أو القبلي. أما الدكتورة سيدة إسماعيل كاشف في كتابها "مصر في فجر الإسلام" فترى أن المصريِّين رحَّبوا بالعرب ولكنها لم تجد إشارة واضحة تؤيِّد بها رأيها فاكتفت بالقول بأنه في المصادر القديمة إشارات كثيرة تفيد هذا المعنى. وتستشهد بما ذكره الأسقف يوحنا النقيوسي أن المصريين الذين تركوا الدين

المسيحي وأسلموا صحبوا جيوش العرب أثناء الفتح[١]. وهي في الحقيقة مقولة توضِّح أن هناك نوعاً من المقاومة أبداها المصريون في البداية تجاه الفاتحين، وبعد إخضاعهم لم يكن أمامهم سوى الاختيار بين القتل أو الجزية أو الإسلام، فاختاروا الإسلام. وبعد أن تورد أمثلة أخرى لمؤرِّخين آخرين تقول "إننا لا نستطيع أن نأخذ بكل ما جاء فيها إذ أن بطرك القبط بنيامين كان في ذلك الوقت مختفياً في الصَّعيد وليس في الإسكندريَّة". وتشير أيضاً إلى ما ذكره المقريزي عن مقاومة الأقباط للعرب الفاتحين في دمياط بقيادة رجل يُدعى "أبو ثور[٢]".

ولقد ذكرت الدكتورة سيدة كاشف هي نفسها أن العرب رفضوا إشراك المصريين معهم في جيشهم خوفاً من أن ينقلبوا عليهم ويطردوهم من البلاد إذا صحت فيهم الرُّوح القوميَّة. ثم أن صُلح بابليون لم يرد به أية إشارة تدل على السَّماح للمصريين بالاشتغال بالجنديَّة[٣]. وهي نقطة قتلها بتلر بحثاً لا مزيد عليه، تؤيِّد وجهة نظره السَّابق الإشارة إليها.

وفي الحقيقة ليس من عادة الأقباط - على مدى التَّاريخ - أن يناصروا أي جيوش تهاجم بلادهم مهما كان الظُّلم الواقع عليهم، وباباوات الكنيسة القبطيَّة برغم اجتيازهم فترات عصيبة من الاضطهاد، لم يفكِّروا أبداً في الاتصال بقوى العالم الخارجي لمناصرتهم. ولم تتحوَّل أبداً العلاقات الدِّينيَّة بين الكنيسة القبطيَّة وسائر الكنائس الأخرى إلى علاقات سياسيَّة من أي نوع. فهل يُعقل أن يناصر الأقباط جيوش العرب الفاتحين،

١ـ د. سيدة إسماعيل كاشف، مصر في فجر الإسلام، مرجع سابق، ص ١٨٥. انظر أيضاً: دكتورة سيدة إسماعيل كاشف، مصر الإسلامية وأهل الذمة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٣م، ص ٣١

٢ـ نفس المرجع، ص ١٨٦

٣ـ د. سيدة إسماعيل كاشف، مصر في فجر الإسلام، مرجع سابق، ص ٧٠

ولا يناصروا جيوش الصَّليبيين الغازين؟! لقد ناصر الأرمن واللبنانيون والسُّوريون والملكانيون الصَّليبيين في غزواتهم، عدا الأقباط وحدهم، الذين أصبحوا مع المسلمين العدو الوحيد للصَّليبيين في الشَّرق. إن الأقباط أوفياء لوطنهم على الدَّوام، ولقد ظلّت الكنيسة القبطيَّة على مدى ألفي عام تفخر بوطنيتها برغم ما حاق بها من أهوال.

مسار العرب الفاتحين في دخولهم مصر

دخل العرب مصر بقيادة عمرو بن العاص سنة ٦٤١م، وكانت أوَّل مدينة قابلتهم هي مدينة "بلوز" لأنها كانت تقع على فرع من النِّيل اسمه "الفرع البلوزي"، كان ينحدر إلى البحر بقربها، وهي تُسمى بالقبطيَّة "برمون" وسماها العرب "الفرما". وكانت مرتفعة عن سطح البحر بنحو ميل ونصف، وكانت مدينة قديمة، قوية الحصون، بها كثير من آثار المصريين القدماء، كما كان بها بعض الكنائس والأديرة، وكانت ذات شأن كبير إذ كانت مفتاح مصر من الشَّرق، تشرف على طريق القادم من الصَّحراء، وتملك ناصية البحر، ويجري إليها فرع من النِّيل.

جاءها العرب الفاتحون وحاصروها مدة شهر أو شهرين. وقد روى المقريزي وأبو المحاسن أن قبط الفرما ساعدوا العرب أثناء الحصار، ولكن ذلك غير صحيح، فلم يرد ذكر لهذه المساعدة في كل ما كُتب قبل القرن الرَّابع عشر[٤]. ولو ساعد القبط العرب لما أحرق هؤلاء السُّفُن وهدموا الحصن، ولما فعلوا ما فعله الفُرس من قبلهم في تخريب الكنائس الباقية في الفرما. لنا فوق ذلك دليل آخر على نقد هذا الزَّعم، وهو ما قاله يوحنا النقيوسي - وكان من الأحياء قرب ذلك العهد - في ديوانه: "إن القبط

٤- د. ألفريد بتلر، فتح العرب لمصر، الجزء الأول، مرجع سابق، ص ١٨٧

لم يساعدوا المسلمين إلاّ بعد أن استولوا على الفيوم وإقليمها ". ولسنا ندري على وجه التَّحقيق في أي وقت كان هذا، ولكن من الجلي أنه لم يحدث ذلك إلاّ بعد فتح حصن بابليون، ولم تكن المساعدة إلاّ مساعدة قليلة لا تعدو بعض الأمور.

حصار حصن بابليون وسقوطه

وبعد أن ملك العرب الفرما وكان قد مضى نصف شهر يناير سنة ٦٤٠م، ساروا إلى حصن بابليون(٥)، وكان حصن بابليون ثاني الحصون

٥- لقد سبب اسم "حصن بابليون" ارتباكاً كبيراً لكتّاب العرب، وهو الاسم الباقي إلى اليوم. بناه الإمبراطور تراجان سنة ١٠٠م، وفي سنة ٣٩٥م، قام الإمبراطور أركاديوس بتوسيعه وتعديله. ويذكر يوحنا النقيوسي أن أصل ذلك الحصن كان بناء أقامه بختنصَّر الملك وسماه باسم عاصمة ملكه "بابليون" وذلك عندما غزا مصر، فأقام تراجان أسوار الحصن على أساسه، وزاد في بنائه. وعلى كل حال، فلاشك في أن البناء القائم اليوم هو بناء روماني، ولا نظن أن تراجان جعل بناءه على نسق بناء كان في ذلك الموضع من قبل. ويقول سترابو الذي جاء إلى مصر قبل عهد تراجان بنحو ١٣٠ سنة أن سبب تسمية هذا الحصن باسمه هو أن جماعة من أسرى بابل كانت مقيمة فيه. وقال ثيؤدور الصقلي: إن ملك مصر "سيزوستريس" جاء بجماعة من أسرى البابليين وأنزلهم في قصر، فأطلقوا على القصر اسم المدينة التي جاءوا منها. ويقول المؤرخ يوسيفوس: إن الحصن لم يبن إلاّ في أيام غزوة الفرس في حكم الملك قمبيز. ونستطيع القول إنه كان على مقربة من موضع الحصن القائم في الوقت الحاضر، حصن قديم كانوا يطلقون عليه اسم "بابليون" مدة قرون طويلة قبل أيام تراجان. والإسم "بابليون" لا يُطلق اليوم على الحصن نفسه، بل يُطلق على دير صغير على مسافة قليلة من الحصن نحو الجنوب، وهو "دير بابليون" أما الحصن فيُطلق عليه الآن اسم "قصر الشمع" وليس من السهل أن نعرف أصل هذه التسمية في اللغة العربية. وقد يكون لفظ "الشمع" تحريف للكلمة القبطية "شيمي" أو "خيمي"، ونصت الأخبار على أنه كان في حصن بابليون القديم هيكل للنار، ولعله كانت توقد في مثل هذه الصروح العالية منائر توقد فيها النيران للإرشاد، فنشأ من ذلك اسم

القوية بعد حصن الإسكندريَّة وكان حصناً منيعاً تحيط به المياه من كل ناحية، ويذكر سترابو أنه كان مقاماً على نهر صخري إلى الجنوب من الموضع الذي به الحصن اليوم(٦). وبرغم أن الحصن كان صعب المنال، لكنه إن سقط في يد عدو دانت له بلاد الصَّعيد جميعاً، وبلاد مصر السُّفلى في الشَّمال.

احتمى المقوقس بالحصن مع حاميته من الرُّوم، وما كان للمسلمين من أدوات حربيَّة يفتحون بها الحصن سوى الحجارة والسِّهام، وماذا تكون هذه إزاء مجانيق الرُّوم الأقوى أثراً، ولكن أدَّى صبر العرب وشدَّة بأسهم في القتال إلى انهيار عزيمة من بالحصن ووقوع الخلاف فيما بينهم.

وبعد حصار للحصن استمر حوالي سبعة أشهر بدأت في أوَّل سبتمبر سنة ٦٤٠م، كانت حملة العرب الأخيرة على الحصن يوم الجمعة السَّابق مباشرة لعيد الفصح (يوم الجمعة العظيمة) في السَّادس من إبريل سنة ٦٤١م، فخذل المقوقس مصر وأضعفها عن لقاء الغازين.

يقول يوحنا النقيوسي: (نهض كيرس (المقوقس) البابا وسار إلى

"قصر الشَّمع". وكان اسم الحصن باللغة القبطية وقت الفتح العربي "بابلون آن خيمي - Ⲃⲁⲃⲩⲗⲱⲛ ⲛ̀ⲭⲏⲙⲓ " أي "بابلون مصر".

انظر: د. ألفريد بتلر، فتح العرب لمصر، الجزء الأول، مرجع سابق، ص ٢١٤، ٢١٥، ٢١٦ ويُظن أن تعبير "قصر الشَّمع" ربما يعود في أصله إلى تعبير "قصر الجمع" ومع تعطيش الجيم حدث خلط بين كلمتي "الجمع"، "الشَّمع" حيث ورد هذا التعبير "قصر الجمع" في مخطوط يعود إلى القرن السابع عشر مؤرخ بتاريخ ٢٦ ذي القعدة ١٠٥٧هـ - ٢٣/١٢/١٦٤٧م.

انظر في ذلك: د. محمد عفيفي، الأقباط في مصر في العصر العثماني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٢م، ص ٢٠٨

6_ Alfred J. Butler, *The Ancient Coptic Churches of Egypt*, vol. 1, London, 1970, p. 172, 173.

بابليون حيث المسلمون، راغباً أن يعمل سلاماً، وأن يؤدِّي لهم الضَّرائب ليدعوا الحرب عن بلاد مصر. فرحب عمرو بمجيئه وقال له: حسناً فعلت بخروجك إلينا، فأجاب كيرس وقال له: منحكم الرَّب هذا البلد. من الآن لا يكون بينكم بين الرُّوم خصومة، وحدِّدوا عبء الضَّرائب التي تؤدَّى)[٧].

وبسقوط الحصن بدأ العرب في التَّجهيز للنزول في النِّيل إلى مصر السُّفلى (الوجه البحري).

وبعد أن يسهب المؤرخ المدقِّق ألفريد بتلر A. Butler بأدلة دامغة في تأكيد أن الأقباط لم يكن لهم أي دور في هذه الأحداث يخلص إلى القول: "... فعلينا أن نبيِّن هنا بياناً لاشك فيه أنه لم يكن في ذلك الوقت شيء اسمه القبط في ميدان النِّضال، ولم تكن منهم طائفة لها يد فيه، بل كان القبط إذ ذاك بمنجاة عنه، قد أذلهم "قيرس" وأرغم أنوفهم، فليس من الحق في شئ أن نقول: إن القبط كانوا يستطيعون أن يجتمعوا على أمر، أو يترلوا إلى القتال، أو يصالحوا العرب[٨] ".

كان في الحصن أثناء حصاره أقباط مسجونين تعساء سجنهم الرُّوم،

٧- في هذا الوقت عينه بعث المقوقس عظيم القبط بـ "ماريا"، وأختها "سيرين" هدية إلى نبي الإسلام، فاختار النبي ماريا وتزوجها، ووهب سيرين إلى شاعره حسان بن ثابت. وعن ماريا القبطية، وهي بنت شمعون من أب قبطي وأم مسيحية رومية، عن هذه السيدة القبطية تقول عائشة إحدى زوجات نبي الإسلام: "ما غرت على امرأة إلاَّ دون ما غرت على مارية، وذلك أنها كانت جميلة جعدة، فأُعجبَ بها رسول الله وكان أنزلها أول ما قدم بها في بيت لحارثة بن النعمان، فكانت جارتنا. فكان عامة الليل والنهار عندها ... فجزعتُ، فحوَّلها إلى العالية، وكان يختلف إليها هناك. فكان ذلك أشد علينا، ثم رزقه الله منها الولد، وحرمناه منه".

السمط الثمين: ص ١٤٠، بنت الشاطئ، ص ٢٠١

٨- د. ألفريد بتلر، فتح العرب لمصر، الجزء الأول، مرجع سابق، ص ٢٢١

ولما جاء يوم الفصح الذي كان فيه الخروج من الحصن، جعل منه الرُّوم يوم وقعة ونقمة على هؤلاء المسجونين البؤساء. فسحبوهم من سجونهم وضربوهم بالسِّياط، وقطع الجند أيديهم، وبالرَّغم من هذا فلا عجب أن نجد الأسقف المصري يوحنا النقيوسي يصفهم بقوله: "أعداء المسيح الذين دنَّسوا الدِّين برجس بدعهم، وفتنوا النَّاس عن إيمانهم فتنة شديدة لم يأت بمثلها عبدة الأوثان، ولا الهمج. وعصوا المسيح وأذَّلوا أتباعه، فلم يكن في النَّاس من أتى بمثل سيئاتهم ولو كانوا من عبدة الأوثان[٩] ".

أعداد كبيرة من الأسرى المصريين

تقول الأستاذة سناء المصري: نحن لا نستطيع الحديث عن التَّسامح العربي بضمير هادئ، والطبري[١٠] يذكِّرنا بأن الجيش العربي الفاتح قد أسر أعداداً كبيرة من المصريين، وأن صفوف العبيد من القبط امتدت من مصر إلى المدينة (المدينة المنوَّرة)، فينقل عن رجل من أهل مصر، أو بمعنى أصح، عن عربي سكن أرض مصر، وكان من جند عمرو بن العاص أثناء الفتح، أنه قال: "لما افتتحنا "باب اليون" تدنَّينا قرى الرِّيف فيما بيننا وبين الإسكندريَّة قرية فقرية، حتى انتهينا إلى بلهيب[١١]، قرية يقال لها قرية الرِّيش، وقد بلغت سبايانا المدينة ومكَّة واليمن".

وتنقل لنا هذه الرِّواية صورة الصُّفوف الطَّويلة من العبيد والجواري الذين انتزعهم الجيش العربي من قُراهم، وبعث بهم في ذلَّة وانكسار إلى مدن الجزيرة العربيَّة بعد فقدان حريَّتهم.

٩_ نفس المرجع، ص ٢٣٩

١٠_ تاريخ الطبري، الجزء الرابع، ص ١٠٥. مقتبس عن: سناء المصري: هوامش الفتح العربي، حكايات الدخول، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٩٦

١١- هي منية الزناطرة بالبحيرة، ومحلها اليوم فزارة بمركز المحمودية.

ويذكر البلاذري أيضاً في كتاب فتوح البلدان، ذات الواقعة بقوله: "وكانت قرى من مصر قاتلت، فسُبي منها، مثل بلهيب والخيس وسلطيس فوقع سباؤهم بالمدينة".

فما بالنا نستنكر إشارة النقيوسي إلى أن العرب: "نهبوا كثيراً من الأسلاب، وأسروا النِّساء والأطفال، وتقاسموا فيما بينهم" ولا نستنكر إشارات الطبري والبلاذري وابن عبد الحكم إلى السَّبي المصري الموفد إلى المدينة في ظل القهر الحربي[١٢].

هذا هو ما ذكره عمرو بن العاص نفسه حين أرسل إليه عُمر بن الخطاب يسأله المدد في عام الرَّمادة حين اعتصرت المجاعة أهل المدينة وما حولها، حتى كاد الجوع يأكل بطونهم. فقال له عمرو: "سأرسل إليك بقافلة أوَّلها عندك في المدينة وآخرها عندي في مصر". فمن أين إذاً خرجت كل هذه الخيرات؟ إنها خرجت من عَرَق المصريين وكدِّهم وتعبهم. فما أن خرج المصريون من يد مستغل جبَّار حتى وقعوا في يد مستغل أكثر عتواً وتجبراً[١٣].

التَّقدُّم نحو الإسكندريَّة

واتجه عمرو بن العاص بعد سقوط حصن بابليون إلى الإسكندريَّة وكان لابد له أن يجتاز مدينة نقيوس[١٤]، وقد كانت آنئذ مدينة ذات شأن عظيم، وذات حصن منيع، وهي تقع على الشَّاطئ الشَّرقي لفرع

١٢ـ سناء المصري: هوامش الفتح العربي، مرجع سابق، ص ١٤٩، ١٥٠

١٣– محمد الباز في مقال له بجريدة صوت الأمة، الاثنين ١١/١٧/ ٢٠٠٣م، ص ٩ تحت عنوان: "حقيقة عمرو بن العاص".

١٤ـ موقع مدينة نقيوس القديمة هو الآن القرية الحديثة المسماة "شبشير" وهي إلى الشَّمال الغربي من منوف على نهر النيل.

النِّيل الغربي الذي هو فرع رشيد، على مسيرة يوم من حصن بـــابليون، وعلى مسيرة ساعتين من مدينة منوف. وهي تحوي آثاراً جليلة من أيـــام الفراعنة، وكانت أسقفيَّة شهيرة، ولها مكانة حربيَّـــة كُـــبرى في حفـــظ الطَّريق بين حصن بابليون والإسكندريَّة. ولكـــن قائـــد جـــيش الـــرُّوم "دومنتيانوس" ترك المدينة وهرب بجيوشه إلى الإسكندريَّة، فدخل العرب المدينة في ١٣ مايو سنة ٦٤١م من غير مقاومة، إذ لم يكن فيها جنـــدي واحد يعترض سبيلهم، ومع ذلك فقد أوقعوا بأهلها وقعة عظيمة. ويقول يوحنا النقيوسي: "فقتلوا كل من وجدوه في الطَّريق من أهلها، ولم يـــنج من دخل في الكنائس لائذاً"[١٥].

ثم اتجه العرب وهم في طريقهم إلى الإسكندريَّة إلى مدينة "كريون" وفيها آخر سلسلة الحصون التي تقع بين حصن بـــابليون والإســـكندريَّة. وكانت "كريون" مدينة مشهود لها في الحروب، إذ كانت تشرف على التِّرعة التي يرتكز عليها جُلّ اعتماد الإسكندريَّة في طعامها وشرابها، ولكن حصونها لم تكن منيعة كحصني بابليون ونقيوس. وكان على الـــرُّوم أن يقفوا هناك وقفتهم الأخيرة بقيادة قائدهم "تيودور". وكان جنود الرُّوم أكثر عدداً من العدو، وكانت الترعة تحميهم من بين أيـــديهم، وكـــان الطَّريق من ورائهم يفضي إلى الإسكندريَّة، ومن السَّهل عليهم حفظـــه. وقاتل الرُّوم قتالاً شديداً شهد له مؤرِّخو المسلمين أنفسهم، واستمر القتال بضعة عشر يوماً، وفي النهاية انتصر العرب وفتحوا كريون، وخلا أمامهم الطَّريق إلى الإسكندريَّة. وكان جيش عمرو قرابة عشـــرين ألفـــاً في تعداده بعد موقعة كريون.

وسار جيش العرب في طريقه إلى الإسكندريَّة وهنا يورد بتلر وصفاً

١٥ـ د. ألفريد بتلر، فتح العرب لمصر، الجزء الأول، مرجع سابق، ص ٢٤٨

لجانب من مدينة الإسكندريَّة كما ذكره المؤرِّخون من روعة رونقها وجمالها، كمنارة للعلم والثقافة والفنون(١٦).

سقوط الإسكندريَّة

وفي اختصار:

- على الرَّغم من أنه لم يكن للعرب شيء من آلات الحصار التي لا يعرفونها أصلاً، وليس لهم خبرة ودراية بفنون الحصار وحربه،
- وعلى الرَّغم مما كان في يد الرُّوم من العدَّة والعدد،
- وعلى الرَّغم من أن القوَّة المسلَّحة الرُّومانيَّة التي تحصَّنت في المدينة بلغت خمسين ألفاً،
- وعلى الرَّغم من المؤونة الوفيرة في المدينة لانفتاحها على البحر،
- وعلى الرَّغم من أن عمرو بن العاص عندما حاول بجيشه التقدُّم نحو أسوار المدينة قوبل بوابل من قذائف عظيمة من الحجارة قذفت بها مجانيق الرُّوم من فوق الأسوار فارتد بجيشه مرتعبين مبتعدين عن مرمى رميها، ولم يجرؤا بعد ذلك أن يتعرضوا لقذائفها،
- وعلى الرَّغم من أن العرب قنعوا بالوقوف والمرابطة في معسكرهم مكتفين برصد ومراقبة عدوِّهم، إذ علموا حق العلم أنهم لن يستطيعوا أخذ المدينة بالهجوم ... الخ

على الرَّغم من كل ذلك سقطت الإسكندرية!!

وهكذا باتت مصر مسرح أحداث الصِّراع الدَّائر بين العرب والرُّوم. ولم يكن للشَّعب المصري من دور فيها سوى مشاهدة فصول

١٦ـ أوردتُ جانباً من هذا الوصف تحت عنوان: "تاريخ مدينة الإسكندريَّة" وذلك في الفصل الثاني من هذا الباب، فارجع إليه إن شئت.

مسرحيَّة تدور على أرضه رغماً عنه، لا يملك إزاءها سوى تجرُّع الألم على مجد غابر كان فيه صاحب الكلمة الأولى لكل ما يدور على أرضه من أحداث.

صُلح الإسكندريَّة

عاد المقوقس - الذي سلَّم حصن بابليون للعرب - إلى الإسكندريَّة في هذه الظروف بعد أن كان منفياً من قِبَل هرقل في مكان جهله التَّاريخ، لكي يكون تسليم الإسكندريَّة للعرب على يديه أيضاً، حيث التقى مع عمرو وقال له: "إن النَّاس قد عوَّلوا على دفع الجزية كيما تقف الحرب. إن الله قد أعطاكم هذه الأرض، فلا تدخلوا في حرب بعد اليوم مع الرُّوم". وانتهي اللقاء بكتابة عقد وُقِّع بين الجانبين في ٨ نوفمبر سنة ٦٤١م، وهو ما يُسمى "صُلح الإسكندريَّة" تمييزاً له عن الصُّلح السَّابق له وهو "صُلح بابليون".

ولقد أورد الأسقف يوحنا النقيوسي شروط هذا الصُّلح، ورتب المؤرِّخ ألفريد بتلر A. Butler بنوده بالتَّرتيب التالي:

١ - أن يدفع الجزية كل من دخل في العقد.

٢ - أن تُعقد هدنة لنحو أحد عشر شهراً تنتهي في أوَّل بابه القبطي الموافق ٢٨ سبتمبر سنة ٦٤٢م.

٣ - أن يبقى العرب في مواضعهم في مدَّة الهدنة، على أن يعتزلوا وحدهم، ولا يسعوا أي سعي لقتال الإسكندريَّة. وأن يكف الرُّوم عن القتال.

٤ - أن ترحل مسلَّحة الإسكندريَّة في البحر ويحمل جنودها معهم متاعهم وأموالهم جميعاً على أن من أراد الرَّحيل من جانب البَر، فله أن يفعل على أن يدفع كل شهر جزءاً معلوماً ما بقي في أرض

مصر في رحلته.

٥ـ أن لا يعود جيش من الرُّوم إلى مصر أو يسعى لردِّها.

٦ـ أن يكف المسلمون عن أخذ كنائس المسيحيين، ولا يتدَّخلوا في أمورهم أي تدخُّل.

٧ـ أن يباح لليهود الإقامة في الإسكندريَّة.

٨ـ أن يبعث الرُّوم رهائن من قِبَلهم، مائة وخمسين من جنودهم، وخمسين من غير الجند ضماناً لإنفاذ العقد[١٧].

خيانة المقوقس للبلاد، واحتجاج أهل الإسكندريَّة

وهكذا قام "قَيْرَس" بوضع لمسات التسليم الأخيرة، وأخذ الأمـان للرُّوم، بني جلدته، أما أصحاب البلاد فلا وزن لهم أو حسـاب عنـده. فكانت هدنة استمرت أحد عشر شهراً، هرَّب الرُّوم خلالها الكثير مـن الأموال إلى القسطنطينيَّة موطنهم الأصلي، وعاد الكثير من رجالهم إلى هناك.

وبعد لمسات الاعتراف والتَّسليم التي قام بها "قَيْرَس"، عاد إلى مقر حكمه بالإسكندريَّة، وأبلغ القادة العسكريين بما حدث لينقلوه إلى الملك هرقل (غالباً المقصود هنا ابن هرقل حيث كان الأب قد مات قبل ذلك).

وبعد أن بلغت الهزائم ذروتها، خطب قيرس في الجنود، قائلاً لهم إنه تعاهد مع المسلمين وأرضى قلوبهم كلهم!.

وهكذا باع المقوقس مصر في غيبة من أهلها، وهـرب في أوان الشِّـدة لينجو بنفسه تاركاً شعباً لا يبالي بهلاكه. وهكذا صارت مصر كلها سـلعة تُباع من غريب لغريم، في مشهد كان للأقباط فيه موقع المتفرِّجين ليس إلاَّ.

١٧ـ د. ألفريد بتلر، فتح العرب لمصر، الجزء الأول، مرجع سابق، ص ٢٧٧، ٢٧٨

وما أن علم النَّاس بأمر الصُّلح، حتى هاجوا وثارت ثائرتهم، وحدثت فتنة عظيمة بالإسكندريَّة، وذهبوا إلى قصر البطريق غير مصدِّقين، وأرادوا أن يقذفوه بالحجارة، لكن البطريرك الدَّخيل خطب فيهم قائلاً: "إنما صنعتُ هذا لأنقذكم مع أبنائكم"، واستعطفهم بكثير من البُكاء والحزن، فاستحى منه الإسكندريُّون، وأعطوه ذهباً كثيراً ليؤديه إلى الإسماعيليين مع الضَّرائب. واستطاع هذا الدَّخيل بما أوتي من بلاغة وفصاحة ومهارة في التَّمثيل، بعد أن ذرف دموع التَّماسيح أن يخفِّف جنايته ويهوِّن خيانته في مقالته المعسولة التي قالها بين النَّاس، فانصرفوا سكارى لسانه الأطيب من الدُّهن وهو نصال.

وأهل مصر الذين فرُّوا عادوا إلى مدينة إسكندريَّة خائفين من المسلمين، وسألوا البطريرك الخلقيدوني وقالوا له: تأخذ لنا كلمة من المسلمين أن نعود إلى بلدنا ونخضع لهم. فعمل لهم كما قالوا، واستولى المسلمون على كل بلاد مصر جنوباً وشمالاً وضاعفوا فريضة الضَّرائب ثلاثة أمثال.

نهبٌ موسَّع جرى تحت غطاء دموع (كيرس) وأحزانه البادية من جهة، والفوضى النَّاتجة عن لحظات الاجتياح من جهة أخرى. وينتهي دور كيرس "قَيْرَس" بنفس الغموض اللازم لملامح رجل التَّسليم، فتنتابه الحمَّى، ويموت أيضاً أسيف القلب[١٨].

وهكذا سقطت الإسكندريَّة، فدانت مصر كلها للفاتحين.

ونلاحظ أن جيش عمرو دخل أرض مصر سنة ٦٣٩م، لكنه لم يدخل الإسكندريَّة إلاَّ بعد ثلاث سنوات من ذلك التَّاريخ، أي في شهر أكتوبر سنة

١٨ـ سناء المصري: هوامش الفتح العربي، مرجع سابق، ص ١٢٦

٦٤٢م عندما انقضت مدَّة الهُدنة المتَّفق عليها وهي أحد عشر شهراً(١٩).

مراحل تقهقر الرُّوم أمام العرب الفاتحين

وفي العموم، اتجهت حركة الهرب - طبقاً لمخطوطة يوحنا النقيوسي - إلى ثلاثة مواقع: من الشَّرق إلى حصن بابليون، ومن حصن بابليون إلى حصن نقيوس (مركز منوف، أو منوفيَّة)، ومنه إلى حصون الإسكندريَّة. وبعد ذلك كان الهروب الكبير بالأموال والذَّهب والمنقولات إلى القسطنطينيَّة. وبخلاف هؤلاء كانت هناك أعداد غفيرة لم يسعفهم الفرار، فحصدتهم السُّيوف العربيَّة، أو أكلتهم نيران المحارق الواسعة(٢٠).

ويقول يوحنا النقيوسي إن جميع النَّاس يذكرون أن سبب انتصار المسلمين على الرُّوم هو استبداد هرقل، والاضطهادات التي أنزلها بالأقباط الأرثوذكس والتي كان قيرس الآلة المحرِّكة لها. ويذكر ساويرس بن المقفع أن الله كان يخذل جيوش الرُّوم أمام المسلمين بسبب عقيدتهم الخلقيدونيَّة الفاسدة(٢١).

دخول الإسكندريَّة

دخل عمرو الإسكندريَّة، فرأى أن تكون بيوت الإسكندريَّة وقصورها "أخائذ" بمعنى أن كل من أخذ منزلاً صار له ولعائلته. فازداد تنازع الجنود على هذه المساكن التي بلغت حوالى أربعة آلاف داراً مُحكمة البناء، مفروشة بالرُّخام الملوَّن، وفي كل دار منها كان يوجد حمَّام تختص به. ويذكر ابن عبد الحكم في كتابه "فتوح مصر": كان الرَّجل يأتي إلى

١٩- د. سيدة إسماعيل كاشف، مصر في فجر الإسلام، مرجع سابق، ص ٢٨٩

٢٠- سناء المصري: هوامش الفتح العربي، مرجع سابق، ص ١١٨

٢١- د. سيدة إسماعيل كاشف، مصر في فجر الإسلام، مرجع سابق، ص ١٨٤

المترل الذي كان فيه صاحبه قبل ذلك، فيبتدره فيسكنه!![٢٢].

عودة البابا بنيامين إلى كرسيه

وعرف عمرو بن العاص قصَّة اختفاء البابا بنيامين في موضع غير معروف، فكتب عمرو إلى جميع أقاليم مصر كتاباً يقول فيه: "الموضع الذي فيه بنيامين بطرك نصارى القبط له العهد والأمان والسَّلامة من الله، فليحضر آمناً مطمئناً ويدير حالة بيعته وسياسة طائفته "فعاد البابا بنيامين إلى الإسكندرية بعد غيبة دامت ثلاثة عشر عاماً، منها عشر سنين أثناء حكم هرقل، وثلاث سنين أثناء الفتح العربي إلى أن فتح العرب الإسكندريَّة.

أما أتباع المذهب الملكاني في مصر فقد أقاموا بغير بطريرك منذ الفتح العربي إلى أن أرسل الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك إلى عبيد الله بن الحبحاب يأمره بتنصيب بطريرك للملكانيِّين. وكان الأب قزما هو أوَّل بطريرك للملكانيِّين في مصر الإسلاميَّة وذلك في سنة ١٠٧هـ/ ٧٢٥م.

عودة فاشلة للرُّوم إلى مصر

وجدير بالذِّكر أن الرُّوم قد عادوا مرَّة أخرى إلى الإسكندريَّة وأخذوها بعد ثلاث سنوات أو أربع من وقت مصالحة قيرس، وتسليمه للعرب. لكن العرب فتحوها مرَّة أخرى، وكان فتحها هذه المرَّة عنوة لا صُلحاً.

وإنه لمن مفارقات الأحداث، ما حدث عند كل من حصن بابليون بمصر وحصن الإسكندريَّة.

٢٢ـ سناء المصري: هوامش الفتح العربي، مرجع سابق، ص ٦٩

فقد أراد المقوقس أن يسلّم حصن بابليون في أوان فيضان النِّيل وذلك بعقد وعهد، وإذ أرسل البطريرك الملكاني يستشير الإمبراطور رفض هذا الأخير وأبى الموافقة علي هذا العقد ومزَّقه. فبقى الرُّوم في الحصن إلى أن هاجمه العرب. ولكن قبل أن يقتحمه الفاتحون خرج أهل الحصن فسلّموا لهم، ونزلوا على عقد وعهد معهم.

وسلّمت الإسكندريَّة أيضاً في وقت فيضان النِّيل، وكان تسليمها صُلحاً سنة ٦٤٢م، ولكن عاد الرُّوم للاستيلاء عليها سنة ٦٤٥م بعد أن بقيت في حكم العرب مدَّة، ولم يخرج الرُّوم منها بعد ذلك إلاّ بعد حصار انتهي بفتحها عنوة سنة ٦٤٦م.

سلطان العرب يغطي مصر كلها

امتد سلطان العرب ليشمل الوجه البحري كله والصَّعيد. وبعد فتحهم دمياط أصبحوا مسيطرين على منافذ النِّيل إلى البحر جميعاً، فدانت لهم مصر كلها.

وفي طريق الجيش العربي المنطلق من قرية إلى قرية، ومن مدينة إلى التي تليها، كانت جموع الشَّعب المصري العُزَّل من السِّلاح ترقب بحذر وهلع أخبار المعارك الدائرة بين العرب والرُّوم، ويكاد الخوف من الجانبين أن يعتصرهم، وذكرى حروب الرُّوم والفُرس لم تجف دماؤها بعد. وقد فضَّلت بعض قرى أسفل مصر (الوجه البحري) الانضمام إلى جيش الرُّوم، تقاتل معهم جيوش الغزو العربي[٢٣].

تقول الأستاذة سناء المصري: كان الحرق أو التَّهديد بالحرق أكثر

---

٢٣ ـ نفس المرجع، ص ٦١

وسائل عمرو بن العاص الموجَّهة ضد مقاومة العُزَّل من سكان المدن، أما تلك التي سلّمت سريعاً فقد كان يبادر إلى مضاعفة الضَّرائب فيها إلى ثلاثة أمثال؛ كعلامة من علامات الخضوع والتَّسليم.

فالأساس لدى عمرو هو أن تدين له البلاد بالطَّاعة أو تُدمَّر ... إما أن تخضع أو تُحرق. وهكذا بعد سلسلة من الحروب الدَّامية والمحارق الواسعة، وهوان الهروب والتَّشرد، استكان المصريون للعرب، وتعاملوا معهم على أنهم أمرٌ واقع لا يملكون تغييره(٢٤).

وتعقّب الأستاذة سناء المصري على استخدام الدكتورة سيدة كاشف لقول يوحنا النقيوسي "وساد المسلمون مصر، وكان عمرو يقوى في عمله، ويأخذ الضَّرائب التي حدَّدوها، ولم يأخذ شيئاً من مال الكنائس، ولم يرتكب شيئاً ما سلباً أو نهباً، وحافظ عليها طوال الأيام" بقولها: وهكذا نصل إلى تلك الجملة التي اقتطعتها الدكتورة سيده الكاشف، لتدلّل بها على سماحة الجيش العربي عند فتح مصر من خلال شهادة قبطي، بل من خلال أحد رجال الكنيسة القبطيَّة المهمين في ذلك الحين. ولكن كما نرى، فإن إقرار السَّماحة الذي يذكره النقيوسي عن العرب قد مرَّ عبر أهوال كثيرة ذاقها المصريون حتى خضعوا، واستتبت الأمور للفاتحين الجُدُد. وفهم عمرو بن العاص أن التغاضي عن مال الكنائس هو مفتاح الحصول على كل الثَّروة؛ بل هو مفتاح الخضوع الكامل للشَّعب القبطي المحب لكنيسته ... وميزة النقيوسي الواضحة أن المكتسبات الجديدة لم تُلف رأسه، بصفته أحد رجال الكنيسة المهمين، ولم تنسه ذكر ما ألمّ بالشَّعب، فيسترسل بعد ذكر المكتسبات مباشرة، ويقول: "ولما استولى على مدينة إسكندريَّة جعل نهر المدينة يابساً كما تعلّم من تيودور

٢٤ـ نفس المرجع، ص ١٢١

العاصي، وزاد الضَّرائب قدر اثنين وعشرين عصاً من الذَّهب، حتى اختبأ كل النَّاس لكثرة البؤس وعدموا ما يؤدُّون"[٢٥].

ويؤكّد السيوطي في كتابه "حسن المحاضرة" واقعة تسخير عمرو بن العاص للمصريين في حفر القنوات، وإقامة الجسور، بالإشارة إلى أن عمرو "ألّف قوَّة من المصريين عددها مائة وعشرين ألف عامل مهمتها الأولى العمل في حفر القنوات وإقامة الجسور والقناطر"[٢٦]. وهو ذات ما أشار إليه النقيوسي بقوله: "كان - عمرو - يسخرهم طعام أفراسهم، وارتكب آثاماً كثيرة لا تُحصى".

وقوله أيضاً: "يضطرون المسيحيين أن يحملوا العلف للحيوان، ويضطّرونهم لحمل اللبن والعسل والفاكهة والكُرَّات، وبأعمال أخرى كثيرة. وهذا كله مضافاً إلى الطّعام. هؤلاء كانوا يفعلون ذلك خوفاً دون توقف، ونهر أندريانس الذي انطمر منذ زمن طويل[٢٧]، جعلهم يحفرونه ليجري به الماء من بابليون بمصر حتى البحر الأحمر، وحمَّلوا المصريين نيراً أثقل من نير فرعون"[٢٨].

حالة الأقباط وعددهم إبَّان الفتح العربي لمصر

وكان عدد الأقباط في مصر كلها وقت الفتح العربي لا يقل عن

٢٥- نفس المرجع، ص ١٢١، ١٢٢

٢٦- السيوطي: حسن المحاضرة، الجزء الأول، ص ٦٣. مقتبس عن: سناء المصري، مرجع سابق. ص ١٥١

٢٧- هذا النهر هو نفسه قناة أمير المؤمنين.

٢٨- سناء المصري: هوامش الفتح العربي،مرجع سابق، ص ١٥٢

خمسة وعشرين مليوناً[٢٩]. ويؤكِّد ذلك ما ذكرته الدكتورة سيدة إسماعيل كاشف حين تقول[٣٠]: "ويمكننا أن نقدِّر جيش الاحتلال الذي استقر في مصر بعد الفتح بنحو ستة عشر ألفاً من الرِّجال، ولا نعرف تماماً عدد سكان مصر حينذاك، وقد كتب ابن عبد الحكم أنه كان هناك أكثر من ستة مليون رجل ممن تجب عليهم الجزية، باستثناء الشُّيوخ والنِّساء والأطفال". وبديهي أن يكون في الأسرة الواحدة أربعة أو خمسة أفراد على الأقل في هذه العصور المبكِّرة، ليصل العدد إلى حوالي خمسة وعشرين مليوناً. أما الدكتورة سيدة كاشف فتفترض أن الذين وجبت عليهم الجزية يكوِّنون ثلث السُّكان، لكي يكون الأقباط نحو ثمانية عشر مليوناً فقط، ومع ذلك تستطرد فتقول: "ولكننا نرى أن هذا الرَّقم مبالغ فيه، فإن سكان مصر في العهد البيزنطي أي قبل الفتح كانوا ٧ مليون نسمة باستثناء الإسكندريَّة التي كان يبلغ عددها ٣٠٠,٠٠٠).

وعموماً فإن تعداد الأقباط لا يجب أن يمثل أهميَّة كُبرى، لأن عظمة الأمم لا تُقاس بعدد أفرادها.

وكتب المقريزي أنه كان بوادي هبيب[٣١] مائة دير للنَّصارى، وأنه خرج منه سبعون ألف راهب[٣٢] فلقوا عمرو بن العاص بالطَّرانة بالقرب من الإسكندريَّة وسألوه الأمان لأنفسهم وأديارهم فكتب لهم بذلك أماناً بقي عندهم، وهي شهادة تُحسب لعمرو بن العاص أجمع عليها المؤرِّخون.

٢٩ـ الأنبا يؤانس (أسقف الغربية الراحل)، مذكرات في تاريخ الكنيسة القبطية بعد مجمع خلقيدونية. ، انظر أيضاً: د. محمد عفيفي، الأقباط في مصر في العصر العثماني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٢، ص ١٩٤

٣٠ـ د. سيدة إسماعيل كاشف، مصر في فجر الإسلام، مرجع سابق، ص ٢٤٠

٣١ـ يُعرف أيضاً باسم وادي النطرون، وهو اسمه الحالي، وهو يقع بين مريوط والفيوم.

٣٢ـ يُظن أن الرقم مبالغ فيه.

وحل الأقباط محل الرُّوم الذين غادروا مصر، والذين كانوا يشغلون كثيراً من الأعمال فيها، واستطاع الأقباط إدارة شؤون بلادهم بما لهم من دراية قديمة في ذلك، وهو ما لم يكن يعرفه العرب آنئذ، فتودَّد عمرو بن العاص إليهم، فأمنوا إليه، واستقرَّت الأحوال إلى حين.

وبعد أن تم للعرب فتح مصر، بقى بها جيش احتلال عربي، ولم يشرك العرب المصريين (أي الأقباط) في هذا الجيش، ولم يرد في صُلح بابليون أيَّة إشارة تدل على السَّماح للمصريين بالاشتغال بالجنديَّة. وربما دعا العرب إلى انتهاج تلك السِّياسة خوفهم أن يحيي المصريون روح القوميَّة المصريَّة على حسابهم، وأن يقوموا بطردهم من بلادهم متى حانت لهم الفرصة[٣٣].

أحس عمرو بذكائه الفطري الفرق الشَّاسع بين جنوده من أبناء البادية وبين المصريين أبناء البلاد، فتودَّد لهم منذ البداية وقرَّبهم إليه وأولم لهم وشاورهم في الأمر وأخذ بآرائهم، واعتمد عليهم في إصلاح شؤون البلاد، ووظَّفهم بوظائف عالية. حتى أن الرِّسالة المنسوبة إليه في وصف مصر يعزوها الدكتور مؤنس إلى من كان حوله من كبار القبط. فقد كان أقباط مصر هم مستودع أسرار شؤونها الإداريَّة[٣٤]. فخدم الأقباط البلاد بأمانة حتى ساد الأمن وانتظمت الأحوال. وكان ذلك إلى حين إذ لم تكن هذه هي الحال دائماً.

فبعد أن استتب للعرب الأمر غيَّروا من سياستهم تجاه البلاد، فيقول الأنبا ساويرس ابن المقفع: "من بعد أن ملك عمرو مصر بثلاث سنين،

٣٣ـ د. سيدة إسماعيل كاشف، مصر في فجر الإسلام، مرجع سابق، ص ٧٠

٣٤ـ محمد حسنين هيكل، خريف الغضب، مركز الأهرام للترجمة والنشر، الطبعة الأولى، ١٩٨٨، ص ٢٦٦

ملك المسلمون مدينة الإسكندريَّة وهدموا سورها، وأحرقوا بيعاً كثيرة بالنَّار، وبيعة مار مرقس التي هي مبنية على البحر حيث كان جسده موضوعاً ... أحرقوا هذا الموضع بالنَّار، وما حوله من الدِّيارات".

ولكن المظالم لم تكن عامة وشاملة خاصة في الفترة الأولى للفتح العربي. إلاَّ أنه كلما تقدَّم العهد بالعرب في مصر ازداد الدِّين الإسلامي انتشاراً، ولقد وُجدت فترات كان التحوُّل فيها إلى الدِّين الإسلامي بكثرة، ولم يكن ذلك إلاَّ تحت تأثير ظروف وعوامل مختلفة ناشئة عن سياسة الخلفاء وولاتهم الذين يمثلون تلك السِّياسة(٣٥). وهو ما سنعرض له فيما بعد.

حضارة مصر تبهر العرب الفاتحين

فتح العرب مصر فاعترتهم الدَّهشة مما وقعت عليه عيونهم من آيات حضارتها، حتى يكاد يسلِّم واحد من جغرافييهم من الخلط بين الحقيقة والأساطير من بهر الإعجاب. وبعض هؤلاء: المقدسي، وصاحب كتاب الكواكب السَّائرة، وصاحب المسالك، وياقوت، واليعقوبي، وابن رستاه، وابن حوقل، والأدريسي، والمقريزي، وغيرهم. رأى العرب عندما فتحوا مصر حضارة لا عهد لهم بها، ورأوا صناعة لا يعرفون أسرارها، ورأوا عمارة استهولوا أمرها. حتى عمرو الذي يحكي عنه المؤرِّخون أنه رأى مصر قبل الفتح وتردَّد عليها، يكتب إلى الخليفة رسالة يخبره فيها بفتح الإسكندريَّة يقول فيها: "إني فتحت مدينة لا أقدر أن أصف ما فيها".

٣٥ـ د. سيدة إسماعيل كاشف، مصر في فجر الإسلام، مرجع سابق، ص ١٨٣

ديمومة الحضارة القبطيَّة في مصر بعد الفتح العربي لها

خرج الرُّومان من مصر المسيحيَّة، ودخل العرب، فتغير الإطار وبقيت الصُّورة هي هي. وظل الأقباط يحملون لواء العلوم إلى ما بعد دخول العرب مصر بعشرات السِّنين ... وتلفَّت العرب حولهم فوجدوا فنوناً وصناعات لا علم لهم بها ولا دراية لهم فيها، فاكتفوا بالخراج وشؤون الحرب، وظلَّت الدَّواوين تُكتب بالقبطيَّة.

وتخلص الدكتورة نعمات أحمد فؤاد بعد إسهاب إلى القول: "فمصر كانت للعرب، وهم الفاتحون، مدرسة تعلَّموا فيها الكثير ونقلوا عنها الكثير، وتجمَّع لهم من التَّلقي والنَّقل والتَّرجمة مادة بنوا على أساسها حركتهم العلميَّة حتى الذي أضافوه إنما يمت بسبب قريب أو بعيد إلى مدرسة الإسكندريَّة ... يمت إلى مصر[٣٦]"

وتقول الأستاذة سناء المصري[٣٧]: أبقى العرب على نظام العمل بالدَّواوين كما هو، مع إحلال بعض القبط محل الرُّوم الرَّاحلين، واحتفظوا بالتَّقسيم الإداري للأقاليم والمدن والقرى، كما حافظوا على أسماء القرى المصريَّة كما هي، أو حرَّفوها قليلاً ليفهمها العربي المختلف اللِّسان. وذلك على عكس الرُّومان الذين حاولوا أن يضعوا للقرى والمدن المصريَّة أسماء يونانيَّة، وظل استخدامها قاصراً عليهم فقط، أما الجمهور القبطي فقد ظلَّ متمسِّكاً بالأسماء المصريَّة القديمة[٣٨].

ويذكر الأستاذ أحمد أمين في كتابه "فجر الإسلام": "وإذا كانت

٣٦ـ د. نعمات أحمد فؤاد، شخصية مصر، مرجع سابق، ص ١١٩ـ ١٢٢
٣٧ـ سناء المصري، هوامش الفتح العربي لمصر، مرجع سابق، ص ١٦٤
٣٨ـ لمزيد من التفاصيل، انظر: محمد رمزي، القاموس الجغرافي للبلاد المصرية.

هذه الأمم المفتوحة أرقى من العرب مدنية وحضارة، وأقوى نظماً اجتماعيَّة، كان من الطبيعي أن تسود مدنيَّتهم وحضارتهم ونظمهم. وإذ كان العرب هم العنصر الفاتح عدَّلوا هذه النُّظم بما يتَّفق وعقليَّتهم، فسادت في البلاد المفتوحة النُّظم التي كانت متَّبعة من قبل الفتح، كنظام الدَّواوين ونحوه، وأقرَّ على ما كان عليه. حتى لغة الدَّواوين نفسها ظلَّت باللُّغة الأصليَّة إلى عهد عبد الملك بن مروان".

وحين تطلَّع العرب مع الزَّمن إلى شيء من فن مصر وعلومها، لجأوا إلى التَّرجمة عنها، فأمر خالد بن يزيد بن معاوية بأن يُنقل إلى العربيَّة كثير من الكتب اليونانيَّة والقبطيَّة التي تناولت البحث في صناعة الكيمياء العمليَّة، وتبعه كثير من الخلفاء والولاة.

ويقول الأستاذ محمد شفيق غربال في حديثه عن احتفاظ مصر بذاتيتها مع ملاءمتها بين العناصر الثقافيَّة المستوردة، وبين البيئة المصريَّة الخالصة: "وهنا نقرِّر ما كان للعناصر المسيحيَّة المصريَّة في البلاد من الأثر الكبير في إجراء تلك الملاءمة سواء منهم في ذلك من احتفظ بمسيحيَّته أو تحول إلى الإسلام. فقد علَّموا الوافدين على البلاد كيف يعيشون تلك المعيشة التي تلائم ظروف مصر خير الملاءمة، من حيث أساليب الزِّراعة وطرائقها، ونظام حيازة الأراضي ومسحها وريها، وما يستتبع هذا كله من نظم إداريَّة، وكذلك الصِّناعات القائمة على استخدام المواد الأوليَّة التي بين أيديهم على أحسن ما يتَّفق وأحوال البلاد الطبيعيَّة ... أما عن مساهمة الأقباط في الجانب العقلي من الثَّقافة الإسلاميَّة، فأمر ليس من اليسير الكلام فيه ... ولا استثني من هذا القول إلاَّ شيئين أولهما أن ثمة ظروفاً مصريَّة محلية أثَّرت في اتجاهات معينة للفقه الإسلامي، وثانيهما هو أثر مساهمة الأدب الشَّعبي المصري القديم في الأدب الشَّعبي العربي".

لقد نظر العرب إلى المصريين فوجدوهم يكتبون على البردي كأسلافهم في قديم الزَّمان، ويغلّفون الكُتُب ويزخرفونها، فاستشرفوا إلى الكتابة والزَّخرفة فيها على مثال مصر. ويقول الدكتور عبد العزيز مرزوق في كتابه "الفن المصري الإسلامي": "في مكتبة جوثا بمدينة ميونخ رق يتضمَّن صفحة من القرآن بها زخارف بسيطة، وأشرطة تفصل بين السور وبعضها البعض تتضمَّن زخارف هندسيَّة متأثرة بالفن القبطي إلى حد بعيد".

بل إن جلود الكُتُب في العصر الإسلامي إنما يحدد تاريخها الكتابة القبطيَّة الموجودة على أوراق البردي المستعملة فيها. واستعان العرب بأقباط مصر في بناء المساجد، فاستعان بهم الوليد في بناء مسجد دمشق، والمسجد الأقصى، وجامع أمير المؤمنين. إن أقباط مصر هم أوَّل من بنوا محراب مجوف في الإسلام على مثال من حنية الكنيسة. ومن عطاء مصر للفن الإسلامي بعد المحراب، المئذنة والقباب، وفنار الإسكندريَّة الذي بهر العرب عند فتح مصر هو الأصل الفني للمئذنة.

ويقرر الدكتور محمد عبد العزيز مرزوق: "إن الفن القبطي ليُعد أصلاً من أصول الفن الإسلامي عامة، والفن المصري الإسلامي خاصة".

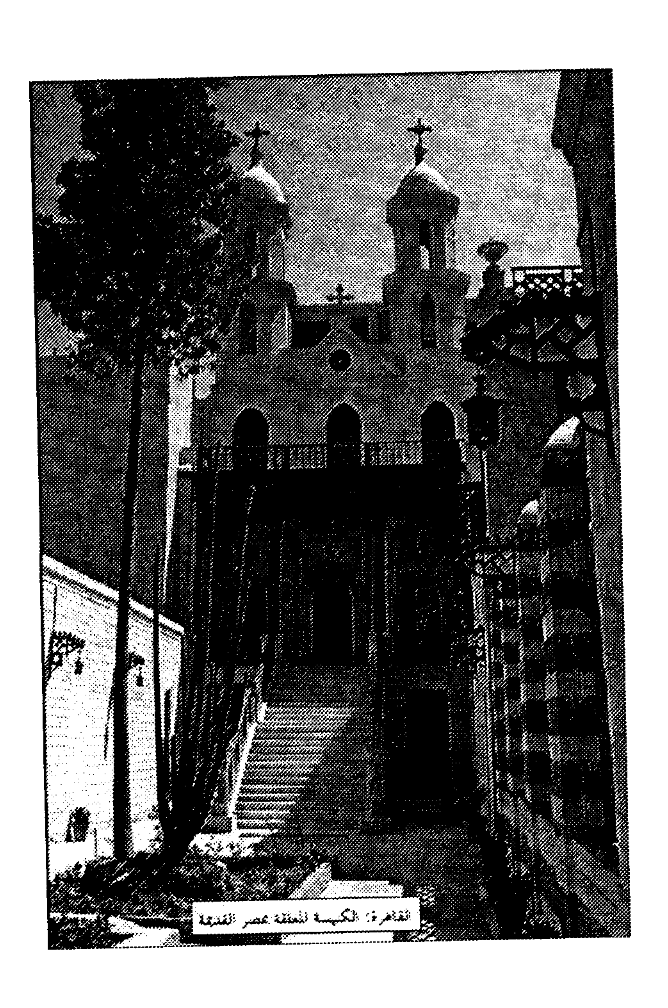
ويقول الأستاذ محمد شفيق غربال في كتابه "تكوين مصر": "إن طرائق الفن القبطي وأساليبه كانت عاملاً من العوامل المؤثِّرة في فنون مصر الإسلاميَّة وصناعاتها، وهذا دليل آخر على أهميَّة العنصر المسيحي في تكوين مصر[٣٩]".

وكما بنت مصر للعرب الفسطاط، بنت لهم المساجد والقلاع والحصون والأسوار والأبواب. فالتأثير الفني للأقباط على زخارف منازل

---

٣٩ ـ انظر: د. نعمات أحمد فؤاد، شخصية مصر، مرجع سابق، ص ٧٣، ٧٤

الفسطاط وجامع عمرو بن العاص، ومقياس النِّيل بالرَّوضة واضح. كما يبدو هذا التأثير واضحاً في طرق صناعة وزخرفة الفخَّار والخزف والمنسوجات وغيرها خلال القرون القليلة التي أعقبت الفتح الإسلامي مصر، وذلك حتى العصر الطولوني الذي ازداد فيه أثر فنون "سامرا" على الإنتاج الفني في مصر.



القاهرة: الكنيسة المعلقة بمصر القديمة

الفَصل الخامس

كنيسة مصر في عصر الولاة

يمتد عصر الولاة المسلمين قرابة قرنين ونصف من الزَّمان (٦٤٢-٨٦٨م)، حيث يبدأ من فتح العرب لمصر سنة ٦٤٢م، وينتهي بقدوم أحمد بن طولون إلى مصر وتأسيس دولة مستقلة في مصر الإسلاميَّة سنة ٨٦٨م، وتتضَّمن هذه الفترة قيام الدَّولة الأمويَّة في مصر (٦٦١ - ٧٥٠م) وكان مركزها في دمشق، وأعقبها الدَّولة العباسيَّة حيث انتقل مقر الخليفة إلى بغداد.

وجدير بالذِّكر أنه لم تكد الخلافة تنتقل من بني أميَّة إلى بني العبَّاس حتى اندفع العبَّاسيون في التَّنكيل بالأسرة المغلوبة وتصوير أعضائها وحكمهم في أقبح صورة، فلم تبق رذيلة إلاَّ نسبوها إليهم، أو مثلبة إلاَّ ألحقوها بهم، أو ألقاب قبيحة إلاَّ وصفوهم بها. وصار معاوية في نظرهم عدو الله وغلاماً مترفاً جباراً عنيداً لا يراقب الله، واسع الدُّنيا ضيق الآخرة. حتى أن أوَّل خلفاء العباسيين دُعي "السَّفاح" لأنه سفح دم كل أمراء الأمويين عن آخرهم، ليمحو ذكر دولتهم من التَّاريخ.

الحالة الاقتصاديَّة في مصر في عصر الولاة

لم يُدخل العرب أصنافاً جديدة من المزروعات في مصر أو طرقاً جديدة للزِّراعة والرَّي غير تلك التي كانت موجودة في مصر. والواقع أن طريقة زراعة الأراضي في مصر ظلَّت كما هي منذ عهد الفراعنة، وإن كانت قد تقدَّمت نوعاً في عهد الرُّومان، إلاَّ أنها ظلَّت على حالها من غير تغييرات أخرى حتى أوائل القرن التَّاسع عشر. وكان القمح أهم ما ترسله مصر إلى الخلافة بعد الفتح، فبعد أن كانت ترسل القمح سنوياً إلى روما

ثم بيزنطة، أصبحت بعد الفتح العربي ترسل القمح إلى الحجاز. وقد استمرَّت عادة إرسال القمح إلى الحجاز حتى بعد أن انتقل مركز الخلافة من الحجاز إلى الشَّام ثم إلى العراق[١].

أما في مجال الصِّناعة فكان معظم الصنَّاع بمصر في فجر الإسلام من المصريين أكانوا ممن بقي على دينه من الأقباط، أم ممن أسلموا منهم. فالعرب في أوَّل ذلك العهد كانوا لا يتدَّخلون في الصِّناعات وغيرها من المهن، وحتى بعد أن بدأ العرب يختلطون بالأهالي ويملكون الأراضي ويشتغلون بالزِّراعة منذ أوائل القرن الثَّاني الهجري/ الثَّامن الميلادي، لم يصبحوا الأغلبيَّة بين الصُّنَّاع في مصر. ولا شك أن كثيراً منهم اشتغلوا بالصناعة وخاصة بعد أن أمر الخليفة إسقاطهم من الديوان، ولكن المصريين كان لهم الغلبة والكثرة العدديَّة على إخوانهم العرب[٢].

أما في التِّجارة الخارجيَّة مع أقاليم البحر الأبيض المتوسط، فلا نعرف هل ظلَّت الأمور على ما هي عليه في العصر اليوناني الرُّوماني، أم أخذت في النُّمو والزِّيادة تمهيداً للازدهار الذي وصلت إليه في عصر الأيوبيين والمماليك. ويبدو أن المصريين لم يساهموا في النَّشاط التُّجاري الخارجي إلاَّ بقدر ضئيل، ولعل هذا يرجع إلى عدم إقبال المصريين بوجه عام على التِّجارة في العصور القديمة[٣].

حالة الأقباط في عصر الولاة

كان في الحكومة المركزيَّة بالفسطاط كاتبان قبطيان لإدارة شؤون

---

١ ـ د. سيدة إسماعيل كاشف، مصر في فجر الإسلام، مرجع سابق، ص ٢٦٦

٢ ـ نفس المرجع، ص ٢٧٣

٣ ـ نفس المرجع، ص ٣٤١

مصر العُليا ومصر السُّفلى. والظَّاهر أن رؤساء الماليَّة كانوا قبطاً طوال العصر الأموي، فقد أشار مؤلِّف كتاب سير البيعة إلى ظهور رئيسين من المسلمين في بداية العصر العباسي(٤).

ولم يحدّ العرب من حريَّة الأقباط في احتفالاتهم الدِّينيَّة، إلاَّ أن ولاة مصر لم يشتركوا في الاحتفالات الرَّسميَّة لهذه الأعياد(٥) كما كان يحدث في عهد الإخشيديين والخلفاء الفاطميين. أما المصريون المسلمون فلم يجدوا غضاضة في ذلك إذ أن الكثيرين منهم كانوا من أصل قبطي. إلاَّ أن الأمر لم يدم على هذا الحال إذ كان الأقباط عرضة لبعض المضايقات التي حملت بعضهم على ترك دينهم كي يتخلَّصوا منها ويصبحوا على قدم المساواة مع المسلمين(٦).

كان بعض الولاة المسلمين يشكُّون في الأقباط وفي تصرفاتهم، لاسيَّما أن اللُّغة التي كانوا يتكلَّمون بها لم تكن مفهومة لهم. فعبد العزيز بن مروان يشك في بطريرك مصر عند إرساله خطاباً إلى كل من ملكي الحبشة والنُّوبه ليصلح بينهما، والأصبغ بن عبد العزيز استصحب شماساً اسمه بنيامين ليطلعه على أسرار النَّصارى، حتى أنه ترجم له الإنجيل وعدَّة كُتُب أخرى إلى اللُّغة العربيَّة ليعرف ما إذا كان في هذه الكُتُب ما يمس الدِّين الإسلامي بسوء.

ومع تعريب الدَّواوين في سنة ٧٠٦م اضطر كثير من الأقباط إلى تعلُّم اللغة العربية وإلاَّ فقدوا مناصبهم. وبرغم ذلك فقد حاول الخليفة عمر بن

---

٤ ـ نفس المرجع، ص ١٩٠

٥ ـ أول ذكر لاحتفال ديني للأقباط في العهد الإسلامي كان سنة ٢٩٠هـ (٩٠٣م) وهو الذي ذكره ابن رستة في كتابه "الأعلاق النفيسة".

٦ ـ انظر: د. سيدة إسماعيل كاشف، مصر في فجر الإسلام، مرجع سابق، ص ١٩٤، ١٩٨

عبد العزيز (٧١٨- ٧٢٠م) إحلال المسلمين محل المسيحيين حتى في الوظائف الصَّغيرة. ويذكر الأنبا ساويرس أن الأقباط سلَّموا ما بيدهم من الوظائف والأعمال إلى المسلمين. ويقول الكندي أنه في خلافة عمر بن عبد العزيز نُزعت موازيت[٧] القبط عن الكور واستعمل المسلمون عليهم.

وحتى النِّيل محور اهتمام الأقباط والمسلمين، لأن نقص مياهه أو ازديادها كثيراً يضر بالبلاد، ويعرضها للخطر، والذي صلى المسلمون والأقباط من أجله عندما نقصت مياهه في ولاية أبي عون على مصر (٧٥٠- ٧٥٤م)، لم يمنع الخليفة المتوكِّل الذي بنى مقياساً للنِّيل في جزيرة الروضة من عزل النَّصارى عن قياسه سنة ٨٦١م[٨]، وهم أصحاب الخبرة القديمة في ذلك.

ولكن يبدو أن عزل الأقباط عن مناصبهم لم يستمر طويلاً، إذ ظل الأقباط يشغلون كثيراً من مناصب الدَّولة، فقد كانت نظم الإدارة الماليَّة معقَّدة ولم يكن يفهمها غير الموظفين القبط. وظلَّ بعض الموازيت يُختارون من القبط أيضاً[٩].

ولم يكن للأقباط في عصر الولاة حق الاشتراك في الجيش، فكان رجال الجيش من العرب فقط، ونجد أن العنصر العربي في الجيش والأسطول يقل ابتداء من العصر العباسي لإقباله على وظائف الإدارة أو على الزِّراعة والتِّجارة، ويصبح قوام الجيش من الفُرس أولاً ثم الأتراك ثانياً حتى أتى المعتصم في بداية القرن الثَّالث الهجري/ التَّاسع الميلادي فأمر بإسقاط العرب نهائياً من الجيش.

٧- موازيت أي رؤساء القرى.

٨- د. سيدة إسماعيل كاشف، مصر في فجر الإسلام، مرجع سابق، ص ٢٠٢

٩- نفس المرجع، ص ٢٠١، ٣٤٠

ويلخِّص كتاب تاريخ بطاركة الكنيسة المصرية المعروف بسير البيعة المقدَّسة لساويرس ابن المقفَّع أسقف الأشمونين الحالة التي وصلت إليها الكنيسة قرب نهاية عصر الولاة، وفي زمن البابا خائيل الثَّاني (٨٤٩- ٨٥١م) فيقول ما نصُّه:

"وكانوا المتوليين لاستخراج الخراج يلزموه (أي يلزموا البابا) بخراج الأواسي، وذاق طعم الاوجاع والبلايا. فلما كان في يوم من الايام بكا بدموع غزيرة وقال ياربي يسوع المسيح انت تعلم ان الانفراد غرضي طول زماني، وليس لي قدرة على هذه التجارب لانني ضعيف الجسد يوم بعد يوم، وانا اعلم انك تقبل دعا المضيقين عليهم، وقد قلت اصرخ الى في يوم شدتك فاخلصك ولتمجدني، وانا اسالك يارب ان تظهر علامة رحمتك في هذا الزمان الضيق، ولا تدعني اشاهد تجارب اخر لانني غير قادر على حملها فسمع محب البشر دعا ذلك القدِّيس ... فدعاه السيد المسيح اليه...[١٠]".

وكان بعضٌ من البلايا التي حاقت بالأقباط في مصر بسبب قلّة من الأقباط أنفسهم، أو بعض المسيحيين من غير المصريين، والأمثلة على ذلك يحكيها لنا كتاب سيَر البيعة المقدَّسة. فعن الخليفة جعفر المتوكّل الذي كان في عصر البابا قزمان الثَّاني (٨٥١- ٨٥٨م)، نقرأ ما نصه:

"انزل على البيع في كل مكان بلايا لا تُحصى عددها، وذاك انه امر بهدم البيع كلها، ولا يكون احد من النصارى الارتدكسيين والملكيين والنسطوريين ولا اليهود بلباس مصبوغ ليظهروا في وسط المسلمين، وامر ان تجعل صور مفزعة على الواح خشب وتسمر على ابواب النصارى، والزم اكثرهم بالاسلام وامر ان لا يخدم نصراني في خدمة السلطان بالجملة

١٠ـ سير البيعة المقدسة، المجلد الثاني، الجزء الأول، مرجع سابق، ص ١

الا القوم المسلمين ومن ينتقل الى الاسلام. ولاجل ذلك قلت المحبة والصبر من قلوب كثير حتى انهم انكروا السيد المسيح، فمنهم من انكر بسبب رتبة العالم لمحبتهم فيه، واخرين لما لحقهم من الفقر. فلما علم السلطان انه قد زرع هذا الامر الطمث في الكورة البرانية فبدا أن يبذره في كور مصر ويرمي في قلب المتوكل ان يدوم على تغلبه، فانفذ الى كورة مصر انسان من جهته غير نصراني بل فريسي اسمه الغير **عبد المسيح ابن اسحاق**، ولاه خراج مصر والولاية وامره ان يفعل ببيع مصر والنصارى مثلما فعل بمدينة بغداد والمشرق. فلما وصل الى مصر بدا بالنصارى وانزل عليهم بلايا واذلهم جدا باحزان شتى كما احكمها فيه الشيطان، فكان المذكور يتظاهر عند المسلمين انه يفعل وصايا ناموسهم بالمراياة التي كان يفعلها حتى انهم كانوا يقولوا ما راينا احد وصل الى مصر مثل هذا يتمم وصايا دين الاسلام. واذا كان يوم جمعة مشى راجلا هو وجيشه الى الجامع في وسط مصر يصلي، وكان مبغضا للرب يسوع المسيح وصليبه المقدس ومن يتلبس به، ثم بدا هذا المبغض يخفي اظهار علامة الصليب لا تظهر بالجملة وجعلوا يكسروا كل صليب في البيع بالجملة ولا يدع احد من النصارى يمشي بعلامة الصليب، وضيق علينا مذهبنا حتى ان النصارى ما صاروا يتمكنوا من الصلاة في البيع الا بصوت خفي. واذا جاز انسان بالبيعة لا يسمع صوت كلام من يصلي، ومنعوهم ان لا يصلوا على نصراني اذا مات، وقطع ضرب الناقوس، وصار مثل ديقلاديانوس الذي (إذ) صارت اعماله مثل اعماله. ولم يقنعه ذلك حتى بدا يمنع النصارى من القداسات، وان لا يقدسوا بالجملة. وامر ان يمنع النبيذ في جميع اعماله وبالخاص مدينة مصر حتى انه لا يظهر جملة ولا يباع ولا يشترى ... حتى صار النصارى ياخذوا عيدان الزرجون يبلوها بالما ويعصروها حتى لا يعدموا القربان. وكان الحزن والضيق على النصارى، وكانوا يقولوا كما قالت الثلثة فتية انك اسلمتنا في ايدي اعدا اثمه منافقين ماردين، وملك ظالم اشر من

كلمن على وجه الارض. والان لا نقدر نفتح فانا لان حزنا وعار صار لعبيدك والذين يعبدونك، ولا تسلمنا لاجل اسمك. ولم يزل هذا الظالم يثقل نيره على النصارى من شدة بغضه لهم وبدا ان يتمم عليهم كل امر سو. واخرج الكتاب الدواوين من ديوان السلطان النصارى وجعل عوضا عنهم المسلمين ... وقوما كثير ما صبروا ولا توكلوا على الاههم وانكروا اسم المخلص في تلك الايام الشديدة، ونسوا ما قاله في الانجيل المقدس والذي يصبر الى التمام فهو يخلص[١١] ".

وآخر يُدعى **اسطفانوس** (اصطفن) **بن أندونة**، كان نصرانياً وأسلم، وتزوّج بمصر، واقتني سراري، وبنى مساكن، ورُزق أولاداً، واقتنى نعماً كثيرة لا تُحصى، هذا ضيّق على الأقباط وصرفهم من دواوين الحكومة، وكانت نهايته أن أصابه الفالج في يديه ورجليه، ومات، وحلّ ابنه الأكبر مكانه، وكان أسوأ من أبيه، فعن اصطفن يقول كتاب سيَر البيعة المقدسة:

"كان يذكر المومنين بكل سو ويقول ان النصارى قبل هذا اليوم لا يلبسوا ثياب لها اكمام، بل يلبسوا ثيابا بغير اكمام كما تلبس الرهبان الذين هم يدعوهم اباوهم. فاذا كان الابا تلبس هذا اللباس، بالحري ان تكون اولادهم مثلهم ... وكان ظنه ان الكتاب يمتنعوا من اللباس وينكروا دينهم ...".

وعن ابنه يقول كتاب سيَر البيعة المقدسة: "وكانت البلايا على النصارى في كل يوم تتزايد من هذا المتولي واعماله الردية تتزايد في كل يوم، فمن لا يحزن قط يحزن لاهل مصر واكثرها النصارى ... صليب المسيح يكسر في كل مكان ... وكذلك الناقوس المقدس الذي صوته يطرد الشيطان

---

١١ ـ نفس المرجع، ص ٤ ـ٦

وجنوده ويقيم الكسلان الى ذكر الاهه، امر ان يقطعه ...[١٢]".

ومع ولاية يزيد بن عبد الله آخر الولاة في عهد الخليفة المتوكل، "تزايدت الانعام والخيرات في كل مكان، وزال البلا عن الناس، وطابت نفوس سكان ارض مصر، ورأو خيرا كثيرا، وكان ذلك في ايام جعفر المتوكل على الله، وهذا الملك صرف اهتمامه في ذلك الوقت الى المدن التي بارض المشرق ومصر... وصير حصونا وعمل تذكارات كثيرة بارض مصر عوضا مما فعل بالنصارى ... وكان الاب البطرك انبا قسما ساكنا في البلد المعروفه بدميره بهدو وسلامة طول الايام والاراخنة بمصر كانوا يتولون اموره وتحملوا اثقاله، ولا يدعوه يحتاج الى احد من النّاس ...[١٣]".

ويمكن تلخيص حالة الأقباط في عصر الولاة في ثلاثة بنود هي:
- عقد الذّمة وأحكامه.
- المظالم الماليَّة في عصر الولاة.
- ثورات الأقباط.

(أ) عقد الذّمة وأحكامه

ظل الأقباط طيلة عهد الولاة وبعده بقرون طويلة، وحتى القرن التّاسع عشر، يُدعون بأهل الذّمة[١٤]، وكانت الجزية تُفرض على أهل

١٢ـ نفس المرجع، ص ٦ ـ ٨

١٣ـ نفس المرجع، ص ١٠، ١١

١٤ـ الذّمة في اللغة العربيَّة هي العهد والأمان، والمنتفعون بالعهد يسمون أهل الذّمة أو الذّميين، أو المعاهدين. ويتَّسع هذا المعنى الاصطلاحي عند الفقهاء المسلمين فيذهبون إلى أن أهل الذمة هم أهل الكتاب أي أصحاب التوراة والإنجيل من اليهود والمسيحيين، ومن لا كتاب لهم مثل المجوس. ويُعتبر المجوس إلى جانب النَّصارى واليهود من أهل الكتاب، وإن كانوا معترفين بأن الله واحد، فقد كفروا بكتاب الله تعالى وهو القرآن، ورسوله محمد، ولذلك لم يبق لهم إيمان، لأن تصديق الرُّسُل إيمان بالمرسل،

الذِّمة نظير إعفائهم الجبري من الخدمة العسكريَّة، فلم يكن مسموحاً لهم بالانضمام إلى صفوف الجيش العربي. ولقد أورد الماوردي الذي عاش في القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، في كتابه "الأحكام السلطانيَّة" نوعين من أحكام أهل الذِّمة[١٥]، أحدها هي الشُّروط المستحقَّة، والأخرى هي الشُّروط المستحبَّة. وهذه الشُّروط اصطلح على تسميتها "الشُّروط العمريَّة" ولا يُستبعد أن تكون هذه الشُّروط التي نُسبت إلى الخليفة عمر بن الخطاب ترجع إلى عهده، ولكنها لم تُصغ إلا في فترة متأخِّرة فيما بعد[١٦]. ولكن الدكتورة سيدة إسماعيل كاشف تنفي نسبة الشُّروط العمريَّة إلى عمر بن الخطاب[١٧].

- أما الشُّروط المستحقة فهي ستَّة:
  - عدم ذكر القرآن بطعن أو تحريف.
  - عدم ذكر رسول الإسلام بتكذيب أو ازدراء.
  - عدم ذكر دين الإسلام بذم أو قدح.
  - عدم الزَّواج بمسلمة.
  - ألاَّ يعينوا أهل الحرب وألاَّ يودوا أغنياءهم.
  - ألاَّ يفتنوا مسلماً عن دينه أو يتعرضوا لماله أو دمه.

ولذلك تجري عليهم الجزية ليقروا في دار الإسلام للكف عنهم وحمايتهم. وهذه هي النظرية الصحيحة للإسلام تجاه اليهود والنصارى. (انظر: د. ناريمان عبد الكريم، معاملة غير المسلمين في الدولة الإسلامية، مرجع سابق، ص ٤٤، وانظر أيضاً: دكتورة سيدة إسماعيل كاشف، مصر الإسلامية وأهل الذمة، مرجع سابق، ص ٩).

١٥_أحكام أهل الذمة هي الشُّروط والقوانين التي يتعين على أهل الذِّمة الالتزام بها والخضوع لها ما داموا يعيشون في ديار الإسلام.

١٦_ د. ناريمان عبد الكريم، معاملة غير المسلمين في الدولة الإسلامية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٧م، ص ٦٥

١٧_ د. سيدة إسماعيل كاشف، مصر الإسلامية وأهل الذمة، مرجع سابق، ص ٤٤ وما قبله.

- أما الشُّروط المستحبَّة فستة أيضاً:
- أن يلبسوا الغيار (ملابس تميِّزهم) وشد الزِّنار.
- ألاَّ تعلو أبنيتهم فوق أبنية المسلمين، ويكونوا إن لم ينقصوا مساوين لهم.
- ألاَّ يسمعوهم أصوات نواقيسهم، ولا تلاوة كتبهم، ولا قولهم في المسيح.
- ألاَّ يشربوا الخمر جهاراً ولا يُظهروا صلبانهم وخنازيرهم.
- أن يخفوا دفن موتاهم، ولا يجاهروا بندب عليهم ولا نياحة.
- ألاَّ يركبوا الخيل، ويكتفوا بركوب البغال والحمير[١٨].

ولقد أرسل نصارى أهل الشَّام ومصر إلى الخليفة عمر بن الخطاب يذكرون فيه ما عاهدوا المسلمين به من التزام الحدود. "لما قدمتم علينا سألناكم الأمان لأنفسنا وذرارينا وأموالنا وأهل ملَّتنا، وشرطنا على أنفسنا أن لا نحدث في مدائننا ولا فيما حولها ديراً ولا كنيسة ولا صومعة راهب، ولا نجدِّد ما خرب منها، ولا ما كان في خطط المسلمين، وأن نوسِّع أبوابها للمارة ولبني السَّبيل، وأن يترل من مرَّ بنا من المسلمين ثلاث ليالٍ نطعمهم، ولا نأوي في كنائسنا ولا في منازلنا جاسوساً، ولا نكتم عيناً للمسلمين، ولا نعلِّم أولادنا القرآن، ولا نظهر شرعنا ولا ندعو إليه أحداً، ولا نمنع أحداً من ذوي قرابتنا الدُّخول في دين الإسلام إن أرادوا، وأن نوقِّر المسلمين ونقوم لهم في مجالسنا إذا أرادوا الجلوس، ولا نتشبَّه بهم في شئ من ملابسهم في قلنسوة ولا عمامة، ولا نتسمَّى بأسمائهم، ولا نتكنَّى بكناهم، ولا نركب بالسُّروج، ولا نتقلد السيوف، ولا نتخذ شيئاً من السلاح، ولا نحمله معنا ولا ننقش في خواتيمنا بالعربية، وأن نجز مقادم رؤوسنا، ونلزم زيّنا حيث كنَّا، وأن نشد الزَّنانير على أوساطنا، ولا نُظهر

---

١٨ ـ د. ناريمان عبد الكريم، معاملة غير المسلمين في الدولة الإسلامية، مرجع سابق، ص٦٣، ٦٤

صلباننا، ولا نفتح كنفنا في طرق المسلمين ولا أسواقهم، ولا نضرب بنواقيسنا في كنائسنا في شئ من حضرة المسلمين، ولا نخرج شعانيننا ولا طاغوتنا، ولا نرفع أصواتنا مع موتانا، ولا نوقد النيران في طرق المسلمين ولا أسواقهم ولا نجاورهم بموتانا، ولا نتخذ من الرقيق ما جرت عليه سهام المسلمين، ولا نطله في منازلهم، ولا تعلو منازلنا منازلهم".

ولما قرأ عمر بن الخطاب ذلك زاد عليه "ولا نضرب أحداً من المسلمين، شرطنا ذلك على أنفسنا وأهل ملّتنا، وقبلنا عليه الأمان، فإن نحن خالفنا في شئ مما شرطناه لكم علينا وضمناه على أنفسنا وأهل ملّتنا، فلا ذمة لنا عليكم، وقد حلّ بنا ما حلّ بغيرنا من أهل المعاندة والشّقاق".

وإلى هذا الحد ليس الأمر غريباً في شئ، أما الغريب فهو أنه برغم عدم نفي الدكتورة ناريمان عبد الكريم لنسبة الشُّروط العمريَّة إلى الخليفة عمر بن الخطاب تقول: "نتبيَّن مما قام به الخليفة عمر بن الخطاب تجاه أهل الذّمة رغبته الملحَّة في أن يشملهم بعدله ورعايته[١٩]".

وأجمع العُلماء بعد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب أنه متى نقض الذُّمي عهده بمخالفة شرط من هذه الشُّروط المأخوذة عليهم، فالإمام مخيَّر فيه بين القتل والأسر. وطبقاً لهذه الشُّروط مُنع الأقباط من بناء كنائس أو أديرة مستحدثة لهم أو تجديد ما خرب منها.

لكن مؤرِّخي مصر الإسلاميَّة وإن كانوا قد ذكروا ذلك إلاّ أنهم لم يذكروا إلى أي حد اتبعت تلك الشُّروط ونفذت مع أهل الذّمة، والأرجح أن الخلفاء في فجر الإسلام لم يلزموا أهل الذّمة بتنفيذها، لأننا رأينا أن هناك كنائس وأديرة بُنيت في مصر في العهد الإسلامي، كما جُدد بناء

١٩ـ نفس المرجع، ص ١٥٧

كنائس أخرى. ويذكر عبد الحكم أن أوَّل كنيسة بنيت في فسطاط مصر كانت أيام مسلمة بن مخلد (٦٦٧ - ٦٨٢م) ولكن الجند أنكروا عليه ذلك وكادت تقع فتنة بينه وبينهم[٢٠].

وفي خلافة هارون الرَّشيد وولاية علي بن سليمان، أمر الوالي بهدم بعض الكنائس، والمصادر لا تشير إلى سبب ذلك. وجاء بعده الوالي موسى بن عيسى العباسي (٧٨٧ - ٧٨٨م) فأذن للأقباط ببناء الكنائس التي هدمها علي بن سليمان. وفي سنة ٨٠٦م يذكر الطبري أن هارون الرَّشيد أمر بهدم الكنائس في الثغور. وهكذا دواليك واحد يهدم وآخر يبني، ولكن الحُكم في النهاية للأرقام التي تقول إن مئات الكنائس في مصر قد هُدمت أو تحوَّلت إلى مساجد. وتألَّب الأقباط على كل الأوضاع، وتمرَّسوا على كل أنواع الحياة مُرِّها قبل حلوها.

والواقع أن العصبيَّة الدِّينيَّة تغلَّبت على العرب بعد الفتح وتغلَّب عليهم الشُّعور بعزَّهم وتفوُّقهم على غيرهم من الشُّعوب بعد أن أنشأوا إمبراطوريَّتهم الإسلاميَّة فرأوا أن يتميَّزوا على غيرهم في اللِّباس والزِّي والرُّكوب وغير ذلك مما أشعرهم في الوسط الاجتماعي بأنهم السَّادة وغيرهم دونهم. كما أنهم، وقد أصبحوا سادة البلاد التي فتحوها ملكاً للمسلمين، رأوا أن ليس عليهم أن يبنوا كنائس فيها، ويكفيهم أن يُبقوا على ما وجدوه منها، وألاّ يتدخَّلوا في الشُّؤون الدِّينيَّة لأهل الذِّمة.

ويذكر القلقشندي تفصيلات أوفر في الشُّروط المفروضة على أهل الذِّمة فيقول: "ألاّ يركبوا الحمير بأن يجعل الرَّاكب رجليه من جانب واحد، وأن يُنزلوا المسلمين صدر الطَّريق، والتمييز عن المسلمين في اللباس،

٢٠ـ د. سيدة إسماعيل كاشف، مصر في فجر الإسلام، مرجع سابق، ص ٢٠٦، ٢٠٧، ٢٠٩

ولا يركبن يهودي ولا نصراني على سرج، وليركبن علـــى إكـــاف، ولا تركبن امرأة من نسائهم على رحالة، وليكن ركوبها على إكاف".

كما أكد القرشيُ في كتاب "معالم القربــة في أحكـــام الحســبة" ضرورة أن "تشد المرأة الزِّنار كالرَّجل، ويكون في عنقها خاتم، ويكـــون أحد خفيها أسود والآخر أبيض لتتميز به عن غيرها!".

وظلّت هذه الذهنيَّة هي السِّمة الغالبة على تاريخ الحكم العربي، وإن تخللها فترات، تمتَّع فيها أعيان الأقباط وأغنياء اليهود بامتيازات المســلمين في الملبس والمظهر، بينما ظلّت قاعدة الفقراء من أهل الذّمة مقيَّدة بشروط الملبس، وظل اللون الأبيض حكراً على العرب، والأزرق قيداً على القبط.

ويرى بعض الباحثين أن قيود الملبس لم تطبق بشدَّة في بداية الإسلام في مصر، بسبب وجود فوارق طبيعيَّة في المظهر بين ملبوس العرب الآتين من الصَّحراء، وملبوس أهل البلاد، وإن هذه القيود فُرضت بصرامة فيما بعد[٢١]. والمعقول أن العرب الذين كانوا في دور البساطة زمن الفتح هم الذين أخذوا يتشبَّهون بأهل البلاد المفتوحة في ملابســهم حــين بــدأوا يتخلون عن عهد البساطة الأوَّل ويسيرون في ركب التطوُّر والمدنيَّة[٢٢].

وربما كانت هذه الامتيازات الاجتماعيَّة والأدبية للمسلمين على أهل الذِّمة سبباً - كما قلنا - في أن كثيراً من المسيحيين أقدم علـــى اعتنـــاق الدِّين الإسلامي، ولا يمكننا القول بأن إسلام هـــؤلاء الـــذين يريـــدون التخلّص من تلك المضايقات كان صحيحاً؛ ولكن ذريَّتهم كانت تنشأ في الوسط الإسلامي فيعتزون بدينهم الإســـلامي ويندمجون في الجماعـــة

٢١ـ سناء المصري، حكايات الدخول، مرجع سابق، ص ١٦٩، ١٧٠

٢٢ـ د. سيدة إسماعيل كاشف، مصر الإسلامية وأهل الذمة، مرجع سابق، ص ٤٧

الإسلامية تماماً ... وهكذا نرى أن أهل الذمة عوملوا معاملة الطبقات الدنيا مهما كانت ثروتهم أو مراكزهم في الدولة مما حمل الكثير على الرغبة في التخلص من تلك المضايقات(٢٣). ولكن ما أن تواتيهم الفرصة حتى يعودوا إلى دينهم الذي تركوه قهراً، فيذكر أبو المحاسن في كتابه "النُّجوم الزَّاهرة في ملوك مصر والقاهرة" أنه في عهد الخليفة الظَّاهر صدر أمر في سنة ١٠٢٧م يسمح لمن اعتنق الإسلام كُرهاً أيام الحاكم بالعودة إلى دينه، فعاد الكثير منهم إلى اليهوديَّة والمسيحيَّة(٢٤).

(ب) المظالم الماليَّة في عصر الولاة

المعروف أن الخلافة العباسيَّة كان لها بيت المال العام، وبيت مال الخاصة. وأن الأوَّل كانت تؤخذ منه العطايا ونفقات دار الخلافة، أما الثَّاني فكان الخليفة ينفق منه على موسم الحج وعلى الغزوات إلى حدود الدَّولة البيزنطية، وعلى فداء أسرى المسلمين، وعلى القيام بنفقات الرُّسُل الواردين. وكانت الضَّرائب التي تُجمع من مصر والشَّام يسير بعضها إلى بيت المال العام، كأموال الخراج(٢٥) العام، كما كان بعضها الآخر يؤول إلى بيت مال الخاصة كجزية أهل الذمة(٢٦).

والمعروف أيضاً أنه أُنشئ في العصر العباسي ديوان خاص للنَّظر في

٢٣ـ د. سيدة إسماعيل كاشف، مصر في فجر الإسلام، مرجع سابق، ص ٢١٤ وما قبلها.

٢٤ـ د. ناريمان عبد الكريم، معاملة غير المسلمين في الدولة الإسلامية، مرجع سابق، ص ١٠٤

٢٥ـ كانت ضريبة الخراج من أهم الضرائب في مصر بعد الجزية، وهي ما يُفرض على الأرض الزراعيَّة من المال أو الغلال أو الطعام، قد يكون الخراج حصة معينة مما خرج من الأرض.

انظر: د. سيدة إسماعيل كاشف، مصر الإسلامية وأهل الذّمة، مرجع سابق، ص ٦٣

٢٦ـ د. سيدة إسماعيل كاشف، مصر في عصر الإخشيديين، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٩م، ص ١٠٤

شؤون أهل الذّمة سُمي "ديوان الجوالي"، ولا نعرف متى أُنشئ هذا الدّيوان في مصر ولعله نشأ ملحقاً ببيت المال أو ديوان الخراج[٢٧].

لقد لخّصت الدكتورة سيدة إسماعيل كاشف كل زمن الخلفاء بقولها: "كانت سياسة الخلفاء بوجه عام ترمي إلى استغلال مصر استغلالاً منظماً وإن اختلف بعضهم عن البعض الآخر من حيث درجة الاستغلال[٢٨]".

وإذا كانت سياسة بعض الخلفاء ترمي إلى عدم تحميل البلاد فوق ما تحتمل كي لا يجف معينها ويؤثّر ذلك على ماليّة الدَّولة، إلاّ أن بعض الخلفاء لم يراع هذا المبدأ وراحوا يبتزون كل ما تملك البلاد. ويظهر أن العنصر المالي الرئيسي الذي كان يهتم به العرب هو الجزية التي كانوا يجمعونها من القبط، ولذا كانت الجزية سبباً في إسلام كثير من الأقباط الذين أرادوا التخلّص منها، وهذا معناه نقص في دخل الدَّولة. وربما حدا هذا بالخلفاء إلى مضاعفة الجزية على من بقى من الأقباط على دينه. حتى أن الخليفة عمر بن عبد العزيز أمر عامله على خراج مصر أن يجعل جزية موتى القبط على أحيائهم!.

وكان دخل البلاد في عصر الولاة يذهب إلى بيت مال الخلافة أو جيوب الولاة وعمال الخراج بدون أن تفيد مصر نفسها شيئاً كثيراً. ولما كانت البلاد في عصر الولاة لا تحكمها أسرة تحرص على ازدهارها، لم تكن من الوجهة الماليّة إلاّ شبه مزرعة تُستغل بدون كبير رعاية لازدهارها أو بقاء قدرتها على الإنتاج، إذ كان غرض الخلافة الأساسي هو جباية أكبر دخل ممكن[٢٩].

٢٧_ د. سيدة إسماعيل كاشف، مصر الإسلامية وأهل الذمة، مرجع سابق، ص ٧٥
٢٨_ د. سيدة إسماعيل كاشف، مصر في فجر الإسلام، مرجع سابق، ص ٢١٥
٢٩_ نفس المرجع، ص٢١٦، ٢١٧، ٣٤٠

وسرعان ما عاد المصريون إلى ما كانوا عليه تحت حكم الرُّوم فوقعوا تحت وطأة الأعباء الماليَّة الكثيرة التي تتطلّبها الخلافة، وأصبح المطلوب منهم توفير المال اللآزم لبيت المال وللمنتفعين من الولاة والموظفين أيضاً. ونلاحظ أن انتفاع مصر بدخلها في العصر الأموي كان أكثر منه في العصر العباسي لأن الولاة الأمويين كانوا أكثر استقراراً من ولاة العصر العباسي. أما في العصر العباسي فقد اضطّربت الأحوال الماليَّة وذلك لكثرة تغيير الولاة وبسبب إقطاع مصر لبعض قواد التُرك أو أولياء العهد، فكان همُّ الوالي جمع ما يمكن جمعه من المال لنفسه أولاً وللخلافة أو لصاحب الإقطاع ثانياً(٣٠).

لما احتاج عبد الملك بن مروان سنة ٧٥٠م إلى المال، أمر بعمل إحصاء للرُّهبان في كل الكوَر وفي وادي النَّطرون وسائر الأماكن، وفرض ديناراً جزية على كل راهب، وأمر بألاّ يترَّهب أحدٌ من بعد من أحصاه. وهي أوَّل جزية أخذت من الرُّهبان. وألزم أساقفة الكوَر أن يؤدوا ألفي دينار سنوياً بالإضافة إلى خراج أملاكهم. ومعروف أنه لما فتح العرب مصر حافظوا على ما كان موجوداً فيها من التَّقليد الذي يحرم فرض أية ضريبة على الرُّهبان، ولما لجأ كثير من الرُّهبان إلى الأديرة ليتخلّصوا من الضَّرائب بادرت الحكومة بفرض الجزية عليهم، وكان من أثر ذلك أن اعتنق الكثيرون الدِّين الإسلامي. وفي خلافة الوليد بن عبد الملك (٧٠٥-٧١٥م) تشدَّد عبد الله بن عبد الملك على الأقباط في الأمور الماليَّة، وزاد الخراج على المصريين حتى أن كنائس كثيرة سرى إليها الخراب لهذا السَّبب. وألزم البطرك بدفع ثلاثة آلاف دينار أو يعتقله، فلقي البطريرك مشقّة عظيمة في جمع هذا المبلغ من المال.

٣٠- نفس المرجع، ص ٢٢١

وعندما تسرد الدكتورة سيدة كاشف هذه القصَّة السَّابق ذكرها تكتفي بذكرها دون التَّعقيب عليها، بل أنها بعد ذلك تقول: "والظَّاهر أن هذا الوالي عمد إلى ابتزاز الأموال، ولاسيَّما من القبط، وربما أسلم نفر منهم ليتخلَّص من هذه الأعباء[٣١]". ولم تكن هذه هي الحادثة الوحيدة بل لقد دأب الولاة على التَّضييق على البطاركة لابتزاز الأموال منهم، حتى لو وصل الأمر إلى سجنهم وإهانتهم.

أما الدكتورة ناريمان عبد الكريم فعندما تعرَّضت لحادثة مماثلة في عهد الطولونيين عندما فرض أحمد بن طولون على البابا خائيل غرامات باهظة، لم يستطع دفعها لضيق ذات اليد فحبسه، ولم يطلقه إلاَّ بعد أن توسَّط لديه الكاتبان المسيحيان يوحنا وإبراهيم ابنا موسى، بشرط أن يدفع غرامة قدرها عشرون ألف دينار، مما جعل البطريرك يفرض ضريبة على النَّصارى وباع كنيسة بقرب حصن بابليون وأملاكاً أخرى من أملاك الكنيسة لليهود، ومع ذلك لم يستطع أن يجمع المبلغ كله فزُجَّ به في السِّجن ثانية حيث ظلَّ به ولم يُطلق سراحه إلاَّ في عهد خمارويه. فبعد أن تسرد الدكتورة ناريمان عبد الكريم هذه القصَّة تقول بكل بساطة:
"ويُستبعد أن يكون هذا الإجراء قد اتخذ سمة الاضطهاد الدِّيني، وإنما كان هذا الإجراء مالياً![٣٢]".
وغير ذلك من مثل هذه التَّعقيبات مثل قولها: "ويتَّضح من الإطار التَّطبيقي في تحصيل الجزية مراعاة الجانب الإنساني في تحصيلها، وكذلك مراعاة التَّخفيف وعدم تكليف أهل الذِّمة ما لا يطيقون![٣٣]".

وبعد عزل عبد الله بن عبد الملك سنة ٧٠٩م، تولى مصر قُرَّة بن

٣١ـ نفس المرجع، ص ٢٢٣، ٢٢٤
٣٢ـ د. ناريمان عبد الكريم، معاملة غير المسلمين في الدولة الإسلامية، مرجع سابق، ص ١٠٠
٣٣ـ نفس المرجع، ص ٥٠

شريك، وظل على ولايتها إلى أن مات سنة ٧١٥م. ويذكر عنه الأنبا ساويرس أنه أنزل بلايا عظيمة بالمسلمين والنَّصارى على السَّواء. أما المقريزي فيقول عنه: إنه أنزل بالنَّصارى شدائد لم يبتلوا قبلها بمثلها. ويستطرد الأنبا ساويرس فيقول: إن حركة الهرب التي بدأت في عهد عبد الله بن عبد الملك اتَّخذت في عهد قُرَّة شكلاً أوسع، فكانت أسرات بأسرها رجالاً ونساءً وأطفالاً تهرب من مكان إلى مكان، لا تستقر في مكان معيَّن، وذلك فراراً من دفع الضَّرائب، واضطَّر قُرَّة إزاء هذا إلى إنشاء هيئة خاصة لوقف تلك الحركة وإعادة كل شخص إلى موضعه.

أما الدكتورة ناريمان عبد الكريم فتعقَّب بالقول: "وعلى الرَّغم مما ذكره المؤرِّخون مما وقع على النَّصارى من بلاء أثناء ولاية قُرَّة بن شريك (٩٠- ٩٦هـ/ ٧٠٩- ٧١٥م)، فإن أوراق البردي تشهد بأن هذه الرِّوايات غير صحيحة[٣٤]، فكان قُرَّة يهتم بعدالة حكام الأقاليم، وعدم الإجحاف بأهل الذِّمة، فيأمر عماله في الأقاليم ألاَّ يقدِّروا على أهل الذِّمة ضرائب فوق طاقتهم، كما كان يهدد عماله بعقابهم أشد العقاب إذا ظلموا الأهالي في تقدير الضَّرائب المفروضة عليهم، وكان يتجاوز أحياناً عن بعض ما كان يُدفع كل عام من الجزية، فيقبل من أهل الذِّمة أقل مما اعتادوا دفعه كل عام رفقاً بهم (كذا)[٣٥]".

أما أوراق البردي التي تشير إليها الدكتورة ناريمان عبد الكريم مستشهدة بما ذكرته عنها الدكتورة سيدة كاشف فتروي شيئاً آخر، لذا أُورد هنا كل ما ذكرته الدكتورة سيدة كاشف عما حوت هذه

٣٤- وكأن ساويرس أسقف الأشمونين يختلق الأحداث، أو كأن المقريزي يهذي.

٣٥- د. ناريمان عبد الكريم، معاملة غير المسلمين في الدولة الإسلامية، مرجع سابق، ص ٥٢

البرديَّات، فتقول: "وتُلقي أوراق بردي "كوم أشقاو[٣٦]" شعاعاً من النُّور على هذه الحركة - حركة الهروب من موضع إلى موضع - التي كان محورها الزرَّاع أو الجالية[٣٧] وكان الوالي يأمر بإعادتهم إلى قراهم الأصليَّة، فنراه يكتب إلى صاحب أشقاو أنه علم بوجود جالية بأرضه ويطلب منه أن يرد الجالية - أي الهاربين - إلى أرضهم الأصليَّة، ونراه يرسل مندوبين للنَّظر في حركة الهرب ويطلب من صاحب الكورة أن ييسر مهمتهم وأن يرسل معهم رجالاً ثقات يعرفون الكتابة ليقوموا في حضرتهم بكتابة أسماء الهاربين وألقابهم، وليبيِّنوا أيضاً من أين هرب كل شخص، وإلى أي جهة ذهب. وذلك لحصر الذين عادوا إلى قراهم والذين سمح لهم بالاستقرار على أن يؤدوا الضَّرائب، وليقوموا على وجه الإجمال بالاستفسار عن كل ما يجب أن يُعرف. ثم يعود قُرَّة فيطلب من صاحب الكورة أن يأمر هؤلاء الرِّجال بالعمل في هذه المسألة بجد ونشاط، وألاَّ يقبل أحد منهم هديَّة أو رشوة من أي شخص، وإلاَّ فسيحل العقاب بصاحب الكورة كما سيحل بالرَّجل المذنب. وفي كتاب آخر لقُرَّة نراه يطلب من صاحب أشقوة أن يرسل إليه الهاربين مع عائلاتهم وكل ما معهم من أشياء وأن يعد سجلاً يكتب فيه أسماء الأشخاص الذين أرسلوا، وفي أي موضع من كورته هربوا، وأملاك كل شخص، والوقت الذي أمضاه كل شخص في كورته، وكل شئ يعرفه عن الهاربين دون كذب أو محاباة، وأن يرسل كل الأشخاص وهذه المعلومات مع المندوب الذي

٣٦- كانت أشقوة كورة من كور الصعيد واسمها الآن كوم أشقاو بين أبوتيج وطهطا في مديرية (محافظة) أسيوط، وقد عُثر فيها سنة ١٩٠١م، على مجموعة من الأوراق البردية التي ألقت شعاعاً من النور على حكم الأمويين عامة في مصر وعلى حكم الوالي قرة بن شريك خاصة.

٣٧- الجالية، هم أهل الذمة وقد لُقبوا بهذا اللقب لأن عمر بن الخطاب أجلاهم عن جزيرة العرب، فالتصق بهم هذا الاسم أينما حلّوا.

أرسله قرة لهذا الغرض. ويهدده بأشد العقاب الجسماني والمالي إن هو توانى عن النَّظر في هذه المسألة وتغافل عن أحد الهاربين كما يهدد الأشخاص الذين يوجد بينهم أحد الهاربين بغرامة ماليَّة كبيرة فوق مقدورهم[٣٨]".

فهل بعد كل هذا التَّضييق على الأقباط يكون ما ذكره المؤرِّخون عن قُرَّة بن شريك غير صحيح كما تذكر الدكتورة ناريمان عبد الكريم؟!.

ويذكر الدكتور جودت جبره[٣٩] إنه قد وصلتنا من العصر الأموي مئات من قطع البردي واللّفائف المدوَّنة باللُّغات اليونانيَّة والقبطيَّة والعربيَّة. ومن أكثر هذه الوثائق غرابة، ما يُعرف باسم "جوازات السَّفر" أو "السِّجل" ويرجع معظمها إلى النصف الأوَّل من القرن الثَّامن الميلادي. وهي توضِّح ضرورة أن يحمل المصري "سجلاً" أي جواز سفر مبيناً به اسم أمير الكورة أو المنطقة المانحة للسِّجل، واسم حامل جواز السَّفر وأوصافه، ومحل إقامته، والجهة التي يزمع السَّفر إليها، والسَّبب في ترحاله، والمدَّة المسموح له خلالها بالتغيُّب عن موطنه، ثم تاريخ الإصدار، والختم.

ولكي يصدر جواز السَّفر يجب تقديم طلب ضمان إلى الأمير موقعاً عليه من مجموعة من الأشخاص تضمن الطَّالب أو طلاب الجواز إذا كان جماعياً، وضمان بدفع الضَّرائب عن الشَّخص المسافر، وينطبق ذلك على رهبان الأديرة أيضاً. مما أدى إلى هجر كثير من الأديرة المزدهرة في منتصف القرن الثَّامن الميلادي.

وفي السُّطور التالية ترجمة طلب مكتوب باللُّغة القبطيَّة وموجَّه إلى الأمير لاستخراج جواز سفر لثلاثة رهبان. ويرجع الطَّلب إلى العقد الرَّابع

٣٨ـ د. سيدة إسماعيل كاشف، مصر في فجر الإسلام، مرجع سابق، ص ٢٢٧، ٢٢٨

٣٩- مقال في جريدة وطني بعنوان: "تاريخ الشعوب لا يقل أهمية عن تاريخ الحكام"، في ١٢ أغسطس سنة ٢٠٠١م، ص ١٥

من القرن الثامن الميلادي:

"بسم الله، من خائيل ويوحنا خادميك، من جهة قلعة شامة (غرب الأقصر) التي تتبعك، يكتبان إلى سيدهما الأمير المبجَّل.

سلام من الله لسيادتكم، أما بعد: فإن هؤلاء رهبان دير الأنبا بولا بناحية كلول بجبل شامة الذين سنذكر أسماءهم بدقّة في نهاية هذا الخطاب، سوف يسلّمون لكم خطابنا عديم القيمة، وحيث أنهم يرغبون في التوجُّه إلى الشَّمال في منطقة الفيوم لبيع القليل من الحبال من نتاج تعبهم، فإنهم لا يستطيعون ذلك بدون سجل (جواز سفر) من قبل سيادتكم وذلك اعتباراً من اليوم حتى يتسنى لهم التوجُّه شمالاً لبيع القليل من الحبال لدعم تكاليف حياتهم، وهم أناس أفاضل، ونحن نضمنهم ونرسل لسيادتكم الضَّمان. سلام من الله. وقد دفعوا ما عليهم من ضرائب.

وهذه قائمة بأسمائهم: ثلاثة أشخاص لمدة ثلاثة أشهر والمطلوب السَّماح لهم بالتوجُّه إلى الفيوم:

يوسف بن باتزوين من كلول وجلده يميل إلى الاصفرار ...

ثيودوي بن أثناسيوس من كلول ...

ومرقس بن تاورينوس من كلول.

إلى الطيب محب الله، السيِّد العظيم والحامي العظيم مستحق الثناء، الأمير.

من خائيل ويوحنا خادميك".

وهذا الخطاب السَّابق ذكره منشور علمياً، حيث قام العالم الأمريكي آرثر شلر Arther Schiller بنشره ضمن مجموعة من الوثائق القانونيَّة سنة ١٩٣٢م. كما تناوله بالدِّراسة العالم النمساوي والتر تل Walter Till في مجلة جمعيَّة الآثار القبطيَّة سنة ١٩٥٨م.

أما جوازات السَّفر فيصدرها الأمير باللُّغة العربيَّة، وقد قام العالم النمساوي أدولف جرومان Adolf Grohmann بنشر عدد منها ضمن مجموعة من وثائق البردي في القاهرة سنة ١٩٣٨م. وفيما يلي نص أحد هذه الجوازات صدر سنة ١٢٠ هجرية/ ٧٣١م:

"بسم الله الرحمن الرحيم. هذا كتاب من عبيد الله عامل الأمير عبيد الله من الحبحاب على أعلى أشمون لقسطنطين ببسطلس شاب أبط (أي ذو أنف مسطح) بخده أثر وبعنقه خالين سبط (أي طويل الشَّعر) من أهل بسقنون باهة من أعلى أشمون.

إني أذنت له أن يعمل بأسفل أشمون لوفاء جزيته والتماس معيشته، وأجَّلته شهرين من مستهل ذي الحجة إلى انسلاخ المحرم سنة ست عشرة ومائة. فمن لقيه من عمال الأمير أو غيرهم فلا يعترض له في ذلك من الأجل إلاَّ بخير. والسَّلام على من اتبع الهُدى".

أما التساؤل حول المدَّة التي كان على المصري أن ينتظر خلالها لاستخراج جواز السَّفر ونتائج ذلك، والتعسُّف الذي يلقاه حالة تلف أو فقد جواز سفره فنجد إجابة عليه في كتاب تاريخ البطاركة (في حبريَّة البطريرك ألكسندر الثاني: ٧٠٥ - ٧٣٠م):

"وكان (أي الوالي) يكتب ويقول: كل موضع يوجد فيه إنسان ماشياً أو عادياً من موضع إلى موضع، أو طالعاً من مركب أو نازلاً، وليس معه سجل (أي جواز سفره) يؤخذ وتُنهب المركب وما فيها وتُحرق بالنَّار ... حتى انقطع الطَّريق ولم يبق من مسافر ولا من يبيع ولا من يشتري. وثمرات الكروم تلفت ولم يبق من يشتريها بدرهم واحد لأجل قيام أربابها عند داره شهرين ينتظرون السِّجل بالإفراج عنهم. وإذا أكل فأر سجل إنسان أو أصابه ماء أو نار أو شيئ من العوارض وبقي معه منه قطعة أو جميعه وقد تغير رسمه، لا يغيِّر له حتى يدفع خمسة دنانير

غرامة، وبعد ذلك يغيَّر له ...".

هكذا كان المصري في العصر الأموي لا يستطيع التنقُّل داخل بلده مصر دون جواز سفر يحمله معه. ويلزم تجديده في كل مرَّة يريد فيها أن يتنقل إلى موضع جديد داخل وطنه.

ويختتم الدكتور جودت جبره مقاله بقوله: إن رصد دقائق الحياة اليوميَّة للشُّعوب لا يقل أهميَّة عن تتبُّع الأحداث السياسيَّة وكتابة تاريخ الحكام. وإن الإلمام بظروف حياة النَّاس في مصر إبان العصر الأموي لا يقل بالنسبة للمصري إن لم يفق في الأهميَّة تتبُّع معركة السَّواري التي انتصر فيها الأسطول الأموي على أسطول بيزنطة سنة ٦٥٤م. (انتهى المقال).

واشتد أسامة بن زيد سنة ٧١٥م، وهو واحد من عمال الخراج، في طلب الخراج والجزية[٤٠] حتى أسلم الكثيرون في عهده كي يتخلَّصوا من الأعباء الماليَّة، ولكن حركة الهرب استمرت من جانب الذين أثقلت كاهلهم الأعباء الماليَّة ولم يرغبوا في اعتناق الدِّين الإسلامي[٤١]. وأسامة بن زيد هو الذي أحصى الرُّهبان للمرَّة الثانية بعد الإحصاء الأوَّل الذي تم في عهد عبد العزيز بن مروان، وأمر ألاَّ يقبلوا في الرَّهبنة من يأتي إليهم وأمر بوسم كل راهب بحلقة من حديد في يده اليسرى ليكون معروفاً،

---

٤٠ ـ الجزية غير الخراج، وذلك من ثلاثة وجوه:
+ فالجزية نص والخراج اجتهاد.
+ وأقل الجزية مقدَّر بالشرع، وأكثرها بالاجتهاد. والخراج أقله وأكثره مقدَّر بالاجتهاد.
+ والجزية تؤخذ مع بقاء الكُفر، وتسقط بدخول الإسلام، والخراج يؤخذ مع الكُفر والإسلام.

د. ناريمان عبد الكريم، معاملة غير المسلمين في الدَّولة الإسلامية، مرجع سابق، ص ٥٦

٤١ ـ د. سيدة إسماعيل كاشف، مصر في فجر الإسلام، مرجع سابق، ص ٢٢٩

وفرض عليهم الجزية.

واستمر الحال على ما هو عليه مع الخلفاء اللآحقين أمثال عمر بن عبد العزيز (٧١٨- ٧٢٠م)، ويزيد بن عبد الملك (٧٢٠- ٧٢٣م)، وهشام بن عبد الملك (٧٢٣- ٧٤٣م)، والذي اعتنق في أيامه نحو أربعة وعشرين ألفاً من الأقباط الدِّين الإسلامي[٤٢] عندما أعلن الوالي حفص بن الوليد في ولايته الثّالثة على مصر سنة ٧٤٥م إعفاء من يسلم من الجزية. حتى إلى زمن الخليفة السَّفاح الذي قرَّر أن يعفي من الجزية كل من يعتنق الدِّين الإسلامي، ويقيم شعائره، فتخلى كثيرٌ من المسيحيين، أغنياء كانوا أو فقراء، عن دينهم واعتنقوا الدِّين الإسلامي بسبب فداحة الجزية والأعباء الملقاة عليهم. ويتَّضح من ذلك أنه صدر أمر سابق بألاّ يُعفى أهل الذِّمة من الجزية حتى لو دخلوا في الإسلام، ولسنا نعرف بالتَّحديد من الذي بدأ بإبقاء الجزية على من يسلم حديثاً[٤٣].

ولم يكن خليفة أفضل من غيره في هذا الابتزاز، وكان الوالي يتشدَّد في طلب المتأخِّر من الجزية التي لم تُدفع منذ عهد الوالي الذي سبقه، بل ويزيد عليها أحياناً أخرى ضرائب غير عادية. ولسنا في مجال سرد مفصل لما عاناه الأقباط من شدائد لم ينج منها حتى بطريركهم في كثير من الحالات، ووصل البلاء إلى حد أن صارت جزية موتى القبط تُفرض على أحيائهم، فقلَّ عدد الأقباط، وهُدمت كثيرٌ من كنائسهم، وهربوا من مكان إلى مكان للاختفاء من وجه الضِّيق، وأسلم الكثيرون منهم.

ولا توافق الدكتورة سيدة كاشف على قول مؤلِّف تاريخ بطاركة الكنيسة المصريَّة، في أن الجزية كانت من أهم العوامل التي حولَّت أغلبية

٤٢ـ نفس المرجع، ص ٢٣٥

٤٣ـ د. سيدة إسماعيل كاشف، مصر الإسلامية وأهل الذمة، مرجع سابق، ص ٧٨

الأقباط في عصر الولاة إلى الدِّين الإسلامي[٤٤]. وتقول في ذلك: ربما حاول ساويرس نفسه أن يعلّل انتشار الإسلام بسرعة في مصر فلم يجد غير هذا التَّعليل المالي. ولو كان هناك اضطهاد أو إرغام على الدُّخول في الدِّين الإسلامي لكانت الكنيسة المصريَّة قد سجلته، ولكان ساويرس قد سجَّله في تاريخه. وإذا كانت الجزية هي سبب إسلام أغلبية قبط مصر فهل سيُعفى المصري المسلم من سائر الضَّرائب والأعباء الماليَّة التي تفوق الجزية بكثير؟! وهل سيعفى من أداء الزَّكاة؟ وهل يُعقل أن يتخلى الإنسان عن دينه من أجل دفع مبلغ بسيط من المال لا يدفعه إلاّ القادر؟!.

ولكن إن كان إسلام الأقباط لا يعفيهم من سائر أنواع الضَّرائب والأعباء الماليَّة الأخرى، فلماذا كان الأقباط يدخلون الإسلام جماعات حالما يعلن الحاكم إعفاء من يسلم من الجزية؟!.

وفي زمن البابا شنوده الأوَّل أيام الخليفة المنتصر، وكان والي مصر آنئذ هو أحمد بن محمد، وكان والياً ظالماً عنيفاً، هرب منه البطريرك زمناً، فغيَّر زيَّه ولبس ملابس متواضعة، واختفى في مواضع لا يعرفه فيها أحد، وتبعه شماسان كانا كاتبين له، وكان يهرب من مكان إلى مكان "وهو حزين باكي على البيعة والأساقفة[٤٥]". وإذ كتب الوالي له الأمان مكراً منه ذهب البابا إليه، وكان ذلك سنة ٨٦٢م، ودارت بينهما المحادثة التالية كما يصفها كتاب سيَر البيعة:

- قال الوالي: اعلم أن كل ولايتي قد كتبوا عليهم الخراج إلاّ أنت.
- أجاب البابا بكلام متواضع: مهما تأمر به رياستك فعلته.

٤٤ـ نفس المرجع، ص ٨٣
٤٥ـ نفس المرجع، ص ٢٥

ويقول الكتاب المذكور: "وكان من عادته أن يضاعف على النّاس البلايا إذا ما رادوه في الكلام".

وفيما يلي نص ما يذكره كتاب سيَر البيعة: "وكان على البيعة خراج في كل سنة الفي دينار، فقال لابينا لاجل ما جيت بارادتك اراعيك واسامحك، ثم الزمه بخراج سنتين قبل وصوله الى مصر، وكتب عليه عن الديارات الفي وثلثماية دينار، حتى اجتمع عليه في تلك السنة سبعة الف دينار، هذا بداية البلا ... وكانت جزية النصارى التي بارض مصر الفي دينار زاد عليه أربعة الف دينار حتى صارت ستة الف دينار حتى ان الانسان الفقير الذي يعجز قوته ياخذ منه في كل سنة خمسين درهما، حتى ضجت اهل مصر واعمالها من عظم هذا العذاب وجحد كثير من النصارى لاجل قلة ما بايديهم من الدراهم ...[٤٦]".

"وكانت كورة مصر في ضيق عظيم وافتقروا الاساقفة والرهبان وكل احد من اجل الغرامات التي ريبها هذا الانسان المخوف اكثر من جميع من تقدمه، وكان يكتب على المال اذا انفذه هذا ما كان يسرقه من تقدمي، وكان الاب في جهاد عظيم ...[٤٧]".

(ج) ثورات الأقباط

لم يقف القبط الذين ظلُّوا على دينهم مكتوفي الأيدي طوال هذا العصر أمام مطالب الحكومة الماليَّة، بل قاوموها، فعندما زاد عدد القبط الذين دخلوا الإسلام وقل تبعاً لذلك دخل البلاد، زاد العبء على من بقي على دينه من القبط. فقام القبط بثورات طوال القرن الثاني الهجري/

٤٦ ـ سير البيعة المقدسة، المجلد الثاني، الجزء الأول، مرجع سابق، ص ٢٦، ٢٧

٤٧ ـ نفس المرجع، ص ٢٨

الثّامن الميلادي.

ويرصد المقريزي في كتابه "المواعظ والاعتبار بوصف الخطط والآثار" سلسلة ثورات القبط منذ عام ١٠٧هـ (٧٢٥م). فيقول[٤٨]: "قدم حنظلة بن صفوان أميراً على مصر في ولايته الثانية، فتشدد على النصارى، وزاد في الخراج، وأحصى الناس والبهائم، وجعل على كل نصراني وسماً؛ صورة أسد، وتتبعهم، فمن وجده بغير وسم قطع يده ... الخ".

فلكثرة ما عاناه الأقباط من اضطهاد وجباية لا تهدأ للضَّرائب، عبَّروا عن تمرُّدهم بعدة ثورات قاموا بها في أنحاء مختلفة من البلاد وخاصة الوجه البحري، وظلّت هذه الثورات تندلع بين حين وآخر إلى نحو قرن من الزّمان. أما أهم هذه الانتفاضات الشَّعبية فكانت سبع انتفاضات:

• كان أولها سنة ٧٢٥م في الوجه البحري، في حكم هشام بن عبد الملك الخليفة الأموي، وولاية الحر بن يوسف على مصر (٧٢٤- ٧٢٧م) فقُتل منهم نفر كثير.

• وفي الصَّعيد ثار الأقباط وحاربوا عمال الحكومة في سنة ١٢١هـ/ ٧٣٩م فقتل منهم عدد كبير.

• وفي سنة ٧٥٠م خرج ثائر من سمنود يُدعى يحنس فقُتل هو وكل أصحابه. وقامت ثورة من الأقباط في رشيد في نفس السَّنة، فهزموا.

• ثم قامت ثورة البشموريين لم يستطع مروان بن محمد أن يقضي عليها، إذ سرعان ما هاجمه العباسيون وقضوا عليه. فلما قامت دولة العباسيين في مصر تفاءل الأقباط خيراً، وخمدت ثورة البشموريين من أجل

٤٨ـ المقريزي، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، الجزء الثاني، ص ٤٩٢

ذلك، إلاّ أن الابتزاز المالي عاد إلى ما كان عليه أيام الأمويين، بل فاق العهد السابق، فلم تمض ثلاث سنوات على قيام الدَّولة العباسيَّة بمصر حتى ضوعف الخراج على الأقباط، ولم يتم ما وُعدوا به من التخفيف عنهم.

• فثار الأقباط في سمنود في سنة ٧٥٣م بقيادة مينا فقُتلوا مع زعيمهم.

• ثم ثار الأقباط في سخا سنة ٧٦٧م، وانضم إليهم أهل البشرود (أو البشمور) وبعض جهات الوجه البحري، ولكن العرب انهزموا أمام القبط هذه المرَّة، وفي سنة ٧٧٣م أرسل إليهم الوالي جيشاً هزمهم.

• وكانت آخر ثورة للأقباط سنة ٨٣١م في خلافة الخليفة المأمون العباسي (٨١٣- ٨٣٣م)، إذ ثار أهل الوجه البحري كلهم سواء في ذلك العرب أو القبط، وتزعم البشموريون الثورة، مما اضطر الخليفة المأمون أن يأتي إلى مصر، وحاول الخليفة أن يخمد ثورة البشموريين باللين فلم يفلح فسار إليهم بجيشه وهزمهم وأعمل فيهم السَّيف وأحرق كنائسهم.

لقد زادت ثورات القبط في أواخر عهد الدَّولة الأمويَّة، وكلما تقدَّم الزَّمن كانت تفصيلات الاضطهاد والتَّعذيب تتَّضح أكثر فأكثر لدى المقريزي الذي فطن إلى أن الحكام العرب كانوا يتمادون في فرض الضَّرائب، ليس على الشَّعب القبطي فقط، كما كان يفعل بعض الأوائل من دهاة السياسيين، بل كانوا يفرضون على الكنيسة ورجالها ورهبانها إتاوات متزايدة؛ بل يقبضون عليهم ويعذبونهم، كما حدث في زمن مروان بن محمد آخر الخلفاء الأمويين حينما قبض على بطريرك الإسكندريَّة، ووضع رجليه في مقطرة من الحديد، ونتف شعر لحيته، مما جعل موقف الكنيسة يختلف في تلك الفترات عنه في أيام المحاباة الأولى[٤٩].

---

٤٩ ـ سناء المصري، هوامش الفتح العربي، مرجع سابق، ص ١٥٤

ويذكر المقريزي أنه بعد ثورة البشموريين آخر ثورة للأقباط في عهد الولاة، أصبح المسلمون أغلبيَّة في مصر، وعلى الأخص في الوجه البحري إذ يظهر أن عدداً كبيراً من الأقباط أسلم في ذلك الوقت.

إن ثورات الأقباط كان يُقضى عليها سريعاً، وكان يتبع إخمادها في العادة تحوُّل عدد كبير من الأقباط إلى الدِّين الإسلامي. ولم تكن هذه الثورات حركات قوميَّة بالمعنى الصَّحيح، وإنما كانت حركات غير منظَّمة، لم يعرف فيها القبط كيف يوحِّدون أنفسهم، وكيف يتَّخذون لهم قيادة حكيمة، وكان هدفها خفض الضَّرائب أو الهرب من دفعها. ومنذ سنة ٢١٧هـ/ ٨٣٢م أصبح الأقباط أقليَّة في مصر[٥٠].

ولقد لخَّص عميد الأدب العربي الدكتور طه حسين الفترة ما بين دخول العرب مصر وقيام الدَّولة الطولونيَّة بقوله: "... والتَّاريخ يحدِّثنا كذلك بأن رضاها (أي مصر) عن السُّلطان العربي بعد الفتح لم يبدأ من السَّخط، ولم يخلص من المقاومة والثَّورة، وبأنها لم تهدأ ولم تطمئن إلاَّ حين أخذت تسترد شخصيَّتها المستقلَّة في ظل ابن طولون، وفي ظل الدُّول المختلفة التي قامت بعده[٥١]".

كيف اختلط العرب بالمصريِّين

لزمن طويل ظلَّت العُزلة بين العرب والقبط قائمة فيما يشبه الانفصال الاجتماعي، ويمكن أن نسمي التَّماس بينهما في الفترة الأولى تماس السَّطح والقاع، أو تماس الحاكم والمحكوم، وما ينطوي عليه من عسف جانب وخضوع الآخر، دون أن يمتص أحدهما أو يحويه تحت

٥٠ـ د. سيدة إسماعيل كاشف، مصر في فجر الإسلام، مرجع سابق، ص ٢٤٠ وما قبله.
٥١ـ د. طه حسين، مستقبل الثقافة في مصر، مرجع سابق، ص ٢٣

جناحه لأكثر من ثلاثة قرون[٥٢].

لقد هاجر كثير من القبائل العربيَّة إلى مصر، واختلط العرب بأهل وادي النِّيل، ثم تحوَّل الحُكم في العالم الإسلامي إلى مُلك استبدادي يعتمد على الفُرس ثم الأتراك، وكان كل ذلك مؤدِّياً إلى ضياع هيبة العرب الحاكمين، وإلى اندماجهم في سلك المحكومين[٥٣].

كان العرب الذين استقروا في مصر ومعظمهم من اليمنيَّة (جنوب الجزيرة العربيَّة) يقيمون في الفُسطاط أو الجيزة أو الإسكندريَّة. وقد حرَّم عليهم عمرو بن الخطاب الاشتغال بالزِّراعة أو امتلاك الأرض، فلم يكن يعنيهم سوى السِّياسة والحُكم والحرب، ولذا لم يختلط العرب بالمصريين في البداية، ولم يكن لهم تأثير يُذكر على القبط سواء أكان هذا التَّأثير من ناحية انتشار الدِّين الإسلامي أو اللُّغة العربيَّة. وكان اختلاط القبائل العربيَّة بأهل مصر عن طريق التَّزاوج أو الولاء نادراً في أوَّل الأمر، وكان العرب أقليَّة ضئيلة في مصر في ذلك العهد.

على أن أغلب الولاة الذين حكموا مصر في فجر الإسلام كانوا يصحبون معهم جيوشاً عربيَّة حتى نهاية العصر الأموي، أو جيوشاً من العرب والشُّعوب الأخرى كالخرسانيين والأتراك في العصر العباسي. فكانت القبائل العربيَّة تفد باستمرار إلى مصر إما مع الولاة أو يبعث بها الخلفاء لتعزيز الجُند واستيطان البلاد، ولذا نرى أن عدد الجند في مصر أيام معاوية بن أبي سفيان بلغ أربعين ألفاً.

وفي سنة ١٠٩هـ/٧٢٧م وفي خلافة هشام بن عبد الملك وولاية

٥٢ـ سناء المصري، هوامش الفتح العربي لمصر، مرجع سابق، ص ١٦٦

٥٣ـ نفس المرجع، ص ٣٤٣، ٣٤٦

عبيد الله بن الحبحاب وفد إلي مصر عرب قيس (شمال الجزيرة العربيَّة)، حيث تم ترحيل ثلاثة آلاف منهم، وتحويل ديوانهم إلى مصر. ولم يترلوا في الفُسطاط بل نزلوا في الحوف الشَّرقي. ولم يكن في مصر حتى ذلك الوقت سوى عدد قليل منهم. فترل عرب قيس إلى مصر وأخذوا يشتغلون بالزِّراعة فيها لأوَّل مرَّة. أي أن العرب في زمن الخليفة هشام بن عبد الملك أخذوا يتخلّون عن السِّياسة التي اتبعوها منذ الفتح، وهي سياسة الترفُّع عن الاختلاط بالأهالي وعن الاشتغال بالزِّراعة. وقد وافق قدوم هذه البطون القيسيَّة إلى مصر سنة ١٠٩هـ/ ٧٢٧م قيام ثورات الأقباط التي بدأت في سنة ١٠٧هـ/ ٧٢٥م. وربما يكون الخليفة قد أراد بنقل هذه البطون إلى مصر والسَّماح لهم بالاشتغال بالزِّراعة أن يتقوَّى المسلمون بالعرب ضد الأقباط الذين بدأوا ثوراتهم، أو أن يحل العرب محل من يموت من الأقباط في هذه الثَّورات، أو من يهجر أرضه. وكان لهذا الاختلاط أثره في انتشار الإسلام بمصر نتيجة للتَّزاوج أو للموالاة بينهم وبين أهالي البلاد. ولذا يقول المقريزي: "ولم ينتشر الإسلام في قرى مصر إلاَّ بعد المائة من تاريخ الهجرة عندما أنزل عبيد الله بن الحبحاب مولى سلول قيساً بالحوف الشَّرقي. فلما كان بالمائة الثَّانية من سني الهجرة كثر انتشار المسلمين بقرى مصر ونواحيها".

وأخذت القبائل العربيَّة بعد ذلك تفد إلى مصر وتستقر في القرى المصريَّة. ويذكر المؤرِّخون أنه في زمن مروان بن محمد عندما ولي الحوثرة ابن سهيل الباهلي مصر (٧٤٦- ٧٤٩م) مالت إليهم بطون قيس، فمات مروان وبها ثلاثة آلاف أسرة منهم، ثم توالدوا وقدم عليهم من البادية كثير من ذوي قرباهم.

لقد وفد كثير من العرب إلى مصر في خلافة المتوكِّل العباسي

(٨٤٧- ٨٦١م) بعد سنة ٢٤٠هـ/ ٨٥٤م، وانتشروا في أنحائها، ونزلت طائفة منهم بأعالي الصَّعيد. على أن ازدياد القبائل العربيَّة بمصر سبَّبت كثيراً من الاضطرابات فيها، فمن منازعات قبليَّة بين القيسيَّة واليمنيَّة، ومن منازعات بين العرب وأهالي البلاد الأصليين، فضلاً عن أن العرب بمصر كثيراً ما كانوا يشتركون في المشاكل التي قامت حول الخلافة. وبقدر زيادة عددهم في مصر بقدر ما كانت تزيد مشاكلهم واضطراباتهم فيها.

كذلك لما أصبح للعرب في مصر حق امتلاك الأرض وزراعتها، وجب عليهم دفع الخراج، فكان ذلك سبباً لبعض الثّورات. وقد بدأ العرب في مصر يشتغلون بالزِّراعة في أواخر العصر الأموي، وقامت ثوراتهم بسبب الخراج في العهد العباسي. وكانت آخر ثورات العرب بمصر بسبب الخراج تلك التي قامت في سنة ٢١٦هـ/ ٨٣١م في ولاية عيسى بن منصور والتي اشترك فيها العرب مع الأقباط وانتهت بقدوم المأمون إلى مصر لإخضاعها.

وهكذا أصبح المسلمون أغلبيَّة في مصر منذ أوائل القرن الثّالث الهجري/ التَّاسع الميلادي، أي بعد أقل من قرنين من الزَّمان بعد فتحها على يد عمرو بن العاص[٥٤].

وكان العرب إلى عهد الخليفة المعتصم (٨٣٣- ٨٤٢م) يتمتَّعون بامتيازات خاصة عن الأقباط الذين أسلموا، فكانوا يأخذون العطاء، بينما يُحرم منه أهل البلاد الذين يعتنقون الإسلام. وكثيراً ما كان أهل البلاد يشعرون بأنهم دون العرب مهما أسلموا.

وتم اندماج العرب بالمصريين زمن الخليفة المعتصم العباسي إذ كانت

٥٤- د. سيدة إسماعيل كاشف، مصر الإسلامية وأهل الذمة، مرجع سابق، ص ٢٧

سياسة هذا الخليفة منذ كان والياً تنطوي على الاعتماد على الأتراك وعدم الثّقة بالعرب أو الفُرس. فلما بويع بالخلافة أرسل إلى مصر كيدر نصر بن عبد الله (٨٣١- ٨٣٤م) يأمره بإسقاط من في الديوان من العرب وقطع أعطيتهم فتم ذلك. ويظهر أن الاختلاط في ذلك الوقت كان قد عظم بين العرب وبين أهل البلاد، بدليل أن قرار المعتصم بصرفهم عن ديوان الجند لم يكن له رد فعل عنيف.

ونلاحظ أن العرب في مصر احتفظوا بالانتساب لقبائلهم حوالي قرنين من الزَّمان، فنرى في معظم شواهد القبور التي اكتُشفت حديثاً في مقابر أسوان والفُسطاط أن اسم الميت يُتبع باسم قبيلته في خلال القرنين الأوَّلين للهجرة، ولكن في خلال القرن الثّالث الهجري/ التَّاسع الميلادي، نجد أن اسم القبيلة قد حل محلّها اسم الجهة أو الإقليم الذي ينتسب إليه المتوفى، فيكتب فلان الكوفي أو المصري ... الخ.

وهذا يدل على أنه في القرن الثّالث الهجري أصبح العرب في مصر لا يتميَّزون عن أهل البلاد. ولم يكن هناك بعد قرار المعتصم ما يُحسد عليه العرب من نسل الفاتحين. إذ أنه بعد ما فقد العرب مركزهم السَّامي في الدَّولة الإسلاميَّة، اضطروا إلى الانتشار في الرِّيف والاختلاط بالمصريين والتَّزوج ببناتهم والاشتغال بالزِّراعة والصِّناعة والتِّجارة، وغير ذلك من الأعمال التي كانوا يترفّعون عن الاشتغال بها من قبل. فكان هذا العمل الذي قام به المعتصم ضد العرب مما أفاد الإسلام في مصر وساعد على انتشاره بين المصريين كما كان له أكبر الأثر في انتشار اللُّغة العربيَّة بمصر وقضائها على اللُّغة القبطيَّة.

ولقد اختلط النَّصارى بالمسلمين عن طريق اتّخاذ الخلفاء جواري نصرانيَّات، وقد تكون الجارية تلبس الصَّليب والزّنار، فكان للخليفة

المهدي جارية نصرانيَّة تعلّق في عنقها صليباً من ذهب[٥٥].

وتقول الدكتورة سيدة إسماعيل كاشف: ولا ريب أن انتشار اللُّغة العربيَّة في مصر ميزة للعرب على غيرهم من الفاتحين، فإن الشُّعوب المختلفة التي توالت على مصر قبل العرب أو بعدهم لم تستطع القضاء على لغة المصريين، فقد كانت اللُّغة اليونانيَّة قبل الفتح العربي واللُّغة التركيَّة في العهد العثماني لغة البلاد الرَّسميَّة، ولكن هذا لم يجعلها لغة الشَّعب المصري، برغم أن الحُكم التُّركي دام عدَّة قرون. فكيف ترك الفلاَّح المصري لغته القبطيَّة ليتكلَّم العربيَّة؟ هذه ظاهرة تستحق إمعان النَّظر، لأن تنازل شعب عريق في المدنيَّة كالشَّعب المصري، عن لغته، واتخاذه لغة شعب لا يوازيه في الحضارة أمر غير عادي[٥٦].

تعقيب

استطاعت الحضارة اليونانيَّة أن تفرض لغتها اليونانيَّة على كل أرجاء المعمورة، حتى بات كل من لا يعرف اليونانيَّة بربرياً في ذلك الوقت، وكانت مصر واحدة من تلك البلاد التي سادت فيها اليونانيَّة. فقد قبلت الكنيسة القبطيَّة الكرازة بالمسيح باللُّغة اليونانيَّة، وأوَّل إنجيل دُوِّن في الكنيسة الجامعة، وهو إنجيل القدِّيس مرقس الذي بشَّر مصر بالمسيحيَّة كان مدوَّناً باليونانيَّة، وكانت كل صلوات الكنيسة وليتورجيَّتها ومعظم كتاباتها الإيمانيَّة ودفاعاتها اللاهوتيَّة في الخمسة قرون الأولى مدوَّنة باليونانيَّة. وكانت كنيسة الإسكندريَّة هي المرجع الأوَّل لكنائس الشَّرق، وصار بطريرك الكنيسة القبطيَّة هو قاضي المسكونة، ولم يكن ذلك ممكناً لولا تمكُّن الأقباط من اللُّغة اليونانيَّة التي كانت لغة الحضارة آنئذ. ومنذ القرن

٥٥ـ رواية الطبري، في كتابه تاريخ الأمم والملوك، انظر د. ناريمان عبد الكريم، معاملة غير المسلمين في الدولة الإسلامية، مرجع سابق، ص ١٦٠

٥٦ـ د. سيدة إسماعيل كاشف، مصر في فجر الإسلام، مرجع سابق، ص ٢٤٨ وما بعده، ٣٤٧

الثَّاني الميلادي دُوِّنت اللُّغة القبطيَّة لأوَّل مرَّة بحروف يونانيَّة ليسهل كتابتها.

ثم أن اللُّغة اليونانيَّة في غضون ثلاثة قرون صارت هي لغة الكنيسة الرَّسميَّة، ولغة التَّفاهم في الحياة اليوميَّة - باستثناء معظم صعيد مصر الذي كان لازال يتكلَّم ويصلِّي بالقبطيَّة - بينما لم تستطع اللُّغة العربيَّة أن تدخل إلى داخل الكنيسة لتكون واحدة من لغات صلواتها إلاَّ في القرن الثَّاني عشر، وظلَّ أهل الصَّعيد يتكلَّمون القبطيَّة كلغة تخاطب يوميَّة حتى القرن السَّابع عشر.

وبرغم أن الكنيسة القبطيَّة لم تر في أي لغة أخرى غير القبطيَّة لغتها الوطنيَّة، إلاَّ أنها لم تستنكف أبداً من استخدام لغة العصر أياً كانت إلى جانب القبطيَّة، لتواكب مسيرة الحياة. فالتمسُّك باللُّغة القبطيَّة لا يعني التَّفريط في اليونانيَّة أو العربيَّة أو غيرها من اللُّغات. لأن تمسُّك الكنيسة بلغتها الوطنيَّة لم يكن بدافع من تعصُّب بغيض، بل اقتناعاً أن لغتها الوطنيَّة هي التي تصل ماضيها بحاضرها، لأنه لو انفصم هذا الرِّباط، يضيع من الكنيسة تراث لا يمكن تعويضه، وضمانة صونه هي اللُّغة القبطيَّة، تلك التي دُوِّنت بها مخطوطات الكنيسة وكتاباتها وليتورجيَّتها وكل إيمانها بدءاً من القرن السَّادس الميلادي، بعد اندحار اليونانيَّة وكل ما يمت بصلة إلى الكنيسة اليونانيَّة أي البيزنطيَّة. ولكن إزاء اضطهاد عنيف للُّغة القبطيَّة، اضطهاد لاحق الأقباط حتى في داخل بيوتهم، تخلى الأقباط مجبرين - بعد صراع مرير - عن لغتهم الوطنيَّة كلغة تخاطب يوميَّة.

ولكن الدكتورة سيدة كاشف تقفز قفزة واسعة وتتخطى أحداثاً جساما، لتقول في النهاية: كانت مصر إحدى الأمم القليلة التي تخلَّت نهائياً عن ماضيها الوطني وعن لغتها القديمة ورمت بنفسها في أحضان الإسلام والمدنيَّة الإسلاميَّة، فلم يقض فتح العرب لإيران والهند على لغتهما القوميَّة

ولم يقض على العقائد الدِّينيَّة التي وجدت فيهما قبل الفتح قضاءً تاماً. ولم يمنع اعتناق الأتراك للدِّين الإسلامي من الاحتفاظ بلغتهم القوميَّة(٥٧).

وبمرور الأيام وتوطيد دعائم الحُكم العربي، كانت الحلقة تضيق حول وضع الأقباط المصريين، ولم يعد التَّقسيم الأوَّل بين كونهم أهل ذمَّة يدفعون الجزية والخراج ويعيشون في أماكنهم بعيداً عن العرب، حامياً لهم؛ بل تعرَّضوا لضيق حلقة العُزلة من حولهم رويداً رويداً، وأخذ ضعف الكنيسة يتَّضح أكثر فأكثر. فدفع هذا الحصار الكنائس والرُّهبان إلى المزيد من الجمود والانغلاق، والدُّخول في ظلاميَّة القرون الوسطى(٥٨).

نهاية عصر الولاة

ينتهي عصر الولاة في زمن البابا شنوده الأوَّل (٨٥٩- ٨٦٩م). ولما كان جعفر هو الخليفة المتوكِّل يومئذ، ثار عليه ابنه محمد، والذي لُقِّب بـ "المنتصر" وغلبه، وأخذ مملكته، فلما وُلي عزل جميع الولاة الذين كانوا في زمان أبيه، وأنفذ إلى مصر إنساناً يُعرف بأحمد بن محمد، وكان رجلاً شديداً صعباً في أفعاله مخوفاً عند كل أحد، أذاق أهل مصر صعوبة وبلايا. وفي ذلك يقول كتاب سيَر البيعة المقدَّسة ما نصه:

"وعند وصوله الى مصر وضع يده على كل المسلمين والنصارى واليهود، واضعف عليهم الخراج ... وانفذ الى الديارات (الأديرة) بكل موضع واحصى الرهبان التي فيها وطالبهم بالجزية والخراج عن الحشيش الذي في البهلس، وعن النخل والشجر المثمرة المغروسة في بيوتهم ... وامر ان تغلق البيع التي بها (أي بمصر) ولا يمكنوهم من القربان الا في بيعة

٥٧ـ نفس المرجع، ص ٢٦١ وما قبله.
٥٨ـ سناء المصري، هوامش الفتح العربي لمصر، مرجع سابق، ص ١٥٤

واحدة ... (وكان) ياخذ مال البيع والاساقفة والديارة للديوان، فلما قرر هذا في ديار مصر ضاقت البيع وحزنوا الاساقفة ... [٥٩]".

ومات المنتصر قاتل أبيه، ولم يدم ملكه سوى ستة شهور، وملك بعده أحمد "المستعين" وكان رجلاً صالحاً خيِّراً كما شُهد عنه، وفعل خيراً في أيامه في أرض مصر[٦٠]. أنفذ والياً على مصر رفع الخراج والجزية عن الرُّهبان، فعظمت مسرَّة الأب البطريرك. ولكن سرعان ما ظهر نصراني اسمه يعقوب يسميه كتاب سيَر البيعة المقدَّسة "شيخٍ غير نصراني ولا مستحق ان يسما يعقوب[٦١]"، فهذا الرَّجل صادق قوماً من اليهود، ومضى إلى الوالي برقاع كتبها ضد الأب البطريرك والبيع مملوءة نميمة وكذباً، لكي يستخرج السُّلطان من الكنيسة كل سنة مائة ألف دينار... الخ، وكانت النتيجة: "كانوا الابا الاساقفة من شدة الخوف يتزايوا بزي العلمانيين، ويغيروا لباسهم ويمشوا رجالة بغير دواب حتى يمضوا الى البيع التي يريدوها[٦٢]".

وشماس آخر من أعمال البشمور، كان قد لبس لباس الرُّهبان، ثم خلعه، وإذ أراد الكهنوت ولم يُجَب لطلبه، وشى بالبطريرك عند الوالي، فكتب له هذا الأخير سجلاً بالقبض على الأساقفة، وترحيلهم إلى مصر، "وكان اذا قبض على احدهم يشهره، لانه كان يترع عنه الثياب، ويلبسه غيرها، ولا يدع عليه من لباسه الا القلنسوة الذي يلبسوها الرهبان، ويُركبهم الدواب بغير سروج، ويهزوا بهم قدام اهل البلاد[٦٣] ".

٥٩ـ سير البيعة المقدسة، المجلد الثاني، الجزء الأول، مرجع سابق، ص ٢٤
٦٠ـ نفس المرجع، ص ٣١
٦١ـ نفس المرجع، ص ٤٧
٦٢ـ نفس المرجع، ص ٤٨
٦٣ـ نفس المرجع، ص ٥١

وطُرح البابا شنودة الأوَّل في السِّجن مع اللُّصوص والقتلــة، فنالــه تعب عظيم، وسمع أخباره جميع النَّاس النَّصارى والمسلمين.

جدول بأسماء الخلفاء والولاة ومعاصريهم من بطاركة الكنيسة القبطيَّة[٦٤]

السَّنة	الخليفة	الوالي	البطريك
٢٠هـ/ ٦٤١م	عمر بن الخطاب	عمرو بن العاص	البابا بنيامين
٢٣هـ/ ٦٤٤م	عثمان بن عفان		
٢٤/ ٦٤٥م		عبد الله بن سعد	
٣٥/ ٦٥٥م	علي بن أبي طالب	انتزاء محمد بن أبي حذيفة ١	
٣٧/ ٦٥٧م		قيس بن سعد	
		الأشتر مالك	
		محمد بن أبي بكر	
		عمرو بن العاص (٢)	
٤٠/ ٦٦٠م	معاوية		
٤١/ ٦٦١م		عتبة بن أبي سفيان	البابا أغاثون
٤٤/ ٦٦٤م		عقبة بن عامر	
٤٧/ ٦٦٧م		مسلمة بن مخلد	
٥٩/ ٦٧٩م			البابا يوحنا الثَّالث
٦٠/ ٦٨٠م	يزيد الأوَّل		
٦٢/ ٦٨٢م		سعيد بن يزيد	
٦٤/ ٦٨٤م	(عبد الله بن الزبير)	عبد الرحمن بن عتبة	
	مروان الأوَّل		
٦٥/ ٦٨٥م		عبد العزيز بن مروان	

٦٤ ـ د. سيدة إسماعيل كاشف، مصر في فجر الإسلام، مرجع سابق، ص ٣٦٨ ـ ٣٨٥

السّنة	الخليفة	الوالي	البطريك
٦٦/ ٦٨٦م	عبد الملك بن مروان		
٦٧/ ٦٨٦م			البابا اسحاق
٧٠/٦٨٩م			البابا سيمون الأوّل
٨٦/ ٧٠٥م			الكسندروس الثّاني
٨٧/ ٧٠٦م		عبد الله بن عبد الملك	
٨٨/ ٧٠٧م	الوليد بن عبد الملك		
٩٠/ ٧٠٩م		قرة بن شريك	
٩٦/ ٧١٥م	سليمان بن عبد الملك	عبد الملك بن رفاعة	
٩٩/ ٧١٨م	عمر بن عبد العزيز	أيوب بن شرحيل	
١٠١/ ٧١٩م	يزيد بن عبد الملك	بشر بن صفوان	
١٠٢/ ٧٢٠م		حنظلة بن صفوان	
١٠٥/ ٧٢٣م	هشام بن عبد الملك		
١٠٦/ ٧٢٤م		محمد بن عبد الملك	
		الحر بن يوسف	
١٠٨/ ٧٢٦م		حفص بن الوليد	
١٠٩/ ٧٢٧م		عبد الملك بن رفاعة ٢	
		الوليد بن رفاعة	
١١٢/ ٧٣٠م			البابا قسما الأوّل
١١٣/ ٧٣١م			البابا تاودوروس
١١٧/ ٧٣٥م		عبد الرحمن بن خالد	
١١٩/ ٧٣٧م		حنظلة بن صفوان٢	
١٢٥/ ٧٤٣م		حفص بن الوليد٢	
١٢٦/ ٧٤٤م	يزيد بن الوليد		البابا ميخائيل الأوّل
	إبراهيم بن الوليد		
١٢٧/ ٧٤٥م	مروان بن محمد	حسان بن عتاهية	
		حفص بن الوليد٣	

السَّنة	الخليفة	الوالي	البطريرك
١٢٨/ ٧٤٦م		الحوثرة بن سهيل	
١٣١/ ٧٤٩م		المغيرة بن عبيد الله	
١٣٢/ ٧٥٠م		عبد الملك بن مروان	
١٣٣/ ٧٥١م	السفَّاح	صالح بن علي	
		أبو عون عبد الملك	
١٣٦/ ٧٥٣م	المنصور	صالح بن علي٢	
١٣٧/ ٧٥٤م		أبو عون ٢	
١٤١/ ٧٥٨م		موسى بن كعب	
١٤٢/ ٧٥٩م		محمد بن الأشعث	
١٤٣/ ٧٦٠م		حميد بن قحطبة	
١٥٠/ ٧٦٧م		يزيد بن حاتم	البابا مينا
١٥٢/ ٧٦٩م		عبد الله بن عبد الرحمن	
١٥٦/ ٧٧٣م		محمد بن عبد الرحمن	
١٥٧/ ٧٧٤م		موسى بن علي	البابا يؤانس الرَّابع
١٥٨/ ٧٧٥م	المهدي		
١٦١/ ٧٧٨م		عيسى بن لقمان	
١٦٢/ ٧٧٩م		واضح مولى أبي جعفر	
		منصور بن يزيد	
		يحيى بن داود	
١٦٤/ ٧٨١م		سالم بن سوادة	
١٦٥/ ٧٨٢م		إبراهيم بن صالح	
١٦٧/ ٧٨٤م		موسى بن مصعب	
١٦٨/ ٧٨٥م		عسامة بن عمرو	
١٦٩/ ٧٨٦م	الهادي	الفضل بن صالح	
		علي بن سليمان	
١٧٠/ ٧٨٧م	هارون الرَّشيد		
١٧١/ ٧٨٧م		موسى بن عيسى	

السَّنة	الخليفة	الوالي	البطريرك
١٧٢/ ٧٨٨م		مسلمة بن يحيي	
١٧٣/ ٧٨٩م		مُحمد بن زهير	
١٧٤/ ٧٩٠م		داوود بن يزيد	
١٧٥/ ٧٩١م		موسى بن عيسى٢	
١٧٦/ ٧٩٢م		عمر بن مهران١	
		إبراهيم بن صالح٢	
		عبد الله بن المسيب	
١٧٧/ ٧٩٣م		اسحاق بن سليمان	
١٧٨/ ٧٩٤م		هرثمة بن أعين	
		عبد الملك بن صالح	
١٧٩/ ٧٩٥م		عبيد الله بن المهدي	
		موسى بن عيسى٣	
١٨٠/ ٧٩٦م		عبيد الله بن المهدي٢	
١٨١/ ٧٩٧م		إسماعيل بن صالح	
١٨٢/ ٧٩٨م		إسماعيل بن عيسى	
		الليث بن الفضل	
١٨٣/ ٧٩٩م			البابا مرقس الثّالث
١٨٧/ ٨٠٣م		أحمد بن إسماعيل	
١٨٩/ ٨٠٥م		عبد الله بن محمد	
١٩٠/ ٨٠٦م		الحسين بن جميل	
١٩٢/ ٨٠٨م		مالك بن دلهم	
١٩٣/ ٨٠٩م	الأمين	الحسن بن التخاخ	
١٩٥/ ٨١١م		جابر بن الأشعث	
١٩٧/ ٨١٣م	المأمون	عباد بن محمد	
١٩٨/ ٨١٥م		المطلب بن عبد الله	
		العباس بن موسى	
١٩٩/ ٨١٥م		المطلب بن عبد الله٢	

السَّنة	الخليفة	الوالي	البطريرك
٢٠٠/ ٨١٦م		السري بن الحكم	
٢٠١/ ٨١٦م		سليمان بن غالب	
		السري بن الحكم٢	
٢٠٥/ ٨٢٠م		أبو نصر بن السِّري	
٢٠٦/ ٨٢١م		عبيد الله بن السِّري	
٢١١/ ٨٢٦م		عبد الله بن طاهر	
٢١٢/ ٨٢٧م		عبد الله بن طاهر	
		عيسى بن يزيد	
٢١٣/ ٨٢٨م		المعتصم	
		عيسى بن يزيد	
٢١٤/ ٨٢٩م		عمير بن الوليد	
		عيسى بن يزيد٢	
٢١٥/ ٨٣٠م		عبدويه بن جبلة	البابا سيمون
٢١٦/ ٨٣١م		عيسى بن منصور	البابا يوساب الأوَّل
٢١٧/ ٨٣٢م	المأمون	كيدر نصر	
٢١٨/ ٨٣٣م	المعتصم		
٢١٩/ ٨٣٤م		المظفر بن كيدر	
		أشناس	
		موسى بن أبي العباس	
٢٢٤/ ٨٣٩م		مالك بن كيدر	
٢٢٦/ ٨٤١م		علي بن يحيى	
٢٢٧/ ٨٤٢م	الواثق		
٢٢٨/ ٨٤٣م		عيسى بن منصور٢	
٢٣٠/ ٨٤٥م		إيتاخ	
٢٣٣/ ٨٤٨م	المتوكّل	هرثمة بن النضر	
٢٣٤/ ٨٤٩م		حاتم بن هرثمة	
		علي بن يحيى ٢	

السَّنة	الخليفة	الوالي	البطريرك
٢٣٥/ ٨٥٠م		المنتصر	البابا خائيل الثَّاني
		إسحاق بن يحيي	
٢٣٦/ ٨٥١م		خوط عبد الواحد	
٢٣٧/ ٨٥١م			البابا قسما الثَّاني
٢٣٨/ ٨٥٢م		عنبسة بن إسحاق	
٢٤٢/ ٨٥٦م		يزيد بن عبد الله	
٢٤٥/ ٨٥٩م			البابا شنوده الأوَّل
٢٤٧/ ٨٦١م	المنتصر		
٢٤٨/ ٨٦٢م	المستعين		
٢٥٢/ ٨٦٦م	المعتز		
٢٥٣/ ٨٦٧م		مزاحم بن خاقان	
٢٥٤/ ٨٦٨م		أحمد بن مزاحم	
		أزجور	



الفَصل السَّادس

كنيســـة مصـــر
في الدَّولتين الطُّولونيَّة والإخشيديَّة

أولاً: الدَّولة الطُّولونيَّة

منذ سنة ٨٦٨م خضعت مصر لحكم الطولونيين، إذ لما نُصِّب أحمد بن طولون (٨٦٨- ٨٨٣م) والياً على مصر من قِبَل الخليفة العباسي، تحدَّى سُلطة الخلافة التي كانت ضعيفة آنئذ، فأعلن استقلاله بمصر، ونجح في ضم سوريا إليها، وفي تأسِّيس دولة طولونيَّة دامت نحو ٣٨ عاماً.

وشيد مدينة "**القطائع**" سنة ٢٥٦هـ (٨٧٠م) شمال "العسكر" لتكون عاصمة للدَّولة الجديدة. وكانت هذه أوَّل مرَّة يستقل فيها والي مصر عن الخلافة في خارج مصر في العصر الإسلامي.

وحتى هذه الفترة التي يعتبرها المؤرِّخون أوَّل فترة استقلال لوالي مصر عن أي نفوذ خارجي من انتهاء العصر الفرعوني، كان يحكم فيها مصر غرباء ليسوا من بني وطنها. فأحمد بن طولون هو الجندي التِّركستاني الذي جاء أبوه إلى بغداد أسيراً، فلم يلبث الابن أن شبَّ في حرس البلاط العبَّاسي حيث تتهيأ الفرص أمام هؤلاء الجند المحظوظين لحكم الولايات الإسلاميَّة، وكانت مصر - أغنى الولايات وأعرقها - من نصيب أحمد، فاستقل بها عن دولة الخلافة، وأقام فيها إمبراطوريَّة وصلت حدودها إلى الأناضول[١].

---

١ ـ جمال بدوي، نظرات في تاريخ مصر، سلسلة تاريخ المصريين ٢٢، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٨م، ص ٩٠

وتولى خمارويه بن أحمد بن طولون (٨٨٣- ٨٩٥م) حكم البلاد[٢]، ولم يقوى خلفاؤه على الاحتفاظ باستقلالهم بمصر فعادت إلى حكم العباسيِّين مرَّة أخرى (٩٠٥- ٩٣٥م).

ولمع في القرن التَّاسع في عهد الدَّولة الطولونيَّة المهندس القبطي النابغة "ابن كاتب الفرغاني[٣]"، وهو الذي شيَّد الجامع الكبير المُسمى "جامع ابن طولون"، واستخدم في بنائه عامودين اثنين فقط، بدلاً من اقتراح المهندسين والخبراء الذين رأوا أن الجامع يحتاج في بنائه إلى ثلاثمائة عامود لا يسهل الحصول عليها إلاَّ بهدم عدد عظيم من الكنائس والمعابد القديمة. فلقد نقل العرب من المعابد والكنائس القديمة كثيراً من الأعمدة والتِّيجان، استخدموها في مساجدهم وبيوتهم كما يتجلَّى من وجود الأعمدة القبطيَّة في جامع عمرو[٤]. وأتم المهندس القبطي البناء في سنة ٢٥٦هـ (٨٧٠م)، وهو نفسه الذي قام ببناء مقياس النِّيل، وكذلك الصَّهريج المعروف بصهريج بن طولون.

ومنذ بداية القرن الرَّابع الهجري/ العاشر الميلادي تزايد دخول أعداد كبيرة من الأقباط في الإسلام، فبدأت أهميَّة الجزية تتضاءل بمرور الزَّمن، فبعدما كانت تمثل أحد مصادر الدَّخل الرَّئيسيَّة في صدر الإسلام، بدأ مقدارها يتناقص نتيجة لدخول أهل الذِّمة في الإسلام، لذلك أصبحت

٢- يحكي تاريخ البطاركة عن خمارويه أنه ذهب إلى وادي هبيب ودخل بيعة القدِّيس أبو مقار ونظر جسده المقدَّس، فأمر بحلِّه من كفنه، فمسك شعر لحيته، ففتح عينيه في وجهه، فوقع على ظهره، وأقام ساعة مغشياً عليه لا ينطق، فحملوه إلى خيمته وأخذوا من زيت قنديل أبو مقار فمسحوا به جبينه ... (المجلد الثَّاني الجزء الثَّاني ص ٧٧).

٣- من قرية تُدعى "فراغونيس" اندثرت معالمها، وكانت قريبة من مدينة كفر الشَّيخ الحالية.

٤- د. سيدة إسماعيل كاشف، مصر في فجر الإسلام، مرجع سابق، ص ٢٧٧

الجزية تُسمى فيما بعد "جوالي" وذلك في مستهل الدَّولة الفاطميَّة في مصر، وكان لها ديوان خاص بها عُرف بـ "ديوان الجوالي"(٥).

حالة الأقباط في الدَّولة الطُّولونيَّة

ومع ازدياد أعداد الدَّاخلين في الإسلام، أصبح القبط أقليَّة، إلاّ أنها كانت أقليَّة كبيرة العدد، حيث وُجدت جاليات كبيرة في مدينة الفُسطاط والقطائع، وكان لأعيان هذه الطَّائفة القبطيَّة مكانتهم الاجتماعيَّة في البلاد، وتشير أوراق البردي العربيَّة إلى ظاهرة الزَّواج بالذِّميَّات، وهذه الظَّاهرة شاعت في العصر الطُّولوني(٦).

وعاصر البابا خائيل الثَّالث (٨٨٠- ٨٩٤م) الدَّولة الطُّولونيَّة، وكان البابا البطريرك قد اجتمع مع أساقفته وحرموا أسقف سخا لمخالفات كنسيَّة(٧)، ويصفه كتاب سيَر البيعة المقدَّسة بالقول: "كان على كرسي سخا أسقف شرير"، وهذا مضى إلى أحمد بن طولون، وكان متغطرساً محباً لجمع المال، فشكا إليه البطريرك، ووشي به إليه أن لديه مالاً كثيراً. فأنفذ وأحضر البطريرك وخاطبه بالقول:

"أنت تعلم ما نحتاج اليه من الاموال برسم الحمل الى الخليفة ببغداد لأنه صاحب هذه الارض، وبخاصة لما عليه من الحروب، وانتم يا مقدمي النصارى تحت سلامه، وما تحتاجوا الى ذهب ولا فضة الا خبز تاكلوه وثوب تلبسوه، وقد عرفت ان لك مال كثير ... فسكت البطرك و لم

٥ـ د. ناريمان عبد الكريم، معاملة غير المسلمين في الدولة الإسلامية، مرجع سابق، ص ٥٥

٦ ـ نفس المرجع، ص ١٦٠

٧- لست أبغي من ذكر ذلك الحادث سوى الحوار الآتي ذكره، والذي دار بين البابا وأحمد بن طولون، والمظالم التي وقعت على البابا بعد ذلك، والتي كان سببها هو ذلك الحادث عينه.

يدري ماذا يجيبه، ثم قال له بسكينة وتواضع: ان مملكتكم ليس فيها ظلم، وانتم قوم تعرفون الحق، وانا انسان ضعيف لا املك ذهبا ولا فضة ولا شيا مما سعي به اليك، وعظمتك تعلم انا قوم مامورين ان لا نكتز كنوزا على الارض ولا نهتم بغد ... فلما سمع احمد ابن طولون ذلك غضب وقال حقا ان اكرامي لك اوجب انكارك على بمالك، وكلمن هو خارج عن ديننا اذا اكرم لا يعرف الاكرام. ثم امر بحبسه[٨]".

وظل البطريرك محبوساً سنة كاملة، وفشلت كل المساعي لإطلاق سراحه، بل في ذات مرَّة حينما عُرض على بن طولون أمر البطريرك، والحال الذي وصل إليه الأقباط، وأنه قد مات جماعة من الأساقفة بإقليم مصر، ولم يقام عوضهم، وليس لهم صلاة في كنائسهم، ولا من يحكم في أمورهم، قال "انا اقتله فانه تجالد عليَّ!!". وأخيراً بوساطة أرخن مسيحي يُسمى يونس، وكان كاتباً لأحمد الماردانى وزير ابن طولون، ترجَّى وزيره أن يذكر البطريرك عند ابن طولون، وأخيراً أُطلق سراحه على أن يدفع عشرين ألف دينار!. وإذ لم يجد البطريرك ما يدفعه رسم الأساقفة بالسِّيمونيَّة، وجال يجمع المال من أنحاء البلاد، وباع كثيراً من أوقاف الكنائس، ومنذ هذا التَّاريخ بدأ أخذ المال من الأساقفة على الشَّرطونيَّة "ونقضوا بفعلهم هذا قانون الابا الحواريون[٩]". ومات ابن طولون وكان البطريرك حزيناً على ما انحل من قانون البيعة وعلى ما يأتي بعده على كرسيه من حال الشَّرطونيَّة[١٠]. فمع أحمد بن طولون وبسببه ظهرت السِّيمونيَّة في كنيسة مصر[١١].

٨ـ سير البيعة المقدسة، المجلد الثاني، الجزء الثاني، مرجع سابق ص ٧١

٩ـ نفس المرجع، ص ٧٣

١٠ـ نفس المرجع، ص ٧٦

١١ـ نفس المرجع، ص ١٥٤

عودة مصر للخلافة العباسيَّة

وبعد زوال الدَّولة الطُّولونيَّة عادت مصر تابعة للخلافة العباسيَّة في سنة ٢٩٢هـ/ ٩٠٥م وذلك على أثر سقوط الدَّولة الطُّولونيَّة على يد القائد العباسي محمد بن سليمان الكاتب. ولما دخل هذا القائد مدينة الفُسطاط دعا على المنابر للخليفة المكتفي بالله، وكتب إليه يبشِّره بفتح مصر.

حرق القطائع ونهب الفُسطاط

أمر محمد بن سليمان بإحراق القطائع فأُحرقت، وأطلق سراح المسجونين، ونهب جنده مدينة الفُسطاط، واستباحوا النِّساء وأتوا من الفظائع والمنكرات ما تقشعر له الأبدان. وذاق المصريون على يدي محمد بن سليمان الأمرَّين، ثم خرج من مصر في نفس السَّنة بعد أن قضى بها أربعة أشهر، بعد أن قضى على دولة الطُّولونيين، وأخرج معه كل من بقى فيها من أتباع بني طولون ومواليهم وكبار الموظفين في دولتهم، وحمل معه من الأموال والخيل والمنسوجات النَّفيسة والذَّهب وغير ذلك الشئ الكثير عدا مليوني دينار (نحو مليون جنيه)[١٢].

وتتابَع الولاة في ولاية مصر، وهم يتبعون الخليفة العباسي في بغداد. وتشدَّدوا في جباية الجزية من الأقباط. ففي سنة ٣١٢هـ/ ٩٢٤م كانت تؤخذ الجزية من الرُّهبان والأساقفة والضُّعفاء والمساكين، ومن جميع الدِّيارات بأسفل مصر والصَّعيد، ومن رهبان طور سيناء، وسافر قوم من الرُّهبان إلى العراق واستغاثوا بالمقتدر فكتب لهم ألا تؤخذ الجزية من

١٢ ـ انظر: د. سيدة إسماعيل كاشف، مصر في عصر الإخشيديين، مرجع سابق، ص ١٨

الرُّهبان ولا من الأساقفة، وأن يجري أمرهم على ما كانوا عليه[١٣].

ثانياً: الدَّولة الإخشيديَّة

تُنسب الدَّولة الإخشيديَّة (٩٣٤- ٩٦٨م) التي حكمت مصر نحو ٣٤ سنة إلى محمد بن طغج الإخشيد (٩٣٤- ٩٤٦م). والإخشيد هو اللّقب الذي منحه الخليفة العباسي الرَّاضي بالله لمحمد بن طغج في سنة ٩٣٨م. ولفظ الإخشيد يعني "ملك الملوك" بلغة إقليم فرغانة، وكان هو لقب ملوك هذه الأسرة[١٤]. ففي سنة ٩٣٤م تولى محمد الإخشيد ولاية مصر من الخليفة العباسي وسرعان ما استقل بمصر وأسَّس بعد قليل أسرة مستقلَّة هي الدَّولة الإخشيديَّة.

وحتى محمد بن طغج الإخشيد الذي سلك نفس الطَّريق الذي سلكه سلفه كان أجنبياً عن البلاد وليس من أهلها، وُلد في فرغانة من بلاد ما وراء النَّهر، وألقت به الريح إلى أرض الكنانة[١٥].

وقد خلفه في حكم مصر ابناه أبو القاسم أونوجور ثم أبو الحسن علي بن الإخشيد. وكان القائم بأمر مصر والمدبِّر الحقيقي لها في عهد كل من هذين الابنين هو العبد الحبشي الخصي أبو المسك كافور، الذي كان أبوهما قد اشتراه ثم أخذ يرتقي في مناصب الدَّولة حتى أصبح قائداً للجيش ومربياً لهما. وصارت له الوصايا عليهما، ثم أصبح بعد وفاقما الحاكم الفعلي والاسمي لمصر من سنة ٩٦٦- ٩٦٩م، تابعاً للعباسيين. وبموته يحكم

١٣ـ نفس المرجع، ص ٣٣٥
١٤ـ نفس المرجع، ص ٥٦
١٥ـ جمال بدوي، نفس المرجع السابق، ص ٩٠

أحمد الإخشيد حفيد مؤسِّس الأسرة، ولم يبلغ سن الرُّشد، فانتهزها الفاطميُّون فرصة لغزو مصر والاستيلاء عليها.

لما انقضت دولة الطُّولونيين رجعت مدينة "**العسكر**" إلى شأنها الأوَّل حيناً من الدَّهر، ثم قُضي عليها في أواخر القرن العاشر عندما جاء الفاطميُّون إلى مصر وبنوا لهم عاصمة جديدة وهي "مصر" (القاهرة). وقد أخذ أهل البندقيَّة الوصف (القاهرة) ولم يأخذوا اسم (مصر) ونقلوه محرَّفاً إلى لغات أوروبا وهو (كايرو - Cairo)[١٦].

حالة الأقباط في عصر الإخشيديِّين

في سنة ٣٢٢هـ/ ٩٣٤م انقسم المسيحيُّون على أنفسهم في تنيس انقساماً كبيراً، فقد مات أسقف تنيس وكان بينه وبين البطريرك[١٧] وحشة، فولى الأخير على تنيس أسقفاً من أنصاره من أهلها، يسمى ثاؤفيلس، ولكن أقباط تنيس انقسموا حزبين، أحدهم مع البطريرك والأسقف، والآخر عليهما، ووصل الخلاف إلى حد أن الأب لم يكن يكلم ابنه، ولا المرأة تخاطب بعلها، وانتشت الحرومات بينهم، وصارت القرابين تنتقل من هيكل إلى هيكل وتُكسر على المذابح، ويستعين كل فريق منهم على الآخر بالسُّلطان، فتدخَّل الإخشيد، وأرسل قائداً على رأس جماعة من الجند وقبض على البطريرك وعلى الأسقف ثاؤفيلس، وختمت الكنيسة، ومُنع النَّاس من الصَّلاة فيها وحُمل ما في خزائنها من الأموال والتُّحف إلى الإخشيد، ولم يأمر بإعادها إليهم إلاَّ بعد وساطة

١٦ـ د. ألفريد بتلر، فتح العرب لمصر، مرجع سابق، ص ٢٩٦

١٧ـ هو البابا مقاره الـ ٥٩ من باباوات الكرازة المرقسيَّة.

طائفة من وجوه القبط وكتابهم[١٨].

لقد كان الخلاف بين المسيحيين ينتهي إلى الأمير الإخشيد في بعض الحالات، فيفصل فيه بشئ من العنف، وقد ينتهز الفرصة فيعمل على أن ينال من أموال الكنائس أو كنوزها[١٩].

وكان في مصر على عهد الإخشيديين كثير من المسيحيين، أغلبهم من القبط الذين ظلّوا على دينهم، كما كان بها بضعة آلاف من اليهود. وكان لأهل الذّمة محاكمهم الكنسيَّة الخاصة بهم، وكانوا يدفعون الجزية كل بحسب الطّبقة التي ينتمي إليها. ولا نسمع في العصر الإخشيدي شيئاً عن التزام أهل الذّمة بالقوانين الخاصة بمخالفة هيئتهم هيئة المسلمين في اللّباس والرُّكوب. والرَّاجح أن القبط كانوا لا يزالون يحتفظون بلغتهم القبطيَّة، وأنهم لم يتركوها إلاّ حوالي أواخر القرن الرَّابع الهجري/ العاشر الميلادي[٢٠]. وقد تولى خراج مصر للدَّولة الإخشيديَّة الكاتب القبطي ابن عيسى بقطر بن شغا. فكان أهل الذّمة لازالوا يعملون في جباية الخراج من البلاد، بوصفها من الأعمال التي لم يكن ميسوراً أن يُستغنى عنهم في أدائها[٢١].

ولم يخل عصر الإخشيديين من التعصُّب الدِّيني، فكثيراً ما كانت تصادَر أموال الكنائس، وكان المسيحيُّون يُمنعون من ترميم كنائسهم القديمة إن لم يكن بأمر السُّلطان بسبب الدَّهماء، وكان بطاركة الكنيسة يُعاملون أحياناً معاملة غير إنسانيَّة، لا تتَّفق مع مركزهم الدِّيني.

إلاَّ أن العلاقات بين المسلمين وأهل الذّمة كانت طيِّبة في معظم

١٨ـ د. سيدة إسماعيل كاشف، مصر في عصر الإخشيديين، مرجع سابق، ص ٢٤٢
١٩ـ نفس المرجع، ص ٣٣٤
٢٠ـ نفس المرجع، ص ٢٣٩
٢١ـ نفس المرجع، ص ١٧٧

الأحيان. وكان الاضطهاد ينشأ حين يقصد المسلمون محاربة سيطرة أهل الذِّمة على الشؤون الماليَّة للبلاد، أو حين يحتج المسلمون على السَّماح للمسيحيين بتعمير الكنائس، أو حين ينتصر البيزنطيُّون على المسلمين في أطراف الشَّام.

ولقد تردَّت الحالة الرُّوحيَّة للأقباط في ذلك الوقت، شأنهم في ذلك شأن غيرهم من الطَّوائف. فقد كان البطريرك يدفع للإسكندرانيِّين ألف دينار كل سنة، وكانوا يأخذون عليه مكتوباً بخط يده يفيد ذلك حتى يوافقوا على رسامته. وإذا ضاق الأمر بواحد من البطاركة ولم يقدر أن يدفع المبلغ المحدد سنوياً، كانت النتيجة أحداثاً مؤسفة نغض الطرف عن ذكرها، والبابا ثاؤفانيوس (٩٥٣- ٩٥٦م) مثال لذلك[٢٢].

وفي نهاية عصر الإخشيديين اجتاحت البلاد موجة غلاء عظيم، "حتى ان كورة مصر خلت من الناس لكثرة الموت والجوع الذي كان ... وخربت عدة من كراسي الاساقفة لخلوها من الناس، ولم يقام لها اساقفة، بل اضيفت الى الكراسي العامرة المجاورة لها ...[٢٣]".

الأعياد القبطيَّة في عصر الإخشيديين

وكان الشَّعب في مصر الإخشيديَّة يحتفل بأعياد المسلمين وأعياد النَّصارى، فضلاً عن المناسبات التي تحتفل فيها الأسرات بأعيادها الخاصة. واشتهر عيد الغطاس آنذاك باحتفال الأقباط به احتفالاً كبيراً، فكان من التَّقاليد القديمة أن يركب صاحب شرطة الفُسطاط ليلة الغطاس في مركب كبير وتوقد بين يديه الشُّموع والمشاعل فيطوف الشَّوارع وينادي في

٢٢ـ سير البيعة المقدسة، المجلد الثاني، الجزء الثاني، مرجع سابق، ص ٨٣

٢٣ـ نفس المرجع، ص ٩٠

النَّاس ألاَّ يختلط المسلمون بالنَّصارى في تلك اللَّيلة، وألاَّ يكدِّروا عليهم عيدهم. وذلك أن النَّصارى في سَحَر تلك اللَّيلة يخرجون إلى شاطئ النِّيل ويغطسون فيه. وكانت بعض طوائفهم تخرج من كنيسة ميكائيل بقصر الشَّمع إلى شاطئ النِّيل في جمع وفير بالقراءة الملحَّنة والصُّلبان المشهورة، وتصلي، ويخطب الأسقف فيهم ويدعو للسُّلطان(٢٤).

وقد كتب المسعودي عن الاحتفال بليلة الغطاس بعد أن شاهده بعينه، قال: "ولليلة الغطاس بمصر شأن عظيم عند أهلها، لا ينام النَّاس فيها. وهي ليلة إحدى عشرة تمضي من طوبة وستة من كانون الثاني (٦ يناير) ولقد حضرت سنة ثلاثين وثلثمائة (٩٤٢م) ليلة الغطاس بمصر والإخشيد محمد بن طغج في داره المعروفة بالمختارة في الجزيرة الرَّاكبة للنِّيل، والنِّيل مطيف بها. وقد أمر فأسرج من جانب الجزيرة وجانب الفُسطاط ألف مشعل غير ما أسرج أهل مصر من المشاعل والشَّمع. وقد حضر النِّيل تلك الليلة مئات آلاف من النَّاس المسلمين والنَّصارى، منهم في الزَّوارق، ومنهم في الدور الدَّانية من النِّيل، ومنهم على الشُّطوط لا يتناكرون، ويحضرون كل ما يمكن إظهاره من المآكل والمشارب والملابس وآلات الذَّهب والفضَّة والجواهر والملاهي والعزف والقصف. وهي أحسن ليلة تكون بمصر وأشملها سروراً، ولا تُغلق فيها الدُّروب، ويغطس أكثرهم في النِّيل، ويزعمون أن ذلك أمان من المرض ومبرئ من الدَّاء(٢٥)".

وكان القبط - ولا زالوا - يحتفلون بعيد الميلاد في التَّاسع والعشرين من شهر كيهك - الذي كان يوافق آنئذ يوم ٢٥ ديسمبر قبل التَّعديل الغربي للتَّواريخ - والمعروف أن الفاطميين كانوا يشتركون في الاحتفال

٢٤ـ د. سيدة إسماعيل كاشف، مصر في عصر الإخشيديين، مرجع سابق، ص ٢٥١

٢٥ـ المسعودي، مروج الذهب ج ٢ ص ٣٦٤، مقتبس عن: د. سيدة إسماعيل كاشف، مصر في عصر الإخشيديين، مرجع سابق، ص ٢٥٢.

بهذا العيد ويفرِّقون فيه الطَّعام والحلوى على كبار الموظفين، وليس لدينا من النُّصوص ما يؤكِّد اشتراك الإخشيديين مع القبط في الاحتفال بهذه الذِّكرى[٢٦]. إضافة إلى الأعياد الأخرى مثل خميس العهد، وعيد النَّيروز أوَّل السَّنة القبطيَّة.

موجة اضطهاد لمسيحيي بيت المقدس

وبعد وفاة علي بن الإخشيد واستقلال كافور بالأمر أن وقع المسيحيون في بيت المقدس ضحيَّة موجة عارمة من الاضطهاد، وابتزاز المال من البطريرك، بواسطة الوالي محمد بن إسماعيل الصناجي. وحين اشتكى البطريرك إلى كافور، كبر الأمر في عين الوالي فكان مصير البطريرك هو القتل، كما اشترك المسلمون مع اليهود في الاعتداء على الكنائس.

ومما يؤسَف له أن المراجع التَّاريخيَّة لا تذكر لنا ما فعلته الحكومة المركزيَّة في مصر لرد هذا الاعتداء على طائفة من رعاياها. وأكبر الظَّن أنها لم تفعل شيئاً، ولا عجب فقد كانت الدَّولة الإخشيديَّة تكاد تحتضر في ذلك الوقت[٢٧].

واستمرت الأسرة الإخشيديَّة تحكم البلاد حتى أنهى حكمها الفاطميُّون. ويرى بعض الباحثين أن قيام الدَّولتين الطولونيَّة والإخشيديَّة كان ثمرة من ثمرات الثَّورات التي حدثت في مصر لمقاومة النفوذ العبَّاسي. وكان المسيحيُّون في مصر في تلك الفترة يسكنون مدينة بابليون (مصر القديمة) التي كانت معتبرة أقدم مدن القطر المصري.

---

٢٦ ـ نفس المرجع، ص ٢٥٢

٢٧ ـ نفس المرجع، ص ٣٣٦

الفَصل السَّابع

كنيسة مصر
في عصـــر الفاطميِّين

يبدأ حكم الدَّولة الفاطميَّة لمصر (٩٦٩- ١١٧١م) عندما فتح البلاد القائد جوهر الصَّقلي سنة ٩٦٩م. وأما **أبو اليُمن قزمان ابن مينا** وزير كافور، فإنه وجد نعمة قدَّام جوهر، فأبقاه في منصبه ناظراً في كورة مصر، لما اشتهر به من الثِّقة والأمانة التي عُرفت عنه، وشهد له بها ثقات مصر[١]. وظل أبو اليُمن قزمان وزيراً للبلاد حتى زمن البابا أبرآم بن زرعة (٨٧٦- ٩٧٨م). ويقول عنه أيضاً كتاب سيَر البيعة المقدَّسة: "كان رجل دين بتول لم يتزوج قط، و لم يسمع عنه ان له صبوه ويفعل الخير مع كل الناس ومشكور من كل احد ورزق نعمة ومحبة من المعز بحسن سيرته ونيته وقوة امانته، وكان يقبل قوله ومشورته، وجعله متولي استخراج مال مصر[٢]".

ولقد أوغر ابن كلّس اليهودي صدر المعز ضد أبو اليُمن، حتى قبض عليه وألقاه في السِّجن، وبعد أن تكشَّفت مؤامرة ابن كلّس اليهودي ضد أبو اليُمن قزمان النُّصراني، أفرج عن أبو اليُمن وأخلع عليه[٣].

وفي العصر الفاطمي شُيِّدت مدينة القاهرة، والجامع الأزهر. وهنا سنتوقف عن الاسترسال قليلاً لنلقي بعض الضَّوء على القاهرة، العاصمة الرَّابعة لمصر بعد الفتح العربي لها.

١ـ سير البيعة المقدسة، المجلد الثاني، الجزء الثاني، مرجع سابق، ص ٨٨
٢ـ نفس المرجع، ص ٩٨
٣ـ نفس المرجع، ص ٩٨، ٩٩

مدينة القاهرة العاصمة الرَّابعة لمصر في العصر الإسلامي

القاهرة هي العاصمة الرَّابعة لمصر في أعقاب عواصمها الإسلاميَّة الثلاث الأولى: الفسطاط - العسكر - القطائع[٤].

القاهرة

هي عاصمة البلاد الحاليَّة، أكبر مدن إفريقيا. وقد قامت القاهرة بالقرب من المدينة الرُّومانيَّة الحصينة "بابليون"، وفي مقابل "منف" إحدى عواصم مصر القديمة التي قامت على الشَّاطئ المقابل للنِّيل. ويقطن القاهرة اليوم حوالي ٧ مليون نسمة عدا من يفد إليها كل يوم من أنحاء البلاد المختلفة لقضاء مصالحهم التي تركَّزت فيها. ومعدل النمو السكاني في القاهرة هو أقل معدل نمو للبلاد إذ يبلغ ١,١ %[٥].

شيَّد القائد جوهر مدينة القاهرة سنة ٩٦٩م وجعلها عاصمة البلاد، وأحاطها بسور جدَّده بدر الجمالي وزير المستنصر سنة ١٠٨٧م، وجعله من الأحجار الضَّخمة. وكان بالسور ثمانية أبواب لا تزال ثلاثة منها باقية حتى اليوم هي: باب زويلة، وباب الفتوح، وباب النَّصر. واضطر جوهر إلى هدم دير بالقرب من المدينة الجديدة، فعمَّر ديراً آخر سُمي بدير الخندق عوضاً عن الدَّير الذي هدمه.

وبنى جوهر الصقلي أيضاً بالقاهرة الجامع الأزهر سنة ٩٧٢م نسبة إلى فاطمة الزَّهراء، لينشر المذهب الشِّيعي ويفرضه على شعب يتبع

---

٤ - كانت الفسطاط والعسكر والقطائع تدعى "مصر"، وكثيراً ما يرد في المراجع تعبير "مصر والقاهرة". ومصر هنا لا تعني الوطن كله بل هذه المدن الثلاث على وجه التحديد.

٥ - أقل معدل نمو سكاني بعد القاهرة يتركز في محافظات بورسعيد، السويس والإسكندرية على التتابع.

المذهب السُّني[٦].

وفي القاهرة الفاطميَّة وُجدت أحياء خاصة بأهل الذِّمة، إلى جانب أحياء أخرى للرُّوم، وثالثة خاصة باليهود[٧].

ولحماية المدينة، بنى صلاح الدِّين الأيوبي سنة ١١٧٩م قلعة الجبل (القلعة) التي لا تزال تطل على المدينة حتى اليوم. ولقد فشل الصَّليبيون في اقتحام القاهرة إثر هجوم عليها في القرن الثَّاني عشر.

وبالقاهرة في منطقة مصر القديمة، كنائس قديمة تعود إلى القرن الرَّابع الميلادي. وأقدم جامع بها هو جامع عمرو بن العاص الذي يعود إلى القرن السَّابع الميلادي، وقد بناه المهندس القبطي بقطر.

وبالقاهرة كثير من المتاحف الفرعونيَّة والقبطيَّة والإسلاميَّة. وتمتد القاهرة حالياً على ضفتي النِّيل حوالي ٣٠ كيلومتراً، ويربط الضفتين ببعضهما عدَّة كباري[٨]. وأُلحقت بالمدينة ضواحٍ جديدة متعدِّدة زادت من مساحتها بقدر كبير.

الفُسطاط

بنى عمرو بن العاص مدينة "**الفُسطاط**" في الفضاء الواقع شمالي حصن بابليون. ويذكر المقريزي أن موضع الفُسطاط كان فضاء ومزارع

٦ـ انظر المذاهب الإسلامية في الملحق الثاني من ملاحق الكتاب.

٧ـ دكتور سلام شافعي محمود، أهل الذمة في مصر في العصر الفاطمي الأول، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٥م، ص ١٦٤

٨ـ منها: كوبري التحرير (قصر النيل) وقد أُنشئ سنة ١٨٧٥، وكبري الزمالك سنة ١٩٠٧م، وكوبري الجيزة سنة ١٩٠٨م، وكوبري ٢٦ يوليو (أبو العلا سابقاً) سنة ١٩٠٩م، وكوبري الجلاء سنة ١٩١١م، وكوبري الجامعة سنة ١٩٥٧م.

فيما بين النِّيل وجبل المقطَّم الذي يقع شرقي مصر. وكان بين الحصن والجبل عدة كنائس وأديرة. وكانت الفُسطاط تقع في المنطقة المحيطة بجامع عمرو اليوم، يحدّها شرقاً سفح جبل المقطم، وشمالاً فم الخليج، وغرباً النِّيل. ولاشك أن الذين اختطوا المدينة الجديدة وبنوها كانوا من القبط، إذ لم يكن في العرب عصرئذ من له علم أو دراية بذلك الفن.

وقُسِّمت مدينة الفُسطاط إلى خطط، كل خطة تسكنها قبيلة، وكان يسكن الخطط من هو من أصل فارسي أو رومي، وهؤلاء كانوا أقليَّة ضئيلة أما الأكثريَّة العظمى فكانوا من العرب ولاسيَّما عرب الجنوب أو اليمنيَّة[٩]. وقد نمت المدينة بعد سنة من إنشائها نماءً سريعاً. وكانت مبانيها في البداية من الطوب اللّبن، والدَّار من طابق واحد فقط. وفي القرن الرَّابع الهجري/ العاشر الميلادي يحدثنا الاسطرخي أن الفُسطاط صارت مدينة على درجة عالية من الرُّقي المعماري، وأن معظم بنائها بالطوب، حيث بلغ ارتفاع الدَّار الواحدة ثماني طبقات.

وقد أثبتت الحفائر الحديثة لأطلال الفُسطاط أن بيوتها كانت غنيَّة بوسائل التَّرف وعلى رأسها المياه الجارية[١٠].

وبنى عمرو منذ تخطيط المدينة جامعاً للعرب سنة ٢١هـ/ ٦٤٢م، وهو "جامع عمرو بن العاص" كان لهم بمثابة مسجد يقيمون فيه شعائرهم الدِّينيَّة، ومدرسة يتعلّمون فيها الدِّين الإسلامي، ومركزاً للقضاء يفصل في منازعاتهم. وظل هو المسجد الوحيد في مصر في عهد الولاة، إلى أن بنى الفضل بن صالح بن علي العباسي في فترة ولايته على مصر من قِبَل

---

٩ ـ من المعروف أن غالبية جيوش العرب الفاتحيْن كانوا من عرب جنوب الجزيرة العربية والذين دُعوا العرب اليمنيَّة.

١٠ ـ د. سيدة إسماعيل كاشف، مصر في فجر الإسلام، مرجع سابق، ص ٢٤٦

الخليفة المهدي، جامع العسكر سنة ١٦٩هـ/ ٧٨٦م في مدينة العسكر[١١].

وبُنيت أوَّل كنيسة في فُسطاط مصر سنة ٦٨٢م أثناء ولاية مسلمة بن مخلد عليها (٦٧٦- ٦٨٢م)[١٢]، وذلك بحارة الرُّوم، واحتج الجنود على مسلمة حتى كاد أن يقع بينهم وبينه شر. وفي عهد عبد العزيز (٦٨٥- ٧٠٥م) بُنيت كنيسة مار جرجس وكنيسة أباكير في داخل قصر الشَّمع. أما المعز لدين الله الفاطمي فأمر ببناء بيعة القدِّيس مرقوريوس بمصر القديمة (الفُسطاط) بناءً على طلب البابا أبرآم بن زرعه الـ ٦٢ (٨٧٦- ٩٧٨م) من باباوات الكنيسة القبطيَّة، وكذلك بيعة كنيسة العذراء المعلَّقة بقصر الشَّمع، وأطلق مالاً من بيت المال للإنفاق على بنائها، وذلك عقب معجزة نقل جبل المقطم.

ومن الجلي أن اسم "الفُسطاط" هو اسم أعجمي، وقد اختلف في تفسيره مؤرِّخو العرب، ومن المحتمل أن يكون الاسم (فسطاط) مشتق من لفظ "فوساطون- Fossaton" اليوناني بمعنى "الخندق" أو "الخيمة"، وهو مشتق من اللَّفظ اللآتيني Fossatum حيث كان عمرو يتَّخذ لنفسه خيمة يقيم فيها.

وفي زمن البابا خائيل الأوَّل (٧٤٣- ٧٦٧م) الـ ٤٦ من بطاركة الكنيسة القبطيَّة اشتدت ثورة البشموريين في مصر، فضاق مروان بن محمد آخر خلفاء بني أُميَّة بها، فدفعه اليأس والرَّغبة في الانتقام إلى حرق مدينة الفُسطاط، فأنذر أهلها بإخلاء المدينة في غضون ثلاثة أيام فقط. ويصف الأنبا ساويرس بن المقفع، أسقف الأشمونين، مشهد فزع النَّاس وهربهم قبل الحريق بقوله: "وما أن أخذ عازف البوق يعلن أهالي

١١- نفس المرجع، ص ٢٤٧
١٢- نفس المرجع، ص ١٩٢

الفُسطاط بوجوب إخلاء المدينة، حتى تملّكهم الفزع. فخرجت جموعهم على غير هدى متَّجهة نحو الجيزة والجزيرة، وكانوا يتزاحمون على المراكب الرَّاسية على شاطئ النِّيل، ويتدافعون بغير وعي، فغرق فيه العديد منهم، كذلك تناسى النَّاس في رُعبهم المرضى والمقعدين والمكفوفين فتركوهم لمصيرهم. وحين تفقد مروان الفسطاط بعد الأيام الثلاثة التي حدَّدها، لم يجد غير هؤلاء العاجزين فلم يشفق عليهم، بل أمر بإشعال النَّار في المدينة، وهم فيها، فراحوا جميعاً ضحيَّة اللّهيب المتّقد. ونظرنا النَّار صاعدة من الفُسطاط، وأخبرونا أن مروان أحرق مخازن غلة وقطن وتين ومخازن الشَّعير". تلك المحاصيل التي جُمعت من الفلاحين الأقباط بالقهر والعنف، يشعل فيها ابن محمد النِّيران الآن حتى لا تقع في أيدي أعدائه من المُسوَدَة (يقصد العباسيين ذوي الرِّداء الأسود) القادمين لحكم مصر تحت مظلّة الدَّولة العباسيَّة.

وأكلت النَّار مدينة الفُسطاط التي بناها العرب عام ٢٠هـ (٦٤١م)، وأحرقها العرب أيضاً عام ١٣٢هـ (٧٤٩م)[١٣].

وغرق هذا الاسم في ثنايا النّسيان، وحلّ محله اسم "مصر القديمة"، حيث ظلّت قاعدة الدِّيار المصريَّة حتى بُنيت "العسكر" سنة ١٣٢هـ (٧٥٠م) التي أنشأها العباسيون.

العسكر

أنشأ العباسيُّون مدينة "**العسكر**" شمال شرق "الفُسطاط" كضاحية من ضواحيها سنة ١٣٣هـ/ ٧٥١م، وبُني بها جامع بعد إنشائها بخمس وثلاثين سنة. وبمرور الأيام اتَّصلت العسكر بالفُسطاط وأصبحت

١٣ـ سناء المصري، هوامش الفتح العربي لمصر، مرجع سابق، ص ١٤٥، ١٤٦

مدينة كبيرة. وأقام أمراء مصر بدار الإمارة في العسكر، والتي ظلّت عامرة لأكثر من قرن من الزَّمان من سنة ١٣٣- إلى سنة ٢٥٦هـ (٧٥٠-٨٧٠م) حتى بنى جوهر الصَّقلي مدينة "القاهرة".

القطائع

شيد أحمد بن طولون مدينة "**القطائع**" سنة ٢٥٦هـ (٨٧٠م) شمال "العسكر". واعتُبرت أوَّل مدينة ملوكيَّة أنشئت في وادي النِّيل في العهد الإسلامي إذ كانت مقر حاكم مستقل استقلالاً تاماً لا يربطه بالخليفة العباسي في بغداد غير التبعيَّة الدِّينيَّة. ولقد تأثَّر بن طولون التُّركي الجنسيَّة بتخطيط مدينة "سامراء" التي نشأ فيها قبل مجيئه إلى مصر، فقد كانت المدينة مقسَّمة إلى خطط أو قطائع، تضم كل خطة (أي قطعة) منها جماعة من السُّكان، تربط بينهم رابطة الجنس أو العمل.

مصر مقر الخلافة الفاطميَّة

في سنة ٩٧٣م وصل المعز لدين الله إلى القاهرة ومعه رفات أسرته، ونقل الخلافة إليها. وفي عهدهم كثر إنشاء الكنائس والمعابد اليهوديَّة لأن معظم الحُكَّام الفاطميين كانوا من أكثر الحُكَّام تسامحاً تجاه أهل الذِّمة. وكثرت أيضاً أديرة الرَّاهبات بحارة زويلة وحارة الرُّوم وغيرها. وكان القبط في العصر الفاطمي يشكّلون ثُلث سكان مصر[١٤].

وتجمع كل المصادر المسيحيَّة على أن المعز لدين الله الفاطمي (٩٧٣-٩٧٥م) كان متسامحاً في سياسته الدِّينيَّة بوجه عام إزاء أهل الذِّمة، ومع النَّصارى بوجه خاص، إذ لم يتدخل في الشؤون الدَّاخليَّة الخاصة

---

١٤ ـ د. ناريمان عبد الكريم، معاملة غير المسلمين في الدولة الإسلامية، مرجع سابق، ص ١٢٠

بالكنيسة، علاوة على أنه أقام علاقات طيِّبة مع رجالاتها.

ويعزي البعض سبب العلاقة التي توطّدت بين الخليفة والأقباط إلى العداء التّقليدي بين الفاطميين والرُّوم من جهة، وبين الشّيعة والسُّنة من جهة أخرى. ولكننا نراها أموراً جانبيَّة إلى جوار السَّبب الرَّئيسي وهو معجزة نقل جبل المقطَّم التي رآها الخليفة بعينه، وقد راعه ما رأى، وهي المعجزة التي دعاها بعض المؤرِّخين المسلمين "زعماً" أو "أسطورة[١٥]". ولم نقل أن المعجزة هي سبب العلاقة الطيِّبة بين الخليفة والبابا أبرآم بن زرعة، لأن العلاقة بينهما كانت حسنة قبلها، ولكننا نقول إنها كانت سبباً في توطيد هذه العلاقة.

وكما علّمنا التَّاريخ دوماً، أنه إذا ما تحسَّنت الأحوال بين الكنيسة والدَّولة حيناً، لابد وأن يزرع الشيطان غماً وكمداً ليسئ إلى الكنيسة، حتى لو استخدم في ذلك واحداً من أبنائها. فيذكر كتاب سيَر البيعة المقدَّسة:

"انسان من الاراخنة يعرف بابي سرور الكبير، كان له وجاهة في الدولة، وكان له سراري كثير، فامره (البابا أبرآم) باخراجهم فلم يفعل فحرمه، ومنعه من القربان، فتحيّل حتى سقاه سقية قتله، ومضى الى الرب بسلام وبكا عليه الناس[١٦]".

لقد كان هذا الحادث المؤسف في الوقت الذي لا تزال فيه معجزة نقل جبل المقطَّم ماثلة أمام الأذهان. وهكذا انتهت حياة البابا الذي في عهده تزحزح الجبل من مكانه، لكن ظلت قلوب البعض جامدة لا تتحرك.

وجاء العزيز بالله (٩٧٥- ٩٩٦م) ابن المعز، وكان صديقاً للعلم

١٥ــ د. سلام شافعي، أهل الذمة في مصر في العصر الفاطمي الأول، مرجع سابق، ص ٢٢٢
١٦ــ سير البيعة المقدسة، المجلد الثاني، الجزء الثاني، مرجع سابق، ص ٩٧

والعُلماء، وفي عهده ازداد رخاء مصر. "وكان على البيع سلامة عظيمة في ايام الملك المعز الى ان مات، وكذلك ايام ولده الذي ملك بعده وهو نزار ابي المنصور العزيز بالله[١٧]".

الحاكم بأمر الله (٩٩٦- ١٠٢١م)

كان الملك العزيز لله ابن المعز لدين الله قد رُزق ولداً من سريَّة له روميَّة وجلس في المُلك بعده، ولُقِّب بالحاكم بأمر الله. والله منه براء. وهو يُدعى أيضاً "الإمام المنصور".

كان الحاكم بأمر الله وصمة في جبين الحضارة، ونشازاً في ركبها. وكان كبير القضاة في أيامه طاغياً ظالماً، دعاه سيِّده "القاضي العادل"!. ولما مات هذا القاضي الظالم، حزن عليه الحاكم (بغير) أمر الله وأراد أن يكرِّمه فبنى له مسجداً دفنه فيه، وأسماه مسجد القاضي العادل.
والغريب في حس شعبنا المرهف أنه لم يعتبره مسجداً يصليَّ فيه، بل اعتبره مجرَّد مقبرة[١٨].

كان الحاكم بأمر الله واحداً من سلسلة الحكام الغزاة، طغى وعربد وأباح المحرَّمات وحرَّم المحلَّلات، وجعل العمل ليلاً، وحظر بعض المأكولات، وانتهك كل المؤسَّسات والخصوصيَّات.

فبعد فترة تسامح قصيرة في بداية عهده اشتط في التَّنكيل بأهل الذِّمة، وألحق بالكثيرين ضرراً بالغاً لم يألفوه من قبل[١٩]. وقد عاصره البابا زخارياس (١٠٠٤- ١٠٣٢م) الـ ٦٤ من باباوات الكرازة المرقسيَّة.

١٧ـ نفس المرجع، ص ١٠٠
١٨- صفوت عبد الحليم، مقال في جريدة وطني، ٦مايو ٢٠٠١م.
١٩ـ د. سلام شافعي، أهل الذِّمة في مصر في العصر الفاطمي الأول، مرجع سابق، ص ٢١٦

ويقول عنه المقريزي: "كان لا يملك نفسه إذا غضب[٢٠]". فأمر بإغلاق الكنائس أولاً، ثم قبض على البابا زخارياس البطريرك الرَّابع والسِّتين، بسبب وشاية واحد من الرُّهبان يُدعى يؤانس، وأمر بحبسه واعتقاله لمدة ثلاثة شهور، ثم ألقاه للسِّباع الجائعة فلم تؤذه. وتعرَّضت أملاك الكنائس والأديرة وأوقافها وأحباسها للمصادرة مرَّات عديدة إبَّان الفترة التي تشدَّد فيها الحاكم بأمر الله مع أهل الذِّمة. فهُدم الكثير من الأديرة ولم يبق منها إلاَّ القليل، كما يذكر المقريزي[٢١]، وفصل كثيراً من الموظفين من أهل الذِّمة[٢٢]، وفرض على أهل الذِّمة ولاسيَّما الأقباط "الشُّروط العمريَّة" التي سبق لنا ذكرها، وغالى في تنفيذها إلى حد غير معقول. ولن نعيد هنا ما فرضته هذه الشُّروط من قيود مجحفة بأهل الذِّمة، ولكننا سنورد بعضاً من أنواع المغالاة في تنفيذها كما تفتَّق عنها ذهنٌ نشكُ في اكتمال قواه:

فمن جهة القيود الاجتماعيَّة: ألزم أهل الذِّمة بلبس الغيار، فإن كان يهودياً وضع على كتفه خيطاً أحمر أو أصفر، وإن كان نصرانياً شدَّ في وسطه زناراً وعلَّق في عنقه صليباً، وإن كانت امرأة لبست خفَّين أحدهما أبيض والآخر أسود. وإذا دخل الذِّمي الحمَّام[٢٣] ينبغي أن يكون في عنقه

٢٠ـ د. سيدة إسماعيل كاشف، مصر الإسلامية وأهل الذمة، مرجع سابق، ص ١٥٠
احتاز يوماً فقفز قدَّامه كلب فجفل الحمار الذي تحته، فأمر بقتل كل كلب في مصر!.
انظر: تاريخ بطاركة الكنيسة المصرية المعروف بسير البيعة المقدسة لساويرس ابن المقفع أسقف الأشمونين، مطبوعات جمعية الآثار القبطية: المجلد الثاني، الجزء الثاني، قام على نشره يسى عبد المسيح، وعزيز سوريال عطية، وأسولد برمستر، القاهرة ١٩٤٨م، ص ١٢٤

٢١ـ د. سلام شافعي، أهل الذمة في مصر في العصر الفاطمي الأول، مرجع سابق، ص ٢٣٥

٢٢ـ د. سيدة إسماعيل كاشف، مصر الإسلامية وأهل الذمة، مرجع سابق، ص ١٥٠

٢٣- كانت الحمَّامات حتى ذلك الوقت حمَّامات عامة. وكان بناء حمَّام خاص في أحد المنازل بمثابة حادثة تدوَّن في كُتُب التَّاريخ، مثْل الحمَّام الذي بناه البابا فيلوثاؤس الـ ٦٣ (٩٧٩ـ ١٠٠٣م) لنفسه في داره، وكان يدخلها كل يوم.
انظر: تاريخ بطاركة الكنيسة المصرية المعروف بسير البيعة المقدسة لساويرس ابن المقفع

طوق من حديد أو نحاس أو رصاص تمييزاً له عن المسلم.

وكانت سنة ٣٩٣هـ/ ١٠٠٢م هي بداية احتكاك الحاكم بأمر الله بالنَّصارى فيما يتعلّق بتجديد الكنائس. ففي تلك السَّنة أمر بهدم كنيسة شرع واحد من النَّصارى في تجديدها بظاهر الفسطاط، فهدم عامة المسلمين ما بُني منها، وأمر الحاكم بأن ينشأ مكانها مسجد جامع عُرف بجامع راشدة، ولما رأى توسعة الجامع، أزيلت مقابر اليهود والنَّصارى التي كانت ملاصقة له لاستكمال بنائه. كما هُدمت في سنة ١٠٠٣م كنيستان كانتا بجوار الجامع، وبنى الحاكم بأمر الله في موضعيهما مسجدين للمسلمين. وشمل الهدم أيضاً كنيستان للملكانيَّة كانتا بحارة الرُّوم بالقاهرة[٢٤].

وفي سنة ٣٩٥هـ/ ١٠٠٥م أصدر أمراً يُلزم النَّصارى واليهود - دون الخيابرة منهم - بشد الزَّنانير في أوساطهم، ووضع العمائم السَّوداء على رؤوسهم، إذ كان اللّون الأسود هو شعار العباسيين وهم العصاة في نظر الفاطميين، وأعلن هذا الأمر في جوامع مصر، فامتثل أهل الذِّمة لأمر الخليفة في سائر أنحاء الدَّولة.

وفي سنة ٣٩٧هـ/ ١٠٠٦م اشتدَّت القيود صرامة، فأمر بمصادرة كل ما هو مُحبس على الكنائس من أملاك وعقارات وجعله في الدِّيوان، كما يذكر المقريزي[٢٥]، وأحرق العديد من الصُّلبان على باب الجامع العتيق بالفُسطاط. وأمر النَّصارى واليهود - دون الخيابرة - بلبس السَّواد، وأن يحمل النَّصارى الصُّلبان في أعناقهم، وأن يحمل اليهود قرامى

أسقف الأشمونين، مطبوعات جمعية الآثار القبطية: المجلد الثاني، الجزء الثاني، قام على نشره يسى عبد المسيح، وعزيز سوريال عطية، وأسولد برمستر، القاهرة ١٩٤٨م، ص ١١٣

٢٤ـ د. سلام شافعي محمود، أهل الذمة في مصر في العصر الفاطمي الأول، مرجع سابق، ص ٢٢٤، ٢٢٥

٢٥ـ نفس المرجع، ص ١٠٠

الخشب والجلاجل في أعناقهم.

وفي العام التَّالي اشترط على النَّصارى تعليق الصُّلبان ظاهرة، وعلى اليهود أن تكون قرامي الخشب على هيئة رأس العجل. فاتَّخذ النَّصارى صلبان الذّهب والفضَّة، فأنكر الخليفة ذلك، وأمر المحتسبين أن يأمروا النَّصارى بتعليق صُلبان الخشب، كما أمر بالنِّداء في أهل الذّمة بأنه من أراد الدُّخول في الإسلام فله ذلك، ومن أراد الانتقال إلى بلاد الرُّوم كان آمناً إلى أن يخرج، ومن أراد المقام بمصر فعليه بلبس الغيار والالتزام بما شُرط عليه، فاضطر كثير من أهل الذّمة تحت وطأة تلك القيود الصَّارمة إلى الدُّخول في الإسلام.

وفي سنة ٣٩٩هـ/ ١٠٠٨م نودي بألاّ يمشي اليهود والنَّصارى إلاّ بالغيار وإلاّ تعرضوا للضَّرب. ويذكر المقريزي أنه في سنة ٤٠٠هـ/ ١٠٠٩م اشتد الأمر على أهل الذّمة في إلزامهم لبس الغيار. وفي العام التالي أمر مكرَّراً التزام أهل الذّمة بما فُرض عليهم من لبس الغيار. وفي العام الذي يليه أمر باستبدال الزَّنانير الملّونة التي يلبسها الأقباط بزنانير سوداء فقط دون غيرها من الألوان، مع وضع العمائم السُّود على رؤوسهم.

وفي سنة ٣٩٩هـ/ ١٠٠٩م أصدر الحاكم بأمر الله مرسوماً بهدم كنيسة القيامة في القُدس، فهُدمت مباني الكنيسة إلاّ ما تعذّر هدمه، وأزيلت كنيسة مار قسطنطين وكل ملحقاتها، ولم يبق من الآثار المقدَّسة بكنيسة القيامة سوى أثر الصَّخرة التي شُيد عليها القبر المقدَّس، وقد أُصيبت بالتَّلف من جرَّاء ضربها بالمعاول، وهُدمت مباني الكنيسة وقُلعت حجراً حجراً وتعرَّضت للنَّهب والتَّخريب. وصودرت جميع أوقافها

وأموالها، وأُبيح لعامة المسلمين نهبها ومحو أثرها[٢٦].

وأتبع قراره بهدم كنيسة القيامة بقرار آخر يقضي بهدم جميع الكنائس والبيع في جميع أقاليم الدَّولة، إلاَّ أنه أمسك عن هدم كثيراً منها خوفاً من أن يقوم شعوب العالم المسيحي بهدم ما في بلادها من مساجد المسلمين كما يذكر المقريزي[٢٧].

وفي سنة ٤٠٢هـ/ ١٠١١م أمر النَّصارى واليهود بلبس العمائم السَّوداء، وأن يحمل كل نصراني في عنقه صليباً من حديد طوله ذراعاً ووزنه خمسة أرطال، وأن تكون أوزان قرامي الخشب التي يحملها اليهود في أعناقهم على وزن صُلبان النَّصارى. وفي نفس هذه السَّنة نُزعت الصُّلبان وطُمست آثارها من ظاهر الأديرة.

وفي سنة ٤٠٣هـ/ ١٠١٢م أقطع معظم الأديرة العتيقة[٢٨] والحديثة بمصر وسائر أقاليم الدَّولة لكل من التمسها. وأحرق بعضها، ووقَّع الأمر بهدم جميع الكنائس في الدِّيار المصريَّة، وأُحرقت الكُتُب الموجودة بها. وأقطع ما للكنائس من رباع وأملاك لجماعة من الخدم الصَّقالبة، ووهب لهم ما في الكنائس من التُّحف والذَّخائر وأواني الذَّهب والفضَّة وغيرها. ووهب كثيراً من الكنائس لكل من التمسها. فأُنشئ مكان البعض منها مساجد للمسلمين، وتحوَّل البعض الآخر إلى مساجد لهم. كما أمر الحاكم بأمر الله نصارى كل بلدة أن يدفعوا أجور العمَّال الذين قاموا بهدم ونقض ما بها من كنائس. ويذكر المقريزي أن كنيسة أبي شنوده - كبرى

٢٦ـ نفس المرجع، ص ٢٢٦، ٢٢٧، ٢٢٨

٢٧ـ نفس المرجع، ص ٢٢٨

٢٨ـ نجت أديرة وادي النطرون من هذا الدمار إذ بلغ الحاكم بأمر الله أن دير أنبا مقار والأديرة القريبة منه في حماية قبيلتي بني قرة وبني كلاب العربيتين.

الكنائس القبطيَّة بمصر - وكنيسة المعلّقة بالفُسطاط قد تعرَّضتا لنهب ما فيها من الأموال والمصاغ وثياب الدِّيباج، وغير ذلك من التُّحف والذّخائر وكان شيئاً كثيراً. هذا بجانب ما نُهب من أموال الكنائس والـدِّيارات في سائر أنحاء الدَّولة، فباع النَّاس بأسواق مصر كل ما وصلت إليه أيـديهم من تلك الثّروات والتُّحف وتصرفوا في أحباس وأملاك وعقارات الكنائس بالبيع والشِّراء(٢٩).

وجدَّد مرسومه بالتَّضييق على أهل الذّمة، فأمر أن تلبس النَّصـارى واليهود - دون الخيابرة - طيالسة سود، وعمائم شديدة السَّـواد، وأن يعلق النَّصارى في أعناقهم صلبان الخشب مضافاً إلى الزِّنار في أوساطهم. فلبسوا صلباناً طولها فتر، ثم أمر بعد شهر وجعلها شبراً في شبر. وفي نفس السَّنة عاد فأمر أن تكون الصُّلبان طولها ذراع في عرض مثله، وفتحهـا ثلثي شبر وسمكها أصبع!!.

وذكر الأنبا ميخائيل مطران أتريب أن طول الصَّليب كـان ذراعـاً ونصف على أن يكون وزن كل صليب خمسة أرطال مختوم بخاتم رصاص عليه اسم الخليفة، وأن يعلقوه في رقابهم بحبالٍ من ليف. وأن تكون هـذه الصُّلبان والقرامى ظاهرة فوق ثياب أهل الذّمـة عنـد خـروجهم إلى الأسواق، بحيث يراها النَّاس.

ومنع أهل الذّمة من ركوب الخيل، وأمر أن يركبوا البغال والحمـير وأن تكون بسروج ولجم غير محلاة بالذّهب والفضَّة، بل تكون من جلود سوداء، وألاَّ يركب أحد منهم بركب حديد، بل تكون ركب سروجهم من خشب الجميز. ومنع الملاحين وأصحاب السُّفن أن يحملوا على سفنهم

---

٢٩ - د. سلام شافعي محمود، أهل الذمة في مصر في العصر الفاطمي الأول، مرجع سابق، ص ٢٣٠ وما قبله، ٢٣٦

أحداً من أهل الذّمة. وأذن للنَّاس في البحث عن المخالفين وتتبُّع آثارهم، مما أثار الفزع بين النَّصارى وكثرت مخاوفهم، وخلت الطُّرقات أياماً لم يُر فيها نصراني، ويروي الأنبا ميخائيل أن نصارى مدينة تنيس ذاقوا الأمرَّين من تلك القيود، ومن مضايقات المسلمين لهم، فإذا نسي نصراني منهم صليبه ومشى في طرقات المدينة بلا صليب تعرَّض للأذى ولقي كثيراً من الإهانة والسُّخرية.

وفي سنة ٤٠٤هـ/ ١٠١٣م أمر رعاياه من أهل الذّمة بالانتقال إلى بلاد الرُّوم أو النوبة أو الحبشة، أو التزام الغيار إذا رغبوا في البقاء في مصر، فلجأ الكثير من النَّصارى تحت وطأة تلك القيود وصرامتها إلى نزع الغيار والصَّليب الزِّنار والتشبُّه بالمسلمين، والتَّظاهر بالإسلام ليظن من يراهم أنهم قد اعتنقوا الإسلام.

وفي السَّنوات ٣٩٨هـ، ٣٩٩هـ/ ١٠٠٧م، ١٠٠٨م، صدرت أوامر جديدة تميِّز أهل الذمة عن المسلمين عند دخولهم الحمَّامات العامة[٣٠].

وفجأة في سنة ٤١١هـ/ ١٠٢٠م عاد إليه رشده، فأصدر سجلاً إلى بطريرك بيت المقدس بحفظ دور العبادة الخاصة بأهل الذّمة، والمنع من نقضها، وأعاد أوقاف كنائس بين المقدس إليها. وتراجع عن تشدُّده وأصدر عدَّة مراسيم تبيح للأقباط استرداد ما أُخذ من أوقاف الكنائس والأديرة. وسمح لهم ببناء كنائسهم التي هُدمت، والتَّعبد علانية في الكنائس والأديرة، وحثّهم على إعادة بنائها. وتعاطف مع الرُّهبان، ونشأت صداقة وطيدة بينه وبين راهب يُدعى بربن كان قد اعتنق الإسلام ثم ارتد إلى النُّصرانيَّة في خلافته! وكثرت زياراته للرُّهبان في أواخر أيامه

٣٠- نفس المرجع، ص ١٧٥- ١٨١، ٢٢٥

ولبس زي الرُّهبان. وأذن لمن دخل في الإسلام كُرهاً أن يرتد إلى دينه، فارتدَّ آلاف من النَّصارى ممن كانوا قد تظاهروا بالإسلام، ويُروى عن الحاكم قوله في هذا الصَّدد: "نتزّه مساجدنا عمن لا نيَّة له في الإسلام".

ويرى بعض المؤرِّخين أن رجوع الحاكم عن شدَّته مع أهل الذّمة في آخر أيام حكمه دليلاً على خروجه عن الإسلام(٣١).

وفي نفس هذه السَّنة - ١٠٢٠م - اختفى الحاكم بأمر الله في ظروف غامضة، ولم يعرف أحد مكانه حتى مماته!.

ويهون الهوان الذي أهاننا به الحاكم بغير أمر الله، ولكن الخراب الذي حاق بالكنيسة كان من الضَّخامة بحيث لا يمكن علاج آثاره، فمن أين تعود الكُتُب التي أُحرقت؟ حتى أنه صار من المتعذّر أن نجد من مخطوطاتنا القبطيَّة ما يعود إلى ما قبل القرن العاشر سوى النَّذر اليسير، ناهيك عن الكنائس الكثيرة والأديرة القديمة التي هُدمت.

وتناقض الدكتورة ناريمان عبد الكريم نفسها حين تقول: "وتبالغ المصادر النّصرانيَّة فيما ذكرته من تصرُّفات الخليفة الحاكم، وأنه قام بتعذيب النَّصارى بقصد تحويلهم إلى الإسلام، وهذه الكُتُب كان قصدها أن تُظهر الأقباط بمظهر الشُّهداء، لكن ما ينفي عن الحاكم قصده تحويلهم إلى الإسلام، هو بقاء القبط في دواوينه وقصره محتفظين بديانتهم ويُمنحون الألقاب مثل المسلمين(٣٢)". فهي تقتطع من التَّاريخ أحداثه التي توافق ما تصبو إليه دون مراعاة لتسلسل تلك الأحداث. ولو غضضنا الطَّرف عن ذلك، فهي تعود لتقول: "وفي عهد الخليفة الظَّاهر صدر أمر في عام ٤١٨هـ/ ١٠٢٧م يسمح لمن اعتنق الإسلام كرهاً أيام الحاكم

٣١ـ د. ناريمان عبد الكريم، معاملة غير المسلمين في الدولة الإسلامية، مرجع سابق، ص ١٠٤

٣٢ـ نفس المرجع، ص ١٠١، ١٠٢

بالعودة إلى دينه، فعاد الكثير منهم إلى اليهودية والمسيحيَّة[٣٣]".

لا يجب أن نزوِّق الحقائق لتُرى على غير ما هي عليه في حقيقتها، فالخليفة الحاكم بأمر الله اقترف مآثم كثيرة في حق أهل الذِّمة عموماً وفي حق الأقباط خصوصاً، وهو ما لا يجب أن نخفف من غلوائه لأنه واضح للعيان. فأن نلتمس الأعذار لما اقترفه الحاكم بأمر الله من اضطهاد وإذلال للأقباط فهو ما نظن أنه ينافي الحق ويجانب الصَّواب. ولكن هل كان الأقباط في ذلك الوَقت هم السَّبب فيما حاق بهم من مهانة؟.

يقول التَّاريخ إن بعض أغنياء الأقباط قد انساقوا في هذه الفترة وراء ملذَّاتهم وانهمكوا في حياتهم الأرضيَّة، وهو ما أشار إليه كتاب "سيَر البيعة". ويشهد أيضاً نفس الكاتب - أنبا ميخائيل مطران تنيس - على أفعال بعض الرُّعاة في ذلك الوقت، والتي كانت من الأسباب المباشرة لما أصاب الكنيسة من تأديب واضطهاد فيقول ما نصُّه:

"لم يصبر الرب على افعال الرعاة الذين كانوا في ذلك الزمان، وانزل الله غضبه على البيع بسببهم، فابعدوا منها لانهم كانوا قد صاروا مثل الولاة المسلطين على الكهنة، ويختلقوا حجج لجمع المال بكل وجه ويتجروا في بيعة الله لمحبة الفضة والذهب، ويبيعوا موهبة الله بالمال فيخسروا ولا يربحوا، واذا زادهم انسان في ديارية بيعة من البيع دينارا واحد فسخوا على القيم الاول المهتم بامور البيعة كما يجب، فيطردوه منها ويسلموها بسبب الدينار الزايد لمن لا يصلح لخدمتها ولا يقوم بامرها، ولقد شهد على قيم يشرب الخمر الصافي ويخلط المعكسر بالما ويصفيه ويقدمه للكهنة يرفعه للهيكل، وان الكهنة يرفعوا على الهيكل قربانا يكفي طول الجمعة حتى يفضل منه شيا كثير غرضا في ان لا يتعبوا

٣٣ـ نفس المرجع، ص ١٠٤

فيقدسوا، ويبقا القربان في الكنايس الى ان يعفن، لان الاساقفة كانوا يوسموا للكهنوت من لا يصلح ولا يفهم ...

وفي أيامهم اعني الرعاة انقطع التعليم ايضا و لم يردع احد احدا ولا يقول له اخرج القذا من عينيك ليلا يقول له اخرج انت الخشبة اولا من عينك، وكانوا رووسا البيعة فيما تقدم يطلبوا امر فيه علم ومعرفة ليجعلوه كاهنا اذا شهد له جماعة ثقات بالعفاف والعلم من صغره، وانقلبت الامور وصار الفهيم العالم غير معدود لاسيما ان كان فقيرا، والجاهل الغير فهيم مكرما عندهم مبجلا، لاسيما ان كان موسرا ليقدموه للطقس العالي من طقوس الكهنة، فمن اجل ذلك نزلت يد الرب عليهم وحل غضبه على البيعة لعلمه باننا لا نستحق ندخل من بابها كالزمان الذي انزل فيه غضبه على يروشليم حتى خربت وسبي اهلها وبنيهم وبناتهم ...[٣٤]".

وإن قساً راهباً من دير أبو مقار اسمه يونس، كان سبب كثير من البلاء الذي حاق بالكنيسة في ذلك الزَّمان. فقد ألقى الشيطان في قلبه نار محبَّة الأسقفيَّة، ولم يكن لديه ما يدفعه، وإذ رأى أن الأسقفيَّة تُعطى لمن لا يستحقها ما دام موسراً، ذهب إلى البابا زخارياس وقال له: "اريد تلبسني ثياب الاسقفية فقط واجعلني على كرسي خراب مثل دبقوا ولو انه لا يكون فيه الا ثلث منا، فاني لا اقدر اصبر عن ذلك مما قد غلب على من الفكر لمشاهدتي هولا الذين تقسمهم بالمال وليس هم مستحقين، وانا مدحوض لاجل اني فقير وليس معي شيا وانت تعرفني[٣٥]".

ويعقّب الأنبا ميخائيل مطران تنيس كاتب سيرة البابا زخارياس فيقول ما نصُّه: "وكان البطرك المذكور عفيف جدا مثل الخروف الوديع،

٣٤ـ سير البيعة المقدسة، المجلد الثاني، الجزء الثاني، مرجع سابق، ص ١١٧ـ ١٢٠

٣٥ـ نفس المرجع، ص ١٢٠

ولم يكن يفعل شيا مما ذكرناه برايه حتى الخبز الذي ياكله اذا خلوه لا يطعموه لا يطلبه، وكذلك الما الذي يشربه، وكان كالاخرس وكانوا اهله وتلاميذه حاكمين عليه وهم يدبرونه، وهم الذين ياخذون المال ممن يقدموه له ليجعله فيما يريدوا، ولو اراد ان يطعم انسان خبز فما قدر الا باحسانهم، واذا التمس منه انسان شيا ارسله اليهم، ومن التمس كنه كهنوة انفذه اليهم ليفصلوا معه والا فما يمكنوه يقسمه ...[٣٦]".

والنتيجة كانت نشوب خلاف بين الراهب يونس وحاشية البطريرك، وخصوصاً خايال اسقف سخا وهو ابن اخو البطريرك، الذي إذ علم منه أنه يريد الأسقفية بلا شئ "قال له بعد الشتم انك ان ذكرت من فمك شئ على هذه القضية جعلت التلاميذ يهينوك[٣٧]".

وبالإيجاز كتب الراهب يونس عدة رقاع في البطريرك ليرفعها إلى الحاكم بأمر الله، واستطاع الأراخنة أن يمنعوه من ذلك، واخذوا ما كتب وسلموه للبطريرك فدفعها لابن أخيه المقدم ذكره، فكان نصيب الراهب أن أُلقي في بئر ليرجموه بالحجارة ليقتلوه، فوجد فتحة جانبية في البئر اختبأ فيها، فلم تصبه الحجارة. فلما علم البطريرك "حمل التراب على راسه ... واحرم ابن اخيه وانفذ تلاميذه الى البير فاصعدوه منه وعزوه وسالوه ان يتسلى، واوعده البطرك أن يجعله على كرسي مما يخلوا، فصبر حتى خلى كرسيين فلم يجعله في واحد منهما ...[٣٨]".

فمضى يونس الراهب إلى الحاكم بأمر الله، وسلّمه مكتوباً جاء فيه: "أنت ملك الأرض، لكن للنصارى ملك لا يرضا بك لكثرة ما قد كثر

٣٦ـ نفس المرجع، ص ١٢٠
٣٧ـ نفس المرجع، ص ١٢٠
٣٨ـ نفس المرجع، ص ١٢١

من الأموال الجزيلة ... الخ"، فأمر الحاكم أن تُغلق أبـواب الكنـائس، واعتقل البطريرك، وكان ذلك في سنة ١٠١١م، وألقاه للسِّباع مرَّتين فلم تؤذه، "واما انبا زخارياس فانه اقام معتقل ثلثة شهور وهم يخوفوه في كل يوم بحريق النار والمرمي للسباع ان لم يدخل في دين الاسلام[٣٩]"، وكان في ثاني يوم لاعتقال البطريرك أن كتب الحاكم سـجلاً إلى والي بيـت المقدس يأمره بهدم كنيسة القيامة قال له فيه: "اجعل سمايها ارضا وطولها عرضا" ومن بعد أيام أنفذ سجلات إلى سائر أعمال مملكته بأن تُهـدم الكنائس وأن يُحمل ما فيها من الآنية الـذهب أو الفضـة إلى قصـره، ومطاردة الأساقفة في كل مكان ... الخ

فهرب الأساقفة إلى البريَّة لخوفهم من الإهانة والتعب. "وكان اكثر النصارى ايضا يدخلوا البرية دفعتين في السنة وهما عيد الغطـاس وعيـد القيامة الذي هو الفصح، وكانوا يشتهوا القربان كما يشتهي الطفل اللبن من ثديي امه، وكان على النصارى في هذه التسع سنين ضيق عظيم وطرد وشتم ولعن من المسلمين ويبصقوا في وجوههم وكان اكثر ذلك بمدينـة تنيس واعمالها، واذا جاز نصراني عليهم يشتموه ويقولوا له اكسر هـذا الصليب وادخل في الدين الواسع، وان نسى نصراني صليبه ومشـى بـلا صليب لقى هوان كثير[٤٠]".

"وهذه التسع سنين التي كان فيها الادب من الرب منها ثلثة سنين لم يقدر احد يعمل فيها ضورون[٤١] في بلاد مصر إلا في الديارات فقط، ولم تصبر المومنين الاخيار على البعد من السراير المقدسة، وكانوا يسالوا الولاة ويبرطلوهم بالدنانير الكثير والهدايا حتى يفسحوا لهم ان يتقربوا في الليـل

٣٩ـ نفس المرجع، ص ١٣١

٤٠ ـ نفس المرجع، ص ١٣٣

٤١ ـ بين السطور بالقبطيَّة ⲇⲱⲣⲟⲛ أي تقدمة.

سرا في الكنايس المهدومة ...[٤٢]".

وكان هدم الكنائس في سنة ١٠١١م، ثم فتحها وإطلاق عمارتها في سنة ١١٢٠م.

وبعد أن جازت أيام الاضطهاد، وهدأت ثورة الحاكم بأمر الله، وعاد إليه عقله، جلس يوماً في دير الشَّهيد مرقوريوس وهو دير شهران، عند راهب يُدعى بيمن كان قد أسلم وعاد إلى دينه، وكان صديقاً للحاكم. وكان هذا الرَّاهب قد رتَّب مقابلة بين الحاكم وبين البطريرك وأساقفته، ولما مثلوا بين يديه تطلّع الحاكم إلى البطريرك وتأمله "وتعجب منه لانه كان حقيرا في العين مهابا في النفس، وكان قصير القامة كوسج ذميم الخلقة وراى الاساقفة الذين معه شيوخ ذوي مناظر حسنة وشخوص بهية وقامات تامة فقال لهم هذا مقدمكم كلكم، قالوا له نعم يا مولانا، الرب يثبت ملكك، فتعجب وقال لهم الى اين ينتهي حكمه، فقالوا له ينفذ حكمه في ديار مصر والحبشة والنوبة والخمس مدن الغرب افريقية وغيرها، فازداد تعجبه وقال كيف يطيعونه هولا كلهم بلا عساكر ولا مال ينفقه فيه، قالوا له بصليب واحد تطيعه هذه القبايل كلهم، قال لهم وايش هو هذا الصليب، قالوا له مثال الذي صلب عليه المسيح فمهما اراد منهم كتب اليهم وجعله بين سطور الكتاب موضع علامة الملك، ويقول لهم افعلوا كذا كذا والا عليكم الصليب فيطيعوا قوله ويفعلوا ما يامرهم به بلا عساكر ولا حرب، فقال بالحقيقة ليس في العالم دين ثابت مثل دين النصارى ... وخرج من عندهم وهم مسرورين بما سمعوه منه[٤٣]".

وجاء يونس الراهب الذي من دير أبو مقار إلى البطريرك بعدما

٤٢ـ سير البيعة المقدسة، المجلد الثاني، الجزء الثاني، مرجع سابق، ص ١٣٥

٤٣ـ نفس المرجع، ص ١٣٦

عرَّض الكنيسة لهذه الخطوب كلها، وسأله أن يجعله أسقفاً وكان أسقف سخا حاضراً، فنشبت بينهم منازعة، "فخافت الاساقفة وجرى بينهم وبين خايل الاسقف خصومة عظيمة وقالوا له انت سبب هذا البلا كله وكلما نالنا من هدم البيع ولباس الغيار والهوان وغيره انت اصله، لو تريد أيضاً تجدد شيا اخر حتى يكون الاخر اشر من الاول"، وسكّنوا غضب يونس الرَّاهب وألزموا البطريرك فجعله إيغومانوس (قمصاً) وألبسه القلنسوة السّوداء ووعده بجميل.

وظلّ يونس الذي يُدعى بالاسم راهب يؤرق الكنيسة حتى إلى زمن البابا شنوده الثّاني (١٠٣٢ـ ١٠٤٧م)، إذ قبل أن يلبسه الأساقفة ثوب البطريركيَّة "استقر بينه وبين الاساقفة ان يقسم لهم يونس الراهب الذي سعى الاب زخارياس الى الحاكم ليجعله اسقفا للفرما لخوفهم من لسانه، ومضوا به الى قلايته وضرب له مطانوه ان يساعده على كل شي ويجعله عنده مثل اخ، فقال له ان اردتني اساعدك فاكتب لي خطك تعطيني في كل سنة ثلثون دينارا اعيش بها لان كرسي الفرما الذي تجعلني عليه ما فيه شي، وتقسم اخي في كرسي اخر، فكتب خطه بذلك[٤٤]". وصار يونس أسقفاً على الفرما!!.

وعن هذا البطريرك يقول كتاب سيَر البيعة المقدَّسة: "فسخ ما كان استقر معه من انه لا ياخذ شرطونية، واحب المال وجمع منه شي كثير ووهبه لاهله، وكان محب لمجد هذا العالم ...[٤٥]".

إننا حين نقرأ التّاريخ، لا ينبغي أن ننصِّب من أنفسنا قضاة لنحكم على تصرُّفات النَّاس أو مجريات الأحداث، لئلا نقترف بدينونتنا للآخرين

٤٤ـ نفس المرجع، ص ١٥٢

٤٥ـ نفس المرجع، ص ١٥٣، ١٥٨

ذنباً أكثر من ذنبهم مهما عَظُم. ولكننا نقرأ التَّاريخ لنتعلَّم دروساً لأنفسنا وحسب، وليكن لسان حالنا دائماً هو "الحُكم لله".

ومن جهة أخرى، لم تخلو الكنيسة في ذلك الزَّمان عينه من **أراخنة أتقياء** صاروا سبب عزاء لجيلهم، ومنهم أبو نجاح الكبير الذي رفض أن يترك دينه ويبيع المسيح، وإذ اجتهد الحاكم بأمر الله بكل نوع من الترغيب والترهيب لينقله عن دينه فلم يقدر، أمر بأن يُشد إلى الهمبازين ويُضرب بعد أن عرُّوه من ثيابه، فضربوه خمسمائة سوط حتى تقطَّع لحمه وسال دمه مثل الماء. ولكن الحاكم أمر بأن يُضرب تمام ألف سوط.

وفي ذلك يقول كتاب سيَر البيعة: "فلما ضُرب ثلثماية اخرى قال انا عطشان فبطلوا عنه الضرب، واعلموا الحاكم بذلك، فقال اسقوه بعد ان تقولوا له يرجع لديننا، فلما جاوا اليه بالما وقالوا له ما امرهم به الملك، قال لهم عيدوا له ماه فاني غير محتاج اليه لان سيدي يسوع المسيح قد اسقاني، وشهد قوم من الاعوان وغيرهم ممن كان هناك انهم ابصروا الما سقط من لحيته، ولما قال هذا اسلم نفسه، فاعلموا الملك القاسي القلب بوفاته، فامر ان يضرب تمام الالف سوط وهو ميت. وهكذى تمت شهادته. بركاته تكون معنا(٤٦)".

وآخر يُدعى فهد ابن إبراهيم الذي القي في النَّار ثلاثة أيام و لم يحترق، أما باقي العشرة أراخنة الذين جمعهم الحاكم بأمر الله ليتركوا دينهم، فقد جلدهم بالسِّياط، فأسلم منهم أربعة، مات منهم واحد في نفس ليلته، وعاد الثلاثة إلى دينهم بعد انقضاء زمن الاضطهاد، أما بقية العشرة فماتوا تحت العذاب ونالوا الحياة الدَّائمة، بركة صلواهم المقدَّسة

٤٦ـ نفس المرجع، ص ١٢٢، ١٢٣

تكون معنا.

لو كان عصر الشُّهداء في الكنيسة القبطية وقفاً على القرن الرَّابع فقط، لما بقت الكنيسة إلى اليوم، فيا لكثرة الشُّهداء الذين لا نستطيع أن نحصي عددهم لأنهم كثيرون مثل السُّنبل كقول الكُتُب، والشَّهادة من أجل الكنيسة تأخذ في كل جيل شكلاً مغايراً، لكنها محسوبة عند الرَّب شهادة من أجل محبَّته ومحبَّة كنيسته. فهل استفادت الكنيسة في عصر الحاكم بأمر الله شيئاً؟، نعم، فقد ربحت شهداء لها يشفعون عنها كل حين أمام عرش ابن الله الوحيد.

حالة الأقباط بعد عهد الحاكم بأمر الله

بعد انتهاء فترة حكم الحاكم بأمر الله تولى الخلافة الظَّاهر بن الحاكم (١٠٢١- ١٠٣٦م) واسمه بالكامل "الظَّاهر لإعزاز دين الله"، وكان ابن ستة عشر عاماً تحت وصاية عمته ست الملك حتى سنة ١٠٢٤م. "وكان في ايامه هدو وسلامة عظيمة واقام ستة عشر سنة ملكا، وكان دين النصارى مستقيم واهله مكرمين، وبنيت البيع في ايامه حتى اعيدت لما كانت عليه وافضل[٤٧]".

وكان البابا شنوده الثَّاني (١٠٣٢- ١٠٤٧م) معاصراً لهذه الفترة، وداوم على ممارسة السِّيمونيَّة برغم عدم رضى الأقباط وأراخنتهم على ذلك، لاسيَّما بقيرة الشمَّاس الذي حُسب كواحد من المعترفين إذ لم ترهبه عذابات الحاكم بأمر الله ليترك دينه. فيقول كتاب سيَر البيعة المقدَّسة واصفاً كيف ترجَّي بقيرة الشمَّاس البطريرك ليترك عنه السِّيمونيَّة: "قال له (أي بقيرة الشمَّاس) يجب ان تترك هذه الشرطونية التي تاخذها، ولا

٤٧- نفس المرجع، ص ١٣٧

تبيع موهبة الله بالمال، فقال له من اين لي ما انفقه على نفسي وتلاميذي وما احتاجه من المؤون واللوازم، وما اعطيه للاسكندرانيين، وما اقوم به عن خراج الاراضي التي على، قال له نحن نحسب كلما عليك وجميع ما تحتاجه، ونحسب كلما تاخذه من الاساقفة عن الديارية في كل سنة فان عجزت شيا قسطناه علينا وحملناه لك، وتستريح من هذا الاسم السو الذي يكرهه الله والنَّاس، فاظهر انه قد طاب قلبه وهو في الباطن لا يوثره[٤٨]".

ومات الظَّاهر لإعزاز دين الله وجلس بعده ولده أبو تميم المستنصر بالله أمير المؤمنين (١٠٣٦- ١٠٩٤م)، وتولى الحُكم وعمره سبع سنين[٤٩]. وكان المتصرِّف الفعلي في شؤون مصر السيِّد الأجلّ أمير الجيوش سيف الإسلام بدر الجمالي، وهو أرمني جاء من عكا، وكان والياً في مصر قبل ذلك بأربعة عشر سنة.

وعاصر المستنصر كل من البابا خريستوذولوس (١٠٤٧- ١٠٧٧م)، والبابا كيرلس الثَّاني (١٠٧٨- ١٠٩٢م).

أما البابا خريستوذولوس فكان معروفاً بنشاطه في إدارة الشؤون الكنسيَّة، ولقد وضع مجموعة قوانين تنظِّم الحياة اللِّيتورجيَّة في الكنيسة، وأصلح عادات كنسيَّة خاطئة كان يمارسها رهبان دير أنبا مقار، حيث كانوا يحتفظون بقربان الإفخارستيَّا بعد قدَّاس عيد الشَّعانين إلى يوم الأربعاء الكبير[٥٠]. وكرَّس ست كنائس بالإسكندريَّة، إحداها هيكل القدِّيس مرقس بكاتدرائيته بعد أن أصلحه ورمَّمه. وكان يمارس

٤٨ـ نفس المرجع، ص ١٥٥
٤٩ـ نفس المرجع، ص ١٦٠
٥٠ـ سير البيعة المقدسة، المجلد الثاني، الجزء الثالث، مرجع سابق، ص ١٧٢

السِّيمونيَّة، "فحصل له من جماعة صيرهم اساقفة مالا كثيرا من جملتهم مرقس الكاتب المعروف بابن الظالم أخذ منه ألف دينار قرضاً على نصف الكرسي وصيره أسقفاً على كرسي سمنود، وكان يفعل هذا حتى لا يقال أنه ياخذ شرطونية ويعتقد أنه مخلصاً من الله، فلما قبض عليه ناصر الدَّولة ... قرر عليه وعلى الأساقفة وجميع النصارى سبعين ألف دينار، فنال النصارى من ذلك ومن غلق كنايسهم ضيق شديد وصعوبة شديدة ...[٥١]".

وفي أيامه كانت رأس القدِّيس مرقس الإنجيلي في حيازة واحد من أفراد الشَّعب يُدعى أبو يحيي زكريا[٥٢]، ولقد حاول حاكم الإسكندريَّة دون جدوى الحصول على الرَّأس لتسليمه للإغريق الذين كانوا على استعداد ليدفعوا له عشرة آلاف دينار مقابل الحصول عليه. وقد انتقلت الرأس المقدَّسة بعد ذلك إلى حيازة موهوب بن منصور كاتب سير البطاركة[٥٣].

وكانت كنيسة القديس أبي سرجه هي الكنيسة الكاتدارئيَّة لأسقف مصر (مصر القديمة)[٥٤]. وكان كهنة كنيسة السيِّدة العذراء المعلَّقة بقصر الشَّمع يتنازعون مع كهنة كنيسة أبي سرجة على أيٍ من الكنيستين تكون الكنيسة التي يتم فيها رسامة البطريرك الجديد.

أما البابا كيرلس الثَّاني الـ ٦٧ فقد أُجبر من بعض الأساقفة الحاصلين على تأييد بدر الجمالي على وضع مجموعة من القوانين لتنظيم الشؤون الكنسيَّة، "فلم تقبلها اهل الصعيد وقريت في الكنايس بمصر

---

٥٢ ـ نفس المرجع، ص ١٧٧
٥٢ ـ نفس المرجع، ص ١٧٤
٥٣ ـ نفس المرجع، ١٨١
٥٤ ـ نفس المرجع، ص ١٦٩

وساير الاعمال، فلم تقبلها اهل الصعيد ولا تخلوا عن قوانينهم[٥٥]".

ولم يمارس السِّيمونيَّة أبداً، وكان قد اشترط على كل من يقسمه أن يكون نصف ما يتحصَّل للكرسي للأسقف، والنِّصف لقلاية البطريركيَّة، وأوقف ما يتحصَّل من بعض الكراسي على دير أنبا مقار[٥٦]. وعاصر هذا البطريرك، الأنبا بطرس أسقف البهنسا، ولهذا الأسقف أعمال كنسيَّة كثيرة لازالت آثارها باقية في طقس الكنيسة القبطيَّة حتى اليوم، مثل لقان عيد الرُّسُل، وصلوات تكريس المعموديَّات الجديدة ... الخ.

ويقول كتاب سيَر البيعة المقدَّسة عن البابا كيرلس الثَّاني: "لما تنيح لم يوجد له دينار ولا درهم، وكانت افعاله كلها حسنة جميلة، وكان حلو المنطق مقبول الصورة صايم الدهر كثير الصلاة، لا ياكل مما يعمل في قلايته لتلاميذه شيا من الالوان الا لون واحد يقدم له في زبدية. اما من الحبوب او من البقول يستعمل منه اليسير من العشا الى العشا...[٥٧]".

وفي أيام الخليفة المستنصر عاد الأقباط فسيطروا على دواوين الدَّولة، فضلاً عن سيطرة اليهود على سياسة الدَّولة. وفي عهده أيضاً غاب فيضان النِّيل عن مصر سبع سنوات، فترلت بمصر أشد المجاعات، وانتشر بها القحط والطَّاعون. وثار الجند من الأتراك والبربر، وعاثوا فساداً، ودمَّروا القصر، ونهبوا تحفه، وأتلفوا مكتبته.

واستطاع الأرمني بدر الجمالي وزير الخليفة المستنصر إعادة الهدوء والنِّظام، وبنى أسوار القاهرة، وأبوابها، ومسجد الجيوشي. فصار للأرمن

٥٥_ نفس المرجع، ص ٢١٨
٥٦_ نفس المرجع، ص ٢١٢
٥٧_ نفس المرجع، ص ٢٣٠

شأن في المجتمع المصري، فقاموا ببناء عدد من الكنائس والأديرة في مصر، وانتشروا في كل أنحاء البلاد. وكان منهم الوزراء والنظّار والمشرفين وحكّام الأقاليم وكُتّاب الدّواوين. وكان للأرمن بوابة في القاهرة عُرفت باسم باب الأرمن. وقيل أن عدد أديرتهم وكنائسهم بلغ خمساً وثلاثين على وجه التّقريب.

وكان الأقباط لا يجدون غضاضة في معايشة الأرمن والسِّريان والأحباش والنُّوبيين لاتفاقهم على الأمانة المستقيمة الصَّحيحة كما يذكر مؤرِّخ سير الآباء البطاركة[٥٨]. ولقد تعرضت أملاك ومزارع وأوقاف الكنائس والأديرة القبطيَّة، وبعض أملاك الأقباط، للمصادرة أيضاً في خلافة المستنصر بالله الفاطمي.

ولما مرض أمير الجيوش لكبر سنه، تولى ابنه "الأفضل" أمور البلاد، وكتب له المستنصر بالله سجلاً بتقليده أمور المملكة، وبعد تسعة شهور من جلوسه توفي الخليفة بعد أن أوصى بأن يكون ابنه الصَّغير أبو القسم أحمد خليفته. وهو ما تمّمه السيِّد الأجل الأفضل، وصار الخليفة الجديد باسم المستعلي بالله[٥٩] أمير المؤمنين (١٠٩٤ ـ ١١٠٢م)، وكان عمره آنئذ سبع عشرة سنة. وفي عهده كثر عدد الكُتّاب النّصارى في دواوين الحكومة.

وكان البابا خائيل الرّابع (١٠٩٢ ـ ١١٠٢م) معاصراً له. "... ولما تمكن من الامر واستقرت اقدامه في البطركية ظهر من سطوته وهيبته وسلطته ما صار له في قلوب الاساقفة وغيرهم من الخوف والرهبة مثلما كان للاب اخرسطودلوس نيح الله نفسه، ولم يكن احد من الاساقفة ولا

---

٥٨ ـ د. سيدة إسماعيل كاشف، مصر الإسلامية وأهل الذمة، مرجع سابق، ص ٥٥، ٥٦

٥٩ ـ يسمى أيضاً "المقتدر".

الاراخنة يقدر يقاومه في خطاب ولا يراده ...[٦٠]".

وفي عهد هذا البطريرك أوقف الأقباط زياراتهم للأماكن المقدَّسة بسبب المصاعب التي كانوا يلاقونها من الإفرنج بسبب إيمانهم.

وبعد وفاة المستعلي بالله جلس ابنه المنصور أبو علي[٦١] (١١٠٢-١١٣٠م)، وعمره يومئذ ست سنين. وفي خلافته أشرف الأقباط على أموال الخليفة ضمن ديوان سُمي "ديوان المجلس". ولم يقتصر الأمر على تعيين أهل الذِّمة لرئاسة الدَّواوين بالإدارة المركزيَّة، بل عيَّنوا ولاة بالأقاليم. وكانت النتيجة المباشرة لتولي أهل الذِّمة منصبي الوزارة والوساطة ورئاستهم لمعظم الدَّواوين، وانحياز هؤلاء الوزراء والوسطاء ورؤساء الدَّواوين من أهل الذِّمة لبني ملتهم أن اكتظت الدَّواوين الحكوميَّة بالكُتَّاب وصغار الموظفين الذِّميين الذين سيطروا على إدارات الدَّولة بصورة ملفتة للنَّظر[٦٢].

واستمر نفوذ الأقباط في خلافة الحافظ (١١٣٠- ١١٤٩م)، وكان غالبيتهم من العاملين في مسح الأراضي، وتحصيل الضَّرائب. وكان آخر الخلفاء الفاطميين هو العاضد (١١٦٠- ١١٧١م).

وكلما ازداد نفوذ الأقباط كان الخلفاء الفاطميون يصرفونهم عن أعمالهم ويصدرون أوامرهم بألاَّ يولى أهل الذِّمة شئ من أعمال المسلمين، ولكن سرعان ما يعود الأقباط إلى الدَّواوين بأوفر مما كانوا عليه.

وعلى وجه العموم - باستثناء فترة حكم الحاكم بأمر الله - يشيد

---

٦٠ - سير البيعة المقدسة، المجلد الثاني، الجزء الثالث، مرجع سابق، ص ٢٤٢

٦١ - يُسمى أيضاً "الآمر".

٦٢ - د. سلام شافعي، أهل الذمة في مصر في العصر الفاطمي الأول، مرجع سابق، ص ٧٧

ساويرس بن المقفع أسقف الأشمونين بتسامح الخلفاء الفاطميين فيقول إنه في العصر الفاطمي أصبح جميع مقدّمي المملكة والنّاظرية في دواوينها وتدبير أمورها كلهم نصارى(٦٣).

أهل الذّمة، ولاسيّما الأقباط، في العصر الفاطمي

كان للأقباط في العصر الفاطمي - باستثناء فترة بسيطة منه - دورٌ كبير في كافة الميادين السّياسية والاقتصاديّة والاجتماعيّة. فقد أسند الخلفاء الفاطميون إلى أهل الذّمة كثيراً من الوظائف العامة في الدّولة، فكان منهم الوزراء والوسطاء ورؤساء الدّواوين والكُتّاب، كما عملوا في الوظائف المالية والإداريّة في الدواوين، لمهارتهم وخبرتهم في تلك الوظائف(٦٤).

فمن الوجهة السّياسيّة

شارك الوزراء والوسطاء من أهل الذّمة في تنفيذ السّياسة الدّاخلية والخارجيّة للدّولة، بل وأسهموا في رسم السّياسات. ومن أشهر الوزراء في ذلك العصر "يعقوب ابن كلس اليهودي" الذي نال لقب "الوزير الأجلّ" في خلافة العزيز بالله، فتزايد رفعةً وتكريماً وامتدحه كبار رجال الدّولة وقوادها، وقد وصل نفوذه إلى حد أنه عزل جوهر القائد من منصبه، مما أدى إلى محاولة اغتياله سنة ٩٨٣م، فاستغنى عن المغاربة وأحل محلّهم الأتراك والإخشيديّة. وفي النهاية كانت النتيجة الطبيعيّة أن عزله العزيز من منصبه سنة ٩٨٣م، وصادر أمواله، وجرّده من أمواله، واعتقله لعدة شهور، وإذ ارتبكت أمور الدّولة وساءت أحوالها أعاده إلى منصبه.

---

٦٣ ـ انظر: د. سيدة إسماعيل كاشف، مصر الإسلامية وأهل الذمة، مرجع سابق، ص ١٣٨

٦٤ ـ د. سلام شافعي، أهل الذمة في مصر في العصر الفاطمي الأول، مرجع سابق، ص ٧

ويعتبر يعقوب ابن كلّس من أبرز رجال الدَّولة الفاطميَّة الـذين قـادوا الحركة العلميَّة في العصر الفاطمي الأوَّل. ويرجع الفضل لـه في تحويـل الجامع الأزهر إلى جامعة علميَّة ومركزاً للدِّراسات الفقهيَّة بنـاء عـن اقتراحه الذي وافق رضى العزيز بالله سنة ٩٨٨م[٦٥].

ومن بعد ابن كلّس اليهودي، جاء عيسى بن نسـطوروس، وهـو نصراني من أقباط مصر، تولى منصب الوساطة[٦٦] سنة ٩٩٤م، فأشـرف على كل دواوين الدَّولة وأحكم سيطرته عليها. ولكنه تعصَّب لبني ملّتـه وعيَّنهم في الإدارات والدَّواوين الحكوميَّة، وعزل الكُتَّاب وجباة الضَّرائب من المسلمين. وتركت هذه السِّياسة المتحيِّزة آثاراً سـيئة[٦٧]. وغيرهمـا كثيرون من الأقباط الذين تولوا شؤون إدارة البلاد.

ومن الوجهة الاقتصاديَّة

نعني بالوجهة الاقتصاديَّة النَّشاط الزِّراعي والصِّناعي والتُّجاري.

- ففي مجال النَّشاط الزِّراعي:

أسهم الأقباط بقدر كبير في النَّشاط الزِّراعي، إذ كـانوا يمتلكـون الأراضي الزِّراعيَّة والضِّياع الواسعة.

- وفي مجال النَّشاط الصِّناعي:

شارك الأقباط في النَّهضة الصِّناعية الكُبرى التي شهدها مصر في ذلك العصر، فكانوا هم عماد الصِّناعة في مصر في ذلك الحين وعلى أيـديهم

٦٥ـ نفس المرجع، ص ٨ ، ٥٣، ٥٥

٦٦ـ بعد يعقوب بن كلس ألغى العزيز بالله منصب الوزارة، وأنشأ منصباً جديـداً هو منصب الوساطة.

٦٧ـ د. سلام شافعي، أهل الذمة في مصر في العصر الفاطمي الأول، مرجع سابق، ص ٦٠

ازدهر النَّشاط الصِّناعي، ومن خلال نظرة فاحصة نجد أن أهل الذِّمة في مصر تركّزت في أيديهم معظم الصِّناعات المصريَّة، وأن الصنَّاع الأقباط كانوا هم المهيمنين على تلك الصِّناعات، ولهم اليد الطولى في كثير من فنون ذلك العصر. ولقد ظهر أثر الفن القبطي في كثير من الصِّناعات والفنون إلى درجة تدعو إلى الإعجاب والتَّقدير. وكان من بين الصِّناعات التي ظلّت زاهرة في العصر الفاطمي، صناعة النَّسيج، والصناعات الخشبيَّة وصناعة المعادن والعاج، وصناعة الورق والتَّجليد، وصناعة الزُّجاج والبلُّور الصَّخري والخزف.

ـ أما في مجال التِّجارة الدَّاخليَّة:

فقد قام الأقباط بدور له أهميَّته، فلقد زخرت القُرى التي يغلب عليها السُّكان الأقباط بالأسواق العامرة بما يسد حاجة سكانها، فعلى سبيل المثال كانت مدينة تنيس الصِّناعيَّة الكُبرى التي يقدر عدد سكانها بنحو خمسين ألف نسمة يغلب على أهلها السُّكان القبط، كان بها ما يزيد على عشرة آلاف دُكّان منها مائة دُكّان عطار، ويرابط في مينائها حوالي ألف سفينة. واشتغل كبار التُّجار من أهل الذِّمة بتجارة الغلال حتى كان لدي واحد منهم ما يكفي لإطعام أهل مصر (الفُسطاط) عدَّة سنوات. كما اشتغلوا بتجارة الرَّقيق وأعمال الصيرفة وتجارة الذَّهب والجواهر من الأعمال التجاريَّة التي نجح فيها أهل الذِّمة، وخاصة اليهود. وكان تجّار الجواهر والصيارفة لا يغلقون أبواب دكاكينهم بل يسدلون عليها السَّتائر فقط نظراً لحالة الأمن التي عمَّت البلاد في هذا العصر، وقوَّة الحكومة المركزيَّة.

وقد صاحب انتعاش الحركة التجارية بالأسواق انتعاشاً للأسطول التجاري، ولقد تعجب المقدسي من كثرة المراكب التي تجوب نهر النيل،

كما تعجب لكثرة المراكب الراسية أمام ساحل الفسطاط[٦٨].

- وفي مجال التِّجارة الخارجيَّة:

انتعشت التِّجارة الخارجيَّة كثيراً في العصر الفاطمي الأوَّل، فكان لليهود نشاط ملحوظ في هذا الميدان، ولكن المصريين كانوا لا يترحون عن مصر للتِّجارة الخارجيَّة إلاّ في القليل النَّادر[٦٩].

ومن الوجهة الاجتماعيَّة

حظي أهل الذِّمة بنفوذ كبير ليس في دواوين الماليَّة فقط، بل تعداه إلى جميع فروع الإدارة، لاسيَّما في خلافة العزيز (٩٧٥-٩٩٦م)، نتيجة لزواجه من نصرانيَّة هي أم ست المُلك. ولقد تسلَّط أهل الذِّمة في عهده إلى حد أن وصل الأمر إلى سخط عام لدي مسلمي مصر[٧٠]. ولكن لم يكن من السَّهل الاستغناء عن الأقباط في دواوين الدَّولة الفاطميَّة لأن أغلب هؤلاء القبط كانوا على دراية تامة بالشؤون الإداريَّة والماليَّة.

شكَّل أهل الذِّمة طبقة اجتماعيَّة متميِّزة عاشت في قرى ومدن مصر، وعلى الرَّغم من أن العرب نزلوا إلى ريف مصر وسكنوه مع سكانه الأصليين، إلاّ أنه كانت هناك بعض القرى والمدن المصريَّة التي غلب على سكانها أهل الذِّمة وبخاصة الأقباط. والواقع أن معظم قرى مصر لم تخل من السُّكَّان الأقباط مهما كانت نسبتهم إلى عدد السُّكَّان. وامتلك كبار رجال الدَّولة من الأقباط الثَّروات الطَّائلة والقصور الفخمة، ونشأت بين كثير منهم وقصور الخلافة علاقات طيِّبة وصلات وثيقة، فمنحهم الخلفاء

٦٨- نفس المرجع، ص ١٤٥- ١٤٩، ١٦٣

٦٩- نفس المرجع، ص ٨، ١١٠، ١٥٠

٧٠- د. ناريمان عبد الكريم، معاملة غير المسلمين في الدولة الإسلامية، مرجع سابق، ص ١١٩

الفاطميون الألقاب وخلعوا عليهم الهدايا[٧١].

ولقد استخدم الخلفاء الفاطميُّون أطباء من أهل الذِّمة في قصورهم، وكانت وظيفة الطَّبيب من أعظم الوظائف وأعلاها في ذلك العصر. وقد ضمَّت المكتبات الخاصة بأهل الذِّمة وبخاصة الأطباء منهم الكثير من الكُتُب العلميَّة والمخطوطات النَّادرة، أو الكُتُب العلميَّة التي قاموا بتأليفها بتكليف من الخلفاء أو تقرباً إليهم. وقد أغدق الخلفاء الفاطميُّون على كثير من الأطباء من أهل الذِّمة بالأموال والهدايا تشجيعاً وتكريماً لهم[٧٢].

الأعياد القبطيَّة أحد مظاهر الحياة الاجتماعيَّة

وكانت الاحتفالات بأعياد أهل الذِّمة من أهم مظاهر الحياة الاجتماعيَّة في العصر الفاطمي الأوَّل، فقد شارك الخلفاء الفاطميون وعامَّة المسلمين في الاحتفال في كثير من هذه الأعياد، وإن كان بعض خلفاء العصر الفاطمي الأوَّل قد فرضوا قيوداً على بعض هذه الأعياد لأسباب احتماعيَّة، إذ قد شاب بعض هذه الأعياد الكثير من مظاهر الفساد والانحلال والمجون[٧٣]. ومن التَّقاليد التي أدخلتها الدَّولة الفاطميَّة في يوم خميس العهد وهو عيد عند الأقباط، ضرب نقود خاصة توزَّع في هذا العيد[٧٤].

ويذكر المقريزي أن للقبط أربعة عشر عيداً شرعياً سبعة أعياد

٧١ــ د. سلام شافعي، أهل الذمة في مصر في العصر الفاطمي الأول، مرجع سابق، ص ٩، ٩٧

٧٢ــ نفس المرجع، ص ١٢٩، ١٦٩

٧٣ــ نفس المرجع، ص ٩، ١٨٦

٧٤ــ د. سيدة إسماعيل كاشف، مصر في عصر الإخشيديين، مرجع سابق، ص ٢٥٢

يسمونها أعياداً كباراً، وسبعة يسمونها أعياداً صغاراً[٧٥]. أما الأعياد الكبار فهي: البشارة، الزَّيتونة (أحد الشّعانين)، الفصح، خميس الأربعين (الصُّعود)، الخمسين (العنصرة)، الميلاد، والغطاس. أما الأعياد الصِّغار فهي: الختان، الأربعون (دخول المسيح الهيكل)، خميس العهد، سبت النُّور، حد الحدود أو الأحد الجديد (أحد توما)، التَّجلي، وعيد الصَّليب[٧٦]. أما الأعياد التي اتخذت طابعاً شبه قومي كما يذكرها المقريزي فهي: عيد الشَّهيد (عيد مار مرقس في ٨ بشنس)، وعيد الخروج: وهو عيد الخروج لسجن يوسف بالجيزة، وعيد النَّيروز.

ويلخِّص المقريزي (١٣٦٥- ١٤٤١م) حالة الأقباط في ذلك الوقت فيقول: تفاخروا وتظاهروا بالملابس وركبوا البغلات الرَّائعة والخيول المسومة بالسُّروج، وضايقوا المسلمين في أرزاقهم واستولوا على الأحباس الدِّينيَّة والأوقاف الشَّرعيَّة[٧٧].

وكثرت الأراضي الزِّراعية والبساتين التي حول الأديرة، أو الموقوفة عليها، وكذلك تلك التي كانت في حوزة الكنائس. وتهافت الأقباط - وخاصة الموظفين منهم - على تعدد السَّراري في بيوتهم، وشراء الجواري، واتخاذ الرَّقيق واستخدامهم، وهو ما يتنافى مع روح الدِّيانة المسيحيَّة[٧٨].

ويقول كتاب سيَر البيعة المقدَّسة في ذلك: "ولما صار جميع مقدمي

٧٥- المقريزي، الخطط، ج١، ص ٢٦٣، مقتبس عن: د. سلام شافعي محمود، أهل الذمة في مصر في العصر الفاطمي الأول، مرجع سابق، ص ١٨٧

٧٦- د. سلام شافعي، أهل الذمة في مصر في العصر الفاطمي الأول، مرجع سابق، ص ١٨٧- ١٩٨

٧٧- د. ناريمان عبد الكريم، معاملة غير المسلمين في الدولة الإسلامية، مرجع سابق، ص ١٢٣

٧٨- د. سلام شافعي، أهل الذمة في مصر في العصر الفاطمي الأول، مرجع سابق، ص ١٧٣، ١٨٣

المملكة والناظرين في دواوينها وتدبير امورها كلهم نصارى، وهم الملاك النافذ امرهم طنخوا وعتوا وبذخوا هم وجميع النصارى بديار مصر وتكبروا وعزت نفوسهم ووقع بينهم البغضة والحسد وبين مقدميهم، وصار اكثر اهتمامهم بالامور الدنيانية والتجمل والتفاخر والكبريا على بعضهم بعض، فترل الادب من السما من عند السيد المسيح على جميع النصارى ...[٧٩]". ففي حدود سنة ١٠٧١م "تزايد الغلا والخوف وعدم القمح إلى أن أكلوا الناس الميتة ثم أكلوا بعضهم بعضاً، ومنهم قوماً أكلوا أولادهم وفنى الناس بالوبا والغلا والسيف حتى لم يبق منهم إلا اليسير ولقى الناس بمصر واعمالها من الشدايد والمصاعب والبلايا ما تطول السيرة بشرح بعضه ...[٨٠]".

ومن بين من اشتهر من الأقباط في العصر الفاطمي، أبو اليُمن بن مكرواه أمين خزانة الخليفة، وارتقى في مناصبه حتى سُمي "أمين الأمناء" وهو الذي عمَّر دير أبي السَّيفين بطمويه، وأحاطه ببساتين واسعة، كان يتردَّد عليها وزراء الدَّولة للتَّرويح عن النَّفس بها، وهو الدَّير الباقي إلى الآن. ومنهم أيضاً ابن زنبور، وأبو الطيِّب الرَّرواي، وأبو السرور يوحنا بن يوسف الأبح[٨١].

٧٩ـ سير البيعة المقدسة، المجلد الثاني، الجزء الثالث، مرجع سابق، ص ١٧٣
٨٠ـ نفس المرجع، ص ١٨٤
٨١ـ نفس المرجع، ص ١٨٠

جدول بأسماء الخلفاء الفاطميين

اسم الخليفة	السَّنوات الهجريَّة لحكمه	السَّنوات الميلاديَّة لحكمه
١ ـ عبيد الله المهدي	٢٩٧ ـ ٣٢٢ هـ	٩٠٩ ـ ٩٣٤ م
٢ ـ القائم بأمر الله	٣٢٢ ـ ٣٣٤	٩٣٤ ـ ٩٤٦
٣ ـ المنصور	٣٣٤ ـ ٣٤١	٩٤٦ ـ ٩٥٣
٤ ـ المعز لدين الله	٣٤١ ـ ٣٦٥	٩٥٣ ـ ٩٧٥
٥ ـ العزيز بالله	٣٦٥ ـ ٣٨٦	٩٧٥ ـ ٩٩٦
٦ ـ الحاكم بأمر الله	٣٨٦ ـ ٤١١	٩٩٦ ـ ١٠٢١
٧ ـ الظاهر لإعزاز دين الله	٤١١ ـ ٤٢٧	١٠٢١ ـ ١٠٣٦
٨ ـ المستنصر بالله	٤٢٧ ـ ٤٨٧	١٠٣٦ ـ ١٠٩٤
٩ ـ المستعلي بالله	٤٨٧ ـ ٤٩٥	١٠٩٤ ـ ١١٠١
١٠ ـ الآمر بأحكام الله	٤٩٥ ـ ٥٢٥	١١٠١ ـ ١١٣٠
١١ ـ الحافظ لدين الله	٥٢٥ ـ ٥٤٤	١١٣٠ ١١٤٩
١٢ ـ الظافر بأمر الله	٥٤٤ ـ ٥٤٩	١١٤٩ ـ ١١٥٤
١٣ ـ الفائز بنصر الله	٥٤٩ ـ ٥٥٥	١١٥٤ ـ ١١٦٠
١٤ ـ العاضد لدين الله	٥٥٥ ـ ٥٦٧	١١٦٠ ـ ١١٧١



الفَصل الثّامن

كنيســة مصــر
في عصر الأيوبيِّين والمماليك

أولاً: العصر الأيوبي

يستمد الأيوبيون اسمهم من أيوب (مات سنة ١١٨٢م) أبي صلاح الدِّين (١١٧١- ١٢٥٠م)، المؤسِّس الحقيقي للدَّولة الأيوبيَّة الذي استأصل مع خلفائه خطر الحملات الصَّليبيَّة على مصر وسورية. وكان موقف أقباط مصر مختلفاً كل الاختلاف عن الملكانيين، وعن المسيحيين الشَّرقيِّين، فلقد ناصر مسيحيو الشَّرق بكل طوائفهم الحملات الصَّليبيَّة عدا الأقباط وحدهم الذين وإن لم يكونوا يملكون القوَّة لصد الغازين لأوطانهم، إلاّ أنهم لم يرحِّبوا بهم. لقد نظر الأقباط إلى الصَّليبيِّين على أنهم أعداء الشَّرق، ولم ينخدعوا بعلامة الصَّليب التي جعلوها شارة لهم، لأن الصَّليب لم يكن أبداً أداة حرب بل سلام، ولم يكن أبداً علامة تجبُّر وتسلُّط بل حب وتسامح هو أعظم بكثير من القوَّة. لقد كانت الحملات الصَّليبيَّة علامة خزي في جبين المسيحيَّة الغربيَّة التي فقدت حيناً الرؤية الصَّحيحة لمعنى الصَّليب[1].

ولغيظ الصَّليبيِّين من عدم مساعدة الأقباط لهم أصدروا قانوناً يمنع الأقباط ومعهم أهل السودان من زيارة القبر المقدَّس بعد أن سيطروا على فلسطين ردحاً من الزَّمان.

١- صدرت جريدة الأهرام في ٢٠٠٠/٣/١٢م وعلى صفحتها الأولى عنوان: "الفاتيكان يعتذر عن الحروب الصليبية ومحاكم التفتيش".

حالة الأقباط في العصر الأيوبي

بدأ الحكم الأيوبي بداية سيِّئة، لأن صلاح الدِّين أعاد سنة ١١٨١م القوانين الخاصة بأهل الذِّمة، وأبعد المسيحيِّين عن العمل في دواوين الحكومة، مما دفع البعض منهم إلى إنكار الإيمان. ولكن هذا الوضع لم يدم طويلاً لأن الإدارة الأيوبيَّة كانت في حاجة إلى كفاءة المسيحيِّين وخدمتهم. وعموماً كان حال الأقباط في عصر الدَّولة الأيوبيَّة أفضل من غيرها.

وفي هذه الفترة من التَّاريخ لا يمكننا أن نغفل أن الحملات الصَّليبيَّة قد أوجدت هوَّة عميقة بين المسيحيَّة والإسلام. ولكن الأقباط ظلُّوا آمنين طوال العصر الأيوبي، وبلغوا مبلغاً كبيراً من الثَّروة والنفوذ.

الملوك الذين حكموا مصر بعد صلاح الدِّين

تملَّك الملك العادل (١٢٠٠– ١٢١٨م) أخو صلاح الدِّين الحُكم، واستطاع المحافظة على تماسك الدَّولة بعد المنازعات التي حدثت عقب موت صلاح الدِّين. ومن بعده جاء الملك الكامل (١٢١٨– ١٢٣٨م)، وهو الذي أنشأ مدينة المنصورة سنة ١٢٢١م. وفي عهده هاجم الصَّليبيُّون دمياط ضمن الحملة الصَّليبيَّة الخامسة، واستولوا عليها، وباعوا سكانها بيع العبيد، وحوَّلوا مساجدها إلى كنائس، واضطرهم الملك الكامل إلى إخلائها سنة ١٢٢١م.

وجاء الملك العادل الثَّاني (١٢٣٨– ١٢٤٠م). ومن بعده الملك الصَّالح أيوب (١٢٤٠– ١٢٥٠م)، وفي أيامه نزل لويس التَّاسع إلى دمياط ليحتلها سنة ١٢٤٩م، في الحملة الصَّليبيَّة السَّادسة، وأثناء تحركهم إلى

المنصورة مات الملك الصَّالح فأخفت زوجته شجر الدُّر[٢] خبر وفاته عن الجيش حتى لا يفشلوا، وواصلوا المعركة بقيادة الظَّاهر بيبرس وقطز وفارس الدِّين أقطاى. ثم سلَّمت شجرة الدُّر طورانشاه سلطنة أبيه سنة ١٢٥٠م، وقاد المعركة إلى نهايتها الظَّافرة، ولكن المماليك قتلوه في نهايتها[٣]. وفي عهد الظَّاهر بيبرس أُلزم بطريرك الأقباط بدفع مبالغ طائلة تعويضاً عن خسائر حريق شبَّ في القاهرة واتُّهم الأقباط بتدبيره، والتزم البطريرك طبعاً بهذه الأموال.

جدول بأسماء الأيوبيِّين في مصر

أسماء الحكّام الأيوبيِّين	سنة توليهم الحكم
الناصر صلاح الدِّين يوسف بن أيوب	١١٧٤م
العزيز عثمان بن صلاح الدين	١١٩٣م
المنصور محمد بن عثمان	١١٩٨م
العادل (الأوَّل) أحمد بن عثمان	١١٩٩م
الكامل محمد بن أحمد	١٢١٨م
العادل (الثَّاني) محمد بن محمد	١٢٣٨م
الصالح نجم الدين أيوب بن محمد	١٢٤٠م
المعظم توران شاه بن نجم الدِّين	١٢٤٩م

٢ـ يشير إليها الكثيرون خطأً باسم "شجرة الدُّر"، ولكن الاسم الصَّحيح هو "شجر الدُّر".

٣ـ حسين فوزي، سندباد مصري، مرجع سابق، ص ٣٧٢

ثانياً: عصر المماليك

إن نشوء دولة المماليك أمر عجيب يكاد أن يكون فريداً من نوعه في التَّاريخ. فالمماليك كما يدل اسمهم هم أصلاً من الرَّقيق ذوي الجنسيَّات المختلفة، ولكنهم استطاعوا أن يجعلوا من أنفسهم طبقة عسكريَّة حاكمة وفي بلاد غير بلادهم الأصليَّة.

لقد وضع أساس سلطنة المماليك امرأة هي شجر الدُّر، أرملة الملك الصَّالح الأيوبي المتوفى سنة ١٢٤٩م. وقد كانت هذه المرأة في أول نشأتها أمة أرمينيَّة، ثم صارت جارية للخليفة المستعصم، وبعد ذلك دخلت في جواري الصَّالح فأعتقها بعد أن ولدت له صبياً. وعندما توفي الصَّالح، كانَ ابنه الأشرف ما يزال صبياً صغيراً، فقامت شجر الدُّر بمهمة الوصاية عليه، فكانت بالفعل هي الحاكم الحقيقي للبلاد. وهنا أرسل سيِّدها السَّابق الخليفة المستعصم يعاتب أمراء مصر قائلاً: إن كان ما تبقَّى عندكم رجل تولونه فقولوا لنا نرسل إليكم رجلاً.

وقامت شجر الدُّر بإدارة شؤون السَّلطنة مدَّة ثمانين يوماً، وهي المرأة المسلمة الوحيدة التي حكمت بلاداً في شمال أفريقيا وغرب آسيا. وظلَّت تمارس سلطتها المطلقة في تلك البلدان، وضُربت النقود باسمها، وأمرت بأن يُخطب لها أيام الجمعة على المنابر.

ولما اختار الأمراء قائد جيشها عز الدِّين أيبك التركماني (١٢٥٠-١٢٥٧م) سلطاناً على البلاد تزوَّجت منه. وسرعان ما خلع أيبك الأشرف الطفل وتخلَّص من قائده. ولكن شجر الدُّر لم تكتف بمشاركة أيبك في الملك بل فرضت إرادتها عليه. ولما بلغها أنه يريد الزَّواج بامرأة ثانية، دبَّرت له مكيدة قُتل بها في الحمَّام الملكي بقلعة القاهرة.

غير أن شجر الدُّر نفسها لم يطل عمرها بعد ذلك، إذ قُتلت هي بدورها بأيدي جواري زوجة أيبك الأولى ضرباً بالقباقيب، وطُرحت جثتها من برج القلعة.

هذه هي "شجرة الدُّر" تلك الجارية الأرمينيَّة التي قدمت مصر لقمة سائغة إلى بني جنسها المماليك ليحكموا مصر قرابة قرنان ونصف من الزَّمان أو يزيد[٤].

عبيد غرباء يحكمون مصر!

يتساءل الأستاذ جمال بدوي، كيف سكت المصريون - وهم أبناء المجد القديم والحضارة العريقة - على استبداد المماليك وانفرادهم بالحكم دونهم؟ كيف تقبَّل المصريون هذا الوضع المهين واستسلموا له كأنه قدر لا فكاك منه؟ هذا السؤال يجب أن يطرحه كل مصري على نفسه ويبحث عن الجواب[٥]. لقد تقبَّل المصريون الأمر الواقع باستسلام وطواعية، ولم تظهر عليهم بادرة تمرُّد أو سخط لأنهم كانوا قد فقدوا القدرة على التمرُّد والسَّخط منذ أن حكمهم الأغراب قبل ١٥٠٠سنة، فقد كان هذا شأن تاريخهم السِّياسي من أقدم الأزمان، أن تتبدَّل عليهم السَّادة وتتعاقب، ولم يشعروا بالدَّهشة إذ تحكمهم جارية مجهولة الهويَّة.

تولى الحُكم بعد شجر الدُّر سلاطين المماليك، وهم ينقسمون إلى:

١ - دولة المماليك البحريَّة (١٢٥٠ - ١٣٨٢م).

٢ - دولة المماليك البُرجيَّة (١٣٨٢ - ١٥١٧م).

---

٤ - جمال بدوي، نظرات في تاريخ مصر، مرجع سابق، ص ١٠

٥ - د. سيدة إسماعيل كاشف، مصر في فجر الإسلام، مرجع سابق، ص ٢١

وبلغ عدد سلاطين دولة المماليك البحريَّة أربعة وعشرين باستثناء شجر الدُّر، أما سلاطين البُرجيَّة فقد كانوا ثلاثة وعشرين.

دولة المماليك البحريَّة

هم سكان جزيرة الرَّوضة لذلك سموا بالمماليك البحريَّة. وهم مغامرون قادمون من فيافي القوقاز، وهم أصلاً من رقيق الصَّالح الأيوبي، وكانوا من التُرك أو المغول. أما المماليك البُرجيَّة فقد سموا كذلك لأنهم سكنوا أبراج قلعة الجبل، وكانوا أصلاً الحرس الخاص للمملوك السُّلطان قلاوون، وكان معظمهم أرقاء شراكسة.

أنجب المماليك شخصيَّتين أسطوريَّتين في شجاعتهما هما السُّلطان قطز والسُّلطان الظَّاهر بيبرس البندقداري (١٢٦٠- ١٢٧٧م)، وهذا الأخير هو الذي بنى سنة ١٢٦٩م مسجده في الحي المعروف باسمه حتى اليوم.

ومن بعده جاء المنصور قلاوون (١٢٧٩- ١٢٩٠م)، وحارب المغول وصدَّهم. وبذلك يمكن القول بأن الأيوبيين ومماليكهم أزاحوا عن مصر أكبر خطر تهدَّدها في عصرها الوسيط(٦).

ثم جاء الأشرف خليل (١٢٩٠- ١٢٩٣م) وقضى على آخر حصن للصَّليبيِّن في الأرض المقدَّسة بالاستيلاء على عكا سنة ١٢٩١م.

وجاء النَّاصر محمد بن قلاوون (١٢٩٣- ١٣٤٠م) وهو من أعظم سلاطين المماليك، وتولى المُلك وهو ابن تسع سنين. وكان بناءً عظيماً، وتعد الآثار التي تركها من كنوز القاهرة، ومن بينها السُّور المائي الكبير فيما بين فم الخليج والقلعة، المعروف بسور "السَّبع سواقي".

---

٦ ــ حسين فوزي، سندباد مصري، مرجع سابق، ص ٣٧٤

دولة المماليك البُرجيَّة

كان آخر أولاد قلاوون الذين تولوا عرش المماليك البحريَّة هو الغلام حاجي، وسنه ست سنوات. فكانت فرصة انتهزها العملاق الجركسي برقوق (١٣٨٢- ١٣٩٩م)، فأزاح الغلام عن كرسي المملكة وتولى السَّلطنة مؤسِّساً بذلك أسرة المماليك الشَّراكسة أو المماليك البُرجيَّة.

وكان برقوق بناءً عظيماً، دفع عن الشَّرق الأدنى زحف المغول، وهم برابرة من أواسط آسيا بقيادة تيمور الأعرج (لنك).

ومن بعده تولى ابنه السُّلطان فرج بن برقوق السَّلطنة (١٣٩٩- ١٤١٢م) وكان في الثَّالثة عشر من عمره. ثار عليه الأمراء وقضوا عليه، وعلى رأسهم الأمير شيخ المحمودي.

تولى السُّلطان المؤيد شيخ (١٤١٢- ١٤٢١م)، وكان من أشد الملوك اضطهاداً لأهل الذِّمة، فحكم عليهم بلبس ملابس من لون خاص، وعمامات سوداء، وبحمل صلبان أو كرات كبيرة من الخشب في رقابهم[٧]. ويذكر المقريزي ـ المعاصر لتلك الأحداث ـ أنه بعد الأوامر المتشدِّدة على أهل الذِّمة التي صدرت في سنة ٨٢٢هـ/ ١٤١٩م، اعتنق بعض الموظفين من أهل الذِّمة الإسلام وصاروا يتعاظمون "... على أعيان أهل الإسلام، والانتقام منهم باذلالهم وتعويق معاليمهم ورواتبهم حتى يخضعوا لهم ويترددوا إلى دورهم ويلحوا في السؤال، ولا حول ولا قوة إلاَّ بالله ...[٨]".

وجاء الأشرف برسباي (١٤٢٢- ١٤٣٨م) بعد أن أزاح الطِّفل ابن

٧ـ حسين فوزي، سندباد مصري، مرجع سابق، ص ٣٧٦
٨ـ د. سيدة إسماعيل كاشف، مصر الإسلامية وأهل الذمة، مرجع سابق، ص ١٥٨

المؤيد شيخ من السَّلطنة. وفي الفترة مـــن (ســنة ١٤٦٠- ١٤٦٧م) ازداد التشدُّد في منع ترميم الكنائس حتى أن السُّلطان الظَّاهر خشقدم استحدث وظيفة جديدة عيَّن لها الأمير جانبك الدوادار للتفتيش علــى الكنــائس ومراقبة ما يتجدَّد فيها، إلى حد أن أرسلت سفارات من الدَّولة البيزنطيَّة والحبشيَّة للشَّفاعة في فتح الكنائس(٩).

ومن بعده كان السُّلطان قايتباي (١٤٦٨- ١٤٩٦م). ويذكر ابــن إياس أنه في سنة ٩٨٣هـ/ ١٤٨٧م أحضر السُّلطان الأشــرف قايتبــاي بطريرك النَّصارى ورئيس اليهود وألزمهما بمبالغ من المال اللآزم لتجهيــز الجيش لقتال العثمانيين(١٠).

وجاء السُّلطان قانصوه الغوري (١٥٠١- ١٥١٦م) الذي انهزمــت جيوشه في معركة مرج دابق بسبب خيانة بعض أمرائه. أما آخر سلاطين المماليك طومان باي فقد أسره سليم الأوَّل بعد حرب دارت رحاهــا في شوارع القاهرة، وينتهي أمره بالشَّنق على باب زويلة، فتتحوَّل مصر إلى ولاية عثمانيَّة.

الجواري في عصر المماليك

انتشرت أسواق الجواري في مصر وكانت تجارة الرَّقيــق رائجــة في ذلك الوقت، وكان لكل نوع من هؤلاء الجواري ســوق خاصــة بــه. فالجواري السود كن يُبعن في أســواق أسـيوط والقــاهرة، وكــان في الفُسطاط دار تُسمى دار البركة أو بركة الرَّقيق يُباع فيها هذا النَّوع مــن

٩- نفس المرجع، ص ١٥٩

١٠- نفس المرجع، ص ١١٣

الرَّقيق. أما الرَّقيق الأبيض فكانت سوقه قرب الجامع الأزهر[١١].

لقد كانت الجواري تشكّل كثرة عدديَّة في مجتمع القاهرة، وعلى الأخص في دولة المماليك الأولى، بحيث لا نغالي إذا قلنا أنه قل أن تجد داراً إلاّ وبها بعض الجواري. فقد حاكى الأمراء والأهالي سلاطين المماليك في الإكثار من الجواري. وكان طبيعياً أن يقتني الكهنة الأقباط الجواري لأعمال الخدمة المنزليَّة، ففي وثيقة مكتوبة باللّغة العربيَّة جاء فيها أن قنصل البندقيَّة بالإسكندريَّة اشترى من يوحنا الكاهن القبطي جاريته "مباركة" النوبيَّة المسيحيَّة[١٢].

وانتشر التَّسري بين الأقباط، واقتنى الأقباط الجواري في درجاتهم الاجتماعيَّة المختلفة. ويقول المقريزي في حديثه عن النَّصارى سنة ٧٥٤هـ/ ١٣٥٣م، أيام الملك الصَّالح صالح بن النَّاصر محمد، يقول إنهم اقتنوا الجواري الجميلات من الأتراك والمولدات، ولكن اشتُرط عليهم ألاّ يشتروا من الرَّقيق مسلماً أو مسلمة[١٣].

ولكثرة الجواري من كل جنس ودين زهد الرَّجل في المرأة الحرَّة، وتفشَّت الأمراض الاجتماعيَّة في مصر إلى حد مؤسف.

حالة الأقباط في عصر المماليك

ظل الإسلام ينتشر في مصر باضطراد، وحدث في عصر النَّاصر محمد

١١ـ نفس المرجع، ص ٩

١٢ـ نفس المرجع، ص ٢٩ ٢٦

١٣ـ د. علي السيد محمود، الجواري في مجتمع القاهرة المملوكية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٨م، ص ١٥

بن قلاوون منذ سنة ٧٢٠هـ/ ١٣٢٠م، أن دخل المسيحيون أفواجاً في الدِّين الإسلامي على أثر المشاغبات والفتن بين المسلمين والأقباط، والظَّاهر أن حياد الحكومة نفسها وهدوء موقفها إزاء القبط لم يمنع الشَّعب نفسه من أن يسئ معاملة القبط، ويبدو أن الدَّواوين كانت غاصة بالقبط إلى عصر المماليك، مما كان سبباً في قيام عدة ثورات في هذا العصر كان المسلمون يهدفون بها إلى إخراجهم من الدَّواوين[١٤].

ولكن المقريزي يذكر أنه في نفس هذا العهد، أي عهد النَّاصر محمد بن قلاوون لم يستطع وزير من مراكش زار مصر سنة ٧٠٠هـ/ ١٣٠١م، أن يميِّز بين المسلمين وبين أهل الذِّمة في مصر إذ كانوا يلبسون أفخر الملابس ويركبون الخيل والبغال ويتولون أرفع المناصب في مصر[١٥]. ونحن لا نستطيع أن نقتطع ما يذكره المقريزي عن عهد النَّاصر محمد بن قلاوون في عبارته السَّابقة لنعمِّمها على كل عصره، لأن الأقباط ما كانوا يفلتون من هياج العامة وبطشهم، والذين دعاهم المقريزي سفلة العامة الأشرار[١٦]، على حد قوله، وذلك على مرأى ومسمع من الحكومة التي كانت لا تتدخَّل مطلقاً في مثل هذه الهوجات إلاَّ في حالات اختلال الأمن فقط، من أجل الأمن لذاته وليس لشئ آخر.

كما كانت الحكومة تضطر أحياناً إلى مجاراة الدَّهماء حين يثورون ضد أهل الذِّمة لأسباب مختلفة، فكانت تقوم التَّشريعات الخاصة بالموظفين القبط ... لكن هذه التَّشريعات لم تكن أحكاماً إسلاميَّة وإنما أحكاماً

١٤ـ د. سيدة إسماعيل كاشف، مصر في فجر الإسلام، مرجع سابق، ص ٣٤٩

١٥ـ د. سيدة إسماعيل كاشف، مصر الإسلامية وأهل الذمة، مرجع سابق، ص ١٦

١٦ـ المقريزي، السلوك ج ٤ القسم الثالث، ص ١٠٣٥. مقتبس عن: د. سيدة إسماعيل كاشف، مصر الإسلامية وأهل الذمة، مرجع سابق، ص ١٢٧

مدنيَّة لا يضبطها سوى الظروف الوقتيَّة التي أحاطت بها[١٧].

ومعروف أنه قد بُدء بفرض القيود على أهل الذِّمة في عصر المماليك في سنة ٧٠٠هـ/ ١٣٠١م بمرسوم أصدره السُّلطان النَّاصر محمد بن قلاوون، وجدَّده السُّلطان الصَّالح صالح بن النَّاصر محمد بن قلاوون (١٣٤٧- ١٣٦١م) في سنة ٧٥٥هـ/ ١٣٥٤م، وحفظه لنا القلقشندي وأشار إليه المؤرِّخون يذكر فيه منع أهل الذِّمة في دواوين الدَّولة والأمراء حتى في حالة إعلانهم الإسلام[١٨].

ودأبت دولة المماليك على مصادرة أوقاف الكنيسة القبطيَّة، وكانت أكبر هذه المصادرات ما تم في سنة ١٣٥٤م، حيث صودر حوالي ٢٥ ألف فدان من أراضي وأوقاف الكنائس والأديرة.

مجمل القول عن عصر المماليك

كان عهد المماليك من أسوأ عهود مصر، وتشير الإحصائيَّات الحديثة إلى أن ٥٠% من آثار مصر التي خرجت منها - سواء بطريق السَّرقة أو البيع أو تقديم الهدايا - وتوزَّعت على كل بلاد العالم ومتاحفه كانت في عصر المماليك وحدهم. ومن جهة أخرى، قد نجح هؤلاء السَّلاطين المماليك في تطهير مملكتهم في مصر وسوريا من بقايا الصَّليبيِّين، وصدّوا إلى الأبد تقدُّم جيوش المغول التي قادها هولاكو وتيمور لانك، ولولا عصر المماليك لكانت جيوش المغول قد غيَّرت مجرى التَّاريخ والثّقافة في غربي آسيا ومصر.

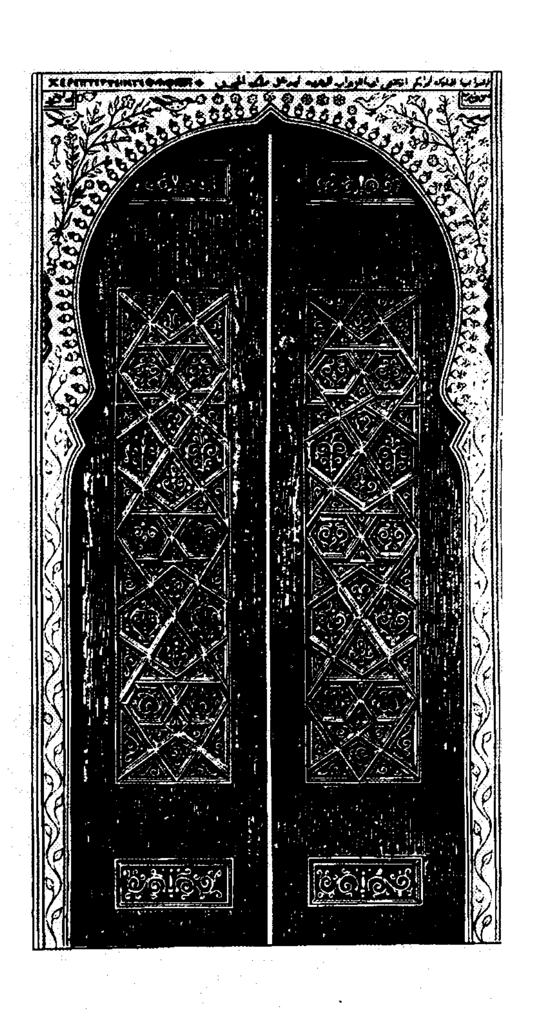
١٧- نفس المرجع، ص ١٤٠

١٨- نفس المرجع، ص ١٥٦، ١٥٨

ومع كل هذا، وبرغم كل ذلك، نجد مصر في الفترة ما بين الفتح العربي والفتح العثماني لم تصبح دولة إسلاميَّة فحسب، بل وتزعمت العالم الإسلامي كله. فبعد أن كانت مصر خاضعة للخلافة في عهد الولاة نجدها تصبح مركزاً للخلافة الفاطميَّة (٣٦٢- ٥٦٧هـ/ ٩٧٣- ١١٧٢م) التي نافست الخلافة العباسيَّة في وقت ما، ثم نجد مصر تصبح مركزاً للخلافة العباسيَّة بعد زوالها من بغداد على أيدي المغول في سنة ٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م، وانتقالها إلى مصر في عهد الظّاهر بيبرس سنة ٦٦١هـ/ ١٢٦٣م، تلك الخلافة التي ظلت قائمة بها إلى الفتح العثماني سنة ٩٢٣هـ/ ١٥١٧م. والدَّليل على علو شأن مصر في العالم الإسلامي منذ العصور الوسطى هو ما ورد في مقدمة بن خلدون تحت فصل (أن حملة العلم في الإسلام أكثرهم من العجم) حيث يقول: "ولا أوفر اليوم في الحضارة من مصر فهي أم العالم وإيوان الإسلام، وينبوع العلم والصَّنائع[١٩]".



١٩ـ د. سيدة إسماعيل كاشف، مصر في فجر الإسلام، مرجع سابق، ص ٢٦٢



الفَصل التَّاسع

كنيسة مصر في العصر العثماني

فتح العثمانيون مصر في سنة ١٥١٧م بقيادة السُّلطان سليم الأوَّل، ومنذ ذلك التَّاريخ صارت مصر ولاية عثمانيَّة حتى آخر القرن الثَّامن عشر، بعد أن كانت قاعدة لدولة كُبرى. وتشمل هذه الفترة مجيء الحملة الفرنسيَّة إلى مصر.

لقد كان الاحتلال العثماني لمصر وبالاً عليها، إذ كان عصر انحلال وظُلم، فقد جرَّ البلاد إلى حالة مذرية من التخلُّف أكثر مما آل إليه أمرها. كابد فيه الشَّعب المصري من جور الحُكَّام واستبدادهم ما يفوق الوصف. وفي هذا العصر البغيض اعتنق كثير من الصُّنَّاع المسيحيِّين الدِّيانة الإسلاميَّة.

وأدى الصِّراع على السُّلطة في مصر بين الدَّولة العثمانيَّة والمماليك إلى زعزعة الاستقرار وضعف الإدارة. وكانت الإدارة الضَّعيفة للبلاد سبباً مباشراً في إثارة الفتنة بين الرَّعيَّة من مسلمين وأقباط. ويقول الدكتور محمد عفيفي: والقول بأن الإدارة تميِّز المسلمين عن الأقباط تحوطه بعض التَّحفظات، فالمسلمون والأقباط عانوا معاً من المظالم الإداريَّة والاقتصاديَّة لحملة حسن باشا، ولذلك لجأ العامة (من النَّاس) إلى التَّنفيس عن أنفسهم باضطهاد الأقباط، سواء لأسباب ماليَّة لمواجهة المعاناة الاقتصاديَّة التي تطحنهم، أو لأسباب معنويَّة لإيهام أنفسهم بأنهم في مكانة أعلى من الأقباط، فالمضطَّهد الذي لا يملك سبيلاً لدفع الأذى عن نفسه يسقطه على غيره، وواضح أن الإدارة التي تبطش بالجميع، قد أعطت الضَّوء

الأخضر لحوادث العامة ضد الأقباط[١].

وكان للبكوات المماليك[٢] كلمة مسموعة في مصر إلى جانب الباشا الوالي العثماني. فقد عاشت مصر أكثر من خمسمائة عام تحت الحُكم المملوكي، الذي ظلّ يخيِّم على الحياة في البلاد، حيث ظلّ الحال كما هو في الواقع بالرَّغم من الفتح العثماني[٣].

لقد كان المملوكان الغاصبان علي بك ومراد بك، يتمتَّعان بقدر هائل من قلّة الحياء، فهما أسدان جسوران على الشَّعب المصري المسالم المستكين، فلا يتورعان عن حرق القُرى وتدمير المزروعات، وهتك الأعراض، وسبي النِّساء، وسفك الدِّماء، وتشريد النَّاس من أجل حفنة ريالات. ولكنهما كانا أرنبين هزيلين في ساحة الوغى[٤]. وكانت المظالم الماليَّة على الأقباط ومعهم المسلمين في أيام مراد بك وإبراهيم بك قد وصلت إلى حد شديد الوقع على النَّاس حتى ضجوا.

خلاصة القول في العصر العثماني

يلخِّص الدكتور طه حسين هذا العصر بقوله: "... نعم لقد عبرت على أهل الشَّرق القريب عواد، وألمّت بهم ملمَّات قطعت الصِّلة بينهم

١ـ الدكتور محمد عفيفي، الأقباط في مصر في العصر العثماني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٢م، ص ٩٥، ٩٧

٢- أمثال علي بك الكبير (١٧٦٨- ١٧٧٣م)، ومحمد بك أبو الذَّهب (١٧٧٣م) الذي خان مولاه علي بك، واستولى علي الحُكم بعد أن قضى عليه، ومن بعد موته جاء مراد بك المحمَّدي، وإبراهيم بك المحمَّدي نسبة إلى محمد بك أبو الذهب.

٣ـ الدكتور حلمي أحمد شلبي، الموظفون في مصر في عصر محمد علي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٩م، ص ١٢

٤ـ جمال بدوي، نظرات في تاريخ مصر، مرجع سابق، ص ٢٥

وبين أوروبا حيناً، وأفسدت عليهم أمرهم إفساداً عظيماً، ومكّنت لأوروبا من أن تمضي في نهضتها حتى تقطع في سبيل الرُّقي شوطاً بعيداً، على حين أخذ هذا الشَّرق القريب ينحط، ويسرف في الانحطاط، حتى كاد يفقد شخصيَّته العقليَّة. ثم أفاقت مصر، وأفاق معها الشَّرق القريب، فإذا أوروبا قد بلغت من الرُّقي حظاً عظيماً، وبسطت سلطانها على أعظم أقطار الأرض، وكان ذلك حين أغار العنصر التُّركي على هذه الأقطار الإسلاميَّة في حوض بحر الرُّوم، فردَّها إلى الانحطاط بعد الرُّقي، وإلى الجهالة بعد العلم، وإلى الضَّعف بعد القوَّة، ومحا أو كاد يمحو منها أعلام الحضارة، وقطع الصِّلة بينها وبين أوروبا دهراً[٥]".

كانت أوروبا تموج بالحياة الناهضة والأفكار والنُّظم الاقتصاديَّة المتقدِّمة، وكان الشَّرق ومعه مصر يغط في نوم التعصُّب الدِّيني والعنصريَّة البغيضة، فكان من قبيل الظُّلم عقد أي مقارنة من أي وجه من الوجوه بين حضارة الشَّرق آنئذ وحضارة الغرب. ولم يكن الشَّرق يملك إزاء هذا الفرق الشَّاسع بين الحضارتين سوى التَّغني بحضارته القديمة، وكأن الماضي المجيد يُغني عن الحاضر البائس.

حالة الأقباط في العصر العثماني

كان المستوى الثَّقافي لمعظم رجال الدِّين الأقباط يتناسب إلى حد كبير مع المناخ الثَّقافي السَّائد في الشَّرق آنذاك.

ويقول الدكتور عبد العظيم رمضان: قد شهد العصر العثماني الفصل الأخير من تطبيق عهد الذِّمة على الأقباط، قبل البحث عن صيغة جديدة للعلاقات بين المسلمين والأقباط في القرن التَّاسع عشر، هي صيغة الوطنيَّة

---

٥ ـ الدكتور طه حسين، مستقبل الثقافة في مصر، مرجع سابق، ص ٤٥

والمواطنة[٦]. ولكن حتى القرن العشرين، ظلّ الحديث عن أهـل الذّمـة، وبعض بنود عهد الذّمة مادة للحديث ـ ولكن في ثـوب عصـري ـ في بعض المؤلّفات الإسلاميَّة المتشدِّدة سواء من متشدد أصولي، أو متحـرر عصري. وإن بهذا أو بذاك خاضت الكنيسة مسيرتها وستواصلها بوعد من إلهها حتى النهاية.

ويقول الدكتور عبد العظيم رمضان: لم يرس القرن التاسع عشر ولا القرن العشرين أسساً متينة لمفهوم الوطنيَّة، ولم يُترجم هذا المفهوم بصورة واقعيَّة ملموسة. وبقى مفهوم الوطنيَّة مفهوماً هلامياً إلى حد كبير يردِّده البعض دون محاولة الاقتراب منه ووضعه في صيغة عمليَّة[٧].

ومما لاشك فيه أن العصر العثماني قد شهد تطبيق الشُّروط العمريَّـة على أهل الذّمة تطبيقاً مجحفاً فاق غيره من العصور السَّابقة عليـه، بـل فُرض على الأقباط إتاوات استحدثتها الخلافة العثمانيَّة بدون أي وازع من ضمير. فمثلاً لم يتمكّن الأقباط من تشييع جنازة البابا متاؤس الرَّابع البابا الـ ١٠٢، إلاّ في مقابل دفع مبلغ كبير من المـال لتسـمح لهـم الإدارة بذلك[٨]، وهذا راجع طبعاً إلى أحد الشُّروط المستحبَّة في عقد الذّمة.

وشهد تحصيل الجزية الكثير من مظاهر التعسُّف، حتى فُرضت الجزية على الجميع، ولم يسلم منها راهب ولا أسقف ولا قس ولا طفل[٩]، كما حدث في عهد البابا بطرس الـ ١٠٤. وفي سنة ١٧٣٤م زادت ضـريبة الجزية عما كانت عليه إلى ضعفين تقريباً، وصار منوطاً ببطريرك الكنيسة

٦ـ الدكتور محمد عفيفي، الأقباط في مصر في العصر العثماني،مرجع سابق، المقدمة ص ٥

٧ـ نفس المرجع، ص ٢٩٩

٨ـ انظر: نفس المرجع، ص ٤٨

٩ـ نفس المرجع، ص ٣٦

الالتزام بتحصيلها، أو التعرُّض للعقاب والإذلال، مما شكّل كثيراً من الأذى المادي والنَّفسي له وللكنيسة.

ومن المؤسف حقاً أن يقرِّر الدكتور محمد عفيفي أنه: من النَّاحية النَّظريَّة يُعد ذلك من قبيل منح البابا سلطاته الطبيعيَّة على الأقباط والحيلولة دون وقوع بعض التعسُّف من جانب المحصلين، أضف إلى ذلك ضمان وصول كامل المال المطلوب إلى خزانة الدَّولة، وهي نظرية على قدر كبير من الصِّحة غير أن تحصيل هذه الضَّريبة كان يمثل عبئاً كبيراً على البابا[١٠]. ولستُ أدري من أين استقى الدكتور محمد عفيفي نظريَّة أنه من بين السُّلطات الطبيعيَّة للبابا تحصيل الأموال من رعاياه.

إن طواف بطاركة الكنيسة على مُدن وقُرى صعيد مصر لجمع الجزية من الأقباط، وتكرار هذه المهانة مع كثير من بطاركة الكنيسة[١١] لا يُكسب الأمر صفته الشَّرعية حتى يوصف بأنه "أمر على قدر كبير من الصِّحة"، لا بل هو دليل على قدر كبير من الوضوح لما وصل إليه جور الحُكَّام وتعسفهم عصرئذ.

وبرغم أنه لم يُعرف عن الأقباط - كأقلية دينيَّة - العنف بصفة عامة، إلاَّ أننا نرى أن الأعباء الاقتصاديَّة تدفع الإنسان دفعاً إلى الحركة. فتذكر بعض المصادر الإسلاميَّة أنه مع زيادة قيمة ضريبة الجوالي في عام ١٧٣٤م اعترض الأقباط على هذه الزِّيادة، واجتمعت كلمتهم على التَّجمع والذَّهاب إلى الدِّيوان، ليعرضوا ذلك الأمر على ولاة الأمور. فصعد حوالي ألف قبطي إلى القلعة لهذا السَّبب، فتصدى الجنود بالرَّصاص لهذه المظاهرة، فسقط اثنان من الأقباط قتلى وتفرَّق الباقون، ولم تسفر

---

١٠ - نفس المرجع، ص ٣٥

١١ - مثل البابا يوحنا الـ ٦٦، والبابا غبريال الـ ٩٥، والبابا يوحنا الـ ١٠٥، وغيرهم.

هذه المظاهرة عن شئ، واستمرَّت الزِّيادة في الضَّريبة كما هي[١٢].

وفي عصر العثمانيين فُرضت على الأقباط من جديد قيود الزِّي، حيث في سنة ١٥٨٢م اختص اللّون الأزرق لثياب المسيحيِّين واللّون الأسود لعمامتهم، واللّون الأصفر لثياب اليهود، حيث اختص المسلم باللّون الأبيض. مع التزام أهل الذِّمة بشد الوسط بزنَّار. ولكن في سنة ١٦٤٩م ظهر اللّون الأزرق كلون مسموح به لشال عمامة القبطي دون اللّون الأحمر، وألاَّ يزيد طول شال القبطي عن عشر أذرع، حتى لا يكون للقبطي عمامة عظيمة، لأن عظم العمامة دلالة على مكانة صاحبها!!! وفي سنة ١٦٧٧م صدرت أوامر بصبغ عمامة القبطي باللّون الأسود، ويذكر الرَّحالة بيتس Pitts الذي زار مصر في سنة ١٦٨٥م أن عمامة القبطي مقلَّمة بين الأبيض والأزرق، ونفس الشئ يذكره الرَّحالة نيبور سنة ١٧٧٦م. وفي نفس هذه السنة مُنعت نساء الأقباط من لبس "الإزار" وهو الملاءة الفضفاضة التي تلبسها المرأة فوق ملابسها. فمُنعت النِّساء من لبس الإزار الأبيض، لأنه يختص بالمرأة المسلمة. ثم حدث تطوُّر آخر مفاده أن لكل إنسان أن يختار لملابسه اللّون الذي يريده عدا اللّون الأخضر، لميل المسلمين إلى هذا اللّون. بل وصل الأمر إلى فرض قيود على أحذية أهل الذِّمة ...الخ[١٣].

ويعقِّب الدكتور محمد عفيفي بقوله: "والشئ الثَّابت دوماً هو محاولة التَّمييز بين المسلم وغير المسلم من ناحية الملبس، ربما ليسهل التعرُّف على عناصر المجتمع، وفي نفس الوقت محاولة إشعار القبطي

١٢ـ انظر: د. محمد عفيفي، الأقباط في مصر في العصر العثماني، مرجع سابق، ص ٤١.
١٣ـ نفس المرجع، ص ٥٥ وما قبله.

بالدُّونيَّة بالنسبة للمسلم ‹‹[١٤].

ولم يُسمح لأهل الذِّمة بركوب الجياد، بل سُمح لهم بركوب الحمير فقط، ومن ناحية واحدة! واستمرت هذه القيود مفروضة على الأقباط في العصر العثماني.

ولعل القارئ العزيز يكتشف دون عناء، ودون رغبة منَّا في مزيد، مقدار التخلُّف الذي وصلت إليه أمَّة انهمكت في المظهر دون الجوهر، وانشغلت بأمور تافهة، كدليل ما بعده دليل على انهيار أسس الحياة الكريمة لشعب له أقدم تاريخ وأعرق حضارة. ولعله غاب عن البعض أن المسيحي يرى في احتماله للصَّليب من أجل المسيح منتهي مجده وفخره، وإلاّ لما ظلَّت الكنيسة باقية حتى اليوم.

(أ) تقييد صارم على بناء الكنائس

أما فيما يختص بالكنائس، فلم يسمح العثمانيون للأقباط ببناء أي كنائس جديدة، مع الإبقاء على ما تبقى من الكنائس التي كانت قائمة قبل الفتح العربي للبلاد، والسَّماح أحياناً بترميم الكنائس القديمة من الأنقاض القديمة ذاتها، أي بدون استخدام مؤن معماريَّة جديدة. وإذا لم تكف الأنقاض القديمة في ترميم ما تصدَّع من البناء، فيجوز استخدام مؤن معماريَّة جديدة من نفس نوع الأنقاض القديمة، بحيث يعود بناء الكنيسة إلى شكله القديم، ولا يتم إجراء توسُّعات أو إحداث زيادة فيه[١٥].

ولم يتمكَّن المعلم إبراهيم الجوهري، كبير المباشرين في عهد

١٤ـ نفس المرجع، ص ٥٥

١٥ـ نفس المرجع، ص ٨٠، ٨٣

العثمانيين، من بناء كنيسة واحدة في حي الأزبكيَّة[١٦] الذي كان يقطنه، برغم كثرة عدد المسيحيِّين فيه، وحتى كنيسة القدِّيس مرقوريوس أبو السيفين التي بناها بجانب كنيسة العذراء بحارة زويلة بالقاهرة، كانت في الأصل كنيسة قائمة منذ أيام المعز لدين الله الفاطمي، وقد هدمها الغوغاء أكثر من مرَّة. وبعد بنائها سعى بعض المسلمين إلى هدمها واستصدروا بذلك أمراً من الإدارة، ولكنها نجت من أيديهم بمعجزة[١٧]. وإن مجرَّد إمكان حصر الأحداث الخاصة ببناء أو تعمير الكنائس في هذا العصر لهو دليل دامغ على ندرتها على وجه العموم.

لقد كانت الشُّروط المجحفة فيما يختص بالكنائس سواء من جهة بنائها أو حتى ترميمها مثار ألم وحزن وضنك للأقباط على مدي العصر العثماني على وجه الخصوص. فالقليل الذي كان يتغاضى عنه الحُكَّام كان لا يفلت من ثورة العامة وهياجهم وبطشهم، على مرأى من الإدارة وسمعها.

ويُحكى – ضمن ما يُحكى – أن قصَدَ الوالي مدينة المحلة الكُبرى في أيام البابا متاؤس الثَّالث (١٦٣١- ١٦٤٦م) البطريرك المائة، فوجد بها كنيسة كبيرة، من أفخم العمارات القديمة، فاستعظمها على الأقباط وأمر بهدمها وبنى مكانها مدرسة إسلاميَّة[١٨].

١٦ـ اندمجت كثير من المناطق السكنيَّة المجاورة للقاهرة إليها، وصارت جزءًا من المدينة، فمصر القديمة التي كان بها أقباط منذ عصور بعيدة وبها كنائس من القرن الرابع الميلادي صارت جزءًا من القاهرة، وحي الأزبكيَّة اليوم كان في الماضي يُعرف باسم قرية المقس، وكانت هذه القرية قبل الفتح الإسلامي قرية مسيحيَّة خالصة، وبعد نشأة القاهرة الفاطميَّة ثم توسعاتها في عصر المماليك والعثمانيين اندمجت قرية المقس في القاهرة، ليصبح المقس في القرن الثامن عشر أكبر الأحياء القبطية في القاهرة.

١٧ـ د. محمد عفيفي، الأقباط في مصر في العصر العثماني، مرجع سابق، ص ٨٦

١٨ـ نفس المرجع، ص ٨٦

(ب) الوظائف والحرف التي شغلها الأقباط

ومن أهم الوظائف التي شغلها الأقباط في عصر الدَّولة العثمانيَّة وظيفة "المباشر"، سواء في الإدارات الحكوميَّة أو لدي الأمراء، ووظيفة "مباشر" تعني كبير جباة الضَّرائب، وهي من أعلى الوظائف الحكوميَّة آنئذ، إذ كانت جباية الضَّرائب هي العصب الرَّئيسي لموارد خزينة الدَّولة. ومن بين هؤلاء المباشرين نقرأ عن يوحنا المباشر النقادي، وجرجس بن شنودة بن إيليا، والمعلّم بشارة بن غبريال، والمعلّم شحاته بن سويدان، والمعلّم حبيش بن شحاته بن بقطر، والمعلّم إبراهيم بن غبريال، والمعلّم غالي بن يوحنا، والمعلّم جرجس بن ميخائيل المعروف بالمصري، والمعلّم جرجس أبو شحاته[١٩]، والمعلّم لطف الله[٢٠]، والمعلّم إبراهيم الجوهري الذي عمل لدي الأمير إبراهيم بك، والمعلم جرجس الجوهري، والمعلّم ملطي ... الخ.

ومن بين هؤلاء كلهم لم يعلق بذهن الأقباط سوى المعلّم إبراهيم الجوهري، كبير المباشرين في أيام على بك الكبير. فالمعلّم إبراهيم الجوهري كان غنياً بالله قبل غناه بمال العالم، إذ أن غنى سخائه على الكنائس والأديرة، ووفرة عطائه للفقراء والمحتاجين، وسعة صدره التي احتوت المسلمين والمسيحيِّين على السَّواء، إلى جانب حياته التي اتَّسمت بروح مسيحيَّة حقيقيَّة، قد سجَّلت اسمه في صفحة ناصعة البياض من سِفر تاريخ الأقباط في مصر.

ويذكر دكتور محمد عفيفي أن المعلّم إبراهيم الجوهري بخدماته

١٩ـ هو زوج أخت المعلّم لطف الله.

٢٠ـ هو زوج ابنة أخ البابا يؤانس السادس عشر (١٦٧٦ ـ ١٧١٨م)، وهو البابا الـ ١٠٣ من باباوات الكرازة المرقسية.

العديدة التي أداها للكنيسة القبطيَّة لا يُعتبر حالة فرديَّة، ولكنه يمثّل ذروة التَّعاون بين المباشرين والكنيسة القبطيَّة في العصر العثماني[٢١].

وكذلك عمل الأقباط في وظيفة "كاتب" أو "صرَّاف"، في دار سك العملة، وفي إدارة الجمارك، وفي ديوان الجوالي المختص بشؤون الجزية، وديوان الحسبة، وفي إدارة الشؤون الماليَّة للأوقاف الإسلاميَّة[٢٢]. وفي اختصار ارتبط الأقباط في وظائفهم بالشؤون الإداريَّة والماليَّة لمصر عموماً والماليَّة خصوصاً. ولم يمكن لتعريب الدَّواوين في مصر أن تعزل الأقباط عن حرفة احترفوها منذ مئات السِّنين، أو في تعبير أدق لم يكن ممكناً للدَّواوين في مصر أن تستغني عن أقباطها.

وكانت مهنة الكتبة والصَّيارفة الأقباط تعود على أصحابها بثراء مادي ومكانة أدبية. ومع الثّراء الاقتصادي للمباشرين كان الكثيرون منهم على وعي ثقافي، وقد ساعدوا في دعم الثّقافة لدي إخوانهم الأقباط[٢٣].

ويذكر جيرار في أوَّل القرن التَّاسع عشر، وهو أحد علماء الحملة الفرنسية على مصر: أن عدد الأقباط وذويهم الذين يعيشون من الاشتغال بجباية الضرائب حوالي ثلاثين ألفاً[٢٤]. وإن استمرار الأقباط في تصريف شؤون جباية الضَّرائب عبر هذا الزَّمن العريض ينفي عنهم تهمة اختلاس الأموال.

٢١ـ د. محمد عفيفي، الأقباط في مصر في العصر العثماني، مرجع سابق، ص ١٤٧

٢٢ـ مثل المعلّم جرجس بن شنوده بن إيليا، المباشر بخدمة دولار أغا ناظر الدشيشة، وهي أوقاف الغلال المخصصة للحرمين. والمعلم رزق بن عبد السيد الذي عمل مع السلطان قايتباي.

انظر: د. محمد عفيفي، الأقباط في مصر في العصر العثماني، مرجع سابق، ص ١٠٧

٢٣ـ نفس المرجع، ص ١٤١

٢٤ـ نفس المرجع، ص ١٢٥

ولكي ندرك مدى أهميَّة الدَّور الذي لعبه الكتبة والمباشرون الأقباط سواء على مستوى القرية أو على مستوى ولايات الأقاليم، أو حتى في الإدارة المركزيَّة في القاهرة، ينبغي أن نعرف أن دفاتر ترابيع الحملة الفرنسيَّة التي وضعها عُلماء الحملة الفرنسيَّة في سنة ١٨٠٠م تم إعدادها بالأساس استناداً إلى دفاتر المعلّمين الأقباط الصَّيارفة والمباشرين[٢٥]. بل لقد امتد دورهم في هذا المجال حتى أوائل النِّصف الثاني من القرن العشرين، وهي الفترة التي تحوَّلت فيها البلاد تحولاً اجتماعياً واقتصادياً جديداً بعد تبني سياسة الانفتاح الاقتصادي، التي أبرزت مجالات عمل جديدة غير نمطية لم تعهدها البلاد من قبل.

ولدينا شهادة من النِّصف الأوَّل من القرن التاسع عشر عن ذلك أيضاً، إذ تقول المؤرِّخة الإنجليزية "بوتشر" إن الحكومة أصبحت أكثر احتياجاً للأقباط في شؤون الإدارة. ويعلّل "كلوت بك" نشاط الأقباط في الإدارة الماليَّة إلى أنهم من دون عامة المصريين أصحاب الدِّراية بهذه المعلومات الضَّروريَّة في هذا المجال[٢٦].

أما عن الحرف التي مارسها الأقباط في العصر العثماني، فهي الفلاحة أي الزِّراعة، إلى جانب حرف الجواهرجيَّة والصَّاغة والخياطة والنِّجارة وأعمال العمارة والبناء والنَّسيج والعطارة والبقالة ... الخ. فإلى جانب الوظائف الكبيرة في الدَّولة انتشر قطاع عريض منهم في مختلف مجالات الحياة الأخرى البسيطة والمتواضعة.

أما التِّجارة الخارجيَّة فكانت في العصر العثماني حكراً على عناصر غير مصريَّة مثل الشَّوام والمغاربة والأتراك والأوربيين. أما دور المصريين في

٢٥ـ نفس المرجع، ص ١١٤

٢٦ـ نفس المرجع، ص ١٠٨

ذلك فكان محدوداً[٢٧].

(ج) التّدهور الرُّوحي الشّديد للأقباط في أواخر العصر العثماني

لا يمكننا أن نغفل أن أثرياء الأقباط ظلُّوا يقتنون الجواري، واستمر بعضهم يمارس التَّسري برغم تحذيرات الكنيسة التي لم تؤت ثمارها في هذا المضمار. ويذكر الجبرتي أنه في أواخر القرن الثّامن عشر، أرسل حسن باشا جنوداً ليقتحموا بيوت الأقباط، ويجمعوا منها الجواري، ويعلّق الجبرتي قائلاً: "واستخرجوا ما فيها فكان شيئاً كثيراً[٢٨]".

ولقد مارس بعض أثرياء الأقباط إلى جوار التَّسري، تعدُّد الزَّوجات، كمظهر من مظاهر التَّرف، برغم تحذيرات الكنيسة المتتالية في هذا الشَّأن. ووصل الأمر إلي حد أن تزعَّم أحد المطارنة الأقباط في القرن السَّابع عشر، وهو مطران دمياط إباحة تعدُّد الزَّوجات، وذلك في أيام البابا مرقس الخامس (١٦٠٣ـ ١٦١٩م)، الذي لم يجد أمامه سوى قطع المطران المذكور من شركة الكنيسة، وهو ما أزعج الكنيسة ردحاً من الزَّمان، إذ استطاع أنصار تعدُّد الزَّوجات وهم بعض أثرياء الأقباط في ذلك الحين من عزل البابا مرقس الخامس بالتجائهم إلى الدَّولة، ونصَّبوا راهباً من أنصارهم بطريركاً جديداً. ولكن كانت جموع الأقباط الغفيرة تقف وراء البابا المعزول، حتى لم يجد البطريرك الحكومي نصيراً له، فعاد البابا الشَّرعي إلى كرسيه، لتنتهي فصول أكبر انشقاق داخلي عرفته الكنيسة القبطية في العصر العثماني[٢٩].

وكان من الطَّبيعي مع حالات تعدُّد الزَّوجات بين أثرياء الأقباط أن

٢٧ـ نفس المرجع، ص ١٧٥
٢٨ـ نفس المرجع، ص ٥٩
٢٩ـ نفس المرجع، ص ٢٧٦

تنتشر حالات الطَّلاق بينهم. وكان البابا مرقس الثامن (١٧٩٧-١٨١٠م) قد أصدر منشوراً ليُقرأ على الشَّعب في الكنيسة قال فيه ما نصه: "نعلمكم أيها الكهنة خدام المذبح من قبل الذين يطلقوا نساؤهم (نساءهم) ويتخذوا واحدة بعد واحدة فالتوبة والقانون لازم (لازمان) لهم إن رجعوا عن سالف اثمهم ويستردوا الامراءة (المرأة) الأولة (الأولى) الذي (التي) هي المكلل عليها بحلول روح القدس. في انكان (أما إذا) لمن (لم) يرجعوا عن سالف إثمهم فلا أحد من الكهنة بأن يسمح لهم في القربان. وكلمن (وكل من) يسمح لهم في القربان فهو المطلوب بهم، لأن القوانين المقدسة تمنع لمثل هؤلاء[٣٠]".

وهكذا وصلت سمعة الأقباط إلى حالة محزنة من التَّدهور الرُّوحي، ونعتقد أن بعضاً من القلَّة الغنيَّة منهم هي التي وصلت إلى هذا الحد من الانهيار الدِّيني، لكثرة الأموال في أيديهم وسط محيط أخلاقي فاسد. أما الغالبيَّة الفقيرة فمن الصَّعب أن تكون قد انزلقت إلى هذه الهوَّة.

ومع اقتراب القرن الثَّامن عشر من نهايته وصلت حالة الأقباط الرُّوحيَّة إلى درجة مؤلمة من التَّردي، فمن خطاب البابا مرقس الثَّامن (١٧٩٧- ١٨١٠م) نعرف أن بعض الشَّعب القبطي مع الكهنة كانوا يسكرون في الكنيسة في ليالي الآحاد المقدَّسة، وأصدر الأنبا يوساب أسقف جرجا المعروف بالأبح، منشوراً ينهي الأقباط فيه عن بعض المظاهر غير الأخلاقيَّة التي تحدث في أفراحهم، إذ درج البعض على إحضار الرَّاقصات إليها. وانتشر لعب الميسر بين الأقباط، ولجأ كثيرون منهم إلى السِّحر، والضَّجيج والصَّخب الذي لازم الأقباط في قدَّاساتهم في

٣٠ـ عن مخطوط ٣٤٥ لاهوت بمكتبة البطريركية، ورقة ١١٣أ
انظر: د. محمد عفيفي، الأقباط في مصر في العصر العثماني، مرجع سابق، ص ٣١٠

كنائسهم، حتى أن البابا مرقس الثّامن يخاطب الشّعب فيقول لهم: ''قد صارت عندكم الكنيسة كمثل السُّوق، وحضوركم إليها مثل الذين يبيعون ويشترون ...، من أجل هذا صرنا عند الطوايف (الطوائف) ضحكاً وهزوا (وهزءاً) وألجأتنا الضَّرورة أن نطلق عليكم الكلام الحاد الذي من سماعه تطن الآذان(٣١)''.

كانت العلاقة بين المسلمين والأقباط قبل مجئ الحملة الفرنسيَّة إلى مصر قد وصلت إلى أقصى درجات السُّوء، حيث امتدت يد التَّخريب إلى كل ما يخص المسيحيِّين في مصر من مساكن وكنائس وأديرة، وأباحت الدَّولة للغوغاء أن يفتكوا بالنَّصارى واليهود، وكادوا أن يحقّقوا غايتهم لولا أن تدخَّلت الدَّولة لكبح جماحهم لا خوفاً على الأقباط، بل خشية أن تفلت الأمور من يدها، وتعجز عن التَّحكُّم في إدارة البلاد.

(د) تعداد الأقباط في مصر مع نهاية القرن الثّامن عشر

وهل نعجب بعد كل هذا إذا عرفنا أن عدد الأقباط في مصر مع نهاية القرن الثّامن عشر ومع قدوم الحملة الفرنسيَّة على مصر لم يكن يتجاوز المائة والخمسين ألفاً، بعدما كانوا أيام الفتح العربي نحو عشرين مليوناً أو يزيد، وقد عدموا الثّروة والعلم وكل ما كان لهم من أسباب القوَّة الأدبيَّة والمادية، كشعب هو سلالة أقدم أمَّة متمدينة(٣٢).

كان عدد الإيبارشيات في مصر في القرن الثامن الميلادي ١٦٨ إيبارشية، وفي القرن العاشر أصبحت ١١٠ إيبارشية بحسب جدول جرجس بن مسعود الشهير بأبي المكارم. ثم إلى ٤٧ إيبارشية في القرن

---

٣١ ـ نفس المرجع، ص ٢٨٤
٣٢ ـ لجنة التاريخ القبطي، خلاصة تاريخ المسيحية في مصر، مرجع سابق، ص ١٩٨
انظر أيضاً: د. محمد عفيفي، الأقباط في مصر في العصر العثماني، مرجع سابق، ص ١٩٦

الحادي عشر، ثم إلى ١٧ إيبارشية في القرن السابع عشر، ثم إلى ١٤ إيبارشية في القرن الثامن عشر(٣٣).

كانت الكنائس القبطيَّة في مصر في القرن الثّامن تُعد بالآلاف، وبلغت أديرة الرُّهبان إذ ذاك عدَّة مئات، وفي القرن الثّامن عشر بلغ مجموع الكنائس مع ما أنشئ منها في النِّصف الأخير من هذا القرن نحو خمسمائة كنيسة، وسبعة أديرة للرُّهبان، وخمسة أديرة للرَّاهبات(٣٤).

(هـ) حملة حسن باشا التأديبيَّة

يذكر الأنبا يوساب أسقف جرجا المعاصر لتلك الفترة أن جور ومظالم المماليك، وعصيانهم دفع الدَّولة العثمانيَّة إلى إرسال حملة حسن باشا لتأديب المماليك، والعمل على استقرار الأمور في مصر. فلجأ حسن باشا القادم من استانبول إلى القوَّة، فكانت يده شديدة الوطأة على المماليك. ودفعته عجلة الحرب التي دارت بينه وبينهم إلى طلب المزيد من الغرامات الماليَّة التي ضجَّ منها الرَّعيَّة من مسلمين وأقباط وغيرهم، ودفعه انضمام بعض كبار المباشرين الأقباط وهروبهم مع رؤسائهم من الأمراء والمماليك، وشكوكه في هروبهم بأموال الخزانة، إلى إسقاط جام غضبه علي الأقباط. لذلك يحدِّثنا صاحب تاريخ البطاركة قائلاً: "إن خطوة الظُّلم التي خطاها المماليك لم تكن لتعد شيئاً بإزاء ما صنعه حسن باشا".

ولم يعد الاستقرار إلى مصر برحيل حسن باشا وعودة أمراء المماليك الفارين إلى القاهرة، بل عادت الأمور إلى ما كانت عليه من جور ومظالم. ويبدو أن تخلخل الإدارة وفساد الأمور كان تمهيداً تاريخياً

٣٣ـ لجنة التاريخ القبطي، خلاصة تاريخ المسيحية في مصر، مرجع سابق، ص ٢٣٢
٣٤ـ نفس المرجع، ص ٢٤٣

لاستقبال القادم الجديد وهو الحملة الفرنسيَّة[٣٥].

لم يكن حسن باشا أفضل من غيره، إذ قد فرض على الأقباط في سنة ١٧٨٦م غرامات باهظة، وزعها المسيحيُّون على أنفسهم، وكم عانت الفئات الفقيرة من الأقباط من جرَّاء ذلك. ويذكر الجبرتي: "كان حسن باشا متسلِّطاً بكل قوَّته على النَّصارى حتى أنه فرض عليهم غرامات باهظة، ونهب أموالهم" ثم يشير إشارة شموليَّة بقوله: "نهبوا الخلايق (الخلائق) وبخاصة طايفة (طائفة) القبط[٣٦]".

لقد ساءت العلاقة بين الكنيسة والدَّولة العثمانيَّة في أواخر القرن الثَّامن عشر، ولاسيَّما في فترة الاضطرابات التي صاحبت حملة حسن باشا على مصر، حتى هرب البابا يؤانس الثَّامن عشر (١٧٦٩- ١٧٩٦م) من كرسيه، كما هرب جميع الأساقفة الأقباط، وخلع البابا والأساقفة ملابسهم الكهنوتيَّة وتنكَّروا في ثياب أخرى، فلم يكن يُعرف الكهنة من العلمانيين[٣٧].

ولقد استولى حسن باشا على الأوقاف القبطيَّة الضَّخمة للمعلِّم إبراهيم الجوهري الموقوفة على الأديرة والكنائس القبطيَّة، بل استولى على الأوقاف القبطيَّة للكنائس.

كانت كل الدَّلائل تشير إلى ضرورة أن يتغيَّر الوضع القائم، إذ قد وصل الظُّلم إلى غايته، وبلغت المعاناة ذروتها، وبات الأقباط قلَّة قليلة قاب قوسين أو أدنى من الاضمحلال والفناء، وقد بلغوا نهاية القرن الثامن عشر منهوكي القوي عديمي القدرة، يخيِّم البؤس والكآبة على محياهم، وتردَّت حياتهم الرُّوحيَّة إلى أدنى المستويات، وقد خطَّت خطوب السِّنين علاماتها

٣٥- نفس المرجع، ص ٩٨، ٩٩

٣٦- نفس المرجع، ص ٥١

٣٧- نفس المرجع، ص ٧٥

فيهم. أما الفقراء منهم فقد كابدوا أضعاف ما كابد الأغنياء. وتدهورت العلاقة بين المسلمين والأقباط في نهاية العصر العثماني إلى أدنى مستوياتها حتى بلغت حد الصِّدام المباشر.

الحملة الفرنسيَّة على مصر

غزا نابليون بونابرت (١٧٩٨- ١٨٠١م) مصر. ويسجِّل المؤرِّخ عبد الرَّحمن الجبرتي وقائع الهزيمة الماحقة التي أوقعها الفرنسيون بالمماليك فيقول: "... فلم تكن إلاّ ساعة وانهزم مراد بك ومن معه، واحترقت مراكبه بمن فيها من المحاربين، فلما عاين ذلك مراد بك، داخله الرُّعب وولَّى منهزماً، وترك الأثقال والمدافع، وتبعته عساكره ... ووصلت الأخبار إلى مصر فاشتد انزعاج النَّاس، وركب إبراهيم بك إلى ساحل بولاق، وحضر الباشا (الوالي العثماني) والعلماء ورؤوس النَّاس ... فاتفق رأيهم على عمل متاريس من بولاق إلى شبرا ... فأغلق النَّاس الدَّكاكين والأسواق، وخرج الجميع لبر بولاق ... وأما مصر فكانت خالية الطُّرق، لا تجد بها أحداً سوى النِّساء والأطفال وضعفاء الرِّجال، والأسواق مقفرة، وكثرت الشَّائعات بقرب وصول الفرنسيين إلى مصر (القاهرة) ... وكل من إبراهيم بك ومراد بك جمع عسكره ومكث مكانه لا ينتقل عنه ينتظر ما يُفعل بهم، وليس ثمة قلعة ولا حصن ولا معقل. وهذا من سوء التدبير وإهمال أمر العدو".

هزم بونابرت المماليك في موقعة إمبابة المشهورة باسم موقعة الأهرام، ودخل القاهرة، وواصل قائده ديزيه زحفه إلى أقاصي الصَّعيد. وفي سبتمبر سنة ١٧٩٨م نشبت ثورة في القاهرة عقب تحطيم نلسون للأسطول الفرنسي في أبي قير في أول أغسطس سنة ١٧٩٨م.

استفاد نابليون بونابرت من الخلافات الدِّينيَّة بين الأقباط والمسلمين، بل واستفاد أيضاً من الصِّراع الاجتماعي بين فئات المجتمع المختلفة. ولكن لم ترد إشارة واحدة في التَّاريخ تُظهر أن الحملة الفرنسيَّة قد أساءت إلى المسلمين في مصر أو تدخَّلت في شؤون عبادتهم وديانتهم.

وبعد عام واحد من معركة أبي قير البحريَّة عاد بونابرت سراً إلى فرنسا في أغسطس سنة ١٧٩٩م. وفي سنة ١٨٠٠م جاء العثمانيون يساندهم الإنجليز لطرد الفرنسيين، فهزمهم كليبر في مارس من نفس السَّنة بالمطريَّة، ثم قتل سليمان الحلبي الجنرال كليبر في حديقة بيته في يونيو سنة ١٨٠٠م، فتولى القيادة مينو الذي سلَّم القاهرة والإسكندريَّة في سبتمبر سنة ١٨٠١م، وجلى هو وكل جنوده عن مصر.

تردِّي الأحوال في مصر وقت قدوم الحملة الفرنسيَّة

يذكر واحد من العُلماء الفرنسيين الذين رافقوا الحملة الفرنسيَّة الحالة التي كانت عليها مصر حينئذ فيقول: لم تكد تتبقى لدي المصريين المحدثين سوى ظلال آثار باهتة، بل يُشك في صحتها كثيراً، عن المؤسَّسات والأنظمة التي كانت تنتمي قديماً لبلادهم، فالدِّين والقوانين واللُّغة والموسيقى، وفي كلمة، العلوم والفنون التي يمارسونها، كل هذا قد أخذوه عن العرب، إذ تلقوه عن هؤلاء حين كانوا يحكمونهم. وبعيداً عن أن يكون المصريون قد توسَّعوا أو طوروا هذه المعارف، إذا ما استثنينا علوم الدِّين الإسلامي، فإنهم قد تركوا هذه المعارف تسقط في هوة الإهمال والنسيان، أو قل إنهم شوهوها كثيراً منذ خضعوا لنير العثمانيين، حتى باتوا، وقد كادوا ألاَّ يحتفظوا بشئ مما يميز الأمم المتحضِّرة، في هذا المجال، عن العصب الهمجيَّة، بل أنهم أكثر من هذه العصب البربريَّة تعاسة. إذ هم

لا يتمتَّعون بحريَّة أن يقاوموا صنوف القهر، أمـا حالتـهم الاجتماعيَّـة فليست سوى عبوديَّة قاسية تبعث على الشُّعور بالخزي، تضاءلوا هم إليها بفعل ضعف حكامهم، الذين تركوهم بنذالة شديدة نهباً للمظالم المقيتـة، التي يجرها الطغيان الوقح والقاسي، الذي يمارسه البكـوات المماليـك، أولئك الذين يقدِّمون اليوم بعد اليوم، ضحيَّة جديدة على مذبح نهمهـم الذي لا يشبع، وتجاسرهم البغيض[٣٨].

إن الدَّليل البسيط على تردي الأحوال في البلاد في ذلك الوقت أنه لم يكن لها موسيقى تميزها بين الشُّعوب، برغم أن الموسيقى الفرعونيَّة هـي أقدم موسيقى عرفها العالم قاطبة. فالرَّابطة بين الموسيقى العربيَّة في مصـر في أول القرن التاسع عشر وبين الموسيقي الآسيويَّة أمر أوضـح مـن ألاّ يدركه العالم أجمع، فكثير من المعالم والآثار والمصطلحات الفنيَّة والنَّغمات والآلات التي تقدِّمها لنا الموسيقى العربيَّة في هذا الوقت تكاد أن تكـون كلها فارسيَّة أو مشتقَّة عن اليونانيَّة. ويعترف كل مؤلفي بحوث الموسيقى العربيَّة أنفسهم بأن نظامهم الموسيقي، وكل مصطلحاتهم الفنيَّة وأسمـاء آلاتهم قد جاءهم عن الإغريق والفُرس والهنود. فالفُرس يمثِّلـون بالنسـبة لشعوب أفريقيا وآسيا، ما يمثله الإيطاليون بالنسبة لشعوب أوروبا[٣٩].

بعض فوائد الحملة الفرنسيَّة على مصر

في الحقيقة لولا الحملة الفرنسيَّة على مصر لظلَّت مصر ترزح تحـت نير الجهل والتخلُّف الذي بلغ منتهاه في العصر العثماني. فمـع دخـول الفرنسيين مصر، وبرغم الفترة القليلة التي بقوا فيها في البلاد، إلاَّ أن الأثر

٣٨- فيوتو، وصف مصر، الكتاب الثامن، ترجمة زهير الشايب، القاهرة، ١٩٨٣، ص ١٥
٣٩- فيوتو، وصف مصر، الكتاب الثامن، مرجع سابق، ص ٢٤، ٢٩١

الثّقافي والحضاري الذي تركه الفرنسيون في البلاد ظل قائماً بها حتى يومنا هذا. وكان نابليون قد أحضر معه أوّل مطبعة تدخل مصر لتنقلها من عصر إلى عصر. وكان تأليف كتاب "وصف مصر" الذي قام به نخبة العُلماء الذين رافقوا الحملة هو أوّل عمل علمي راقي يدرس ويصف ويحلّل حياة المصريين منذ عصر الفراعنة حتى العصر الحديث، ليس بالكلمات فقط بل بالصُّور أيضاً التي رسمها الفنانون الذين رافقوا الحملة من واقع ما شاهدوا في البلاد، قبل اختراع آلات التَّصوير الحديثة. وهذه الصُّوَر شملت كل مناحي الحياة المصريَّة، وقد ضمَّها جزءان كبيران ضمن مجموعة كتب "وصف مصر"، والتي قام بترجمتها من الفرنسيَّة إلى العربية النابغة المصري زهير الشَّايب.

حالة الأقباط أيام الحملة الفرنسيَّة

يرسم معظم الرَّحالة الأجانب الذين زاروا مصر في العصر العثماني صورة كئيبة للتَّعليم والثّقافة عند الأقباط، حيث يصفونهم بالجهل والتخلُّف، ويقارنون بين الماضي التَّليد لكنيسة الإسكندريَّة والفلسفة المسيحيَّة بها، وبين ما وصل إليه حال الأقباط عندئذ من تدهور[٤٠]. وبرغم ذلك يذكر واحد من الرَّحالة هو بوكوك أن معظم الأقباط يعرفون القراءة والكتابة أكثر من غيرهم من العناصر المحليَّة.

وجدير بالذّكر أنه بعد دخول الحملة الفرنسيَّة مصر بسنة واحدة انتقل مقر البطريركيَّة سنة ١٧٩٩م من حارة الرُّوم إلى الأزبكيَّة حيث كاتدرائيَّة مار مرقس القديمة الآن، وذلك في عهد البابا مرقس الثامن، البطريرك الـ ١٠٨ (١٧٩٧- ١٨٠٩م).

---

٤٠ ـ د. محمد عفيفي، الأقباط في مصر في العصر العثماني، مرجع سابق، ص ٢٤٥

وبسبب زحف الجيوش الفرنسيَّة على مصر، تألّب المماليك على المسيحيِّين، وهجموا علي بيوتهم وكنائسهم وأديرتهم للتَّنقيب عن الأسلحة وغيرها، وسجنوهم وعذبوهم فانضم المعلّم يعقوب حنا (١٧٤٥-١٨٠١م) إلى قواد الفرنسيِّين وأفادهم بخبرته الماليَّة والحربيَّة كل الفائدة، فدبَّر لهم مؤونة العساكر، وشاركهم في كثير من المواقع، وتولى بنفسه حملة على الصَّعيد في موقعة "عين القوصيَّة" حيث هاجم عدداً من المماليك لا يقل قوَّة عن عشرة أمثال قوته عدداً وعُدَّة، فأبلى بلاءً حسناً، وكان يوماً مشهوداً قلّده ديزيه Desais - قائد نابليون الشَّهير - في مسائه سيفاً كُتب على نصله اسم الواقعة في حفلة مهيبة. وبعد موت كليبر في أغسطس سنة ١٨٠٠م أُسند إليه رسمياً لقب "القائد العام للفيالق القبطيَّة" بالجيش الفرنسي(٤١).

ولعله من المناسب أن نشير إلى إلياس بقطر (١٧٨٤- ١٨٢١م) أحد نوابغ الأقباط الذي استخدمه الفرنسيون مترجماً في جيوشهم، وقد ساعد هذا الشَّاب علماء الفرنسيِّين في وضع المصنَّف العظيم المُسمى "وصف مصر - Description de L'Egypte "، وتقديراً لفضله عيَّنوه مترجماً في إدارة المحفوظات بوزارة الحربيَّة ثم مدرِّساً للغة العربيَّة العاميَّة بمدرسة اللُّغات الشَّرقيَّة بباريس، وهو صاحب القاموس المُسمى باسمة حتى اليوم "قاموس إلياس"، ويُعد أوَّل من وضع قاموساً عربياً فرنسياً.

ويقدِّر علماء الحملة الفرنسيَّة عدد سُكَّان القاهرة بحوالي ٢٦٣ ألف نسمة، وهو ما يقارب تقدير الرَّحالة الإنجليزي براون الذي زار مصر خلال هذه الفترة تقريباً، إذ يقدِّر براون عدد سُكَّان القاهرة بصفة عامة بحوالي ثلاثمائة ألف نسمة. وإذا اعتمدنا على تقديرات الحملة الفرنسيَّة في

٤١ - لجنة التاريخ القبطي، خلاصة تاريخ المسيحية في مصر، مرجع سابق، ص ١٧٤

نهاية القرن الثّامن عشر فهي تذكر لنا أن عدد الأقباط في القاهرة يصل إلى عشرة آلاف نسمة، أي أقل من ٤ % من مجموع عدد سُكّان القاهرة. ويأتي الأقباط كأكبر أقليَّة دينيَّة آنذاك، إذ يقدَّر عدد سُكّان القاهرة من الرُّوم الأرثوذكس بحوالي خمسة آلاف نسمة، أي نصف عدد الأقباط. ويقدَّر الرُّوم الكاثوليك الشّوام والمارونيين بحوالي خمسة آلاف نسمة أيضاً. ويقدَّر عدد الأرمن بحوالي ألفي نسمة، أي خمس عدد الأقباط. ويقدَّر اليهود بحوالي ثلاثة آلاف نسمة، أي أقل من ثلث عدد الأقباط. ويقدَّر عدد المسلمين بحوالي ٢٣٧٦٠٠نسمة بصرف النَّظر عن أصولهم العرقيَّة(٤٢).

وفي منطقة مصر القديمة التي يرتبط الأقباط بها ارتباطاً تاريخياً حيث استقروا بها منذ أزمان طويلة سابقة على الفتح العربي للبلاد، حيث الكنائس القبطيَّة الشَّهيرة والمقابر والتُّراث القبطي التَّليد، شكّل الأقباط أقليَّة سكانيَّة بالمقارنة بالوجود الإسلامي بالمنطقة. فتذكر مصادر الحملة أن عدد المسيحيِّن الشَّرقيِّن في المنطقة يصل إلى ستمائة نسمة من إجمالي سكان مصر القديمة الذي يتراوح ما بين عشرة إلى أحد عشر ألف نسمة، أي أقل من ٦% من مجموع السُكّان(٤٣). وهو ما يشير إلى مقدار التَّدهور الذي أصاب الأقباط من جرَّاء الاضطهادات المتتابعة، وكثرة الجماعات القبطيَّة التي انتحلت الإسلام.



٤٢ـ د. محمد عفيفي، الأقباط في مصر في العصر العثماني، مرجع سابق، ص ١٩٧

٤٣ـ نفس المرجع، ص ٢٠٢



الفَصل العَاشر

كنيسة مصر
في ظل الحُكم الملكي للبلاد

أولاً: عهد محمد علي باشا وأسرته

جاءت الدَّولة الحديثة في عهد محمد علي وأسرته لتعطي فرصة حقيقية لظهور تيار حاول إحياء الهويَّة المصريَّة المطمورة منذ مئات السِّنين، فظهر رفاعة الطَّهطاوي، ومحمد عبده، وطه حسين، وأحمد لطفي السيِّد، وسلامه موسى، وتوفيق الحكيم، ولويس عوض، وغيرهم.

كان هؤلاء جميعاً يعتزُّون أيَّما اعتزاز بهويَّتهم وحضارتهم المصريَّة في الوقت الذي انفتحوا فيه على الحضارة الغربيَّة الحديثة لينهلوا منها من أجل إحياء مشروعاً مصرياً ليبرالياً.

لقد آلت السُّلطة إلى محمد علي وذريَّته سنة ١٨٠٥م. وفي أيامه وصلت حملة إنجليزيَّة إلى مصر سنة ١٨٠٧م واحتلَّت رشيد، وكانت تتوقَّع معاونة المماليك لكنها هُزمت وانسحبت، إلاَّ أن العنصر البريطاني ظل جاثماً على صدر مصر يزرع فيها الفتن، ويفتِّت شمل وحدتها. كانت هذه هي البذرة الأولى التي زرعها الإنجليز في مصر حينما زرعوا روح التَّفرقة بين المسلم والمسيحي، عقاباً للأقباط الذين لم يبدوا تحيزاً لهم.

وبعد مرور خمسة عشر عاماً من الاحتلال البريطاني لمصر تزايدت الشَّكوى في صفوف الأقباط من التَّفرقة، ونما الإحساس الذَّاتي لدي كل من الأقباط والمسلمين. وكانت يد المحتل الدَّخيل وراء هذه الفرقة التي وجد فيها تربة خصبة لتثبيت أقدامه في بلاد غيره.

في هذه الظُّروف أُقيم البابا بطرس السَّابع المعروف بالجاولي (١٨٠٩ـ ١٨٥٢م) وهو البطريرك الـ ١٠٩ من باباوات الإسكندريَّة، وهو أوَّل البطاركة الذين رُسموا في الكاتدرائيَّة المرقسيَّة القديمة بالأزبكيَّة،

وكان محباً للعلوم والآداب، عارفاً بقيمة الكُتُب، فكان يعني بجمعها وخطّها وترتيبها والمحافظة عليها. وله عدّة مقالات ورسائل باللّغة العربيَّة في مواضيع دينيَّة واجتماعيَّة. وهو أوَّل من رسم أساقفة للسُّودان سنة ١٨٢٣م بعد أن تقلّصت المسيحيَّة عنه في أوائل القرن السَّادس عشر. وكان معاصراً له أسقف المنوفيَّة المشهور القدِّيس أنبا صراباموون أبو طرحة (+ ١٨٤٨م). وتنيَّح البابا بطرس الجاولي بعد أكثر من اثنين وأربعين سنة قضاها في البطريركيَّة، تاركاً مبلغاً طائلاً من المال في خزانة البطريركيَّة، وهو الذي استعان به البابا كيرلس الرَّابع في مشروعاته الكثيرة[1].

فتك محمد على بالمماليك وقضى على البقيَّة الباقية منهم في مذبحة القلعة الشَّهيرة حيث قتل منهم ٤٨٠ مملوكاً في سنة ١٨١١م. وكوَّن محمد علي جيشاً مصرياً قوياً، ونظَّم الإدارة وحسَّن الزِّراعة، وأدخل بعض الصِّناعات. وفي سنة ١٨١٣م بدأ في إرسال الطّلبة المصريين إلى أوروبا، حيث انصبَّت عنايته في بادئ الأمر على دراسة الفنون العسكريَّة، وبناء السُّفُن، والعلوم الهندسيَّة، وفن الطِّباعة. واشتهر من بين هؤلاء الطُّلاب "نقولا مسابكي" الذي ذهب إلى روما وميلانو سنة ١٨١٦م ليتعلَّم فن الطِّباعة، فأقام هناك أربع سنوات ثم عاد إلى مصر ليتولى إدارة مطبعة بولاق الأميريَّة. وشنَّ محمد علي حروباً في شبه الجزيرة العربيَّة، وفتح السُّودان (١٨٢٠- ١٨٢٣م)، وتعاون مع العثمانيين في حرب اليونان (١٨٢٣- ١٨٢٨م)، وفي سنة ١٨٢٩م أنشأ مدرسة لتدريب الموظَّفين على طرق المحاسبة الحديثة بعد أن أدخل إلى مصر نظم المحاسبة الأوروبيَّة.

وفي سنة ١٨٣١م ألحق محمد علي مائة قبطي للعمل في ترسانة الإسكندريَّة وأمر بإعفائهم من الجزية، وصدر الأمر بذلك، وجاء فيه:

---

١ ـ لجنة التاريخ القبطي، خلاصة تاريخ المسيحية في مصر، مرجع سابق، ص ١٧٧، ١٧٨

"يقتضي إتباع الأصول المدوَّنة بها (أي بالتِّرسانة البحريَّة) وربط ماهيَّة ومرتَّب الصِّنف الذي يستحقه الأقباط الذين يؤخذون للجهاديَّة لكونهم يؤدُّون مصالح الميري ومن اللُّزوم رعايتهم ورفاهيَّتهم[٢]" . وواضح هنا أن الأقباط الذين عملوا في وظائف عسكريَّة قد أعفوا من الجزية، فضلاً عن أن الجزية التي كان يدفعها الأقباط أيام محمد علي كانت لا تُذكر بالنسبة لمرتباتهم[٣]. وقد أُلغيت الجزية تماماً في عهد محمد سعيد باشا سنة ١٢٧٢هـ/ ١٨٥٥م، كما انتظم الأقباط في الجيش منذ عصر الخديوي إسماعيل باشا.

وشنَّ محمد علي حرباً ضد الباب العالي في سوريا سنة ١٨٣٢م، فحكم كل من مصر وسوريا. وبعد معاهدة لندن سنة ١٨٤٠م أعلن الباب العالي خلع محمد علي عن سورية ومُنح أن تكون ولايته على مصر وراثيَّة بدءاً من سنة ١٨٤١م.

وفي سنة ١٨٤٨م تولى ابنه إبراهيم الحكم لبضعة شهور حتى وفاته قبل أبيه في نفس هذه السَّنة المذكورة.

الموظَّفون في عهد محمد علي

كان الموظَّفون قبل بداية حكم محمد على محدودي العدد ويتميَّزون بالكفاءة، ويحظون بمكانة احتماعيَّة عالية. ولقد ظلَّت أعمال المحاسبة وإمساك الدَّفاتر قاصرة على اليهود، أما جامعي الضَّرائب والصَّيارفة فكانوا دائماً من الأقباط. وكانت هذه الوظائف في القرن الثَّامن عشر من الوجهة العمليَّة علي ما كانت عليه منذ القرن العاشر. وكان الصَّيارفة الأقباط يكتبون باللُّغة العربيَّة، وتمكَّن البعض منهم من تعلم اللُّغة التُّركيَّة

٢- د. سيدة إسماعيل كاشف، مصر الإسلامية وأهل الذمة، مرجع سابق، ص ٦٢

٣- نفس المرجع، ص ٨٨

مما جعلهم من المقرَّبين إلى الحكَّام[٤].

وفي أيام محمد علي كانت الوظائف المدنيَّة في الحكومة، أو الوظائف العسكريَّة، هي غاية ما يسعى إليه الفرد بكل الوسائل، فقد كان الموظَّفون في الدَّولة يمثِّلون الطَّبقة الرَّاقية فيها، وأصبحت النَّظرة إلى التَّعليم أساسيَّة لأنها هي الوسيلة للوصول إلى الوظيفة. وقد حظي أفراد طبقة المــوظَّفين باحترام اجتماعي واضح، لأن الوظائف الحكوميَّة كانت سبيلاً إلى الثَّراء[٥].

والجدير بالذِّكر أنه لم يكن هناك حدود فاصلة بين الوظائف المدنيَّـــة والعسكريَّة، فكان من الممكن أن ينتقل الموظَّف من الحياة المدنيَّة إلى الحياة العسكريَّة والعكس بالعكس، بل كان للرُّوح العســكريَّة تــأثير علــى الوظائف المدنيَّة منذ إعداد النشء لتقلُّد الوظائف العامة[٦].

وعموماً كانت هناك طائفتان من الموظَّفين:

الطَّائفة الأولى: وهي ممن تولوا مناصب الإدارة العُليــا في الــبلاد، والمناصب الرَّفيعة في الجيش والبحريَّة. وهم الأتراك والأرمن والجــركس والشَّوام. وضمَّ محمد على إلى هذه العناصر بقايا المماليك الــذين رأى في وجودهم بالجيش والإدارة عاملاً هاماً من عوامل الموازنة، حتى لا يظــل الاعتماد مقصوراً على الأتراك في أهم نــواحي الإدارة الحكوميَّــة. أمــا الأقباط فكانوا ضمن من اعتمد عليهم محمد علي في شغل الوظائف الفنيَّة والإداريَّة العُليا[٧]. بالإضافة إلى الأجانب من الأوربيين ولاسيَّما الفرنسيِّين الذين تولوا المناصب الفنيَّة وقاموا بتنفيذ المشروعات.

٤ـ د. حلمي أحمد شلبي، الموظفون في مصر في عصر محمد علي، مرجع سابق، ص ١٥
٥ـ نفس المرجع، ص ١٨
٦ـ نفس المرجع، ص ٧٨
٧ـ نفس المرجع، ص ٩٦

وكان **الأتراك** سادة البلاد، يمثّلون طبقة النُّبلاء بين الموظّفين، طبيعتهم عسكريَّة خالصة، ويستشعرون روح التَّفوُّق والسَّيطرة، وكانوا يحضرون من الآستانة بتوصية من الباب العالي ويتلقّون التَّعليم العسكري وفنون الحرب والإدارة.

أما **الأرمن**، فبالرَّغم من قلّة عددهم، إلاّ أنهم قد تولوا وظائف إداريَّة عُليا، وارتفع شأنهم إلى حد كبير، وكان محمد على قد أرسل بأبناء الأرمن إلى فرنسا وإنجلترا لدراسة اللُّغات الأوربيَّة والتَّخصُّص في مختلف المهن.

ولقد جلب أفراد أسرة محمد علي **الجراكسة** من الآستانة إلى مصر، وكانوا يتولون وظائف عُليا في الإدارة. وكانوا ينافسون الأتراك في تولي الوظائف العسكريَّة بصفة خاصة.

أما **الشَّوام** فكانوا أقل العناصر عدداً في الوظائف الإداريَّة، لأن معظمهم كانوا يعملون في التِّجارة، وتخصَّصوا في الوظائف الماليَّة عموماً.

كانت هذه العناصر تستند إلى أصولها الاجتماعيَّة وتُقدم على كل ما من شأنه تحقيق مصالحها الذاتيَّة بكل الوسائل. وظلّت هذه العناصر تنظر إلى المصريين بعين الازدراء[٨].

ولقد تمكّن عدد من الأوربيين من الوصول إلى الوظائف دون أن تكون لديهم المؤهّلات المناسبة لأعمالهم، فمن كان منهم ممرضاً مارس مهنة الطّب في مصر، وكان ثلثا أولئك الأطباء لا يحملون دبلومات، ومن مائة صيدلي عشرة فقط حاصلون على الدِّبلومات، وإذا ما هبط أوربي

٨ـ نفس المرجع، ص ٨٥، ٨٦، ٨٨، ٩٠، ٩٣

أرض مصر سرعان ما يُعيَّن صيدلياً أو طبيباً(٩).

الطَّائفة الثَّانية: وهم صغار الموظَّفين، أي موظفو الدَّواوين الحكوميَّة، وهم من المصريين **الأقباط**، فقد احتكر الأقباط وظائف الكتابة في الدَّواوين وجباية الأموال. وكانت وظيفة الكاتب من أهم وظائف الدَّولة، لأن الباشا كان في حاجة إلى عناصر تجيد القراءة والكتابة، ومعرفة اللُّغة التُّركيَّة. أما العناصر المصريَّة الأخرى فقد تمكَّنت بعد كفاح من تولي الوظائف الفنيَّة. ونادراً ما كان يحصل الأقباط على وظائف الإدارة(١٠). ولم يكن التحاق المصريين بالوظائف أمراً سهلاً، فقد كان من الضَّروري أن يكون هؤلاء على درجة كبيرة من المهارة والبراعة لكي ينالوا هذه الوظائف. وهناك أمثلة كثيرة لمصريين كافحوا حتى وصلوا إلى المناصب الإداريَّة والفنيَّة.

ومع أن محمد علي قام بتدريب المصريين في مصر والخارج، إلاَّ أن الغالبيَّة من الموظفين ظلَّت من الأتراك. مما يدل على طغيان العناصر الأخرى على الحياة الوظيفيَّة واحتكارها.

البعثات العلميَّة في عهد محمد علي

وفي سنة ١٨٤٧م وصل عدد البعثات العلميَّة إلى تسع، وكان لطلبة الطِّب النَّصيب الأوفر فيها. ويرجع ذلك إلى تأسيس مدرسة الطِّب سنة ١٨٢٧م التي تولى إدارتها "كلوت بك" الفرنسي(١١). في هذه المدرسة تم

٩ـ نفس المرجع، ص ٩٥

١٠ـ نفس المرجع، ص ٢٨

١١ـ "كلوت بك" هو طبيب فرنسي (١٧٩٣ـ ١٨٦٨م) جاء إلى مصر سنة ١٨٢٥م ليتولى تنظيم الإدارة الصحية للجيش المصري، وبناء على اقتراحه، أنشئ المستشفى العسكري بأبي زعبل، ومدرسة الطب كما سلف القول.

ترجمة قاموس قواميس الطِّب في ثمانية مجلّدات تحت عنوان "الشُّذور الذَّهبيَّة في الألفاظ الطبيَّة"، فاستولى عليه "كلوت بك" وقدَّمه هديَّة للمكتبة الوطنيَّة بباريس سنة ١٨٥١م، وكان المؤرِّخون المصريون يجهلون مجرَّد وجوده. وانتقلت مدرسة الطِّب من أبي زعبل إلى مقرِّها الجديد في قصر العيني حيث جمعت بين المدرسة والمستشفى، على ذلك النَّمط الذي لازال موجوداً حتى الآن[١٢].

ومهما يكن من القول بأن محمد على هو الذي أنشأ الدَّولة الحديثة، عندما أوفد البعثات العلميَّة من أبناء مصر إلى أوروبا ولاسيَّما فرنسا لتحصيل العلوم والمعارف الحديثة، إلاَّ أنه كان أحد الحُكَّام الغرباء الذين استولوا على مصر. فهو تاجر الدُّخان الألباني الذي جاء إلى مصر جندياً في حملة عثمانيَّة لإخراج الفرنسيين منها، فوضع رجله فيها، ولم يغادرها أبداً، وأقام فيها إمبراطوريَّة وأسرة ملكيَّة. فأما الإمبراطوريَّة فقد اندثرت قبل أن يموت، وأما الأسرة المالكة فقد بقيت ١٥٠ سنة حتى أطاحت بها ثورة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢م[١٣].

كان محمد علي لا يتكلَّم غير التُّركيَّة، ولا يفهم لغة البلاد، أو يتظاهر بعدم فهمها، فيستعين بمترجم عندما يتحدَّث إلى واحد يتكلَّم العربيَّة، وكان يرى أن الاقتصار على استخدام اللُّغة التُّركيَّة دون سواها مظهراً من مظاهر العظمة والكبرياء[١٤].

١٢ـ في إحصائية سنة ١٨٣٧م كان عدد طلبة مدرسة طب قصر العيني مائة وأربعون طالباً، بالإضافة إلى خمسين طالباً في مدرسة الصيدلة التي أُلحقت بها. أما مستشفى قصر العيني فقد احتوى على سبعمائة وعشرين سريراً.

١٣ـ جمال بدوي، نظرات في تاريخ مصر، مرجع سابق، ص ١٠

١٤ـ د. حلمي أحمد شلبي، الموظفون في مصر في عصر محمد علي، مرجع سابق، ص ٦٣

حالة الأقباط في عهد محمد علي (١٨٠٥- ١٨٤٩م)

بالرَّغم من أن محمد علي كان رجلاً أمياً، إلاَّ أنه كان بعيد النَّظر، إذ رأى شدَّة احتياجه لمساعدة المسيحيِّين نظراً لأمانتهم، فاستخدم كثيراً من الأرمن والكاثوليك - دون الأقباط - خوفاً من ازدياد نفوذهم، إلاَّ أنه أوقف الاضطهادات ضدَّهم. ثم عاد واختص الأقباط بالأعمال المصرفيَّة وضبط الإيرادات، والأعمال الحسابيَّة. فتحسَّن وضع الأقباط منذ عهد محمد علي، ونشأت بينهم طبقة مثقَّفة بلغت مراتب عالية. ويرجع لمحمد علي فضل اختيار الأقباط لمناصب هامة ساهمت في نهضة البلاد واستقلالها، فكان منهم حكام المدن (المحافظون الآن) ورؤساؤها[١٥]. وارتقى بعضهم إلى درجة وزير، فشغلوا منصب وزير مواصلات[١٦]، ووزير ماليَّة[١٧]، ووزير حربيَّة[١٨]، ووزير تجارة وصناعة[١٩]، ووزير شؤون بلديَّة وقرويَّة[٢٠]، ووزير صحَّة[٢١]، ووزير أشغال[٢٢]، ووزير خارجيَّة[٢٣]، ورئيس وزراء[٢٤]، ورئيس مجلس النواب[٢٥].

١٥ـ مثل تعيينه بطرس أغا أرمانيوس حاكماً على برديس، وفرج أغا ميخائيل حاكماً على دير مواس، وميخائيل أغا عبده حاكماً على الفشن، ومكرم أغا حاكماً لشرق أطفيح، وتكلا سيد لبهجورة، وأنطوان أبو طاقية حاكماً للشرقيَّة. وتعادل هذه المناصب مناصب المحافظين ورؤساء المدن حالياً. والتي لا يشغلها أحد من الأقباط الآن.

١٦ـ فوزي باشا المطيعي، وصليب باشا سامي.

١٧ـ مثل مكرم عبيد، وكامل صدقي.

١٨ـ هو صليب سامي.

١٩ـ هم سابا حبشي، وراغب حنا.

٢٠ـ هو إبراهيم فرج.

٢١ـ هو نجيب اسكندر لعدة مرَّات.

٢٢ـ هو إبراهيم نجيب.

٢٣ـ مثل واصف باشا بطرس غالي، وكامل بطرس غالي، وصليب باشا سامي.

٢٤ـ مثل بطرس باشا غالي، وكامل بطرس غالي، وصليب باشا سامي.

وفيما يتعلَّق بحريَّة العبادة، لم يَحُل محمد على بين الأقباط وبين ممارسة طقوسهم الدِّينيَّة، ولم يرفض أي طلب تقدَّم به الأقباط لبناء أو إصلاح كنائسهم.

ولكن في أواخر أيامه صمَّم على طرد الأقباط من البلاد إذا أبوا الإسلام، غير أن المنيَّة وافته حيث قُتل قبل أن يحقِّق مراده. وكأن التَّاريخ دورات متشابهة الأحداث، أو قل متطابقة الأحداث أحياناً.

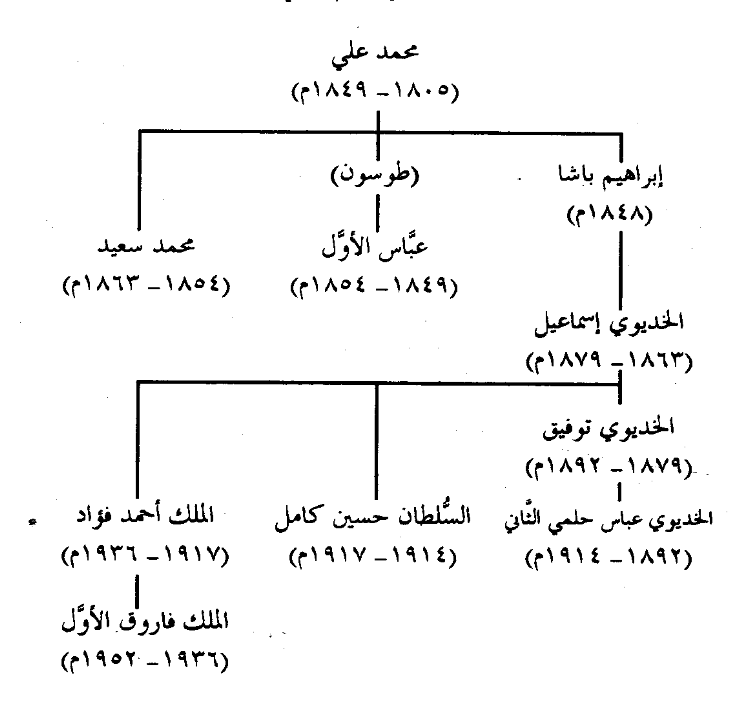
خلفاء محمد علي في الحُكم

توالى على حكم مصر من هذه الأسرة عشرة حكام، ثلاثة منهم تم عزلهم، وهم إسماعيل، وعبَّاس حلمي الثَّاني، وفاروق. وثلاثة آخرون جرت محاولة اغتيالهم وهم عباس حلمي الأوَّل، وحسين كامل، وفؤاد والد فاروق، وقد نجحت الأولى منها.

لقد كان الشَّعب هو الذي طالب الباب العالي في تركيا بتعيين محمد على حاكماً للبلاد وألَحَّ في الطَّلب حتى استُجيب له، وكان الشَّعب هو الذي أنهى حكم هذه الأسرة للبلاد بعد أن قامت ثورة يوليو سنة ١٩٥٢م من ضباط مصريين هم أبناء هذا الشَّعب عينه.

والرَّسم التَّوضيحي التَّالي يبيِّن سلالة أسرة محمد على باشا التي حكمت مصر منذ سنة ١٨٠٥م حتى قيام ثورة يوليو سنة ١٩٥٢م، لتُنهي على الحكم الملكي للبلاد، وهم عشرة حكَّام، وكان آخر هذه السُّلالة هو الملك فاروق الأوَّل، ثمَّ ابنه الطِّفل فؤاد الثَّاني الذي عُيِّن ثمَّ عُزل بعد إعلان الجمهوريَّة المصريَّة في ١٨ يونيو سنة ١٩٥٣م.

٢٥ـ هو ويصا واصف، الذي وقف في البرلمان قائلاً إنه يمثل دائرة لا يوجد بها قبطي واحد إلاَّ نائبها.



عباس حلمي الأوَّل (١٨٤٩ - ١٨٥٤م)

في عهد عبَّاس حلمي الأوَّل بن طوسون بن محمد علي، أُنشئ الخط الحديدي الذي يربط القاهرة بالإسكندريَّة. وكانت فترة حكمه قصيرة غير موفَّقة، فلم تمر سوى فترة قصيرة من انتهاء حكم محمد على حتى فصل عباس الأوَّل جميع المصريين كنتيجة لسياسة تهدف إلى هدم أعمال محمد علي. وفي سنة ١٨٥٦م لم يبق من المصريين من يشغل وظيفة كبيرة، بل أُسدل عليهم جميعاً السِّتار[٢٦]. ومات عباس الأوَّل مقتولاً بيد جماعة من أخصَّائه، ورفاق متعته[٢٧].

---

٢٦ - نفس المرجع، ص ٩٩

٢٧ - حسين فوزي، سندباد مصري، مرجع سابق، ص ٣٨٣

محمد سعيد باشا (١٨٥٤ - ١٨٦٣م)

وحكم بعده محمد سعيد باشا، وكان مهتماً بالفلاَّح المصري، فهو أوَّل من أمر بتمليك الفلاحين للأراضي التي يعملون فيها، وسمح لهم ببيع محاصيلهم لمن يرغبون، وإن لم يجدوا فيمكن أن يبيعوا منتجاتهم للحكومة. وفي سنة ١٨٥٦م بدأ مشروع حفر قناة السُّويس لتربط البَّحرين الأبيض والأحمر.

وكان سعيد باشا هو أوَّل من بدأ بدعوة الأقباط للانخراط في الجيش المصري أسوة بإخوانهم المسلمين، وسمح للجنود الأقباط أن يمارسوا ديانتهم علانية. كما منع إقامة الأفراح في حالةٍ اعتناق قبطي للدِّيانة الإسلاميَّة. وأمر بإلغاء الجزية المفروضة على الذِّميين في ديسمبر سنة ١٨٥٥م. وعيَّن حاكماً قبطياً للسُّودان، وهو بمثابة منصب رئيس الإقليم الجنوبي لمصر. وفي أيامه صدر الخط الهمايوني لبناء دور العبادة.

الخط الهمايوني، والشُّروط العشرة لبناء الكنائس

في فبراير سنة ١٨٥٦م صدر "الخط الهمايوني[٢٨]" الشَّهير، وذلك في سياق الصِّراع بين الدَّولة العثمانيَّة والقوى الأوربيَّة الصَّاعدة، لإثبات مرونة الدَّولة تجاه رعاياها من غير المسلمين. ومن بين بنوده أن يستصدر الأب البطريرك رخصة من "الباب العالي" بعد تقديم طلب له للسَّماح ببناء كنيسة. وطبقاً للأحكام القضائيَّة المصريَّة "أن الخط الهمايوني لا يجوز أن يُتَّخذ ذريعة لإقامة عقبات لا مبرِّر لها أمام إنشاء هذه الدُّور مما لا يتَّفق مع حريَّة إقامة الشَّعائر الدِّينيَّة، إذ أن التَّرخيص المنصوص عليه في هذا الخط لم يُقصد به عرقلة إقامة الشَّعائر الدِّينيَّة بل أُريد به أن يُراعى في إنشاء دور العبادة الشُّروط اللازمة التي تكفل أن تكون هذه الدُّور قائمة في بيئة محترمة تتَّفق مع وقار الشَّعائر الدِّينيَّة وطهارتها، وألاَّ تكون سبباً في

٢٨- وهو تعبير تركي يفيد معنى خطاب أو تفويض.

الاحتكاك ما بين الطَّوائف الدِّينيَّة المختلفة(٢٩)".

ولقد استُخدم الخط الهمايوني في غير مغزاه، فصار بناء أي كنيسة في مصر مرتبطاً بموافقة الحاكم شخصياً دوناً عن كافة المباني والإنشاءات الأخرى أياً كان نوعها، مع ما يصاحب ذلك من عقبات في كثير من الأحيان. وبعد سقوط الدَّولة العثمانيَّة بكلِ تشريعاتها ظلَّ هذا التَّشريع العثماني ساري المفعول حتى يومنا هذا، وأُضيف عليه فيما بعد قانون "البنود العشرة لبناء الكنائس" والذي صدر بقرار من العزبي باشا وكيل وزارة الدَّاخليَّة في فبراير سنة ١٩٣٤م في عهد الملك أحمد فؤاد (١٩١٧- ١٩٣٦م).

وكان يلزم استيفاء الشُّروط العشرة قبل الحصول على تصريح ببناء كنيسة جديدة، حيث تمنع هذه الشُّروط بناء الكنائس على الأراضي الزِّراعيَّة، وبالقرب من المساجد والأضرحة، وفي حالة بناء كنيسة جديدة في منطقة يقطنها المسلمون يجب الحصول على موافقتهم المسبقة، واشتراط عدد كاف من أعضاء الطَّائفة المسيحيَّة المعنيَّة في المنطقة المزمع بناء الكنيسة الجديدة بها. وتشترط عدم وجود كنائس قريبة من هذه المنطقة تتبع الطَّائفة المعنيَّة ببناء الكنيسة الجديدة. وفي حالة بناء الكنيسة الجديدة بالقرب من جسور النِّيل أو التِّرع العموميَّة، أو خطوط السِّكك الحديديَّة، يجب الحصول على تصريح من الجهة الحكوميَّة المعنيَّة ... الخ.

وجدير بالذِّكر هنا أنه قد أكمل حلقات هذه القوانين القديمة قانون جديد وهو القانون ١٠٦ المنشور بالجريدة الرَّسميَّة في العدد ٣٧ في ٩ سبتمبر سنة ١٩٧٦، والخاص بإنشاء الكنائس، والذي يقول في المادة الرَّابعة منه: "لا يجوز إنشاء مبان أو إقامة أعمال وتوسيعها أو هدمها أو

---

٢٩ ـ القضية رقم ٦١٥ لسنة ٥ القضائية، جلسة ١٦ ديسمبر سنة ١٩٥٢م. مقتبس عن: سامح فوزي، هموم الأقباط، مركز ابن خلدون للدراسات الإنمائية، القاهرة ١٩٩٨م، ص ١٠٤

تغطية واجهات المباني القائمة بالبياض أو خلافه إلاّ بعد الحصول على ترخيص في ذلك من الجهة الإداريَّة المختصة بشؤون التَّنظيم بالمجلس المحلي، ويسري هذا الحكم في عموميَّته وشموله على المباني المقامة لممارسة الشَّعائر الدِّينيَّة". وورد في هذا القانون اشتراط بالحصول على توقيع من رئاسة الجمهوريَّة على أية تراخيص للبناء أو التَّرميم[٣٠].

إسماعيل باشا (١٨٦٣- ١٨٧٩م)

تولّى إسماعيل باشا حكم البلاد، وفاز بلقب خديوي من الدَّولة العثمانيَّة سنة ١٨٦٦م بعد أن بذل في سبيل هذا اللّقب المال الوفير. وقد حاول تطوير مصر لتكون صورة أخرى من فرنسا التي تربىّ وعاش فيها.

وكان مجنوناً بالأشغال العامة، فحفر ١٣٥٠٠ كيلومتر من التِّرع النِّيليَّة، أي حوالي ١١٢ ترعة أهمها التِّرعة الإبراهيميَّة التي تبدأ من أسيوط وحتى بني سويف، والتِّرعة الإسماعيليَّة. وزيادة مساحة الأراضي الزِّراعيَّة إلى مليون فدان، أي من ٣,٨ مليون فدان إلى ٤,٨ مليون فدان. ولكنه في ذات الوقت نجح في الاستيلاء على خُمس الأراضي المتزرعة لنفسه. كما أنشأ مصانع السُّكَّر والنَّسيج والطُّوب، ومدَّ ١٦٠٠ كيلومتر من السِّكك الحديديَّة.

ويعود له الفضل في نقل مدينة القاهرة من مدينة تعيش في ظلام العصور الوُسطى إلى مدينة حديثة، تضاهي المدن الأوربيَّة[٣١]، فأنشأ فيها المتحف المصري، ودار الأوبرا، ودار الكُتُب، ورصف شوارعها، ووضع

٣٠- في الأيام الأخيرة من سنة ٢٠٠٥م فوَّض رئيس الجمهوريَّة المحافظين سلطة الموافقة على ترميم الكنائس أو السَّماح بهدمها وإعادة بنائها، وهو ما سأشير إليه في موقعه من الفصل القادم.

٣١- المنطقة من ميدان التَّحرير إلى باب الحديد وما يحيط بها شُيِّدت في زمانه.

التَّماثيل البرونزيَّة العملاقة في ميادين القاهرة، واستخدم غاز الاستصباح لإنارة شوارع القاهرة كما كان الحال في باريس آنئذ. وأدخل مياه الشُّرب النَّظيفة إلى القاهرة لأوَّل مرَّة.

وفي أقل من ستة أشهر شيَّد قصر عابدين[٣٢] لتقيم فيه الإمبراطورة الفرنسيَّة أوجيني خلال زيارتها لمصر لحضور حفلات افتتاح قناة السويس التي جرت سنة ١٨٦٩م. وصرف على حفلات افتتاحها ببذخ لم يعرف له التَّاريخ شبهاً. واستخدم ٣٠ ألف عامل ليمهِّد الطَّريق إلى الأهرامات.

وفي أيامه وُضعت سياسة ثابتة للتَّعليم، وافتتح أكثر من ٦٠٠ مدرسة، وأنشأ أوَّل مدارس للبنات، وعديد من المدارس العُليا والمستشفيات. وأصلح القضاء، ومنع الرِّق[٣٣].

وفي عهد إسماعيل باشا بدأ الأقباط يستنشقون نسيم الرَّاحة ويستعيدون قوَّتهم وحياتهم شيئاً فشيئاً[٣٤]. فأُعطيت مساحة أوسع من المساواة بين الأقباط والمسلمين، إذ اشترط حضور قسيس عند اعتناق مسيحي للدِّيانة الإسلاميَّة. ودعَّم المدارس القبطيَّة مالياً. وقرَّر علانية المساواة بين المسلمين والأقباط، وذلك بترشيح الأقباط لانتخاب أعضاء مجلس شورى القوانين. وفي أوَّل برلمان مصري منتخب سنة ١٨٦٦م دخل الأقباط الانتخاب أسوة بإخوانهم المسلمين. وقام بتعيين قضاة أقباط للمحاكم. وهو أوَّل حاكم قام بمنح الباشويَّة لرجل قبطي. وفي فترة ازدهار حزب الوفد (١٩١٩-١٩٥٢م) شارك الأقباط بفاعليَّة في الحياة السِّياسيَّة.

وسادت الشِّعارات التَّقدميَّة في تلك الفترة مثل "الدِّين لله والوطن

٣٢- نقل إسماعيل باشا مقر حكم البلاد من القلعة إلى قصر عابدين.

٣٣_ لجنة التاريخ القبطي، خلاصة تاريخ المسيحية في مصر، مرجع سابق، ص ١٩٩

٣٤_ لجنة التاريخ القبطي، خلاصة تاريخ المسيحية في مصر، مرجع سابق، ص ١٩٩

للجميع". و"عاش الهلال مع الصَّليب" ... الخ.

واشترى استقلال مصر من السُّلطان التُّركي في استنبول بمليون جنيه إسترليني، فتضخَّمت ديون مصر، وبلغت فوائد الدُّيون حوالي ٩١ مليون إسترليني[٣٥]، فوضع مصر كلها - بدون أن يقصد - بين أنياب الاستعمار الأوروبي. فكانت النتيجة الطَّبيعيَّة هي إشهار إفلاس مصر، ورهن كل ما تملك بما في ذلك نصيبها من أسهم القناة. فحُجز على أملاكه، وفُرضت عليه وزارة يرأسها أرمني، ووزير ماليتها بريطاني، ووزير الأشغال فيها فرنسي. وانتهى الأمر بعزله في يونيو سنة ١٨٧٩م لتورُّطه في شؤون البلاد الماليَّة، بعد أن بذل المال الوفير فيما يفيد وفيما لا يفيد[٣٦]. وتولى ابنه توفيق (١٨٧٩- ١٨٩٢م) حُكم البلاد، فغادر ميناء الإسكندريَّة على الباخرة المحروسة إلى نابولي في إيطاليا وهي نفس الباخرة التي أقلَّت حفيده فاروق الأوَّل (١٩٣٦- ١٩٥٢م) خارج البلاد في يوليو سنة ١٩٥٢م.

توفيق باشا (١٨٧٩- ١٨٩٢م)

بعد عزل إسماعيل باشا تولى ابنه توفيق باشا (١٨٧٩- ١٨٩٢م) الحكم سنة ١٨٨٢م، وسرعان ما وقعت مصر تحت الانتداب البريطاني منذ سنة ١٨٨٢م، فبدأ الجهاد الوطني ضد الإنجليز.

ثورة أحمد عرابي وجهاد مصطفى كامل ومحمد فريد

قامت ثورة أحمد عرابي باشا سنة ١٨٨٢م، وهي أوَّل بادرة في العصر الحديث لثورة تهب من أبناء مصر، أصحاب البلاد، لمقاومة جور الحاكم الأجنبي الدَّخيل. إذ ساءه سوء معاملة وزير الحربيَّة "عثمان باشا رفقي" وهو شركسي الجنسيَّة إذ كان يفضِّل أبناء جنسه الشَّراكسة ويشتِّت

٣٥- وهو رقم فلكي بمعايير تلك الأيام.

٣٦ـ حسين فوزي، سندباد مصري، مرجع سابق، ص ٣٨٤

الضُبَّاط المصريين. وبعد القبض على عرابي مع بعض زملائه هاج الضُبَّاط المصريُّون في مختلف الوحدات العسكريَّة ونجحوا في الإفراج عن عرابي، واحتشد نحو أربعة آلاف جندي في ميدان قصر عابدين، وعندما نزل الخديوي توفيق إلى ساحة القصر وأعلن رفضه طلبات عرابي بفصل وزير الحربيَّة وتحسين أوضاع المصريين، رد عليه عرابي بالعبارة الشَّهيرة: "نحن لسنا عبيداً ولن نورَّث بعد اليوم"، وإزاء تأييد الشَّعب لعرابي في ثورته اضطر الخديوي إلى الاستجابة لمطالبه.

وبعد هزيمة أحمد عرابي في التَّل الكبير، انتهزت بريطانيا الفرصة واحتلَّت مصر في العام ذاته، ولمدَّة سبعين سنة.

وتجلىَّ جهاد مصطفى كامل ضد الإنجليز في أروع صوره. وخلفه محمد فريد في الجهاد الوطني. وكان التَّلاحم بين الأقباط والمسلمين قوياً في أيام أحمد عرابي ومصطفى كامل، بفضل هذين القائدين الذَين رأوا في الأقباط بالفعل إخوة لهم في الوطن. ومن أقوال مصطفى كامل المأثورة: إن المسلمين والأقباط شعب واحد مرتبط بالوطنيَّة والعادات والأخلاق وأسباب المعاش ولا يمكن التَّفريق بينهما مدى الأبد[٣٧].

وفي سنة ١٨٨٣م تولى حكم مصر الفعلي اللورد كرومر قنصل بريطانيا، وسفَّاح مذبحة دنشواي، والذي بقى في مصر أربع وعشرين سنة، ورحل عنها في سنة ١٩٠٧م[٣٨].

عباس حلمي الثَّاني (١٨٩٢- ١٩١٤م)

في السَّنوات الأولى من القرن العشرين تفتَّح أمام الأقباط عدداً كبيراً

٣٧- د. سيدة إسماعيل كاشف، مصر الإسلامية وأهل الذمة، مرجع سابق، ص ١٧

٣٨- في أيام اللورد كرومر تم بناء خزان أسوان سنة ١٩٠٢م.

من الوظائف الرَّئيسيَّة في الدَّولة خصوصاً في وزارات الماليَّة والأشغال العامة ومصلحة البريد، ومصلحة السِّكك الحديديَّة. وهو ما أحدث بعض الحساسيَّات، وهي الحساسيَّات التي تعقَّدت عندما وقع اختيار سلطة الاحتلال البريطاني على بطرس باشا غالي لكي يرأس محكمة دنشواى في يونيو سنة ١٩٠٦م. ففي سنة ١٩٠٨م نشر الشَّيخ عبد العزيز جاويش مقالاً حاداً بعنوان: "الإسلام غريب في بلاده"، تبعه بآخر أكثر حدَّة، مما أدَّى إلى احتجاجات من الأقباط انتهت إلى عزمهم على عقد مؤتمر تحدَّد موعده في سنة ١٩١٠م ولكنه تأخَّر سنة كاملة نظراً لحادث اغتيال بطرس باشا غالي في فبراير سنة ١٩١٠م على يد إبراهيم الورداني.

وعقد الأقباط مؤتمرهم القبطي العام في أسيوط سنة ١٩١١م ووضعوا فيه ما يُسمى "حقوق الأقليَّة". وكان الرَّد عليه بمؤتمر إسلامي عام عُقد في القاهرة في السَّنة التَّالية سنة ١٩١٢م واتخذ قرارات متشدِّدة.

وسرعان ما قامت السُّلطات الإنجليزيَّة التي كانت تحكم مصر بعزل عبَّاس حلمي الثَّاني، وعيَّنت بدلاً منه السُّلطان حسين كامل (١٩١٤- ١٩١٧م).

السُّلطان حسين كامل (١٩١٤- ١٩١٧م)

وفي بداية عهده أي في سنة ١٩١٤م أعلنت إنجلترا الحماية على مصر، فأصبحت مصر سلطنة. وبعد أن تولى السُّلطان حسين عرش مصر ثلاث سنوات فقط، أُقيم فؤاد الأوَّل ملكاً على مصر.

فؤاد الأوَّل ملك مصر (١٩١٧- ١٩٣٦م)

حاول الإنجليز تعويض خسارتهم في اغتيال بطرس باشا غالي بتعيين قبطي بارز آخر هو سليمان باشا، لتشكيل الوزارة، ولكن البابا كيرلس الخامس

(١٨٧٤ـ ١٩٢٧م) نصحه بعدم القبول، ولم ينتصح. وجـرت محاولـة اغتياله بواسطة قبطي هذه المرَّة وهو (عريان سعد) عندما قام بإلقاء قنبلـتين على موكبه نجا منهما بمعجزة، واقتنع بعدها أن رئاسته للوزارة لا تخـدم إلاّ هؤلاء الذين يحاولون إثارة واستغلال الفتنة الطائفيَّة بين المسلمين والأقباط.

ثورة سعد زغلول

وقامت ثورة سنة ١٩١٩م بقيادة سعد زغلـول ضـد الاحـتلال الإنجليزي، وكانت ثورة شديدة الوعي بحقائق مصر عندما رفعت شـعار "الهلال والصَّليب[٣٩]". وهي نفس السَّنة التي أُنشئت فيها عُصبة الأمـم المتَّحدة، ثم محكمة العدل الدَّوليَّة سنة ١٩٢١م.

وكان لسعد زغلول أكبر الأثر في اندماج الأقباط في الكفاح الوطني، حيث نعم الكفاح الوطني بثراء مشاركة كافة أطرافه، وكاد شعار "الدِّين لله والوطن للجميع" أن يصبح من أبرز معالم ثورة سنة ١٩١٩م. فقـد انتشرت الثَّورة في كل أرجاء مصر على يد أبناء الشَّعب الذين خرجـوا يؤيِّدون سعد باشا زغلول للسَّفر إلى لندن ومفاوضة الإنجليز للجلاء عـن مصر. وعندما قبض الإنجليز على سعد زغلول ونفـوه خـارج الـبلاد اشتعلت نيران الثَّورة في كل مصر وعمَّ الاضطراب أنحاء البلاد وتوقَّفـت الحياة واضطرَّ الإنجليز إلى الإفراج عن سعد زغلول ورفع قبضتهم المسيطرة على مصر، فأعلنوا مصر دولة مستقلَّة يحكمها ملك.

وأصبحت مصر مملكة وراثيَّة سنة ١٩٢٢م بعد أن أعلنت بريطانيـا زوال الحماية عن مصر صورياً وليس حقيقـة، واعترفـت باسـتقلالها استقلالاً مزيَّفاً، لأنه لم يخرج آخر جندي بريطاني من مصـر إلاّ في سـنة ١٩٥٦م. فرُقي السُّلطان فؤاد من سُلطان إلى ملك باسم حضـرة صـاحب

٣٩ـ محمد حسنين هيكل، خريف الغضب، مرجع سابق، ص ٢٧٢، ٢٧٣

الجلالة الملك فؤاد الأوَّل. ومات سعد زغلول في ٢٧ أغسطس سنة ١٩٢٧م.

حزب الوفد بقيادة مصطفى النَّحاس

ولقد برز حزب الوفد تحت قيادة مصطفى النَّحاس بعد قيادة سعد زغلول. وكان أبرز أقطاب الوفد من الأقباط، مثل ويصا واصف وسينوت حنا. وكان مكرم عبيد باشا هو سكرتير عام الحزب الذي تولى وزارة الماليَّة دائماً في كل وزارات الوفد حتى سنة ١٩٤٢م. وكان مكرم عبيد من ألمع الشَّخصيَّات في الحياة السِّياسيَّة المصريَّة، ومن أبرز وزراء الاقتصاد بها، بل ومن أكثر السِّياسيِّين المصريين في تلك المرحلة وعياً باحتياجات مصر الاجتماعيَّة. وهو الذي أعلن شعاره المشهور في ظروف الحرب العالمية الثَّانية "إذا كان واجبنا أن نحرِّر المصري من استغلال الأجنبي، فإن علينا في نفس الوقت أن نعمل لتحرير المصري من استغلال المصري" وفي المعاهدة المصريَّة البريطانيَّة سنة ١٩٣٦م تعهَّدت إنجلترا بإنهاء الاحتلال للبلاد.

فاروق الأوَّل ملك مصر (١٩٣٦-١٩٥٢م)

كان حاكماً مستبداً، متحلِّلاً من كل قيد، يتدخَّل بحماقة وجنون في شئون الحكم والجيش والقضاء. وانطبق عليه قول فولتير: "الطَّاغية هو الحاكم الذي لا يعرف من القانون إلاَّ هواه". حارب نشر التَّعليم كعباس، وزج بالجيش في حرب تجارية كمحمد علي - وهي حرب فلسطين سنة ١٩٤٨م - ومنح الامتيازات لندمائه كسعيد، وكان وكيلاً للإنجليز في مصر كسلفه توفيق[٤٠]. فطُرد من مصر سنة ١٩٥٢م.

٤٠- أحمد بهاء الدِّين، فاروق ملكاً، القاهرة، ١٩٩٩م، ص ٧٥، ٧٧، ١١٢

مجمل أهم الأحداث التي عكّرت صفو العلاقات بين المصريين

لقد كان عهد محمد على وأسرته - أي الفترة ما بين سنة ١٨٠٥م وسنة ١٩٥٢م عشيَّة قيام ثورة يوليو - هو مرحلة بداية بناء الدَّولة الحديثة بما في ذلك بداية تأصيل مفهوم المواطنة لكل المصريين، بما تعنيه من المساواة أمام القانون، والمشاركة في إدارة شؤون البلاد، والحق في اقتسام الموارد. وكذا اكتمال مؤسَّسات الدَّولة التَّشريعيَّة والتَّنفيذيَّة والقضائيَّة وإصدار الدُّستور.

لقد كانت هذه الفترة بمثابة بداية طيِّبة يمكن البناء عليها، ولكن حدث في أثنائها أموراً عكَّرت بعض الشَّئ صفو العلاقات بين أبناء الشَّعب الواحد مثل:

١- اغتيال بطرس باشا غالي على يد الورداني. وكان عضواً في جماعة أصوليَّة تسمى جماعة الإخاء المتبادل. ومن المؤسف أن المفتي وقتها رفض التَّصديق على حُكم إعدامه بحجَّة أن المسدَّس الذي استخدمه لم يرد ذكره في القانون الإسلامي كأداة قتل!.

٢- هجوم الشَّيخ المراغي شيخ الأزهر المتحالف مع القصر مراراً وتكراراً في خطبه على الوفد وعلى الأقباط.

٣- ظهور جماعة الإخوان المسلمين سنة ١٩٢٨م وممارساتها المتطرِّفة ضد المجتمع، وعملياتها الإرهابيَّة التي طالت الأقباط.

٤- صدور دستور سنة ١٩٢٣م الذي ينص على أن دين الدَّولة الرَّسمي هو الإسلام.

٥- إصدار وزارة العدل منشوراً سنة ١٩٣١م يقضى بأن تكون الشَّهادة الطبيَّة المقبولة في القضايا الشَّرعيَّة من طبيب مسلم ولا تُقبل من طبيب مسيحي.

٦- إصدار العزبي باشا وكيل وزارة الدَّاخليَّة سنة ١٩٣٤م الشُّروط

العشرة لبناء الكنائس. وهي شروط معوِّقة ومكبِّلة لبناء الكنائس.

٧- الممارسات الفاشيَّة لجمعيةِ مصر الفتاة وتحولها من جمعيَّة فاشيَّة إلى ما يشبه الحزب الإسلامي.

٨- تحيُّز القصر والملك في كثير من الأحيان ضد الأقباط نكاية في حزب الوفد.

ثانياً: أخبار الكنيسة في فترة الحُكم الملكي للبلاد

البابا كيرلس الرَّابع أبو الإصلاح (١٨٥٣- ١٨٦١م)

قبل نهاية حكم عباس حلمي الأوَّل بسنة واحدة أُقيم البابا كيرلس الرَّابع (أبو الإصلاح) سنة ١٨٥٣م بطريكاً للكرازة المرقسيَّة.

وكان البابا كيرلس الرَّابع متعمِّقاً في دراسة اللُّغات العربيَّة والقبطيَّة واليونانيَّة والتُّركيَّة، كما كان ملماً بالإنجليزيَّة والإيطاليَّة. ولم يدم في منصبه سوى قرابة تسع سنوات حيث مات مسموماً سنة ١٨٦١م بخيانة مطران الأرمن في مصر. وعميل الحاكم سعيد!.

لقد اشتملت فترة رئاسته القصيرة على نهضة كنسيَّة شاملة، وإصلاحات واسعة في التَّعليم المجاني حيث أنشأ مدرسة الأقباط الكُبرى التي شيَّدها سنة ١٨٥٥م وألحقها بالكنيسة البطريركيَّة، ودُرِّست فيها اللُّغات القبطيَّة والعربيَّة والتُّركيَّة والفرنسيَّة والإنجليزيَّة والإيطاليَّة. وهو أوَّل من أنشأ مكتبة عامة بالمدرسة السَّابق ذكرها. وهو الرَّائد في تعليم البنات[٤١]، وإنصاف المرأة. وفي عهده بدأت الطِّباعة الدِّينيَّة لأوَّل مرَّة في

---

٤١ ـ تشير مصادر الحملة الفرنسية على مصر أن التعليم في القاهرة كان قاصراً على الذكور من أبناء الأقباط فقط، وأما في الصَّعيد فكان للطفلة القبطيَّة الحريَّة التامة في

مصر، بعد أن استورد مطبعة من أوروبا لاستخدامها في نشر العلوم الكنسيَّة، وتثقيف الإكليروس، وكانت هي المطبعة الثّالثة التي عرفتها مصر في بدء نهضتها الحديثة بعد المطبعة الأولى التي دخلت مصر مع الحملة الفرنسيَّة، والمطبعة الثّانية، وهي مطبعة بولاق الأميريَّة[٤٢].

وفي عهده كان الاهتمام بالألحان والطقوس الكنسيَّة، وإعادة ترميم الكنائس الأثريَّة، وبناء كنائس جديدة. والصَّداقة التي توطّدت في عهده بين الكنيسة القبطيَّة الأرثوذكسيَّة والكنيسة اليونانيَّة في مصر، كانت أوَّل بادرة حقيقيَّة في القرن التَّاسع عشر للتَّقارب بين الكنيستين، وهو ما بُدء في ممارسته رسمياً في النِّصف الثّاني من القرن العشرين.

نشأة المجلس الملّي[٤٣]

في سنة ١٨٧٣م رأى أعيان الكنيسة القبطيَّة بعد نياحة البابا ديمتريوس الثّاني (١٨٦٢- ١٨٧٠م) واضطراب الأحوال الماليَّة والإداريَّة، أن يعدُّوا - قبل انتخاب خليفته - مشروعاً لإصلاح الكنيسة، وكانت مجموعة قوانين ابن العسَّال (القرن الثالث عشر) رائدهم في ذلك. ووجدوا فيها القول أنه في كل الأمور المهمَّة، يجب أن يستشير البطريرك أناساً مثقّفين وأتقياء، كهنة وعلمانيين، أفراداً وجماعات، والقرارات يجب أن تدوَّن كتابة.

التعليم والذهاب إلى كتَّاب القرية مثلها مثل الذكور تماماً، حتى تقترب من سن البلوغ، فتستقر في المترل.

انظر: د. محمد عفيفي، الأقباط في مصر في العصر العثماني، مرجع سابق، ص ٢٤٢

٤٢ـ في مصر الآن ستة آلاف مطبعة حكومية وأهلية.

٤٣ـ مجلة صديق الكاهن، العدد الرابع، أكتوبر ١٩٧٩م، مجلة المسرة، العدد ٧٧٥ـ ٧٨٠، تموز ١٩٩٠م

وعلى هذا الأساس اجتمع جماعة من الأراخنة يوم ٦ يناير سنة ١٨٧٤م وأيَّدهم القُمُّص فيلوثاؤس إبراهيم (١٨٣٧- ١٩٠٤م) رئيس الكنيسة المرقسيَّة الكُبرى بالقاهرة، وأعدُّوا مشروعاً يقضي بإنشاء مجلس في كل إيبارشيَّة برئاسة أسقف الإيبارشيَّة مكّون من لجنة من العلمانيِّين لإدارة أمور الإيبارشيَّة الماليَّة والمدنيَّة، ولجنة من الإكليريكيين للاهتمام بالأمور الرُّوحيَّة. ووافقهم الأنبا مرقس القائم مقام البابا أثناء خلو الكرسي البطريركي، وصدَّق على مشروعهم، ووافقهم أيضاً جميع الأساقفة. وفي يوم ١٦ يناير سنة ١٨٧٤م تم انتخاب المجلس الملي الأوَّل العام، وقام بطرس باشا غالي بإخطار الحكومة بذلك المجلس واختصاصاته. وفي ٢ فبراير سنة ١٨٧٤م تمت موافقة الخديوي إسماعيل على الاعتراف الرَّسمي بهذا المجلس.

وصار المجلس الملّي ومنذ بدايته يتكوَّن من اثني عشر عضواً علمانياً، واثني عشر نائباً يحلُّون محل الأعضاء الأساسيِّين الغائبين. ويشترك الكهنة مع أعضاء المجلس عند الفصل في المسائل الدِّينيَّة، ويرأسه البطريرك أو من ينوب عنه.

وانتخب هذا المجلس البابا كيرلس الخامس (١٨٧٤- ١٩٢٧م) بابا الإسكندرية الـ ١١٢ بعد أن نالوا مرسوماً خديوياً بهذا الشَّأن. وكانت حياته الباذلة في هدوء من أجل الكنيسة وشفافية روحه نبراساً يُحتذى لكل جيله. وفي البداية كان البطريرك على وفاق تام مع المجلس، ولكن بعد فترة وجيزة وجد أن مشاريعه لا تُنفَّذ إلاّ إذا قُبلت من أغلبيَّة أعضاء المجلس، وهو ما اعتبره إجحافاً بحقوقه كرئيس كنسي. فتوتَّرت العلاقة بين المجلس الملّي والبابا. وفي سابقة مؤسفة رفع المجلس شكوى ضد بطريركه إلى الحكومة التي أجبرته على أن يمتثل لما جاء في المرسوم الصَّادر في فبراير سنة ١٨٧٤م في تعهد مكتوب يُعمل به عند اللُّزوم.

في هذا الوقت نشأ معهد اللاّهوت في القاهرة، وعُين القُمُّص فيلوثاؤس رئيس الكنيسة المرقسيَّة الكُبرى بالقاهرة مديراً له. ولكن مع نفاذ صبر البابا من المراقبة والإشراف اللّتين لم يكن سابقوه واقعين تحت مثيليهما، بدأ بإلغاء المعهد المذكور.

كف غالبيَّة أعضاء المجلس عن حضور الاجتماعات، ورفعوا شكوى أخرى للحكومة ضد بطريركهم، فصدر مرسوم من الخديوي توفيق باشا في إبريل سنة ١٨٨٣م بتجديد المجلس، ووضع أحكام جديدة تمنع البطريرك من رفض رأي الأغلبيَّة، بل أصبح للمجلس الحق في حل المسائل الخاصة بالكنائس والمدارس ودخل الفقراء والصَّدقات وسجلات الزَّواج والعماد والوفيَّات ورسامات الكهنة وتوزيع الرُّهبان في الأديرة والميراث ... الخ. وإذا وُجدت بعض النقاط لم تحدَّد يعتبرها المجلس من اختصاصه.

فأصبح المجلس ينفرد بنظر دعاوى الزَّواج والطَّلاق بغير حضور رجال الدِّين، وأن يجتمع وحده، فغياب البطريرك أو نائبه لا يعطِّل جلساته.

ولما انتهت مدَّة المجلس حاول البابا بكل وسيلة وقف تجديده، فتفاقم الأمر سوءاً لاسيَّما بعد أن عقد البابا مجمعاً من الأساقفة وكبار الكهنة وأصدر قراراً بمنع العلمانيِّين من التَّدخُّل في إدارة الكنيسة. ولكن بطرس باشا غالي - والذي كان باستطاعته طي هذه الصَّفحة القاتمة - عاد إلى تجديد المجلس واستدعاء النَّاخبين بحضور محافظ القاهرة الذي افتتح الجلسة الانتخابيَّة باسم الخديوي بعد أن رفض البابا رئاستها. وساءت الأحوال بين البابا والخديوي، وتورَّط المجلس فأصدر قراراً برفع يد البابا عن كافة شؤون الكنيسة، وعبثاً حاول البابا إقناع الحكومة أنه هو المسئول عن إدارة الكنيسة.

واختار المجلس الأنبا أثناسيوس أسقف صنبو ليقوم بالنيابة

البطريركيَّة، فعقد البابا مجمعاً من الأساقفة والكهنة وحرمه. وانتهى الأمر بإبعاد البابا إلى دير البراموس بوادي النَّطرون، فساءت الأحوال وعمَّت الفوضى، وانضمَّ كثير من الأقباط إلى طائفة الرُّوم الأرثوذكس. ولقد كان لبطرس باشا غالي أكبر قدر من المسؤوليَّة في هذا الضَّرر الذي لحق بالأقباط.

بعد ذلك رفع الأقباط عريضة موجَّهة إلى الخديوي عباس حلمي باشا يلتمسون فيها رجوع بطريركهم، وقَّع عليها ثمانية آلاف أب أسرة، فوافق الخديوي على عودة البطريرك إلى كرسيه، فعاد في فبراير سنة ١٨٩٣م. وبعد عشرة أيام من وصوله جاءه بطرس باشا غالي ومعه الأنبا أثناسيوس أسقف صنبو وقسقام واعتذرا للبابا عما فرط منهما، فصفح عنهما.

وتشكَّل المجلس الملِّي الرَّابع، واعتُمد رسمياً من الدَّولة سنة ١٩٠٦م، وعادت الأمور إلى ما كانت عليه، فتنحى البابا عن رئاسة المجلس، وفوَّض لإدارة جلساته القُمُّص بطرس عبد الملك رئيس الكنيسة المرقسيَّة الكُبرى.

وفي سنة ١٩٠٨م عاد رؤساء الأديرة إلى مناوأة ومنازعة المجلس الملِّي في إدارة الأوقاف القبطيَّة، وتمكَّنوا من الحصول على القانون رقم ٨ لسنة ١٩٠٨م وقانون سنة ١٩١٢م، بتعديل لائحة اختصاصات المجلس الملِّي، وأهمها إخراج إدارة جميع أديرة الرُّهبان الكائنة خارج مدينة القاهرة من اختصاص المجلس وتكون إدارتها للبطريرك. إلاَّ أن البرلمان عاد في سنة ١٩٢٧م ووضع إدارة أديرة الرُّهبان في يد المجلس مرَّة أخرى. وبالاختصار كانت أوقاف الأديرة هي الصَّخرة التي تحطَّمت عليها كل وسائل السَّلام بين المجلس الملِّي وأعضاء المجمع المقدَّس منذ تأسيسه سنة ١٨٧٤م إلى أن تم إنشاء هيئة الأوقاف القبطيَّة في يوليو سنة ١٩٦٠م في عهد البابا كيرلس السَّادس (١٩٥٩- ١٩٧١م)، والذي في عهده توقَّف نشاط المجلس الملِّي[٤٤].

٤٤- في عهد قداسة البابا شنودة الثالث وبطلبه عاد نشاط المجلس الملي، وصارت

نهضة كنسيَّة شاملة في عصر البابا كيرلس الخامس (١٨٧٤- ١٩٢٧م)

برز في عهد البابا كيرلس الخامس الأنبا باسيليوس مطران القدس (١٨١٨- ١٨٩٩م) وكان مطراناً للقدس إلى جانب مديريَّات الدَّقهليَّة والشَّرقيَّة والغربيَّة - ما عدا طنطا وكفر الزيَّات - والقليوبيَّة ومحافظتي القنال ودمياط! وبرغم ذلك استطاع أن يرعى كل هذه الرَّعية المترامية الأطراف بسيرة حسنة، إلى جوار التَّعمير الكثير الذي امتد في كل مكان. وكان رجلاً باراً شريف الأخلاق، نزيه النَّفس، متَّسع الفكر، سديد الرأي، غيوراً على كنيسته، فصار موضع حب الأقباط جميعاً.

وفي سنة ١٨٨١م كرَّس البابا كيرلس الخامس الأنبا أبرآم البار والقدِّيس أسقفاً للفيوم والجيزة (١٨٨١- ١٩١٤م)، وشتَّان بين حياة وحياة، حياة سياسيَّة مرتبكة مضطِّربة متشابكة الأحداث، وحياة روحيَّة صافية هادئة، وسيرة عطرة انتشر أريجها فغطى على ما عداها من أحداث.

وفي سنة ١٨٩٣م أعاد البابا كيرلس الخامس افتتاح الكليَّة الإكليريكيَّة، وفي سنة ١٩١٨م أسند رئاستها إلى الأرشيدياكون حبيب جرجس (١٨٦٦- ١٩٥١م) الذي يُعتبر أوَّل من استعمل تعبير "الأمَّة القبطيَّة"، حيث قام بحملة واسعة لنشر اللُّغة القبطيَّة، وهو أيضاً قائد حركة "مدارس الأحد" لتربية النشء في حضن الكنيسة، وبإيجاز قال عنه الأستاذ محمد حسنين هيكل "... وبشكل عام فلقد يمكن القول أن دوره في المجتمع القبطي وبين الأقباط، كان يتوازى مع الدَّور الذي قام به بعض المصلحين الإسلاميِّين من أمثال الأفغاني وعبده[٤٥]". وظلَّ البابا كيرلس الخامس على علاقة وطيدة بسعد باشا زغلول مرتبطين معاً برباط المحبَّة

قرارات المجلس تصدر بموافقة كل الأعضاء، وانتفت الخلافات تماماً.

٤٥ـ محمد حسنين هيكل، خريف الغضب، مرجع سابق، ص ٢٧٦

والوطنيَّة حتى انتقل كلاهما في شهر واحد، حيث انتقل البابا في يـوم ٧ أغسطس سنة ١٩٢٧م.

ويعد عصر البابا كيرلس الخامس من أزهي عصور الكنيسة الطَّقسيَّة والفكريَّة، إذ في عهده طُبعت كل الكُتُب الطَّقسيَّة الكنسيَّة تقريباً، بـل أدقها على الإطلاق طيلة القرن العشرين كله. ونهض الإكليروس، وبـرع بينهم الخطباء والمفوَّهون، وفي عهده أُنشئت أوَّل مجلة قبطيَّة سنة ١٩١٤م، أنشأها القُمُّص يوسف حبشي، وظهرت مجلة الفردوس التي كان يصـدرها القس منسى يوحنا (+ ١٩٣٠م)، ومجلة صهيون التي أسَّسـها الأسـقف إيسيذوروس (+ ١٩٤٢م). وظهر في أيامه القُمُّص صليب المسعودي الذي باشر طبع كتاب الخولاجي المقدَّس الكبير لأوَّل مـرَّة في مصـر سـنة ١٩٠٢م. وبعد أن كانت الكنيسة تملك مدرسة واحدة أصبحت في أيامه تملك عشرات المدارس الابتدائيَّة والثانويَّة للبـنين والبنـات في القـاهرة وعواصم الأقاليم علاوة على المدرسة الصِّناعيَّة. وفي عهده نشأت الجمعيَّات الأهليَّة المسيحية لأوَّل مرَّة في مصر.

وظهر أيضاً الإيغومانس فيلوثاؤس إبراهيم (١٨٣٧- ١٩٠٤م) مـن مواليد مدينة طنطا، وخرِّيج مدرسة الأقباط التي أنشأها البابـا كيرلـس الرَّابع، حيث أتقن فيها القبطيَّة والعربيَّة والإيطاليَّة. وفي سنة ١٨٦٢م صار قساً لكنيسة رئيس الملائكة ميخائيل بسبرباي أحد ضواحي مدينة طنطا، إذ لم يكن لمدينة طنطا كنيسة آنئـذ[٤٦]. وانتقـل في سـنة ١٨٧٤م إلى الكاتدرائيَّة المرقسيَّة بالقاهرة نظراً لسعة علمه الغزير وذيوع شـهرته في الوعظ، وبراعته في الدِّفاع عن عقائد الكنيسة القبطيَّة، ووضع كتباً كثيرة،

٤٦ـ أول كنيسة أُنشئت في مدينة طنطا في العصر الحديث هي كنيسـة السـيدة العذراء مريم بحي الصَّاغة، وذلك في سنة ١٨٧٥م، وكان قداسة البابا شنوده الثالث قد زارها واحتفل بالعيد المئوي لها في شهر كيهك (ديسمبر) سنة ١٩٧٥م.

وهو الذي أدخل إلى الكنيسة طقس تمثيل القيامة في ليلة عيد القيامة نقلاً عن الكنيسة اليونانيَّة بعد أن أجرى له بعض التَّعديلات، وإليه يُنسب لحن "يا كل الصُّفوف السَّمائيين". وقد عاصر البطريركين ديمتريوس الثَّاني (١٨٦٢- ١٨٧٠م)، وكيرلس الخامس (١٨٧٤- ١٩٢٧م).

المتحف القبطي بمصر القديمة

أنشأه مرقس سميكة باشا في سنة ١٩١٠م في منطقة مصر القديمة على الباب الغربي لحصن بابليون، وفوق برجين من أبراج ذلك الحصن الرُّوماني، وبجوار كنيسة السيِّدة العذراء (المعلَّقة). وذلك بعد غياب بطرس باشا غالي (١٨٤٧- ١٩١٠م) عن السَّاحة المصريَّة. وكان المتحف تابعاً للبطريركيَّة حتى سنة ١٩٣١م، ثم أصبح تابعاً لمصلحة الآثار.

ويتكوَّن المتحف القبطي من جناحين: الجناح القديم، وقد أُنشئ مع إنشاء المتحف سنة ١٩١٠م. والجناح الجديد، والذي افتتحه الملك فاروق الأوَّل سنة ١٩٤٧م.

ويتألَّف كل جناح من دورين، في كل دور مجموعة من الصَّالات المستطيلة الواسعة يصل عددها إلى ثلاثين قاعة، ترتَّبت فيها المقتنيات ترتيباً تاريخياً منذ دخول المسيحيَّة إلى مصر. ويقدَّر عدد مقتنيات المتحف بأكثر من أربعة عشر ألف تحفة ما بين معروض ومخزون. وفي سنة ١٩٢٠م، أُنشئ بالمتحف مكتبة تعتبر جزءاً أساسياً منه، تحوي ما يزيد عن عشرة آلاف كتاب ومجلَّد ودوريات بلغات مختلفة. ومُلحق بها مكتبة خاصة بالمخطوطات تبلغ حوالي ألف مخطوط من البردي والرِّق والكتَّان من القرن الثَّاني إلى القرن التَّاسع عشر. كما توجد به خمسمائة ورقة بردي عُثر عليها سنة ١٩٥٦م داخل كهف عند سفح جبل طارق بنجع

حمادي، وهي خاصة بجماعة الغنوسيين الذين عاشوا في مصر منذ القرن الثّاني الميلادي.

وفي يوم ٢٠٠٦/٦/٢٦م قام الرَّئيس حسني مباركُ - بمصاحبة رئيس مجلس الوزراء ووزير الثّقافة - بافتتاح المتحف، بعد ترميمه، وتطوير أسلوب عرض مقتنياته، تماشياً مع نُظم المتاحف العالميَّة، وحمايته إلكترونياً. وقد تكلّف مشروع تطويره وترميمه ٣٠ مليون جنيه مصري.

الجمعيَّات الأهليَّة المسيحيَّة في مصر

مع نهاية القرن التَّاسع عشر وبداية القرن العشرين كان للأقباط تسع جمعيَّات أهليَّة وهي أقدم جمعيَّات أهليَّة أنشأها الأقباط وهي:

- **الجمعيَّة الخيريَّة القبطيَّة:** أُنشئت سنة ١٨٨١م، باسم "جمعيَّة المساعي الخيريَّة" بفضل بطرس باشا غالي رئيس الوزراء لزيادة نقل مجتمع الإصلاح القبطي، ومساندة المجلس الملّي العام، وزيادة دوره في الإشراف على أوقاف الكنيسة وإدارة أموالها. وفي سنة ١٩٠٨م أُطلق عليها اسمها الجديد. وهي التي أنشأت المستشفى القبطي بشارع رمسيس، وهو أوَّل مستشفى أهلي في القاهرة.

- **جمعيَّة التَّوفيق القبطيَّة:** تأسَّست سنة ١٨٩١م ووقفت بجانب المجلس الملّي في الخلافات بين المجلس والبابا كيرلس الخامس. أسَّسها رفلة جرجس، ومرقس بك سميكة مؤسِّس المتحف القبطي وغيرهما. وأنشأت هذه الجمعية أوَّل مدرسة صناعيَّة للأقباط سنة ١٩٠٥م.

- **جمعيَّة النشأة القبطيَّة:** تأسَّست سنة ١٨٩٦م، وقامت على ثلاثة مبادئ هي: الحث على دراسة اللُّغة القبطيَّة، وتدريس قواعد الدِّين، وجمع

تاريخ وافي للأقباط. وكان الأستاذ حبيب جرجس يلقي عظاته بها. وفي سنة ١٨٩٨م أصدرت نتيجتها السَّنويَّة، وهي أوَّل نتيجة قبطيَّة تصدر من نوعها، ويرجع الفضل في إصدارها للأستاذ توفيق إسكاروس صاحب كتاب نوابغ الأقباط ومشاهيرهم في القرن التَّاسع عشر.

- **جمعيَّة المحبَّة**: أسَّسها الأستاذ حبيب جرجس باسم "جامعة أشعة حب يسوع"، ثم أطلق عليها اسم "جامعة المحبَّة"، وكان هدفها تعليم الدِّين المسيحي للنشء. وفي سنة ١٩٠٥م اتجهت إلى تعليم طلبة المدارس الأميريَّة مبادئ الدِّين المسيحي قبل أن يتقرَّر تعليم الدِّين المسيحي بهذه المدارس.

- **جمعيَّة الإيمان القبطيَّة**: تأسَّست سنة ١٩٠٠م في حارة السَّقايين لممارسة الوعظ، ثم نُقلت إلى الفجَّالة، وكانت تمارس الوعظ ودراسة الكتاب المقدَّس واللُّغة القبطيَّة. وتمثِّل هذه الجمعية نهضة قبطيَّة إصلاحيَّة في عدَّة ميادين، حيث بلغ عدد تلاميذ وتلميذات مدارسها خمسة آلاف. وأنشأت مستوصفاً ومستشفى وكنيسة كبرى ومجلة ذاع انتشارها.

- **جمعيَّة أصدقاء الكتاب المقدَّس**: تأسَّست سنة ١٩٠٨م، وأسَّسها باسيلي بطرس. وأنشأت الجمعية في سنة ١٩١٥م منازل لسكنى الطَّلبة المغتربين، ونشرت الثَّقافة الرُّوحيَّة بينهم. وخدمت الشَّباب خدمة ناجحة. وقد تولى رئاستها مرقس باشا سميكة بعد مؤسِّسها باسيلي بطرس.

- **جمعيَّة ثمرة التَّوفيق القبطيَّة**: أسَّسها الأستاذ تادرس ميخائيل مع بعض من زملائه سنة ١٩٠٨م، وكان من أهم أهدافها العناية بالفقير، وأهم منشآتها مدرسة للبنين سنة ١٩١٠م. وفي سنة ١٩٠٩م أنشأت مستوصفاً. وكان لها دور متميِّز في الحركة الوطنيَّة سنة ١٩١٩م، فاتخذها الزَّعيم سعد زغلول منتدى لإلقاء خطبه وبياناته.

- **جمعيَّة الإخلاص القبطيَّة بالإسكندريَّة**: أُنشئت سنة ١٩٠٩م

وساندت المجلس الملّي الإسكندري، وحاربت العادات المستهجنة، وأحيت اللُّغة القبطيَّة، وتعليم الدِّين المسيحي. وكان من أهم أعمالها إنشاء كنيسة السيِّدة العذراء مريم بمحرم بك، ومدرسة للفنون التطريزيَّة، ومستوصف ومستشفى ومدارس أوليَّة.

ـ **جمعيَّة ملجأ الأيتام:** تأسَّست سنة ١٩١٧م، وأسَّسها جرجس بك فهمي، وكان الغرض منها إقامة ملجأ لإيواء بعض اليتامى وتعليمهم.

ـ **جمعيَّة نهضة الكنائس:** وكان من أبرز ما قامت به هو الاهتمام بتحفيظ ألحان الكنيسة للنشء، وقامت الجمعيَّة بطبع كتاب "خدمة الشمَّاس والألحان"، وهو من أهم مآثر هذه الجمعيَّة. وقد طُبع الكتاب لأوَّل مرَّة في سنة ١٥٧٥ش/ ١٨٥٩م، وتوالت الطّبعات الكثيرة له بعد ذلك مع كثير من الإضافات المتتابعة حتى صار كتاباً شاملاً لكل ما يحتاج إليه الشمَّاس على مدار السَّنة الطّقسيَّة. ولازال الكتاب حتى اليوم وبعد مرور أكثر من مائة سنة على طبعته الأولى مرجعاً هاماً في هذا المضمار.

- **الجمعيَّة القبطيَّة للآثار والحفريَّات:** وقد أُنشئت في سنة ١٩٣٤م، وقد أسسها مريت غالي أحد أحفاد بطرس باشا غالي، وسُميت باسم "جمعيَّة أصدقاء الفن القبطي".

ـ **جمعيَّة مار مينا العجائبي بالإسكندريَّة:** (١٩٤٥م ـ سنين عديدة). وهي من أشهر الجمعيَّات القبطيَّة اليوم، تخصَّصت في نشر دراسات قبطيَّة رصينة في كافة نواحي الحياة الكنسيَّة القبطيَّة، وصدر لها حتى يوبيلها الذّهبي (١٩٤٥ـ ١٩٩٥م) خمسة عشر رسالة كان آخرها "مقتطفات من تاريخ الكنيسة المصريَّة". رأس الجمعيَّة حتى اليوم ثلاثة من أعضاء الجمعية هم: الأستاذ بانوب حبشي (١٩٤٥ـ ١٩٥٥م)، الدكتور منير شكري (١٩٠٨ـ ١٩٩٠م)، الأستاذ برهوم حنين (١٩٨٥ـ أطال الله حياته). وكان البابا كيرلس السَّادس على صلة وثيقة بالجمعيَّة وقد أوفد المتنيِّح

نيافة الأنبا غريغوريوس أسقف الدِّراسات العليا والبحث العلمي ليرأس احتفال الجمعيَّة بمناسبة مرور ٣٠ عاماً على تأسيسها.

وقد أنشأت هذه الجمعيَّة كنيسة مار مينا العجائبي بفلمنج بالإسكندريَّة. كما كان لها دور ريادي في تعريف الأقباط بكنيسة مار مينا الأثريَّة بمنطقة مريوط.

المراحل التي عبرت عليها الجمعيَّات الأهليَّة في مصر

كانت الفترة من الرُّبع الأخير من القرن التَّاسع عشر إلى سنة ١٩٢٣م هي مرحلة نشأة الجمعيَّات الأهليَّة وتبلورها. وكانت هذه الجمعيَّات هي المدرسة الأولى التي تربى فيها السَّاسة والمشتغلين بالقضايا العامة، والذين ظهر دورهم بعد ذلك في الحركة الوطنيَّة المصريَّة. وفي هذه الفترة امتد نشاط الجمعيَّات الأهليَّة المسيحيَّة إلى الدِّين والرِّعاية الاجتماعيَّة والخدمات الصحيَّة والتَّعليميَّة.

أما **المرحلة الثَّانية** (١٩٢٣ـ ١٩٥٢م) فهي مرحلة انتشار الجمعيَّات الأهليَّة باضطراد حتى غطَّت أغلب أقاليم مصر، نتيجة لدستور سنة ١٩٢٣م الذي صيغ صياغة علمانيَّة تعترف بحق المصريين جميعاً في تشكيل الجمعيَّات، ومتضمناً كافة الأحكام الخاصة بكفالة المساواة في الحقوق لكل المصريين بصرف النَّظر عن الدِّين والجنس واللُّغة أو غيره. بالإضافة إلى حريَّة الاعتقاد الدِّيني، وحريَّة ممارسة الشَّعائر الدِّينيَّة.

وفي هذه الفترة تصدَّت الجمعيَّات الأهليَّة المسيحيَّة لتعليم الدِّين المسيحي للتَّلاميذ الأقباط في مدارس الحكومة، حتى صدر قانون سنة ١٩٢٨م ينص على أن تكون مادة الدِّين من بين مواد الدِّراسة، واستمر العمل به حتى صدر قانون سنة ١٩٤٩م بالمساواة بين التَّلاميذ المسلمين

والمسيحيين من جهة تعليم كل منهم ديانته. وكان القانون الذي صدر سنة ١٩٣٠م يُلزم بالتوسُّع في نطاق التَّعليم الإلزامي من سن السَّابعة إلى الثَّامنة عشر، ولكنه لم يورد مادة الدِّين المسيحي ضمن مواد الدِّراسة المعتمدة، نتيجة لذلك انصرف كثير من الأقباط عن إرسال أبنائهم إلى المدارس الإلزاميَّة وبدأوا يشجِّعون الجمعيَّات الخيريَّة القبطيَّة على إنشاء المدارس لتعليم أطفالهم.

ثم تأتي **المرحلة الثَّالثة** (١٩٥٢- ١٩٧٧م)، وهي مرحلة الانكسار في إنشاء الجمعيَّات الأهليَّة. وذلك بسبب أن الدَّولة - بعد قيام ثورة ٢٣ يوليو وإلغاء الأحزاب - قد هيمنت على كافة القطاعات الاجتماعيَّة والاقتصاديَّة والثقافيَّة، وتعاملت مع الجمعيَّات الأهليَّة بنفس أسلوب تعاملها مع الأحزاب السِّياسيَّة، فألغت بقرار جمهوري إنشاء الجمعيَّات الأهليَّة، وإخضاع كافة الجمعيَّات القائمة للرقابة والإشراف من قِبَل الدَّولة، فتقهقرت المشاركة الشَّعبيَّة، حتى جاء القانون رقم ٣٢ سنة ١٩٦٤م، ليحكم من قبضة الدَّولة على أنشطة الجمعيَّات الأهليَّة في مصر.

ثم تأتي **المرحلة الرَّابعة** (١٩٧٠م - ١٩٩٥م) وهي عودة نشاط إنشاء الجمعيَّات الأهليَّة المسيحيَّة، ففي هذه الفترة أُشهرت ١١٦ جمعيَّة أهليَّة مسيحيَّة جديدة[٤٧].

وفي سنة ١٩٩٥م بلغ عدد الجمعيَّات الأهليَّة المسيحيَّة عموماً ٥٧٨ جمعيَّة مسيحيَّة من إجمالي الجمعيَّات الأهليَّة الذي يبلغ ١١٣٣٤ جمعيَّة أهليَّة،

٤٧- منها ٤٠ جمعية أهلية مسيحية في القاهرة، ٨ في الإسكندرية، ١٤ في المنيا، ٩ في سوهاج، ٧ في كل من القليوبية والجيزة، ٤ في كل من الغربية والإسماعيلية وأسيوط وقنا، ٢ في كل من الشرقية وسيناء، وثلاثة في كل من المنوفية وبني سويف والفيوم، وواحدة في كل من بورسعيد والوادي الجديد.

أي بنسبة ٥ % جمعيَّات مسيحيَّة إلى إجمالي الجمعيَّات الأهليَّة بمصر(٤٨).

ولقد صدر مؤخراً قانون جديد برقم ٨٤ لسنة ٢٠٠٢م لتنظيم الجمعيَّات والمؤسَّسات الأهليَّة، وقد نُشر في الجريدة الرَّسميَّة يوم ٢٠٠٢/٦/٥م. وبموجب هذا القانون يُلغى قانون الجمعيَّات والمؤسَّسات الأهليَّة الصَّادر بالقانون رقم ٣٢ لسنة ١٩٦٤م، وأيضاً القانون رقم ١٥٣ لسنة ١٩٩٩م، كما يُلغى كل نص يخالف أحكام القانون الجديد.

وفي هذا القانون الجديد يجوز التَّصريح للمنظَّمات الأجنبيَّة غير الحكوميَّة بأن تمارس أنشطة الجمعيَّات والمؤسَّسات الأهليَّة الخاضعة لأحكام القانون المشار إليه، وفقاً للقواعد المقرَّرة فيه، ويصدر التَّصريح من وزارة الشئون الاجتماعيَّة بناءً على الاتفاق الذي تبرمه وزارة الخارجيَّة مع هذه المنظَّمات.

من البابا يؤانس التَّاسع عشر إلى البابا يوساب الثَّاني

في ديسمبر سنة ١٩٢٨م أُقيم البابا يؤانس التَّاسع عشر (١٩٢٨-١٩٤٢م) بطريركاً للكرازة المرقسيَّة. وكانت الثَّلاثينيَّات من هذا القرن قد شهدت تقييداً للحريَّة الدِّينيَّة لدى الأقباط، وكان ذلك بعد أن نشأت حركة الأخوان المسلمين سنة ١٩٢٨م. وفي حبريَّته تولى الملك فاروق الأوَّل حكم مصر (١٩٣٦- ١٩٥٢م) بعد وفاة أبيه.

وفي فبراير سنة ١٩٤٤م اختير البابا مكاريوس الثَّالث بطريركاً

٤٨ ـ والجمعيات الأهلية المسيحية في القاهرة هي ١٦٧ جمعية، وفي الإسكندرية ٤٥ جمعية، وفي سوهاج ٤٣ جمعية، وفي كل من أسيوط والمنيا ٣٣ جمعية، وفي قنا ٢٢ جمعية، وتستأثر الغربية بأكبر عدد من الجمعيات الأهلية المسيحية في الوجه البحري حيث بها ٢٩ جمعية، بينما ينحسر وجود الجمعيات الأهلية المسيحية إلى واحدة في كفر الشيخ.

للكرازة المرقسيَّة، وكان محباً للصَّلاة، وإقامة القدَّاسات الإلهيَّة التي تبدأ ظهراً في أغلب الكنائس التي زارها. واجتاز متاعب جمَّة في حياته بسبب المجلس الملي، وكانت نياحته في أغسطس سنة ١٩٤٥م.

وفي سنة ١٩٤٦م أُقيم البابا يوساب الثَّاني (١٩٤٦- ١٩٥٦م) بطريركاً للكرازة المرقسيَّة. وكان قد درس اللاهوت في معهد ريزاريوس بأثينا في اليونان خلال الفترة من سنة ١٩٠٢- ١٩٠٥م. وكان يجيد اللُّغات اليونانيَّة والفرنسيَّة والإنجليزيَّة.

وفي عصره وفي سنة ١٩٤٧م بنى أبونا مينا البراموسي المتوحِّد - البابا كيرلس السَّادس فيما بعد - كنيسة مار مينا بمصر القديمة، وهي الكنيسة التي خرجت منها الشَّرارة الأولى، محمولة على الصَّلاة، لخدمة كل الكنيسة القبطيَّة.

وفي هذه الفترة كانت النَّهضة الرَّهبانيَّة القبطيَّة الكبيرة التي بدأها سنة ١٩٤٨م مثلَّث الرَّحمات الأب القُمُّص متى المسكين (١٩١٩-٢٠٠٦م)، حينما ترهَّب في دير الأنبا صموئيل المعترف بوادي القلمون. وبعد أن تنقَّل في عدَّة أديرة استقر في دير القدِّيس أنبا مقار وصار الأب الرُّوحي لرهبانه بتكليف من قداسة البابا كيرلس السَّادس، وذلك على مدى ٣٧ سنة (١٩٦٩-٢٠٠٦م). فشهد الدَّير في هذه الفترة نهضة رهبانيَّة وعمرانيَّة عظيمة امتد أثرها على كل الأديرة الأخرى. فالنَّهضة الرَّهبانيَّة كانت ولا تزال هي عماد النَّهضة الكنسيَّة في كل عصر.

الفَصل الحادي عشر

كنيســـة مصـــر

في ظل النِّظام الجمهوري للبلاد

تمهيد

أنهى ضبَّاط الجيش على النِّظام الملكي في مصر، وأُعلن الحُكم الجمهوري. وكان أوَّل رئيس للبلاد هو الرَّئيس محمد نجيب[1] (١٩٥٣-١٩٥٤م)، أعقبه الرَّئيس جمال عبد الناصر[2] (١٩٥٦- ١٩٧٠م)، فكان أوَّل مصري يحكم مصر منذ ثلاثة وعشرين قرناً خلت!!.

أضواء عامة على عهد عبد الناصر

جسَّد عبد الناصر للمصريين نوعاً من الوجود المعنوي بين القوى العظمى في ذلك الوَقت، فحاول توحيد العرب، وقاوم الاحتلال في إفريقيا، وحرَّر معظمها من المستعمر، ووقف ضد الظُّلم في كل مكان. فأحبه الشَّعب أكثر من أهله وذويه.

وفي سنة ١٩٥٦م - ومع بدايات حكم الرَّئيس جمال عبد النَّاصر - انحسر التَّيار الإسلامي إلى حد كبير بعد أن تعرَّض الرَّئيس نفسه لخطر

١- تولى قيادة الجيش عند قيام الثورة، وهو صاحب شعبية كبيرة، وله مواقفه الوطنية المشرِّفة قبل الثورة، وهو ما أدى إلى استعانة الضباط الأحرار به كقائد للثورة.

٢- هو مؤسِّس حركة الضبَّاط الأحرار التي قامت بالثورة، وأصبح رئيساً للوزراء في سنة ١٩٥٤م، وأُجري استفتاء وانتخب رئيساً لجمهورية مصر سنة ١٩٥٦م. وتولى رئاسة الجمهورية العربيَّة المتحدة خلال الفترة من سنة ١٩٥٨- ١٩٦١م، وهي فترة تجربة الوحدة بين مصر وسوريا.

الاغتيال في ميدان المنشيَّة بالإسكندريَّة بثماني رصاصات بيد سمكري، يُدعى محمود عبد اللَّطيف، وهو عضو في جماعة الإخوان المسلمين بإمبابة، تنفيذاً لقرار الجهاز السِّري للإخوان باغتيال عبد النَّاصر. فقضت الجماعة بذلك على نفسها بأن تحيا زمناً تحت الأرض.

موجة من التَّأميمات بدأت بتأميم قناة السويس

وفي سنة ١٩٥٦م تم تأميم قناة السويس، لتصبح ملكاً لمصر وشعبها، وسط فرحة واعتزاز كبيرين بين الشَّعب المصري. وأعقب ذلك البدء في بناء السَّد العالي بأسوان. ولكن تأميم القناة كان بداية موجات متلاحقة واسعة من التَّأميمات رجَّت البلاد رجاً، ونالت الكنيسة نصيبها في واحدةٍ من هذه الموجات، فصودرت أوقاف الأقباط، وهي أموال الفقراء والمحتاجين والأرامل والأيتام.

تجربة الاشتراكيَّة المصريَّة ونتائجها السَّلبيَّة

وفي هذا العهد خاضت مصر تجربة الاشتراكيَّة كتوليفة مصريَّة للشيوعيَّة الرُّوسيَّة التي تغلغلت في ثنايا الفكر المصري، فأودت بالبلاد إلى عرقلة التَّقدُّم الصِّناعي والاقتصادي. فلقد اتجهت الدَّولة إلى نظام الحزب السِّياسي الواحد، فهيمنت الدَّولة على كافة القطاعات الاجتماعيَّة والثَّقافيَّة والاقتصاديَّة، وعوملت الجمعيات الأهليَّة المسيحيَّة القائمة - ضمن باقي الجمعيات الأهليَّة الأخرى - بنفس أسلوب التَّعامل مع الأحزاب السِّياسيَّة المحظورة. وأُلغي عدد من المؤسَّسات الاجتماعيَّة التَّقليديَّة، ومن بينها بعض الوظائف التَّقليديَّة لمؤسَّسات الكنيسة القبطيَّة الأرثوذكسيَّة مثل توحيد المحاكم، وإلغاء الوظائف القضائيَّة للمجالس المليَّة، وإلغاء نظام الوقف الأهلي، وإلغاء المدارس الأجنبيَّة وإخضاعها لرقابة الدَّولة.

وقد طُبق قانون الإصلاح الزِّراعي على أوقاف الكنيسة والأديرة، فتضاءلت ممتلكاتها بسبب قوانين الإصلاح الزِّراعي المتعاقبة[٣].

وفقد المجلس الملي للكنيسة القبطيَّة اختصاصاته القضائيَّة ولم يبق له إلاَّ الوظيفة المتنازَع عليها، وهي الإشراف على الأمور الماليَّة والإدارة الكنسيَّة. وتقلّص هذا الدَّور أيضاً نتيجة لصدور القانون ١٥٢ سنة ١٩٥٧م الذي يفرض بيع الأراضي الزِّراعيَّة الموقوفة على جهات البر العام إلى الإصلاح الزِّراعي ليملّكها لصغار الفلاّحين. فأثّرت توجُّهات الدَّولة السِّياسيَّة سلباً على قيمة المشاركة الشعبيَّة في الحياة العامة.

بدء هجرة الأقباط من مصر

مع امتداد موجة التَّأميمات التي طالت عدداً من البنوك الكُبرى، بدأت ظاهرة هجرة واسعة لعدد من شباب الأقباط إلى أمريكا وكندا وأستراليا في النِّصف الأخير من الخمسينيَّات من القرن العشرين، وقد كانوا مؤهَّلين تأهيلاً علمياً راقياً بأعلى درجات التَّفوُّق في تخصُّصاتهم. وكانت البلاد التي هاجروا إليها على استعداد للتَّرحيب بهم وبأمثالهم كثمار ناضجة لم يتعبوا في غرسها.

وعندما جاءت القوانين الاشتراكيَّة، لحقت موجة هجرة ثانية من جماعات من أغنياء الأقباط بموجة الهجرة الأولى. فلقد هاجرت عائلات بأكملها، واستطاعت أن تحوِّل معها أموالها وثرواتها إلى الخارج، ووجد

٣ـ بطرس بطرس غالي، طريق مصر إلى القدس، مركز الأهرام للترجمة والنشر، الطبعة الأولى، ١٩٧٧م، ص ١٨.

ولقد قامت الدولة بإعادة الأوقاف القبطية إلى الكنيسة بعد أكثر من أربعة عقود من الاستيلاء عليها.

هؤلاء مقراً لهم في بلاد أوروبا وأمريكا واستراليا، فأصبح للكنيسة القبطيَّة رعايا عبر البحار. فكانت هجرة الأقباط في النِّصف الثاني من الخمسينيَّات سابقة جديدة لمصر في عصرها الحديث. وبعد أن خفَّفت الدَّولة من تقييدها للهجرة زادت هجرة الأقباط من مصر بعد حرب سنة ١٩٦٧م.

حرب الأيام الستَّة وتبعاها

في يونيو سنة ١٩٦٧م قامت الحرب الثَّالثة مع إسرائيل، وبانتصار إسرائيل احتلت شبه جزيرة سيناء كلها، إلى جانب الضَّفة الغربيَّة لنهر الأردن التي كانت تحت السِّيادة الأردنيَّة، بما فيها القدس الشَّرقيَّة، وكذلك هضبة الجولان في الأراضي السُّوريَّة. فأعلن الرَّئيس تحمُّله لنتائج الهزيمة وتنحِّيه عن الحُكم. فانطلقت مظاهرات شعبيَّة في أرجاء البلاد تطالبه بعدم التَّنحي. فنزل الرَّئيس على رغبة الشَّعب.

وكان البابا كيرلس السَّادس قد توجَّه مرَّة أولى إلى بيت الرَّئيس لمطالبته بعدم التَّنحي عن قيادة البلاد، ومرَّة ثانية إلى القصر الجمهوري ليدوِّن في سجل الزِّيارات فرحته والأقباط بعودة الرَّئيس إلى الحكم.

وبدأت حرب الاستنزاف مع إسرائيل بمعركة رأس العش بعد عشرين يوماً فقط من حرب الأيام الستَّة. وفي سبتمبر سنة ١٩٧٠م مات الرَّئيس عبد النَّاصر في نفس السَّنة التي تم فيها الانتهاء من بناء السَّد العالي في جنوب أسوان!، كواحد من أعظم إنجازاته السِّياسيَّة التي اقترنت باسمه[٤]. فخرجت

---

٤ ـ السَّد العالي جبل من ركام الجرانيت بارتفاع ١١١ متراً، وعرضه عند القاع ١٠٠٠ متر، وطوله ٣٥٠٠ متر، ومكعب المواد التي استخدمت في بنائه بلغت حوالي ٤٠ مليون متر مكعب، أو ما يوازي ١٦ مرة حجم الهرم الأكبر. يحجز وراءه خزين مياه يبلغ ١٢٠ مليار متر مكعب من المياه، مكوناً بذلك أعظم بحيرة صناعية في العالم.

ملايين المصريين الذين أنصفهم يبكونه ويودعونه إلى مثــواه الأخــير، في موكب جنائزي لا ينساه التَّاريخ.

تقييم عام لحالة الأقباط في عهد عبد النَّاصر(٥)

كان عبد النَّاصر يعتقد أن العدالة والكرامة هي منتهى الحريَّة، ولهذا حاول القيام بدور المستبد العادل. ولكن مشاركة الأقباط لا تستقيم مــع الاستبداد العسكري. ولا ينتعش دورهم إلاَّ من الأجواء الليبراليَّة. فــإذا أضفنا إلى ذلك المناخ العسكري وانتماء عدد من أعضاء مجلس قيادة الثّورة من الضُّباط الأحرار إلى تنظيم الإخوان المسلمين، وتأثيرهم على المناخ العــام والسِّياسات في مصر لأتضح على الفور أن هذه الأجواء لا تناسب الأقباط.

وأما بالنِّسبة لعبد النَّاصر فيقول البروفيسور إدوارد واكين الأســتاذ بجامعة فوردهام بنيويورك في كتابه "أقليَّة معزولة" والذي صــدر ســنة ١٩٦٣م: "... ومن جميع المناسبات التي تعطي انطباعات لاتجــاه عبــد النَّاصر ومشاعره تجاه الأقباط يمكن استنتاج قاعدة واحدة وهي أن موقف الأقباط لا يحتل حيزاً في محيط اهتماماته. وشعور عبد النَّاصر نحو الكنيسة عموماً ليس شعور كاره لها، ولكنه يعتبر الكنيسة القبطيَّة أمراً ثانوياً".

ومع إلغاء الأحزاب السِّياسيَّة، تغيَّر مقياس اختيار المواطن لممثليه في البرلمان من كونهم ينتمون إلى أحزاب، ليصير مقياس اختيارهم هو الدِّين، إن كانوا مسلمين أم مسيحيين، وهو ما تبقى للمواطن المصري من حريَّة

وتبلغ قدرة المحطة الكهربية للسد العالي ٢ مليون كيلووات/ ساعة، وهي مــن أكــبر المحطات المائية في العالم.

٥ ـ عن الشبكة الدولية للمعلومات (الإنترنت)، دراسة لمجدي خليل، رئيس تحرير جريــدة وطني الدولي، بتاريخ ٢٨/٧/ ٢٠٠٢م.

الاختيار. ومع رفض القائمين على الثّورة ترشيح الأقباط للمجلس التَّشريعي، لم يعد من السَّهل انتخاب قبطي كما كان يحدث قبل الثّورة. ولهذا جاء مبدأ التَّعيين بدلاً من الانتخاب، واختيار بعض الوزراء التكنوقراط بدلاً من الوزير السِّياسي في فترة ما قبل الثّورة.

ومن بين الأضرار التي لحقت بالأقباط من بعض أعضاء قيادة الثورة هو ما قام به كمال الدِّين حسين من أسلمة مناهج التَّعليم، وما قام به حسين الشَّافعي وأنور السَّادات الذي أكمل مشروعه الدِّيني بعد توليه السُّلطة.

على أن ما يؤخذ على عبد الناصر هو عدم اهتمامه بمشاعر الأقباط المسالمين. ففي سنة ١٩٥٨م أُلغي دين الدَّولة من الدُّستور الرَّسمي للجمهورية العربيَّة المتَّحدة استجابة لرغبة مسيحيي سوريا. وقام مسيحيُّو سوريا بحرق كتاب "محمد الرَّسول والرِّسالة" لنظمي لوقا في شوارع دمشق علناً، والذي فرضه كمال الدِّين حسين على المدارس. واستجابة لغضبهم، تم إلغاء تدريس الكتاب في سوريا، بينما ظل يدرَّس في مصر وقتها.

على أن الأقباط يذكرون لعبد النَّاصر عدداً كبيراً من الإيجابيَّات، منها:
- دخول الجامعات عن طريق مكتب التَّنسيق، ورفض عبد النَّاصر الاختبارات الشَّفهيَّة لدخول الجامعات حتى لا تحدث تفرقة على أساس الدِّين.
- التَّعيين عن طريق القوى العاملة.
- التَّرقيات التي تتم بالأقدميَّة.
- وجود علاقة ود بينه وبين البابا كيرلس السَّادس.
- لم تغلق كنيسة واحدة في الفترة ما بين سنة ١٩٥٢م وسنة ١٩٧٠م.
- قمع بشدة أي تهديد للقيام بأعمال عنف غوغائي ضد الأقباط.
- مساهمته في بناء الكاتدرائيَّة المرقسيَّة بالعباسيَّة.

- زيارته لمشاهدة ظهور العذراء في الزَّيتون، وبعد التأكُّد من رؤيتها أصدر الاتحاد الاشتراكي بياناً يؤكِّد هذا الظُّهور.
- هناك من يرى أن اصطدام عبد النَّاصر بالإخوان، أجَّل ظهور الدَّولة الدِّينيَّة في مصر عدَّة عقود، وربما نهائياً.
- لم تبرز أي شكوى طائفيَّة ذات شأن طوال مدَّة حكمه.

إن ما أصاب الأقباط بعد رحيله جعلهم يترحَّمون على أيامه.

أهم حدث في عهد البابا يوساب الثَّاني

قامت الثَّورة في عهد البابا يوساب الثَّاني (١٩٤٦- ١٩٥٦م)، وكان أهم حدث في هذا العصر هو إنشاء معهد الدِّراسات القبطيَّة.

معهد الدِّراسات القبطيَّة

كان أهم حدث كنسي في سنة ١٩٥٤م[٦] هو تأسيس معهد الدِّراسات القبطيَّة بجهود الدكتور عزيز سوريال عطية[٧] (١٨٩٨ - ١٩٨٨م) بالاشتراك مع الدكتور سامي جبره[٨] (١٨٩٨ - ١٩٧٩م)،

٦- في نفس هذا العام انضمت الكنيسة القبطية إلى مجلس الكنائس العالمي، وصارت عضواً فعالاً به منذ ذلك التاريخ.

٧- رئيس قسم التاريخ بكلية الآداب جامعة الإسكندريَّة، ومؤسس مركز دراسات الشرق الأوسط بجامعة يوتا بالولايات المتحدة الأمريكية. المسئول عن إصدار دائرة المعارف القبطيَّة Coptic Encyclopedia التي صدرت سنة ١٩٩١م، وقد اشترك في تحريرها حوالي ١٥٠ عالماً في القبطيات.

٨- أستاذ بقسم التاريخ بكلية الآداب جامعة القاهرة. ومدير معهد الآثار المصرية سابقاً. وله اكتشافات ذات صدى عالمي في منطقة دير تاسا ٢٠ كم جنوب شرق أسيوط، وقرية تونه الجبل مركز الأشمونين محافظة المنيا. وحصل على جائزة الدولة التقديرية سنة ١٩٧٤م.

والدكتور مراد كامل[٩] (١٩٠٨- ١٩٥٧م).

ويُعد المعهد المؤسَّسة العلميَّة الوحيدة في مصر والشَّرق الأوسط التي لها صلاحية تدريس القبطيَّات بصورة أكاديميَّة منتظمة. ولكن المعهد لم يأخذ الشَّكل الرَّسمي له في الدَّولة، ومن ثمّ فالاتصالات بينه وبين المؤسَّسات الأخرى شبه معدومة، باستثناء المعاهد القبطيَّة الأخرى في مختلف أنحاء مصر، وكذلك بعض المعاهد الدَّوليَّة الأجنبيَّة.

والدِّراسة في المعهد تنقسم إلى عشرة أقسام:

١ ـ قسم القانون الكنسي.
٢ ـ قسم اللاَّهوت بفروعه.
٣ ـ قسم التَّاريخ القبطي.
٤ ـ قسم اللُّغة القبطيَّة وآدابها.
٥ ـ قسم الآثار القبطيَّة.
٦ ـ قسم الفن القبطي.
٧ ـ قسم الألحان والموسيقى.
٨ ـ قسم الاجتماع والتَّربية.
٩ ـ قسم الدِّراسات الأفريقيَّة.
١٠ ـ قسم العمارة القبطيَّة.

وهناك اتجاه إلى افتتاح أقسام أخرى مثل قسم الإعلام القبطي، وقسم الإرشاد السِّياحي، كما سيعاد افتتاح قسم التَّصوير. وليس بالمعهد حتى الآن قسم لدراسات الآباء، أو حتى دراسات آباء كنيسة الإسكندريَّة.

ويقبل المعهد الحاصلين على شهادة الثَّانوية العامة أو ما يعادلها للحصول على درجة اللِّيسانس أو البكالوريوس، أما الحصول على درجة الدكتوراه فيُشترط أولاً الحصول على شهادة جامعيَّة، أو بكالوريوس

٩ـ أستاذ اللغات السامية بجامعة القاهرة، فتخصص في اللغات العبرية والسريانية والأمهريَّة والأراميَّة والكلدانيَّة. وهو أيضاً ومدير مدرسة الألسن، أتقن ٣٠ لغة، من بينها اليونانية واللاتينية والقبطية. وألّف ١٢٥ مؤلفاً علمياً وأكثر من كتاب عن الكنيسة القبطية.

الكليَّة الإكليريكيَّة.

وهنا نذكر بالفضل أيضاً جهود الدكتور عزيز سوريال (١٨٩٨-١٩٨٨م) لدوره في الإشراف على تحرير "دائرة المعارف القبطيَّة — Coptic Encyclopedia"، إذ استطاع بحكم موقعه في جامعة يوتا الأمريكيَّة أن يقنع رئيس الجامعة وهيئة البحوث الأمريكيَّة - وهي أعلى هيئة للبحوث العلميَّة في العالم - لتعضيد مشروع هذه الموسوعة، وتمويلها، حتى صدرت هذه الموسوعة سنة ١٩٩١م.

وفي هذا الصَّدد قال الدكتور عزيز سوريال عطية بعد عدَّة سنوات: "عندما أسَّستُ معهد الدِّراسات القبطيَّة، كان كل أملي أن يقوم المعهد والأقباط بهذا المشروع، لعمق جهل العالم بالقبط، وجهل القبط بالقبط أيضاً، ولكن للأسف لا معهد الدِّراسات قام بشئ في هذا الصَّدد، ولا الأقباط اهتموا بهذا المشروع. وفي هذا رأيتُ بنعمة الله أن أتولَّى هذا المشروع وأقوم به"(١٠).

وقد شهد عاما ١٩٩٥، ١٩٩٦م نشاطاً ملحوظاً للمعهد تمثَّل في إصدار موسوعة للشَّخصيَّات القبطيَّة البارزة، وإعادة إصدار مجلة معهد الدِّراسات القبطيَّة، بعد توقُّف دام عدَّة سنوات. مما أعاد للمعهد لسان حاله، والمتحدِّث الرَّسمي عنه، وعن نشاطه العلمي حيث كانت المجلة تحمل في أعدادها أبحاثاً علميَّة في مجال الدِّراسات القبطيَّة بقلم أساتذته، ولكنها سرعان ما توقفت مرَّة أخرى. ولقد تمت إجازة العديد من رسائل الدكتوراه في المعهد.

وفي يونيو سنة ١٩٩٦م أجاز المعهد أوَّل دكتوراه في مصر عن

١٠- جريدة وطني، الأحد ٢٦ يونيو ٢٠٠٥م، ص ٨

الموسيقى القبطيَّة تقدم بها الباحث عادل كامل[١١].

وفي سنة ١٩٩٦م تم الاتفاق على تسجيل ألحان القدَّاس الإلهي القبطي على شرائط، على أن تقوم الجامعة الأمريكيَّة بطبع ونشر وتوزيع القدَّاس باللُّغات القبطيَّة والعربيَّة والإنجليزيَّة، وما يقابلها من نوتة موسيقيَّة لألحان القدَّاس في مصر وجميع أنحاء العالم، وهي بادرة تعتبر الأولى من نوعها في تاريخ الكنيسة القبطيَّة لحماية التُّراث القبطي من الاندثار، وهو جهد علمي ساهم فيه معهد الدِّراسات القبطيَّة بجهد المتنيِّح الدكتور راغب مفتاح، ليودِّع الرَّحل أرض الشَّقاء في ١٨ يونيو سنة ٢٠٠١م، بعد عظيم عناء، وهو قرير العينين بعد أن أسدى للكنيسة القبطيَّة خدمة عظيمة تنوء بحملها مجموعة لجان متخصِّصة.

وكانت سنة ٢٠٠٤م هي سنة الاحتفال باليوبيل الذَّهبي لإنشاء معهد الدِّراسات القبطيَّة.

عصر البابا كيرلس السَّادس وأحداثه البارزة

في سنة ١٩٥٩م اعتلى البابا كيرلس السَّادس (١٩٥٩- ١٩٧١م) كرسي الكرازة المرقسيَّة. وهو آخر عهد ما قبل ثورة التكنولوجيا الحديثة التي قلبت موازين الحياة برمَّتها رأساً على عقب.

وفيما يلي نلقي بعض الضَّوء على أهم الأحداث البارزة في عصر البابا كيرلس السَّادس.

١١ـ مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام، الحالة الدينية في مصر، الطبعة الأولى، القاهرة ١٩٩٨م، ص ٧٣

• خدمة الأقباط في المهجر

في نفس السَّنة التي اعتلى فيها البابا كيرلس السَّادس الكرسي المرقسي اهتم بخدمة الأقباط في المهجر مبتدئاً بدول شرق وجنوب إفريقيا ثم أوروبا. وفي سنة ١٩٦١م الدُّول العربيَّة بدءًا بالكويت. وفي السَّنة التَّالية كندا والولايات المتَّحدة الأمريكيَّة. وفي سنة ١٩٦٤م أصبح للكنيسة القبطيَّة أوَّل كنيسة في بلاد المهجر، وهي كنيسة مار مرقس في مونتريال بكندا، وفي سنة ١٩٦٨م أصبح لنا كنيسة في أستراليا. وفي نهاية حبريَّته سنة ١٩٧٠م كان للكنيسة القبطيَّة ٧ كنائس في المهجر. اثنتان في أمريكا، في جيرسي سيتي، ولوس أنجيلوس. واثنتان في استراليا، في سيدني وملبورن. واثنتان في كندا، في تورنتو، ومونتريال. وواحدة في لندن.

• بناء الكاتدرائيَّة الجديدة بالعباسيَّة ودير مار مينا بمريوط

كانت روحانيَّة البابا كيرلس السَّادس، سبباً في العلاقة الحميمة التي نشأت بينه وبين الرَّئيس عبد النَّاصر، ومن ثمَّ سبباً مباشراً فيما حقَّقته الكنيسة القبطيَّة من نهوض برغم الظُّروف الصَّعبة التي جازتها في هذه الفترة إثر تحوُّل البلاد إلى النِّظام الاشتراكي، وموجات التَّأميمات المتلاحقة. ولقد لخَّص الأستاذ محمد حسنين هيكل - وهو من المقرَّبين للرَّئيس - تلك العلاقة بقوله: "كانت علاقات ممتازة، وكان بينهما إعجاب متبادَل، وكان معروفاً أن البطريرك يستطيع مقابلة عبد النَّاصر في أي وقت يشاء، وكان (البابا) كيرلس حريصاً على تجنُّب المشاكل[١٢]". ولكن نهضة الكنيسة القبطيَّة آنذاك كانت بسبب القُرب القريب للبابا القدِّيس من السَّماء، حيث الرَّب الذي بيده قلوب الرؤساء.

١٢ـ محمد حسنين هيكل، خريف الغضب، مرجع سابق، ص ٢٨٥

وفي إحدى زيارات قداسة البابا لمترل الرَّئيس عبد النَّاصر، تقدَّم أبناؤه بحصَّالاتهم الصَّغيرة ليتبرَّعوا لبناء الكاتدرائيَّة المرقسيَّة الجديدة بالأنبا رويس بالعباسية(١٣). وفي بساطة يندر تكرارها أخرج البابا كيرلس منديله وفرشه على حجره، فوضع فيه أولاد عبد النَّاصر تبرُّعاتهم، ثم صرَّه البابا وشكرهم وباركهم. وكان هذا المبلغ هو قيمة مقدَّم أرض دير مار مينا بمريوط(١٤). فكان للرَّئيس الفضل في بدء بناء الكاتدرائيَّة الجديدة بالعباسيَّة، والسَّبق في إنشاء دير مار مينا العجائبي بمريوط.

وفي يوليو سنة ١٩٦٥م كان الاحتفال بوضع حجر الأساس للكاتدرائيَّة المرقسيَّة الجديدة بالأنبا رويس بالقاهرة، بحضور الرَّئيس جمال عبد الناصر، والإمبراطور هيلاسلاسي الأوَّل إمبراطور إثيوبيا. وكان حفل الافتتاح في ٢٥ يونيو سنة ١٩٦٨م. وكان المتنيِّح نيافة الأنبا صموئيل أسقف الخدمات الاجتماعيَّة (١٩٢٠ - ١٩٨١م) هو صاحب فكرة بناء الكاتدرائيَّة الجديدة ومحرِّك الموضوع مع مستشاري رئيس الجمهوريَّة حتى صارت الفكرة واقعاً حياً.

وفي حفل افتتاح الكاتدرائيَّة ألقى الرَّئيس عبد النَّاصر خطابه الذي جاء فيه: "يسرّني أن أشترك معكم في إرساء حجر الأساس للكاتدرائيَّة الجديدة. وحينما تقابلت أخيراً مع البابا في مترلي، فاتحته في بناء الكاتدرائيَّة، وأن الحكومة مستعدَّة للمساهمة في هذا الموضوع، ولم يكن القصد من هذا فعلاً المساهمة الماديَّة ... ولكني كنت أقصد النَّاحية المعنويَّة.

فإن المواطنين جميعاً سواسية لا فرق بين مواطن ومواطن، ففي المدارس الدُّخول بالمجموع ... جميع التَّرقيات في الدَّولة بالأقدميَّة لغاية

١٣ـ تبرعت الدولة رسمياً بمبلغ ١٠٠ ألف جنيه لبناء الكاتدرائية.

١٤ـ أمير نصر، قراءة في حياة أبونا مينا البراموسي المتوحد، مرجع سابق، ص ١٥٦

الدَّرجة الأولى ... مفيش فرصة للمتعصبين أنهم يتلاعبوا ... ونحن نفتخر والحمد لله بأن بلدنا ليست فيها طائفيَّة أو تعصُّب أو انقسام ... عايزين كل واحد في بلدنا يثق بنفسه، ويثق أن البلد بلده، بلـد المسـلم وبلـد المسيحي ١٠٠ % ... أرجو الله أن يدعِّم المحبَّة بين ربوع هذا الوطن، وأن يدعِّم الإخاء، وأن يوفِّقكم جميعاً. والسَّلام عليكم ورحمة الله".

وبانتهاء مراسيم الاحتفال ودَّع قداسة البابا السيِّد الرَّئيس، وودَّعته قلوب الملايين التي أحبته(١٥).

• تنصيب أوَّل جاثليق لكنيسة إثيوبيا

وفي يونيو سنة ١٩٥٩م قام البابا كيرلس السَّادس بتنصيب نيافة الأنبا باسيليوس المطران الإثيوبي بطريركاً جاثليقاً لإثيوبيا، وجـاء الإمبراطـور هيلاسلاسي الأوَّل إلى مصر، واستقبله الرَّئيس جمـال عبـد النَّاصـر، وتحسَّنت العلاقات مع إثيوبيا بعد جفوة بسبب حكمة البابا وتواضـعه. وفي السَّنة التَّالية زار قداسة البابـا إثيوبيـا بـدعوة مـن الإمبراطـور هيلاسلاسي(١٦). ولقد أثَّرت شخصيَّة البابا على الإمبراطور الذي كـان دائم الحضور إلى القاهرة حريصاً في كل مرَّة أن يزور البابا لينال بركته.

• مصر محط التقاء جميع كنائس المسكونة

بدءاً من سنة ١٩٦١م وفد إلى مصر معظم رؤساء كنـائس العـالم

١٥ـ مجلة مدارس الأحد، العددان الخامس والسادس ١٩٦٥، مقتبس عن: أمير نصر، قراءة في حياة أبونا مينا البراموسي المتوحد، مرجع سابق، ص ١١٠

١٦ـ أوَّل بطريرك إسكندري يزور الحبشة هو البابا خريستوذولوس الـ ٦٦ حين أوفده الخليفة المستنصر الفاطمي ليتوسط عند ملكها ليطلق مياه النيـل، وإذ نجـح في مهمته خلع عليه المستنصر وأكرمه.

الأرثوذكسيَّة والكاثوليكيَّة والأسقفيَّة والبروتستنتيَّة. فجاءها بطريرك القسطنطينيَّة(١٧)، والبطريرك الرُّوسي، ورئيس أساقفة قبرص في سنة ١٩٦١م. وفي السَّنة التَّالية زارها البطريرك البلغاري. وفي سنة ١٩٦٥م زارها البطريرك الأنطاكي، وبطريرك الأرمن، وكاثوليكوس السِّريان الأرثوذكس بالهند. وفي سنة ١٩٦٦م وفد إليها رئيس أساقفة فنلندا. وفي سنة ١٩٦٩م جاءها بطريرك رومانيا ...الخ. لقد كانت شخصيَّة البابا كيرلس السَّادس الرُّوحانيَّة شخصيَّة جاذبة.

وفي يناير سنة ١٩٦٥م كان أوَّل لقاء بين الكنائس اللاّخلقيدونيَّة في أديس أبابا بدعوة من الإمبراطور هيلاسلاسي الأوَّل. وفيه تكوَّنت هيئة للعلاقات الدَّائمة بين الكنائس.

• دفاع البابا كيرلس عن القُدس

لقد دافع البابا كيرلس السَّادس عن الحقوق العربيَّة في مدينة القُدس، وانتهاكات إسرائيل للأماكن المقدَّسة. وأرسل خطاباً إلى البابا بولس السَّادس بابا روما بخصوص الأوضاع في القُدس المحتلة قال فيه: "... ولا يخفى ما أحدثه القرار الذي اتَّخذته إسرائيل بضم القُدس القديمة إليها من هزَّة عنيفة في مشاعر العرب عموماً مسيحيين ومسلمين، وليس أشق على ضمير الإنسان ووجدانه من عمل عدواني يمس عقيدته ومقدَّساته ... إننا طلبنا ولا زلنا نطالب، متَّجهين إلى الله وإلى الضَّمير العالمي، ونسأل أيضاً مساندة قداستكم ومعاونتنا لنكون صفاً واحداً في نصرة هذه القضيَّة العادلة، وأن تعود القُدس إلى الوضع الذي كان قائماً قبل العدوان

١٧- هي أول زيارة رسمية لبطريرك كنيسة القسطنطينية إلى بابا الكنيسة القبطية بعد قطيعة بين الكنيستين دامت حوالي خمسة عشر قرناً.

الأخير"(١٨).

• ظهور العذراء في كنيستها بالزَّيتون

وفي عهد البابا كيرلس السَّادس أيضاً ظهرت القدِّيسة العذراء مريم في ٢ أبريل سنة ١٩٦٨م على قباب كنيستها بحي الزَّيتون بالقاهرة. وكان ظهوراً فريداً لكل الجموع الغفيرة التي شاهدته من كل الأديان، والذي استمر لبضعة شهور متواصلة. وفي ٣٠ أبريل ظهرت المناشيتات (العناوين) الرَّئيسيَّة في الصُّحف المصريَّة لتعلن البيان الرَّسمي للبابا الذي يؤكِّد أن ظهور العذراء حقيقة. وقد رآها الرَّئيس جمال عبد النَّاصر من مترل الحاج أحمد زيدان تاجر الفاكهة المعروف بعد أن مكث طيلة اللَّيل مترقِّباً الظُّهور، والذي حدث في الخامسة صباحاً(١٩).

• وصول رفات القدِّيس مرقس الرَّسول إلى مصر

كان البابا كيرلس السَّادس قد بعث برسالة إلى البابا بولس السَّادس (١٩٦٣ـ ١٩٧٨م) بابا روما يطلب منه إعادة جزء من جسد القدِّيس مرقس البشير الذي كان قد سرقه بعض البحَّارة الإيطاليِّين سنة ٨٢٥م ونقلوه إلى مدينة فينيسيا (البندقيَّة) الإيطاليَّة.

ولما استجاب الحبر الرُّوماني، أوفد بابا الإسكندرية وفداً رسمياً من سبعة من الآباء المطارنة والأساقفة وثلاثة من الأراخنة إلى روما. وفي يوم

١٨ـ يلزم التنويه أنه قد تفاقمت الأمور تحدراً حين وافق الكونجرس الأمريكي في سنة ٢٠٠٢م على اعتبار القدس عاصمة لإسرائيل.

١٩ـ طبقاً لرواية محمود فوزي، البابا كيرلس وعبد الناصر، مقتبس عن: أمير نصر، قراءة في حياة أبونا مينا البراموسي المتوحد، مرجع سابق، ص ١٠١

السَّبت ٢٢ يونيو سنة ١٩٦٨م أقيم احتفال ديني كبير بالفاتيكان، وفيه تقدَّم البابا بولس السَّادس وحمل الصُّندوق الذي يحوي الرُّفات المقدَّسة، وسلَّمه في خشوع إلى نيافة الأنبا مرقس مطران أبو تيج ورئيس الوفد، كما سلَّمه الوثيقة الرَّسميَّة الخاصة بالرُّفات، وفيما يلي نصها:

"الأب بتروس كاتيزويوس فان ليرد، من جماعة رهبان القدِّيس أغسطينوس بنعمة الله، وبأمر الكرسي الرَّسولي أسقف لورفسير حارس زخائر الكرسي الرَّسولي، معاون بقصر قداسته، مساعد للكُرسي البابوي، والوكيل العام لمدينة الفاتيكان.

بموجب هذا المستند نؤكّد ونشهد لمجد الله وتكريم قدِّيسيه، أننا تحقَّقنا من أن رُفات القدِّيس مرقس الإنجيلي قد استُخرجت من مكانها الأصليّ، وأننا وضعناها بكل وقار في وعاء من الفضَّة، وُضع بدوره داخل صندوق فضي مشغول بفن رفيع، وجوانبه من البللُّور، وأُغلق بإحكام، والوعاء مُغلق داخل الصُّندوق المذكور بخيط رفيع من الحرير الأحمر، ومختوم بخاتمنا بالشَّمع الأحمر. وكل هذه الإجراءات قد اتُخذت لكي يتمكَّن حائزه من الاحتفاظ به، ومن عرضه ليكون موضع الإجلال العام من قبل المؤمنين.

وإننا ننذر المؤمنين الذين قد توجد هذه الرُّفات بين أيديهم في يوم من الأيام بأنه لا يحق لهم أن يبيعوها أو يستبدلوها بأشياء مما يُباع ويُشترى.

وإقراراً بذلك نسلِّم هذه الوثيقة موقَّعة منا، وعليها خاتمنا".

وفي ٢٤ يونيو سنة ١٩٦٨م وصلت الطَّائرة التي تحمل رفات كاروز الدِّيار المصريَّة القدِّيس مرقس البشير، قادمة من روما تقل الوفد القبطي المرافق للرُّفات. وصعد البابا كيرلس سُلَّم الطَّائرة ونزل حاملاً الصُّندوق على كتفه في وسط صيحات الفرح والتَّهليل التي شقَّت عنان سماء القاهرة

في تظاهرة شعبيَّة لم يشهدها المطار من قبل، اختلطت فيها أصوات التَّسبيح مع صيحات الفرح التي انفلتت من سيطرة الإرادة، فجاءت أشبه بهدير بحر زاخر. كيف لا وقد عاد كاروز الدِّيار إلى داره بعد غيبة قرابة أحد عشر قرناً؟ وسار البابا القدِّيس - الذي كرَّمه الرَّب بكل الكرامة - في موكب كنسي بين الشَّمامسة الذين ينشدون الألحان الكنسيَّة، واستقلوا العربات في موكب قُدسي عبر شوارع القاهرة حتى وصلوا إلى المقر البابوي. وبعد حفل الافتتاح وإقامة القدَّاس الإلهي في اليوم التالي مباشرة أودع الرُّفات أسفل المذبح الرَّئيسي بالكاتدرائيَّة المرقسيَّة الجديدة.

• **مطبعة الأنبا رويس**

وفي سنة ١٩٦٩م أقام قداسة البابا كيرلس السَّادس صلاة تبريك الأرض التي سيقام عليها مبنى "مطبعة ميناء الخلاص" في أرض الأنبا رويس خلف معهد الدِّراسات والكليَّة الإكليريكيَّة، وهي حالياً المعروفة بمطبعة الأنبا رويس. أما آلات الطِّباعة والتَّجليد فقد أُهديت من اتحاد الكنائس الإنجيليَّة في ألمانيا إلى المعاهد الدِّينيَّة بالكنيسة القبطيَّة[٢٠].

وهنا تجدر الإشارة إلى أن بداية عصر الطِّباعة في بلاد الشَّرق العربي كانت في مطبعة دير قزحيَّا جنوب طرابلس بلبنان سنة ١٦١٠م وهو أقدم أديرة لبنان، ويتبع الكنيسة المارونيَّة. أما في مصر فكانت أولى المطابع هي تلك التي حملتها معها الحملة الفرنسيَّة على مصر سنة ١٧٩٨م، ولكن تلك المطابع رجعت إلى فرنسا مع رحيل الحملة الفرنسيَّة عن البلاد سنة ١٨٠١م. ولم تظهر المطابع في مصر بعد ذلك إلاَّ مع مطبعة بولاق سنة ١٨٢١م والتي استوردها محمد على باشا، وعهد إلى نيقولا مسابكي

---

٢٠ ـ أمير نصر، قراءة في حياة أبونا مينا البراموسي المتوحد، مرجع سابق، ص ٧٩

الإشراف على استيرادها وإدارها. وكانت أوَّل مطبعة شعبيَّة في مصر هي المطبعة الأهليَّة التي استوردها من الخارج البابا كيرلس الرَّابع أبو الإصلاح سنة ١٨٦٠م في عهد الوالي سعيد باشا. وبعد أكثر قليلاً من مائة سنة ها هي مطبعة الأنبا رويس بمقر البطريركيَّة تدور آلاها لتنشر النُّور بالكلمة.

وفي مارس سنة ١٩٧١م أي في السَّنة التَّالية لرحيل عبد النَّاصر، انتقل إلى الأمجاد السَّماويَّة قداسة البابا كيرلس السَّادس الذي ستظل ذكراه أبداً في الكنيسة، لتُطوى صفحة من تاريخ مصر وكنيستها الوطنيَّة.

عهد الرَّئيس السَّادات والبابا شنوده الثَّالث

تولى الرَّئيس أنور السَّادات حكم البلاد في سنة ١٩٧١م، فانتُخب خلفاً لعبد الناصر.

وفي نوفمبر من نفس هذه السَّنة — ١٩٧١م - أُقيم قداسة البابا شنوده الثَّالث بطريركاً للكرازة المرقسيَّة، وهو البابا الـ ١١٧. وبعد أقل من شهر من رسامته قام قداسته برسامة أسقفين: أولهما باكورة الأساقفة في عهده وهو نيافة أنبا يؤانس أسقف الغربيَّة المؤرِّخ الكنسي المدقّق، وعالم الطُّقوس الكنسيَّة. وثانيهما نيافة أنبا باخوميوس أسقف البحيرة ومطروح والخمس مدن الغربيَّة، والذي قام بزيارة ليبيا في يناير سنة ١٩٧٢م، ولأوَّل مرَّة بعد غيبة منذ القرن السَّادس عشر[٢١]، كتمهيد للزِّيارة التَّاريخيَّة التي قام بها قداسة البابا لليبيا في مارس من العام ذاته.

٢١ـ كانت المسيحية قد انتهت تماماً من الخمس مدن الغربية في حبرية البابا يؤانس الخامس عشر سنة ١٥٠٨م. وكان آخر خيط متبقي فيها هو أسقف يُدعى قرياقوس، غادر الخمس مدن الغربية سنة ١٥١٧م، بعد أن احتل العثمانيون مصر، وعاد إلى ديره، وهو دير السيدة العذراء (السريان).

وكان العثمانيون قد قضوا على المسيحيَّة تماماً في الخمس مدن الغربيَّة.

وبعد ثلاثة أشهر من تولي قداسة البابا شنوده الثَّالث مهام منصبه تم تدشين كنيسة مصريَّة في النِّمسا تخدم أقباط دولتي النِّمسا وألمانيا الغربيَّة. بالإضافة إلى تدشين كنيسة ودير في لبنان في أكتوبر من نفس العام.

في سنة ١٩٧٢م قام بابا الإسكندريَّة شنوده الثالث بزيارة لبطريرك القسطنطينيَّة، وكان بطريرك القسطنطينيَّة قد بادر من قبل بزيارة البابا كيرلس السَّادس في السِّتينيَّات، أي قبل ذلك بحوالي عشر سنوات.

في غضون سنة من تولي السَّادات حُكم البلاد بدأ الجو يتكهرب، وبدأت نعرة الدِّين تعلو فوق مظاهر الحياة المصريَّة في ذلك الوَقت. وبدا "الجو العائلي" بين المسلمين والمسيحيين يتغيَّر بالسَّلب، وبدأ ظهور ما عُرف باسم "الفتنة الطائفيَّة". كان هذا الزَّمان هو زمان الاضطراب واختلاط المفاهيم.

وفي نوفمبر سنة ١٩٧٢م كانت حوادث الفتنة الطائفيَّة في الخانكة[٢٢]، وتم حرق كنيسة بها، ولجسامة الحدث تشكَّلت لجنة من مجلس الشَّعب لتقصِّي الحقائق برئاسة الدكتور جمال العطيفي، وأشار التَّقرير إلي أن "كثير من الكنائس القبطيَّة قد تقادم العهد عليه، ولا يُعرف شئ عن تطبيق الخط الهمايوني". وجاء في التَّقرير أيضاً أن عدد الكنائس المقامة في مصر طبقاً للجهاز المركزي للتعبئة والإحصاء يبلغ ١٤٤٢ كنيسة، في حين أن الكنائس المسجَّلة بوزارة الدَّاخلية يبلغ ٥٠٠ كنيسة

٢٢- في تلك الفترة كانت نسبة الموظفين الأقباط في مدينة الخانكة تزيد على ٦٠ % إذ يبلغ عددهم ٣٨ موظفاً من بين مجموع ٥٩ موظفاً، فضلاً عن أن رئيس مجلس المدينة في تلك الفترة - وقبلها لمدة اثنتي عشرة سنة - كان مسيحياً.

منها ٢٨٦ كنيسة قبطيَّة أرثوذكسيَّة. وهو ما يعني أمرين: الأوَّل، أن جانباً من الكنائس بُني بغير أن يصدر به قرار جمهوري، والثّاني، أن بعض الكنائس قد أُقيمت قبل صدور قرار وكيل وزارة الدَّاخليَّة سنة ١٩٣٤م. وأرجعت لجنة تقصي الحقائق أن مشكلة بناء الكنائس وترميمها ترجع إلى عدم وجود نظام مُيسَّر لتنظيم تراخيص البناء دون أن يتطلَّب الأمر صدور قرار جمهوري في كل حالة[٢٣].

كان من أهم العبارات التي أوردها التَّقرير المذكور: "ما لم ننفذ إلى المشكلة في أعماقها، ونتعقب الأسباب المؤدية إليها، ونقترح لها علاجاً، فإن هناك خشية من أن تتوقّف المتابعة حينما تهدأ النفوس وتستقر الأوضاع، ويفتر الاهتمام بإيجاد حلول دائمة، لا تقديم مسكّنات وقتيَّة، مما يهدِّد بعودة الدَّاء الكامن إلى الظُّهور أشد خطراً وفتكاً". ولقد أُورد التَّقرير موارد النسيان، برغم أن اللَّجنة المشكّلة هي بأمر أعلى سلطة تشريعيَّة في البلاد.

وفي مايو سنة ١٩٧٣م التقى قداسة البابا شنوده الثّالث مع البابا بولس السَّادس في الفاتيكان إثر دعوة من الحبر الرُّوماني. وعاد البابا الإسكندري يحمل معه جزءاً من رفات القدِّيس أثناسيوس الرَّسولي البطريرك العشرين، حيث وُضع في مكان أُعد له بالكاتدرائيَّة المرقسيَّة الكُبرى[٢٤].

وقد أهدى البابا بولس السَّادس للبابا شنوده الثّالث نسخة بالميكروفيلم لبعض المخطوطات القبطيَّة القديمة المحفوظة بمكتبة الفاتيكان.

٢٣ـ سامح فوزي، هموم الأقباط، مرجع سابق، ص ١٠٣

٢٤- جدير بالذكر أن البابا الروماني يوحنا بولس الثاني زار مصر في مارس سنة ٢٠٠٠م، واستقبل استقبالاً رسمياً من الدولة، والتقى بقداسة البابا شنودة الثالث، وفضيلة شيخ الجامع الأزهر.

وفي هذا الصَّدد ذكر الحبر الرُّوماني أن الكنيسة الكاثوليكيَّة لم تكف عن احترام المراجع الدينيَّة لمفكري الكنيسة المصريَّة والرُّهبان المصريين، فكانت كتاباتهم مرجعاً ومنهلاً ينهل منه رجال الدِّين المسيحي الكاثوليكي على مر العصور.

وفي مايو سنة ١٩٧٣م احتفلت كنيسة مصر بمرور ١٦٠٠سنة على نياحة البابا أثناسيوس الرسولي (٣٢٨-٣٧٣م)، وذلك بالكاتدرائيَّة المرقسيَّة الكُبرى بحضور وفود من كنائس العالم. وانتقلت هذه الوفود إلى الإسكندريَّة حيث أُعيد الاحتفال بهذه المناسبة في الكنيسة المرقسيَّة بالإسكندريَّة. ويرى المصريون في البابا أثناسيوس الرَّسولي رمزاً لمقاومة المصريين لغير المصريين، وتأكيداً لرفض مصر أن يملي عليها أحد من خارجها آراءه أو عقائده، ولقد بدأ تصدي البابا أثناسيوس لأباطرة بيزنطة منذ اللَّحظة الأولى[٢٥].

وخاضت مصر الحرب الثَّالثة مع إسرائيل في ٦ أكتوبر سنة ١٩٧٣م، وكان أوَّل انتصار ساحق للعسكريَّة المصريَّة ليس في عصرها الحديث فحسب، بل ومنذ نهاية العصر الفرعوني. وكان للرَّئيس السَّادات الفضل الأوَّل في اتخاذ قرار الحرب، فاستعادت مصر جزءاً من شبه جزيرة سيناء. وفي سنة ١٩٧٨ حصل الرَّئيس السَّادات على جائزة نوبل للسَّلام، وفي سنة ١٩٧٩م تم توقيع معاهدة صُلح مع إسرائيل عادت بموجبها معظم شبه جزيرة سيناء إلى مصر.

وفي عهد السَّادات تحوَّلت البلاد تدريجياً من الاشتراكيَّة إلى نوع من سياسة التَّعدديَّة الحزبيَّة، وإلى سياسة ما أسماه "الانفتاح الاقتصادي" والتي

٢٥ـ محمد حسنين هيكل، خريف الغضب، مرجع سابق، ص ٢٦١

التي أربكت البنية الاجتماعيَّة للدَّولة[٢٦]، حيث نزل موظفو الحكومة إلى قاع قائمة الدَّخل القومي للفرد، بينما ارتفع أصحاب الحرف والأعمال الحرَّة إلى قمَّته. وظهر التَّفاوت الطّبقي الحاد، ولم يصبح للدَّرجات العلميَّة أو الثقافيَّة التي يحملها الفرد آنئذ وزنها في المجتمع، مما أثّر سلباً على المستوى الثّقافي العام للبلاد.

وبدءًا من سنة ١٩٧٤م زادت هجرة الأقباط من مصر بأعداد كثيفة. ومهما يكن من أمر فإن التغيُّرات الإيجابيَّة في المجالين الاجتماعي والسِّياسي لم تتطرَّق بشكل مباشر لخدمة قضايا الكنيسة القبطيَّة في مصر.

ولقد شهد صباح باكر يوم ١٨ يناير سنة ١٩٧٧م انفجاراً شعبياً هائلاً بدأ أولاً في الإسكندريَّة وامتد إلى القاهرة، وامتد حتى إلى أسوان، كتعبير عن المستوى الاقتصادي الضَّعيف للبلاد في ذلك الوَقت.

في هذا الجو المشحون بالتَّوتُّر، وتحت ستار الديمقراطيَّة أخرج السَّادات المسجونين من تنظيم الإخوان المسلمين لكي يقتلع النَّاصريين والشيوعيِّين الذين كانوا يبغضونه. وأعاد للإخوان المسلمين مجلّتهم ذات التأثير الواسع المدى "الدَّعوة".

وفي الجامعة حلّت الجماعات الإسلاميَّة في الكُلّيَّات والمعاهد بدلاً من

٢٦ـ طبقاً لأرقام البنك الدولي سنة ١٩٨٠م، فإن ٢١,٥ % من الدخل القومي كان يذهب إلى ٥ % فقط من السكان. وعلى الناحية الأخرى من السلم الاجتماعي فإن ٢٠% من السكان كان عليهم أن يعيشوا بـ ٥ % من الدخل القومي. وطبقاً للإحصائيات، فقد كان ٨٠% من موظفي الحكومة يحصلون على متوسط دخل ستمائة جنيه في السنة (٥٠ جنيه في الشهر)، كما أن ٤٤ % من سكان الريف، ٣٣ % من سكان المدن كانوا يعيشون تحت خط الفقر.
انظر: محمد حسنين هيكل، خريف الغضب، مرجع سابق، ص ٣٦٧

اتحادات الطُّلاب، فاندس المتطرِّفون بين الطُّلاب في الجامعات، مما نجم عنه أخطر العواقب.

لقد بدأت الجماعات الإرهابيَّة نشاطها ضد الأقباط وكنائسهم أولاً، ولم تكن تلك النَّشاطات سوى القنطرة التي عبر عليها هؤلاء إلى مؤسَّسات الدَّولة نفسها، وهو ما أثبتته الأحداث فيما بعد.

تصرَّف الرَّئيس السَّادات مع أحداث البلاد الداخليَّة بكثير من النوازع المتسلِّطة التي ميَّزت جانباً واسعاً من أيام حكمه. فعادت السُّجون تفتح أبوابها من جديد، واكتظَّت بالآلاف، وأصدرت السُّلطات قانوناً يُسمى "قانون الطوارئ". ولم تمتد الأيدي إلى هؤلاء الشَّباب لهدايتهم وإنقاذهم من متاهة الفكر المتردي الذي وقعوا فيه، واستحلَّت هذه الجماعات دم النَّصارى، فإما أن يؤمنوا أو يدفعوا الجزية. فبدأت الاعتداءات على المسيحيِّين وديارهم وكنائسهم ومتاجرهم وحياتهم، واشتعلت نار التعصُّب المرعب وأخذت تأكل كل ما في طريقها. ووصل الأمر بالجماعات المتشدِّدة أن بعض عائلاتهم اعتبرت كافرة وتستحق القتل، لأنها لا تدين بفكر الجماعة.

كانت كل عائلة مصريَّة تقريباً تعاني من هذا الوباء، أن يكون لها ابن ضمن الجماعات المتشدِّدة، إمَّا داخل المعتقلات، أن مطلق السَّراح ولكنه يسبِّب لأهله أذى أشد ضراوة من المعتقل، لأنه يكفِّر أباه وأمه وإخوته ولا يأكل معهم، ويرفض أن يصرفوا عليه فمالهم حرام لأنه من الحكومة الظَّالمة.

كان المسيحيُّون يتعرَّضون لظُلم من جانب النِّظام، وحرب باردة من جانب المتشدِّدين، وتتابعت الأحداث بسرعة والتي شكَّل مجموعها ما اصطُلح على تسميته "الفتنة الطائفيَّة" وكان من مظاهرها وقتئذ:

• تشكيل الجماعات الإسلاميَّة السِّياسيَّة في الجامعات والمعاهد بمساندة السُّلطة. مقابل قيام تشكيلات عُرفت بـ "الأُسر الجامعيَّة المسيحيَّة"، فتم القضاء على تنظيمات الاتحادات الطلابيَّة التي كانت تضم كل من المسيحيين والمسلمين معاً.

• المؤتمر الذي عقده بعض رجال الدين المسيحي بالإسكندريَّة في يوليو سنة ١٩٧٢م، واتخذوا فيه قرارات أبرقوا بها إلى الجهات المسئولة، ومن بينها مجلس الشَّعب، يطالبون فيها بما أسموه حماية حقوقهم وعقيدتهم المسيحيَّة، وأنه بدون ذلك سيكون الاستشهاد أفضل من حياة ذليلة. بعده بأسبوع واحد دعا الرَّئيس السَّادات المؤتمر العام للاتحاد الاشتراكي العربي لبحث موضوع الوحدة الوطنيَّة. مما تسبَّب في عقد جلسة طارئة لمجلس الشَّعب في أغسطس سنة ١٩٧٢م، وصدر قانون بشأن "حماية الوحدة الوطنيَّة" في سبتمبر من نفس السَّنة.

• تظاهر عدد كبير من الكهنة الأقباط وغيرهم من العلمانيين في سبتمبر سنة ١٩٧٢م، حيث عقدوا اجتماعاً غاضباً أثار بعض المسلمين ورفع حدة التوتُّر بينهما على إثر إشعال النَّار في دار جمعيَّة الكتاب المقدَّس بالخانكة[٢٧]، والتي اتخذها الأهالي من الأقباط كنيسة (بغير ترخيص) لإقامة شعائرهم الدِّينيَّة. بالإضافة إلى إشعال النَّار في منازل بعض المسيحيين هناك، وقُتل كثير من المسيحيين وأُحرقت ممتلكاتهم أو نُهبت. وكذلك اعتداء الجماعات الإسلاميَّة على مبني جمعية النَّهضة الأرثوذكسيَّة بجهة سنهور بمحافظة البحيرة.

٢٧ـ طبقاً لبيانات الجهاز المركزي للتعبئة والإحصاء، يبلغ عدد المسيحيين في الخانكة سنة ١٩٧٢م، ٨٠٣ مسيحي، وجملة المسيحيين في مركز الخانكة (المدينة والقرى) هو ٢٩٦٣ مسيحي.

• اغتيال قس قبطي هو القس غبريال عبد المتجلي كاهن كنيسة التَّوفيقيَّة. وقد ألَّف البابا لجنة لتقصي الحقائق أخذت على رجال الشُّرطة والنيابة هناك عدم جديَّتهم في إجراء التَّحقيق حول الحادث مما رفع درجة التوتُّر، فوقعت صدامات مسلَّحة بين المسلمين والأقباط.

• المؤتمر القبطي الذي عُقد في الإسكندريَّة في يناير سنة ١٩٧٧م، والذي أصدر توصيات تتلخَّص في ثمانية بنود بدءاً من ضمان حريَّة العقيدة، ومروراً بإلغاء القيود العشرة المفروضة على بناء الكنائس وعدم قبول تطبيق الشَّريعة الإسلاميَّة، والتَّمثيل النيابي ... الخ، وانتهاء بحماية الأسرة المسيحيَّة، كانت نتيجته المؤتمر الإسلامي الذي عُقد في يوليو من نفس السَّنة، وأكَّد فيه فضيلة شيخ الأزهر على ضرورة تطبيق الشَّريعة الإسلاميَّة.

• طوال السَّنتين ١٩٧٨، ١٩٧٩م زادت حدة التوتُّر ووصلت أحداث العنف في مصر إلى حد رفض التَّعامل اليومي، وصدرت منشورات تكفِّر المجتمع وتجيز قتل الأقباط[٢٨].

• حرق كنيسة العذراء قصريَّة الرِّيحان في أوائل سنة ١٩٧٩م عن آخرها، وكانت أثراً حضارياً عظيماً لمصر، وغيرها من الكنائس.

• في مارس سنة ١٩٨٠م اعتدت بعض الجماعات الإسلاميَّة على الطَّلبة المسيحيين في المدينة الجامعيَّة بالإسكندريَّة.

• أزمة احتجاج البابا على التفكير بتطبيق قانون الرِّدة. ومحاولات

٢٨ـ إن الحالة الاقتصادية التي وصلت إليها البلاد كانت أحد الأسباب الرئيسية لهذا التطرف. إذ أن معدلات التضخم سنة ١٩٧٩م، كانت تتراوح ما بين ٣٠ـ ٣٥ %، و لم تكن كل المشروعات الجديدة والبراقة قادرة على استيعاب أكثر من ٤ % من خريجي الجامعات المصرية.

تقنين الشَّريعة الإسلاميَّة، وأزمة التَّظاهرات المعادية للسَّادات من جانب أقباط المهجر في الولايات المتَّحدة الأمريكيَّة، وأزمة رفض البابا المشاركة في إجراءات تطبيع العلاقات مع إسرائيل بعد توقيع معاهدة السَّلام، وذلك بمنع الأقباط من الحج إلى القُدس.

• في ٢٦ مارس سنة ١٩٨١م أعلن بابا الإسكندريَّة امتناع الكنيسة عن قبول التَّهنئة من المسئولين في الحكومة بعيد القيامة لهذه السَّنة، حيث توجَّه هو والآباء المطارنة والأساقفة إلى الأديرة.

وكان الرئيس السَّادات قد أصبح محل هجوم حاد لا هوادة فيه من جانب الأصوليين المسلمين. برغم أنه كان الدَّافع الرَّئيسي وراء تغيير الدُّستور المصري سنة ١٩٨٠م لينص على أن الشَّريعة الإسلاميَّة هي المصدر الرَّئيسي للتَّشريع. وبرغم ذلك كانت خطب الصَّلاة في المساجد تندِّد به كل يوم جمعة، وكان السَّادات مندفعاً في مهاجمة المعارضة المصريَّة الدَّاخليَّة، فأصدر أوامره بإجراء حركة اعتقالات بين الإخوان المسلمين[٢٩].

• في ٥ سبتمبر سنة ١٩٨١م كانت القرارات المؤسفة بإلغاء القرار الجمهوري بتعيين البابا شنوده الثَّالث بطريركاً للكرازة المرقسيَّة، وتحديد إقامته بدير الأنبا بيشوى بوادي النَّطرون. وتم اعتقال ١٥٣٦ مواطناً مصرياً من المسلمين والمسيحيين من بينهم ثمانية من الآباء الأساقفة، وأربعة وعشرون كاهناً[٣٠].

• لم ينج أحد من ثورة غضب السَّادات، ولقد عيَّن الرَّئيس السَّادات

---

٢٩ ـ بطرس بطرس غالي، طريق مصر إلى القدس، مرجع سابق، ص ٣٥١، بتصرف.

٣٠ ـ يذكر محمد حسنين هيكل أن أوامر الاعتقال بلغت في أحداث سنة ١٩٨١م إلى ٩٣٠٠ أمر. (انظر: خريف الغضب، ص ٤٥٥).

لجنة من خمسة أساقفة لتولي شؤون الكنيسة بدلاً من قداسة البابا، وأعلن السَّادات أنه يجب على البابا أن يبقى في الدَّير محدَّدة إقامته، ومنعه من إدارة شؤون الكنيسة، ويقول الدكتور بطرس غالي: "وأوفدني السَّادات برسالة إلى بابا الفاتيكان، وقد نقلَت هذه الرِّسالة الموقف المصري الرَّسمي القائل بأن (البابا) شنوده قد توجَّه إلى الدَّير لأسباب تتعلَّق بالأمن، وأن اعتكافه لا يقلِّص من سلطته الرُّوحيَّة كرئيس للكنيسة القبطيَّة. وقد استقبلني الأب الرُّوحي (يعني بابا الفاتيكان) في كاسل جاندولفو، وقرأ الرِّسالة دون تعليق، ولم يكن مقتنعاً برسالة السَّادات، ولا بما أقوله[٣١]".

• وما هو إلاَّ شهر واحد من الزَّمان حتى كان اغتياله في ٦ أكتوبر سنة ١٩٨١م بيد واحد من الجماعات الإسلاميَّة في يوم انتصاره العظيم وهو واقف على منصَّة العرض العسكري مغتبطاً يتباهى بنصره، وسط جيشه وقواته وحرسه وآلاته الحربيَّة. فالوحش الذي أخرجه السَّادات من مكمنه خرج عليه هو ثمَّ افترسه أخيراً، فدفع الثَّمن لأنه لم يستطع السَّيطرة على الفوضى التي شاعت في المجتمع. ومات فرعون مصر الجديد بيد واحد من رعاياه. كان الرَّئيس السَّادات يحب مصر بالفعل، ولكنه كان حباً يعوزه التروِّي أحياناً[٣٢].

في هذه الظروف الأليمة التي حازتها مصر شهدت البلاد نزيفاً رهيباً في طاقاتها البشريَّة، لم يقتصر على المتعلِّمين فقط، بل امتد إلى الحرفيِّين أيضاً. فارتفعت معدلات الهجرة من البلاد بشكل لم يسبق له مثيل،

٣١_ بطرس بطرس غالي، طريق مصر إلى القدس، مرجع سابق، ص ٣٥١

٣٢_ لما جاء الرئيس مبارك إلى الحكم ودعا إلى مؤتمر اقتصادي موسع، كشفت الأرقام عن أن ديون مصر بلغت ١٩,٥ بليون دولار. أما الدين العسكري فبلغ ٦ بليون دولار. أي أن ديون مصر الخارجية زادت في فترة حكم الرئيس السادات عشر مرات عن نظيرتها في فترة حكم الرئيس عبد الناصر.(انظر: خريف الغضب، ص ١٦٩).

وبرغم أنه لم يكن هناك فلاح في العالم أكثر التصاقاً بأرضه من الفلاّح المصري، إلاّ أنه قد نزح أكثر من مليون فلاح[٣٣] إلى العالم العربي يبحثون عن أمل.

وبلغ عدد الأقباط في الولايات المتَّحدة في ذلك الوقت أكثر من ٣٠٠ ألف نسمة، وفي كندا ٥٠ ألفاً وفي استراليا ٣٥ ألفاً، وفي أوروبا الغربيَّة أعداد لم تكن محصاة بدقة آنئذ. وظلّت الغالبية العُظمى من أقباط المهجر يعتزون بهويَّتهم المصريَّة، ويسعون للحفاظ عليها، وكانت مساعداتهم الطبيَّة والدَّوائيَّة إبَّان حرب أكتوبر، أو حينما تعرضت مصر لأضرار طبيعية كالسيول والزَّلازل، خير شاهد على ذلك.

إن الحق الذي لا مناص منه أنه في عهد السَّادات تم بعث الهويَّة الدِّينيَّة الأصوليَّة، مما أدى إلى تواري الهويَّة المصريَّة مرَّة أخرى لصالح الهويَّة العربيَّة والدِّينيَّة السلفيَّة. وبعد خلاف السَّادات مع الدُّول العربيَّة عقب توقيع معاهدة "كامب ديفيد" قام بمحاولات شكليَّة لإظهار الهويَّة المصريَّة والجذور الفرعونيَّة، ولكنها كلها كانت محاولات شكليَّة موجَّهة للغرب من ناحية وجاءت كرد فعل على مخاصمة العرب من ناحية ثانية، ومتناقضة مع تشجيع السَّادات للتَّيار السَّلفي من ناحية ثالثة، فكانت محاولات غير مقنعة وغير مجدية[٣٤].

لقد دفع الأقباط ثمناً باهظاً من أرواحهم وممتلكاتهم من جرَّاء صعود تيار الإسلام السِّياسي الذي تبناه السَّادات. ومع توحُّش هذا التَّيار وتحوُّله إلى الإرهاب دفعت مصر كلها ثمناً لهذا الإرهاب الأعمى.

٣٣ـ محمد حسنين هيكل، خريف الغضب، مرجع سابق، ص ١٨٢
٣٤- جريدة وطني في الأحد ١٣ مايو سنة ٢٠٠١م.

لقد برزت في عهد السَّادات المشكلة الرَّئيسيَّة للأقباط مع الدَّولة التي حرمتهم بشكل كبير من المشاركة في إدارة شؤون بلدهم. فعانى الأقباط من أعلى مراحل التَّهميش منذ ظهور الدَّولة الحديثة على يد محمد علي.

أما الأقباط فكما يقول إدوارد واكين فإنهم يتمتَّعون بقوَّة احتمال وصلابة الأهرام، وإرادتهم وعزيمتهم في أن يحتفظوا بشخصيَّتهم القبطيَّة تتكرَّر بشكل لا نهائي خلال تاريخهم القديم والمعاصر.

مصر تحت حكم الرَّئيس حسني مبارك

جاء الرَّئيس حسني مبارك[٣٥] في ظروف عصيبة بعد اغتيال رئيس الجمهوريَّة، واحتلال الجماعات الإسلاميَّة لبعض المدن الكُبرى بالصَّعيد، وأعلنوا حينئذ قيام دولة إسلاميَّة تطبِّق شرع الله.

وبدأ مبارك عهده بجمع شتات الأمَّة، فبدأت عمليات الإفراج عن المعتقلين في ٢٥ نوفمبر سنة ١٩٨١م من إسلاميين متشدِّدين ومسيحيين وصحفيين وإعلاميين وأساتذة جامعات ورجال أعمال. إلاَّ أن بعضاً من الآباء الأساقفة والكهنة مُنعوا - بعد الإفراج عنهم - من ممارسة وظائفهم الدِّينيَّة في أماكن خدمتهم لفترة امتدَّت لشهور كثيرة.

٣٥- وُلد في شبين الكوم محافظة المنوفية سنة ١٩٢٨م، وتخرج في الأكاديمية العسكرية سنة ١٩٤٩م، والأكاديمية الجوية سنة ١٩٥٢م، ونظراً لأنه كان أصغر سناً بكثير من الضباط الأحرار الذين قادوا ثورة يوليو من العام ذاته، فقد تحاشى الكثير من الشللية السياسية التي ميزت مجموعة الضباط من جيل الرئيسين جمال عبد الناصر وأنور السادات. ورُقي إلى قائد القوات الجوية سنة ١٩٧١م، وقاد الضربة الجوية الأولى في حرب أكتوبر سنة ١٩٧٣م، التي حسمت المعركة من اللحظات الأولى. وفي سنة ١٩٧٥م اختاره السادات ليكون نائباً لرئيس الجمهورية. وبعد اغتيال السادات في أكتوبر سنة ١٩٨١م، انتُخب مبارك رئيساً لمصر.

وفي سنة ١٩٨٢م عاد آخر جزء من أرض سيناء إلى مصر. وفي ٣ يناير سنة ١٩٨٥م صدر قرار جمهوري بإعادة تعيين أنبا شنوده الثَّالث بابا الإسكندريَّة وبطريرك الكرازة المرقسيَّة. فعاد قداسة البابا من الدَّير واحتفل بعيد الميلاد في الكاتدرائيَّة المرقسيَّة، فانطوت صفحة من صفحات تاريخ الكنيسة القبطيَّة في مصر.

ويمكن تلخيص حكم الرَّئيس مبارك لمصر في الدَّاخل بأنه مزيج متميِّز من السِّياسات الضَّابطة والمتحرِّرة، أما في الخارج فيمسك بميزان حسَّاس يزن به ما بين مصلحة مصر العليا أولاً، وريادتها للمنطقة التي تعيش فيها.

• في الاقتصاد

بدأ حُكم الرَّئيس مبارك بخطوات دقيقة ومحسوبة في مجال الاقتصاد. وتمكَّنت مصر في الأعوام العشرة ما بين عامي ١٩٨٥م و١٩٩٥م من أن تدخل قائمة الدُّول الثَّلاثين الأولى في العالم من حيث سرعة النُّمو الاقتصادي.

وفي أواخر التِّسعينيَّات من القرن العشرين أشاد البنك الدَّولي بإنجازات مصر الاقتصاديَّة، حيث بلغ معدَّل النُّمو الاقتصادي السَّنوي ٥ %، وانخفض العجز في الموازنة إلى أقل من ٢% من إجمالي النَّاتج القومي بعد أن كان ١٧%، وارتفع نصيب القطاع الخاص في المشروعات إلى ٦٥% بعد أن كان ٢٥% وبلغ احتياطي النَّقد الأجنبي ٢٠ مليار دولار بعد أن كان أقل من مليار دولار. وصار للأقباط نصيباً معقولاً في حجم مشروعات القطاع الخاص. وفي ذلك الوقت تمتَّعت الدَّولة بالاكتفاء الذَّاتي في إنتاج النِّفط والكهرباء.

ولأن البلاد لم تتحوَّل فعلياً إلى الصِّناعة التَّنافسيَّة مع الأسواق

العالميَّة، كان واضحاً أن الاهتمام بالنَّشاط السِّياحي مع ما تدرُّه قناة السويس من دخل قومي، لم يكونا كافيين لصمود الاقتصاد المصري طويلاً أمام المنافسة العالميَّة، لأن الدَّخل القومي للبلاد صار يعتمد على الوافد إليها من الخارج فحسب، لا على ركائز راسخة في الدَّاخل أيضاً، سواء كانت زراعيَّة أو صناعيَّة. وهو ما تداركته الدَّولة مؤخراً.

وفي النِّصف الأوَّل من سنة ٢٠٠٠م تعرَّض الاقتصاد المصري لصعوبات جمَّة، فاجتاحت البلاد موجة من الكساد. وبعد أحداث ١١ سبتمبر سنة ٢٠٠١م حدثت رجَّة اقتصادية عالميَّة بسبب انهيار برجي مركز التِّجارة العالمي في نيويورك.

ومع اقتراب سنة ٢٠٠٢م من نهايتها ازداد تدهور الاقتصاد المصري بسبب الفساد المالي الحكومي الذي انتشر بشكل كبير، كما جاء في تقرير البنك الدَّولي. وهو ما دفع البنك الدَّولي إلى قصر تمويله على المشروعات الصَّغيرة فقط في مصر.

ولا تزال مصر مع أوائل القرن الحادي والعشرين تعتمد اعتماداً كبيراً على المعونات الخارجيَّة، وعلى تحويلات أبنائها العاملين في الخارج، والسَّبب المباشر في ذلك هو زيادة عدد السُّكَّان وهي من أكبر مشكلات البلاد على الإطلاق، إلى جانب مشكلة الأميَّة. وقد تكون الطَّبقة المتوسِّطة في مصر آخذة في النُّمو، لكن الفجوة بين الأغنياء والفقراء لازالت بالغة الاتساع.

وبحسب تقرير التَّنمية البشريَّة الصَّادر عن الأمم المتَّحدة سنة ٢٠٠٢م فإن معدَّل نمو متوسط الدَّخل قد أصبح نصف في المائة في المتوسِّط خلال العشرين سنة الماضية. وأن الدُّول العربيَّة الـ ٢٢ مجتمعة يبلغ إنتاجها

القومي ٥٣١ مليار دولار، وهو أقل من إنتاج دولة أوربيَّة متوسِّطة هي أسبانيا، وأقل من نصف إنتاج ولاية كاليفورنيا الأمريكيَّة على الرَّغم من أن عدد سكَّان العالم العربي بلغ ٢٨٠ مليون نسمة وهو يعادل تقريباً عدد سكَّان الولايات المتَّحدة بأكملها. كما أن معدَّل البطالة في العالم العربي ١٥ % في المتوسط وهو ثلاثة أضعاف المتوسِّط العالمي.

وفي سنة ٢٠٠٥م تحسَّن الوضع الاقتصادي للبلاد، واستقرت القيمة النقديَّة للجنيه المصري، واستقرت أوضاع البنوك، وانخفضت الضَّرائب إلى النِّصف، وبدأ السُّوق يتحرَّك من جديد. ووضح أن اقتصاد البلاد يستعيد عافيته من جديد.

• في العنف الدِّيني المسلَّح

إن كانت موجة العنف الدِّيني المسلَّح قد ظهرت بوضوح في أوائل الثَّمانينيَّات من القرن العشرين متمثِّلة في أحداث الخانكة في عصر السَّادات، إلاَّ أنها أخذت في التِّسعينيَّات دوراً خطيراً. فكانت أحداث الزَّاوية الحمراء سنة ١٩٨١م، وأحداث أسيوط سنة ١٩٨٩م، وأحداث الفيوم، وأبو قرقاص سنة ١٩٩٠م، وإمبابة سنة ١٩٩١م، وديروط سنة ١٩٩٢م، وصنبو سنة ١٩٩٣م، والدَّير المحرَّق سنة ١٩٩٤م، والبداري بأسيوط وكفر دميانه بالشَّرقيَّة سنة ١٩٩٦م[٣٦]، وقرية الفكريَّة بالمنيا سنة ١٩٩٧م، وعزبة الأقباط ... الخ، ثمَّ كانت أحداث الكُشح سنة ٢٠٠٠م. وبعد أن تدرَّب المسلَّحون المتطرِّفون على إتقان أدوارهم على مسرح الأقباط وكنائسهم، انتقلوا في مرحلة تالية لضرب مؤسَّسات الدَّولة نفسها.

٣٦ـ وهي قرية تقطنها ٦٤ أسرة مسيحيَّة.

وامتدت يد الإرهاب المسلَّح للجماعات الإسلاميَّة المتطرِّفة لتطال رجال الشُّرطة والقيادات العُليا في الحكومة، والسُّيَّاح الأجانب. ومع نهاية القرن العشرين انحسرت مؤقتاً هذه الظَّاهرة الشَّاذة، حتى أطلَّت برأسها من جديد في السَّنوات ٢٠٠٤، و٢٠٠٥م، و٢٠٠٦م في كل من طابا وشرم الشَّيخ ودهب على البحر الأحمر.

أمَّا من جهة الأقباط، فكان عدد القتلى من الأقباط على يد الجماعات الإرهابيَّة في سنة ١٩٩٠م لا يتجاوز خمسة أفراد، ارتفع إلى ٣٠ قتيلاً مع نهاية سنة ١٩٩٥م، وخلال الثلاث سنوات التَّالية فاق عدد القتلى من الأقباط نتيجة حوادث العنف الإرهابي السِّياسي أربعة أمثال ضحاياهم طوال القرن العشرين[٣٧]. وفي أحداث الكُشح (محافظة سوهاج) وحدها بلغ عدد القتلى من الأقباط ١٩ قبطياً، واثنين من المسلمين، مما كان ينذر باشتعال الفتنة الطائفيَّة في البلاد من جديد.

لقد كان هدف الجماعات الإرهابيَّة الواضح هو الوصول إلى الحكم عن طريق طعن وحدة الأمَّة بغرض إحداث فوضى في البلاد. ولقد اتَّجهت الحكومة في البداية إلى التَّردد في مواجهة الإرهاب والتَّراجع أمامه أحياناً، ولم تتَّخذ الحكومة موقفاً حازماً منه إلاَّ في التسعينيَّات، حين أدركت أن الإرهاب سوف يحرق البلاد كلها أقباطاً ومسلمين.

• في التَّربية والتَّعليم

يلزم الإشارة إلى أنه من بين كل امرأتين عربيَّتين توجد واحدة غير قادرة على القراءة والكتابة. وأن هناك ٦٥ مليون عربي بالغ يعانون من

٣٧ـ سامح فوزي، هموم الأقباط، مرجع سابق، ص ٣٥، ٣٢٨

الأميَّة ثلثاهم من النِّساء.

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى، ففي غضون الثّمانينيَّات والتِّسعينيَّات من القرن العشرين زاد بدرجة ملحوظة إدراج كثير من الآيات والأحاديث القرآنيَّة في كافة مواد اللُّغة العربيَّة التي يدرسها التَّلاميذ المسيحيُّون مع التَّلاميذ المسلمين، لاسيَّما في مراحل التَّعليم الأولي.

وكانت البداية الفعليَّة لهذا الأمر حين أمر سعد زغلول باشا ـ حينما كان وزيراً للمعارف ـ بإدخال تدريس الدِّين المسيحي بالمدارس الابتدائيَّة، وتوزيع الإنجيل على التَّلاميذ الأقباط في المدارس. وباستمرار هذه السياسة اعتبر الإخوان المسلمين أن تدريس الدِّين المسيحي في المدارس نوعاً من التَّبشير. وكرد فعل لذلك أصدرت وزارة العدل سنة ١٩٣١م منشوراً يقضي بأن تكون الشَّهادات الطبيَّة المقبولة في القضايا الشَّرعيَّة من طبيب مسلم ولا تُقبل من طبيب مسيحي. وفي سنة ١٩٣٣م صدر قانون بشأن التَّعليم الأوَّلي وجعل هناك منهجاً دراسياً للدِّيانة الإسلاميَّة، يحتوي على آيات قرآنية بغزارة يدرسه التَّلاميذ المسيحيون إلى جانب إخوانهم المسلمين. دون أن تكون هناك آية واحدة من الإنجيل تردْ على سبيل عظة أو حكمة[٣٨].

ولقد تداركت الحكومة هذا الأمر مؤخَّراً حيث نشرت جريدة الأهرام في ٢٠/٣/٢٠٠١م تحت عنوان: "منهج جديد للأخلاق في مرحلة التَّعليم الأساسي العام المقبل"، ما يفيد أن السيِّد الدكتور وزير التَّعليم أقر في مؤتمر عام استحداث منهج جديد ينمي مكارم الأخلاق والقواسم المشتركة بين عنصري الأمة. وبعد عشرة أيام من هذا التَّاريخ تنشر نفس

٣٨- سامح فوزي، هموم الأقباط، مرجع سابق، ص ٨١، ٢٠٠

الجريدة فكرة بناء "مدارس تعاونيَّة" يموِّلها القادرون لتعليم أبنائهم، إذ تحتاج الدَّولة إلى حوالي ٢٧ ألف مدرسة، تتطلَّب نحو مائة مليار جنيه، تستطع الدَّولة تدبير ثُلث هذا الرَّقم فقط. ومن ثمَّ فقد ظهر بناء المدرسة الخاصة سواء المحليَّة أو الأجنبية بواسطة أصحاب رؤوس الأموال، كمشروع استثماري مربح، أصبح الهم الأكبر والأساسي فيه هو جمع أكبر عائد مالي، حتى ولو كان على حساب الارتقاء بالعمليَّة التَّعليميَّة نفسها.

• في الدِّيمقراطيَّة وحريَّة الفكر والنَّشر

جدير بالذِّكر أنه من بين سبع مناطق في العالم فإن المنطقة العربيَّة لديها المعدَّل الأقل في الحقوق والحريَّات المدنيَّة والحقوق السِّياسيَّة واستقلاليَّة وسائل الإعلام. أما مشاركة المرأة فهي الأقل على مستوى العالم كله، حيث تبلغ مشاركتها السِّياسيَّة والاقتصادية ٥,٣ % وهي أقل حتى من أفقر دول العالم وهي مجموعة دول أفريقيا جنوب الصَّحراء، والتي تبلغ مشاركة المرأة فيها ١١ %.

أمَّا في مصر فإن حريَّة الفكر وحريَّة النَّشر فهي تعدُ من أبرز سمات عصر الرَّئيس مبارك، وما ورد في هذا الكتاب الذي بين يديك، قارئي العزيز، هو خير دليل على هذه الحريَّة.

لقد وضحت منذ البداية رغبة الرَّئيس الحقيقيَّة في منح الديمقراطيَّة مجالاً حقيقياً للظُّهور، فكان أحد أبرز معالمها حريَّة النَّشر التي لم تعهدها مصر منذ قيام ثورة يوليو. إلاَّ أن ظروفاً عالمية جديدة ساعدت على ذلك وهي تطوُّر وسائل الاتصال المسموعة والمرئيَّة والمقروءة مع الطَّفرة الكبيرة لتكنولوجيا المعلومات. وكان نصيب الأقباط من هذه الحريَّة وافراً، لاسيَّما في عرض أفكار وتحليل أحداث ما كان ممكنا من قبل الخوض

فيها. فعادت من جديد – وإن كان ببطء شديد – مشاركة الأقبــاط في الحياة العامة، ومنها الانتخابات النيابيَّة سنة ٢٠٠٠م والتي نجح فيها لأوَّل مرة خلال نصف قرن ثلاثة من الأقباط مع استمرار رئيس الجمهوريَّة في استخدام حقه الدُّستوري في تعيين عدد من الأقباط في البرلمان(٣٩).

وكان من أبرز ملامح الديمقراطيَّة في مصر في عهد مبارك هو تعديل دستور البلاد ليكون انتخاب رئيس الجمهوريَّة بالاختيار الحُر المباشر. وهو حدث لم تعهده مصر من قبل على امتداد تاريخها الطَّويل.

وأما من جهة حريَّة النَّشر والتَّعبير، فجدير بالذِّكر أن العالم العــربي كله يترجم حوالي ٣٠٠ كتاباً في السَّنة وهو خُمس عدد الكتب المترجمــة في اليونان فقط. والمدهش أن عدد الكتب الأجنبيَّة المترجمة خلال الألــف سنة الماضية في العالم العربي بأكمله أقل من عدد ما تترجمه أسبانيا وحدها خلال سنة واحدة. وأن ما يتم نشره من كتب في ٢٢ دولة عربيَّة أقل مــن ١% مما يُنشر في بريطانيا(٤٠).

وكان من تداعيات حريَّة النَّشر، ما استغله البعض للإساءة إلى أقباط مصر. ففي سنة ١٩٨٦م صدر كتاب ''مقدِّمة في فكر الجاهليَّة المعاصرة'' لمؤلِّفه عبد الجواد يسن، يتحدَّث فيه المؤلِّف عن الأقباط فيقول: ''يحلــو للأقليَّة النصرانيَّة في مصر أن تتحدَّث كثيراً عن الوحدة الوطنيَّة. فهــم في ظلِّها والمسلمون سواء، فلا جزية يعطوها عن يد وهــم صــاغرون، ولا إحساس بالدَّينونة لحكم المؤمنين. وأما في ظل دولة الإسلام أيــاً كــان

٣٩– كانت التجربة الديمقراطية الأولى في مصر في عهد اسماعيل باشا في الستينيات من القرن التاسع عشر عندما دخل الأقباط إلى مجلس شورى النواب، ثم دخولهم بمجلس النواب سنة ١٨٨٢م.

٤٠ – مقال لمجدي خليل في جريدة وطني الدولي بتاريخ الأحد ٤ أغسطس ٢٠٠٢م

اسمها، فلا مفر من الجزية، ولا مشاركة في الحُكم. ولا اعتماد عليهم في دفع ولا جهاد[٤١]، وإنما هم دوماً في حالة ينبغي أن تشعرهم بقوَّة الإسلام، وعظمته، وسموه، وبره، وخيره، وكرمه، وسماحته. أي في حالة تدفعهم على الجملة للدُّخول فيه اختياراً[٤٢]".

هذه نوعيَّة من الآراء التي طُرحت آنئذ، ولكنها لم تكن تمثِّل الرأي الأكثر شيوعاً بين المثقفين المسلمين، فعلى سبيل المثال يقول الدكتور محمد سليم العوا: إن الدَّولة الإسلاميَّة المعاصرة تمثل نوعاً جديداً من السِّيادة لم يعرض لأحكامها الفقهاء، لأنها لم توجد في زمانهم. فالدَّولة الإسلاميَّة التي قامت بعد عهد الرَّسول قد انقضت بانحسار الخلافة الإسلاميَّة، وسيطرة الاستعمار الغربي على معظم أراضيها، وانقطع العمل بأحكام الشَّريعة فيها، وانقضى بذلك عقد الذِّمة نفسه. وقد شارك أبناء الشُّعوب - مسلمين وغير مسلمين - في انتزاع الاستقلال من المستعمر، فخاض الفريقان معاً نضال التَّحرير، وضحّوا من أجله، وبالتَّالي فإن الدَّولة الإسلاميَّة القائمة اليوم تضم الجميع على أساس المواطنة والولاء للوطن وليس للجزية مكان في أصول هذه الدَّولة[٤٣].

ومن جهة أخرى صدر كتاب بعنوان "هموم الأقباط" يورد

---

٤١ ـ بعد ذلك بعشر سنوات يدلي مصطفى مشهور مرشد عام الإخوان المسلمين بحديث لصحيفة الأهرام يقول فيه إنه على الأقباط أن يدفعوا الجزية كبديل عن عدم التحاقهم بالجيش، نظراً إلى أن جيش الدَّولة الإسلاميَّة هو عماد الدَّولة. ولو حارب دولة مسيحية، فيمكن أن ينحاز المسيحيون الذين في صفوفه إلى جيش الأعداء.

انظر: سامح فوزي، هموم الأقباط، مرجع سابق، ص ١٤٠

وإن قراءة مدققة لموقف الأقباط من الحملات الصَّليبيَّة يرد على هذا الكلام.

٤٢ ـ سامح فوزي، هموم الأقباط، مرجع سابق، ص ١٣٦

٤٣ ـ د. محمد سليم العوا، الأقباط والإسلام، حواء ١٩٨٧م. مقتبس عن: سامح فوزي، هموم الأقباط، مرجع سابق، ص ١٣٧، ١٣٨

حصراً أولياً لـ "همومهم"، بلغ خمسة وعشرين "هماً"[٤٤] هي في معظمها "هموم هذه الحياة".

وهنا يلزم القول - وهو ما سبق أن ذكره المفكر الكبير الدكتور فرج فوده[٤٥] - إن تبني بعض الأقباط لبعض المطالب السِّياسيَّة لا ينطلق من عقيدة دينيَّة، بل ينطلق من مفهوم حقوق الإنسان في العالم المعاصر. وبمعنى آخر فإن موقفهم ينطلق من أرضية سياسيَّة وليس من أرضيَّة دينيَّة.

وما يؤكد المقولة السابقة هو أنه لو كان كتاب "هموم الأقباط" ينطلق من أرضية دينيَّة، لبات الكلام قاصراً، لأن الرَّب يقول: «احترزوا لأنفسكم لئلا تَثقُل قلوبكم في ... هموم الحياة فيصادفكم ذلك اليوم بغتة. لأنه كالفخ يأتي على جميع الجالسين على وجه كل الأرض. اسهروا إذاً وتضرعوا في كل حين لكي تُحسبوا أهلاً للنجاة من جميع هذا المزمع أن يكون، وتقفوا قدام ابن الإنسان» (لوقا ٢١:٣٤- ٣٦).

لأن هموم المسيحيين عموماً من الوجهة الدِّينيَّة - وهي الأهم - هي: ضعف الإيمان، فتور المحبة لله والنَّاس، السَّعي نحو المتكآت الأولى، عدم الرِّضى بالصَّليب والألم، التَّكالب على مباهج الحياة، الهروب من وصية الإنجيل، الفتور في الصَّلاة والعبادة، إرضاء النَّاس على حساب

٤٤ـ سامح فوزي، هموم الأقباط، مرجع سابق، ص ٥٩

٤٥ـ من مواليد الزرقا محافظة دمياط في ٢٠ أغسطس سنة ١٩٤٥م، وفي ٨ يونيو سنة ١٩٩٢م سقط فرج فوده شهيد الوطن والحق والواجب برصاص ثلاثة من الإرهابيين من جماعة الجهاد، فرَّ أحدهم ومات الآخر في السجن، ولم تثبت إدانة الثالث بسبب شهادة أحد الشيوخ ضد فرج فوده. وكان اغتيال المفكر الكبير ضمن موجة اغتيال بعض رموز الفكر في مصر مثل الأستاذ مكرم محمد أحمد في منتصف الثمانينيَّات، والأديب العالمي الأستاذ نجيب محفوظ.

رضى الرَّب، عدم وجود مخافة الله، التَّباهي بالمراكز والمتكآت المرموقة، عدم الشُّكر على كل شئ، النكوص عن السَّعي نحو القداسة، تفضيل ما للجسد على ما للرُّوح، عدم تسليم الحياة بكليتها للمسيح، عدم الاكتفاء بالرَّب، مشابهة أهل العالم ... الخ. وفي اختصار هل المسيح له المجد هو هدف حياتنا، أم أنه وسيلة لأغراض أخرى؟. هذه هي الهموم الدينيَّة لأي مسيحي عموماً.

أبرز ملامح عصر البابا شنوده الثَّالث

يصعب علينا أن نوجز هنا أبرز ملامح عصر البابا شنوده الثَّالث، لأن ما شهدته الكنيسة القبطيَّة في طفرات في هذه الفترة تحتاج إلى كتاب قائم بذاته، لا يقل حجماً عن الكتاب الذي بين يديك، ولكننا هنا نلقي بعض الضَّوء فقط على أبرز هذه الملامح.

• أول لائحة للمجمع المقدَّس للكنيسة القبطيَّة

في يونيو سنة ١٩٨٥م صدرت أوَّل لائحة للمجمع المقدَّس للكنيسة القبطيَّة في كل تاريخه. وقد ورد نص اللائحة في الكتاب الوثائقي الذي أصدره المجمع المقدس سنة ١٩٩٦م بمناسبة اليوبيل الفضي لقداسة البابا، وهي أوَّل بادرة في تاريخ الكنيسة القبطيَّة والمجمع المقدَّس والمكتبة القبطيَّة أن يصدر المجمع المقدَّس سجلاً للمواضيع الكثيرة التي تعرَّضت لها قرارات المجمع، والوثائق المنشورة والملاحق المرفقة. أما لائحة المجمع المقدَّس التي ضمَّها هذا الكتاب فتتكوَّن من سبعين مادة ومن بين بنودها:

- المجمع المقدَّس هو السُّلطة الكهنوتيَّة العُليا في الكنيسة القبطيَّة

الأرثوذكسيَّة، وتشمل سلطته الإكليروس وكل الشَّعب (مادة ٤).
– المجمع المقدَّس هو السُّلطة التَّشريعيَّة العُليا في الكنيسة، وله أن يسن قوانين للكنيسة، مما يتَّفق مع الاحتياجات الجديدة للكنيسة (مادة ٨).
– المجمع المقدَّس هو المسئول الأعلى عن الإيمان والعقيدة، وله أن يفسِّر قواعد الإيمان بما لا يتعارض مع التَّسليم الكنسي الثَّابت (مادة ١٠).
– المجمع المقدَّس هو المرجع الأوَّل في طقوس الكنيسة (مادة ١١).

وقد تشكل للمجمع المقدس ثماني لجان هي:
- لجنة الإيمان والتَّعليم.
- اللّجنة التَّشريعيَّة.
- لجنة شؤون الإيبارشيَّات.
- لجنة الطقوس الكنسيَّة.
- لجنة العلاقات الكنسيَّة.
- لجنة العلاقات العامة.
- لجنة المشروعات الكنسيَّة.
- لجنة شؤون الأديرة.

في سبتمبر سنة ١٩٨٩م افتُتحت أوَّل كلية إكليريكيَّة قبطيَّة في أمريكا، وفي نفس العام افتُتح أوَّل دير قبطي في أمريكا، وهو دير القدِّيس الأنبا أنطونيوس بكاليفورنيا.

• خدمة الكنيسة القبطيَّة في أفريقيا

امتد النَّشاط الكرازي والرُّوحي للكنيسة القبطيَّة ليشمل بلاد النوبة والسودان والخمس مدن الغربية وإثيوبيا[٤٦]، وست دول أفريقية هي كينيا - زامبيا - زيمبابوي - ناميبيا - ساحل العاج - وجنوب أفريقيا، حيث صار للكنيسة القبطيَّة في نهاية القرن العشرين في هذه الدُّول الأفريقيَّة

٤٦- سبق أن عرضنا للخمس مدن الغربية، ونرجئ الحديث عن كنيسة أثيوبيا لكتاب آخر، وبعد قليل نلقي بعض الضوء على بلاد النوبة، والتي ارتبط اسمها حتى اليوم بأحد ألقاب بطريرك الإسكندرية.

الست ثلاثون كنيسة، بكرازة نيافة الأنبا أنطونيوس مرقس أسقف عام شؤون أفريقيا، والكهنة والخدام الأفارقة المعاونين له(٤٧).

ففي يناير سنة ١٩٩٤م قام قداسة البابا شنوده الثَّالث برحلة إلى أفريقيا زار فيها مركز مار مرقس القبطي في جوهانسبرج، ثم زار الأقباط في زامبيا حيث كاتدرائيَّة القدِّيس مار مرقس في لوساكا العاصمة. ثم زار كينيا حيث المركز القبطي في نيروبي، واجتمع مع أبنائه هناك. ولقد بدأت خدمة الكنيسة القبطيَّة لأفريقيا مبكِّرة. وفي عصرنا الحديث بدأت الخدمة لشعب كينيا سنة ١٩٧٦م(٤٨)، ولشعب زامبيا سنة ١٩٨٤م، ولشعب زيمبابوي سنة ١٩٨٨م، ولجنوب أفريقيا سنة ١٩٩٢م(٤٩). وحتى أواخر سنة ١٩٩٤م، أصبح للكنيسة القبطيَّة كنائس أخرى في ناميبيا.

ولقد استقبلت الكنيسة القبطيَّة بعثات أفريقيَّة للدِّراسة لأوَّل مرَّة في

٤٧- في هذا الصدد لا ننسى الدكتور زاهر رياض (١٩٠٨ - ١٩٨٠م)، رائد الدراسات الأفريقية في مصر، وكان مدرساً للتاريخ بمعهد الدراسات الأفريقية بجامعة القاهرة منذ سنة ١٩٥٦م، كما عمل محاضراً بجامعة توبنجن بألمانيا.

٤٨ـ يبلغ مجموع سكان كينيا سنة ٢٠٠٠م، حوالي ٣٥ مليون نسمة، ونسبة المتعلمين منهم ٦٩ %. يدين ٢٦ % من السكان بالكاثوليكية، ١٩ % بالبروتستنتية، ١٩ % بـ Croyances Trad.، ١٨ % بالمسيحية الأفريقية (أي التي تتبع كنيسة الإسكندرية)، ٧ % أنجليكان، ٦ % إسلام، ٥ % ديانات أخرى.

٤٩ـ كانت الكنيسة القبطية قد بدأت رعاية روحية لجنوب أفريقيا ونيجيريا منذ سنة ١٩٤٨م، برسامة مطران لجنوب أفريقيا ونيجيريا في سنة ١٩٥٠م، لكن الخدمة توقفت بعد فترة حتى استعادت نشاطها من جديد في سنة ١٩٩٢م.

أصبح الرئيس مانديللا أول رئيس أسود للبلاد بعد ٣٤٢ سنة من هيمنة الأقلية البيضاء، وكان الرئيس قد سُجن لمدة ٢٧ سنة لمناضلته ضد التفرقة العنصرية. ومجموع السكان يبلغ ٥٢ مليون نسمة، نسبة المتعلمين منهم ٧٦ %. وفي جنوب أفريقيا جنسيات عرقية كثيرة، منها الزولو وتشكل ٢٤ % من مجموع السكان، وهناك ١٨ % من البيض، ١٢ % من السود، عدا ستة جنسيات عرقية أخرى. يدين ٧٧ % من السكان بالمسيحية، ٢٠ % بـ Croyances Trad.، ٢ % بالهندوسية، ١ % بالإسلام.

أواخر الستينيّات من القرن العشرين من أوغندا[٥٠] وكينيا لدراسة اللاّهوت.

وهناك مجلس يسمى "مجلس كنائس كل أفريقيا" يهتم بشؤون الكنيسة الأفريقيَّة. وهو يسعى لخدمة الشُّعوب الأفريقيَّة روحياً واجتماعياً، ومركزه في نيروبي. وقد أُنشئ المجلس سنة ١٩٦٢م، وهو يضم غالبيَّة وكبريات الكنائس المسيحيَّة في بلاد أفريقيا. وحتى سنة ١٩٨٣م كان المجلس يضم ١٠٨ كنيسة من ٤٠ دولة تضم نحو ١٢٠ مليون عضو مسيحي.

وقد شهدت القاهرة في فبراير سنة ١٩٨٣م اجتماعات اللّجنة العامة لمجلس كنائس كل أفريقيا. وهذه اللّجنة العامة تأتي في الهيكل التّنظيمي للمجلس في المرتبة الثّانية بعد الجمعيَّة العموميَّة، وهي تضم ٥٥ عضواً وقد حضر اجتماعات اللّجنة العامة حوالي ٤٠ عضواً من كنائس كينيا، مدغشقر، نيجيريا، أوغندا، إثيوبيا، توجو، موزامبيق، مصر، بينين، سيراليون، زائير، بوروندي، زامبيا، الكاميرون، السنغال، السودان، جامبيا، ساحل العاج. ورأس اجتماع اللّجنة الدّائمة بالقاهرة رئيس الأساقفة "ولترماكولو" رئيس مجلس كنائس كل أفريقيا[٥١]. وقد بعث رئيس جمهورية مصر العربيَّة الرَّئيس حسني مبارك رسالة إلى المجلس يرحب فيها بهم قال فيها: "... في مصر نشأت أوّل دعوة للإله الواحد، قادها فرعون مصر أخناتون ..."، وقد استقبل الرَّئيس في قصر العروبة

٥٠ـ عرفت أوغندا المسيحية سنة ١٨٧٧م، عندما وصلت إليها أول بعثة مسيحية من كنيسة إنجلترا. وفي سنة ١٨٧٩م، وصلت بعثة فرنسية مسيحية، وانتشرت المسيحية بسرعة في أوغندا. ويبلغ تعداد المسيحيين فيها ٩٠% من مجموع السكان الذي يبلغ ١٣ مليون نسمة حتى سنة ١٩٨٣م. ولقد جازت أوغندا محنة استمرت ثمانية أعوام (١٩٧١ـ ١٩٧٩م) في فترة رئاسة عيدي أمين، الذي قتل فيها ضمن ما قتل رئيس أساقفة الكنيسة الأوغندية جينان لووم Jenan Luwum.

٥١ـ هو رئيس أساقفة الكنيسة الأنجليكانية في بوتسوانا.

بالقاهرة رئيس المجلس[٥٢] ونائبه وأمين المجلس.

وقد وجَّه قداسة البابا شنوده الثالث خطاب الكنيسة القبطيَّة - وهي الكنيسة المضيفة - في حفل الافتتاح، وألقاه نيافة الأنبا باخوميوس أسقف البحيرة. وكان الاجتماع السَّابق لهذا المجلس في سنة ١٩٧٦م في مدينة الإسكندريَّة.

وفي عيد العنصرة في يونيو سنة ١٩٩٤م قام قداسة البابا برسامة خمسة أساقفة إريتريين للخدمة في إريتريا، وذلك بعد استقلال إريتريا عن إثيوبيا. وفي ٨ مايو - عيد القدِّيس مار مرقس البشير - سنة ١٩٩٨م تم تتويج أول بطريرك لكنيسة إريتريا الأرثوذكسيَّة الشَّقيقة باسم "قداسة البطريرك فيلبس الأوَّل" بيد قداسة البابا شنوده الثالث، فصارت لإريتريا كنيسة مستقلَّة منذ ذلك التاريخ[٥٣].

وفي آخر زيارة لبابا الإسكندرية لجنوب أفريقيا في أوائل سنة ١٩٩٦م تم وضع حجر الأساس لكنيسة مار مرقس ومركز الخدمات الاجتماعيَّة لخدمة شعب الزولو. ويشتمل المركز على جميع التَّخصصات المهنية وفصول للحضانة لرعاية الأطفال ... الخ ويحمل المركز اسم القدِّيسة فيرينا التي قدَّمت نموذجاً يحتذى في العمل الكرازي.

وفي وسط هذا العمل الكرازي لكنيسة مصر في أفريقيا في العصر

٥٢- هو الأسقف "والتر ماكولو" وُلد في جوهانسبرج سنة ١٩٣٥م، درس في كلية لاهوت أسقفية بجوهانسبرج. خدم في بتسوانا سنتي ١٩٦١، ١٩٦٢م. سافر إلى إنجلترا ودرس لمدة عامين في برمنجهام، وتولى خدمة ثلاث كنائس في لندن (١٩٦٤- ١٩٧٥م)، أُختير أسقفاً لبتسوانا سنة ١٩٧٩م، وأسقفاً لأفريقيا الوسطى سنة ١٩٨٠م، ثم رئيساً لمجلس كنائس كل أفريقيا سنة ١٩٨١م.

٥٣- انتقل إلى الأمجاد السماوية في سبتمبر سنة ٢٠٠٢م.

الحديث يشد انتباهنا أوّل كرازة قامت بها كنيسة الإسكندريَّة في أفريقيا في القرن الرابع الميلادي، متمثّلة في كل من مملكتي إثيوبيا والنوبة. فعن الأولى يأتي حديثنا في الجزء الثّالث من سلسلة "الكنائس الشرقيَّة وأوطانها"، والآن نعرض لمملكة النوبة المسيحيَّة، والتي لا يزال اسمها مقترناً بأحد ألقاب بطريرك الإسكندريَّة.

ملحق عن مملكة النوبة

الآثار التي تم اكتشافها في بلاد النوبة قبل أن تغمرها مياه بحيرة السَّد العالي، والموجودة الآن في "متحف النوبة" تؤكّد أن أهل النوبة قد عرفوا مستوى حضارياً مماثلاً للمستوى الذي وصل إليه المصري القديم في عصور ما قبل التاريخ في الفترة من ٤٥٠٠- ٣٠٠ ق م. ومنذ عصر الأسرة الثامنة عشر الذي يوازي القرن الخامس عشر قبل الميلاد، انضمت بلاد النوبة السُّفلى والعليا إلى مصر، وأصبحت جزءاً منها، وتأثّرت بالثّقافة المصريَّة، وأخذت عنها آلهتها، وفي القرن الثامن قبل الميلاد حكم النوبيون مصر، وأشهر فراعنتهم بعنخي وشباكا وطهارقا وثانوت أماني.

وفي زمن البطالمة ظلّت العلاقات وديَّة بين الملوك البطالمة ومملكة النوبيين، كما اهتم الأباطرة في العصر الرُّوماني بالنوبة، ولقد عقد الإمبراطور أغسطس معاهدة مع النوبة تمنحهم الحُكم الذّاتي تحت سيطرة الرُّومان.

ودخلت المسيحيَّة بلاد النوبة في القرن الأوَّل والثاني الميلاديين عن طريق التُّجَّار المصريين كما سبق أن ذكرنا في غير هذا الموضع، وقد وُجدت آثار كنيسة تعود إلى القرن الرَّابع الميلادي في النوبة، مما يشير إلى استقرار المسيحيَّة بها في هذا الوقت المبكّر.

ويذكر الدكتور جودت جبرة أن أوَّل الشَّواهد التَّاريخيَّة لبداية انتشار

المسيحيَّة في النوبة تتمثّل في قيام البابا أثناسيوس الرَّسولي بطريرك الإسكندرية (٣٢٦- ٣٧٣م) برسامة أسقف لفيلة التي أصبحت منذ سنة ٣٦٢م مقراً لأسقفيَّة قبطيَّة. وكانت هناك جالية قبطيَّة في قصر إبريم في عمق النوبة قبل أن تصبح مملكة نوباتيا النوبيَّة مملكة مسيحيَّة[٥٤].

وبعد افتتاح المسلمين لمصر مباشرة، قام واليها عبد الله بن سعد بن أبي سرح بحملة على بلاد النوبة سنة ٦٥١م، وحاصر دنقلة، وعجز عن الاستيلاء عليها بسبب بُعد الشُقة، وقسوة الطبيعة، إلاَّ أنه قبل أن ينسحب أبرم مع حاكمها الصُلح الشَّهير المعروف بـ "البقت[٥٥]"، أو "البقط"، وقد شكّل هذا الصُلح حجر الأساس للعلاقات السِّياسيَّة والتجاريَّة بين البلدين، ونتج عنه أن ظلّت العلاقات السلميَّة قائمة بين مصر الإسلاميَّة والنوبة المسيحيَّة طوال ما يقرب من ستة قرون، أي حتى ظهور دولة المماليك في مصر. وبالرَّغم من أن مصر لم تحاول احتلال النوبة طيلة هذه المدة، فإن تطورات خفيَّة كان من شأنها أن تسارع في تقويض كيان الدَّولة النوبيَّة.

فمنذ القرن التاسع الميلادي، ومع اكتشاف الذّهب والزُمرُد في الصَّحراء الشَّرقيَّة نشطت هجرة القبائل العربيَّة إلى الجنوب. وعندما غزا جوهر الصقلي مصر سنة ٩٦٩م كانت بلاد النوبة تتمتَّع بالاستقلال التَّام في عهد ملكها "جورج الثاني" وكانت المسيحيَّة منتشرة في تلك البلاد انتشاراً كبيراً. وأرسل جوهر الصقلي إلى ملك النوبة رسالة يدعوه فيها

٥٤ـ د. جودت جبرة، مقال بجريدة وطني، الأحد ١٩ ديسمبر سنة ١٩٩٩م.

٥٥ـ البقت: تعريب للكلمة اللاتينية Pactum بمعنى اتفاقية. وكانت تقضي هذه الاتفاقية بتسليم الحكام المسلمين عدداً من العبيد مقابل استلام سلع من النوبة مرغوب فيها، أهمها الحبوب والخمر والمنسوجات القبطية. وظل البقط ساري المفعول قرابة ستمائة عام، وهو يعد ظاهرة فريدة في التاريخ الإسلامي.

إلى الإسلام ودفع الجزية السَّنوية المعروفة بالبقط. وقبل ملك النوبة دفع الجزية، ولكنه اعتذر عن الدُّخول في الإسلام، وقد قبل منه جوهر ذلك. وفي عهد الخليفة العزيز بالله قَبِل البابا فيلوثاؤس (٩٧٩- ١٠٠٣م) البطريرك الثالث والسِّتين للكنيسة القبطيَّة وساطة جورج الثاني ملك النوبة لإعادة العلاقات الدِّينيَّة بين الكنيستين القبطيَّة والإثيوبيَّة بعد انقطاعها زمناً طويلاً.

وكانت المراسيم التي أصدرها الحاكم بأمر الله ضد أهل الذِّمة في مصر سبباً في هجرة كثير من الأقباط إلى النوبة، وبخاصة بعد أن سمح لهم بذلك، فاتجه الكثير منهم إلى أقصى الصَّعيد، وواصل بعضهم السَّير جنوباً حتى وصلوا إلى النوبة واستقروا بها(٥٦).

واشتملت القوانين الصَّارمة التي أصدرها الحاكم بأمر الله سنة ١٠٠٩م ضد أهل الذِّمة على أوامره بمنع سفر الأساقفة المصريين إلى النوبة وإثيوبيا، كما منع إرسال الخطابات السَّنوية لبطريرك الكنيسة المرقسيَّة إلى كنيستي النوبة وإثيوبيا لعدَّة أعوام، وقد ترتَّب على ذلك أن أغلقت تلك الكنائس أبوابها(٥٧).

وفي خلافة المستنصر بالله أرسل ملك النوبة إلى البابا خريستوذولوس (١٠٤٧ – ١٠٧٧م) البطريرك السَّادس والسِّتين للكنيسة القبطيَّة يرجو منه رسامة أسقف للكنيسة النوبيَّة، التي توفى أسقفها، فتم ذلك. وفي سنة ١٠٥٠م أرسل البطريرك اثنين من أساقفة الكنيسة القبطية لتدشين كنيسة بناها الملك سلمون ملك النوبة في بلاده، وبعد انتهاء مهمتهما أرسل معهما

٥٦ـ د. سلام شافعي محمود، أهل الذمة في مصر في العصر الفاطمي الأول، مرجع سابق، ص ٢٨١
٥٧ـ نفس المرجع، ص ١٨٢

مالاً أوصلاه إلى البطريرك[٥٨].

وحرص بدر الجمالي على استمرار العلاقات الوديَّة بينه وبين ملك النوبة. وكان للكنيسة القبطيَّة دائماً أساقفة مصريون في بلاد النوبة. وكان آخر من نعرفه من الأساقفة الأقباط في النوبة هو الأسقف تيموثاوس الذي تمَّت رسامته أسقفاً لغرس وقصر إبريم سنة ١٣٧٢م.

وكانت الكنيسة النوبيَّة من أهم مصادر التَّمويل المادي للكنيسة المصريَّة وبطاركتها، وبخاصة إبان الأزمات الماليَّة التي كانوا يتعرَّضون لها. وكثيراً ما استغلت السُّلطات المصريَّة مركز ونفوذ بطريرك الكنيسة المصريَّة في بلاد النوبة في التَّوصية لدى ملوك النوبة بالمسلمين في بلادهم[٥٩].

وإن كان لابد من الاعتراف باستقلاليَّة الفن النوبي المسيحي، إلاَّ أننا لا ينبغي أن نغفل تأثره إلى حد كبير بالفن القبطي.

والفن النوبي المسيحي هو من أهم مظاهر الحضارة المسيحيَّة في النوبة على الإطلاق. وقد كانت أقدم الكنائس تزدان بعناصر النَّحت المعماري كالأعتاب والأفاريز وتيجان الأعمدة. ومنذ القرن الثامن بدأت الرُّسوم الجداريَّة في الانتشار بصورة مماثلة لما كانت عليه في كنائس مصر القبطيَّة.

ومن أجمل المناظر في كنائس النوبة منظر القدِّيسة العذراء تحمل الطفل يسوع محاطة بالرُّسل، وكان منظر السيِّد المسيح "ضابط الكل" يزين القُبَّة النصفيَّة التي تعلو الحنية، أما منظر الميلاد فكان يصور في الجناح الشَّمالي. وفي منظر الميلاد لم تظهر أسماء الرُّعاة إلاَّ في الفن النوبي،

٥٨ـ نفس المرجع، ص ٢٨٣

٥٩ـ نفس المرجع، ص ١٨٦

فأحدهما اسمه أريناس والآخر اسمه ليكوتس.

ومن خصائص الفن النوبي المسيحي أيضاً تمثيل الثالوث القدُّوس ـ الآب والابن والرُّوح القدُس ـ بشكل ثلاثة وجوه بشريَّة وأسفلها ثلاثة صُلبان، ويفصل بين الصُّلبان والثلاثة وجوه طبقة من السَّحاب. وكان منظر الثلاثة فتية في أتون النَّار من المناظر المحبَّبة في الفن النوبي.

ومن أهم المناظر في كنائس النوبة القديمة صور الملوك التي توضِّح من ناحية استقلال النوبة السِّياسي، وارتباط ملوك النوبة المسيحيَّة بطقوس الكنيسة وشعائرها من ناحية أخرى. وقد احتل عدد من النُّسَّاك المصريين الأقباط مكانة كبيرة في الفن النوبي المسيحي. ومنذ بداية القرن التَّاسع، وخلال القرن النصف الأوَّل من القرن العاشر بدأ فن التَّصوير يتَّخذ ملامحه الخاصة كفن محلي له شخصيَّته المستقلَّة. وفي أواخر القرن العاشر نضجت هذه المدرسة المحليَّة للفن النوبي المسيحي، ومع حلول القرن الثَّالث عشر بدأ مستوى الفن في التَّدهور.

وتعتبر الكتابة في النوبة المسيحيَّة من المشكلات الصَّعبة في دراسة الحضارة النوبيَّة. وقد انتشرت اللُّغة النوبيَّة القديمة وهي لغة أهل البلاد مكتوبة بحروف غالبيتها قبطيَّة إلى جانب حرفين مضافين إليها من اللُّغة المروية، وقد تم إدخال بعض التَّعديلات على الحروف ليصبح النُّطق مطابقاً لمتطلبات اللُّغة النوبية القديمة. وأصبحت اللُّغة اليونانيَّة لغة الشَّعائر والطقوس الأكثر انتشاراً في النوبة المسيحيَّة، إلى جانب اللُّغة القبطيَّة. فعلى سبيل المثال تم تخليد تأسيس كاتدرائيَّة فرس سنة ٧٠٧م في لوحتين إحداها باللُّغة القبطيَّة والأخرى باللُّغة اليونانيَّة. وهناك مئات من شواهد القبور النوبيَّة مكتوبة باللُّغة القبطيَّة، وبعضها باللُّغة اليونانيَّة. وفي بعض الأديرة النوبيَّة كانت اللُّغة القبطيَّة هي اللُّغة الأكثر استخداماً. وقد عُثر

على كتاب صلوات مكتوب كله باللُّغة القبطيَّة ممّا يوضّح نفوذ الإكليروس القبطي في النوبة المسيحيَّة.

ويمكن القول بأن اندثار الكتابة النوبيَّة كان نتيجة لاندثار الدَّولة النوبيَّة، فاللّغة النوبيَّة القديمة وكتابتها تطوَّرت في القرن السَّادس الميلادي مع نشوء الممالك النوبيَّة المسيحيَّة.

واليوم تنتشر لهجات نوبيَّة مختلفة يتكلّمها سكان جبال النوبة بالسودان حيث يعيش حوالي خمسين قبيلة ينتمي أفرادها إلى أصول عرقيَّة ولغويَّة متباينة. وكان آخر كتاب حُرر باللّغة النوبيَّة القديمة في سنة ١٤٨٤م.

أما سبب بداية انهيار مملكة النوبة فقد نتج عن أن العرب الذين نزحوا إلى النوبة قد تزاوجوا مع السُّكّان الأصليين واندمجوا بهم. ثم برز من بينهم قائد لقب بـ "كنز الدَّولة" وهو لقب منحه إياه الخليفة الفاطمي، وقد استقلّت أسرته بالحكم في منطقة الحدود بين مصر والنوبة، فاختل النِّظام وتضعضعت سلطة ملوك النوبة. واندثرت دولة النوبة في أواخر القرن الرَّابع عشر الميلادي.

ويرجع اندثار الدَّولة النوبيَّة إلى ثلاثة عوامل رئيسيَّة وهي:

١- هجرة القبائل العربية إليها.
٢- قيام أسرة بني الكنز في صعيد مصر واستئثارها الشَّامل تقريباً بالحكم هناك من القرن الحادي عشر إلى القرن الرَّابع عشر.
٣- تدخُّل سلاطين المماليك في مصر في شؤون النوبة، وبخاصة في عهد السُّلطان الظَّاهر بيبرس في النصف الثَّاني من القرن الثَّالث عشر للميلاد.

وبعد بناء السَّد العالي أصبح من المحتم أن تغمر مياه بحيرة ناصر خلف السَّد كل أراضي النوبة بما تحمل من آثار قديمة بالغة القيمة، فكانت مبادرة الأثري المصري مصطفى عامر، الذي تبنى في الخمسينيَّات برنامجاً لإنقاذ آثار النوبة، واستجابت منظمة اليونسكو، وتبنت في الستينيَّات حملة دوليَّة لمساعدة مصر على القيام بدورها في الحفاظ على آثارها، وهي الحملة التي كانت تكاليفها أعلى بكثير من تكاليف بناء السَّد العالي نفسه، فقد تكلَّف هذا الأخير ٤٠٠ مليون جنيه، في الوقت الذي بلغت فيه تكاليف نقل معبد أبو سمبل وحده ٣٥ مليون جنيه، وهو معبد واحد من بين ١٨ معبداً تم إنقاذها. وتأسَّست في أوائل الستينيَّات من القرن العشرين "الجمعيَّة الدوليَّة للدِّراسات النوبيَّة[٦٠]"، وتم إنقاذ كل المعابد، حيث تم فكها ونقلها إلى الأماكن الجديدة التي استقرَّت فيها، كما تم إنشاء متحف النوبة بمساعدة هيئة اليونسكو وتم وضع حجر الأساس له في سنة ١٩٨٦م. وفي نوفمبر سنة ١٩٩٧م افتتح رئيس الجمهورية المتحف، والذي يضم ستة أقسام تضم ٢٠ ألف قطعة أثريَّة معروضة داخل ٣٨ فترينة تبدأ بعصور ما قبل التَّاريخ.

وقد عُقد في سبتمبر سنة ٢٠٠٢م في مدينة روما المؤتمر الدَّولي العاشر للدراسات النوبية.

الكنيسة القبطية في الخمس سنوات الأخيرة من القرن العشرين

حدث في أعقاب اتجاه الكنيسة الأنجليكانيَّة في إنجلترا إلى رسامة كاهنات وأسقفات من النِّساء، أن انفصل أحد الأساقفة مع كهنته وشعبه عن كنيسة إنجلترا، وطلب الانضمام إلى الكنيسة القبطيَّة. وفي يونيو سنة ١٩٩٤م رُسم الأسقف الإنجليزي مطراناً باسم سيرافيم. وفي نفس هذا

---

٦٠ ـ رأس هذه الجمعية لمدة ثمانية أعوام الدكتور جودت جبرة.

اليوم - عيد العنصرة - تم ترقية الأسقف الفرنسي الأنبا مرقس مطراناً وهو المسئول عن أعضاء الكنيسة القبطيَّة من أصل فرنسي، وتم ترقية مساعده الأنبا أثناسيوس أسقفاً عاماً.

ومعروف أنه على يد مصر وصل التَّبشير بالمسيحية إلى الجزر البريطانيَّة. وأن نقاط الالتقاء بين الطقسين القبطي والسلتي لازالت تشهد على ذلك حتى يومنا هذا. فقد ذكر ألفريد بتلر A. Butler في مؤلَّفه "كنائس مصر القديمة" أنه يوجد إلى يومنا هذا ببلدة "أوليده ديزرت" بأيرلندا قبور سبعة من الرُّهبان المصريين لا تزال تذكر أسماؤهم في الصَّلاة بكنيسة تلك الجهة.

وفي اليوبيل الفضي لقداسة البابا شنوده الثالث الذي وافق ١٤ نوفمبر سنة ١٩٩٦م امتدت الكنيسة القبطية لتنتشر في كل أنحاء العالم، فإلى جانب إيبارشيات مصر في الوجهين البحري والقبلي، كان هناك أربعة أسقفيَّات عامة هي:

- أسقفيَّة التَّعليم: تأسَّست سنة ١٩٦٢م، وتضم الكليَّة الإكليريكيَّة، ومعهد الدِّراسات القبطيَّة والمعاهد الدِّينيَّة، والجمعيات المشتغلة بالوعظ، ومدارس الأحد.
- أسقفيَّة الخدمات العامة والاجتماعيَّة والعلاقات المسكونيَّة: تأسَّست سنة ١٩٦٢م.
- أسقفيَّة الدِّراسات العُليا والثقافة القبطيَّة والبحث العلمي: تأسَّست سنة ١٩٦٧م.
- أسقفيَّة الشَّباب: تأسَّست سنة ١٩٨٠م.

إلى جانب إيبارشيَّات منتشرة في الشَّرق الأوسط وإفريقيا وأوروبا واستراليا وأمريكا وكندا.

وفي أواخر سنة ١٩٩٦م – وهو اليوبيل الفضي لقداسة البابا شنوده الثَّالث – وصل عدد كنائس المهجر التَّابعة للكنيسة القبطية إلى ١٨٧ كنيسة. والعدد باضطراد مستمر.

ولدى الكنيسة القبطيَّة اليوم ١٨ ديراً:

- دير في الولايات المتَّحدة بكاليفورنيا.
- ديران في استراليا، في ملبورن وسيدني.
- ثلاثة أديرة في أوروبا: في كريفيلباخ في ألمانيا، وميلانو في إيطاليا، ودير في جنيف في سويسرا.
- ديران في أفريقيا، واحد في كل من كينيا، وناميبيا.
- عشرة أديرة في العالم العربي: اثنان في لبنان، اثنان في القُدس الشَّرقيَّة، خمسة في الضِّفة الغربيَّة، واحد في يافا في إسرائيل.

* * *

ونظراً لامتداد الكنيسة الواضح خارج البلاد بدأ المهاجرون الأقباط بعد أن كثر عددهم في المهجر، ولاسيَّما في أمريكا، في متابعة مجريات الأحداث للوطن الأم، والتدخُّل في شؤون البلاد الدَّاخلية بدعوى إنصاف الأقباط والكنيسة القبطيَّة، وهو الأمر الذي رفضته الكنيسة القبطيَّة. فتاريخها يثبت أنها كنيسة وطنيَّة لا تعتمد على أي مساندة خارجيَّة. فعلى امتداد القرون السَّالفة رفضت الكنيسة القبطيَّة أي ارتباط بكنائس أخرى خارج مصر بدعوى الحماية أو التكتُّل، وذلك لسببين:

أولهما: أن الكنيسة القبطيَّة جزء لا يتجزأ من مصر وترابها وشعبها مسلمين ومسيحيين.

وثانيهما: أنها كنيسة متمرِّسة على صنوف الاضطهاد حتى

الاستشهاد، لا يخيفها سيف أو نار أو استبداد. لأنها ليست من هذا العالم رغم أنها تعيش فيه، تزود عنه دون أي أطماع فيه، تحبه دون أن تبتغيه، ولأن مملكتها الحقيقية هي السَّماء فهي لا تسعى لأي مغنم لها فيه. وفي زيارة لقداسة البابا شنوده الثَّالث لأمريكا في سبتمبر سنة ١٩٩٨م أعلن في نيويورك : "إن تدخل أي شخص من الخارج في العلاقة بين الكنيسة والمسئولين المصريين يُعتبر في نظر الكنيسة اعتداء على سيادة مصر الوطن الأم".

وفي سنة ١٩٩٨م وبعد أن زاد الإلحاح داخلاً وخارجاً للتَّخفيف من الصُّعوبات التي تواجه الأقباط سواء في بناء كنائسهم أو فيما لو رغبوا في ترميمها، وهو ما يتطلَّب استصدار قرار جمهوري، كان قرار السيِّد رئيس الجمهوريَّة في بداية العام ذاته بتفويض المحافظين سلطة رئيس الجمهوريَّة في السَّماح بجزئيَّة ترميم الكنائس. وفي ٢٨ ديسمبر من العام التالي أي سنة ١٩٩٩م صدر قرار جمهوري بإنهاء اختصاص المحافظين في ذلك الأمر وإحالته إلى إدارات التَّنظيم والمباني بالمحليَّات.

حالة الأقباط في السَّنوات الأخيرة من القرن العشرين

يمكننا أن نوجز حالة الأقباط في مصر في السِّنين الأخيرة من القرن العشرين طبقاً لما ورد عنهم في التَّقرير الذي أصدرته وزارة الخارجيَّة الأمريكيَّة عن موقف الحريَّات الدِّينيَّة في العالم، والذي جاء فيه عن مصر[٦١]:

إن الدُّستور المصري يكفل حريَّة العقيدة وحق ممارسة الشَّعائر الدِّينيَّة لجميع المصريين ولكن في ظل حدود معينة ترسمها الدَّولة ... وعلى العموم

٦١ـ جريدة وطني، الأحد، ١٠ أكتوبر، سنة ١٩٩٩م.

فإن الأقليَّة غير المسلمة من المصريين تمارس عبادتها بحريَّة تامة ودون مضايقة من الأجهزة الرَّسميَّة المسئولة ...

وكما يكفل الدُّستور المصري حريَّة العقيدة، فإن القانون المدني أيضاً لا يمنع تغيير العقيدة. ولكن في الوقت الذي لا توجد فيه أية عوائق قانونيَّة أمام اعتناق غير المسلم للإسلام ... فإن المسلم الذي يتحوَّل إلى ديانة أخرى قد يواجه عوائق قانونيَّة تتمثَّل في اتهامه بخرق المادة (٩٨ - و) من قانون العقوبات والتي تمنع ازدراء أو سب الأديان السَّماوية، وذلك يعرضه للمساءلة القانونيَّة التي قد تصل إلى القبض عليه واعتقاله بصفة مؤقتة، واستجوابه بواسطة الأجهزة الأمنيَّة، علاوة على الصُّعوبات البالغة التي يواجهها عند محاولته تغيير اسمه أو ديانته في أوراقه الرَّسميَّة.

ومن الملاحظ أن المساواة غير مطلقة في بناء دور العبادة، فبينما لا توجد تشريعات سياسيَّة تتحكَّم في بناء أو تعديل أو ترميم المساجد، مازال فرمان عثماني راجع إلى عام ١٨٥٦ معمولاً به، وبموجبه يلتزم غير المسلمين بالحصول على قرار جمهوري بالموافقة على بناء دار للعبادة قبل الشُّروع في ذلك. كما ينبغي قبل صدور ذلك القرار الجمهوري استيفاء شروط عشرة تتضمَّنها لائحة صادرة عام ١٩٣٤م عن وزارة الدَّاخلية ... وكلها شروط ظلَّت تتحكَّم في بناء وتعديل وترميم دور العبادة غير الإسلاميَّة حتى يناير ١٩٩٨ عندما نقل الرَّئيس مبارك سلطاته في الموافقة على التَّعديلات والتَّرميمات المطلوبة للكنائس إلى المحافظين محتفظاً بسلطاته في الموافقة على بناء الكنائس الجديدة ... وبالرَّغم من ذلك فإن مسار اعتماد الأوراق وصدور الموافقات الخاصة بإنشاء وترميم الكنائس يظل يستهلك الكثير من الإجراءات المضنية والوقت الطَّويل، الأمر الذي يقف قاصراً على تلبية احتياجات المسيحيين، وذلك يتمثَّل في أنه بالرَّغم

من اعتماد الرَّئيس مبارك لجميع الطَّلبات التي قُدِّمت له للموافقة على بناء كنائس والتي بلغ عددها ٢٣٠ كنيسة خلال فترة ولايته، فإن المسيحيين يتضرَّرون من التأخير الواضح - وغير المحدود في بعض الأحيان - الذي تتعرَّض له الطَّلبات لدى الأجهزة المسئولة قبل تقديمها لرئيس الجمهوريَّة للاعتماد ... كما يتضرَّر المسيحيون من أنه في حالات غير قليلة وبعد صدور القرارات الجمهوريَّة بالموافقة على بناء كنائس أو قرارات المحافظين بالموافقة على ترميم وتجديد كنائس، فإن العمل في تنفيذ تلك القرارات ما يلبث أن يتوقَّف أو يتعرَّض للعرقلة من جانب الأجهزة المحليَّة والأمنيَّة ...

وهناك بعض الممارسات التي تعكس مظاهر للتَّفرقة بين المصريين من قبل بعض موظفي الدَّولة، مثل الشُّكوك القائمة في دقَّة النِّسبة الإحصائيَّة الرَّسميَّة لتعداد المسيحيين في مصر بالنسبة لعدد السُّكَّان، والتي يعتقد البعض أنها تقل عن الواقع الفعلي، وكذلك استبعاد الحقبة القبطيَّة من التَّاريخ المصري في المناهج المدرسيَّة، وإهمال النواحي القبطيَّة في المجال الإعلامي، علاوة على ندرة تقلُّد المصريين الأقباط للمناصب القياديَّة والمراكز العُليا في قطاعات عديدة في الدَّولة مثل التَّعليم والقضاء والشُّرطة والجيش والسِّلك الدِّبلوماسي.

ومن الأمور الجديرة بالتَّسجيل أنه قد ظهر في الفترة الأخيرة تيَّار رسمي يهدف إلى تحسين المناخ فيما يخص احترام وحماية حريَّة العبادة والحقوق المتَّصلة بها ... فقد بادرت الدَّولة في يناير ١٩٩٩م بتشكيل لجنة من الأكاديميين والخبراء لمراجعة مناهج التَّاريخ بالمدارس بهدف تعويض القصور في أكثر من حقبة فيها، أهمها الحقبة القبطيَّة والبيزنطيَّة ... بالإضافة إلى قيام التليفزيون المصري والإذاعة - المملوكين للدَّولة - بتوجيه جزء من برامجهما لتغطية مواد ذات طابع قبطي ... كما تلاحظ

انحسار البرامج التي كانت تحمل طابعاً عنصرياً ... وقد خصَّصت الصُّحف القوميَّة مساحات متزايدة لتحرير مواد مسيحيَّة أو للأقلام المسيحيَّة تفوق ما كان مخصَّصاً من قبل ... وساهمت وزارة الثّقافة في تنظيم ندوة دراسيَّة عن الدَّور الوطني للكنيسة القبطيَّة الأرثوذكسيَّة، بينما تساهم وزارة السِّياحة في الوقت الحالي في الجهود المبذولة من أجل تنمية المواقع الأثريَّة الواقعة ضمن مسار العائلة المقدَّسة لدى هروبها إلى مصر ...

وتقوم السيدة الأولى سوزان مبارك برعاية جهود نشر وتنمية برامج القراءة والتَّثقيف التي تدعو للسَّماحة وتقدِّم وسائل المعرفة للجميع وعلى الأخص الفتاة والمرأة المصريَّة(٦٢) ...

وعلى جانب آخر قام وزير الأوقاف الدكتور حمدي زقزوق عام ١٩٩٦م بتشكيل لجنة مناط بها دراسة أوضاع الأوقاف المتنازع عليها والتَّابعة للكنيسة القبطيَّة الأرثوذكسيَّة والتي كان قد تم الاستيلاء عليها تبعاً لقانون الإصلاح الزِّراعي بدءًا من عام ١٩٥٣م، وأسفرت جهود هذه اللّجنة المشتركة بين هيئة الأوقاف المصريَّة وهيئة أوقاف الأقباط الأرثوذكس عن إرجاع حوالي ٨٠٠ فدان من أصل حوالي ١٥٠٠ فدان مستولى عليها ...

أما بخصوص الهجمات الإرهابيَّة التي يتعرَّض لها المصريون المسيحيون فقد راح ضحية تلك الهجمات ثمانية أشخاص في محافظة المنيا خلال عام ١٩٩٨ ولم تسجل أية حالات خلال النصف الأوَّل من عام ١٩٩٩م، والأمر الجدير بالتَّسجيل أن جميع القيادات الرَّسميَّة والإسلاميَّة والوطنيَّة

٦٢- مشروع "مهرجان القراءة للجميع" هو مشروع ثقافي عظيم ترعاه السيدة حرم رئيس الجمهورية منذ أكثر من عشر سنوات. وأصدرت مكتبة الأسرة ١٧٠٠ كتاب (٣٠ مليون نسخة) بأسعار زهيدة، ومن بينها عدة كتب عن الحضارة القبطية وآثارها.

تستنكر وتشجب الهجمات التي يتعرَّض لها المسيحيون على أيدي الإرهابيين، وتظل الدَّولة على إصرارها نحو تعقُّب واعتقال وإدانة هؤلاء الإرهابيين ... (انتهي التقرير).

وفي سنة ١٩٩٨م وطبقاً لقرار من الكونجرس الأمريكي، أُنشئت "لجنة الحريَّات الدِّينيَّة"، لتتبُّع موقف الحريَّات الدينيَّة في العالم، تحت مسمَّيات "حماية الأقليَّات"، و"الحريَّات الدينيَّة"، و"حقوق الإنسان" ... الخ.

ففي فبراير سنة ٢٠٠١م أصدرت وزارة الخارجيَّة الأمريكيَّة التَّقرير رقم (٢٥) لحقوق الإنسان في العالم[٦٣]، وفي ١٩ ورقة منه تحدَّث التَّقرير عن وضع حقوق الإنسان في مصر، وأشار إلى أن تحسناً واضحاً في الأوضاع الدَّاخليَّة بدأ يسود المجتمع المصري بسبب تراجع نشاطات الجماعات الإرهابيَّة، حيث تم الإفراج عن ١٣٠٠ معتقل خلال سنة ٢٠٠٠م. وأشار التَّقرير أيضاً إلى حادثة الكُشح كنموذج للاحتكاكات غير المبرَّرة التي تحدث بين المسلمين والمسيحيين، مما دفع لجنة الحريَّات الدِّينيَّة بالكونجرس الأمريكي إلى تنظيم زيارة لمصر للوقوف على الحقيقة.

وبالفعل وصل أعضاء اللَّجنة إلى القاهرة في مارس سنة ٢٠٠١م ضمن جولة في عدَّة دول أخرى بالمنطقة. وهي لجنة مستقلَّة، ترفع بعد عودتها تقريراً إلى الكونجرس والرَّئيس الأمريكي. وتقابل أعضاء اللَّجنة مع قداسة البابا شنوده الثَّالث، وفضيلة الدكتور سيِّد طنطاوي شيخ الجامع الأزهر، وبعض الشَّخصيَّات المصريَّة العامة. واندهش أعضاء اللَّجنة من اتفاق الأقباط والمسلمين المصريين على رفض مهمتها. بل إن ردود الفعل الغاضبة أثارت دهشة الأعضاء فرفضوا الإجابة عن أية أسئلة في وسائل

٦٣- أو بتعبير أدق في الـ ١٩٥ دولة التي تتلقى معونات أمريكية.

الإعلام المحليَّة.

وفي يوم ٧ ديسمبر سنة ٢٠٠٥م أصدر الرَّئيس حسني مبارك قـــراراً جمهورياً رقم ٢٩١ لسنة ٢٠٠٥م[٦٤] بتفويض المحـــافظين في التَّـــرخيص للطَّوائف الدِّينيَّة المسيحيَّة بهدم كنيسة وإقامة كنيسة محلّها في ذات موقعها وإقامة بناء أو إجراء تعديلات أو توسُّعات في كنيسة قائمة. وهي خطوة على الطَّريق.

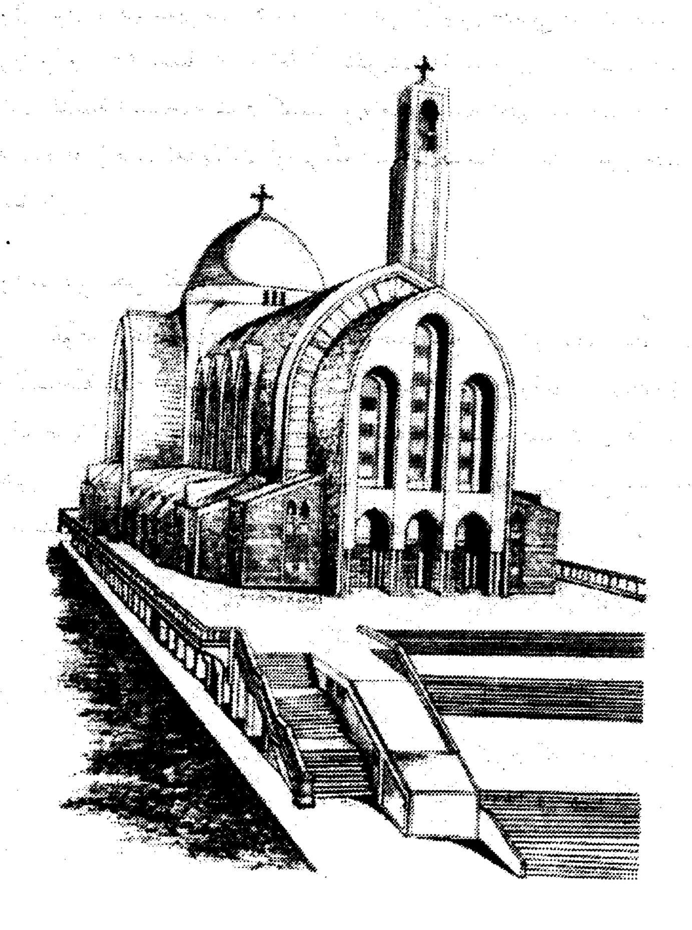
وفيما يلي نص القرار:

- "يفوَّض المحافظون، كل في دائرة اختصاصه، في التَّرخيص للطَّوائف الدِّينيَّة المسيحيَّة بهدم كنيسة وإقامة كنيسة محلها في ذات موقعها، وبإقامة بناء أو إجراء تعديلات أو توسُّعات في كنيسة قائمة. ويجـــب البـــت في طلـــب الترخيص – بعد أخذ رأي الجهات المعنيَّة – خلال ثلاثين يوماً من تـــاريخ تقديمه مشفوعاً بالأوراق اللازمة. ولا يجوز رفض الطَّلب إلاَّ بقرار مسبَّب".

- "يكون ترميم أو تدعيم منشآت كنيسة قائمة بموجب إخطار كتابي من مسئولي الكنيسة إلى الجهة الإداريَّة المختصَّة بشئون التَّنظيم في كل محافظة".

وإن المرء ليعجب من أن تظل كنيسة مصر ـ اليوم كما الأمـــس ـ حريصة أن تحفظ ثوب وطنيَّتها نقياً، ففاح أريج ريادتها في هذا المضمار، وبلغ شذاه إلى أقصاء الأرض.

٦٤- هذا القرار يلغي قرار رئيس الجمهورية رقم ٤٥٣ لسنة ١٩٩٩م.



البَاب الثّاني

ركائز كنسيَّة في كنيسة مصر

الفَصل الأوَّل

اللُّغـــــة القبطـــيَّة

تقهقرت اللُّغة اليونانيَّة في مصر مع رحيل الرُّومان إلى القسطنطينيَّة، وظلَّت اللُّغة القبطيَّة لغة الصِّراع الدَّائر بين العرب والشَّعب القبطي. فقد ساعد الفتح العربي أولاً على إحياء اللُّغة القبطيَّة وذلك على حساب اللُّغة اليونانيَّة التي كانت اللُّغة الرَّسميَّة للبلاد منذ عهد البطالسة. فالدروس الدِّينيَّة التي كانت تُقرأ باليونانيَّة وتُشرح بالقبطيَّة، صارت لا تُقرأ إلاَّ باللُّغة القبطيَّة. كذلك نجد أن البلاد والأقاليم التي كانت تغلب عليها الأسماء اليونانيَّة، أصبحت تعرف بأسمائها القبطيَّة التي ترجع إلى الأسماء المصريَّة القديمة[1]. على أن هذا كله كان بعثاً لقديم لم يندثر تماماً، فإن اللُّغة القبطيَّة أو الأسماء المصريَّة كانت قد غُلبت على أمرها حيناً من الدَّهر، ثم استعادت مكانتها بعد الفتح العربي[2].

وبعد الفتح العربي لمصر، وفي الوقت الذي حلَّ فيه العرب محل البيزنطيين بمصر، كانت اللُّغة القبطيَّة التي قاومت طغيان اللُّغة الإغريقيَّة أي اليونانيَّة، هي لغة التَّخاطب بين سُكَّان البلاد عامة، بل إن بعض العرب تعلَّموا القبطيَّة بل تخاطبوا بها كالقاضي خير بن نعيم وغيره، وإن الثلاثمائة برديَّة اليونانيَّة القبطيَّة التي نشرها العالم كرام Crum سنة ١٩١٠م والتي يرجع تاريخها إلى سنة ٦٩٨ـ ٧٢٢م تدل على استمرار استخدام اللُّغة اليونانيَّة حتى هذا الوقت.

١ـ فمثلاً نجد اسم أخميم بدلاً من بانوبوليس Panopolis، وأهناسيا بدلاً من هيراكليوبوليس Héracléopolis، والأشمونين بدلاً من هرموبوليس ... الخ.

٢ـ د. سيدة إسماعيل كاشف، مصر في فجر الإسلام، مرجع سابق، ص ١٩٠، ١٩١

أما أسرى القبط من الرِّجال والنِّساء الذين سباهم عمرو بن العاص ووزَّعهم كجوار وعبيد على قادة جيشه ورجاله المقربين، فقد اضطرهم ظروف العبوديَّة إلى القيام بدور مزدوج، حيث علّموا الأقربين منهم الكثير من المفردات القبطيَّة، كما اضطروا إلى تعلُّم وإتقان اللُّغة العربيَّة، لغة السَّادة المالكين لأجسادهم، مثل عبد الله بن عبد الرَّحمن، وهو أحد الذين سباهم العرب في قرية بلهيب، وقد أصبح عريف الموالي، أو رئيس العبيد بعد أن اعتنق الإسلام وتعلَّم اللُّغة العربيَّة.

وكما حدث مع عدد من نساء (سلطيس) اللاتي اتخذهن العرب جوارٍ وإماء لهم، بعد أن استباح عمرو مدينة سلطيس ووزَّع نساءها على قادة جيشه، أرسل بالجزء المتبقي منهن إلى بلاده البعيدة في مكة والمدينة واليمن. ومن أبرز أبناء المصريَّات أو القبطيَّات الأسيرات عبد الرَّحمن بن معاوية بن حديج ابن القائد العربي المعروف معاوية بن حديج الذي لعب دوراً كبيراً في توطيد دعائم الدَّولة الأمويَّة بمصر. وهناك شواهد تاريخيَّة على معرفة ابنه عبد الرحمن للُّغة القبطيَّة التي تعلَّمها من أمه القبطيَّة - إحدى سبايا سلطيس - فيروي الكندي في خبر خروج العلويين بالفسطاط سنة ١٤٥هـ أن بن حديج - عبد الرَّحمن - وقف على الباب الذي ناحية بيت المال، فكلَّم خالد بن سعيد وهو فوق ظهر المسجد كلمة قبطيَّة، مما يدل معرفة الاثنين بهما، وربما آخرين أيضاً[٣].

وبدأ العرب بعد فتح مصر بأقل من نصف قرن يتَّجهون إلى تعريب

٣ـ هناك شواهد تاريخية على رواج اتخاذ قادة آخرين لجوارٍ قبطيات، وإنجابهم منهن أيضاً مثل: عبد الرحمن جعفر بن ربيعة، الذي أنجب ابنه عمران من جاريته السلطيسية. وعقبة؛ الذي أنجب ابنه عياض وابنه عبيدة من جاريتين قبطيتين على ما يبدو. وخارجة بن حذاقة القرشي؛ الذي أنجب ابنه عون من جاريته السلطيسية ... وغيرهم.
انظر: سناء المصري، هوامش الفتح العربي، حكايات الدخول.

البلاد، وإلى جعل اللُّغة العربيَّة لغة رسميَّة، ذلك لعدم معرفتهم باللُّغة القبطيَّة. ويبدو أن غموض اللُّغة القبطيَّة بالنسبة للعرب، وعدم فهمهم لها في العموم، وممارسة القبط لشتى طقوس حياتهم اليوميَّة بها، جعل العرب يقلقون من حالة الإبهام المسيطرة عليهم، ولذا كانوا يلجأون إلى كل وسائل التَّرجمة المتاحة لنزع ستار الإبهام المستَغلق بينهم وبين الشَّعب الآخر. فيذكر الأنبا ساويرس أن الأصبغ بن عبد العزيز بن مروان (٦٥- ٨٦هـ/ ٦٥٨- ٧٠٥م) يأمر بترجمة الإنجيل وعدَّة كتب دينيَّة مسيحيَّة أخرى إلى اللُّغة العربيَّة، ولهذا الغرض قرَّب إليه شماساً يعرف اللُّغة العربيَّة، يُدعى بنيامين، وذلك ليعرف المسلمون إذا كان في هذه الكتب ما يمس الدِّين الإسلامي بسوء. مما يعني أن هذا الشمَّاس قد أجاد اللُّغة العربيَّة حتى استطاع ترجمة الإنجيل، وكُتب الكيمياء، ومختلف الكُتُب الأخرى للأمير المتوجِّس شراً من الأقباط.

وبعد تلك الحادثة بسنة واحدة كان قرار تعريب الدَّواوين على يد عبد الله بن يربوع الغزاري من أهل حمص، إذ كانت الدَّواوين في البلاد المفتوحة حتى مجئ عبد الملك بن مروان تُكتب بلغات البلاد المحليَّة، فكانت تُكتب باليونانيَّة في الشَّام، وبالبهلويَّة في العراق والأمصار الشَّرقيَّة، وبالقبطيَّة واليونانيَّة في مصر. وكان ذلك طبيعياً لقلَّة خبرة العرب بأمور الإدارة، ولأن الكتابة فن خاص ...

أما في مصر فقد بُدئ في تعريب دواوينها في خلافة الوليد بن عبد الملك وذلك في سنة ٨٧هـ (٧٠٦م) في ولاية عبد الله بن عبد الملك. وهكذا أصبحت الدَّولة من الناحيَّة السِّياسيَّة عربيَّة بمعنى أكمل. وفي السَّنوات الأولى زاد اهتمام بعض الأقباط بتعلُّم اللُّغة العربيَّة، وخصوصاً العاملين بديوان المحاسبة، حرصاً على وظائفهم وموقعهم كهمزة وصل بين

القيادة العربيَّة وشتَّ القرى القبطيَّة، ولذلك فإننا نلاحظ أن تعريب الدَّواوين كان يخص المركز بالأساس، أما (موازيت) القرى، أي السُّلطة القرويَّة، فقد ظلَّت تتعامل باللُّغة القبطيَّة حتى زمن متأخِّر جداً.

فأصبحت اللُّغة العربيَّة لغة الدَّواوين، ولغة الإدارة، فضلاً عن أنها لغة الثَّقافة. بالإضافة إلى كونها لغة الدِّين[٤]"". ولم تحل اللُّغة العربيَّة محل القبطيَّة بهذه البساطة، ففي الوقت الذي كانت الفئات العليا من القبط تُقبل على تعلُّم لغة الفاتح لاستمرار المحافظة على مصالحها، كانت قاعدة الشَّعب القبطي معفاة من هذه الحاجة امتثالاً للأمر الواقع في القرى المغلقة والمجهدة. وكان تعريب مصر بطيئاً في بدايته، فالبابا ميخائيل (٧٢٨ـ٧٥٢م) تقدَّم بطلب إلى الوالي عبد الملك بن مروان مكتوباً باللُّغة القبطيَّة، ومترجماً إلى اللُّغة العربيَّة، وإذ لم يكن البابا يعرف كلمة واحدة عربية فقد اضطر للاستعانة بمترجم للتَّحدُّث مع الخليفة مروان الثَّاني. لكن في خلال القرن الثَّامن الميلادي ظهر تدهور اللُّغة القبطيَّة ظهوراً بيِّناً، وظلَّ في اضطراد سريع زهاء القرن التَّاسع.

وبعد القرن التَّاسع طغت اللُّغة العربيَّة على اللُّغة القبطيَّة في الكتابة، وكان أوَّل من ألَّف بالعربيَّة من الأقباط هو الأنبا ساويرس ابن المقفع أسقف الأشمونين.

ويوجد في دير سانت كاترين ٦٠٠ مجلد من المخطوطات العربيَّة يرجع بعضها إلى القرن الثَّامن الميلادي، وتُعد أقدم الكُتُب المسيحيَّة العربيَّة الموجودة في العالم، إذ أنها تزيد بمائة سنة عن أقدم الكُتُب العربيَّة المسيحيَّة الموجودة بالمتحف البريطاني التي يرجع تاريخها إلى القرن التاسع فقط، ولكن اتضح أن مخطوطات دير سانت كاترين خُطت في سوريا لا

---

٤ ـ د. سيدة إسماعيل كاشف، مصر في عصر الولاة، ص ١١٩، ١٢٠

في مصر[٥]. ولكنني وجدتُ بالبحث أن أقدم مخطوط كُتب بالعربية في مصر يعود إلى القرن السَّابع، وهو عِظة قالها أنبا ساويرس أسقف مدينة قفط، قالها في مرضه الأخير[٦].

وهناك نص شهير عند الأنبا ساويرس أسقف الأشمونين (القرن العاشر) يصرح فيه بأن اللُّغة القبطيَّة كادت تندثر في جميع أنحاء مصر، وأن جزءاً كبيراً من السُّكَّان لا يعرفون اليونانيَّة أو القبطيَّة.

واستمر الأقباط بعد تعريب الدَّواوين يتكلَّمون لغتهم القبطيَّة ويكتبونها حتى أواخر القرن العاشر الميلادي. وظلَّ البعض يتحدَّثون القبطيَّة إلي النصف الثَّاني من القرن الحادي عشر[٧].

وما لبثت اللُّغة القبطيَّة أن تلقَّت ضربة قاسمة على يد الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله (٩٩٦- ١٠٢١م) الذي أصدر أوامر مشدَّدة بإبطال استخدامها نهائياً في المنازل وفي الطُّرقات العامة أيضاً ومعاقبة كل من يستعملها بقطع لسانه. كما ضيَّق على الأولاد والبنات والسيِّدات في البيوت بالأمر بقطع لسان كل سيِّدة تتكلَّم بها مع أولادها وأطفالها. واقتدى بالحاكم الطَّاغية في محاربة اللُّغة القبطيَّة كثيرون ممن جاءوا بعده. وهكذا بات استخدام اللُّغة العربيَّة محصوراً داخل جدران الكنائس والأديرة[٨]. وإزاء هذا الحصار الشَّديد للُّغة والتَّضييق على الأقباط إلى هذا الحد أمر البابا غبريال بن تريك (١١٣١- ١١٤٥م) في قانونه العاشر أن

٥- مرقس سميكة باشا بمساعدة يسى عبد المسيح أفندي، فهارس المخطوطات القبطيَّة والعربيَّة الموجودة بالمتحف القبطي والدار البطريركيَّة وأهم كنائس القاهرة والإسكندرية وأديرة القطر المصري، الجزء الأول، القاهرة ١٩٣٩م، ص ٢٥

6_ Bulletin de la Société d'Archéologie Copte (BSAC), t. V, 1939, p. 165.

٧- سير البيعة المقدسة، المجلد الثاني، الجزء الثالث، مرجع سابق، ص ١٨٩

٨- وطنية الكنيسة القبطية وتاريخها، بدون مؤلف، نيويورك، ١٩٨٩م.

يعلِّم الآباء أولادهم في البيوت كل صباحٍ دروساً في اللُّغة العربيَّة. وأمرٍ أيضاً أن تُتلى القراءات الكنسيَّة باللُّغة العربيَّة في الكنيسة بعد قراءتها باللُّغة القبطيَّة.

وتقولِ الدكتورة سيدة إسماعيل كاشف: لسنا نعرف بالضَّبط متى أصبحت اللُّغة العربيَّة هي لغت التَّخاطب بين المصريين. ففي عهد الخليفة المأمون الذي أصبح فيه الشَّعب المصري يدين معظم أفراده بالإسلام، كانت اللُّغة القبطيَّة لا تزال لغة التَّخاطب بين المصريين. ويدلنا على ذلك ما ذكره المقريزي في كلامه عن زيارة المأمون لمصر إذ يقول: "وكان لا يمشي أبداً إلاَّ والتَّراجمة بين يديه من كل حبس" (٩).

وتدل كتابات المقريزي في أوائل القرن الخامس عشر على أن اللُّغة القبطيَّة كانت لغة حية آنذاك. وعندما يتحدَّث عن الأديرة القريبة من أسيوط – على سبيل المثال – يؤكِّد أن الرُّهبان هناك يستخدمون اللَّهجة الصَّعيديَّة، وأن النِّساء والأطفال في مصر العُليا لا يتحدَّثون سوى اللَّهجة الصعيديَّة. ويذكر كذلك عن "درنكة" أن سكانها مسيحيون يتحدَّث عظماؤهم وبسطاؤهم القبطيَّة ويشرحونها بالعربيَّة. وتحدَّث أيضاً عن عادة ربما ما زالت موجودة في إسنا، وكانت موجودة في أواخر القرن التَّاسع عشر، وهي أن المسيحيين كانوا يشاركون أفراح المسلمين حيث يقودون موكب العريس خلال الشَّوارع وهم يردِّدون نصوصاً وأمثالاً باللَّهجة القبطيَّة الصَّعيديَّة.

ويذكر نيل Neal في مؤلَّفه "الكنيسة الشَّرقيَّة" (الجزء الأوَّل ص ١١٨)، عن مطرانيَّة في جنوب مصر أن "أقباطها متعلِّمون أفضل من

٩ـ د. سيدة إسماعيل كاشف، مصر في فجر الإسلام، مرجع سابق، ص٢٥٩، ٢٦٠

غيرهم في سائر أنحاء الكرازة، وأنهم جميعاً يتحدَّثون القبطيَّة بينما لا يزيد عدد الذين يفهمونها في القاهرة عن اثنين" ولعله كان مبالغاً في ذلك.

ويقول المقريزي أيضاً أن نصارى قرى الصَّعيد الأعلى (حتى القرن الخامس عشر) كانوا يتكلّمون القبطي الصَّعيدي، وأن نساء نصارى الصَّعيد وأولادهم لا يكادون يتكلّمون إلاّ القبطيَّة الصعيديَّة، وأن لهم معرفة أيضاً باللُّغة الرُّوميَّة أي اليونانيَّة[١٠].

وفي الصَّعيد كانت هناك أيضاً لهجات قبطيَّة فرعيَّة مثل اللّهجة الأخميميَّة التي كانت تُستعمل في أخميم واللّهجة الأسيوطيَّة التي كانت تُستعمل في أسيوط، واللّهجة الفيوميَّة التي كانت تُستعمل في الفيوم، أما في شرق الدِّلتا فقد كان القبط يتحدَّثون باللّهجة البشموريَّة[١١].

ويقول العلامة ماسبيرو في محاضرة له عن "صلة المصريين الأقدمين بالمصريين الحاليين" والتي ألقاها في القاهرة سنة ١٩٠٨: "من المؤكّد أن سُكّان صعيد مصر كانوا يتكلّمون ويكتبون باللُّغة القبطيَّة في السِّنين الأولى من القرن السَّادس عشر، في أوائل حكم الأتراك ...".

ولكن ليس معنى هذا أن اللُّغة القبطيَّة اندثرت أو زالت نهائياً، وإنما بقيت محصورة في نطاق ضيِّق، ولا زالت تدرَّس حتى اليوم. وعموماً يمكننا القول أن اللُّغة العربيَّة قد سيطرت في المدن والسُّهول الكبيرة، بينما بقيت اللُّغات القديمة المحليَّة سائدة في الجبال زمناً طويلاً. وفي القرن السَّابع عشر ماتت اللُّغة القبطيَّة تماماً.

---

١٠ ـ د. سلام شافعي محمود، أهل الذمة في مصر في العصر الفاطمي الأول، مرجع سابق، ص ١٦٧

١١ ـ د. سلام شافعي محمود، أهل الذمة في مصر في العصر الفاطمي الأول، مرجع سابق، ص ١٦٧

وعوَّض الشَّعب المصري هذا بفرض شخصيَّته على العربيَّة، فلم يكد يمر على اللُّغة العربيَّة في مصر بضعة قرون حتى تأثَّرت بالمصريين، ولازالت اللُّغة العاميَّة التي يتكلَّم بها المصريون تحوي مئات من الكلمات ذات الأصول القبطيَّة، بل ذات المنطوق القبطي الخالص(١٢). وإن كثيراً من الألفاظ في اللُّغة العامية المصريَّة ألفاظاً قبطيَّة. وليس الألفاظ فحسب بل أيضاً طرائق التَّعبير والمصطلحات وتركيب الجمل. فالنفي والاستفهام في العاميَّة يجري على أسلوب اللُّغة القبطية فيهما. كما يطابق نطق بعض الحروف العربيَّة نفسها نطقها في القبطيَّة، وكذلك الحركات.

ومازالت العاميَّة المصريَّة هِي لغة الشَّعب، لغة الكثرة، لغة الحياة اليوميَّة، فِيها الكثير من اللُّغة المصريَّة القديمة، واللُّغة القبطيَّة التي عاصرت دخول اللُّغة العربيَّة، والتي هي امتداد اللُّغة الهيروغليفيَّة. وعاميَّة مصر هي أعذب العاميَّات في الأقطار العربيَّة وأسلسها في الفهم وأصحها أيضاً، وأيسرها وأكثرها شهرة. وبعد أن تكلَّمت مصر العربيَّة إلاَّ أن أصحاب اللُّغة الأصليين يرجعون عند مظنة الخطأ والصَّواب إلى القاموس الذي وضعه ابن منظور المصري: "لسان العرب"، وهذا يكفي(١٣).

وتضيف الدكتورة سيدة كاشف بالقول: المعروف أن الأسماء العربيَّة لكثير من بلدان القطر المصري الآن مأخوذة من الأسماء المصريَّة القديمة، كما أننا نستعمل في الوقت الحالي كثيراً من الألفاظ العاميَّة التي ترجع إلى

١٢ـ منذ ولادة الطفل المصري يدخل إلى أذنيه أولى الكلمات التي يسمعها، وهي كلمات قبطية قديمة: مَمْ = موم (القبطية)، إمبو = إمبمو (القبطية)، واوا = ألم أو وجع، بيبة = برغوث، كخ = قذارة، شاية = قميص، تاتا = امشي، بعبع = عفريت، تأوأ = تعاكس، بيخ = عفريت أو شيطان، ...الخ بالإضافة إلى الألفاظ الكثيرة التي تعد بالمئات في لعب الأطفال وأنواع الأطعمة الوطنية.

١٣ـ د. نعمات أحمد فؤاد، شخصية مصر، مرجع سابق.

اللُّغة المصريَّة القديمة وإلى اللُّغة القبطيَّة التي اشتقت منها[١٤].

ومن الدِّراسات القيِّمة التي صدرت في هذا المجال، كتاب "آثار حضارة الفراعنة في حياتنا الحاليَّة[١٥]" للأستاذ محرم كمال. فالكاتب يصوِّر بالكلمة والصُّورة كثيراً من العادات المصريَّة التي لازالت تُمارس حتى اليوم، وهي ذات أصول فرعونيَّة قديمة، بعد أن توالت على مصر كل أنواع الثَّقافات اليونانيَّة والرُّومانيَّة والفارسيَّة والعثمانيَّة والعربيَّة.

وفي ختام الفَصل الأوَّل يقول المؤلِّف: "فنحن كما رأينا نعيش في نطاق تركة خلَّفها لنا القدماء، تشدنا إليها سلسلة من التَّقاليد والعادات ومختلف الأشياء التي تربطنا بها ربطاً وثيقاً لا نجد إلى فصم عروته سبيلاً، فنحن كما كنا وسنظل دائماً أبناء الفراعنة، وإنا بهذه التَّركة بكل ما فيها من محاسن وعيوب لجد فخورين[١٦]".

ويقول في موضع آخر: "درج كثير من النَّاس على الظَّن بأن جميع مظاهر حياتنا الحاليَّة ومقوماتها، بما تشمله من تقاليد وعادات، وآداب واجتماعيَّات، ترجع إلى أصل عربي إسلامي فحسب، ولكننا قلنا وما نزال نقول أن الحقيقة التَّاريخيَّة تخالف ذلك إلى حد كبير. فهناك من الأدلة والقرائن ما يثبت لنا أن المصريين القُدماء الذين سكنوا مصر القديمة منذ آلاف السِّنين، لا يزالون أحياء يعيشون بأرواحهم في أبنائهم المصريين الحاليين. نحن لا ننكر أن أدوار التَّاريخ المختلفة قد غيَّرت لُغة البلاد ودينها جملَّة مرَّات، ولكن الغزوات التي توالت على مصر لم تنل من

١٤ـ د. سيدة إسماعيل كاشف، مصر في فجر الإسلام، مرجع سابق، ص ١٩١، ٢٦٠

١٥ـ محرم كمال، آثار حضارة الفراعنة في حياتنا الحالية، مهرجان القراءة للجميع، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٧م.

١٦ـ محرم كمال، آثار حضارة الفراعنة في حياتنا الحالية، مرجع سابق، ص ٣٠

مصرية سكّانها(١٧)".

وهكذا عبرت على الكنيسة القبطيَّة ثلاث لغات هي اليونانيَّة والقبطيَّة والعربيَّة. ففي أواخر القرن الخامس الميلادي أُهملت اللُّغة اليونانيَّة، لغة الحضارة آنذاك، بعد الأحداث المؤسفة التي تعرَّض لها الأقباط من جرَّاء مجمع خلقيدونيَّة سنة ٤٥١م، حيث رفض الأقباط كل ما يمت إلي الرُّوم بصلة، حتى لغتهم أيضاً، دون أن يدركوا مقدار الخطأ الوخيم الذي وقعوا فيه إذ عزلوا أنفسهم بأنفسهم عن ماضي كنيستهم ذاتها فانقطعت الصِّلة بين ماضيهم وحاضرهم وباتوا كأنهم سيبدأون حياتهم من جديد، وكانت الضَّربة القاضية للُّغة اليونانيَّة مع خروج الرُّوم من مصر بعد دخول العرب إليها سنة ٦٤٢م. وما أن أفاقوا حينا إلى لغتهم حتى كان التَّضييق على استخدام اللُّغة القبطيَّة قد بدأ منذ أوائل القرن الثَّامن وكان القضاء عليها في القرن الحادي عشر. وبعد أن حلّت اللُّغة العربيَّة محل القبطيَّة ظلّت اللُّغة العربيَّة ضعيفة عند أبناء الكنيسة القبطيَّة، لم يتمكّن منها سوى قليلين كان أولهم الأنبا ساويرس بن المقفع أسقف الأشمونين في القرن العاشر، وهو أوّل من ألّف بالعربيَّة في مصر. وفي القرن العشرين أشار الدكتور طه حسين إلى هذه الظَّاهرة المؤسفة التي لفتت نظره حين يقول(١٨): "ولابد من أن أصارح المثقّفين من الأقباط بأنهم مقصِّرون أشد التَّقصير في ذات تعليمهم الدِّيني، وبأن كل شئ يمكن أن يُفهم إلاّ هذا الفرق الشَّنيع بينهم وبين قسيسيهم ورهبانهم في الثّقافة. ولقد دعتني الظُّروف الحسنة والسَّيئة، كما تدعو غيري من المصريين، إلى مشاركة بعض الأصدقاء من الأقباط فيما يلمُّ بهم من الخير والشَّر، وشهود بعض حفلاتهم الدِّينيَّة في الكنائس وفي الفنادق وفي الدور. فلست أدري

١٧ـ نفس المرجع، ص ٣٣

١٨ـ د. طه حسين، مستقبل الثقافة في مصر، مرجع سابق، ص ٢٦٨

كيف أصف هذا الألم الذي يثيره في نفسي الاستماع لصلواتهم، يتلونها في لغة عربيَّة محطَّمة، أقل ما توصف به أنها لا تلائم كرامة الدِّين مهما يكن، ولا تلائم ما ينبغي للمصريين جميعاً من الثَّقافة اللُّغوية. ولقد عجزت أحياناً عن مقاومة هذا الضيق، فصارحت به بعض كبار الأقباط، وألححت عليهم في وجوب العناية بالتَّرجمة الصَّحيحة النقيَّة لكتبهم المقدَّسة إلى اللُّغة العربيَّة، وفي تعويد القسيسين النُّطق الصَّحيح النَّقي بهذه اللُّغة ...".

لقد كتب الدكتور طه حسين هذا الكلام للمرَّة الأولى في سنة ١٩٣٨م حين لم تكن في مصر وسائل سمعيَّة وبصريَّة كما نعرفها اليوم. فكان الضَّعف اللُّغوي وركاكته محلياً في أسوأ الأحوال. أمَّا أن نسمع ونشاهد تسجيلات بالصَّوت والصُّورة، أو كتب مطبوعة تخرج من الكنيسة القبطيَّة من هذا أو من ذاك، مليئة بهذه الأخطاء اللُّغوية التي تعبِّر عن جهل صارخ بأقل مقوِّمات اللُّغة العربيَّة فهذا مما يؤسَف له كل الأسف، إذ قد استشرى المرض واستفحل وقد دخلنا القرن الحادي والعشرين. إنه ثقيل على النَّفس جداً أن نرى القبطي وقد فقد ناصية أي لغة ولو واحدة يجيد الحديث أو الكتابة بها. ولم تكن اليونانيَّة أو القبطيَّة أو العربيَّة هي لغة السيِّد المسيح له المجد. فلا ينبغي أبداً أن نربط بين اللُّغة والدِّين، لأن المسيحيَّة لا تعرف هذا القيد، فهي دين كل جنس وعِرق ولغة.

ويستطرد عميد الأدب العربي في موضع آخر ليقول: "... فلابد إذاً من أن يثقَّف هؤلاء القسيسون تثقيفاً ملائماً للحياة الحديثة والعصر الحديث حتى لا يحملوا إلى النَّاس باسم الدِّين ثقافة تضطرهم إلى الحيرة والاضطراب والعجز عن احتمال أعباء الحياة المدنيَّة. والكنيسة القبطيَّة مجد مصري قديم، ومقوِّم من مقوِّمات الوطن المصري. فلابد من أن يكون مجدها الحديث ملائماً لمجدها القديم ... وما ينبغي أن نقارن بين رجال

الكنيسة القبطيَّة ورجال الكنائس الأخرى فنرى هذه الفروق التي أقل ما توصف به أنها لا تلائم الكرامة المصريَّة، ولا ينبغي أن يرضى عنها المصريون ... فليست اللُّغة العربيَّة لغة المسلمين وحدهم، ولكنها لغة الذين يتكلّمونها مهما تختلف أديانهم. وما دام الأقباط مصريين، وما دامت اللُّغة العربيَّة مقوِّماً من مقوِّمات الوحدة المصريَّة والوطن المصري، فلابد من أن يتثقّف بها رجال الدِّين من المسيحيِّين ... إن اللُّغة العربيَّة هي اللُّغة الوطنيَّة لمصر، فيجب أن يكون حظ الأقباط من إجادتها وإتقان العلم بها والقُدرة على استعمالها كحظ غيرهم من المصريين[١٩]". ولكن هذه الصُّورة قد تغيَّرت كثيراً الآن بعد أن ارتفع المستوى الثَّقافي لرجال الدِّين.

وفي الحقيقة أنه إن كان لمصر في عصر الولاة نصيب في حفظ تراث اليونان والمسيحيَّة الشَّرقيَّة أو نقله إلى الغرب، فإنما هو في تركها علماء الرُّوم يغادرون مصر بمؤلَّفاتهم وكتبهم زمن الفتح، وفي عدم تعرضها لمدرسة الإسكندريَّة أو للأديرة التي كانت مراكز الثقافة المسيحيَّة في مصر[٢٠].

نخلص إلى أن المحنة التي لحقت بالأقباط كانت ذات ثلاثة أبعاد:

البُعد الأوَّل، كان بعد مجمع خلقيدونية مباشرة سنة ٤٥١م، عندما انعزلت الكنيسة القبطيَّة عن كل ما يمت للكنيسة البيزنطيَّة بصلة حتى لغتها اليونانيَّة، وبإهمال اللُّغة اليونانيَّة انفصلت الكنيسة القبطيَّة عن أساسيَّات لاهوتها وعقيدتها وتعليم آبائها المدوَّن كله باليونانيَّة.

والبُعد الثاني، كان ضياع اللُّغة القبطيَّة بعد فتح العرب لمصر، وإن كان قد حدث ذلك بعد جهد جهيد، فباتت كل مخطوطات الكنيسة وكتاباتها وتأليفها وحياتها اللِّيتورجيَّة المدوَّنة بالقبطيَّة طلاسم لا يعرف أن

١٩ـ نفس المرجع، ص ١٦٧ـ ٢٦٨

٢٠ـ د. سيدة إسماعيل كاشف، مصر في فجر الإسلام، مرجع سابق، ص ٣٣٦

يفكّها أبناء الذين كتبوها، فانعزل حاضر الكنيسة عن ماضيها، وهي أعنف محنة أدبيَّة يتعرَّض لها شعب من الشُّعوب، حين تفقد الأمة صلتها بماضيها. وكان على القبطي الرَّاغب في الرُّجوع إلى تراث آبائه أن يقرأه بلغة أجنبيَّة حيَّة، فصار كمن لا يستطيع أن يقيت نفسه بنفسه، ويلتمس من يعدّ له الطَّعام ويطعمه أيضاً، وهو في ذلك ليس له أن يختار ما يُقدَّم له، حلواً كان أم مراً.

والبُعد الثالث، اكتملت به المحنة عندما صارت اللُّغة العربيَّة نفسها لغة غير مُتقَنة لدي كثير من الأقباط في كثير من الأوقات.

فكانت هذه الضَّائقة الثلاثيَّة الأبعاد كفيلة بأن تقضي على حضارة أعرق أمة في الأرض، وأقدمها على الإطلاق. ولكن لولا وعد الرَّب الذي بارك بنيه الذين يعرفونه في مصر «مبارك **شعبي** مصر» (إشعياء ١٩:٢٥) لما صمدت الكنيسة القبطيَّة حتى اليوم، ولا عجب في ذلك، فأين هي كنيسة شمال أفريقيا بكل مجدها واتساعها القديم؟!.

إن ذوبان أي هويَّة يبدأ بإهمال اللُّغة ويكتمل بضياعها.



الفَصل الثّاني

الطّقــــس القبــــطي

الطَّقس القبطي هو طقس وقورٌ قنوعٌ تأمُّليٌ مهيبٌ، طويلٌ رتيب، يبتعد عن أي أبّهة أو بهرجة خارجيَّة، أو مراسيم تنحو إلى الفخامة. وهو يفسح مكاناً رئيسياً للمشاركة الشَّعبية، ولاسيَّما في اللِّيتورجيَّة أكثر من أي طقس آخر. فحركاته وتعبيراته بسيطة بديعة، لا يحوي كثيراً من الأشعار التأمليَّة أو الرُّموز البرَّاقة.

أما موسيقاه فهي تحمل أريج عصور موغلة في القدم، قال عنها عالم موسيقي من جامعة أكسفورد، هو الدكتور نيولاند سميث، وذلك في تقرير ختامي له بعد أن قضى بضع سنوات في مصر يسجل ألحانها وموسيقاها على النوتة الموسيقية، فيقول: "... إن ما نعرفه اليوم عن الموسيقي القبطيَّة يبدو كالأشعَّة الخاطفة من أضواء فن عظيم مجيد. وهذه الموسيقى التي انتقلت إلينا منذ عصور سحيقة في القدم، ينبغي أن نضعها في موضعها الصَّحيح في عالم الموسيقى، وينبغي أن يقدِّرها علماء الغرب، كالقنطرة ما بين الموسيقى الشَّرقيَّة الحديثة، والموسيقى الغربيَّة، إنها فن نبيل عظيم، يحيط بها هالة من الرُّوحانيَّة المطلقة، التي تفتقر إليها موسيقى عصرنا الحاضر".

وعن رأيه الذي نشره في إبريل سنة ١٩٣١م في جريدة The Morning Post يقول: "إن الموسيقى الغربيَّة قد أخذت واستقت في الأصل من ينبوع مصر القديمة".

إن الموسيقى القبطيَّة والألحان القبطيَّة هي ميراث عظيم سحيق في القدم لموسيقى مصر الفرعونيَّة. ولم ينحصر تأثير هذه الموسيقى الفرعونيَّة

على الموسيقى والألحان الكنسيَّة في مصر المسيحيَّة فحسب، بل امتد تأثيرها أيضاً ليشمل الفن المصري الشَّعبي، والموسيقى الوطنية، بل وحتى الإنشاد الديني الإسلامي في مصر بالذات.

وإن طريقة إنشاد القرآن التي تُعرف باسم "التَّجويد"، قد نشأت في مصر اعتماداً على الإنشاد الذي أخذته الكنيسة القبطيَّة من الغناء الديني في مصر الفرعونيَّة. ولقد أصبح "التَّجويد" الآن هو الإنشاد السَّائد في العالم العربي للقرآن[1].

أما عن المراسيم والاحتفالات الدِّينيَّة القديمة في الطَّقس القبطي القديم فلسنا نعرف عنها ما نعرفه عن الطُّقوس الأخرى كالطَّقس السِّرياني مثلاً، فالآباء الإسكندريُّون وهم أكثر صوفيَّة من الأنطاكيين لم يتركوا لنا وصفاً كافياً لتلك المراسيم والاحتفالات الدِّينيَّة.

ولأهميَّة معرفة مصادر الطُّقوس القبطيَّة، فقد أفردتُ السِّلسِّلة الأولى من موسوعة "الدُّرَّة الطَّقسيَّة"، للبحث في هذه المصادر القديمة، ولقد حوت هذه السِّلسِّلة الأولى كتباً لم تصدر من قبل في المكتبة القبطيَّة - ليس افتخاراً فالعمل هو بمعونة الرَّب ومن أجله - بل تنبيهاً إلى أهميَّة هذه السِّلسِّلة الأولى برغم صعوبة مادها، والتي لهذا السَّبب لا تروق غالباً للقارئ غير المتخصِّص.

أما أهم ثلاثة مصادر عن الطَّقس القبطي في القرون الوسطى فهي:

+ كتاب "**الجوهرة النَّفيسة في علوم الكنيسة**" ليوحنا بن أبي زكريا بن سباع، والذي عاش بين القرنين الثَّالث عشر والرَّابع عشر للميلاد، وهو يقع في ١١٣ باباً، وتُعد مخطوطة دار الكُتُب المصريَّة

١- نجيب محفوظ، وطني مصر، حوارات مع محمد سلماوي، الهيئة المصريَّة العامة للكتاب، ٢٠٠٠م، ص ٣٠

(لاهوت رقم ٢٢١) هي أقدم مخطوطة معروفة لهذا الكتاب. وقد نُشر الكتاب للمرَّة الأولى في القاهرة سنة ١٩٠٢م، ثمَّ نشره المرحوم مرقس جرجس مرَّة ثانية في القاهرة في العشرينيَّات من القرن العشرين، ولكنهما نشرتان فيهما كثير من التَّنقيح. وفي سنة ١٩٦٦م نشر الآباء الفرنسيسكان الكتاب كاملاً في نشرة علميَّة في القاهرة ضمن دراسات شرقيَّة مسيحيَّة في الكنيسة المصريَّة، بعد أن حقَّقه ونقله إلى اللآتينيَّة الأب فيكتور منصور مستريح الفرنسيسكاني.

+ كتاب "**مصباح الظُّلمة وإيضاح الخدمة**" لشمس الرِّياسة ابن كبر (+ ١٣٢١م) قس كنيسة العذراء المعلَّقة بمصر القديمة، ويقع الكتاب في ٢٤ باباً ألَّفه مؤلفه في السَّنوات الأولى من القرن الرَّابع عشر، له مخطوطة محفوظة في المكتبة البطريركيَّة بالقاهرة. طُبع في القاهرة لأوَّل مرَّة سنة ١٩٣٠م بواسطة جرجس فيلوثاؤس عوض. وطبع الجزء الأوَّل منه طبعة علميَّة في القاهرة سنة ١٩٧١م بواسطة الأب سمير خليل اليسوعي. أما الجزء الثاني منه فلازال مخطوطاً، يحتاج إلى نشره نشرة علمية دقيقة كتلك التي صدرت للجزء الأوَّل منه. أما ما نُشر عن هذا الجزء الثَّاني حتى اليوم فلم يرق إلى المستوى اللائق بكتاب في مثل هذه الأهميَّة.

+ كتاب "**التَّرتيب الطَّقسي**" للبابا غبريال الخامس (١٤٠٩-١٤٢٧م) الـ ٨٨ من باباوات الكرازة المرقسيَّة، ولهذا البابا القبطي الفضل الكبير على الطُّقوس القبطيَّة. وعن طريق المخطوط العربي رقم ٩٨ المحفوظ في المكتبة الوطنيَّة باريس، والمخطوط الفاتيكاني القبطي رقم ٤٦ قام الأب ألفونس عبد الله الفرنسيسكاني، بتحقيق المخطوطين المذكورين ونشرهما في طبعة علميَّة سنة ١٩٦٤م بالقاهرة.

وفي سنة ١٦٧٣م قدم إلى مصر الرَّاهب الدُّومينيكاني الأب يوحنا ميخائيل فانسليب، واشترى عدَّة مخطوطات، من بينها المخطوط العربي

رقم ٩٨ المحفوظ الآن في المكتبة الوطنيَّة بباريس. وقد كشف هذا المخطوط لأوَّل مرة أن الأنبا غبريال - كما سبق أن أشرتُ - له الفضل الكبير على الطُّقوس القبطيَّة، إذ قام بترتيبها وتثبيتها بعد استشارة كبار الأقباط من قسوس وشمامسة وأراخنة.

ولم يذكر "تاريخ البطاركة" عن الأنبا غبريال الخامس، الثامن والثمانين في عدد بطاركة الإسكندرية شيئاً جديراً بالاعتبار، سوى ذكر توليه البطريركيَّة من سنة ١١٢٥- ١١٤٣ش (١٤٠٩- ١٤٢٧م).

ولقد سلك المؤرخون الأقباط اللاحقون نفس الطريق. ففي كل المؤلَّفات التَّاريخيَّة والطَّقسيَّة لا نجد فيها شيئاً يُذكر عن حياة هذا البطريرك، ولا عن نشاطه الطَّقسي، اللَّهم إلاَّ بعض العبارات المأخوذة ربما عن المؤلِّفين الغربيين[٢].

ونتبيَّن من العبارات الوجيزة التي سطَّرها العلاَّمة المقريزي (١٣٦٥- ١٤٤١م) المعاصر له صورة مصغَّرة من سيرته حين يقول: "وكانت أيامه شر أيام مرَّت بالنَّصارى، ولقي هو شدائد، وأهين مراراً، وصار يمشي في الطُّرقات على قدميه، وإذا دخل إلى مجلس السُّلطان والأمراء يقف ... وخرج إلى القرى مراراً يستجدي النَّصارى فلم يظفر منهم بطائل، لما نزل بهم من القِّلة والفاقة ... وبالجملة فما أدركنا بطركاً أقل منه حركة ولا أقل منه بركة[٣]".

٢- راجع مثلاً: منسى القمص، كتاب تاريخ الكنيسة القبطية ص ٦٠٠- ٦٠١؛ كامل صالح نخلة، سلسلة تاريخ الباباوات بطاركة الكرسي الإسكندري، الحلقة الرابعة من البطريرك ٨٨ إلى البطريرك ١٠٣، ص٦

٣- كتاب السلوك، مخطوط عربي رقم ١٧٢٧ بالمكتبة الوطنية بباريس.

وانطوت حياة الأنبا غبريال على هذا الإهمال والنسيان(٤).

ولقد توفَّر الأب ألفونس عبد الله الفرنسيسكاني، والحاصل على درجة الدُّكتوراه في الدِّراسات الشَّرقيَّة الكنسيَّة، على البحث عن حياة الأنبا غبريال ونشاطه الطَّقسي، في بحث علمي وافي.

وقسَّم بحثه إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأوَّل: يبحث في الظروف السِّياسيَّة والاجتماعيَّة في مصر خلال الرُّبع الأوَّل من القرن الخامس عشر، وحالة الكنيسة القبطيَّة في هذه الحقبة.

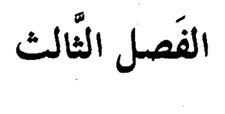
القسم الثَّاني: يبحث في حياة الأنبا غبريال ونشاطه في صالح الطُّقوس القبطيَّة، وإلى أي حد يصح نسبة هذا النَّشاط إليه، وما هي المستندات المؤيِّدة. وفي هذا القسم تم نشر النَّص الكامل للمخطوطين المنسوبين للأنبا غبريال الخامس، وهو ما أفادني فائدة كبيرة في دراستي لتاريخ طقوس الكنيسة القبطيَّة.

القسم الثَّالث: وهو دراسة مقارنة عن ترتيب القدَّاس بين كل من الأنبا غبريال، ويوحنا أبي زكريا بن سباع، وشمس الرِّئاسة أبو البركات بن كبر(٥).

ولقد أدخل الأقباط في طقوس الأسرار لديهم، عوائد سريانيَّة كثيرة، بيد أنهم في خدمة الأعياد وصلوات السَّواعي (الأجبية)، قد حافظوا على ملامح طقسهم التَّقليدي.

٤- أنبا غبريال الخامس البطريرك القبطي ٨٨، الترتيب الطقسي، الطبعة الثانية، تحقيق الأب ألفونس عبد الله الفرنسيسكاني، مطبوعات المركز الفرنسيسكاني للدراسات المسيحية الشرقية، القاهرة ١٩٦٤م، ص١

٥- الترتيب الطقسي للأنبا غبريال الخامس، مرجع سابق، ص ٢



الفَصل الثّالث

اللّيتورجيَّة القبطــيَّة

تحمل اللّيتورجيَّة القبطيَّة[١] روح توبة عالية. يسودها هدوء ملحوظ، فنغماتها تشيع في النَّفس خشوعاً وسكينة. وقديماً كان يُحتفل باللّيتورجيَّة القبطيَّة في كل من الإسكندريَّة والوجه البحري باللُّغة اليونانيَّة، أما الاحتفال بها في صعيد مصر فكان في الغالب بلهجات مختلفة. وقد تبقى لنا بعض بقايا من اللّهجات القبطيَّة القديمة في مخطوطات باللّهجة الصَّعيديَّة. ولكن منذ القرن التَّاسع حلّت اللّهجة القبطيَّة البحيريَّة محل اللّهجة الصَّعيديَّة، وأصبحت هي اللّهجة الرَّسميَّة لليتورجيَّة الإسكندريَّة، ولكن دون أن تتوقَّف تماماً اللُّغة اليونانيَّة التي ظلّت هي الأخرى تستخدم أيضاً، ولكن بقدر ضئيل. وفي الوقت الحاضر عُرِّب جانب كبير من الصَّلوات القبطيَّة إلى اللُّغة العربيَّة. ويستعمل الأقباط في خدمة الذّبيحة الإلهيَّة ثلاث ليتورجيَّات:

• ليتورجيَّة القدِّيس مرقس الرَّسول

وهي أقدم ليتورجيَّة استخدمت في مصر، وتعد من أقدم ليتورجيَّات الكنيسة الجامعة بعد ليتورجيَّة القدِّيس يعقوب الرَّسول السِّريانيَّة. ولا زلنا نحتفظ بأنافورا القدِّيس مرقس اليونانيَّة والتي تعود إلى القرن الرَّابع الميلادي تحت صيغة أكثر اختصاراً مما هي عليه الآن.

أما التَّسمية الحالية لها فهي ليتورجيَّة القدِّيس كيرلس الكبير وهي ترجمة وتنقيحاً لليتورجيَّة القدِّيس مرقس اليونانيَّة. وهي تختلف عن الليتورجيَّات السِّريانيَّة في أن الأواشي intercessions أي الصَّلوات، توضع في الجزء الأوَّل من صلاة الشُّكر الكُبرى، والتي تبدأ بعبارة "الرَّب مع

١ ـ أوردتُ حديثاً آخر عن اللّيتورجيَّة القبطيَّة في الجزء الأوَّل من مجموعة كتب "الكنائس الشَّرقيَّة وأوطانها"، برجاء الرجوع إليه للأهميَّة.

جميعكم"، وقبل آجيوس sanctus . ومن جهة أخرى فهناك استدعاء قصير يسبق رواية التَّأسيس بينما يوجد استدعاء آخر مطوَّل يماثل الاستدعاءات السِّريانيَّة يوجد بعد التذكار l'anamnése . وقد دار بحث طويل حول ما إذا كان هذا الاستدعاء الثّاني مصري أصيل primitive . وطبقاً لما لدينا من وثائق فإنه يصعب الفصل في هذا الأمر حتى الآن.

ولقد ضاعت أغلب موسيقى القدَّاس الكيرلسي، ولم يبق منها إلاَّ لحن Oѵχ ὅτι أي: "وليس أننا نحن أيها السيِّد ...)، وأيضاً لحن Oѵoϩ أي: Nⲁⲓ ⲛⲉⲙ ⲟⲩⲟⲛ ⲛⲓⲃⲉⲛ Πⲟ̅ⲥ̅ "وهؤلاء وكل أحد يارب ..."، ويستعملان للتَّرحيم على الموتى.

• ليتورجيَّة القدِّيس باسيليوس

وهي الشَّكل الأكثر قدماً لتلك اللّيتورجيَّة المستخدمة في الكنيسة البيزنطيَّة. وضعها القدِّيس باسيليوس الكبير، وهي تقال على مدار السَّنة الطّقسيَّة، وهي الأكثر انتشاراً في الكنيسة اليوم. على أن القدَّاسات الثلاثة القبطيَّة والبيزنطيَّة والسِّريانيَّة، والمنسوبة للقدِّيس باسيليوس الكبير تختلف في النَّص والطّقس واللّحن عن بعضها البعض. ويوجد لدينا نص يوناني لقداس القدِّيس باسيليوس القبطي.

وربما وصل قدَّاس القدِّيس باسيليوس إلى مصر من جرَّاء تأثير القسطنطينيَّة كعاصمة دينيَّة للإمبراطوريَّة الشَّرقيَّة في القرن السَّادس الميلادي، إلاّ أن آراء أخرى تؤكّد أنه قد استُعمل في مصر قبل الانفصال سنة ٤٥١م. وربما كانت أنافورا القدِّيس باسيليوس القبطيَّة هي مصريَّة الأصل، غير أن المعلّم الكبادوكي العظيم أعطاها صبغتها النهائيَّة[٢].

---

٢ ـ الأب هنري داليس الدومينكي، الطقوس الشرقية، تعريب الشماس كامل وليم، المعادي، ١٩٦٨م، ص ٦٠، ٦٤، ٦٥

أما موسيقى القدّاس الباسيلي فهي مصريَّة خالصة، غاية في الجمال. وهناك جزء بيزنطي منها، وهو الاعتراف ومقدّمته. وعموماً فإن موسيقى القدّاس الباسيلي سواء القبطي أو البيزنطي هي ذات تأثير روحي عظيم.

• ليتورجيَّة القدِّيس غريغوريوس

ينسب العالم الطّقسي شمس الرِّئاسة بن كبر (القرن الرَّابع عشر) هذه اللِّيتورجيَّا للقدِّيس غريغوريوس التريتري، أخو القدِّيس باسيليوس الكبير[٣]. وهو ذو سمة مستقلّة لأنه يخاطب أقنوم الابن.

وموسيقى القدّاس الغريغوري عبارة عن بضعة ألحان طويلة، وهي مصريَّة بحتة، لها روعتها وعمقها وتأثيراتها الاحتفاليَّة، باستثناء المقدِّمة Ἡ αγάπη (إي أغابي) أي: "محبة الله الآب ..."، والاعتراف الأخير، فهما بيزنطيّان.

ولا يمكننا إغفال التَّأثيرات السِّريانيَّة على كنيسة مصر. ويمكننا القول إن ليتورجيَّتي القدِّيسَين باسيليوس وغريغوريوس القبطيَّتين تحملان سمات سريانيَّة واضحة ليست من سمات ليتورجيَّة الإسكندريَّة القديمة المتمثّلة في قداس القدِّيس مرقس الرَّسول (أو القدَّاس الكيرلسي). إلاّ أنه توجد أيضاً تأثيرات سريانيَّة على أنافورا القدِّيس مرقس القبطيَّة سأعرض لها بالتَّفصيل في حينها. أما الآن فأشير لهذا الجانب في إيجاز:

◆ هناك صلوات كثيرة للبطريرك القدِّيس ساويرس الأنطاكي في القدَّاس القبطي منها:

ـ صلاة الاستعداد "أيها الرَّب العارف قلب كل أحد، القدُّوس

٣ـ القس شمس الرياسة أبو البركات، المعروف بابن كبر، مصباح الظلمة في إيضاح الخدمة، تحقيق الأب سمير خليل اليسوعي، مكتبة الكاروز، القاهرة، ١٩٧١م، ص ٢٩٠

المستريح في قديسيه ...'' وهي تقال في الثلاثة قدّاسات القبطيَّة.

- صلاة الصُّلح في القدَّاس الكيرلسي ''يا رئيس الحياة وملك الدُّهور''.
- صلاة القسمة في القدَّاس الكيرلسي(٤) ''يا الله الذي سبق فوسمنا للبنوة بيسوع المسيح ربنا لمسرة إرادتك ...''.

◆ وصلوات أخرى في القدَّاسات القبطيَّة تحت عنوان ''يوحنا المثلَّث الطوبى(٥)''، ويذكر برايتمان(٦) Brightman أنه ''يوحنا أسقف بوسطره John of Boster '' في سوريا، ومنها:

- صلاة الحجاب في القدَّاس الكيرلسي: ''يا خالق البريَّة كلها التي تُرى والتي لا تُرى ...''.
- صلاة صُلح أخرى للقدَّاس الكيرلسي: ''يا إله المحبَّة، ومعطي وحدانيَّة القلب ...''.
- صلاة صُلح أخرى للقدَّاس الباسيلي: ''عال فوق كل قوَّة النُّطق وكل فكر العقل غنى مواهبك يا سيِّدنا ...''.
- صلاة خضوع في القدَّاس الكيرلسي بعد التَّناول: ''أنت الذي وضعنا حياتنا عندك يارب، أيها الرَّب الذي يملأ الكُل ...''.

◆ صلاة الحجاب في ليتورجيَّة القدِّيس باسيليوس القبطيَّة ''يا الله الذي من أجل محبتك للبشر التي لا يُنطق بها، أرسلت ابنك الوحيد إلى العالم ليرد إليك الخروف الضَّال ...''، هي من ليتورجيَّة القدِّيس يعقوب

4_ F. E. Brightman, M. A., Liturgies, *Eastern and Western*, Vol. 1, *Eastern Liturgies*, Oxford, 1967, p.181.

٥- أشارت بعض كتب الطَّقس المطبوعة إلى أنه ''القدِّيس يوحنا ذهبي الفم''، وهذا غير صحيح.

6_ F. E. Brightman, *op. cit.*, p. 158, 187.

الرَّسول الأنطاكيَّة.

- صلاة الصُّلح في القدَّاس الباسيلي: "يا الله العظيم الأبدي، الذي جبل الإنسان على غير فساد ..."، هي للقدِّيس باسيليوس الكبير.

- صلاة القسمة التي بدايتها "هكذا بالحقيقة تألَّم كلمة الله بالجسد، وذُبح وانحنى بالصَّليب ..." هي قسمة سريانيَّة تُرجمت من القدَّاس السِّرياني ... الخ.

ولقد ظلَّت الكنيسة الملكانيَّة - كنيسة الرُّوم الأرثوذكس - في مصر تستخدم هذه القدَّاسات الثلاثة حتى القرن الثاني عشر، حين استعاضت عنها بالطَّقس واللِّيتورجيَّة البيزنطيَّة.

أما القدَّاس الرَّابع في الطَّقس القبطي - وهو من القدَّاسات غير المستخدمة في الكنيسة اليَوم - فهو **قدَّاس القدِّيس سرابيون** أسقف تمويس (تمي الأمديد)، والذي كان تلميذاً وصديقاً للبابا أثناسيوس الرسولي (٣٢٨-٣٧٣م)، ولقد نُشر هذا القدَّاس سنة ١٨٩٤م، وفيه من الدَّلائل الواضحة ما يثبت أنه يختص بكنيسة الإسكندريَّة، وأن جزءاً منه مأخوذ حرفياً من قدَّاس مار مرقس الرَّسول، ولا نعرف عن موسيقاه أو مدى استعماله شيئاً، ويظهر أنه لم يكن واسع الانتشار، ولم يطل زمان ممارسته[٧].

ويذكر القانون ٢٦ من قوانين البابا غبريال بن تريك (٤٠٩-٤٢٧م) ما يأتي: "انتهى إلى ضعفي أن قوماً من أعمال الصَّعيد يقدِّسون قدَّاسات غير موافقة، خارجاً عن الثَّلاثة المعروفة، وهم قدَّاس القدِّيس باسيليوس والقدِّيس غريغوريوس والقدِّيس كيرلس، وقد منعتُ من يعتمد على ذلك إلى أن يحضر إلى القلاَّية ويحيِّر (يحقِّق) قدَّاسات".

٧- ترجمتُ هذا القدَّاس عن اللُّغة اليونانيَّة مباشرة، ونشرته في نهاية الجزء الثَّاني من كتاب "القدَّاس الإلهي سرّ ملكوت الله".

الفَصل الرَّابع

الأدب الدِّيني القبطي

توضيح

أودُّ أن أنبِّه ذهن القَّارئ القبطي العزيز إلى أن هذا الفَصل الذي يتحدَّث عن الأدب الدِّيني القبطي، أعني به ما كتبه آباء الكنيسة القبطيَّة وعلمائها ومفكِّريها، سواء كان ذلك باليونانيَّة أو بالقبطيَّة أو بالعربيَّة.

ولقد صدر في يناير سنة ٢٠٠٣م كتاب بعنوان: "فهرست كتابات آباء كنيسة الإسكندريَّة — الكتابات اليونانيَّة" وهو برقم (١/٦)، يحصر بدقَّة شديدة كل عناوين الكتابات اليونانيَّة لآباء كنيسة الإسكندريَّة. ويشمل هذا الفهرس المذكور ٦٤٠ صفحة من القطع المتوسِّط، وذلك طبقاً لأحدث وأدق الدِّراسات الآبائيَّة.

وأعقبه صدور كتاب آخر أو فهرس آخر في يناير سنة ٢٠٠٦م يحصر بدقَّة أيضاً كل عناوين الكتابات القبطيَّة بلهجتيها الصَّعيديَّة والبحيريَّة لآباء كنيسة الإسكندريَّة، وهو برقم (١/٧)، ويشمل هذا الفهرس ٣٨٠ صفحة من القطع المتوسِّط، طبقاً لأدق دراسات معروفة حتى اليَوم.

ويغطي هذان الكتابان المذكوران — في حدود ١٠٠٠ صفحة من القطع المتوسِّط على مدى التِّسعة قرون الأولى للميلاد، ليحصرا حصراً علمياً دقيقاً الكتابات اليونانيَّة والقبطيَّة لآباء كنيسة الإسكندريَّة في هذه الفترة. الرَّب يعوِّض الذين تعبوا معي في إنجاز هذا العمل الآبائي بالأجر السَّمائي.

أمَّا الفَصل الذي نحن بصدده الآن فهو بمثابة إطلالة موجزة على أهم ما كتبه آباء الكنيسة القبطيَّة باللُّغة العربيَّة، بدءاً من القرن العاشر الميلادي

وحتى القرن التَّاسع عشر الميلادي، مع التَّمهيد التَّالي.

تمهيد

يستعمل الأقباط اللُّغة القبطيَّة في جانب من صلواتهم الطَّقسيَّة حتى اليَوم، وهي آخر ما آلت إليه لغة الفراعنة بعد أن تأثَّرت باليونانيَّة. ولم تكن الحضارة الهيلينيَّة اليونانيَّة قد تأصَّلت كثيراً في مصر خارج العاصمة الإسكندريَّة. لذلك فإن الأدب القبطي المتأثِّر بتأثيرات يونانيَّة قد ظهر أكثره في الإسكندريَّة التي انتشرت فيها الثَّقافة الهيلينيَّة حيث كتب كثير من الآباء باللُّغة اليونانيَّة، لغة العالم المتحضِّر حينذاك. وتُرجم كثير من كتاباتهم إلى اللُّغة القبطيَّة لينتفع بها الأقباط أنفسهم. وجدير بالذِّكر أن الأدب القبطي في مجمله هو أدب ذات طابع ديني بحت[1].

---

١ ـ أهم المراجع التي اعتمدتُ عليها في هذا الجزء هي:

ـ الأب إغناطيوس ديك، الشَّرق المسيحي، لبنان، ١٩٧٥م

ـ مجلة معهد الدِّراسات القبطيَّة، القاهرة، ١٩٥٨م، ص ٥٦ ـ ٥٨

ـ مجلة مدارس الأحد، العدد الثامن، السَّنة الثانية عشر، أكتوبر ١٩٥٩م، ص ١٢

ـ الدكتور مراد كامل، العصر القبطي في تاريخ الحضارة المصريَّة، ص ٢٥٤، ٢٥٥

ـ الأب هنري داليس الدُّومينكي، الطَّقوس الشَّرقيَّة، المعهد الكاثوليكي بالمعادي، القاهرة، ١٩٦٨م.

ـ الأب لويس شيخو، التراث العربي المسيحي، وزراء النصرانيَّة وكتَّابها في الإسلام، ١٩٨٧م. صفحات كثيرة متفرقة.

ـ الأب الدكتور جورج شحاته قنواتي، المسيحيَّة والحضارة العربيَّة، دار الثقافة، القاهرة، ١٩٩٢م.

ـ مجلة صديق الكاهن، أعداد سبتمبر وديسمبر ١٩٧٢، مارس ١٩٧٣

_ J. G. Davies, *A Dictionary of Liturgy and Worship*, London, 1984.

_ Burmester, *The Egyptian or Coptic Church*, p. 16_ 17 ; 46_ 49.

_ R.p. Paul Sbath, *Manuscrits arabes d'auteurs coptes*, dans BASC, t. V, 1939, p. 159_ 171.

- GRAF, G., *Geschichte der christlichen arabischen Literatur* Vol. IV, Città del Vaticano, 1944, p. 114.

أما الأدب القبطي الصَّميم الخالي من تأثيرات يونانيَّة فقد ظهر في كتابات كل من الأنبا أنطونيوس والأنبا باخوميوس اللّذان لم يعرفا غير اللُّغة القبطيَّة. هذا الأدب القبطي الصَّميم كان له مركزان هما وادي النَّطرون للّهجة البحيريَّة ولاسيَّما في دير القدِّيس أنبا مقار، والدَّير الأبيض[٢] ومعه الأديرة الباخوميَّة بالصَّعيد للّهجة الصَّعيديَّة. وحتى ديري القدِّيسَين الأنبا أنطونيوس والأنبا بولا بالصَّحراء الشَّرقيَّة كان بهما يوماً مكتبتان غنيَّتان بالكنوز القديمة لا يقل حادث تدميرهما أهميَّة عن التَّدمير الأقدم زمنياً والذي جرى لمكتبة الإسكندريَّة[٣]. وهكذا نرى أن أديرة الرُّهبان كانت معاقل للأدب القبطي الصَّميم بلهجتيه.

على أنه يلزم التَّنويه إلى حدوث تأثيرات يونانيَّة على مراكز الرَّهبنة في الوجه البحري في مصر برغم استخدامها الواسع للُّغة القبطيَّة. فإيفاجريوس البُنطي (٣٤٥- ٣٩٩م) وهو أحد المشاهير في القلالي - وهي أحد التَّجمُّعات الرَّهبانيَّة الأساسيَّة في هذا الوَقت - كان يستخدم اليونانيَّة. ولكن يمكننا القول أن اليونانيَّة أخذت تتقهقر وتتراجع بمقدار النُّمو المضطَّرد الذي انتشرت به المسيحيَّة بين الرِّيفيين.

ولقد كانت الأسبقيَّة في اللّهجات القبطيَّة للّهجة الصَّعيديَّة، ولو أن استعمال اللّهجة الفيوميَّة كان لا يزال باقياً. أما اللّهجتان الأخميميَّة والأسيوطيَّة فليس لدينا من الوثائق ما يثبت وجودهما في ذلك الوقت. في

٢- لما جاء الأنبا شنوده رئيس المتوحِّدين (٣٨٣- ٤٥١م) والذي لم يكن يكتب بغير القبطيَّة، وتولى رئاسة الدَّير الأبيض بسوهاج سنة ٣٨٣م صار الدَّير هو المهد الحقيقي للثَّقافة القبطيَّة للكنيسة القبطيَّة في صعيد مصر ومركزاً للأدب القبطي في لهجته الصَّعيديَّة، وهي اللُّغة الكلاسيكيَّة القديمة للكتابات القبطيَّة في أزهى عصورها. ولازالت خطب ومواعظ الأنبا شنوده شاهدة على ذلك.

٣_ ألفريد بتلر، الكنائس القبطية القديمة في مصر، الجزء الثاني، ترجمة إبراهيم سلامة، ص ١٨٩

حين أن أقدم ما كُتب باللَّهجة البحيريَّة لم يبلغ في القدم ذلك العصر. أما اللَّهجة القبطيَّة اللِّيتورجيَّة الحاليَّة أي المستخدمة في الكنائس فهي اللَّهجة البحيريَّة، وهي لهجة الوجه البحري في مصر، وكان مركزها دير القدِّيس مقاريوس ببريَّة شيهيت، كما سبق أن ذكرتُ، حيث بدأت هذه اللَّهجة تأخذ مكانها في اللِّيتورجيَّة في نفس السَّنة التي تنيَّح فيها الأنبا شنوده رئيس المتوحِّدين(٤). ومنذ مجمع خلقيدونية سنة ٤٥١م وما تعرَّض له الأقباط في مصر من اضطهاد بسبب رفضهم مقرَّرات هذا المجمع، كان دير القدِّيس أنبا مقار ملاذاً للبطاركة الذين أُجبروا عنوة على ترك الإسكندريَّة مقرِ كرسيهم حيث أصبح الدَّير مركز إشعاع لكل الكنيسة القبطيَّة. ولقد تخرج منه تسعة وعشرون بطريركاً، وهو عدد كبير لم يقدِّمه أي دير آخر لخدمة الكرازة المرقسيَّة.

وبعد أوائل القرن الحادي عشر لا يمكننا العثور على وثائق باللَّهجة الفيوميَّة، بينما نجد أن اللَّهجة البحيريَّة بدأت تحل محل اللَّهجة الصَّعيديَّة، في الطقوس الكنسيَّة حتى في صعيد مصر.

ويرجع آخر مصنَّف قبطي خالص إلى القرن الثَّاني عشر، أما استعمال اللُّغتين القبطيَّة والعربيَّة جنباً إلى جنب في مخطوطات الكنائس فيدل على تقدُّم اللُّغة العربيَّة المضطَّرد خلال القرنين الثَّاني عشر والثَّالث عشر. ولم يكن النَّشاط الأدبي الخصيب في تلك الفترة إلاَّ نشاطاً عربياً في مجمله. وإن آخر ما تحرَّر باللَّهجة الصَّعيديَّة يرجع إلى هذا العهد، غير أن تلك اللَّهجة على كل حال ظلَّت لغة الكلام في كثير من القرى المتفرِّقة بمصر العُليا.

4- Robert Taft, *The Liturgy of the Hours in East and West*, p. 250.

ولقد بُدء في وضع قواعد وقواميس للغة القبطيَّة بدءاً من القرن الثَّالث عشر الميلادي حينما ظهرت الحاجة إليها في ذلك الوَقت. فكُتُب قواعد اللُّغة القبطيَّة تُسمى "مقدِّمات - Preface" أمَّا قواميس مفردات اللُّغة فتُسمى "سلالم - Scala".

ومن أهم مؤلِّفي هذه القواعد والقواميس أي المقدِّمات والسَّلالم: يوحنا أسقف سمنود، الوجيه القليوبي، الثِّقة بن الدُهيري، ابن كاتب قيصر، هبة الله، أبو اسحق بن العسَّال، أبو شاكر، أبو البركات، أثناسيوس أسقف قوص(٥).

ولقد مرَّ على الكنيسة القبطيَّة عدَّة قرون كاد الإنتاج الأدبي فيها أن يتوقَّف. وكل ما يستطيع المؤرِّخ أن يسجله عن هذه الفترة هو بعض أعمال أدبيَّة غير متكاملة، أي مجرَّد كتابات دينيَّة متناثرة. فحتى القرن السَّابع عشر الميلادي لا نجد سوى بعض كتابات عن الاعتراف بالإيمان، وبعض الكتابات الأخرى ذات الهدف الرِّعائي المباشر — أي الوعظ — ولقد بقيت هذه الأخيرة هي الطَّابع الغالب حتى زمن قريب(٦).

ولقد تم إنقاذ القليل من الكنوز الأدبيَّة القبطيَّة التي لا تقدَّر بثمن، بينما دُمِّر الكثير منها. ولعل آخر حادث تدمير من هذا النَّوع كان في سنة ١٨١٢م عندما نهب المماليك مائة مخطوط مكتوب على الرِّق بالدَّير الأبيض قرب سوهاج، ضمن ما نهبوا من محتويات الدَّير، وخرَّبوا المكان(٧).

وجدير بالذِّكر أن كثيراً من النُّصوص القبطيَّة التي فُقدت يمكن أن

5- GRAF, G., *Geschichte der christlichen arabischen Literatur* Vol. I, Città del Vaticano, 1944, p. 299.

6- GRAF, G., *op. cit.*, Vol. IV, p. 114.

٧ـ ألفريد بتلر، الكنائس القبطية القديمة في مصر، الجزء الثاني، ترجمة إبراهيم سلامة، ص ١٨٩

نجدها في ترجماتها العربيَّة التي تمَّت في القرون الوسطى. لذلك صارت اللُّغة العربيَّة هامة جداً للحفاظ على التَّقليد القبطي القديم(٨). وإن ٨٠ % من الأدب القبطي سواء في لغته اليونانيَّة أو القبطيَّة لم ير النُّور حتى اليوم، سواء من جهة نقله إلى العربيَّة، أو أن ما تُرجم منه إلى العربيَّة لازال حبيس مخطوطات تُعد بالآلاف مبعثرة في مكتبات العالم المختلفة(٩).

أما دراسة اللُّغة القبطيَّة في العصور الحديثة فتعود إلى كتاب Kircher's Prodromus Coptus الذي طُبع سنة ١٦٣٦م. وبعد ذلك بثمانين عاماً نشر بلومبرج Blumberg كتاباً عن قواعد اللُّغة القبطيَّة. وفي سنة ١٧٧٨م نشر روفائيل الطوخي بحثاً عنوانه Rudimenta Linguae Copticae أي "مبادئ اللُّغة القبطيَّة". ولكن أوَّل دراسة علميَّة لقواعد اللَّهجات الثلاث كتبها تاتام Tattam ونُشرت سنة ١٨٣٠م.

ولقد قدَّمت جامعة أكسفورد خدمات عظيمة لدراسة اللُّغة القبطيَّة. وقدَّم الدكتور مارشال Marshall عميد كلية لنكولن Lincoln طبعة جيِّدة لكتاب العهد الجديد باللُّغة القبطيَّة، ومعها ترجمة لاتينيَّة وبعض التَّعليقات. ولكن العمل لم يكتمل بسبب وفاة العميد المفاجئة، وكانت أوَّل ملزمة قد وصلت بالفعل إلى المطبعة. وهناك دارس من جامعة كمبردج هو توماس إدوارد Thomas Edward استطاع طباعة العهد الجديد بالقبطيَّة مع معجم للُّغة القبطيَّة في القرن السَّابع عشر. واستمرت جهود كثير من العُلماء في إنجلترا في طبع ودراسة مؤلَّفات عن اللُّغة القبطيَّة حتى سنة ١٧٩٩م.

8_ Briger A. Pearson & James E. Goehring, *The Roots of Egyptian Christianity*, U.S.A., 1986, p. 95.

9_ *Ibid.*, p. 96.

وفي خلال القرن التَّاسع عشر ضاعت إنجازات القرنين السَّابع عشر والثّامن عشر في طوايا النّسيان[١٠]. واليوم وبعد أن دخلنا القرن الحادي والعشرين، فقد صدرت دراسات للّغة القبطيّة بالكتابة والصَّوت والصُّورة، وبأكثر من لهجة لها وذلك باستخدام الكومبيوتر، إضافة إلى ترجمة كاملة للعهد الجديد بالقبطيَّة في لهجتيها البحيريَّة القديمة والحديثة، في تقدُّم تكنولوجي مذهل كلّل جهود السَّابقين.

الأدب القبطي المدوَّن باللُّغة العربيَّة

بعد أن أصبحت اللُّغة العربيَّة في مصر هي اللُّغة الوحيدة التي يمكن التَّعبير بها عن الأفكار والمفاهيم في شتى صورها، اتجه الأقباط إلى الكتابة بها بدءاً من القرن العاشر. ففي غضون القرن التَّاسع الميلادي كان معظم المتعلّمين من الأقباط يتكلّمون ويكتبون اللُّغة العربيَّة، وهو ذات الوقت الذي بدأت فيه اللُّغة القبطية تنحو نحو الاختفاء على الأقل في المدن[١١].

وكما سبق أن ذكرتُ، فقد كان الأنبا ساويرس أسقف الأشمونين (القرن العاشر) هو أوَّل من أدرك هذا الأمر، إذ يشكو في مؤلّفه "سيَر البيعة المقدَّسة" أو "تاريخ بطاركة كنيسة الإسكندريَّة" أنه لم يعد أحد يفهم القبطيَّة، ولذلك كتب كل مؤلّفاته الـ ٢٠ أو ٢٦ بالعربيَّة.

ومما يؤكد الميل المتزايد إلى التَّعريب، أنه لم يعد لدينا مؤلّفات بالقبطيَّة بعد القرن التَّاسع الميلادي، ولكن لدينا فقط ندرة من التَّرجمات إلى القبطيَّة.

---

١٠ ـ ألفريد بتلر، الكنائس القبطية القديمة في مصر، الجزء الثاني، مرجع سابق، ص ٢٠٢، ٢٠٣

11_ Briger & Goehring, *The Roots of Egyptian Christianity*, p. 83.

في ذلك الوقت احتلّت القاهرة والدّلتا مكان طيبة القديمة كمركز للجماعات القبطيَّة لأسباب اجتماعيَّة واضحة، وهو ما يفسّر لنا سبب اختفاء اللّهجة القبطيَّة الصّعيديَّة، وتطوُّر اللّهجة القبطيَّة البحيريَّة. ولقد بلغت المؤلّفات العربيَّة للأقباط ذروتها في القرن الثّالث عشر، وهو القرن الذي يعتبر العصر الذّهبي للأدب القبطي في لغته العربيَّة.

ولقد قام الأقباط بجهد جبَّار في ترجمة الأدب القبطي القديم من اليونانيَّة أو القبطيَّة إلى العربيَّة Coptic Arabic Literature، وكان معظمه يدور حول سير القدِّيسين[١٢] Hagiographic ويتبعه ترجمة كثير من النُّصوص الإيمانيَّة من اللُّغات القبطيَّة والسِّريانيَّة واليونانيَّة إلى العربيَّة طالما لا تتعارض مع عقيدة الكنيسة القبطيَّة[١٣]. ويشير الجزء الأوَّل من الأجزاء الخمسة من كتاب "تاريخ الأدب العربي المسيحي GCAL" للعالم الألماني جورج جراف[١٤] George Graf إلى هذا الجهد العظيم للأقباط الذين استطاعوا بمفردهم في غضون القرون الوسطى أن يقدِّموا إنتاجاً أدبياً عربياً يوازي ما قدَّمته كل الكنائس الشَّرقيَّة الأخرى مجتمعة[١٥] (النَّسطوريَّة والملكانيَّة والسِّريانيَّة والمارونيَّة). وذلك لسببين:

السَّبب الأوَّل: أن الأقباط كتبوا باللُّغة العربيَّة فقط، بينما باقي المجتمعات الكنسيَّة الأخرى كتبوا أيضاً بالسِّريانيَّة واليونانيَّة.

السَّبب الثاني: أن عدد الأقباط آنئذ كان يساوي تقريباً أعداد المسيحيين الشَّرقيِّين في العالم العربي كله.

١٢- تعود أهمية هذه الترجمات إلى أن كثيراً من المخطوطات القبطية التي حوت هذه السير مفقودة، و لم تحفظ لنا سوى في ترجمتها العربية.

13_ Briger & Goehring, *op. cit.*, p. 95.

14_ George Graf, *Geschichte der Christlichen arabischen Literatur*, 1944.

15_ Briger & Goehring, *op. cit.*, p. 84.

ولكي نحجِّم حديثنا نورد هنا ثبتاً بأهم المؤلِّفين الأقباط الذين كتبوا بالعربيَّة في العصور الوسطى في الشؤون الدِّينيَّة فحسبْ دون غيرها من التآليف الأخرى، وذلك بدءاً من القرن العاشر وحتى القرن التاسع عشر، إذ أن الكم الضَّخم من المؤلَّفات الدِّينيَّة التي صدرت في القرن العشرين ينوء بها هذا الكتاب، وهو ما يحتاج إلى عمل قائم بذاته. ولقد أصدرت بالفعل جمعيَّة مار مينا العجائبي للدِّراسات القبطيَّة بالإسكندريَّة في سنة ١٩٩٥م كتاباً بعنوان: "قاموس التَّراجم القبطيَّة"، وهو أحدث كتاب صدر في المكتبة القبطيَّة يجمع كل ما سبقه من مجهودات في هذا المجال. ولكن الكتاب المذكور اكتفى بإيراد عيِّنة من المؤلَّفات للكتَّاب الذين أرَّخ لهم، وحسبُنا أن تكون الفائدة أشمل وأعم إن كان قد أورد ثبتاً وافياً بأسماء كافة المؤلَّفات الدِّينيَّة التي صدرت في القرن العشرين. ولكنه مع ذلك جهد مُبارك تُشكر عليه جمعيَّة مار مينا العجائبي للدِّراسات القبطيَّة.

القرن العاشر

• الأنبا ساويرس بن المقفَّع[١٦] أسقف الأشمونين

هناك ثلاثة تواريخ فقط محدَّدة في حياة أنبا ساويرس هي:

- نوفمبر سنة ٩٥٠م حين ألَّف كتاب "تفسير الأمانة".
- سبتمبر سنة ٩٥٥م حين أعاد تأليف كتاب "تفسير الأمانة"[١٧].

١٦- هو غير عبد الله ابن المقفع، الأديب الفارسي الأصل الذي عاش في القرن الثامن الميلادي. انظر أيضاً: مؤرخون قدامى كتبوا لمصر.

١٧- يقول في ذلك: "قد كنا، رعاكم الله، عملنا هذه الأمانة تفسيراً قبل هذا، وضاع الكتاب الذي عملناه. إلا أنا قد اجتهدنا أن يكون ما أتينا به في هذا الكتاب، قريب المعاني من ذلك الكتاب بعينه. فمن وجد ذلك الكتاب، ووقع به، فلا ينكر مخالفة ألفاظه لكتابنا هذا، على أي التفسيرين أحب. فكل كاف شاف".

- سنة ٩٨٧م حين ساهم في تحرير الرِّسالة المجمعيَّة إلى بطريرك الكنيسة السِّريانيَّة.

أما ما نضيفه من تواريخ بعد ذلك فما هو إلاّ استنتاج ومحاولة[١٨]. والأنبا ساويرس هو أسقف مصري وُلد حوالي سنة ٩١٥م من والد لُقب بالمقفَّع أي "المنكَّس الرَّأس أبداً"، أو "المتشنِّج اليَد". وأغلب الظَّن أنه نشأ في مدينة مصر القديمة، لأن الأنبا يوساب أسقف فوَّه قال عنه: إنه كان "كاتباً من أهل مصر"، تدرَّج في الوظائف أيام الدَّولة الإخشيديَّة حتى غدا من الكُتَّاب الماهرين. ولكنه ما عتم أن تخلى عن منصبه، وأمجاد الدُّنيا، وترهَّب في أحد الأديرة، ثم رُسم أسقفاً على مدينة الأشمونين، وبرع في العلوم الدِّينيَّة، ولقي من جرَّاء ذلك حظوة عند الخليفة المعز، وكان الخليفة محباً للعلم وأهله.

ويقول الأب سمير خليل اليسوعي، وهو متخصِّص في دراسة التُّراث العربي المسيحي: "لقد قرأنا عشرات، بل قُل مئات، من مؤلَّفات النَّصارى العرب، إلاّ أننا لم نجد أبداً خلال دراستنا للمفكِّرين العرب، من يضاهي ساويرس في معرفته للكتاب المقدَّس ... ففي كتابه المعروف بكتاب: الدُّر الثَّمين في إيضاح الدِّين، يذكر ساويرس ١١٦١ نصاً كتابياً ... كذلك معرفته لآباء الكنيسة تفوق مستوى معاصريه؛ ففي نفس كتاب "الدُّر الثَّمين" المذكور أحصى النَّاشر الألماني ١٩١ مرجعاً لآباء الكنيسة، سوى نصوص أخرى لم يعتبرها من التُّراث الآبائي ... وإذا تذكَّرنا أن كثيراً من هذه النُّصوص، أو قُل معظمها، لم تكن مترجمة بعد إلى اللُّغة العربيَّة، لفهمنا المجهود الجبَّار الذي بذله ساويرس للتعرُّف

انظر: ساويرس بن المقفع، كتاب مصباح العقل، تقديم وتحقيق الأب سمير خليل اليسوعي، القاهرة ١٩٧٨م، ص ١٤

١٨ـ ساويرس بن المقفع، كتاب مصباح العقل، مرجع سابق، ص ٧

على الآباء في الأصول ...[١٩]".

ولا نعرف تاريخ وفاة الأنبا ساويرس بن المقفع، إلاّ أنه كان لا زال حياً سنة ٩٨٧م حيث ساهم في تحرير الرِّسالة المجمعيَّة إلى بطريرك السِّريان.

ولقد وصلتنا قائمتان خاصتان بمؤلّفاته، الواحدة تشير إلى عشرين مؤلّفاً[٢٠]، والأخرى إلى ستة وعشرين مؤلّفاً[٢١]، بعضها مطبوع، وبعضها مخطوط، ولكن الجزء الأكبر منها قد فُقد[٢٢].

والقائمة التي يذكرها أبو البركات هي:

١ـ في التَّوحيد.
٢ـ في الاتحاد.
٣ـ الباهر، في الرَّد على اليهود والمعتزلة.
٤ـ البليغ، في الرَّد على اليهود والمعتزلة.
٥ـ في الرَّد على سعيد بن بطريق الملكي[٢٣]، البطريرك المعروف بابن الفراش، صاحب التَّاريخ.
٦ـ الشَّرح والتَّفصيل في الرَّد على نسطور وشيعته.
٧ـ رسالة في الدِّيانة، كتبها إلى أبي اليُمن قزمان بن مينا الكاتب[٢٤].
٨ـ نظم الجوهر والدُّر، في الرَّد على القول بالقضاء والقدر.

١٩ـ ساويرس بن المقفع، كتاب مصباح العقل، مرجع سابق، ص ١١
٢٠ـ ذكر أنبا ميخائيل أسقف تنيس، سنة ١٠٥١م، عشرين كتاباً وصلت إليه، ثم أضاف: "سوى ميامر، وتفاسير، وأجوبة مسائل، لأبي البشر ابن جارود الكاتب المصري"
انظر: سير البيعة المقدسة، المجلد الثاني، الجزء الثاني، مرجع سابق، ص ١٠٩
٢١ـ القس أبو البركات، مصباح الظلمة في إيضاح الخدمة، مرجع سابق، الباب السابع.
٢٢ـ الأب الدكتور جورج شحاته قنواتي، المسيحية والحضارة العربية، مرجع سابق، ص ٢٥٥
٢٣- وقد نشر هذا الكتاب الأب بطرس شبلي Chébli في مجموعة الآباء الشرقيين سنة ١٩٠٥م.
٢٤- نشره الأب سمير خليل اليسوعي.

٩ـ المجالس.
١٠ـ طب الغم، وشفاء الحزن، وتهذيب الأخلاق(٢٥).
١١ـ المجامع(٢٦).
١٢ـ تفسير الأمانة الأرثوذكسيَّة(٢٧).
١٣ـ رسالة في حال الأطفال، من المؤمنين والكفَّار، وكيف تقوم النَّفس في الحُكم.
١٤ـ في الاستبصار، وهو مصباح العقل(٢٨).

٢٥- الكلمتان الأخيرتان غير موجودتين في قائمة أنبا ميخائيل أسقف تنيس، ولا في عناوين المخطوطات المعروفة، ونشر الأب سمير خليل بحثاً عن مخطوطات هذا الكتاب في مجلَّة لوميزيون Le Museon المجلد ٨٩ (لوفان ١٩٧٦م)، وقد أعد الدكتور رفعت يسي عبيد هذا الكتاب للطبع.

انظر: ساويرس بن المقفع، كتاب مصباح العقل، مرجع سابق، ص ٣٤

٢٦- يبدو أن هذا الكتاب هو عينه الكتاب المذكور في البند ٥، وكتاب المجامع في أربعة فصول للرَّد على سعيد بن البطريق الملكي ومن ينتحل مذهب الملكيَّة، وألفه سنة ٩٥٥م. وقد نشر هذا الكتاب الأب بطرس شبلي Chébli في مجموعة الآباء الشرقيين سنة ١٩٠٥م.

Cf. P. Chébli, *Réfutation de Saaid Ibn_ Batriq (Eutychius)*, Le Livre des Conciles, in Patr. Orien., t. III, 1905, p. 121_ 142.

وقد أَلَّف الأنبا ساويرس تكملة لهذا الكتاب سماه "الكتاب الثاني"، ويشمل تسعة فصول تحوي نفس موضوع الكتاب الأوَّل، ولكن بشئ من الإسهاب. أما الفصل العاشر فهو شرح وتوضيح لقانون الإيمان النيقاوي القسطنطيني. وقد نشر الأب لوروى هذا الكتاب الثاني.

L. Leroy, Sévére ibn al_ Mukaffa, *Histoire des Conciles* (Second Livre), Patr. Orien., t. VI, 1900, p. 465_ 600.

٢٧- طبعه الأب لوروى L. Leroy

٢٨- نشره الأب سمير خليل تحت عنوان "كتاب مصباح العقل"، في القاهرة سنة ١٩٧٨م، ويذكر أنبا ميخائيل أسقف تنيس أن بعض كتب الأنبا ساويرس تحمل أكثر من اسم للكتاب الواحد، وربما كان للكتاب اسمان (سير البيعة المقدسة، المجلد الثاني، الجزء الثاني، مرجع سابق، ص ١٠٩، ١١٠). وهو ما يدل على انتشار كتب أنبا ساويرس، حيث اختلفت أسماؤها لكثرة نقلها ونسخها وتداولها.

١٥- السِيَر. أو سِيَر البيعة المقدَّسة[٢٩].
١٦- الانتصار.
١٧- ترتيب الكهنوت، وهو الإنباء عن طقوس الكنيسة[٣٠].
١٨- في اختلاف الفرق[٣١].
١٩- في الأحكام[٣٢].
٢٠- إيضاح الاتحاد، والقول على تجسد الرَّب له المجد[٣٣].
٢١- تفسير الأناجيل المقدَّسة.
٢٢- أجوبة مسائل بن جارود.

٢٩- هو الكتاب المعروف بـ "تاريخ بطاركة كنيسة الإسكندرية"، وقد طُبعت أجزاء من الكتاب لأول مرة بواسطة المستشرق الألماني ريكوبف Rehkopf في سنة ١٧٥٩م، وطبعه بالكامل المستشرق الألماني زيبلد Seybold في بيروت سنة ١٩١٠م، وتُرجم إلى اللاتينية والإنجليزية. أما ما طُبع في القاهرة تحت إشراف "جميعة الآثار القبطية"، بدءًا من سنة ١٩٤٣م، حتى اليوم، فهو لا يمت لساويرس بن المقفع بصلة، بل لكتّاب أتوا بعده وأكملوا عمله، فنُسب كل العمل لأنبا ساويرس.

٣٠- طبعه المستشرق الألماني يوليوس أسفلج Julius Assfalg مع ترجمة ألمانية وبحث مستفاض، في القاهرة سنة ١٩٥٥م، ويشك الأب سمير خليل في أن يكون النص المطبوع هو هو نص ساويرس.
انظر: كتاب مصباح العقل، مرجع سابق، ص ٣٥

٣١- طبعه المستشرق أسفلج Julius Assfalg في نهاية كتاب "ترتيب الكهنوت"، وطبع خلاصته الأب سمير خليل في مجلة "رسالة الكنيسة" سنة ١٩٧٠م، ثم حققه الأب سمير خليل، ونشره. وكان المطران بطرس كامل مدور قد طبعه بكامله تحت عنوان "في الفرق بين القبط والملكية".

٣٢- ذكره الأنبا ساويرس في كتابه "مصباح العقل"، ويبدو أن هذا الكتاب مفقود.

٣٣- هذا الكتاب إما أن يكون "كتاب الدُّر الثمين في إيضاح الدِّين"، وإما أن يكون المقالة الثانية من كتاب "الإيضاح"، وعنوانها "كتاب إيضاح تأنُّس ابن الله وصلبه". وأشار ساويرس إلى كتاب "إيضاح الاتحاد" في كتابه "مصباح العقل". ولقد طبع مرقس جرجس كتاب "الإيضاح" تحت عنوان "الدُّر الثَّمين في إيضاح الدِّين" في القاهرة سنة ١٩٢٥م، ثم طبعته مدارس التربية الكنسية بشبرا في سلسلة "من تراث الآباء" تحت عنوان "الدُّر الثَّمين في إيضاح الدِّين"، وهي طبعة معتمدة على طبعة مرقس جرجس، إلاَّ أنها لم تورد المقالة التاسعة.

٢٣- شرح أصول الدِّين، وترتيب الخدمة والبُخور، ورشم الصَّليب، ونسبة السيِّدة.
٢٤- كتاب البيان المختصر في الإيمان[٣٤].
٢٥- كتاب المثاليَّات والرُّموز[٣٥].
٢٦- كتاب التَّعاليم في الاعتراف بالذُّنوب[٣٦].

ويذكر أيضاً أنبا ساويرس أسقف الأشمونين أسماء ثلاثة كتب ذكرها هو نفسه في المقالين الخامس والثَّامن من كتاب "الدُّر الثَّمين في إيضاح الدِّين"، وهي:

١- كتاب "تفسير التَّوراة وسفر يشوع بن نون"[٣٧].
٢- كتاب "تفسير الحروف"[٣٨].
٣- كتاب "بيان القتال"[٣٩].

٣٤- نشر الأب سمير خليل بعض أبوابه في مجلة "رسالة الكنيسة" سنة ١٩٧٦م، أمَّا الطَّبعة الكاملة له، فتجدها في سلسلة: التراث العربي المسيحي.
٣٥- من المحتمل أن يكون هذا الكتاب هو المقالة الثالثة من "كتاب الإيضاح".
٣٦- جدير بالذِّكر أن الكتاب الذي صدر بالعربيَّة تحت عنوان "ذبيحة الاعتراف"، ونشره أبناء البابا كيرلس السَّادس منسوباً إلى الأنبا ساويرس بن المقفع، لا علاقة له به البتَّة، ولكنه كتاب "المعلم والتِّلميذ" للقس مرقس بن القنبر. وكان محروماً من الكنيسة القبطية آنئذ. وقد أثبتُ ذلك الأمر إثباتاً علمياً موثقاً، وذلك في كتاب "التَّاريخ الطَّقسي لسرّ التَّوبة والاعتراف"، فارجع إليه إن رغبت.
٣٧- انظر: الأنبا ساويرس بن المقفع، الدُّر الثَّمين في إيضاح الدِّين، مرجع سابق، ص ١٢٣ وهذا الكتاب هو نفسه عنوان المقال الثالث من كتاب "الدُّر الثَّمين في إيضاح الدين" وهو: "كتاب تفسير كلام من سفر يشوع بن نون والتَّوراة يحقق المذهب المسيحي".
٣٨- انظر: الأنبا ساويرس بن المقفع، الدُّر الثَّمين في إيضاح الدِّين، مرجع سابق، ص ١٧٦ وهذا الكتاب هو نفسه عنوان المقال الرَّابع من كتاب "الدُّر الثَّمين ..." وهو: "إيضاح تفسير الفصح والخروف وكيف يصير الخبز والخمر لحم المسيح ودمه".
٣٩- انظر: الأنبا ساويرس بن المقفع، الدُّر الثَّمين في إيضاح الدِّين، مرجع سابق، ص ١٧٦ وهذا الكتاب هو تقسه عنوان المقال الخامس من كتاب "الدُّر الثَّمين ..." وهو: "كتاب بيان القتال الذي يقاتل به الشياطين المؤمنين وكيف هؤلاء يغلبونهم".

مما يعني أنه ربما يكون كتاب "الدُّر الثَّمين في إيضاح الدين" ليس كتاباً واحداً للأنبا ساويرس ابن المقفع، بل مجموعة كُتُب له ضُمَّت معاً في كتاب واحد.

أما كتاب "تاريخ بطاركة الكنيسة المصريَّة"، المعروف باسم "سيَر البيعة" فهو أشهر كُتبه على الإطلاق، وقد أورد هذا الكتاب تاريخ بطاركة الكنيسة القبطيَّة حتى البابا شنوده الثَّاني (١٠٣٢- ١٠٤٦م) البابا الخامس والسِّتون من بطاركة الكنيسة القبطيَّة.

ولقد دوَّن أنبا ساويرس بنفسه تاريخ البطاركة حتى البابا شنوده الأوَّل (٨٥٩-٨٨٠م) الـ ٥٥ من بطاركة الكنيسة القبطيَّة.

وواصل **أنبا ميخائيل مطران تنيس** عمل الأنبا ساويرس في تسجيل تاريخ البطاركة، فدوَّن تاريخ عشرة بطاركة منذ سنة ٨٨٠- ١٠٤٦م، وكان آخرهم البابا شنوده الثَّاني (١٠٣٢-١٠٤٦م) الـ ٦٥ [٤٠].

وفي سنة ١٠٨٨م جمع **موهوب بن منصور بن مفرج الإسكندراني الشمَّاس** أفكار ساويرس المشتَّتة في أماكن مختلفة ونظَّمها، ووضع مقدِّمة بدل مقدِّمة ساويرس، وأدخل حياة مار مرقس غير الموجودة، وهذَّب بعض التَّعبيرات من جهة الأسلوب لتزداد وضوحاً، وأضاف فيما بعد ترجمة البطريرك المعاصر البابا خريستوذولوس (١٠٤٧-١٠٧٧م) الـ ٦٦[٤١]. وكان **الشمَّاس أبو حبيب ميخائيل ابن بدير** يساعده على نسخ

٤٠ـ انظر: تاريخ بطاركة الكنيسة المصريَّة المعروف بسير البيعة المقدسة، لأنبا ساويرس بن المقفع، المجلد الثاني، الجزء الثالث، القاهرة، ١٩٥٩م، ص ١٧٢

٤١- أول من نشر النص العربي لموهوب بن منصور هو المستشرق الألماني Christian Friedrich Seybold بمجموعة الـ CSCO وقد تولت جمعية الآثار القبطية تكملة نشر هذا التاريخ، وقام بهذا العمل العالمان يسّى عبد المسيح، وبورمستر،

السِيَر وتفسيرها من القبطي إلى العربي[٤٢].

ثم أضاف **يوحنا بن سعيد بن يحيي بن مينا**، الملقب **بابن القلزمي**[٤٣] ترجمة لحياة ثلاثة بطاركة هم البابا كيرلس الثّاني (١٠٧٨- ١٠٩٢م) الـ ٦٧، والبابا ميخائيل الرّابع (١٠٩٢- ١١٠٢م) الـ ٦٨، والبابا مكاريوس الثّاني (١١٠٢- ١١٢٨م) الـ ٦٩ .

أما البابا مرقس الثّالث بن زرعة (١١٦٦-١١٨٩م) الـ ٧٣ فقد أورد سير الثلاثة بطاركة الذين سبقوه وهم: البابا غبريال الثّاني بن تريك (١١٣١- ١١٤٥م) الـ ٧٠، والبابا خائيل الخامس (١١٤٥- ١١٤٦م) الـ ٧١، والبابا يؤانس الخامس (١١٤٦-١١٦٦م).

ولا يُعرف من الذي قام بترجمة سير البطاركة التّاليين من البابا مرقس الثّالث إلى البابا كيرلس الثّالث الـ ٧٥ بن لقلق الذي رُسم بطريركاً سنة ١٢٣٥م.

• يوسف بن رجا

ويُسمى أيضاً الواضح بن رجا. وكان مسلماً واستنصر، وهرب من اضطهاد عائلته إلى وادي هبيب وترهَّب، وارتبط بصداقة وثيقة مع أنبا

وشاركهما الدكتور عزيز سوريال عطية، وذلك في مجموعة "الآباء الشّرقيِّين" Patrologia Orientalis .

٤٢- انظر: انظر: تاريخ بطاركة الكنيسة المصريَّة المعروف بسير البيعة المقدسة، لأنبا ساويرس بن المقفع، المجلد الثاني، الجزء الثالث، مرجع سابق، ص ١٨٦

٤٣- ورد في تاريخ البطاركة باسم "يوحنا ابن صاعد القلزمي".
انظر: انظر: تاريخ بطاركة الكنيسة المصريَّة المعروف بسير البيعة المقدسة، لأنبا ساويرس بن المقفع، المجلد الثاني، الجزء الثالث، مرجع سابق، ص ٢٢٩

ساويرس بن المقفّع، وعملا سوياً في تأليف بعض الكُتُب. وقد كتب بن رجا ثلاثة كتب متَّصلة بالعقيدة الإسلاميَّة لم تُكشف إلاّ منذ عهد قريب[٤٤]. وله من الكتب:

- كتاب الواضح.
- نوادر المفسرين وتحريف المخالفين.
- الإبانة في تناقض الحديث.

• إبراهيم بن عدي

وهو شقيق يحيي بن عدي، وقد تتلمذ للفارابي. ولم يكن في اتفاق دائم مع أخيه في الآراء الفلسفيَّة[٤٥].

في القرن الحادي عشر

• بقيره الشمَّاس

استشهد سنة ١٠٠٧م، وكان شماساً وكاتباً، أتى يوماً إلى قصر الحاكم بأمر الله، وأعلن أن المسيح هو ابن الله، فأوثقوه ثم قتلوه.

• أبو صلح يونس بن عبد الله سديد بن بانا

مؤلّف كتاب "مختصر القانون الكنسي" وهو مبني على الوثائق القبطيَّة العديدة المنسوبة إلى الرُسُل، والمجامع الكنسيَّة، وهو ينقسم إلى ٤٨ قسماً.

---

٤٤ ـ الأب د. شحاته قنواتي، المسيحية والحضارة العربية، مرجع سابق، ص ٢٥٨

٤٥ ـ لويس شيخو، التراث العربي المسيحي، وزراء النصرانية وكتابها في الإسلام، مرجع سابق.

• عبد المسيح الإسرائيلي المتنصِّر

وكان يهودياً اهتدي إلى المسيحيَّة. وأحد مصادر معرفة نشاطه العلمي جاء في مقدِّمة كتاب اسمه "كتاب الاستدلال لعبد المسيح الإسرائيلي الرقي، الذي تنصَّر في القاهرة على يد الشَّيخ منصور بن سهلان الطبيب"، وهذا الطبيب هو الطبيب المسيحي المشهور أبو الفتح منصور بن سهلان بن مقشر الذي توفي في أيام الخليفة الحاكم (٩٩٦- ١٠٢١م).

وله من الكُتُب:

- مقالة في إثبات مجئ السيد المسيح.
- مقالة في النَّفس.
- مقالة في الرَّد على اليهود.
- مقالة في انتصار الصَّليب على اليهوديَّة والوثنيَّة.

• ميخائيل مطران تنيس

ألَّف تاريخ البطاركة منذ سنة ٨٨٠- ١٠٤٦م، وسبق لنا ذكره.

• كتاب اعتراف الآباء

لمؤلف قبطي مجهول، يرجع تاريخه إلى سنة ١٠٧٨م. وقد اختار مقالات كاملة من آباء الكنيسة وترجمها إلى العربيَّة، وأضاف عليها بعض النُّصوص التي سبقت ترجمتها مثل الدِّسقوليَّة، والوثائق الخاصة بالمجامع ... الخ. وكان آخر شاهد استعان به هو البابا خريستوذولس الـ ٦٦.

• البابا كيرلس الثَّاني

هو البابا الإسكندري الـ ٦٧ من باباوات الكرازة المرقسيَّة (١٠٧٨- ١٠٩٢)، وهو شخصيَّة تقويَّة، وافرة الحماس أصدر سنة

١٠٨٦م نشرة رعويَّة تضمَّنت ٣٤ قانوناً منصبَّة بالأكثر على الواجبات الرعويَّة، وتنظيم القضاء الكنسي، وأموراً طقسيَّة.

في القرن الثَّاني عشر

• البابا غبريال بن تُريك

وهو البطريرك السَّبعون من باباوات الكرازة المرقسيَّة (١٠٨٤-١١٤٥م)، رُسم بطريركاً سنة ١١٣١م، وله مجموعة قوانين طقسيَّة.

• أنبا ميخائيل مطران دمياط

أوَّل أسقف قبطي يحمل لقب مطران، وكان مطراناً في زمن البطريرك مرقس بن زرعة الـ ٧٣ (١١٦٦- ١١٨٩م)، والبطريرك يؤانس بن أبي غالب (١١٨٩- ١٢١٦م). وكان له جدال مع أحد كهنته، المصلح مرقس بن قنبر الضَّرير. وقد توفي في أوائل القرن الثَّالث عشر.

وله من المؤلفات:

- سماء البغية لمن يطلب لنفسه الخلاص والنَّجاة يوم القصاص.
- رسالة إلى أحد علماء المسلمين.
- مختصر القوانين الكنسية.
- رسالة إلى أبي الفخر بن أبي كبر عند نزوعه إلى الملكيين.

• يوحنا بن ساويرس

كاتب مصري، أما ابن أخيه فهو أبو يوسف يعقوب بن ساويرس، ولقد دعاه ابن العسَّال "الشَّيخ الأجل الرَّئيس الحكيم الفاضل مصطفى الملك"، أما يوحنا بن ساويرس فله كتاب:

- العلم والعمل في كيفية وجوب البقاء[٤٦].

• يوحنا بن مينا

شرح مقالة لحنين بن اسحق في كيفية إدراك حقيقة الدِّيانة.

• القس أبو ياسر بن القسطال

كاهن قبطي، وعالم فاضل، مارس خدمته في نواحي طرا من ضواحي القاهرة. اهتم بإصلاح بعض العادات الدِّينية والاجتماعيَّة في الكنيسة، اضطُهد لسبب آرائه الإصلاحيَّة، وطُرد من كنيسة العدويَّة، ولكن ما ألقاه من بذور الإصلاح نبتت ونمت فيما بعد[٤٧]. وله

- مقالة في الدِّفاع عن المسيحيَّة[٤٨].

• القس مرقس بن موهوب بن قنبر

تسبَّب في أزمة خطيرة مرَّت بها الكنيسة القبطيَّة أواخر القرن الثَّاني عشر، عندما حاول أن يُدخل إصلاحات طقسيَّة ونظاميَّة في الكنيسة، فتصدى له أنصار القديم والتَّقليد، ودارت بينهم مجادلات حامية، ولم تصلنا هذه المجادلات إلاّ من خلال مقاوميه، ولهذا ليس من السَّهل الوقوف على حقيقة شخصيَّته. وكان بن قنبر من أنصار إعادة الاعتراف السِّري على الكاهن في الكنيسة، وكان قد أُهمل في الكنيسة القبطيَّة ردحاً من الزمان. إلاّ أنه شجَّع أيضاً التَّناول المتكرِّر خارج القدَّاس[٤٩]، وألغى

٤٦- طُبع في مصر سنة ١٩١٣م.

٤٧ـ لجنة التاريخ القبطي، خلاصة تاريخ المسيحية في مصر، القاهرة ١٩٣٢م، ص ١٤٣

٤٨- لا يوجد لها سوى نسخة واحدة مخطوطة محفوظة في باريس.

٤٩- أي الاحتفاظ بالقدسات (الجسد والدم الكريمين) ليتناول منها من يريد من الشعب دون ضرورة لإقامة قدّاس.

عادة الختان ... الخ، ولكنه تحوَّل إلى طائفة الملكيين، وإذ نشأت أيضاً خلافات بينه وبين رؤساء هذه الطّائفة، أراد العودة إلى كنيسته القبطيَّة، فأبعده البطريرك إلى دير القصير جنوب القاهرة، حيث مكث به عشرون سنة، وتوفي سنة ١٢٠٨م.

وألّف عدَّة كتب منها:

- التَّقويم السَّنوي وحساب الفصح، وكتبه سنة ١١٩٣م.
- المعلّم والتّلميذ[٥٠].
- المجموع فيما إليه الرُّجوع.
- تفسير التَّوراة.

• أبو صالح الأرمني

له كتاب "تاريخ الكنائس والأديرة" كتبه حوالي سنة ١٢٠٠م، وطُبع في أكسفورد سنة ١٨٩٥م. وفيه يصف أخبار نصارى مصر في زمانه، مع وصف أديرهم وبيعهم، وقد ثبت حديثاً أن الكتاب المذكور ليس من تأليفه، ولكنه من تأليف أبي المكارم. وفيه شرح مسهب لحركة الإصلاح التي قام بها مرقس بن قنبر[٥١].

• الرَّشيد أبو الخير أبو الطّيّب

قس وطبيب من أواخر القرن الثّاني عشر، وأوائل القرن الثّالث عشر، خدم الوزير تقي الدِّين عمر، أيام السُّلطان عثمان صلاح الدِّين (١١٩٣-

٥٠- وهو الكتاب الذي نشره حديثاً أبناء البابا كيرلس السَّادس تحت عنوان "ذبيحة الاعتراف" منسوبا للأنبا ساويرس بن المقفع. وبالكتاب بعض مؤاخذات على الكاتب. وقد شرحتُ ذلك بإسهاب في كتاب "سرّ التَّوبة والاعتراف".

٥١- طُبع الكتاب في أكسفورد سنة ١٨٩٥م، بهمة المستشرق إفتس Evetts مع ترجمة إلى الإنجليزية، وتعليق وحواشي وفهارس واسعة.

١١٩٨م). وله من المؤلفات:
- جلاء العقول في علم الأصول. ويُدعى أيضاً: "كشف الأسباب الخفيَّة في أسباب المسيحيَّة"، أو "ترياق العقول في علم الأصول".
- خلاصة معتقد الملة المسيحيَّة. وهو للرَّد على طائفتي الإسلام واليهوديَّة، وأصل مذاهبهم.
- البيان الأظهر في الرَّد على من يقول بالقضاء والقدر.

القرن الثَّالث عشر

اشتهر في هذا القرن بنو العسَّال، وهم عائلة قبطيَّة كبيرة من أعيان مصر في عهد المماليك، أما كبير العائلة وهو أبو بشر يوحنا فأصله من مدينة سدمنت بالفيوم، من أسرة القس بطرس السَّدمنتي، وكان كاتباً في الدَّواوين، وخلَّف ابناً سار على خطاه هو فخر الدَّولة أبو سهل جرجس. وهذا خلَّف ثلاثة إخوة مشهورين خدموا الدَّولة والكنيسة والعلم، هم: الأسعد أبو الفرج هبة الله، الصَّفي أبو الفضائل ماجد، والمؤتمن أبو اسحق إبراهيم بن فخر الدَّولة[٥٢].

• الأسعد أبو الفرج هبة الله

هو أكبر أبناء فخر الدَّولة أبي سهل جرجس، ويبدو أنه بقي فترة في دمشق مع أخيه الأصغر المؤتمن أبي اسحق المستوفي، وقد اشتهر بمكتبته وغزير علمه، وله مؤلَّفات عديدة، بعضها لاهوتي، وبعضها في الكتاب المقدَّس، وبعضها الآخر في علم المواريث أو النَّحو. ومات سنة ١٢٦٠م. ومن مؤلفاته:

٥٢- يرى الأب سمير خليل أن والد هؤلاء الثلاثة لم يكن فخر الدَّولة أبو سهل جرجس، بل حفيده فخر الدَّولة.

- مقدمة في قواعد اللُّغة القبطيَّة. وهو تكملة لكتاب يوحنا السَّمنودي. وفيه عالج اللَّهجة البحيرية واللَّهجة الصعيدية معاً.
- مقابلة لتراجم الأناجيل الأربعة.
- مقدِّمة رسائل القدِّيس بولس الرَّسول التي صنَّفها أخوه المؤتمن.
- حساب الأبقطي. وفيه جدول للبطاركة.
- أرجوزة في هذا الحساب، شرحها البابا يؤانس السَّابع بعد المائة.
- رسالة في النَّفس. ألفها سنة ١٢٣١م.

• الصَّفي أبو الفضائل الأمجد

وهو الابن الثَّاني لفخر الدَّولة، عيَّنه البابا البطريرك مستشاره القانوني، وله مؤلَّفات عديدة أشهرها على الإطلاق كتابه "المجموع الصَّفوي"، وفيه قوانين الكنيسة القبطيَّة. وله أيضاً "الصَّحائح في جواب النَّصائح"، "نهج السَّبيل في تخجيل محرِّفي الإنجيل". ومات سنة ١٢٦٠م.

أمَّا مؤلَّفاته فهي:

- الصَّحائح في الرَّد على النَّصائح.
- نهج السَّبيل في الرَّد على من قدح في الإنجيل. وهو للرَّد على المدَّعين بتحريف الإنجيل.
- السُّلَّم المقفي والذَّهب المصفي. وهو في أصول اللُّغة القبطيَّة.
- تفسير الأمانة المقدَّسة.
- المجموع الصَّفوي. وهو من أشهر كتبه.
- فصول مختصرة في التَّثليث والتَّوحيد.
- أرجوزة في مختصر مواريث النَّصارى.
- كفاية المبتدئين في علم القوانين. وهو مفقود حتى اليوم.
- خطب وعظات مسجعة.
- الكتاب الأوسط. وهو دفاع عن ألوهيَّة المسيح.

• المؤتمن أبو اسحق إبراهيم

أصغر أبناء أبي سهل، وهو كاتب من القرن الثَّالث عشر، وكان مستوفياً بدمشق أيام الملك الناصر(٥٣). وله:

- تفسير رسائل بولس الرَّسول.
- مجموع أصول الدِّين ومسموع محصول اليقين. وهو من أهم كتبه، يقدم فيه منهجاً للعقائد المسيحيَّة.
- تفسير الأبوكاليبسيس.
- خطب بيعيَّة.
- تفسير ما ورد في الإنجيل المجيد عن آلام السيِّد المسيح إلى صعوده للسَّماء.
- مقالة في إيضاح تقسيم تدابير السيِّد المسيح من حين الحبل به إلى الصعود إلى السَّماء.
- مقالة في العقائد النصرانيَّة.
- مقدِّمة البصخة المقدَّسة.
- الأعمال الرَّئيسيَّة في الآداب الكنسيَّة(٥٤).

• الوجيه يوحنا القليوبي

من كتبة القرن الثَّالث عشر، كان وثيق الصِّلة مع أبي اسحق بن العسَّال، وكانا يتعاونان في البحث والتأليف. ألّف:

- الكفاية. وهو في النَّحو والصَّرف في اللُّغة القبطيَّة، وقد سلك في عمله

٥٣- هو الناصر داود بن عيسى الأيوبي (١٢٢٧- ١٢٢٩م).
وهناك آخر يُدعى فرج الله بن علم السعداء القبطي ابن العسال أمين الدين، وهو كاتب من القرن الرَّابع عشر لديوان الأمير تنكز حاكم دمشق، ونائب السطان على سورية من قبل المماليك (١٣١٢- ١٣٤٠م). ومات فرج الله في سنة ١٣٠٤م.

٥٤- نشره جرجس فيلوثاؤس عوض في سنة ١٩٤٢م، بعد تصحيحه ووضع حواشي عليه لإيضاح معانيه ومصادره ومبانيه ومراجعة كل ما فيه، وذلك ضمن سلسلة كُتُب عن القدَّاس من النفائس المدفونة.

منهجاً علمياً أكثر ترابطاً بأقسامه من سابقه يوحنا السَّمنودي.
- ترجمة جميع رسائل القدِّيس بولس الرَّسول من القبطية إلى العربيَّة.
- تفسير رسالة بولس الرَّسول إلى أهل رومية.
- خطب.
- كتاب النَّاموس.

• يوحنا بن زكريا بن سباع

وله كتاب: الجوهرة النَّفيسة في علوم الكنيسة[٥٥].

• القس سمعان بن كليل

ويُدعى المكين سمعان بن كليل بن مقاره الرَّاهب، من أهل ميكائيل بشو، أما اسم القرية فهو بشو، وكانت بها كنيسة على اسم الملاك ميخائيل، فكان جماعة النَّصارى المجاورين لها والمتردِّدين عليها يقولون: نروح ميكائيل بشو، فاشتهرت القرية بهذا الاسم. وكان سمعان كاتباً حاذقا، وتقلبت به الخدم، فخدم بديوان الجيش في أيام النَّاصر صلاح الدِّين يوسف بن أيوب سنة ٥٦٩هـ/ ١١٧٣م، وتميَّز عنده وأعطاه إقطاعا في هجروان، واستمر بديوان الجيش ثلاث سنوات، ثم ترك الخدمة في أيام العادل أحمد بن أيوب (١١٩٩- ١٢١٨م)، وترهَّب في دير "أبو يحنس القصير" ببرية الإسقيط بوادي هبيب، وحبس نفسه في صومعة بناها في وسط الدَّير مدَّة تزيد عن ٣٠ سنة، وكانت سيرته فاضلة، وأمره مشهور[٥٦]. وتنيَّح بعد سنة ١٢٣٠م. وله:

٥٥- طُبع الكتاب في القاهرة سنة ١٩٦٦م، ضمن دراسات شرقية مسيحية في الكنيسة المصرية، وقد حققه ونقله إلى اللاتينية الأب ڤيكتور منصور مستريح الفرنسيسي.

٥٦- هذا ما ذكره ابن العميد في تاريخه الذي طُبع في لندن سنة ١٦٢٥م، (ص ٢٩٩). وقد ذكر ابن العميد أن أبا المكارم بن أبي الطيب تزوَّج أخته.

- روضة الفريد وسلوة الوحيد. في اثني عشر باباً[٥٧].
- مقالة في وحدانية الباري تعالى وتثليث أقانيمه.

• أبريم الأسقف القبطي

وله كتاب:
- تاريخ أنبا أبريم الأسقف القبطي. وهو تاريخ العالم منذ الخليقة حتى سنة ٦١٤هـ/ ١٢١٦م.

• مصطفى الملك أبو يوسف

من كبار موظفي الدَّولة في أوائل القرن الثَّالث عشر. وله:
- أصول الدِّين المسيحي[٥٨].

• أبو شاكر بطرس بن الرَّاهب

وله:
- كتاب التَّاريخ.
- البُرهان في القوانين المكملة وانقراض المهملة. وهو كتاب في العقائد والتَّعاليم المسيحيَّة من ٥٢ فصلاً.
- الشفا فيما استتر من لاهوت المسيح وما اختفى.
- مقدِّمة في التَّثليث والتَّوحيد.

• ابن العميد

هو جرجس بن أبي الياسر بن أبي المكارم بن أبي الطيِّب. المعروف بابن العميد. وُلد في القاهرة سنة ١٢٠٥م، ومات في دمشق سنة

٥٧- طُبع في القاهرة سنة ١٨٨٤م.
٥٨- نشره الأب سمير خليل اليسوعي في مجلة رسالة الكنيسة سنة ١٩٧٧م، ص ٧٣

١٢٧٣م. وله:
- المجموع المبارك. وهو تاريخ العالم حتى الهجرة.
- تاريخ المسلمين. وهو كتاب في تاريخ الإسلام منذ الهجرة حتى موت الخليفة المستنصر بالله سنة ١١١٨م.

وكان تاريخ بن المكين هو المصدر الأساسي لكتاب الخطط والآثار للمقريزي في الأجزاء الخاصة بالمسيحيين. وقد واصل عمله المفضّل بن الفضائل في القرن الرَّابع عشر.

• البابا كيرلس بن لقلق

وهو بطريرك الإسكندريَّة (١٢٣٥- ١٢٤٣م)، وهو القس داود بن يوحنا الفيومي. وله:
- مجادلة مع جماعة من المسلمين بمجلس الملك الكامل بن العادل بن أيوب، حضر فيها القس بولس البوشي.
- مسائل وأجوبة.

• القس بطرس السَّدمنتي

راهب قبطي من أصل أرمني، عاش في دير مار جرجس في سدمنت في الفيوم، وعاصر بولس البوشي، وإحدى مقالاته مؤرَّخة بتاريخ سنة ١٢٦٠م، ومن بين مؤلّفاته:
- رسالة في تفسير الإنجيل.
- مقالة في تقسيم تدابير المسيح من حين الحبل به إلى حين صعوده إلى السَّماء.
- مقالات لاهوتيَّة.
- كتاب تصحيح الاعتقاد في آلام سيِّدنا يسوع المسيح، وبيان الحق فيه على الوجه الصَّحيح.
- مقالات في تراجم القدِّيسين، والدِّفاع عن الدِّين.

- مختصر في تهذيب النَّفس.
- أرجوزة في الاعتقاد.

• الأنبا بولس البوشي

هو مطران مصر، وقد اشتهر في عهد البطريرك كيرلس بن لقلق، كان خطيباً بليغاً. وقد ورد عنه في مخطوط منسوخ في دير السِّريان ما يلي: "وعقدوا له (أي للبطريرك كيرلس بن لقلق) مجلساً مع القس بولس البوشي بحضور نيقولا البطريرك الملكاني بين يدي الملك الكامل بالقلعة بحضور جماعة كبيرة من فقهاء المسلمين وعلمائهم، ورجَّحه السُّلطان في العلم وشكر تعليله المسائل التي أوردها السُّلطان والفقهاء وغيرهم عليه".

وله من المؤلَّفات:

- سبعة ميامر (عظات) على الأعياد المريميَّة.
- ميامر متفرِّقة في عيد البشارة، وفي ميلاد السيِّد المسيح، وفي معرفة الإله المتجسِّد، وفي معموديَّة الرَّب، وفي القيامة، والصُّعود، وحلول الرُّوح القُدُس.
- كتاب تفسير سفر الرؤيا.
- كتاب العلوم الرُّوحانيَّة.

• الأنبا ميخائيل الأتريبي

وهو أسقف مليج وأتريب، وإليه يُعزى جمع كتاب السِّنكسار وترتيبه. وألَّف من الكُتُب:

- الطِّب الرُّوحاني في علاج الدَّاء النَّفساني.
- كتاب في دين النصرانيَّة.
- إيضاح الاتحاد.
- أجوبة على أسئلة عُرضت عليه.
- أجوبة على اثنتي عشرة مسألة عرضها عليه أحد علماء المسلمين.

• الأنبا يوحنا نعمة الله

وهو أسقف قبطي وله:

- سيرة القدّيسة الشّهيدة دميانه.

• يؤانس أسقف إسنا

وله:

- خبر القدّيسة الشّهيدة دميانه.

• الأنبا يؤانس أسقف أسيوط

وله:

- كتاب أخبار الشُّهداء الذين قتلوا في مدينة إسنا.

• الأسعد بن الدهيري

وهو اسمه قبل ترهُّبه، وهو الأنبا يؤانس أسقف سمنود، وقد أشاد أبو اسحق بن العسَّال في مقدِّمة قاموسه بعلمه، وله:

- مقدِّمة السُّلَّم. ويقدِّم فيه مبادئ اللُّغة القبطيَّة في النَّحو والصَّرف.
- السُّلَّم الكنائسي. وهو التَّرجمة العربيَّة لأهم مصطلحات الكتاب المقدَّس، وقد تُرجم هذا الكتاب إلى اللاتينيَّة والإيطاليَّة.
- أخبار الشُّهداء الذين قتلوا في مدينة سمنود.
- نور المحاسن.

• ابن السَّعد الدهيري (وهو أنبا خريستوذولوس مطران دمياط)

وهو أنبا خريستوذولوس مطران دمياط، وكان حجة في اللُّغة القبطيَّة، وله مقدِّمة في أصولها. وقد أوضح هو نفسه سبب تأليف هذا

الكتاب. وهو أن أبا اسحق بن العسَّال، عندما قدَّم له قاموسه طلب منه صورة من كتاب النَّحو لوجيه القليوبي بعد تكميله وتنقيح ما يوجد من أخطاء. وقد لفت نظره أيضاً إلى كتاب النَّحو لابن كاتب قيصر. وقد لاحظ ابن الدهيري أن كلا سابقيه قد اعتمد على كتاب النَّحو للسَّمنودي. فألَّف ابن الدهيري منقحاً أخطاء سابقيه ومكملاً عملهما.

• أنبا يوساب أسقف فوَّه

وله:
- التَّاريخ الكنسي. وهو الكتاب المشهور له.

• ابن كاتب قيصر

هو علم الرِّئاسة أبو اسحق إبراهيم بن أبي الثناء بن صفي الدَّولة أبي الفضائل كاتب قيصر، وكان كاتباً للأمير علم الدين قيصر الأسنوفي، وعاش في أواسط القرن الثَّالث عشر. وله:
- النصير في أصول اللُّغة القبطيَّة.
- شرح سفر الرؤيا[٥٩].
- شرح كامل لرسائل بولس الرَّسول. طُبع بعض أجزاء منها في مصر.

• أبو شاكر بطرس بن أبي المكارم

ابن مهذب الشمَّاس ابن الرَّاهب. وهو من أواخر القرن الثَّالث عشر، ومن مؤلفاته:
- الشِّفاء في كشف ما استتر من لاهوت المسيح واختفى، وفي صحة طبيعته.

٥٩- نشره لأوَّل مرَّة فرنسيس ميخائيل في القاهرة سنة ١٨٩٨م، وطبعه أخرى أحدث نشرها أرمانيوس حبشي شتا البرماوي في القاهرة سنة ١٩٣٩م تحت عنوان "تفسير رؤيا القديس يوحنا اللاهوتي لابن كاتب قيصر".

- البُرهان والقوانين المكملة والفرائض المجملة.
- التَّواريخ. لتعريف الأبقطي والأعياد السيديَّة في الكنيسة القبطيَّة.
- المجامع السَّبعة. منقول عن كتاب التَّواريخ.
- أصول مقدِّمة سلم اللُّغة القبطيَّة.
- تاريخ بن الرَّاهب. من أوَّل الخليقة إلى زمانه[٦٠].

القرن الرَّابع عشر

• الشَّيخ الرِّئيس شمس الرِّئاسة أبو البركات بن كبر

هو شمس الرِّئاسة بن الشَّيخ الأسعد أبو البركات، المعروف بابن كبر. كان كاتباً للأمير ركن الدين بيبرس[٦١]، وجاء في وصف مخطوطات لندن[٦٢] أن كتاب "زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة" هو للأمير ركن الدِّين بيبرس المنصوري الدودار المتوفي سنة ٧٢٥هـ/ ١٣٢٥م، وقال بدر الدِّين العيني في تاريخه، إن الكتاب في أحد عشر مجلداً، واستعان (بيبرس) على ذلك بكاتبه ابن كبر النصراني، ونهاية هذا التاريخ سنة ٧٢٤هـ/ ١٣٢٤م.

وكان بن كبر من أعظم علماء الأقباط، ويظن البعض أنه كان طبيباً لما بدا في كتاباته من دقة عن العقاقير والعطور. وقد عُزل عن الدَّواوين في زمن الملك الأشرف صلاح الدِّين سنة ١٢٩٣م، فرُسم

٦٠- وقد نشره الأب شيخو في بيروت سنة ١٩٠٣م.

٦١- هو الأمير القائد بيبرس المنصوري، اشترك في معارك بيبرس الأوَّل الظَّاهر ركن الدين ضد الصَّليبيين، وعُيِّن والياً على الكرك. وله: "التُّحفة الملوكيَّة"، و"زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة".

62- Riev., Mss. of British Museum, p. 561- 562.

كاهناً سنة ١٣٠٠م، وانصرف إلى الدِّراسة والتأليف. وله:
- مصباح الظُّلمة في إيضاح الخدمة. وهو أشهر كتبه.
- الرَّد على اليهود والمسلمين.
- رسالة البيان الأظهر في الرَّد على من يقول بالقضاء والقدر.
- السُّلَّم الكبير المقترح(٦٣).
- ألَّف ٥٧ خطبة ومرثية تُتلى في المناسبات الدِّينيَّة المختلفة.
- حلاء العقول في علم الأصول. وهو الملقب بـ "كهف الأسرار الخفيَّة في أسباب المسيحيَّة".
- قائمة بأسماء المدن والقرى المصريَّة.
- فهرس لجميع الكلمات العبريَّة التي اقتبسها القبط من أسفار العهد القديم.
- الفضل بين الآباء الرُّهبان والعلمانيين. وهو مخطوط رقم ٢٧ لاهوت في مكتبة الكنيسة المرقسيَّة بالإسكندريَّة، منسوب لابن كبر، وهو من أربع ورقات، ونُسخ سنة ١٧٧٨م(٦٤).

• أنبا بطرس أسقف مليج

وهو الشهير باسم أنبا بطرس الجميل. وله:
- كتاب البيان. وهو رد على جمال الدِّين بن محمد المصري.
- أكمل السِّنكسار الذي رتبه أنبا ميخائيل الأتريبي.

• صموئيل رئيس دير القلمون بالفيوم

وله:
- ميمر في انتصار الدِّين المسيحي.

٦٣- وهو أكبر معجم قبطي عربي ألَّفه مؤلِّف، يحوي عشرة أبواب، مقسَّمة إلى اثنين وثلاثين فصلاً. طُبع في روما سنة ١٦٨٤م. وتوجد منه عدة نسخ في بعض أديرة مصر، لاسيَّما في دير الأنبا أنطونيوس بالبحر الأحمر.

٦٤ـ مصباح الظلمة في إيضاح الخدمة، للقس شمس الرياسة أبو البركات المعروف بابن كبر، مكتبة الكاروز، القاهرة، ١٩٧١م، تحقيق الأب سمير خليل اليسوعي، المقدِّمة.

- ميمر في انتصار الصَّليب الكريم.

• الشمَّاس فرج الله الأخميمي

- كتاب أديرة ورهبان مصر.

• أبو سعيد بن سيِّد الدَّار بن أبي الفضل

عاش نحو سنة ١٣٢٢م، وله:

- قوانين الإنجيل لأمونيوس وأوسابيوس.

• المفضل بن ماجد بن بشر

عاش نحو سنة ١٣٣٠م، وله:

- نقع الفلل ونفع العلل.

• أنبا أثناسيوس أسقف قوص[٦٥]

وُلد في نواحي "قامولا" في صعيد مصر، وكان ابناً لكاهن اسمه "صليب". وقد ترهَّب في دير القدِّيس بقطر، ليس بعيداً عن مدينته "قامولا". وهو عالم في أصول اللُّغة القبطيَّة[٦٦]. وله:

- "تاريخ طبخ الميرون" في زمن البابا غبريال الرَّابع (١٣٧٠-١٣٧٨م) بالقبطي والعربي بخط يده[٦٧].

٦٥- سأورد شرحاً مفصلاً عن هذا الأسقف، وعن المخطوطات التي تحوي كتابات لمؤلف بهذا الاسم، وذلك في كتاب آخر.

٦٦- يقول جراف G. Graf إن أبو البركات لم يذكره في قائمة المؤلفين التي وضعها، ويعقب الأب أوجو زانتي Ugo Zanetti بقوله: ليس في ذلك غرابه، لأنه في زمن ابن كبر لم يكن أنبا أثناسيوس أسقف قوص قد وُلد بعد.

٦٧- وهي المرَّة الأخيرة التي جرى فيها طبخ الميرون في دير القدِّيس أنبا مقار انظر: المخطوط رقم (١٠٦ طقس) بمكتبة البطريركيَّة بالقاهرة وهو بتاريخ ١٣٧٤م.

- "قلادة التَّحرير في علم التَّفسير" وهو في قواعد اللُّغة القبطيَّة الصَّعيديَّة والبحيريَّة.
- أرجوزة عن المعموديَّة.
- ١٠١ سؤال وحواب فيما يختص بقوانين الرُّسُل.

وهناك كتابات أخرى منسوبة لهذا الاسم في المخطوطات.

القرن الخامس عشر

يطلق جورج جراف G. Graf (في الجزء الرابع، ص ١١٤) على القرن الخامس عشر وما يليه من قرون حتى القرن الثامن عشر "عصر الانحطاط"، سواء من حيث الكم، أي في عدد الكتَّاب، أو من حيث النوع، أي في نوعية الكتابات. ونرى نفس هذا الانحطاط الفكري في الأدب العربي بشكل عام في هذه الفترة إن في مصر أو خارجها.

• البابا غبريال الخامس

وهو البطريرك الـ ٨٨ من باباوات الكرازة المرقسيَّة، رُسم بطريركاً سنة ١٤٠٩م في أيام الملك فرج بن برقوق. وإليه يعود الفضل الأوَّل فيما استقرَّت عليه طقوس الكنيسة القبطيَّة في أيامنا هذه، لاسيَّما في القدَّاس الإلهي بفضل مؤلَّفه الثمين "التَّرتيب الطقسي"، والذي عنى بنشره الأب ألفونس عبد الله الفرنسيسكاني، حيث كانت الطبعة الثانية له بالقاهرة سنة ١٩٦٤م، وذلك بسبب أن القُمُّص عبد المسيح المسعودي الذي طبع في مصر أوَّل خولاجي قبطي يحوي الثلاثة قدَّاسات سنة ١٩٠٢م، حاويا

بحسب ترقيم كتالوج مرقس سميكة باشا. وهو نفسه مخطوط رقم (٧٢٣ طقس) بحسب ترقيم جراف. وهذا المخطوط قد حققه معاً كل من الأب أوجو زانتي Ugo Zanetti والدكتور يوحنا نسيم يوسف.

حواشي وشروحات كثيرة مطوَّلة نقلها بحرفها عن كتاب "التَّرتيب الطقسي". وصار هذا الخولاجي هو الكتاب المتداول حتى الآن في طبعات متتالية له في كل كنائس مصر. وعلى ذلك يكون البابا غبريال الخامس هو الذي نقل إلينا طقس الكنيسة القبطيَّة للقدَّاس الإلهي في شرح متكامل.

• قرياقس أسقف البهنسا

وله:

- ميمر في قيامة السيِّد المسيح.
- ميمر في مديح العذراء مريم والدة الإله.
- ميمر في هرب العائلة المقدسة إلى مصر.
- ميمر في مديح الشُّهداء الذين قتلوا في مدينة إسنا.

• أنبا يوساب مطران أخميم

وله:

- جدال مع بعض المسلمين.
- بيان صحة الديانة المسيحيَّة.
- مقالة في التَّثليث.
- مقالة في تأنس كلمة الله[٦٨].

٦٨- ذكر الأب لويس شيخو في كتابه "وزراء النصرانية وكتابها في الإسلام" وهو الكتاب الذي زاد عليه ونقحه الأب كميل حشيمة اليسوعي، وصدر سنة ١٩٨٧م، من أعلام النصرانية خلال الفترة من القرن السابع وحتى أوائل القرن السادس عشر (٦٢٢- ١٥١٧م) أكثر من مائة وزير وكاتب قبطي ذكرتُ هنا أهمهم.

القرن السَّابع عشر

• المعلم بطرس سوريال

عاش نحو سنة ١٦٢٣م، وله:

ـ الأقباط وعلماؤهم.

• الشَّيخ المعلّم بطرس بن غبريئيل

عاش نحو سنة ١٦٢٧م، وله:

ـ رد على الشَّيخ باء الدِّين المنوفي.

• المعلم جرجس الأشموني سيداروس

عاش نحو سنة ١٦٥٧م، وله:

ـ العقائد النصرانية.

• جرجس بن قرياقس غبريال

وله:

ـ مجموع قصائد وزجليَّات روحيَّة.

• المعلم مينا بن مقار المطي

وله:

ـ كتاب شرع الكنيسة القبطيَّة.

• يوسف أبو دقن

وهو من أهم شخصيَّات القرن السَّابع عشر. وقد أرسله البابا غبريال

الثّامن (١٥٨٧- ١٦٠٣م) السّابع والتسعون من بطاركة الكنيسة القبطيّة إلى روما في إطار العلاقات بين الكنيستين الكاثوليكيّة والقبطيّة الأرثوذكسيّة آنذاك. إلاّ أن يوسف أبو دقن لم يعد إلى مصر وظل في روما، وأسبغ على اسمه مظهراً لاتينياً فأصبح اسمه Josef Barbatus أو Adudacnus كما لقّب هو نفسه باسم المنفي memphiticus أو المنتسب إلى مدينة منف. وفي ذلك دلالة على إظهار مصريته.

وفي روما اجتهد أبو دقن في تعلّم اللّغات الإيطاليّة والفرنسيّة والأسبانيّة بالإضافة إلى اللّغات القديمة اليونانيّة واللاتينيّة والكلدانيّة والسّريانيّة والعبريّة، إلى جانب اللّغة القبطيّة واللّغة العربيّة. وأيضاً اللّغة التركيّة التي كانت لغة الإدارة في مصر.

وهكذا أهّلته مواهبه العديدة لأن يبدأ حياته العمليّة مترجماً في بلاط الملك هنري الرّابع في باريس حوالي سنة ١٦٠٠م.

وذاع صيت أبو دقن فانتقل إلى إنجلترا وأصبح معلماً للّغة العربيّة في جامعة أكسفورد. ولم تمض عليه عدّة شهور في هذه الجامعة العريقة حتى **ألّف كتاباً باللّغة اللاتينيّة تناول فيه تاريخ الكنيسة القبطيّة في مصر وليبيا وإثيوبيا وقبرص**، ولم ير أبو دقن هذا العمل العظيم منشوراً، حيث تم طبع هذا الكتاب في أكسفورد سنة ١٦٧٥م أي بعد وفاته بأكثر من أربعين عاماً. ولأهميّة هذا الكتاب في ذلك الوقت تم ترجمته من اللاتينيّة إلى الإنجليزيّة في سنة ١٦٩٣م. وقام بعض العلماء بإعادة طباعة الكتاب الأصلي مع بعض الإضافات في ليون بهولندا سنة ١٧٣٣م. ثمّ ظهرت التّرجمة الألمانيّة له في مدينة ليبيك سنة ١٧٤٠م.

ويرجع هذا الاهتمام العلمي بكتاب أبو دقن إلى براعة مؤلفه وتبسيط

عرض تاريخ الكنيسة القبطيَّة بأسلوب جديد بالنسبة لعصره. إذ أعد أبو دقن كتابه في ثلاثة وعشرين فصلاً تناول فيها الأصول القديمة للكنيسة وتاريخها وتركيبة سلمها الكهنوتي، ثمّ عادات الأقباط وشعائرهم وطقوسهم.

وقد قام أبو دقن بتدريس اللُّغة القبطيَّة مستخدماً نصوص الكتاب المقدَّس وشعائر وطقوس الكنيسة المكتوبة بالقبطيَّة.

ثمّ انتقل أبو دقن إلى جامعة لوفان الشَّهيرة في بلجيكا، وقام بتدريس اللُّغة العبريَّة. وقام بتأليف أجروميَّة وقاموس عربي — لاتيني وغير ذلك من المؤلّفات. **أمَّا أهمها فهو كتاب المزامير الذي نسقه في أربع لغات هي العبريَّة والعربيَّة واللاتينيَّة واليونانيَّة.**

ويبدو أن أبو دقن لم ينعم بالاستقرار في حياته الأخيرة. فنعرف أنه أمضى بضعة أعوام في ميونخ بألمانيا حيث عمل في مكتبة الدُّوق (١٦١٨-١٦٢٠). وتحتفظ مكتبة فيينا **بمخطوط مؤرَّخ عام ١٨٢٠م من تأليفه يشتمل على مختصر لقواعد اللُّغة العربيَّة** مما يشير إلى أن أبو دقن ربما توجَّه إلى فيينا. وعموماً ليس لدينا تفاصيل عن سنوات حياته الأخيرة التي انتهت حوالي سنة ١٦٣٠م بعد رحلة عمل دائب لأوَّل عالم من الشَّرق قام بتدريس لغات الشَّرق الأوسط في جامعات أوروبا[٦٩].

القرن الثّامن عشر

• أنبا روفائيل الطُّوخي

من مواليد جرجا سنة ١٧٠٣م، انضم إلى الكاثوليكيَّة مع والديه سنة

٦٩- دكتور جودت جبره، علماء أقباط في أوروبا سبقوا نهضة محمد علي، جريدة وطني.

١٧١٤م على يد أحد المرسلين اليسوعيين. وعن طريق مجمع انتشار الإيمان سافر إلى روما سنة ١٧٢٤م وبقى بها اثنتي عشرة سنة، وحصل على الدكتوراه في الفلسفة واللاهوت سنة ١٧٣٢م. ورُسم كاهناً في كنيسة كليَّة نشر الإيمان بروما سنة ١٧٣٥م، وكان قد أجاد اللُّغات القبطيَّة والعربيَّة والإيطاليَّة واللاتينيَّة.

قام بطبع الخولاجي القبطي في يونيو سنة ١٧٣٦م. وهو أوَّل كتاب طقسي للكنيسة القبطيَّة يتم طباعته[٧٠]. عاد إلى مصر سنة ١٧٣٧م، وأنصب اهتمامه على طبع الكُتب الطَّقسيَّة القبطيَّة. عاد إلى روما سنة ١٧٤٠م وأسندت إليه إدارة دير القدِّيس إسطفانوس بروما[٧١]. وهناك بدأ في نسخ المخطوطات الطَّقسيَّة القبطيَّة التي سُلِّمت إليه من قِبَل مجمع انتشار الإيمان[٧٢]، فنقلها إلى اللاتينيَّة أو الإيطاليَّة كي يتسنى للَّجنة البابويَّة المكلَّفة بمراجعة كتب طقوس الكنائس الشَّرقيَّة الإطلاع على طقس الكنيسة القبطيَّة. وظلَّ ينسخ المخطوطات زهاء خمس وعشرين سنة، ويراجعها ويترجمها ويشرف على طباعتها.

فنُشرت لأوَّل مرَّة معظم الكتب الطَّقسيَّة القبطيَّة التي تمارسها الكنيسة القبطيَّة في مصر، حاوية بعضاً من تقليد الكنيسة الكاثوليكيَّة. ولكنها بصمات باهتة لم تؤثِّر على الطَّقس القبطي.

وفي سنة ١٧٤٨م عُين أستاذاً في كليَّة انتشار الإيمان بروما لتدريس

٧٠- هذا واحد من الأسباب التي دفعتني لإيراد ترجمة عن هذا الأب.

٧١- يقع الدَّير خلف كنيسة القديس بطرس داخل أسوار الفاتيكان. وكان البابا كليمندس الثاني عشر قد خصَّصه للرهبان الأحباش والأقباط في يناير سنة ١٧٣١م.

٧٢- وهي المخطوطات القبطيَّة الكثيرة التي نقلها إلى روما المطران يوسف شمعون السِّرياني، وهو واحد من أكثر النَّاس سطواً على المخطوطات القبطية وترحيلها إلى هناك.

اللُّغة القبطيَّة والطَّقس القبطي، واستمر على ذلك ست وثلاثين سنة، وكان قد بلغ من العمر الثَّمانين. في سنة ١٧٦١م رُسم أسقفاً لأرسينوه، وكان قد فرغ من نشر الكُتُب الطَّقسيَّة سنة ١٧٦٤م، وانتقل في أكتوبر سنة ١٧٨٧م. وله من الكُتُب(٧٣):

- "كتاب الثلثة قدَّاسات أي الذي للقدِّيس باسيليوس والذي للقدِّيس اغريغوريوس الثاولوغوس والذي للقدِّيس كيرلس مع صلوات أخرى مقدَّسة". سنة ١٧٣٦م.
- "كتاب زابور داود". وهو باللغتين القبطيَّة والعربيَّة. سنة ١٧٤٤م.
- "كتاب الصَّلوات النَّهاريَّة والليليَّة السَّبعة". قبطي عربي. سنة ١٧٥٠م.
- "العهد القديم والحديث – الجزء الأوَّل". وهو يبدأ من سفر التَّكوين حتى سفر طوبيا. وهو باللُّغة العربيَّة نقلاً عن النَّص اللاتيني (الفولجاتا). سنة ١٧٥٢م.
- "كتاب يشتمل على الصَّلوات المقدَّسة. الجزء الأوَّل لأجل رسامات المختارين لدرجات أهل الإكليروس والكهنة، وتبريك ثياب الرَّاهب، وتقديس الميرون والكنيسة". سنة ١٧٦١م.
- "الجزء الثَّاني من الإفخولوجيون الذي يشتمل على الصَّلوات المقدَّسة الموجودة بفهرس هذا الكتاب". وهو باللغتين القبطيَّة والعربيَّة في صلوات تكريس أواني المذبح وتبريك المياه وخلافه. سنة ١٧٦٢م.
- "كتاب خدمة الأسرار المقدَّسة وتجانيز الموتى والهوسات والقطمارس الشهري". وهو بالقبطيَّة والعربيَّة سنة ١٧٦٣م.
- "كتاب الثاودوكيات كترتيب شهر كيهك". سنة ١٧٦٤م.
- "غرامطيق في اللسان القبطي (أي المصري) لبيان نسق الكلام البحيري والصعيدي في اللسان المذكور بنموذجات من الكُتُب المقدَّسة المسطرة بالنسق الواحد والآخر". وهو كتاب في مبادئ اللُّغة القبطيَّة. سنة ١٧٧٨م.

٧٣- الأنبا إسطفانوس الثَّاني بطريرك الإسكندريَّة وسائر الكرازة المرقسيَّة للأقباط الكاثوليك، الأنبا روفائيل طوخي (١٧٠٣-١٧٨٧) حياته ومؤلفاته، القاهرة، ١٩٨٧م.

◆ وله أيضاً مائة وخمسة وعشرين مخطوطاً(٧٤). وهي إمّا مخطوطات عربيّة، أو قبطيّة عربيّة، أو لغوية. سواء كانت من تأليفه الخاص أو ترجمات له من اللاتينيّة أو الإيطاليّة إلى العربيّة، أو نساخة بعض المؤلّفات.

أمّا مؤلفاته الخاصة فهي:

- شهادات كتب الأقباط الطّقسيّة لإثبات الطّبيعتين والفعلين في السيّد المسيح(٧٥).
- الكنيسة القبطيّة والأقباط بمصر(٧٦).

ومن بين ترجماته:

- السّنكسار الرُّوماني. سنة ١٧٤٨م(٧٧).
- تفسير القدّيس غريغوريوس النيصي لسفر نشيد الأناشيد، سنة ١٧٥٦م(٧٨). وسفر الجامعة، سنة ١٧٦٣م(٧٩)، والصّلاة الربيّة وتطويبات الإنجيل، سنة ١٧٦٤م(٨٠).
- مقتطفات من مؤلفات مكاريوس الحلبي بطريرك أنطاكية. سنة ١٧٥٧م(٨١).

٧٤- منها أحد عشر مخطوطاً باللُّغة العربيّة في مكتبة دير الشرفة للسريان الكاثوليك بلبنان. وأربع مخطوطات عربيّة حوزة القُمُّص عبد المسيح صليب البرموسي المسعودي. ومائة وعشرة مخطوط محفوظة في مكتبة الفاتيكان بروما. فرع مخطوطات الكاردينال بورجيا Borgia القسم الخاص بالأقباط.

وأمام كل مخطوط ترد الاختصارات التّالية:

بين شرطتين مائلتين / / يرد رقم المخطوط مسبوقاً بحروف /ب ع/ أي "بورجيا Borgia عربي"، أو /ب ق/ أي "بورجيا Borgia قبطي"، أو /ش/ أي "مكتبة دير الشرفة بلبنان"، أو /ص/ أي "حوزة القُمُّص عبد المسيح صليب البرموسي".

٧٥- /ب ع ٩٤ – ش ٥/٣٨ – ص/.

٧٦- /ص/.

٧٧- /ب ق ٣٦/.

٧٨- /ب ق ١١٣/.

٧٩- /ش ١/٣٥ – ص/.

٨٠- /ش ١/٣٥ – ص/.

٨١- / ب ع ١١٧/.

- إرشادات القدِّيس باسيليوس الكبير للأب بطرس مينيني من رهبان القدِّيس باسيليوس. سنة ١٧٧٥م[٨٢].
- عظات القدِّيس أغسطينوس. سنة ١٧٧٦م[٨٣].
- سيرة القدِّيس كيرلس الإسكندري، وأنطونيوس كوكب البريَّة[٨٤].

ومن بين ما نسخه من مخطوطات:

- المرعى الرُّوحي *Le pré spirituel* ليوحنا موسخوس. سنة ١٧٤٣م[٨٥].
- سيرة وعظات القدِّيس أفرآم السِّرياني. سنة ١٧٧٥م[٨٦].
- مجموع ثماني وثمانين عظة من عظات يوحنا ذهبي الفم. سنة ١٧٧٦م[٨٧].
- في المقارنة بين حساب السَّنة القمرية والسنة الشمسية لابن العسَّال[٨٨].

أمَّا المخطوطات القبطيَّة العربيَّة له[٨٩]، فهي على نوعين: كتب طقسيَّة، وأسفار كتاب مقدَّس.

وأما الكُتُب الطَّقسيَّة على سبيل الحصر فهي:

- الخولاجي[٩٠] — مردَّات الشمَّاس[٩١] — الأجبية[٩٢] - خدمة سري المعموديَّة والميرون[٩٣] — مراسيم الخطوبة والإكليل[٩٤] — كتاب الجنانيز[٩٥] — كتاب السيامات

٨٢- /ب ع ١٤٤/.
٨٣- /ب ع ١٠٧-١١١، ١٢٢، ١٢٣/.
٨٤- /ب ع ١٥٨/.
٨٥- /ب ع ٦٢/.
٨٦- /ب ع ١٤٦/.
٨٧- /ب ع ١٤٣/.
٨٨- /ب ع ٢٤٠/.
٨٩- كل مجموعة المخطوطات القبطيَّة العربيَّة، والمخطوطات اللغوية محفوظة في مكتبة الفاتيكان، فرع مخطوطات الكاردينال بورجيا Borgia — القسم القبطي. ما عدا المخطوط الفاتيكاني القبطي رقم ٨٤ وهو كتاب "الجنانيز" أي "التجانيز". ولذلك سأكتفي بذكر رقم المخطوط بين شرطتين مائلتين / / وسنة نساخته بين قوسين ( ).
٩٠- /٨٧/ (١٧٣٤م) - /٥٨/ (١٧٣٦م) - /٤٥، ٧٩/.
٩١- /٩/ (١٧٣٥م) - /٦٩/ (١٧١٨-١٧٢٦م) - /٣٣/ (١٧٣٦م) - /٩٦/ (١٧٦٩م) — /١٠، ١٠٥/.
٩٢- /٦/ (١٧٣٤م) - /١١/ (١٧٢٩م) - /١٠/.
٩٣- /٣/ (١٧٣٩م) - /٨/ (١٧٤٦م) - /٧٦/ (١٧٤٧م) - /٤، ٥/ (١٧٥٤م) - /١٢، ٩٧/.

والتكريسات[٩٦] – كتاب الثاودوكيات[٩٧] – الدِّفنار أو كتاب الأبصلموديَّات[٩٨] – القطمارس[٩٩] – ترتيب البَصخة المقدَّسة[١٠٠] – مقتطفات متنوِّعة[١٠١].

ومن أسفار الكتاب المقدَّس:

– أسفار التَّوراة[١٠٢] – سفر المزامير وسفر نشيد الأناشيد[١٠٣] – سفر أيوب[١٠٤] – أسفار الأنبياء[١٠٥] – أسفار العهد الجديد[١٠٦].

أمَّا المخطوطات اللُّغويَّة فهي على سبيل الحصر:

– تعريب كتاب مبادئ اللُّغة القبطيَّة للأب بونجور من رهبان القدِّيس أوغسطينوس[١٠٧] – مجموعة مخطوطات أعدها لطبع كتابه في مبادئ اللُّغة القبطيَّة لطلبة كلية نشر الإيمان بروما[١٠٨] - كتاب السلم. ويشمل القواعد والمفردات. وهو مقتطفات من مؤلفات بهذا الخصوص للسمنودي وأبو البركات وابن العسَّال والقليوبي[١٠٩] – قاموس قبطي بحيري عربي مؤلف من كلمات أسفار التَّوراة الخمسة[١١٠] – قاموس قبطي بحيري وعربي مؤلف من كلمات الأناجيل والرسائل والكتب الطقسيَّة[١١١] – كتاب كنز المفردات. وهو لاتيني قبطي يوناني عربي. وهو

٩٤- /٨، ٧٦/.
٩٥- المخطوط الفاتيكاني القبطي رقم ٨٤ (١٧٣٦م) - /٨/ (١٧٤٦م) - /٧٦/.
٩٦- /٧٥، ٧٧، ٧٩، ٨٠، ٨٥/.
٩٧- /٧٥/.
٩٨- /٨٧/ (١٧٣٤م) - /٥٤/ (١٧٦٠م) - /٢٧، ٦١، ٩٦/.
٩٩- / ٢١، ٢٧، ٣٠، ٣١، ٣٤، ٣٥، ٥٨، ٧٢، ٧٣، ٧٩، ٨٦، ١٣١، ١٣٢/.
١٠٠- /١١/ (١٧٢٩م) - /١٢، ٦٧، ٨٦، ٩٦/.
١٠١- / ٣٧، ٤٢، ٤٨، ٤٩، ٨٣/.
١٠٢- /٤٦، ٥٦/.
١٠٣- /٦١/.
١٠٤- /٨٢/.
١٠٥- /١١٠، ١٢٣/.
١٠٦- /٥٧، ١٠٥، ١٢٩، ٧١، ٦٧/.
١٠٧- /٢٣، ٢٤، ٨١، ٨٤/.
١٠٨- /٢٥، ٤٠، ٥٠، ٧٤، ٨٢، ٩٨/.
١٠٩- /١٥، ١٦، ١٠٥، ٣٩/.
١١٠- /١٧-٢٠، ٦٢/.
١١١- /٤٧/.

مجلد ضخم من أربعة أجزاء[١١٢] – قاموس إيطالي عربي قبطي يوناني من جزئين[١١٣].

• الأب بسورة الحريري

عاش نحو سنة ١٧٤٤م، وله:

ـ مجموع مقالات وقصائد.

• بطرس بن صهيون

وهو المعروف بالغتامي، من مدينة أخميم. وعاش نحو سنة ١٧٦٩م، وله من الكُتُب:

ـ مختصر البُرهان الوكيد في حقيقة يوم عيد الفصح المجيد.

• الأب يوحنا المنياوي

عاش نحو سنة ١٧٤٤م، وله:

ـ ميامر لأعياد الأقباط.

• أنبا يوساب الأبح

رُسم أسقفاً لجرجا سنة ١٧٩١م، وهو عالم جليل وباحث لاهوتي، وله من الكتب:

ـ سلاح المؤمنين.

١١٢- /٩٠-٩٣/.
١١٣- /٩٤، ٩٥/.

القرن التَّاسع عشر

• الإيغومانس فيلوثاؤس إبراهيم

وُلد بمدينة طنطا سنة ١٨٣٧م، ورُسم قساً بها سنة ١٨٦٣م، وإذ برع في الوعظ استدعاه البابا ديمتريوس الثَّاني الـ ١١٢ لمرافقته في رحلة رعويَّة بالوجه القبلي سنة ١٨٦٧م، فأظهر اقتداراً عظيماً في الوعظ المرتجل والدِّفاع عن عقائد الكنيسة القبطيَّة. وفي سنة ١٨٧٤م انتخبه المجلس الملي راعياً للكاتدرائيَّة المرقسيَّة بالقاهرة، ورئيساً لمدرسة الرُّهبان. وله مؤلَّفات كثيرة وأعمال عظيمة.

ولعلاقته الوطيدة بالبابا كيرلس الخامس استطاع أن يُدخل طقس تمثيل القيامة في الكنيسة البطريركيَّة، نقلاً عن الكنيسة اليونانيَّة بعد إجراء بعض التَّعديلات عليه، وانتشر هذا الطَّقس تدريجياً في عموم الكنائس القبطيَّة. وهو أيضاً الذي أدخل قطعة "يا كل الصُّفوف السَّمائيين"، التي تقال قبل دورة القيامة، وسرعان ما حلَّت محل اللَّحن القبطي القديم الأصيل **Κατα Νιχοροc ὲϯ cωτεμ ὲρωογ** أي: "كل الصُّفوف التي أسمعها ...". وكان ينوب عن البابا البطريرك في مقابلة الحُكَّام، وكانوا يحبونه لفصاحته وحسن أسلوبه، وسعة إطلاعه. وكان قد حصل على نياشين من الخديوي توفيق والخديوي عبَّاس حلمي الثَّاني، ونال تكريماً من أباطرة إثيوبيا. وقد كتب إليه النجاشي يوحنا سنة ١٨٨٢م رسالة كلها تبجيل استهلها بقوله:

"إلى الأب المعظَّم مستقيم الرأي والضَّمير، كنز الحكمة، واسع العقل، طويل الرُّوح، الرَّاعي والحافظ للأمانة الإسكندريَّة".

وكتب إليه النجاشي فيليك رسالة سنة ١٨٩٩م يطلب فيه كتبه

لترجمتها إلى الإثيوبيَّة. وراسله أيضاً الأنبا أبرآم أسقف الفيوم، والقُمُّص عبد المسيح المسعودي. وتنيَّح بسلام سنة ١٩٠٤م[١١٤].

• الأنبا أثناسيوس مطران بني سويف

ولد بمدينة أسيوط سنة ١٨٨٣م، وترَّهب في دير البراموس سنة ١٩٠٣م. وبعد سنتين دخل مدرسة الرُّهبان الإكليريكيَّة في الإسكندريَّة وهي التي أسَّسها البابا كيرلس الخامس، ثم رُسم قساً سنة ١٩١١م، وبعد سنتين عُين مدرساً بالمدرسة اللآهوتيَّة، ومعلِّماً للقسم الدِّيني بمدرسة الأقباط المرقسيَّة. وفي سنة ١٩١٧م عُين وكيلاً للبطريركيَّة بالإسكندريَّة، وظلَّ بها إلى أن أُقيم أسقفاً لكرسي بني سويف والبهنسا باسم الأنبا أثناسيوس. وفي سنة ١٩٢٥م رُقي إلى رتبة المطرانيَّة، وكان كثير النَّشاط، سامي الأخلاق. وإليه يرجع الفضل في طبع الكُتُب الكنسيَّة الطَّقسيَّة[١١٥]، والتي لازالت مستخدمة حتى اليوم في أنحاء الكرازة المرقسيَّة. وكان واعظاً قديراً. وله:

- كتاب السِّر الجلي[١١٦].

• الكاهن يوحنا الشفتيشي

ولد في القاهرة في القرن الثَّامن عشر، وعاش ومات في فرنسا في القرن التَّاسع عشر. وهو الكاهن القبطي الذي علَّم شامبليون - الذي فك رموز اللُّغة المصريَّة القديمة - اللُّغة القبطيَّة، كما يذكر شامبليون ذلك

١١٤ـ انظر: وطنية الكنيسة القبطية وتاريخها، مرجع سابق، ص ٣٨٧

١١٥- قام بطبع كتاب طروحات وإبصاليَّات برموني وعيدي الميلاد والغطاس سنة ١٩٢٠م، وكتاب اللَّقانات والسَّجدة سنة ١٩٢١م، وكتاب البصخة المقدَّسة قبطي عربي سنة ١٩٢١م، وقطمارس الصَّوم الكبير قبطي وعربي سنة ١٩٢٣م.

١١٦- ويظهر فيه تبحُّره في العلوم الدِّينيَّة واللاهوتيَّة.

بنفسه في خطاب أرسله إلى أخيه، يقول له فيه: "إنني ذاهب إلى كاهن قبطي يسكن في سانت روش Saint-Roch في شارع سانت هونوري Saint-Honore وهذا الكاهن يعلّمني الأسماء القبطيَّة وكيفية نطق الحروف وإنني أكرِّس الآن نفسي كلية لتعلم اللُّغة القبطيَّة إذ أريد أن أتقن هذه اللُّغة مثلما أتقن الفرنسيَّة. وإن نجاحي في دراسة البرديَّات المصريَّة سيعتمد على إتقاني لهذه اللُّغة القبطيَّة". وهو أمر ذو أبعاد كبيرة.

كما ورد ذكر يوحنا الشفتيشي في خطاب لوزير داخلية فرنسا مؤرَّخ سنة ١٨٠٢م بشأن بعض العلماء الذين كانوا يعملون في إعداد كتاب "وصف مصر" يقول فيه: "جاءتني تزكية عن الكاهن القبطي المدعو يوحنا بأنه يتمتَّع بسمعة كعالم متمكِّن من اللُّغات الشَّرقيَّة. وقد علمتُ أنه يمكن الاستفادة من كفاءته في العمل العظيم الذي ينكب عليه الآن العلماء العائدين من مصر ..."[١١٧].

فهرس أبجدي بمن وردت أسماؤهم في هذا الفَصل

- إبراهيم بن عدي/ القرن العاشر.
- إبريم الأسقف القبطي/ القرن الثالث عشر.
- ابن السَّعد الدهيري (أنبا خريستوذولوس مطران دمياط)/ القرن الثالث عشر.
- ابن العميد (جرجس)/ القرن الثالث عشر.
- ابن كاتب قيصر/ القرن الثالث عشر.
- أبو السَّعد بن سيِّد الدَّار/ القرن الرَّابع عشر.
- أبو حبيب ميخائيل ابن بدير (الشماس)/ القرن العاشر.
- أبو شاكر بطرس بن أبي المكارم/ القرن الثالث عشر.
- أبو شاكر بطرس بن الرَّاهب/ القرن الثالث عشر.

١١٧- دكتور جودت جبره، علماء أقباط في أوروبا سبقوا نهضة محمد علي، جريدة وطني.

- أبو صالح الأرمني/ القرن الثَّاني عشر.
- أبو صُلح يونس بن عبد الله سديد بن بانا/ القرن الحادي عشر.
- أثناسيوس (الأنبا) أسقف قوص/ القرن الرَّابع عشر.
- أثناسيوس (الأنبا) مطران بني سويف/ القرن التَّاسع عشر.
- الأسعد أبو الفرج هبة الله بن العسَّال/ القرن الثَّالث عشر.
- الأسعد بن الدهيري/ القرن الثَّالث عشر.
- الرَّشيد أبو الخير أبو الطيِّب/ القرن الثَّاني عشر.
- الصَّفي أبو الفضائل الأمجد بن العسَّال/ القرن الثَّالث عشر.
- المؤتمن أبو اسحق إبراهيم بن العسَّال/ القرن الثَّالث عشر.
- المفضل بن ماجد بن بشر/ القرن الرَّابع عشر.
- الوجيه يوحنا القليوبي/ القرن الثَّالث عشر.
- بسوره الحريري (الأب)/ القرن الثَّامن عشر.
- بطرس (الأنبا) أسقف مليج/ القرن الرَّابع عشر.
- بطرس السدمنتي (القس)/ القرن الثَّالث عشر.
- بطرس بن صهيون/ القرن الثَّامن عشر.
- بطرس بن غبريئيل (الشَّيخ المعلِّم)/ القرن السَّابع عشر.
- بطرس سوريال (المعلِّم)/ القرن السَّابع عشر.
- بقيره الشمَّاس/ القرن الحادي عشر.
- بولس البوشي (الأنبا)/ القرن الثَّالث عشر.
- جرجس الأشموني (المعلِّم)/ القرن السَّابع عشر.
- جرجس بن قرياقس غبريال/ القرن السَّابع عشر.
- روفائيل الطوخي (الأنبا)/ القرن الثَّامن عشر.
- ساويرس ابن المقفع (الأنبا)/ القرن العاشر.
- سمعان بن كليل (القس)/ القرن الثَّالث عشر.
- شمس الرئاسة أبو البركات ابن كبر (القس)/ القرن الرَّابع عشر.
- صموئيل (الأنبا) رئيس دير القلمون بالفيوم/ القرن الرَّابع عشر.
- عبد المسيح الإسرائيلي المتنصِّر/ القرن الحادي عشر.
- غبريال الخامس (البابا)/ القرن الخامس عشر.
- غبريال بن تريك (البابا)/ القرن الثَّاني عشر.
- فرج الله الأخميمي (الشمَّاس)/ القرن الرَّابع عشر.
- فيلوثاؤس إبراهيم (الإيغومانس)/ القرن التَّاسع عشر.
- قرياقس (الأنبا) أسقف البهنسا/ القرن الخامس عشر.

- كيرلس الثَّالث بن لقلق (البابا)/ القرن الثَّالث عشر.
- كيرلس الثَّاني (البابا)/ القرن الحادي عشر.
- مرقس الثَّالث ابن زرعه (البابا)/ القرن الثَّاني عشر.
- مرقس بن موهوب بن قنبر (القس)/ القرن الثَّاني عشر.
- مصطفى الملك أبو يوسف/ القرن الثَّالث عشر.
- موهوب بن منصور الشمَّاس/ القرن الحادي عشر.
- ميخائيل (الأنبا) مطران تنيس/ القرن الحادي عشر.
- ميخائيل (الأنبا) مطران دمياط/ القرن الثَّاني عشر.
- ميخائيل الأتريبي (الأنبا)/ القرن الثَّالث عشر.
- مينا بن مقار المطي (المعلم)/ القرن السَّابع عشر.
- يؤانس (الأنبا) أسقف إسنا/ القرن الثَّالث عشر.
- يؤانس (الأنبا) أسقف أسيوط/ القرن الثَّالث عشر.
- ياسر بن القسطال (القس)/ القرن الثَّاني عشر.
- يوحنا الشفتيشي (الكاهن)/ القرن التَّاسع عشر.
- يوحنا المنياوي (الأب)/ القرن الثامن عشر.
- يوحنا بن زكريا بن سباع/ القرن الثالث عشر.
- يوحنا بن ساويرس/ القرن الثَّاني عشر.
- يوحنا بن سعيد بن يحيي الملقب بابن القلزمي/ القرن الحادي عشر.
- يوحنا بن مينا/ القرن الثَّاني عشر.
- يوحنا نعمة الله (الأنبا)/ القرن الثَّالث عشر.
- يوساب (الأنبا) أسقف فوه/ القرن الثَّالث عشر.
- يوساب (الأنبا) مطران أخميم/ القرن الخامس عشر.
- يوساب الأبح (الأنبا)/ القرن الثَّامن عشر.
- يوسف أبو دقن (الكاهن)/ القرن السَّابع عشر.
- يوسف بن رجا/ القرن العاشر.



ملاحق الكتاب

الملحق الأوَّل

باباوات الكنيسة القبطيَّة ومعاصـــروهم من الحـــكَّام

الرقم	البابا	سنوات الرعاية	الحاكم	سنوات الحكم
١	مار مرقس	+ ٦٨	نيرون	٥٤ - ٦٨
٢	أنيانوس	٦٢-٨٥	نيرون	٥٤ - ٦٨
			حالبا	٦٨ - ٦٩
			أوتو	٦٩
			فيتيليوس	٦٩
			فسباسيان	٦٩ - ٧٩
			تيطس	٧٩ - ٨١
			دومتيان	٨١ - ٩٦
٣	ميليوس (أبيليوس)	٨٥-٩٨	دومتيان	
٤	كيردونوس	٩٨-١٠٩	نيرفا	٩٦ - ٩٨
			تراجان	٩٨ - ١١٧
٥	بريموس	١٠٩-١٢٢	تراجان	
			هدريان	١١٧ - ١٣٨
٦	يسطس	١٢٢-١٣٠	هدريان	
٧	أومانيوس	١٣٠-١٤٢	هدريان	
			أنطونيوس بيوس	١٣٨ - ١٦١
٨	مركيانوس[1]	١٤٣-١٥٤	أنطونيوس بيوس	
٩	كلاديانوس	١٥٧-١٦٧	أنطونيوس بيوس	
١٠	أغريبينيوس	١٦٧-١٨٠	ماركوس أوريليوس	١٦١ - ١٨٠
١١	يوليانوس	١٨٠-١٨٩	ماركوس أوريليوس	
			كومودس	١٨٠ - ١٩٢
١٢	ديمتريوس ١	١٨٩-٢٣١	كومودس	
			برتيناكس	١٩٣
			ديديوس يوليانوس	١٩٣
			سبتيموس ساويرس	١٩٣ - ٢١١
			كاراكالا	٢١١ - ٢١٧
			ماكرينوس	٢١٧ - ٢١٨
			هليوجابالوس	٢١٨ - ٢٢٢

١ـ يدعوه إيفيتس Evetts باسم "مرقس الثاني – Mark II".

الرقم	البابا	سنوات الرعاية	الحاكم	سنوات الحكم
			ألكسندر ساويرس	٢٢٢ـ ٢٣٥
١٣	هيراكلاس	٢٣١-٢٤٧	ألكسندر ساويرس	
			مكسيميانوس	٢٣٥ ـ ٢٣٨
			بوبيينوس	٢٣٨
			جورديانوس	٢٣٨ ـ ٢٤٤
			فيلبس	٢٤٤ ـ ٢٤٩
١٤	ديونيسيوس	٢٤٧-٢٦٤	فيلبس	
			داكيوس	٢٤٩ ـ ٢٥١
			جاللوس	٢٥١ ـ ٢٥٣
			فالريانوس	٢٥٣ ـ ٢٦٠
			جاللينوس	٢٦٠ ـ ٢٦٨
١٥	مكسيموس	٢٦٥ ـ ٢٨٢	جاللينوس	
			كلوديوس٢	٢٦٨ ـ ٢٧٠
			أوريليانوس	٢٧٠ ـ ٢٧٥
			تاكيتوس	٢٧٥ ـ ٢٧٦
			فلوريانوس	٢٧٦
			بروبوس	٢٧٦ ـ ٢٨٢
١٦	ثاؤنا	٢٨٢ ـ ٣٠٠	كاروس	٢٨٢ ـ ٢٨٣
			نوميريانوس	٢٨٣ ـ ٢٨٤
			ديوكليتيانوس	٢٨٤ ـ ٣٠٥
١٧	بطرس١	٣٠٠ ـ ٣١٠	ديوكليتيانوس	
			جاليريوس	٣٠٥ ـ ٣١١
١٨	أرشيلاوس	٣١٠ ـ ٣١١	جاليريوس	
			لكينيوس	٣٠٨ ـ ٣٢٤
١٩	ألكسندروس١	٣١٢ ـ ٣٢٨	لكينيوس	
			قسطنطين ١	٣٠٦ ـ ٣٣٧
٢٠	أثناسيوس الكبير	٣٢٨ ـ ٣٧٣	قسطنطين ١	
			قسطنطين ٢	٣٣٧ ـ ٣٦١
			يوليان	٣٦١ ـ ٣٦٣
			جوفيان	٣٦٣ ـ ٣٦٤

الرقم	البابا	سنوات الرعاية	الحاكم	سنوات الحكم
			فالنس	٣٦٤ ـ ٣٧٨
٢١	بطرس٢	٣٧٣ ـ ٣٧٨	فالنس	
			جراتيان	٣٦٧ ـ ٣٨٣
			فالينتنيان	٣٧٥ ـ ٣٩٢
٢٢	تيموثاوس١	٣٧٨ ـ ٣٨٤	ثيؤدوسيوس الكبير	٣٧٩ ـ ٣٩٥
٢٣	ثاؤفيلس	٣٨٤ ـ ٤١٢	ثيؤدوسيوس الكبير	
			أركاديوس	٣٩٥ ـ ٤٠٨
			ثيؤدوسيوس ٢	٤٠٨ ـ ٤٥٠
٢٤	كيرلس١	٤١٢ ـ ٤٤٤	ثيؤدوسيوس ٢	
٢٥	ديسقوروس١	٤٤٤ ـ ٤٥٥	ثيؤدوسيوس ٢	
			ماركيان	٤٥٠ ـ ٤٥٧
٢٦	تيموثاوس٢	٤٥٥ ـ ٤٧٧	ماركيان	
			ليو (لاون) ١	٤٥٧ ـ ٤٧٤
			زينون	٤٧٤ ـ ٤٩١
٢٧	بطرس ٣	٤٧٧ ـ ٤٨٩	زينون	
٢٨	أثناسيوس٢	٤٨٩ ـ ٤٩٦	زينون	
			أنستاسيوس	٤٩١ ـ ٥١٨
٢٩	يؤانس ١	٤٩٦ ـ ٥٠٥	أنستاسيوس	
٣٠	يؤانس ٢	٥٠٥ ـ ٥١٦	أنستاسيوس	
٣١	ديسقوروس٢	٥١٦ ـ ٥١٨	أنستاسيوس	
			جوستن ١	٥١٨ ـ ٥٢٧
٣٢	تيموثاوس٣	٥١٨ ـ ٥٣٦	جوستن ١	
			جوستنيان	٥٢٧ ـ ٥٦٥
٣٣	ثيؤدوسيوس ١	٥٣٦ ـ ٥٦٧	جوستنيان	
			جوستن ٢	٥٦٥ ـ ٥٧٨
٣٤	بطرس٤	٥٦٧ ـ ٥٦٩	جوستن ٢	
٣٥	داميانوس	٥٧١ ـ ٦٠٥	جوستن ٢	
			طيباريوس ٢	٥٧٨ ـ ٥٨٢
			موريس	٥٨٢ ـ ٦٠٢
			فوكاس	٦٠٢ ـ ٦١٠

الرقم	البابا	سنوات الرعاية	الحاكم	سنوات الحكم
٣٦	أنسطاسيوس	٦٠٥ـ ٦١٦	فوكاس	
			هرقل	٦١٠ـ ٦٣٤
٣٧	أندرونيقوس	٦١٦ـ ٦٢٣	هرقل	
٣٨	بنيامين ١	٦٢٣ـ ٦٦٢	هرقل	
			عمر بن الخطاب	٦٣٤ـ ٦٤٤
			عثمان بن عفان	٦٤٤ـ ٦٥٦
			علي بن أبي طالب	٦٥٦ـ ٦٦١
			الحسن بن علي	٦٦١
			معاوية ١	٦٦١ـ ٦٨١
٣٩	أغاثو	٦٦٢ـ ٦٨٠	معاوية ١	
٤٠	يؤانس٣	٦٨٠ـ ٦٨٩	يزيد ١	٦٨٠ـ ٦٨٣
			معاوية ٢	٦٨٣
			مروان ١	٦٨٤ـ ٦٨٥
			عبد الملك	٦٨٥ـ ٧٠٥
٤١	اسحق	٦٩٠ـ ٦٩٢	عبد الملك	
٤٢	سيمون ١	٦٩٢ـ ٧٠٠	عبد الملك	
٤٣	ألكسندروس٢	٧٠٤ـ ٧٢٩	عبد الملك	
			الوليد بن عبد الملك	٧٠٥ـ ٧١٥
			سليمان	٧١٥ـ ٧١٧
			عمر بن عبد	٧١٧ـ ٧٢٠
			العزيز	٧٢٠ـ ٧٢٤
			يزيد ٢	٧٢٤ـ ٧٤٣
			هشام	
٤٤	قزمان١	٧٢٩ـ ٧٣٠	هشام	
٤٥	ثيؤدوروس	٧٣٠ـ ٧٤٢	هشام	
٤٦	خائيل١	٧٤٣ـ ٧٦٧	الوليد بن يزيد	٧٤٣ـ ٧٤٤
			يزيد ٣	٧٤٤
			إبراهيم	٧٤٤
			مروان ٢	٧٤٤ـ ٧٥٠
			الصفا	٧٥٠ـ ٧٥٤

الرقم	البابا	سنوات الرعاية	الحاكم	سنوات الحكم
			المنصور	٧٥٤ - ٧٧٥
٤٧	مينا ١	٧٦٧ - ٧٧٦	المنصور	
			المهدي	٧٧٥ - ٧٨٥
٤٨	يؤانس ٤	٧٧٧ - ٧٩٩	المهدي	
			الهادي	٧٨٥ - ٦٨٦
			هارون الرشيد	٧٨٦ - ٨٠٩
٤٩	مرقس ٢	٧٩٩ - ٨١٩	هارون الرشيد	
			الأمين	٨٠٩ - ٨١٣
			المأمون	٨١٣ - ٨٣٣
٥٠	يعقوب	٨١٩ - ٨٣٠	المأمون	
٥١	سيمون ٢	٨٣٠	المأمون	
٥٢	يوساب ١	٨٣١ - ٨٤٩	المأمون	
			المعتصم	٨٣٣ - ٨٤٢
			الواثق	٨٤٢ - ٨٤٧
			المتوكل	٨٤٧ - ٨٦١
٥٣	خائيل ٢	٨٤٩ - ٨٥١	المتوكل	
٥٤	قزمان ٢	٨٥١ - ٨٥٨	المتوكل	
٥٥	شنودة ١	٨٥٩ - ٨٨٠	المتوكل	
			المنتصر	٨٦١ - ٨٦٢
			المستعين	٨٦٢ - ٨٦٦
			المعتز	٨٦٦ - ٨٦٩
			المهتدي	٨٦٩ - ٨٧٠
			أحمد بن طولون	٨٧٠ - ٨٨١
٥٦	خائيل ٣	٨٨٠ - ٩٠٧	أحمد بن طولون	
			خمراويه	٨٨١ - ٨٩٦
			جيش بن خمراويه	٨٩٦
			هاورن بن خمراويه	٨٩٦ - ٩٠٤
			شعبان بن أحمد	٩٠٤
			المقتفي	٩٠٤ - ٩٠٨
			المقتدر	٩٠٨ - ٩٣٢

الرقم	البابا	سنوات الرعاية	الحاكم	سنوات الحكم
٥٧	غبريال ١	٩١٠ـ ٩٢٠	المقتدر	
٥٨	قزمان ٣	٩٢٠ـ ٩٣٢	المقتدر	
٥٩	مكاريوس١	٩٣٢ـ ٩٥٢	المهتدي	٩٣٢ـ ٩٣٤
			الراضي	٩٣٥
			الإخشيد	٩٣٦ـ ٩٦٤
			أبو القاسم	٩٦٤ـ ٩٦٠
٦٠	ثاؤفانيوس	٩٥٢ـ ٩٥٦	أبو القاسم	
٦١	مينا ٢	٩٥٦ـ ٩٧٤	أبو القاسم	
			أبو الحسن علي	٩٦٠ـ ٩٦٦
			كافور	٩٦٦ـ ٩٦٨
			أبو الفوارس بن علي	٩٦٨ـ ٩٦٩
			المعز لدين الله	٩٧٢ـ ٩٧٥
٦٢	أبرآم السّرياني	٩٧٥ـ ٩٧٨	المعز لدين الله	
			العزيز بالله	٩٧٥ـ ٩٩٦
٦٣	فيلوثاؤس	٩٧٩ـ ١٠٠٣	العزيز بالله	
			الحاكم بأمر الله	٩٩٦ـ ١٠٢١
٦٤	زخارياس	١٠٠٤ـ ١٠٣٢	الحاكم بأمر الله	
			الظاهر	١٠٢١ـ ١٠٣٦
٦٥	شنوده٢	١٠٣٢ـ ١٠٤٦	الظاهر	
			المستنصر	١٠٣٦ـ ١٠٩٤
٦٦	خريستوذولوس	١٠٤٧ـ ١٠٧٧	المستنصر	
٦٧	كيرلس٢	١٠٧٨ـ ١٠٩٢	المستنصر	
٦٨	خائيل٤	١٠٩٢ـ ١١٠٢	المستنصر	
			المستعلي	١٠٩٤ـ ١١٠٢
			الآمر	١١٠٢ـ ١١٣٠
٦٩	مكاريوس٢	١١٠٢ـ ١١٢٨	الآمر	
٧٠	غبريال٢	١١٣١ـ ١١٤٥	الحافظ	١١٣٠ـ ١١٤٩
٧١	خائيل٥	١١٤٥ـ ١١٤٦	الحافظ	
٧٢	يؤانس٥	١١٤٦ـ ١١٦٦	الحافظ	
			الظافر	١١٤٩ـ ١١٥٤

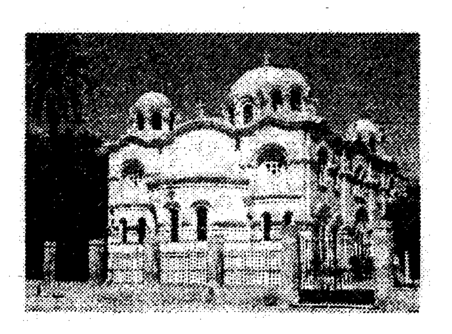
الرقم	البابا	سنوات الرعاية	الحاكم	سنوات الحكم
			الفائز	١١٥٤ ـ ١١٦٠
			العاضد	١١٦٠ ـ ١١٧١
٧٣	مرقس٣	١١٦٦ ـ ١١٨٩	العاضد	
			صلاح الدين	١١٧١ ـ ١١٩٣
٧٤	يؤانس٦	١١٨٩ ـ ١٢١٦	صلاح الدين	
			العزيز عماد الدين	١١٩٣ ـ ١١٩٨
			المنصور محمد	١١٩٨ ـ ١٢٠٠
			العادل	١٢٠٠ ـ ١٢١٨
٧٥	كيرلس٣	١٢٣٥ ـ ١٢٤٣	الكامل	١٢١٨ ـ ١٢٣٨
			العادل ٢	١٢٣٨ ـ ١٢٣٩
			الصالح نجم الدين	١٢٣٩ ـ ١٢٤٩
٧٦	أثناسيوس٣	١٢٥٠ ـ ١٢٦١	شجر الدر	١٢٥٠
			الأشرف موسى	١٢٥٠ ـ ١٢٥٤
			عز الدين أيبك	١٢٥٤ ـ ١٢٥٧
			نور الدين علي	١٢٥٧ ـ ١٢٥٩
			سيف الدين قطز	١٢٦٠
			الظاهر بيبرس	١٢٦٠ ـ ١٢٧٧
٧٧	يؤانس٧	١٢٦٢ ـ ١٢٦٨	الظاهر بيبرس	
		١٢٧١ ـ ١٢٩٣		
٧٨	غبريال٣	١٢٦٨ ـ ١٢٧١	الظاهر بيبرس	
			بركة خان	١٢٧٧ ـ ١٢٧٩
			سلاميش	١٢٧٩
			قلاوون	١٢٧٩ ـ ١٢٩٠
			الأشرف خليل	١٢٩٠ ـ ١٢٩٣
٧٩	ثيؤدوسيوس٢	١٢٩٤ ـ ١٣٠٠	الناصر محمد	١٢٩٤
			العادل كوتبوفاه	١٢٩٤ ـ ١٢٩٦
			حسام الدين لاجين	١٢٩٦ ـ ١٢٩٩
			الناصر محمد	١٢٩٩ ـ ١٣٠٩
٨٠	يؤانس٨	١٣٠٠ ـ ١٣٢٠	الناصر محمد	
			بيبرس جاشانكير	١٣٠٩ ـ ١٣١٠

الرقم	البابا	سنوات الرعاية	الحاكم	سنوات الحكم
			الناصر محمد	١٣١٠ـ ١٣٤١
٨١	يؤانس٩	١٣٢٠ـ ١٣٢٧	الناصر محمد	
٨٢	بنيامين٢	١٣٢٧ـ ١٣٣٩	الناصر محمد	
٨٣	بطرس٥	١٣٤٠ـ ١٣٤٨	سيف الدين أبو بكر	١٣٤١
			الأشرف كوجوك	١٣٤٢
			الناصر أحمد	١٣٤٢
			الصالح اسماعيل	١٣٤٢ـ ١٣٤٥
			الكامل شعبان	١٣٤٦
			المظفر حجّي	١٣٤٧
			الناصر حسن	١٣٤٧ـ ١٣٥٠
٨٤	مرقس٤	١٣٤٨ـ ١٣٦٣	الناصر حسن	
			الصالح صالح	١٣٥٠ـ ١٣٥٤
			الناصر حسن	١٣٥٤ـ ١٣٦١
			صلاح الدين محمد	١٣٦١ـ ١٣٦٣
٨٥	يؤانس١٠	١٣٦٣ـ ١٣٦٩	الأشرف شعبان	١٣٦٣ـ ١٣٧٧
٨٦	غبريال ٤	١٣٧٠ـ ١٣٧٨	الأشرف شعبان	
			علاء الدين علي	١٣٧٧ـ ١٣٨١
٨٧	متاؤس١	١٣٧٨ـ ١٤٠٩	علاء الدين علي	١٣٧٧ـ ١٣٨١
			صلاح الدين حجّي	١٣٨٢
			برقوق	١٣٨٢ـ ١٣٨٨
			الناصر فرج	١٣٨٨ـ ١٤٠٥
			عز الدين عبد العزيز	١٤٠٥
			الناصر فرج	١٤٠٥ـ ١٤١٢
٨٨	غبريال٥	١٤٠٩ـ ١٤٢٧	الناصر فرج	
			المؤيد	١٤١٢
			شيخ	١٤١٢ـ ١٤٢١
			المظفر أحمد	١٤٢١
			سيف الدين تتار	١٤٢١
			ناصر الدين محمد	١٤٢١ـ ١٤٢٢
			الأشرف برسباي	١٤٢٢ـ ١٤٣٨

الرقم	البابا	سنوات الرعاية	الحاكم	سنوات الحكم
٨٩	يؤانس١١	١٤٢٧ـ ١٤٥٢	الأشرف برسباي	
			جمال الدين يوسف	١٤٣٨
			جاكماك	١٤٣٨ـ ١٤٥٣
٩٠	متاؤس٢	١٤٥٢ـ ١٤٦٥	جاكماك	
			فخر الدين عثمان	١٤٥٣
			سيف الدين إنال	١٤٥٣ـ ١٤٦٠
			شهاب الدين أحمد	١٤٦٠
			سيف الدين خوسقادم	١٤٦٠ـ ١٤٦٧
٩١	غبريال٦	١٤٦٦ـ ١٤٧٤	سيف الدين خوسقادم	
			سيف الدين يالباي	١٤٦٧
			تيموربوغا	١٤٦٧
			قايتباي	١٤٦٧ـ ١٤٩٦
٩٢	خائيل٦	١٤٧٧ـ ١٤٧٨	قايتباي	
٩٣	يؤانس١٢	١٤٨٠ـ ١٤٨٣	قايتباي	
٩٤	يؤانس١٣	١٤٨٤ـ ١٥٢٤	قايتباي	
			الناصر محمد	١٤٩٧ـ ١٤٩٨
			الظاهر قنسوه	١٥٠٠
			الأشرف جانبلاط	١٥٠١
			قنسوه الغوري	١٥٠١ـ ١٥١٦
			طومان باي	١٥١٧
			سليم الأول	١٥١٧ـ ١٥٢٠
			سليمان الأول	١٥٢٢ـ ١٥٦٦
٩٥	غبريال٧	١٥٢٥ـ ١٥٦٨	سليمان الأول	
			سليمان الثاني	١٥٦٦ـ ١٥٧٤
٩٦	يؤانس١٤	١٥٧١ـ ١٥٨٦	سليم الثاني	
			مراد الثالث	١٥٧٤ـ ١٥٩٥
٩٧	غبريال٨	١٥٨٧ـ ١٦٠٣	مراد الثالث	
			محمد الثالث	١٥٩٥ـ ١٦٠٣
٩٨	مرقس٥	١٦٠٣ـ ١٦١٩	أحمد الأوَّل	١٦٠٣ـ ١٦١٧
			مصطفى الأول	١٦١٧ـ ١٦١٨

الرقم	البابا	سنوات الرعاية	الحاكم	سنوات الحكم
			عثمان الثاني	١٦١٨ - ١٦٢٠
٩٩	يؤانس١٥	١٦١٩ - ١٦٢٩	عثمان الثاني	
			مصطفى الأول	١٦٢٠ - ١٦٢٣
			مراد الرابع	١٦٢٣ - ١٦٤٠
١٠٠	متاؤس٣	١٦٣١ - ١٦٤٦	مراد الرَّابع	
			إبراهيم الأول	١٦٤٠ - ١٦٤٨
١٠١	مرقس٦	١٦٤٦ - ١٦٥٦	إبراهيم الأوَّل	
			محمد الرابع	١٦٤٨ - ١٦٨٧
١٠٢	متاؤس ٤	١٦٦٠ - ١٦٧٥	محمد الرَّابع	
١٠٣	يؤانس١٦	١٦٧٦ - ١٧١٨	محمد الرَّابع	
			سليمان الثاني	١٦٨٧ - ١٦٩١
			أحمد الثاني	١٦٩١ - ١٦٩٥
			مصطفى الثاني	١٦٩٥ - ١٧٠٣
			أحمد الثالث	١٧٠٣ - ١٧٣٠
١٠٤	بطرس٦	١٧١٨ - ١٧٢٦	أحمد الثالث	
١٠٥	يؤانس١٧	١٧٢٧ - ١٧٤٥	أحمد الثالث	
			محمود الأول	١٧٣٠ - ١٧٥٤
١٠٦	مرقس٧	١٧٤٥ - ١٧٦٩	محمود الأوَّل	
			عثمان الثالث	١٧٥٤ - ١٧٥٧
			مصطفى الثالث	١٧٥٧ - ١٧٧٣
١٠٧	يؤانس١٨	١٧٦٩ - ١٧٩٦	مصطفى الثالث	
			عبد الحميد الأول	١٧٧٣ - ١٧٨٩
			سليم الثالث	١٧٨٩ - ١٨٠٥
١٠٨	مرقس٨	١٧٩٦ - ١٨٠٩	محمد علي	١٨٠٥ - ١٨٤٨
١٠٩	بطرس٧	١٨٠٩ - ١٨٥٢	محمد علي	
			إبراهيم	١٨٤٨
			عباس الأول	١٨٤٨ - ١٨٥٤
١١٠	كيرلس٤	١٨٥٣ - ١٨٦١	عباس الأوَّل	
			سعيد	١٨٥٤ - ١٨٦٣
١١١	ديمتريوس٢	١٨٦٢ - ١٨٧٠	سعيد	

الرقم	البابا	سنوات الرعاية	الحاكم	سنوات الحكم
			إسماعيل	١٨٦٣ - ١٨٨٢
١١٢	كيرلس٥	١٨٧٤ - ١٩٢٧	إسماعيل	
			توفيق	١٨٨٢ - ١٨٩٢
			عباس الثاني	١٨٩٢ - ١٩١٤
			حسين كامل	١٩١٤ - ١٩١٧
			فؤاد	١٩١٧ - ١٩٣٦
١١٣	يؤانس١٩	١٩٢٨ - ١٩٤٢	فؤاد	
			فاروق	١٩٣٦ - ١٩٥٢
١١٤	مكاريوس٣	١٩٤٢ - ١٩٤٥	فاروق	
١١٥	يوساب٢	١٩٤٦ - ١٩٥٦	فاروق	
			محمد نجيب	١٩٥٢ - ١٩٥٤
			جمال عبد الناصر	١٩٥٤ - ١٩٧٠
١١٦	كيرلس٦	١٩٥٩ - ١٩٧١	جمال عبد الناصر	
			أنور السادات	١٩٧٠ - ١٩٨١
١١٧	شنودة٣	١٩٧١ -	أنور السادات	
			حسني مبارك[٢]	١٩٨١ -



2- Otto Menardus, *Christian Egypt Ancient And Modern*, The American University In Cairo Press, Cairo, 1977, p. 55-66.

B. Evetts, *History of the Patriarchs of the Coptic Church of Alexandria*, I, Saint Mark to Theonas (3oo), Paris, 1904, 664-665.

المُلحق الثَّاني

الطَّوائف المسيحيَّة في مصر

١ـ مجموعة الكنائس الأرثوذكسيَّة

(أ) الرُّوم الأرثوذكس.

(ب) الأرمن الأرثوذكس.

(ج) السِّريان الأرثوذكس.

٢ـ مجموعة الكنائس الكاثوليكيَّة

(أ) الأقباط الكاثوليك.

(ب) الرُّوم الكاثوليك.

(ج) السِّريان الكاثوليك.

(د) الموارنة.

(هـ) الكلدان الكاثوليك.

(و) الأرمن الكاثوليك.

(ز) اللاتين الكاثوليك.

٣ـ مجموعة الكنائس الإنجيليَّة

(أ) كنائس الإصلاح: كنيسة نهضة القداسة، كنيسة المثال المسيحي، كنيسة الإيمان، كنيسة الله.

(ب) كنائس الأخوة: كنيسة الإخوة البليموث، كنيسة الإخوة المرحِّبون.

(ج) الكنائس الرَّسوليَّة: الكنيسة الرَّسوليَّة، كنيسة النِّعمة الرَّسوليَّة، كنيسة المسيح، الكنيسة الخمسينيَّة، الكنيسة المعمدانيَّة، كنيسة الكرازة بالإنجيل، كنيسة النَّعمة.

١ـ مجموعة الكنائس الأرثوذكسيَّة

(أ) الرُّوم الأرثوذكس

بعد مجمع خلقيدونية سنة ٤٥١م نشأ في مصر بطريركيتان، البطريركيَّة القبطيَّة، والبطريركيَّة البيزنطيَّة. وهذه الأخيرة أطلقت على نفسها اسم بطريركيَّة الرُّوم الأرثوذكس منذ سنة ١٤٥٣م، فصار في كنيسة الإسكندريَّة بطريركان: البطريرك الشَّرعي للكنيسة القبطيَّة، وهو بطريرك الأقباط الأرثوذكس، وبطريرك الملكانيين (قبل انفصال القسطنطينيَّة عن روما)، أو بطريرك الرُّوم الأرثوذكس (بعد انفصال القسطنطينيَّة عن روما في القرن الحادي عشر).

ومع مرور الزَّمن تضاءلت بطريركيَّة الرُّوم حتى أصبح معظم أتباعها من الغُرباء. وكانت الحروب الصَّليبية سبباً في ازدياد نفور المسلمين منهم. كما حتموا أن يكون البطريرك من الجنسيَّة المصريَّة لا اليونانيَّة. فاضطر البطريرك بعد سنة ١٥١٧م إلى الإقامة في القسطنطينيَّة كملجأ مؤقَّت، وكان يرسل وكيلاً عنه. وفي عهد محمد على باشا كثر الرُّوم الأرثوذكس بمصر فعاد البطريرك إلى الإقامة في الإسكندريَّة سنة ١٨٢٦م، وحصل البطريرك على فرمان من الباب العالي سنة ١٨٤٦م، وتوالت بعد ذلك البراءات بتعيين خلفائه.

ولما تولى البطريرك فوتيوس سنة ١٩٢٥م قام نزاع عنيف داخل الطَّائفة بشأن انتخاب خلفه، فكان معظم الإكليروس من اليونانيين بينما أغلبية المؤمنين كانوا من المصريين، فناصرت الحكومة هؤلاء المصريين واشترطت أن يكون البطريرك مصري الجنسيَّة، وصدر أمر ملكي بذلك في ديسمبر سنة ١٩٢٧م. وصار لقب البطريرك عندهم "بطريرك الإسكندريَّة وسائر أفريقيا للرُّوم الأرثوذكس".

ويتبع كنيسة الرُّوم الأرثوذكس أربع عشرة إيبارشيَّة، منها أربع إيبارشيَّات في مصر في كل من الإسكندريَّة والقاهرة، وطنطا والإسماعيليَّة، وبورسعيد، والقنطرة، وإيبارشيَّة في السودان (النوبا)، وإيبارشيَّة في إثيوبيا (أكسوم)، وإيبارشية في ليبيا (طرابلس) وهي تشمل رعايا ليبيا وتونس والجزائر والمغرب. وإيبارشيَّة جنوب أفريقيا (جوهانسبرج) ورأس الرَّجاء الصَّالح، وزائير، والكاميرون، وزمبابوي، ونيروبي. ويهتم بهذه الإيبارشيَّات والرَّعايا ١٢ مطراناً، و٨ مطارنة مساعدين، ٩٠ كاهناً، وتتبع هذه الكنيسة كليَّة للاهوت مقرها في نيروبي بكينيا.

وتحوي بطريركية الرُّوم الأرثوذكس بالقاهرة مكتبة تضم أكثر من ٤٠ ألف مجلَّد، ٥٠٠ مخطوطة، ١٥ ألف نسخة نادرة من الكُتُب.

(ب) الأرمن الأرثوذكس

عندما استولى رمسيس الثاني (١٣٠٩- ١٢٣٥ق م) على جنوب أرمينيا، أسر بعض سكانها وأتى بهم إلى مصر. وزادت حركة هجرة الأرمن إلى مصر في خلال العصر البيزنطي (٥٢٧- ٦٤٠م) وقد ترَّهب بعضهم في الأديرة المصريَّة وفي دير سانت كاترين في سيناء. وشيَّدوا في هذا العصر بعض الكنائس الأرمينيَّة في مصر. ومنذ العصر الإسلامي

شارك بعض الأرمن الذين اعتنقوا الإسلام في الفتح العربي مثل القائد فارتان (وردان) الذي شيَّد سوق فارتان في الفسطاط، ثم ولاه الخليفة عثمان بن عفان مسؤوليَّة خراج مصر. وتولى بعض الأرمن إمارة مصر خلال الحكم العباسي (٧٥٠– ١٢٨٥م). وفي العصر الفاطمي تمتَّع الأرمن بكامل الحريَّة الدِّينيَّة والثقافيَّة والتجاريَّة. وفي هذا العصر برز اسم الأرمني بدر الجمالي الذي تولى الوزارة (١٠٧٠– ١٠٩٤م) وخلفه ابنه الأفضل شاهنشاه (١٠٩٤– ١١٢١م) وغيرهما. ومن الأرمن الذين خدموا مع صلاح الدِّين الأيوبي (١١٧١– ١٢٥٠م) بهاء الدِّين قراقوش، وشرف الدِّين قراقوش، والأخير هو الذي نُسبت لعصره مقولة "حُكم قراقوش".

وفي عهد الوزير المتسلِّط بهرام أدخل إلى مصر آلاف الأرمن، وأسند إليهم وظائف أساسيَّة في الإدارة وذلك منذ سنة ١١٣٧م، مما أثار نقمة المسلمين عليه. وفي هذا الوقت كان الأرمن في مصر خاضعين لكاثوليكوس محلي مقيم في القاهرة.

ازداد عدد الأرمن في مصر في العصر المملوكي (١٢٥٠– ١٥١٧م) بعد سقوط أرمينيَّة الصُّغرى في يد المماليك سنة ١٣٧٥م[١]، ويرى البعض أن شجر الدُّر زوجة الملك الصَّالح هي جارية من أصل أرمني. وذكر المقريزي أن من بين عشرة آلاف مملوك كانوا في مصر سنة ١٢٩٠م، كان ثلاثة آلاف وسبعمائة منهم من أصل أرمني وشركسي. وفي القرن

١– حالف الأرمن المغول، وهم أعداء المماليك، لذلك لم يتوان المماليك في إرسال الحملات الواحدة تلو الأخرى للإغارة عليهم حتى تم إخضاعهم في منتصف القرن الثالث عشر للميلاد واستقرت منهم جالية كبيرة في القاهرة منذ عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون، وهم الذين لعبوا دوراً خطيراً في نشر كثير من الأمراض الاجتماعية في القاهرة في ذلك الحين. (د. علي السيِّد محمود، الجواري في مجتمع القاهرة المملوكيَّة، مرجع سابق، ص ٢٠).

السَّادس عشر قل عددهم نسبياً في مصر، ثم زاد في القرن السَّابع عشر، وتركّزوا في خان الخليلي وكوم الأرمن والإسكندريَّة ورشيد ودمياط، ثم تزايدوا أكثر في القرن الثامن عشر.

وكان للأرمن الأرثوذكس حتى بداية القرن الرَّابع عشر رئيس واحد يُسمى جاثليق. وكان قد استقر في مدينة سيس في كيليكيا بأرمينيا الصُّغرى. ولكن في سنة ١٣١١م خرج عن طاعته أسقف القُدس معترضاً على الإصلاح الطَّقسي المقترح بواسطة السنودس في كيليكيَّا، وساعده في ذلك سلطان مصر ناصر محمد، وأخذ لقب بطريرك. فانقسم أساقفة كرسي سيس سنة ١٤٤١م إلى قسمين، تبع قسم منهم جاثليق سيس، وانتخب الآخرون جاثليقاً في اشميازين قرب جبل أراراط في أرمينيا الكُبرى.

أنشأ السُّلطان محمد الفاتح بطريركيَّة للأرمن في الآستانة وعيَّن لها بطريركاً، ومنحه السُّلطان على جميع الأرمن القاطنين في بلاد الدَّولة العثمانية بما فيها مصر، فأصبحت مصر بالتالي إيبارشيَّة للأرمن الأرثوذكس تابعة لبطريرك القسطنطينيَّة بدلاً من أورشليم.

في عهد محمد علي (١٨٠٥- ١٨٤٩م) نزحت أعداد كبيرة من الأرمن إلى مصر، وكان من بينهم السكرتير الخاص لمحمد علي، ومن تولى نظارة المالية، والخارجية، والتجارة، والتعليم. وقد عاون بعض الأرمن محمد علي في إقامة وتنظيم مؤسساته التعليمية، ومنهم من شارك في تنظيم دار الكتب في باب الخلق، والمتاحف: المصري والقبطي والإسلامي، والتي كانت تتبع وزارة التعليم في ذلك الوقت. وقد لعب الأرمن أدواراً مهمة في النشاط الاقتصادي المصري ولاسيما في مجال الصناعة.

وللأرمن الأرثوذكس ستة أندية ثقافيَّة ورياضيَّة وثلاث مدارس

لتعليم أبنائهم. ولهم ثلاث صحف تصدر في القاهرة باللغة الأرمينيَّة هي: هوسابير (منذ ١٩١٥م)، وآريف (منذ ١٩١٥م)، والشعلة (منذ ١٩٣٢م).

ويرأس طائفة الأرمن في مصر الآن "رئيس أساقفة" يتبع بطريرك الآستانة.

(ج) السِّريان الأرثوذكس

السِّريان في الأصل هم أهل سوريا، وبعد انتشار اللُّغة اليونانيَّة أُطلق على الذين يتكلّمون السِّريانيَّة اسم السِّريان.

بعد مجمع خلقيدونية سنة ٤٥١م صار للكنيسة الأنطاكيَّة بطريركان، أحدهما البطريرك الشَّرعي للبلاد، والآخر الذي تبع المجمع المذكور صار بطريركاً للرُّوم في أنطاكية. أما في مصر فكان للسِّريان الأرثوذكس علاقات وطيدة مع الأقباط الأرثوذكس فكانوا تابعين في شؤون القضاء لأحوالهم الشَّخصيَّة للأقباط. وأراد بطريرك السِّريان الأرثوذكس أن يعيِّن له وكيلاً في مصر سنة ١٩١٢م، فلجأ إلى السُّلطات العُليا في الدَّولة العثمانيَّة، فكتبت هذه إلى الخديوي بتعيين وكيل بطريركي لطائفة السِّريان الأرثوذكس بمصر. وكان ذلك في أغسطس سنة ١٩١٣م.

٢ـ مجموعة الكنائس الكاثوليكيَّة

تتكوَّن الكنيسة الكاثوليكيَّة في مصر من سبع كنائس تنتمي إلى ثقافات وأعراق متعدِّدة وطقوس متنوِّعة، لكن يجمعها جميعاً وحدة المذهب الكاثوليكي، ويرأسها في مصر بطريرك الأقباط الكاثوليك بصفته

رئيس مجلس البطاركة والأساقفة الكاثوليك في مصر[٢]، وهذا المجلس هو أعلى سلطة كنسية كاثوليكيَّة تنبع منها القرارات والتَّوجيهات لكل الكاثوليك في مصر بانتماءاتهم الكنسيَّة المختلفة، وبناء على توصيات المجمع الفاتيكاني الثَّاني حدَّد بطاركة وأساقفة الكنيسة الكاثوليكيَّة بمصر تنظيم اجتماعاتهم الدَّوريَّة، وقاموا بصياغة لائحة داخليَّة تم اعتمادها سنة ١٩٨٢م.

وهذه الكنائس الكاثوليكيَّة السَّبع هي[٣]:

(أ) الأقباط الكاثوليك

كان الرُّهبان الفرنسسكان يأتون إلى مصر بين الحين والآخر من القُدس مركزهم الرَّئيسي في الشَّرق، لتقديم خدمات روحيَّة لأبناء الجاليات الأجنبيَّة التي لها قنصليَّات في مصر مثل جنوا والبندقيَّة والنِّمسا وفرنسا. وفي سنة ١٣٢٥م أقاموا لهم مقراً دائماً في مدينة الإسكندريَّة، تبعه مع توالي السِّنين مقرَّات أخرى في بلاد أخرى.

وكان من أخطر الأمور في تاريخ الكنيسة القبطيَّة في العصر العثماني هو ما فعله بابا روما عندما أوفد وفداً إلى البابا يؤانس الرَّابع عشر (١٥٧١ - ١٥٨٦م) وهو البابا الـ ٩٦ من باباوات الكرازة المرقسيَّة، يدعوه إلى قبول الاتحاد بروما. ويبدو أن البطريرك القبطي قد وافق مبدئياً

٢ـ يتكوَّن المجلس من: ١ـ بطريرك الأقباط الكاثوليك رئيساً، ٢ـبطريرك الرُّوم الكاثوليك نائباً للرئيس، ٣ـ أساقفة الكنيسة القبطيَّة الكاثوليكية أعضاء، ٤ـ مطران الروم الكاثوليك عضواً، ٥ـ مطران الموارنة عضواً، ٦ـ مطران السريان الكاثوليك عضواً، ٧ـ مطران الأرمن الكاثوليك عضواً، ٨ـ مطران الكلدان الكاثوليك عضواً، ٩ـ مطران اللاتين عضواً. ١٠ـ ممثل عن مجلس رؤساء الرَّهبانيات الكاثوليكية الرجال في مصر. ١١ـ ممثلة عن اتحاد رئيسات الرَّهبانيات النِّسائيَّة الكاثوليكية في مصر.

٣ـ مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام، الحالة الدينية في مصر، العدد الثاني، الطبعة الأولى، القاهرة ١٩٩٨م. ص ٩٩ وما يليها

على هذه الدَّعوة، وأرسل إلى روما رسالة مكتوبة تفيد ذلك. ولكن الأقباط حالوا دون تحقيقها، واضطر البابا للهروب أمام اضطهاد الباشا. وانتهت القصَّة بموت البابا القبطي في ظروف غامضة[٤].

ولما وفد الإفرنج إلى مصر في القرن السَّابع عشر لمزاولة التِّجارة، أرسل بابا روما جماعة من الرُّهبان لنشر المذهب الكاثوليكي بين الأقباط، ففشلوا. وقد قام البابا متاؤس الرَّابع (١٦٦٠- ١٦٧٥م) وهو البطريرك الـ ١٠٢ بالرَّد على محاولات المبشرين الكاثوليك بزعزعة إيمان الأقباط في كنيستهم.

وحاول الباباويون تجديد مساعيهم في القرن الثَّامن عشر في الوجه القبلي في مصر، فتبعهم عدد قليل من الأقباط من الكهنة والعلمانيين. ولما جاءت الحملة الفرنسيَّة إلى مصر (١٧٩٨- ١٨٠١م) نشطت الإرساليَّات الكاثوليكيَّة ودخلت بدخول كثير من الإفرنج. ولم يتركوا مصر بعد خروج الفرنسيين منها، بل لبثوا بها يتمتعون بحماية فرنسا لهم.

كانت الإرساليَّات الكاثوليكيَّة التي وفدت في نشاط مضطِّرد إلى مصر هي أحد آثار الحملة الفرنسيَّة عليها. ولقد دأبت الكنيسة الكاثوليكيَّة منذ البداية على محاولة ضم الكنيسة القبطيَّة إلى تبعيتها أو فرض الحماية الدِّينيَّة عليها على الأقل، وكان الدَّافع الأوَّل من وراء ذلك هو البون الشَّاسع بين الحضارتين الشَّرقيَّة والغربيَّة في العصور الوسطى، والحالة المترديَّة التي وصلت إليها الكنيسة القبطيَّة آنئذ، ولكن كان الرَّفض المستمر من قِبَل الكنيسة القبطيَّة هو الأسلوب الوحيد في مواجهة هذا التدخُّل الخارجي في حياتها الدَّاخليَّة.

ولقد حاول بعض المبشرين الكاثوليك تقديم الثقافة الغربيَّة إلى

٤ ـ د. محمد عفيفي، الأقباط في مصر في العصر العثماني، مرجع سابق، ص ٢٩٣

الأقباط في إطار تحويلهم عن المذهب الأرثوذكسي. ويصف المبشر الدُّومنيكاني فانسليب حالة السُّخط التي تنتاب الأقباط عندما يدعوهم الفرنسيون إلى إرسال أطفالهم إلى فرنسا لاكتساب العلوم والفنون وتشرُّب نمط الحياة الغربيَّة(٥).

وفي سنة ١٦٨٧م أنشأ مجمع انتشار الإيمان "نيابة رسوليَّة"، وأصدر قراراً بوضع الأقباط الكاثوليك تحت ولاية بطريرك أنطاكية الكاثوليكي.

وشهد القرن الثّامن عشر تحوُّل بعض رجال الدِّين الأقباط إلى الكاثوليكيَّة ويأتي في مقدِّمتهم الأنبا أثناسيوس مطران القُدس الذي تحوَّل إلى الكاثوليكيَّة سنة ١٧٤١م. ولم يلبث سوى ثلاث سنوات حتى عاد إلى كنيسته الأرثوذكسيَّة. والأنبا أنطونيوس أسقف جرجا الذي انضم إلى الكاثوليكيَّة في سنة ١٧٥٨م وأصدر بابا روما أوامره بتنصيبه "نائباً رسولياً" له في مصر(٦). وتتابع النواب الرَّسوليون لتولي شؤون الطّائفة حيث أُقيم تسعة عشر نائباً رسولياً خلال الفترة من سنة ١٧٤١ـ ١٨٩٩م.

لقد عمل المبشرون الكاثوليك ضمن إطار مخطط تبشيري عالمي منظّم إلى حد كبير، وأجاد معظمهم اللُّغة العربيَّة وتبحَّر في المذاهب المسيحيَّة، ولعبت كلية أوربان التبشيريَّة دوراً مهماً في هذا الشأن، بينما لم تكن هناك كليَّة إكليريكيَّة آنذاك لتخريج رجال الدِّين الأقباط، وكان معظم القساوسة الأقباط من الحرفيين والتُّجار من ذوي الثّقافة المحدودة بالمقارنة بالمبشرين الكاثوليك. ولم تقدِّم الكنيسة آنئذ سوى محاولات فرديَّة لا تتم داخل إطار منظّم، ويمثل الأنبا يوساب أسقف جرجا المعروف بالأبح، بمؤلفاته وردوده ذات الأسلوب الفسلفي واللاّهوتي، مَعلماً هاماً في القرن

٥ـ نفس المرجع، ص ٢٤٦
٦ـ نفس المرجع، ص ٢٧٧

الثامن عشر في مواجهة الحملات التبشيريَّة الكاثوليكيَّة[٧].

ولما تولى محمد علي باشا (١٨٠٥- ١٨٤٨م) استخدم من هؤلاء الفرنسيين كثيرين في مصالح عديدة، وتتابعت الإرساليَّات اللاَّتينيَّة من فرنسيسكان وفرير Fréres وجزويت لنشر المذهب الكاثوليكي، ولكنهم لم ينجحوا. ولكن باعتناق المعلم غالي وزير الماليَّة في عهد محمد علي، وابنه باسيليوس بك[٨] وأخيه فرنسيس، المذهب الكاثوليكي مع عائلاتهم وأنصارهم، وضع الكاثوليك أقدامهم في مصر، وأصبحوا يُعرفون باسم "الأقباط الكاثوليك". وكان أوَّل بطريرك كاثوليكي قبطي هو الأنبا كيرلس مقار الذي رُسم في يونيو سنة ١٨٩٩م بواسطة البابا لاون الثَّالث عشر (١٨٧٨- ١٩٠٣م). واعترفت به الحكومة المصريَّة بطريركاً سنة ١٩٠٠م. ولقد حاول أن يجتذب الأقباط إلى كنيسته فلم ينجح. وإذ أراد العودة إلى الأرثوذكسيَّة جاهر بذلك أمام الكثيرين، فسمع بابا روما بذلك فعزله وعيَّن آخر مكانه، حيث توالى من بعده أربعة بطاركة حتى الآن[٩]. كما تم تعيين أسقفاً لطيبة (الأقصر)، وآخر للصَّعيد الأعلى مركزه طهطا، وآخر لمصر الوسطى مركزه المنيا.

وتضم بطريركيَّة الأقباط الكاثوليك في مصر الآن (سنة ١٩٩٧م) ستة كراسي أسقفية، بالإضافة إلى أسقفين معاونين للبطريرك[١٠]. وعدد الأقباط

٧- د. محمد عفيفي، الأقباط في مصر في العصر العثماني، مرجع سابق، ص ٢٦٧

٨- بعد موت المعلم غالي، استدعى محمد على ابنه باسيليوس ليعزيه في موت أبيه، وإذ أجاب الابن حسناً أُسندت إليه وظيفة رئيس المحاسبة في الحكومة المصرية، وأُنعم عليه برتبة (بك) وهو أوَّل من مُنح هذه الرتبة من الأقباط.

٩- هم الأنبا مكسيموس صدفاي، الأنبا مرقس خزام، الأنبا إسطفانوس الأوَّل، والأنبا إسطفانوس الثَّاني.

١٠- رقي البطريرك إسطفانوس الثاني إلى رتبة كاردينال في فبراير سنة ٢٠٠١م، بيد قداسة البابا يوحنا بولس الثاني ضمن ٤٤ كاردينالاً من مختلف دول العالم، وذلك في

الكاثوليك في مصر حوالي ٢١٠ ألف نسمة، يخدمهم ١٧٥ كاهناً بالإضافة إلى ٣٠ كاهناً من الرُّهبان الفرنسيسكان وغيرهم من الرَّهبانيَّات المختلفة.

ويوجد في مصر حالياً اثنا عشر رهبانية كاثوليكيَّة للرِّجال، ٣٩ رهبانيَّة للنِّساء.

أما أهم رهبانيَّات الرِّجال فهي: الفرنسيسكان[١١]، وهي أقدم رهبانيَّة كاثوليكيَّة للرِّجال، وقدموا إلى مصر سنة ١٢١٩م، والفرير (رهبانية أخوة المدارس المسيحيَّة)، والجزويت (رهبانية الآباء اليسوعيين)، والسالزيان[١٢]، والدُّومينيكان.

وأهم رهبانيَّات النِّساء هي: راهبات المحبَّة للقدِّيس منصور دي بول[١٣]، ويُسمى في الفرنسيَّة St. Vincent (سان فينسان)، وهي أقدم رهبنة نسائيَّة كاثوليكيَّة. وقد تأسَّست هذه الرَّهبانيَّة سنة ١٦٣٣م على يد القدِّيس منصور بمعاونة القدِّيسة لويز دي مارياك لخدمة الفقراء والبؤساء. وتعد من أكثر الرَّهبانيَّات العالميَّة انتشاراً، ويبلغ عدد الرَّاهبات التَّابعات لها حالياً حوالي ٢٦٥٠٠ راهبة. وفي منطقة الشَّرق الأوسط توجد هذه الرَّهبانيَّة في مصر ولبنان وسوريا وفلسطين وإسرائيل وإيران، أما مدينة بيروت ففيها رئاسة هذه المنطقة الإقليميَّة.

احتفال كبير في ساحة القديس بطرس بالفاتيكان.

١١ـ يتبعهم المركز الفرنسيسكاني للدِّراسات المسيحية الشَّرقيَّة، والذي أصدر مجموعة دراسات قيِّمة. والفرنسيسكان يخدمون أربعين كنيسة وعشر مدارس في مصر.

١٢ـ يتبعهم معهد دون بوسكو للتأهيل المهني للشَّباب في الإسكندرية.

١٣- وُلد في فرنسا سنة ١٥٨١م، وصار قسيساً في سنة ١٦٠٠م، وكان شديد المحبة للمرضى والمتألمين. ورحل من عالمنا في سبتمبر سنة ١٦٦٠م، وأعلنت كنيسة روما تطويبه سنة ١٧٢٩م، ثم قداسته سنة ١٧٣٧م.

وكانت هذه الرَّهبانيَّة قد قدمت إلى مصر سنة ١٨٤٤م حيث وصل إلى الإسكندريَّة سبع بنات يتبعن هذه الرَّهبانيَّة، وافتتحن مستوصفاً هناك عُرف بمستوصف "السَّبع بنات". وفي سنة ١٩٠١م جاءت بعض الرَّاهبات إلى القاهرة، ثم انتشرن في طنطا وبورسعيد وأسيوط وصدفا والقوصيَّة والمنشاة الكبرى وقويسنا وشبين الكوم ... الخ. وعُرفت مستوصفات هذه الرَّهبانيَّة في البلاد المختلفة باسم مستوصف "السَّبع بنات"، كما افتتحن مدارس ابتدائيَّة وإعدادية وثانوية لتعليم البنات. ويبلغ عدد "راهبات المحبَّة للقديس منصور" في مصر حالياً ٦٠ راهبة.

وتوجد أيضاً: راهبات سيِّدة المحبَّة للرَّاعي الصَّالح. والرَّاهبات الفرنسيسكانيات لقلب مريم الطَّاهر. والرَّاهبات الكمبونيات. وراهبات نوتردام ديزابوتر. وراهبات القلب المقدَّس. والرَّاهبات الكرمليَّات. ورهبانيَّة مريم أم المعونة (الرَّاهبات السالزيانيات) ... الخ. وتتركَّز خدمة الرَّاهبات الكاثوليك في افتتاح المستوصفات، وإنشاء المدارس الابتدائيَّة والإعداديَّة والثانويَّة، والحضانة، وخدمة المستشفيات والملاجئ والأنشطة الاجتماعيَّة.

وأحدث الرَّهبانيَّات هي رهبانيَّة الورديَّة الأورشليميَّة، والتي وصلت إلى مصر سنة ١٩٩١م، للخدمة في سفارة الفاتيكان.

وهناك ثلاثة معاهد تعليميَّة إكليريكيَّة وهي: كلية العلوم الإنسانيَّة واللاهوتيَّة بالقاهرة، والدَّير الإكليريكي بالإسكندريَّة، والإكليريكيَّة الصُّغرى بطهطا.

كليَّة العلوم اللاهوتيَّة والإنسانيَّة

هي الكليَّة الإكليريكيَّة للأقباط الكاثوليك، وتشمل:

(أ) قسم اللاهوت: ومدَّة الدِّراسة فيه أربع سنوات. وتدرس فيه

مواد دينيَّة فقط.

(ب) قسم الفلسفة: ومدَّة الدِّراسة به سنتان. ويُدرس فيه الكتاب المقدس بعهديه إلى جانب الفلسفة، وعلم النفس وعلم الاجتماع، واللغتين العربية والإنجليزية. والثقافة العامة.

(ج) القسم التَّمهيدي: ومدَّة الدِّراسة به سنتان. وتُدرس فيه إلى جانب الدِّراسات الدِّينيَّة، التربية الموسيقيَّة والفنيَّة واللُّغتين العربيَّة والإنجليزيَّة، والثّقافة العامة.

(ب) الرُّوم الكاثوليك

هم الذين ناصروا مجمع خلقيدونية سنة ٤٥١م ثم انشقوا عن كنيستهم في القسطنطينيَّة وانضموا إلى روما في القرن الحادي عشر على يد ميخائيل كيرولاريوس.

وفي أوائل القرن الثّالث عشر كان الملكيون في مصر يستخدمون أنافورا القدِّيس مرقس، وأنافورا يعقوب الرَّسول، علاوة على أنافورات القدِّيسين باسيليوس ويوحنا ذهبي الفم، وغريغوريوس في الليتورجيَّا السَّابق تقديسها. وفي النِّصف الثّاني من القرن الثّالث عشر تبنَّت الكنيسة الملكيَّة في مصر نهائياً طقس القسطنطينيَّة. وظلّت اللُّغة اليونانيَّة حتى القرن الثّالث عشر هي اللُّغة الطّقسيَّة، حين بدأ استخدام اللُّغة العربيَّة في الصَّلوات الطّقسيَّة في تلك الفترة. وكشاهد على التَّعريب في الطقوس لا نعرف حتى اليوم إلاّ المخطوط الفاتيكاني رقم ٢٢٨٢ الذي يعود إلى سنة ١٢٠٧م والذي وردت فيه بعض التَّرتيبات، أُضيفت على الهامش باليونانيَّة والعربيَّة.

في سنة ١٦٨٧م أُعيد تنظيم الطّائفة، ومنذ هذا التّاريخ وُجد

بطريركان لكرسي أنطاكية واحد للرُّوم الأرثوذكس، والآخر للرُّوم الكاثوليك. وكان هذا الأخير يمارس سلطانه على كل الرُّوم الكاثوليك الموجودين في الإسكندريَّة وأورشليم.

بدأ توافد بعض العائلات التي تنتمي لطائفة الرُّوم الكاثوليك من سوريا إلى مصر سنة ١٧٢٤م، بسبب اضطهاد البطريرك سلفسترُوس القبرصي لهم. كما جاءت في الوقت نفسه بعض العائلات من فلسطين ولبنان. وقد نزل كبار التُّجار والحرفيون العاملون في بعض الصِّناعات الفنيَّة كالصيَّاغ والجواهرجيَّة والخيَّاطين في دمياط، والتي كانت ميناء مصر الأوَّل وقتذاك، ومع نجاحهم في العمل لحق بهم بعض أقاربهم وأصدقائهم، وانتقل بعضهم إلى القاهرة وبعض المدن الأخرى، ونظراً للدِّقة التي تميَّزوا بها، وخاصة في الأنشطة التجاريَّة، فقد أُسند لأشخاص منهم أمر الجمارك، وظلَّت هذه المسئوليَّة في أيديهم قرابة نصف قرن حتى أيام محمد علي، كما اتسع نشاطهم التُّجاري في الدَّاخل والخارج، ونظراً لأن هؤلاء التُّجار قد جاءوا من دمشق الشَّام، فقد أُطلق عليهم اسم "التُّجار الشَّوام".

في سنة ١٧٧٢م أُلحقت طائفة الرُّوم الكاثوليك بمصر وأورشليم بكرسي أنطاكيا، طبقاً لمرسوم أصدره البابا بندكتوس الرَّابع عشر. لتصبح لهم بطريركيَّة واحدة نظراً لقلَّة عددهم. ولما جاءت الحملة الفرنسيَّة على مصر سنة ١٧٩٨م استعانت بكهنة الرُّوم الكاثوليك، وكانوا من الرَّهبنة المخلصيَّة، وجعلت منهم الكتَّاب والمترجمين من اللُّغتين الفرنسيَّة والإيطاليَّة في الدَّواوين.

في سنة ١٨٣٥م طلب أفراد الطَّائفة رسامة أسقف لهم، وتم لهم ذلك في سنة ١٨٣٧م في أيام البابا غريغوريوس السَّادس عشر. الذي منحه البابا

لقب بطريرك باسم البطريرك مكسيموس مظلوم (١٨٣٧ـ ١٨٥٥م)، فقام البطريرك بتأسيس ثلاث كنائس هي: الكاتدرائيَّة (كنيسة سيِّدة النِّياح)، بدرب الجنينة. وكنيسة النَّبي إيلياس ببولاق، وقد هُدمت في أيام الخديوي إسماعيل، والذي منح البطريرك عوضاً عنها عدة أفدنة في دكرنس. وكنيسة القدِّيس جاورجيوس بالأزبكيَّة والتي بُنيت سنة ١٨٣٨م.

وفي سنة ١٨٦٥م تم بناء كاتدرائيَّة في الإسكندريَّة. وبعد حرب السويس سنة ١٩٥٦م انخفضت هجرتهم إلى مصر وتحوَّلت إلى أوربا وأمريكا وكندا. ولبطريرك الرُّوم الكاثوليك وكيل عام منذ سنة ١٨٣٧م، برتبة أسقف يدير شؤون الكنيسة في مصر والسودان.

وللطَّائفة الآن تسع كنائس بالقاهرة، وأربع كنائس الإسكندريَّة، وكنيسة في كل من طنطا والمنصورة وبورسعيد.

ولها أيضاً خمس مدارس بالقاهرة، تأسَّست أقدمها في سنة ١٩٠٧م، وهي المدرسة اليوسفيَّة، وأحدثها سنة ١٩٥٩م وهي مدرسة راهبات سيِّدة المعونة الدَّائمة بمصر الجديدة. كما تصدر الطَّائفة نشرة إخباريَّة غير دوريَّة خاصة بالبطريركيَّة باسم "النَّشرة الطائفيَّة" باللُّغتين الفرنسيَّة والعربيَّة وذلك منذ سنة ١٩٤٩م بالإسكندرية، كما تصدر عن البطريريكيَّة بلبنان مجلة Le Lien الفرنسيَّة، وقد تأسَّست في القاهرة سنة ١٩٣٥م ثم نقلت إدارتها إلى بيروت سنة ١٩٦٧م.

وللطَّائفة ثلاثة أديرة في لبنان. كما أن لها ثلاث جمعيَّات خيريَّة بالقاهرة والإسكندريَّة (تأسَّستا سنة ١٨٨٠م) والمنصورة (تأسَّست سنة ١٨٩٦م). ودار للعائلات، ومشغل للسِّيدات بالإسكندرية، ودار للمسنين.

ويبلغ عدد أبناء الطّائفة الآن نحو نصف مليون نسمة في سوريا ولبنان ومصر والأمريكتين. منهم عشرة آلاف في مصر.

ولأبناء هذه الطّائفة الفضل في إنشاء صروح الصَّحافة الأولى في مصر، ومنهم مؤسِّسا الأهرام جبرائيل تقلا (١٨٤٩ - ١٨٩٢م) وبشارة تقلا (١٨٥٢ - ١٩٠١م)، ومؤسِّس دار الهلال جورجي زيدان (١٨٦١- ١٨٩٦م)، ومنهم شاعر القطرين خليل مطران.

إلى جانب بروزهم في مجال الفن في مصر، وفي مجال التِّجارة لمعت أسماء مثل حبيب سكاكيني باشا، الذي تُنسب إليه منطقة السَّكاكيني بالظّاهر، وسليم وشقيقه سمعان صيدناوي (وُلد سنة ١٨٥٦م، وأسَّسا أوَّل محل لهما بالقاهرة في سنة ١٨٩٦م).

وهناك أيضاً أوَّل مفتِّشة للغة الإنجليزيَّة في مصر، وهي بهية كرم (+ ١٩٨٦م)، والمهندس نعوم شبيب (١٩١٨ - ١٩٨٥م) مصمِّم برج القاهرة، ومبنى جريدة الأهرام.

(ج) السِّريان الكاثوليك

انفصل جماعة من السِّريان الأرثوذكس مع أسقفهم عن كنيستهم الأم وانضموا إلى روما في زمن البابا غريغوريوس الثّالث عشر، ولكن هذه الوحدة لم تدم. ثم عادت فجُددت المحاولة في القرن السَّابع عشر، وكان البطريرك الأنطاكي يمد سلطته إلى السِّريان القاطنين في مصر. وكان للطّائفة في مصر، والتي تألفت من المهاجرين من سوريا والعراق، كهنة يقومون بالخدمة الرُّوحيَّة منذ مطلع القرن الثّامن عشر. ومنذ سنة ١٨٥٠م بُنيت كنيسة للسِّريان الكاثوليك باسم مار إلياس في درب الجنينة

بالقاهرة. واعترفت الحكومة العثمانية بالكنيسة السِّريانيَّة الكاثوليكيَّة بواسطة فرمان في سنة ١٨٧٧م، وفرمان آخر في سنة ١٨٨٠م، وكان هذا الأخير قد حسم النزاع الذي نشأ بين هذه الطّائفة والكنيسة السِّريانيَّة الأم، أي كنيسة أنطاكية الأرثوذكسيَّة.

ومنذ سنة ١٩٨٨م صارت القاهرة مقراً لأسقفيَّة سريانيَّة. وحالياً توجد للطّائفة ثلاث كنائس هي: كاتدرائيَّة سيِّدة الورديَّة بالظّاهر بالقاهرة (بُنيت سنة ١٨٠٤م، وجُددت سنة ١٨٨٦م)، وكنيسة قلب يسوع الأقدس بالإسكندريَّة (بُنيت سنة ١٩٣٠م)، وكنيسة سانت كاترين بمصر الجديدة.

ويتبع الطّائفة مدرسة القدّيس ميخائيل بالظّاهر، وشُيدت سنة ١٩٣٦م (ابتدائي وإعدادي)، وأُلحق بها جناح جديد سنة ١٩٨٢م لاستيعاب الأعداد المتزايدة من التّلاميذ. وللطّائفة جمعيَّة خيريَّة تأسَّست سنة ١٨٩٦م تتولى مساعدة الأُسر المحتاجة والأرامل والعجزة، وعلاج المرضى، ومساعدة الطّلبة.

(د) الموارنة

الموارنة كلهم كاثوليك، وهم مسيحيو لبنان، ومن حيث جذورهم العرقيَّة هم من الكنعانيين والأراميين الذي آمنوا بالمسيح. ويعود وجود الموارنة في مصر إلى فترة الاحتلال العثماني للبلاد. وتركز وجودهم في الوجه البحري والقاهرة.

ويحمل بطريركهم لقب "بطريرك أنطاكية وكل المشرق"، ولم تعترف السُّلطات العثمانيَّة مباشرة بهذا البطريرك إذ كان القنصل الفرنسي يمثّل الكنيسة المارونيَّة لديها. وكانت تتمتَّع هذه الطّائفة بالحماية

الدِّينيَّة من قبل فرنسا. ولم يحتج الباب العالي على هذه الحماية، ولم يعن هذا أن الطَّائفة أقل وطنيَّة من غيرها، أو أن أملاكها ليست خاضعة للسُّلطات المحليَّة.

ويؤكّد المؤرِّخ وادينجتون كاتب تاريخ الأراضي المقدَّسة على أن الكرسي الرَّسولي طلب في سنة ١٦٣٩م من الآباء الفرنسيسكان المرسلين بالقطر المصري أن يتَّخذوا لهم كاهنين من الكهنة الموارنة القاطنين بمصر كمستشارين لهم. وذلك بعدما لاحظ بعض رهبانهم المسافرين إلى روما أثناء مرورهم بالموانى المصريَّة كدمياط والإسكندريَّة حاجة الطوائف الشَّرقيَّة في أن يتولى خدمتهم الرُّوحيَّة كهنة شرقيُّون، ولو من غير طقسهم. وبعد حين أوفد البطريرك الماروني سمعان حداد الأب موسى هيلانه الشَّامي سنة ١٧٤٥م وهو أحد الرُّهبان الحلبيين الموارنة، فخدم الطَّائفة في دمياط حتى وفاته سنة ١٧٤٨م. وانطلق الرُّهبان الموارنة من دمياط إلى بلاد أخرى في مصر.

فقد شيدت الطَّائفة ديراً لها في مصر القديمة سنة ١٨٣٣م، ثم كنيسة باسم القدِّيس إلياس سنة ١٨٣٧م في مصر القديمة، وأخرى بدرب الجنينة بالموسكي سنة ١٨٤١م. ثم أسَّسوا كنيسة في الزقازيق سنة ١٨٦٠م، وتوالت بعد ذلك باقي كنائسهم في المنصورة وبورسعيد والإسماعيليَّة والإسكندريَّة.

وفي سنة ١٩٠٦م أُقيمت نيابة بطريركيَّة للموارنة في مصر. وفي سنة ١٩٤٦م وافق الفاتيكان على إنشاء مطرانيَّة مارونيَّة بالقاهرة.

ويبلغ عدد أبناء الطَّائفة المارونيَّة في مصر نحو خمسة آلاف شخص، بينما كان عددهم قبيل ثورة يوليو أكثر من عشرين ألف نسمة، وكان سبب هذا الانخفاض الشَّديد في عددهم هو خروج عدد كبير منهم إلى

خارج البلاد خالين الوفاض بعد استيلاء الثّورة على ممتلكاتهم في حركة التّأميم، كما أن التحولات الاقتصاديَّة التي حدثت في مصر بعد الثّورة جعلت الوطن طارداً للعمالة وليس جاذباً لها.

ومن أبرز مؤسَّساتهم الخيريَّة جمعيَّة المساعي الخيريَّة المارونيَّة بالقاهرة، وقد تأسَّست سنة ١٨٨٠م، ولهم مدرسة القدِّيس يوسف المارونيَّة في الظّاهر التي تأسَّست سنة ١٩٠٦م، والمدرسة المارونية بمصر الجديدة التي تأسَّست سنة ١٩٣٦م.

ولعب الموارنة أدواراً مهمة في الصَّحافة والفن بمصر. فمنهم رئيسا تحرير الأهرام أنطون باشا الجميل (١٨٨٧- ١٩٤٨م)، وداود بركات الذي رأس تحرير الأهرام منذ سنة ١٩٣٢م، ومدير تحرير الأهرام نجيب كنعان (١٩٠٦- ١٩٨٥م)، والفيلسوف يوسف كرم، والصَّحفي حبيب جاماتي رئيس تحرير مجلة إيماج الفرنسيَّة التي كانت تصدر عن دار الهلال، والفنان نجيب الرِّيحاني (١٨١٩- ١٩٤٩م)، والكاتبة مي زيادة. ومن الموارنة أيضاً عزيز ميرزا مستشار الملك فاروق.

(هـ) الكلدان الكاثوليك

وهم ينتمون جغرافياً إلى بلاد أور الكلدانيين الواقعة ما بين نهري دجلة والفرات، وهي البلاد التي وُلد فيها إبراهيم أب الآباء. وفي العصر المسيحي كانت هذه البلاد تتبع الإمبراطوريَّة الفارسيَّة، وهي الإمبراطوريَّة التي قبلت المسيحيَّة ببشارة القدِّيس متى الإنجيلي. وبعد مجمع أفسس المسكوني الثالث سنة ٤٣١م وحرم نسطور بواسطة البابا كيرلس الأوَّل عامود الدِّين، انضمَّ أغلب الكلدان إلى نسطور. وفي سنة ٤٩٦م انفصل أسقف Séleucie عن أنطاكية، ودعا نفسه بطريرك المشرق، وبدأ سلسلة

جديدة من البطاركة دُعوا "بطاركة بابليون النَّساطرة" فتكوَّنت الكنيسة النَّسطوريَّة والتي لازالت قائمة في العراق والهند وغيرهما.

ومنذ النِّصف الثَّاني من القرن الثَّالث عشر بدأت محاولات الكلدان للانضمام إلى كنيسة روما، حين اعتنق أحد بطاركة بغداد النَّسطوريين المذهب الكاثوليكي عن طريق الآباء الدُّومنيكان سنة ١٢٣٣م، وقامت بعض المباحثات بشأن الوحدة مع روما سنة ١٣٤٠م، وفي سنة ١٨٣٠م، عين البابا لاون الثاني البطريرك حنا هرمز بطريركاً للكلدان الكاثوليك ومقره في الموصل. وفي سنة ١٩٠٠م انضم إلى روما كثير من الأساقفة والعلمانيين النَّسطوريين.

وكان في مصر أسقف كلداني في سنة ٧٤٥م، ٩٨٧، ١٠١٣م ولمَّا قلَّ عدد الكلدانيين نُقل الأسقف إلى بلاد فارس ثم أُعيد إلى مصر سنة ١٠٦٣م. وظلَّ عدد الكلدانيين يتضاءل في مصر حتى القرن التَّاسع عشر عندما عاد بعضهم إليها. فقد هاجرت عائلات كلدانيَّة كانت تعيش في عدد من بلدان الشَّرق الأوسط إلى مصر، ووصل عددهم سنة ١٨٩٠م إلى ستمائة نسمة، أصولهم من العراق وتركيا وإيران، فعيَّن لهم بطريرك الكلدان الكاثوليك نائباً بطريركياً في مصر. وفي سنة ١٩٨٠م أصبحت النيابة البطريركيَّة إيبارشيَّة القاهرة للكلدان الكاثوليك.

وللكلدان كنيستان في القاهرة، إحداهما بُنيت سنة ١٨٩١م في حي الظاهر، والأخرى هي كاتدرائيَّة سانت فاتيما بمصر الجديدة، والتي شُيِّدت سنة ١٩٥٢م. وتوجد بعض العائلات الكلدانيَّة في الإسكندريَّة ولكن لا توجد لهم كنيسة. ويرأس هذه الطَّائفة الآن مطران إيبارشيَّة القاهرة للكلدان الكاثوليك.

(و) الأرمن الكاثوليك

انفصل إبراهيم أردزيفان بطريرك الأرمن الأرثوذكس في سيس كيليكيا عن كنيسته الأم في سنة ١٧٤٠م وانضم إلى روما، فجعله البابا بندكتوس الرّابع عشر بطريركاً للأرمن الكاثوليك، معترفاً برتبته البطريركيّة سنة ١٧٥٣م في مقرّه بلبنان. وأقر بسلطته الرّعويّة على مصر ولبنان وسوريا والعراق وكيليكيّة. وكان يتبع هذه الطّائفة في مصر سنة ١٧٣٤م أربعون أسرة، وبُنيت أوّل كنيسة للطّائفة في سنة ١٧٣٧م باسم القدّيس غريغوريوس المنوّر، وتم تعيين أوّل نائب بطريركي لهم في مصر سنة ١٨٢٠م. وفي عهد محمد علي بُنيت كنيسة باسم العذراء بمصر القديمة، وإلى جوارها مدافن للطّائفة، وهو الوضع القائم للآن. وبُنيت كنيسة أخرى باسم القدّيس غريغوريوس المنوّر في درب الجنينه بالموسكي سنة ١٨٣٧م، وأخرى في شبرا سنة ١٨٨٦م، وغيرها في الإسكندرية سنة ١٨٨٩م، وفي مصر الجديدة بُنيت كنيسة أخرى سنة ١٩٣٢م، وفي سنة ١٩٠٥م بُنيت كاتدرائية البشارة وافتتحت سنة ١٩٢٦م، وإلى جوارها مبنى للمطرانيّة بالقاهرة.

ويبلغ عدد الأرمن الكاثوليك في مصر حوالي ١٥٦٠نسمة. وللطّائفة مجلس مليّ برئاسة مطران الطّائفة وعضويّة ٩ علمانيين وكاهن واحد. ويتبع الطّائفة مدرسة راهبات الأرمن الكاثوليك في مصر الجديدة. وتصدر عن الطّائفة جريدة غير دوريّة بعنوان "نشرتي" منذ سنة ١٩٧٤م، وذلك باللّغتين العربيّة والفرنسيّة وأحياناً بالأرمينيّة. وللطّائفة جمعيّة خيريّة تأسّست سنة ١٨٩٠م.

(ز) اللاتين الكاثوليك

تتكوَّن هذه الطَّائفة في غالبيتها من أجانب يعيشون في مصر. وكانت القنصليَّة الإيطاليَّة تحكم في أحوالهم الشَّخصيَّة. ويمثِّل الطَّائفة اللاتينيَّة في مصر سفير بابوي يقوم أيضاً بالتَّمثيل الدِّبلوماسي للفاتيكان لدى الحكومة المصريَّة. أما تاريخ اللاتين في مصر فيبدأ في مايو سنة ١٨٣٩م حين أنشأ البابا غريغوريوس السَّادس عشر نيابة رسوليَّة للآتين في مصر والجزيرة العربيَّة، وظلَّ النواب الرَّسوليُّون يقومون بمهمَّة النائب الرَّسولي والقاصد الرَّسولي من سنة ١٨٣٩ـ ١٩٢١م.

وفي نوفمبر سنة ١٨٧٧م شجَّع مجمع انتشار الإيمان جمعيَّة الإرساليَّات الأفريقيَّة في إنشاء بعض المراكز بمصر وخاصة في الدِّلتا حيث لا كهنة ولا مدارس لعدد كبير من المسيحيين اللاتين. وهو ما حدث في الزقازيق وطنطا وزفتى والمحلَّة الكُبرى. وفي سنة ١٨٨٦م صدر قرار من مجمع انتشار الإيمان وحدَّد خمس مديريَّات لمنطقة الدِّلتا وأبقاها تحت إدارة مطران مقرُّه في الإسكندريَّة. ثم أصبحت مستقلة تحت إدارة المطران منذ سنة ١٨٩١م. وفي القاهرة زاد عدد الرُّهبان اللاتين وبُنيت بها رهبانيَّات أخرى ومدارس ومستشفيات. ومنذ سنة ١٩٢١م استقلَّت الإدارة المصريَّة وحدها دون الجزيرة العربيَّة بمهام النيابة الرَّسوليَّة، وكان مقرُّها في الإسكندريَّة. وخلال الفترة من سنة ١٨٩٥ـ ١٩٥١م تكوَّنت مناطق رعويَّة في القاهرة في مصر الجديدة ومنطقة السَّكاكيني، وحدائق القبَّة، والدِّلتا. وفي إبريل سنة ١٩٧٨م عين البابا بولس السَّادس مطراناً من مواليد الإسكندريَّة نائباً رسولياً للمسيحيين اللاتين في مصر. أما الآن فقد تسلَّمت بطريركيَّة الأقباط الكاثوليك خدمة كل الكنائس والإرساليَّات التي تقع في الدِّلتا.

٣- مجموعة الكنائس الإنجيليَّة

تُعد الكنيسة الإنجيليَّة في مصر والعالم من نتاج حركة الإصلاح الدِّيني التي بدأت في ألمانيا في القرن السَّادس عشر، ثم شملت باقي أجزاء من أوروبا. وكان من روَّاد هذه الحركة الرَّاهب الألماني الأغسطيني مارتن لوثر (١٤٨٣- ١٥٤٦م)، والذي أعد وثيقة احتجاج ضد بعض ممارسات الكنيسة الكاثوليكيَّة، مكوَّنة من خمسة وتسعين بنداً، وعلقها على باب كنيسة وتنبرج في أكتوبر سنة ١٥١٧م. وفي سنة ١٥٢٠م صدر قرار البابا لاون العاشر (١٥١٣- ١٥٤٦م) بإدانة أفكار لوثر. ثم تصاعدت المواجهة، فصدر القرار البابوي بحرمان لوثر من الشَّركة مع الكنيسة الكاثوليكيَّة في يناير سنة ١٥٢١م.

وظهر في نفس هذه الفترة العديد من رجال الإصلاح، منهم زوينجلي (١٤٨٤- ١٥٣١م)، وكالفن (١٥٠٩- ١٥٦٤م)، وأسَّسوا مذاهب مختلفة بعض الشئ في الفكر والعقيدة، ولكنها تتَّفق في المبادئ والأسس الكتابيَّة لأفكار مارتن لوثر.

وقد فد إلى مصر مرسلون بروتستانت لأوَّل مرَّة سنة ١٦٣٣م، حين وفد أوَّل لوثري إليها وهو بيتر هيلنج، وظلَّ في مصر فترة قليلة، وفي القرن الثَّامن عشر وفد بعض المرسلين أيضاً أمثال فريدريك وليم هوكر، وجورج بيلدر، وهنري كوسارت، وجون هنري دانك. وفي القرن التَّاسع عشر وفد إلى مصر مرسلون ألمان لم يحرزوا سوى قليل من النَّجاح.

أما أوَّل خطوة تأسيسيَّة جادة لهذه الطَّائفة في مصر فكانت في نوفمبر سنة ١٨٥٤م حين جاء مرسَل أمريكي إليها يُدعى الدكتور لاذن، وأقام بالإسكندرية. ثم جاء إلى مصر أيضاً مرسَل اسكتلندي هو الدكتور يوحنا

هوج، وطافا معاً البلاد راكبين النِّيل يدعوان إلى مذهبهما.

وفي إبريل سنة ١٨٦٠م تمّ تشكيل أوَّل مجمع للكنيسة المشيخيَّة في مصر، وفيه تم تنصيب يوحنا هوج أوَّل قس كارز في مصر.

وفي سنة ١٨٦٢م جعل الدكتور هود مع الدكتور لاذن مركز تبشيرهما هو القاهرة. وتمّ تأسيس أوَّل كنيسة في منطقة درب الجنينة بالموسكي في إبريل سنة ١٨٧٣م. وبعد ذلك اتَّخذ الدكتور هوج مدينة أسيوط مقراً له سنة ١٨٦٥م، واستطاع أن يؤسِّس بها كنيسة بروتستنتيَّة سنة ١٨٩٢م. وفي عهده تكوَّنت كنائس بروتستنتيَّة أخرى مثل الكنائس الإنجيليَّة، والبلاموس، والإصلاح، والسَّبتيين، والأدفنتست، والكنيسة الرَّسوليَّة، وغيرها من الكنائس[١٤].

وفي مصر استطاع المرسَلون الأمريكان أن يحموا حقوق البروتستنت بفضل القنصليَّة البريطانيَّة والقنصليَّة الأمريكيَّة، وعندما كبر عدد البروتستنت في مصر، قُدِّم طلب إلى الخديوي إسماعيل عن طريق قنصليَّة الولايات المتَّحدة لكي يعيِّن أحد المواطنين رئيساً علمانياً للطَّائفة، وأن يكون له نفس الحقوق التي للبطاركة. فتم تعيين جرجس أفندي برسوم (١٨٧٨- ١٩٠٢م) رئيساً للطَّائفة[١٥]، وعُيِّن له بعد ذلك نائب وكيل في كل من القاهرة وأسيوط والمنصورة والإسكندريَّة، واعترفت بهم الحكومة المصريَّة.

١٤- وطنية الكنيسة القبطية وتاريخها، بدون مؤلف، نيويورك، ص ٣٤٦، ٣٤٧

١٥- رؤساء الطَّائفة الإنجيليَّة هم: ١- جرجس بك برسوم (١٨٧٨- ١٩٠٢م)، ٢- دكتور أخنوخ فانوس روفائيل (١٩٠٢- ١٩١١)، ٣- ألكسان أبسخيرون (١٩١١- ١٩٤٩م)، ٤- ألفريد جندي ويصا (١٩٥٠- ١٩٥٦م)، ٥- الدكتور القس إبراهيم سعيد (١٩٥٧- ١٩٧٠م)، ٦- القس إلياس مقار (١٩٧٠- ١٩٨٠م)، ٧- الدكتور القس صموئيل حبيب (١٩٨٠- ١٩٩٧م)، ٨- القس صفوت البياضي.

ويتألَّف المجلس الإنجيلي العام من رئيس الطَّائفة ونائبه، ١٢ مندوب ينتخبون بمعرفة الكنيسة الإنجيليَّة المصريَّة، والمذاهب الإنجيليَّة الأخرى، نصفهم قسوس، والنِّصف الآخر من العلمانيين أبناء الكنيسة.

وفي سنة ١٩٠٢م صدر أمر عالي بتشكيل مجلس عام لكل الكنائس البروتستنتيَّة الموجودة في مصر، وله أن يضم الكنائس التي قد تنشأ في المستقبل. وأصبحت الكنيسة الإنجيليَّة كنيسة مصريَّة وطنيَّة منذ هذا التَّاريخ. وفي سنة ١٩٥٨م تم اعتبار الكنيسة الإنجيليَّة المصريَّة كنيسة مستقلة إدارياً عن الكنيسة المشيخيَّة المتَّحدة في شمال أمريكا، ومن ثمَّ أصبح لها الحق في التَّعامل مع أية كنيسة في العالم من أي مذهب من المذاهب.

والمذاهب الإنجيليَّة المعترف بها في مصر حوالي ١٧ مذهباً إنجيلياً، وأكبر الكنائس البروتستنتيَّة هي الكنيسة الإنجيليَّة المشيخيَّة، ويبلغ عدد كنائسها في مصر حوالي ٣٢٠ كنيسة، ويليها كنائس الإخوة (٢٠٥ كنيسة)، الكنيسة الميثودستيَّة أي الإصلاح (١٢٠ كنيسة)، والكنائس الرَّسوليَّة (١٠٥ كنيسة)، الكنائس الخمسينيَّة (٢٧ كنيسة)، كنيسة الله (١٣ كنيسة)، وبقيَّة الكنائس البروتستنتيَّة عددها ٥٤٣ كنيسة.

(أ) الكنيسة الأسقفيَّة

جاء أوَّل مرسليها إلى مصر سنة ١٨١٩م، وهو وليم جويت، والتقى مع عدد من الكهنة والرُّهبان الأقباط الأرثوذكس بتصريح من بطريرك الأقباط الأرثوذكس[١٦]، وقام بتوزيع نسخ كثيرة من البشائر الأربعة باللُّغة العربيَّة. وفي نهاية سنة ١٨٢٥م وصل خمسة مرسلون ألمان من معهد

١٦ـ مركز الدِّراسات السياسيَّة والاستراتيجيَّة بالأهرام، الحالة الدِّينيَّة في مصر، العدد الثاني، مرجع سابق، ص ١٠٦

بازل. وفي سنة ١٨٣٣م تم افتتاح مدرستين بالقاهرة وكنيسة صغيرة سنة ١٨٣٤م. ومع سنة ١٨٤٠م كانت هناك ستَّة اجتماعات روحيَّة تُعقد بالعاصمة، وذلك بتصريح من بطريرك الأقباط الأرثوذكس[١٧]!!.

وقد تركَّز نشاط مرسلي الجمعيَّة في توزيع الكتاب المقدَّس وأجزائه، وتعليم الدِّين للشَّباب، وكان الهدف من هذه الخدمة إنهاض الكنيسة القائمة، ولكنها لم تسع لإنشاء كنيسة مستقلَّة. وظلَّ أتباع الكنيسة الأسقفيَّة قليلي العدد. وحالياً يتبع الكنيسة الأسقفية مدرسة ومستشفى في منوف، ومراكز للعمل الاجتماعي في بولاق وعين شمس ومدينة السَّادات، ودار للنَّشر ومكتبة.

ومنذ أواخر سنة ١٩٩٦م يرأس مطران الكنيسة الأسقفيَّة في مصر كنائس الكنيسة الأسقفيَّة في القُدس والشَّرق الأوسط، بالإضافة إلى شمال أفريقيا وإثيوبيا والصُّومال وجيبوتي.

(ب) الكنائس الإنجيليَّة الأخرى

١ـ كنيسة الإخوة: وتُعرف باسم كنيسة الإخوة البليموث. وبدأت خدمة هذه الكنيسة في مصر سنة ١٨٨٠م بجهود مرسل أمريكي كان مقر إقامته في بيروت. تمكَّن من الحصول على مطبعة عربيَّة ساعدته في امتداد خدمته في سوريا والعراق ومصر، وكان يقضي في مصر أربعة أشهر سنوياً.

٢ـ كنيسة الإخوة المرحِّبين: وأوَّل مصري قبل عقيدتها هو السيِّد عريان بطرس الذي درس في أمريكا وعاد إلى مصر في سنة ١٩٥١م، ثم انضم إليه السيِّد نقولا عبُّود الذي عمل على تأسيس بعض الكنائس في

---

١٧ ـ نفس المرجع، ص ١٠٦

صعيد مصر.

ويتبع الكنيستين السَّابق ذكرهما ١٦٥ كنيسة واجتماعاً. وللإخوة دار للنَّشر تصدر عنها مجلتان هما: المراعي الخضراء، ورسالة الشَّباب.

٣- **كنيسة نهضة القداسة:** بدأت بمجئ القس هـ. راندل سنة ١٩٠٢م، وتبعه الأسقف تروتر والقس مور. وأشرف على الكنيسة في الفترة من ١٩٣٥- ١٩٥٠م الأسقف بلاك. وفي سنة ١٩٥٩م تحوَّل الإشراف عليها من كنيسة نهضة القداسة الكنديَّة إلى كنيسة الميثوديست الأحرار. ولهذه الكنيسة مدرسة لاهوت خاصة بها في أسيوط تُسمى "كليَّة اللاّهوت الوسليَّة". وأعضاء هذه الكنيسة نحو ٤٥٠٠ عضو ينتمون إلي نحو ٩١ كنيسة واجتماعاً، وتصدر عنها مجلة باسم "بوق القداسة".

٤- **كنيسة الإيمان:** بدأت في مصر سنة ١٩٠٥م في مدينة دمنهور، ثم انتقلت إلى الفيوم، ثم إلى سوهاج. وقد أشرفت مرسلتان أمريكيتان على هذه الكنيسة في مصر العليا، وبخاصة في سوهاج وجرجا لفترة طويلة هما: مسز هولدمان، ومسز جاكسون، وقد أسَّستا مدرسة للكتاب المقدَّس في جرجا، انتقلت فيما بعد إلى شبرا بالقاهرة، ويتبع هذه الكنيسة حالياً ١٩ كنيسة.

٥- **كنيسة الله:** جاء أوَّل مُرسَل من هذه الكنيسة إلى مصر سنة ١٩٠٧م، وهو القس ريردن، وقضى أغلب خدمته في أسيوط والإسكندريَّة، وامتدت خدمة هذه الكنيسة إلى المنيا والفيوم وملوي وبعض القرى المحيطة بها. ويتبع هذه الكنيسة ٨ كنائس. وللكنيسة مجلَّة باسم "بوق الإنجيل"، كما تتبعها دار للنَّشر هي "مكتبة النِّيل المسيحيَّة".

٦- الكنيسة الرَّسوليَّة: بدأت في سنة ١٩١٤م، ويتبع هذه الكنيسة ملجأ ليليان تراشر بأسيوط، الذي تأسَّس سنة ١٩١١م بجهود مسز ليليان تراشر التي وصلت إلى مصر في أكتوبر سنة ١٩١٠م، وقبلت أوَّل طفلة يتيمة رضيعة في فبراير سنة ١٩١١م. وقامت برعاية نحو عشرة آلاف يتيم حتى وفاتها في سبتمبر سنة ١٩٦١م. وتقوم مباني وحدائق الملجأ الآن على مساحة نحو خمسة عشر فداناً، تضم كنيسة ومساكن وعيادة داخليَّة، ومدرسة، ومخازن، ومطعماً، وحمَّام سباحة، ومزرعة، وداراً للرُّضع تتسع لمائة رضيع. ويبلغ حجم عضويَّة الكنيسة الرَّسوليَّة في مصر نحو عشرة آلاف نسمة في ١٣٤ كنيسة واجتماعاً.

٧- كنيسة المثال المسيحي: أسستها مجموعة من المرسَلين من الحركة الإصلاحية الكندية، وجاء أول مرسليها إلى مصر سنة ١٩١٩م، وتتبعها عدة كنائس أقدمها كنيسة النِّخيلة.

٨- كنيسة النعمة الرَّسوليَّة: بدأت في المنيا سنة ١٩٣٥م، بجهود مرسلين كنديين، ولها مجلة باسم "بشير الإنجيل".

٩- كنيسة النِّعمة: استقلت عن كنيسة النِّعمة الرَّسوليَّة.

١٠- كنيسة المسيح: استقلت عن الكنيسة الرسولية سنة ١٩٤٨م.

١١- الكنيسة المعمدانيَّة للأقباط الإنجيليين: تأسَّست سنة ١٩٥٥م، في الفيوم، ووافق المجلس الملِّي الإنجيلي على اعتمادها كطائفة إنجيليَّة في ديسمبر سنة ١٩٥٥م، ولها مدرسة للآهوت بشبرا، ويتبعها ست كنائس.

١٢- الكنيسة المعمدانيَّة الكتابيَّة الأولى: تأسَّست سنة ١٩٦١م، وتتبعها ثلاث كنائس، وتصدر عنها مجلة باسم "الأخبار السَّارة".

وتضاف إلى هذه المجموعة كنيسة الكرازة بالإنجيل، وكنيسة

الأرمن الإنجيليين.

كليَّة اللاهوت الإنجيليَّة

بدأت الدِّراسة بها في سبتمبر سنة ١٨٦٤، وكان الهيكل التَّعليمي للمحاضرات مبنياً على نفس أقسام أية كليَّة لاهوت عالميَّة، والتي تتمثّل في الدِّراسات الكتابيَّة (العهد القديم والعهد الجديد)، وقسم تاريخ الكنيسة، وقسم اللاّهوت بأقسامه، وقسم الدِّراسات العمليَّة (الوعظ واللاّهوت الرَّعوي). وفي سنة ١٨٧٦م تأسَّست كليَّة أسيوط، في عوامة في النِّيل، حيث كانت القُرى التي ترسو عليها العوَّامة مكاناً للتَّدريبات العمليَّة. حيث تمّ الفصل بين المواد العلميَّة والإنسانيَّة والمواد اللاّهوتيَّة. وكان على دارسي اللاّهوت أن ينهوا المواد العلميَّة والأدبيَّة والتي أُطلق عليها المواد التَّمهيديَّة كشرط للالتحاق بكليَّة اللاّهوت.

وفي سنة ١٩١٩م اشترك السنودس - المجمع الأعلى للكنيسة الإنجيليَّة - رسمياً في التَّدريس والإدارة.

ويوجد بالكليَّة ثلاثة أقسام: القسم النِّظامي الصَّباحي، والقسم المسائي، وقسم الدِّراسات الحرَّة. ومن حيث العمليَّة التَّعليميَّة فهناك مواد إجباريَّة وأخرى اختياريَّة. ففي الدِّراسات التَّمهيديَّة يتم تدريس اللُّغة الإنجليزيَّة على مستويات متدرِّجة، ودراسة اللُّغة العربية دراسة جيِّدة. أما في قسم العلوم الإنسانيَّة، فيشتمل على الفلسفة وعلم النَّفس والاجتماع. ثم قسم العهد القديم واللُّغة العبريَّة، ثم قسم العهد الجديد واللُّغة اليونانيَّة، ثم قسم الدِّراسات اللاّهوتيَّة، ثم قسم الدِّراسات التَّاريخيَّة، ثم قسم الدِّراسات العمليَّة.

ويحصل خريج اللاّهوت بمجرد تعيينه بإحدى الكنائس على راتب

شهري يفوق راتب المناصب الحكوميَّة، بالإضافة إلى السَّكن، والمكانة الاجتماعيَّة، والقيادة.

وعن الخطَّة المستقبليَّة للكليَّة، تسعى الكليَّة لأن يصبح لديها أساتذة مصريون متفرِّغون حاصلون على درجة الدُّكتوراه في التَّخصُّصات المختلفة، وتطوير المكتبة لتلاحق مكتبات كبرى كليات اللاّهوت بالانتهاء من تسجيل الكُتُب بالكومبيوتر، وربط المكتبة بالنِّظام العالمي (الإنترنت) وتطوير خدمة الميكروفيش وتطوير مركز السَّمعيات والبصريَّات بالمكتبة.





الملحق الثَّالث

المؤرِّخون القدامى لمصر من غير الأقباط

- هيرودوت Herodotus (٤٨٤- ٤٢٤ق م)

وهو يوناني الجنسيَّة، زار مصر سنة ٤٥٧ق م، وألَّف كتابه الشَّهير "**التَّاريخ**" وهو يحتوي على فصل كامل عن مصر والمصريين. واعتمد في كتابته على المعلومات التي استقاها من كهنة المعابد المصريَّة والكتابات التي وجدها منقوشة على أطلال الآثار.

- مانيتون Manethon

مؤرِّخ مصري شهير عاش في الإسكندريَّة وألَّف كتابه باليونانيَّة عن تاريخ مصر منذ أقدم العصور بناء على طلب الملك بطليموس الثَّاني، وذلك في سنة ٢٨٠ق م ذاكراً فيه كل ما وجده في المخطوطات القديمة والتي كانت مخبأة في المعابد المصريَّة القديمة.

- ديودور الصقلي Diodorus Siculus

مؤرِّخ شهير زار مصر سنة ٦٠ق م وألف عند رجوعه إلى بلاده كتاباً عن تاريخ مصر وعادات المصريين وطريقة حياتهم.

- سترابون Strabon (٦٣ق م - ٢٠م)

جغرافي إغريقي زار مصر في سنة ١٠م ووصف في كتابه الشَّهير "**الجغرافيا** - Geographica " كثيراً من الأماكن والعادات المصريَّة القديمة. وقد استقى معظم معلوماته من الكُتُب التي كانت محفوظة في مكتبة الإسكندريَّة الشَّهيرة، وكذلك من الكُتُب التي ألَّفها جغرافيون إغريق قبله أمثال (بوليبيوس Polybius وبوسيدونيوس Posidonius

وثيوفانيس Theophanes في القرن الخامس قبل الميلاد، وغيرهم.

– **يوسيفوس** Josephus (٣٧– ١٠٠م)

عاش فترة في مدينة الإسكندريَّة، وصاحب الإمبراطور الرُّوماني فسبسيانوس قادماً معه من روما، وكان أستاذ يوسيفوس في روما هو إيبافروديتوس Epaphroditus أحد علماء النَّحو الإسكندريين، الذي كان قد غادر الإسكندريَّة ومعه مكتبته الضَّخمة التي تضم نحو ٣٠,٠٠٠ كتاب.

– **بلوتارك** Plutarch (٤٨– ١٢٢م)

مؤرِّخ إغريقي زار مصر في سنة ٩٠م، وألَّف كتاباً عن الحياة المصريَّة كما شاهدها بعينيه.

– **جوليوس أفريكانوس** Julius Africanus (١٦٠– ٢٤٠م)

مؤرِّخ مسيحي، وُلد في أورشليم وعاش سنين كثيرة من حياته في قرية عمواس، وكانت له علاقات قويَّة مع حكَّام أديسا Edessa . زار مصر في سنة ٢١٧م وكان على اتصال وثيق بكل من هيراكلاس وأوريجانوس. وكان قد كتب رسالة إلى أوريجانوس يناقشه في صدق قصَّة سوسنَّة. وفي زمن حكم الإمبراطور ألكسندر ساويرس (٢٢٢– ٢٣٥م) شارك بدور فعَّال في تأسيس المكتبة العامة في البانثيون Panthion بروما. عمله الرَّئيسي هو كتابه: "**تاريخ العالم** – Χρονογραφία "، وهو في خمسة أجزاء، دوَّن فيه تاريخ العالم حتى سنة ٢١٧م وقد حفظ يوسابيوس القيصري أجزاء منه في مؤلَّفه "تاريخ الكنيسة".

- يوسابيوس القيصري Eusebius (٢٦٠- ٣٤٠م)

هو أسقف قيصريَّة، وتلميذ بـامفيليوس[١] Pamphilus اللاّهـوتي والشَّهيد الذي لقَّنه تعاليم العلاَّمـة أوريجـانوس (١٨٥-٢٥٤م). بعـد استشهاد معلمه سنة ٣٠٩م فرَّ يوسابيوس إلى مصر هرباً من الاضـطهاد، وقضى في أحد سجونها بضعة أشهر. وفي سـنة ٣١٥م صـار أسـقفاً لقيصريَّة، وكان زعيماً للنِّصف أريوسيين. حاول في مجمع نيقيـة تقـديم صيغة قانون إيمان المعموديَّة لكنيسة قيصريَّة، لتكون هي صـيغة إيمـان المجمع، ولكن تعبير "الهوموأوسيوس" الذي تمسَّك بـه المجمـع بقيـادة القدِّيس أثناسيوس الرَّسولي حال دون تحقيق مسـعاه. ومعـروف عـن يوسابيوس القيصري أنه لم يناصر أبداً البابا أثناسيوس الرَّسولي في دفاعـه ضد الأريوسيَّة، أو يسانده، بل على العكس ظل مناوئاً له طيلة حياتـه. استدعاه الإمبراطور قسطنطين سنة ٣٣٥م ليستشيره بخصوص قضية البابا أثناسيوس الرَّسولي، فتوطَّدت العلاقات بينهما.

لُقِّب بـ "أبو التَّاريخ الكنسي" لتأليفه كتابـه الشَّـهير "**تـاريخ الكنيسة**"، معتمداً فيه على مصادر أوليَّة لمؤلفين فُقدت كتاباتهم بكاملها. وهو في عشرة كُتُب أو فصول، يسرد فيه تاريخ الكنيسة منذ أيام الرُّسُل، أما الثلاثة الأخيرة منها فتعالج بتفصيل وافي أحداث الأيام الـتي عاشـها المؤلِّف نفسه، وفي الكتاب إشارات بالغة الأهميَّة عن كنيسة مصر. وقـد حُفظ لنا الكتاب في ترجمات لاتينيَّة، وسريانيَّة، وأرمينيَّة.

١- القدِّيس بامفيليوس (٢٤٠- ٣٠٩م) هو تلميذ العلامة المصـري أوريجـانوس (١٨٥- ٢٥٤م)، تعلَّم في الإسكندرية، ورحل إلى قيصرية فلسطين وأنشأ فيها مدرسة لاهوتية، واستشهد في زمان الإمبراطور مكسيميانوس دازا. كانت له مكتبة كبيرة في قيصرية ظلت قائمة حتى دمَّرها العرب في القرن السابع الميلادي.

Cf. ODCC, 2nd edition, p. p. 1026.

وتعيِّد له الكنيسة الشرقية في ١٦ فبراير، والكنيسة الغربية في ١ يونيو من كل سنة.

ومن بين مؤلّفاته التّاريخيَّة أيضاً: ''**شهداء فلسطين**'' في زمن اضطهاد دقلديانوس ما بين سنة ٣٠٣- ٣١٠م. وقد دوَّن الأحداث كشاهد عيان.

وله أيضاً كتاب ''**حياة قسطنطين**''، وهو مليئ بالتَّقريظ والتَّملُّق، حاوياً بعض أحداث تاريخيَّة غير ذي قيمة.

وله كتب دفاعيَّة أخرى منها: ''**ضد هيروكليس** - Against Hierocles''، وهو حاكم وثني لمقاطعة بيثينيَّة.

فضلاً عن كتابات أخرى في شرح الأناجيل المقدَّسة، أهمها كتابان: الأوَّل يُسمى ''**هيئة الإنجيل**'' وهو في ١٥ كتاب يشرح فيه لماذا قبل المسيحيون التَّقليد اليهودي دون اليوناني، وفيه استعارات كثيرة لمؤلفين قدامي فُقدت كتاباتهم. والثَّاني يُسمى ''**بيان قوَّة الإنجيل**''، وهو في ٢٠ كتاباً، يثبت فيه المسيحيَّة من العهد القديم.

بالإضافة إلى مؤلَّفات أخرى.

- يوحنا مسكوس

كاتب ديني، عاصر بطاركة بيت المقدس زكريا وصفرونيوس، في أواخر القرن السَّادس الميلادي وأوائل السَّابع. أما يوحنا مسكوس فهو سوري المولد يوناني اللِّسان، زار مصر وطاف بها لبضع سنين قرب آخر القرن السَّادس الميلادي مع صديقه وتلميذه صفرونيوس، وقضيا مدَّة طويلة معاً في صعيد مصر. وما لبثا أن عادا إلى وطنهما في الشَّام حتى عادا مرَّة أخرى إلى مصر سنة ٦٥٥م، وذهبا إلى الإسكندريَّة وقضيا بها نحو ثماني سنوات. وكانا كلاهما صديقين ليوحنا الرَّحوم، البطريرك الملكاني في مصر آنئذ، إلاَّ أنه كان أقل منهما علماً، وقد هربا مثله من الإسكندريَّة

في وقت غزو الفُرس للبلاد. وسافرا إلى رومية وهناك أعاد يوحنا مسكوس قراءة كتابه ونقّحه التّنقيح الأخير. ولما وافاه أجله، أعطاه لتلميذه صفرونيوس لينشره.

وفي سنة ٦٢٠م عاد صفرونيوس إلى فلسطين، ونشر بعد حين جزءاً من كتاب أستاذه وهو الجزء الباقي إلى اليوم، واسمه "**مسارح الرُّوح**"، وبه شئ من الوصف الشّائق للحياة في الإسكندريَّة. والكتاب فيه فوضى علميَّة، واستطراد غير منظّم يجعله شهي المقرأ، ويخلع لذّة على المواضع التي تدعو فيه إلى الملل والسَّأم.

- يوحنا النقيوسي[٢]

أسقف قبطي لمدينة نقيوس وكانت نقيوس مدينة عظيمة من مدن مصر في الوجه البحري، وهي قرية "بشاتي". وكان لها اسمان أحدهما قبطي، والآخر يوناني، وكانت تقع على الفرع البلبيتي للنِّيل (كان فرعاً للنِّيل يقع ما بين فرعيه الحاليين). ولكنها ليست قرية "أبشادي" الحاليَّة لأنه ليس فيها ما يدل علي قدمها. وبعد أن يقدِّم العالم المدقّق ألفريد بتلر A. Butler بحثاً مستفيضاً عن اسم نقيوس وموقعها الآن، يخلص إلى القول أنها هي قرية "شبشير" الحاليَّة[٣].

كتب الأسقف يوحنا النقيوسي أواخر القرن السَّابع. وله كتاب "**تاريخ العالم**" ويسترعي النّظر فيه دقّة روايته وتحريه الدِّقة والحقيقة، وبرغم بعضِ الأخطاء في الكتاب إلاّ أنه يكشف من الحقائق شيئاً كثيراً كان مجهولاً، وهو يكشف عن تاريخ الدَّولة الرُّومانيَّة الشَّرقيَّة وتاريخ

٢- هو مؤرِّخ قبطي، ولقد وردت أخباره هنا لأهميَّة الكتاب الذي ألفه، والذي كان أحد المصادر الرَّئيسيَّة التي اعتمدنا عليها في الكتاب الذي بين يديك.

٣ـ د. ألفريد ج بتلر، فتح العرب لمصر، الجزء الأول، مرجع سابق، ص ٦

بطاركة الإسكندريَّة وتاريخ مصر عامة. وكان من غير شك يأخذ عمـــا سبقه من المؤلّفات التي لم يبق منها شئ حتى اسمها.

كتب المؤلّف جزءاً من كتابه باللُّغة القبطيَّة، والآخر باللُّغة اليونانيَّة. ويظهر أنه قد نُقل إلى العربيَّة في زمن متقدِّم جداً، وعلى أســـاس تلـــك النُّسخة العربيَّة وُجدت ترجمة إثيوبيَّة، وهي النُّسخة الوحيدة الباقية مـــن ديوان يوحنا النقيوسي.

وأخبار هذا الكتاب ذات قيمة عُظمى، إذا كان نصها واضحاً غـــير غامض، ولم يتطرَّق إليه الفساد. وقد عثرت البعثة البريطانيَّـــة إلى بـــلاد إثيوبيا على نسخة مخطوطة من كتاب يوحنا النقيوسي.

- **البلاذري** (٨٠٦- ٨٩٢م)

وله كتاب "**فتوح البلدان**" وهو كتاب في ذكر الحروب والغزوات مرتبة بحسب الأقطار والأقاليم. وهذا الكتاب إذا لم يكـــن أوَّل الكُتُـــب عهداً لمؤرِّخ إسلامي، وأغزرها مادة، فهو بغير شك حجة مـــن أعظـــم المراجع قيمة. واسم المؤلّف مشتق من "حب البلاذر" وهو مادة مخدِّرة، وكان موته ناشئاً عن تناوله جرعة زائدة منه. وقد طُبع الكتاب في باريس سنة ١٨٦٦م.

- **ابن عبد الحكم** (المتوفى بالفسطاط سنة ٨٧٠م)

ومؤلّفه موجود في نسخة وحيدة مخطوطة لم تُنشر بعد، محفوظـــة في المكتبة الأهليَّة بباريس. وقد نقل كثير من المؤرِّخين العرب كـــثيراً مـــن الأخبار عن ذلك المؤلّف.

- **ابن قتيبة** (٨٢٨- ٨٨٩م)

وله كتاب "**المعارف**" وهو قاموس تاريخي لتراجم حياة الأعلام. ويُظن أنه أقدم الكُتُب التَّاريخيَّة المحضة التي بقيت إلى الآن من مؤلَّفات العرب. وأسلوبه غير مفصل ولا مستفيض. وطُبع الكتاب في سنة ١٨٥٠م.

- **سعيد بن بطريق** (٨٧٦- ٩٦٠م)

مؤرِّخ مسيحي معروف باسم آخر أكثر شيوعاً وهو "أوتيكيوس" وُلد في الفسطاط، وكان عالماً ممتازاً في الطِّب والدِّين والتَّاريخ. وصار بطريرك الملكانيَّة سنة ٩٣٣م، واستمر عليها إلى وفاته. وينتهي ديوانه حتى سنة ٩٣٨م، وقد نسج به تاريخاً سائغ المقرأ، غير أنه لم يكن تاريخاً نقدياً. وقد حفظ أخباراً ذات شأن كبير. واسم كتابه "**التَّاريخ المجموع على التَّحقيق والتَّصديق**" وقد طُبع في بيروت سنة ١٩٠٩م. وله أيضاً كتاب "**نظم الجوهر**"، وقد طُبع في باريس.

- **الطَّبري** (٨٣٩- ٩٢٣م)

هو محمد بن جرير الطبري. وقد وُلد في طبرستان، واسمه مشتق منها. سافر إلى العراق والشَّام ومصر. واستقر في بغداد، واستقل بالتَّدريس والكتابة وأخباره في العادة دقيقة، ويعنى بها عناية كبرى، ويفصل فيها تفصيلاً وافياً مجلياً. وله كتاب "**تاريخ الأمم والملوك**" وهو في أربعة أجزاء، وطُبع في القاهرة سنة ١٩٧٩م. أما أوَّل طبعة له فكانت في باريس سنة ١٨٧١م.

– **المسعودي** (توفي سنة ٩٥٧م)

هو علي بن الحسين بن علي. وله كتاب ''**مروج الذّهب ومعادن الجوهر**'' وطُبع في بيروت سنة ١٩٨٣م. أما أوّل طبعة له فكانت في باريس سنة ١٨٦٣م.

– **الماوردي** (٩٧٥– ١٠٥٨م)

بلغ أعلى شأو في ميدان الفقه والقضاء والسِّياسة، وتميَّز بسعة علمه ودقّة حُكمه، كما كان ممتازاً باستقامته واستقلاله وعزَّة نفسه. وكتابه ''**الأحكام السُّلطانيَّة**'' هو مؤلّف نفيس فيه قوَّة في البيان، وعُمق في البحث. وطُبع الكتاب سنة ١٨٥٣م.

– **ابن الأثير** (١١٦٠– ١٢٣٢م)

من أهل ما بين النَّهرين، درس في الموصل وبغداد وقضى معظم حياته في الدَّرس والأدب، ولكنه في مرتبة دون مرتبة كبار المؤرِّخين. وكتابه هو ''**الدِّيوان الكامل**''وطُبع في لندن سنة ١٨٦٨، ١٨٧٤م.

– **ابن خلكان**

كان صديقاً لابن الأثير، وخلّف كتاباً في تراجم الأعيان، اسمه ''تراجم الأعيان''وهو في أربعة أجزاء، وطُبع في باريس سنة ١٨٤٢م.

– **عبد اللّطيف البغدادي**

وُلد في بغداد سنة ١١٦١م، وعاصر الحروب الصَّليبيَّة أيام السُّلطان صلاح الدِّين، مع أنه لم يكن من الجند. أقام مدَّة في مصر، اشتهر بالعلم

شهرة واسعة لما كان عليه من معرفة بالطِّب والفلسفة والتَّاريخ. أخباره قصيرة مختصرة، ويستطرد كثيراً في كتابته، وينتقل من أمر إلى آخر. وله كتاب "الإفادة والاعتبار بذكر الخطط والآثار" وهو في أخبار مصر، وطُبع في أكسفورد سنة ١٨٠٠م.

- **ياقوت** (١١٧٨- ١٢٢٨م)

كاتب شائق، وأكثر ما كتبه موثوق به. وُلد في البلاد الرُّومانية، ثم بيع رقيقاً في بغداد لتاجر، فكان يُبعث في التِّجارة إلى بلاد الخليج الفارسي، ثم ترك مولاه لخلاف نشب بينهما، وأخذ في تحصيل العلم، وكان يرتزق في أثناء ذلك من نسخ الكُتُب. ثم صالح مولاه قبل سنة ١٢٠٠م، وإذ توفي مولاه اشتغل ببيع الكُتُب والتأليف والسَّفر. زار بلاد الشَّام ومصر سنة ١٢١٣م، وإذ بلغ إلى "مرو" ألفى بها مكتبة مليئة بالكُتُب، وهناك بدأ كتابه "**معجم البلدان**" وانتهى منه سنة ١٢٢٤م، وهو كتاب ذو قيمة عظيمة في التَّاريخ والجغرافيا.

- **ابن العميد، أو ابن المكين**

وُلد سنة ١٢٠٥م، وألَّف كتاباً في **التَّاريخ**، وينتهي تاريخه إلى ما قبل عصره بنحو قرن. وقد كان مسيحياً مصرياً. ويجب أن يعد مؤلَّفه بين المؤلَّفات الصَّغيرة القيمة في نظر الباحث في تاريخ مصر.

- **أبو الفرج ابن العبري** (١٢٢٦- ١٢٨٦م)

أحد ملافنة الكنيسة السِّريانيَّة، وهو من أصل إسرائيلي، وقد وُلد في ملطية بأرمينيا. وله كتاب "**تاريخ الدُّول**" مكتوب باللُّغة العربيَّة، وهو مختصر لكتاب أكبر كتبه أبو الفرج نفسه باللُّغة السِّريانيَّة، وقد

طُبع كتابه سنة ١٦٦٣م.

– **القزويني** (توفي سنة ١٢٨٣م)

خلّف كتاباً في ''**آثار البلاد وأخبار العباد**'' وهو بمثابة دليل لوصف الآثار القديمة، وقد طُبع سنة ١٨٤٨م.

– **أبو الفداء** (١٢٧٣– ١٣٣١م)

وكتابه هو''**وصف البلدان**'' وهو سليل الأسرة التي أنجبت صلاح الدِّين الأيوبي. وصار في آخر عمره سلطاناً لحماة فوق ما كان عليه من سعة العلم والنبوغ في الأدب. وكتابه عظيم النَّفع في معرفة أسماء البلدان في العصرين القبطي والعربي. وهو في ثلاثة مجلّدات، وطُبع في باريس سنة ١٨٤٠م.

– **ابن خلدون** (١٣٣٢– ١٤٠٥م)

هو عبد الرَّحمن بن خلدون. وُلد في تونس، وانتقلت أسرته منذ زمن طويل إلى بلاد الأندلس، ثم تركت أشبيلية وأقامت في سبتة قبل ميلاده بنحو قرن. وقد حصَّل ابن خلدون العلم في تونس أولاً، ثم في تلمسان، ثم لحق بسلطان غرناطة. وتاريخ ابن خلدون بحالته التي بقى عليها إلى اليوم مختلط تحيط به ظلمة، إلاَّ أن به أجزاء ذات قيمة عظمى تأكّد صدقها النَّاصع. وكتابه يُسمى''**العبر وديوان المبتدأ والخبر**'' وهو في سبعة أجزاء، وطُبع في بولاق بمصر سنة ١٨٨٢م.

- **ابن دقماق** (توفي سنة ١٤٠٦م)

مصري واسع الاضطلاع والعلم اتساعاً يستلفت النَّظر، له كتاب "**وصف بلاد مصر**" وكثير من الحقائق التي حفظها ابن دقماق في كتابه لم يسبقه إلى ذكرها أحد، وهي شائقة من أروع ما كُتب، ولاسيَّما ما كان منها في وصف آثار الفسطاط والإسكندريَّة. وله أيضاً "**الانتصار بواسطة عقد الأمصار**" وطُبع في بولاق سنة ١٨٩٣م.

- **القلقشندي** (توفي سنة ١٤١٨م)

هو شهاب أحمد بن علي، وله كتاب "**صبح الأعشى في صناعة الإنشا**".

- **المقريزي** (١٣٦٥- ١٤٤١م)

هو تقي الدِّين أحمد بن علي. وُلد في القاهرة، وعاصر السُّلطان المملوكي برقوق، والسَّلاطين الذين أتوا بعده، حتى السُّلطان برسباي. تولى أرفع المناصب الحكوميَّة في مصر والشَّام، حيث عاش في الشَّام عشر سنوات، وفي الحجاز خمس سنوات، وعاد إلى مصر بعد غيبة خمسة عشر عاماً، وكان قد بلغ السِّتين من عمره.

كان شريفاً، عظيم الخُلُق، يناصر الحق، ولا يهادن فيه. كرَّس حياته في التأليف، فقد كان كاتباً مكثراً عظيم الإكثار وله كتب كثيرة مبدعة. وكتابه "**المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار**" في جزأين هو أثر نفيس من آثار العمل المتَّصل في جمع الأخبار. ويعد من أعظم المراجع وأكبرها شأناً، ولكن مع ذلك فإنه مع شدَّة غيرته على كتابته وعنائه في عمله لا نستطيع أن نصفه بالدِّقة والتَّحري، ولا بأنه استطاع أن يحسن

بناء ما وُجد دونه من الأخبار. وهو في كتابه يصف الأقباط في مصر وما حلّ بهم من اضطهاد منذ دخول العرب مصر وحتى القرن الخامس عشر، ويُعد كتابه من أهم المراجع في ذكر الكنائس والأديرة القائمة في زمانه. طُبع كتابه في مطبعة بولاق سنة ١٨٥٤م.

– **ابن حجر العسقلاني** (١٣٧٢– ١٤٤٨م)

وُلد في عسقلان، وتنقل كثيراً بين بلاد الشّام وبلاد العرب ومصر، واشتغل بالتِّجارة ثم بالشِّعر ثم بالأدب، ومات طاعناً في السِّن في مدينة القاهرة. وله كتب في التَّراجم، منها كتابه عن "**عمرو بن العاص**" وسواه من القادة في مدَّة الفتح العربي لمصر.

– **أبو المحاسن** (١٤٠٩– ١٤٦٩م)

كان أبوه مملوكاً للسُّلطان برقوق، وولاه على حلب ثم على دمشق. ولكن المؤرِّخ نفسه وُلد في القاهرة وتعلم بها، وكان المقريزي أحد من تلقى عنهم العلم. وقد جمع كتابه في "**تاريخ مصر**" على طريقة هي أشبه شئ بطريقة المقريزي، أي أنه كان يروي مختلف الرِّوايات عن الحدث الواحد بغير أن يعلق عليها أو ينقدها أو يرجِّح بعضها على بعض. وكتابه هو "**النُّجوم الزَّاهرة**" وهو جزءان، طُبع في سنة ١٨٥٥م، ثم مرَّة أخرى سنة ١٨٦١م.

– **السِّيوطي** (١٤٤٥– ١٥٠٥م)

هو جلال الدِّين عبد الرَّحمن السِّيوطي، وهو من أهل القاهرة مع أن أسرته هي فارسيَّة الأصل، وصلت أسيوط قبل ثلاثة قرون من مولده. وكان أبوه قاضياً في القاهرة. بدأ السيوطي يكتب منذ صغره، وكان

يفخر بأن مؤلّفاته معروفة في آسيا الصُّغرى والشَّام وبلاد العرب وشمال أفريقيا وبلاد إثيوبيا ذاتها. نال مكانة مرموقة في عصر السُّلطان قايتباي، لكن الأحوال انقلبت عليه في عصر السُّلطان طومان باي الذي لم يدم حكمه سوى مائة يوم. وقد عاصر السيوطي أيضاً السُّلطان قنسوة الغوري، لكنه كان قد اعتزل الحياة العامة حيث انتحى في جزيرة الرَّوضة ومات بها. وكتابه في التَّاريخ يدل على انحطاط حتى إذا قورن بكتب سلفه الأقربين، ولكن إيراده للأخبار كان له قيمة عظمى عندما يغفل الآخرون ذكرها.

وله كتاب "**حسن المحاضرة**" مبني في كثير من نواحيه على كتاب المقريزي، فهو ينقل عنه قطعاً بأكملها نقلاً لفظياً. وطُبع الكتاب في مصر سنة ١٨٨٢م. وله كتاب آخر هو "تاريخ الخلفاء" طُبع في كلكتا سنة ١٨٨١م.



المراجع

- إبداع (مجلة)، العدد الثاني، فبراير ١٩٩٤م.
- أحمد بهاء الدّين، فاروق ملكاً، القاهرة، ١٩٩٩م.
- إسطفانوس الثاني (الأنبا) بطريرك الإسكندريَّة وسائر الكرازة المرقسيَّة للأقباط الكاثوليك، الأنبا روفائيل طوخي (١٧٠٣-١٧٨٧) حياته ومؤلفاته، القاهرة، ١٩٨٧م.
- إغناطيوس ديك (الأب)، الشرق المسيحي، لبنان، ١٩٧٥م.
- ألفريد ج بتلر (الدكتور)، الكنائس القبطية القديمة في مصر، جزءان، ترجمة إبراهيم سلامة، القاهرة، ١٩٩٣.
- ألفريد ج بتلر (الدكتور)، فتح العرب لمصر، الجزء الأول، تعريب محمد فريد أبو حديد، القاهرة، ١٩٨٩م.
- أمير نصر، قراءة في حياة أبونا مينا البراموسي المتوحد، القاهرة ١٩٩٦م.
- باخوميوس (الأنبا) أسقف البحيرة والخمس مدن الغربيَّة، "الخمس مدن الغربية" في مجلّة الكرازة، ٢٥ مارس ١٩٩٤م.
- بطرس بطرس غالي (الدكتور)، طريق مصر إلى القدس، مركز الأهرام للترجمة والنشر، الطبعة الأولى، ١٩٧٧م.
- جان كومبي Jean Comby ، دليل إلى قراءة تاريخ الكنيسة، دار المشرق، بيروت، ١٩٩٤م.
- جان يويوت Jean Yoyotte ، مصر الفرعونيَّة، ترجمة سعد زهران، مجموعة الألف كتاب، القاهرة، سنة ١٩٦٦م.
- جمال بدوي، نظرات في تاريخ مصر، سلسلة تاريخ المصريين ٢٢، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٨م.
- جورج شحاته قنواتي (الأب الدكتور)، المسيحية والحضارة العربية، دار الثقافة، القاهرة، ١٩٩٢م.
- حسين فوزي، سندباد مصري، جولات في رحاب التاريخ، دار المعارف، القاهرة، ١٩٥٩م

- حلمي أحمد شلبي (الدكتور)، الموظفون في مصر في عصر محمد علي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٩م.
- خليل عبد الكريم، قريش من القبيلة إلى الدولة المركزية، القاهرة، ١٩٩٧م.
- دائرة المعارف الكتابية، الجزء الأول، دار الثقافة، القاهرة، ١٩٨٦م.
- دائرة المعارف الكتابية، الجزء السادس، دار الثقافة، القاهرة، ١٩٩٧م.
- سامح فوزي، هموم الأقباط، مركز ابن خلدون للدراسات الإنمائية، القاهرة ١٩٩٨م.
- ساويرس بن المقفع (الأنبا)، كتاب مصباح العقل، تقديم وتحقيق الأب سمير خليل اليسوعي، القاهرة ١٩٧٨م.
- ساويرس بن المقفع أسقف الأشمونين، تاريخ بطاركة الكنيسة المصرية المعروف بسير البيعة، مطبوعات جمعيَّة الآثار القبطية:
المجلد الثاني، الجزء الأول، قام على نشره يسى عبد المسيح، وأسولد برمستر، القاهرة ١٩٤٣م.
المجلد الثاني، الجزء الثالث، قام على نشره يسى عبد المسيح، وعزيز سوريال عطية، وأسولد برمستر، القاهرة ١٩٥٩م.
المجلد الثاني، الجزء الثاني، قام على نشره يسى عبد المسيح، وعزيز سوريال عطية، وأسولد برمستر، القاهرة ١٩٤٨م.
- سلام شافعي محمود (الدكتور)، أهل الذمة في مصر في العصر الفاطمي الأول، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٦٥.
- سمير يحيي الجمال (الدكتور)، تاريخ الطب والصيدلة المصرية في العصر الفرعوني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٤م.
- سمير يحيي الجمال (الدكتور)، تاريخ الطب والصيدلة المصرية في العصر اليوناني - الروماني، الهيئة المصرية الغامة للكتاب، القاهرة، سنة ١٩٩٧م.
- سناء المصري: هوامش الفتح العربي، حكايات الدخول، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٩٦.
- سيدة إسماعيل كاشف (الدكتورة)، مصر في عصر الإخشيديين، الهيئة المصرية الغامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٩م
- سيدة إسماعيل كاشف (الدكتورة)، مصر في فجر الإسلام، الهيئة المصرية الغامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٤.

- شمس الرياسة أبو البركات (القس)، المعروف بابن كبر، مصباح الظلمة في إيضاح الخدمة، تحقيق الأب سمير خليل اليسوعي، مكتبة الكاروز، القاهرة، ١٩٧١م.
- شنوده السِّرياني (القُمُّص)، (الأنبا يـؤانس أسـقف الغربيَّـة الأسـبق)، الاستشهاد في المسيحية، القاهرة، ١٩٦٩م.
- طه حسين (الدكتور)، مستقبل الثقافة في مصر، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٦م.
- عبد المنعم عبد الحليم (الدكتور)، حضارة مصر الفرعونية، الجـزء الأول، دار المعارف، ١٩٧٨م.
- علي السيِّد محمود (الدكتور)، الجواري في مجتمع القاهرة المملوكية، الهيئـة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٨م.
- فيوتو، وصف مصر، الكتاب الثامن، ترجمة زهير الشايب، القاهرة، ١٩٨١م.
- فيوتو، وصف مصر، الكتاب السابع، ترجمة زهير الشايب، القاهرة، ١٩٨٣م.
- لجنة التَّاريخ القبطي، خلاصة تاريخ المسيحيَّة في مصر، القاهرة ١٩٣٢م.
- لويس شيخو (الأب)، التراث العربي المسيحي، وزراء النصرانيَّة وكتابها في الإسلام، ١٩٨٧م.
- مجلَّة المسرَّة، العدد ٧٧٥ - ٧٨٠، تموز سنة ١٩٩٠م.
- مجلَّة صديق الكاهن، أعداد سبتمبر وديسمبر ١٩٧٢، مـارس ١٩٧٣، أكتوبر ١٩٧٩م.
- مجلَّة مدارس الأحد، العدد الثامن، السَّنة الثَّانية عشر، أكتوبر ١٩٥٩م.
- مجلَّة معهد الدراسات القبطية، القاهرة، ١٩٥٨م.
- محرم كمال، آثار حضارة الفراعنة في حياتنا الحاليـة، مهرجـان القـراءة للجميع، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٧م.
- محمد حسنين هيكل، خريف الغضب، مركز الأهرام للترجمـة والنشـر، الطبعة الأولى، ١٩٨٨.
- محمد شفيق غربال (الدكتور)، الموسوعة العربية الميسرة، القاهرة، ١٩٦٦م.
- محمد عفيفي (الدكتور)، الأقباط في مصر في العصر العثماني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٢م.
- محمد غيطاس (الدكتور)، حملة اليونسكو، وأضواء جديدة علـى تـاريخ النوبة، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٨٧.

- مراد كامل (الدكتور)، العصر القبطي في تاريخ الحضارة المصرية، ١٩٦٣م.
- مرقس سميكة باشا، ومساعدة يسى عبد المسيح أفندي، فهارس المخطوطات القبطيَّة والعربيَّة الموجودة بالمتحف القبطي والدار البطريركيَّة وأهم كنائس القاهرة والإسكندرية وأديرة القطر المصري، الجزء الأول، القاهرة ١٩٣٩م.
- مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام، الحالة الدينية في مصر، الطبعة الأولى، القاهرة ١٩٩٥م.
- مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام، الحالة الدينية في مصر، العدد الثاني، الطبعة الأولى، القاهرة ١٩٩٨م.
- ناريمان عبد الكريم (الدكتورة)، معاملة غير المسلمين في الدولة الإسلامية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٧م.
- نجيب محفوظ، وطني مصر، حوارات مع محمد سلماوي، الهيئة المصريَّة العامة للكتاب، ٢٠٠٠م.
- نخبة من العلماء، تاريخ الحضارة المصرية، العصر الفرعوني، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، القاهرة، بدون تاريخ.
- نعمات أحمد فؤاد (الدكتورة)، شخصية مصر، الهيئة المصرية العمة للكتاب، الطبعة الخامسة، القاهرة، ١٩٨٩م.
- هنري دالميس الدُّومينكي (الأب)، الطقوس الشَّرقيَّة، المعهد الكاثوليكي بالمعادي، القاهرة، ١٩٦٨م.
- وطنية الكنيسة القبطية وتاريخها، نيويورك، بدون مؤلف، بدون تاريخ.
- يؤانس (الأنبا)، (أسقف الغربية الراحل)، مذكرات في تاريخ الكنيسة القبطية بعد مجمع خلقيدونية.

- Briger A. Pearson & James E. Goehring, *The Roots of Egyptian Christianity*, U. S. A., 1986.
- Brightman, F.E., M. A., *Liturgies, Eastern and Western*, Vol. 1, *Eastern Liturgies*, Oxford, 1967.
- Brinyar Lia, *The Society of the moslem brothers in Egypt, The Rise of an Islamic mass movement* 1928 - 1942, London, 1998.
- *Bulletin de la Société d'Archéologie Copte (BSAC)*, t. V, 1939.

- Burmester, O.H.E., *The Egyptian or Coptic Church, A Detailed Description of her Liturgical Services and the Rites and Ceremonies Observed in the Administration of her Sacraments*, Publications de la Société d'Archéologie Copte. Textes et Documents, X, Le Caire, 1967.

- Butler, A.J., *The Ancient Coptic Churches of Egypt*, Oxford, , vol. I, 1884.

- Chébli, P., *Réfutation de Saaid Ibn_ Batriq (Eutychius)*, Le Livre des Conciles, in Patr. Orien., t. III, 1905.

- Davies, J.G., *A Dictionary of Liturgy and Worship*, London, 1984.

- Evetts, B., *History of the Patriarchs of the Coptic Church of Alexandria*, I, Saint Mark to Theonas (3oo), Paris, 1904

- Leroy, L., Sévére ibn al_ Mukaffa, *Histoire des conciles* (Second Livre), Patr. Orien., t. VI, 1900.

- Otto Menardus, *Christian Egypt Ancient And Modern*, The American University In Cairo Press, Cairo, 1977.

- P. C. Glop, un programme dans le computeur, 1992.

- Paul Sbath, R.p., *Manuscrits Arabes d'Auteurs Coptes*, dans B A S C, t. V, 1939.

- Robert Taft, S. J., *The Liturgy of the Hours in East and West*, U. S. A., 1986.

- Somers Clark, *Christian Antiquities in The Nile Valley*, Oxford, 1912.



الدُّرَّة الطَّقسيَّة للكنيسة القبطيَّة

بين الكنائس الشَّرقيَّة

للرَّاهب القس أثناسيوس المقاري

www. Athanase. net

• السِّلسِّلة الأولى: مصادر طقوس الكنيسة

الرَّقم	اسم الكتاب	تاريخ النَّشر
١/١	الدِّيداخي أي تعليم الرُّسل (طبعة ثانية)	يناير ٢٠٠٦م
١/٢	التَّقليد الرَّسولي (طبعة ثانية)	ديسمبر ٢٠٠٦م
١/٣	المراسيم الرسوليَّة – دراسة موجزة – نص الكتاب الثَّامن	أكتوبر ٢٠٠٤م
١/٦	فهرس كتابات آباء كنيسة الإسكندريَّة – الكتابات اليونانيَّة	يناير ٢٠٠٣م
١/٧	فهرس كتابات آباء كنيسة الإسكندريَّة – الكتابات القبطيَّة	يوليو ٢٠٠٦م
١/١٠	قوانين البابا أثناسيوس بطريرك الإسكندريَّة (طبعة ثانية)	ديسمبر ٢٠٠٦م
١/١١	قوانين هيبوليتس القبطيَّة	أكتوبر ٢٠٠٤م

• السِّلسِّلة الثانية: مقدِّمات في طقوس الكنيسة

الرَّقم	اسم الكتاب	تاريخ النشر
٢/١	الكنائس الشرقيَّة وأوطانها الجزء الأوَّل: رؤية عامة–كنيسة المشرق الآشوريَّة (طبعة ثانية)	أكتوبر ٢٠٠٦م
٢/٢	الكنائس الشرقيَّة وأوطانها – الجزء الثَّاني: كنيسة مصر	يناير ٢٠٠٧م
٢/٣	الكنائس الشرقيَّة وأوطانها الجزء الثَّالث: الكنائس الشَّرقيَّة القديمة (طبعة ثانية)	أكتوبر ٢٠٠٦م
٢/٤	الكنائس الشرقيَّة وأوطانها – الجزء الرَّابع: الكنائس البيزنطيَّة	يناير ٢٠٠٥م
٢/٥	الكنيسة، مبناها ومعناها	يناير ٢٠٠٤م
٢/٦	مُعجَم المصطَّلحات الكنسيَّة، الجزء الأوَّل (طبعة ثانية)	سبتمبر ٢٠٠٤م
٢/٧	مُعجَم المصطَّلحات الكنسيَّة، الجزء الثَّاني (طبعة ثانية)	سبتمبر ٢٠٠٥م
٢/٨	مُعجَم المصطَّلحات الكنسيَّة، الجزء الثَّالث	نوفمبر ٢٠٠٣م

• السِّلسِّلة الثالثة: طقوس أسرار وصلوات الكنيسة

الرَّقم	اسم الكتاب	تاريخ النشر
٣/١	معموديَّة الماء والرُّوح	يناير ٢٠٠٣م
٣/٢	سرّ الرُّوح القُدُس والميرون المقدَّس	مارس ٢٠٠٧
٣/٣	تسبحة نصف اللَّيل والسَّحَر	نوفمبر ٢٠٠٥م

الرقم	اسم الكتاب	تاريخ النشر
٣/٤	صلوات رفع البُخور في عشيَّة وباكر	يناير ٢٠٠٦م
٣/٥	القدّاس الإلهي سرّ ملكوت الله، الجزء الأوّل	لم يصدر بعد
٣/٦	القدّاس الإلهي سرّ ملكوت الله، الجزء الثّاني	لم يصدر بعد
٣/٧	الدّبلة والإكليل	مارس ٢٠٠٥م
٣/٨	الأجبية أي صلوات السّواعي	إبريل ٢٠٠٦م
٣/٩	سرّ التّوبة والاعتراف	لم يصدر بعد

- **السِّلسِّلة الرابعة: طقوس أصوام وأعياد الكنيسة**

الرقم	اسم الكتاب	تاريخ النشر
٤/١	الزّمن الطّقسي من عيد النّيروز إلى عيد الصّليب	لم يصدر بعد

